A GROUP OF RESEARCHERS





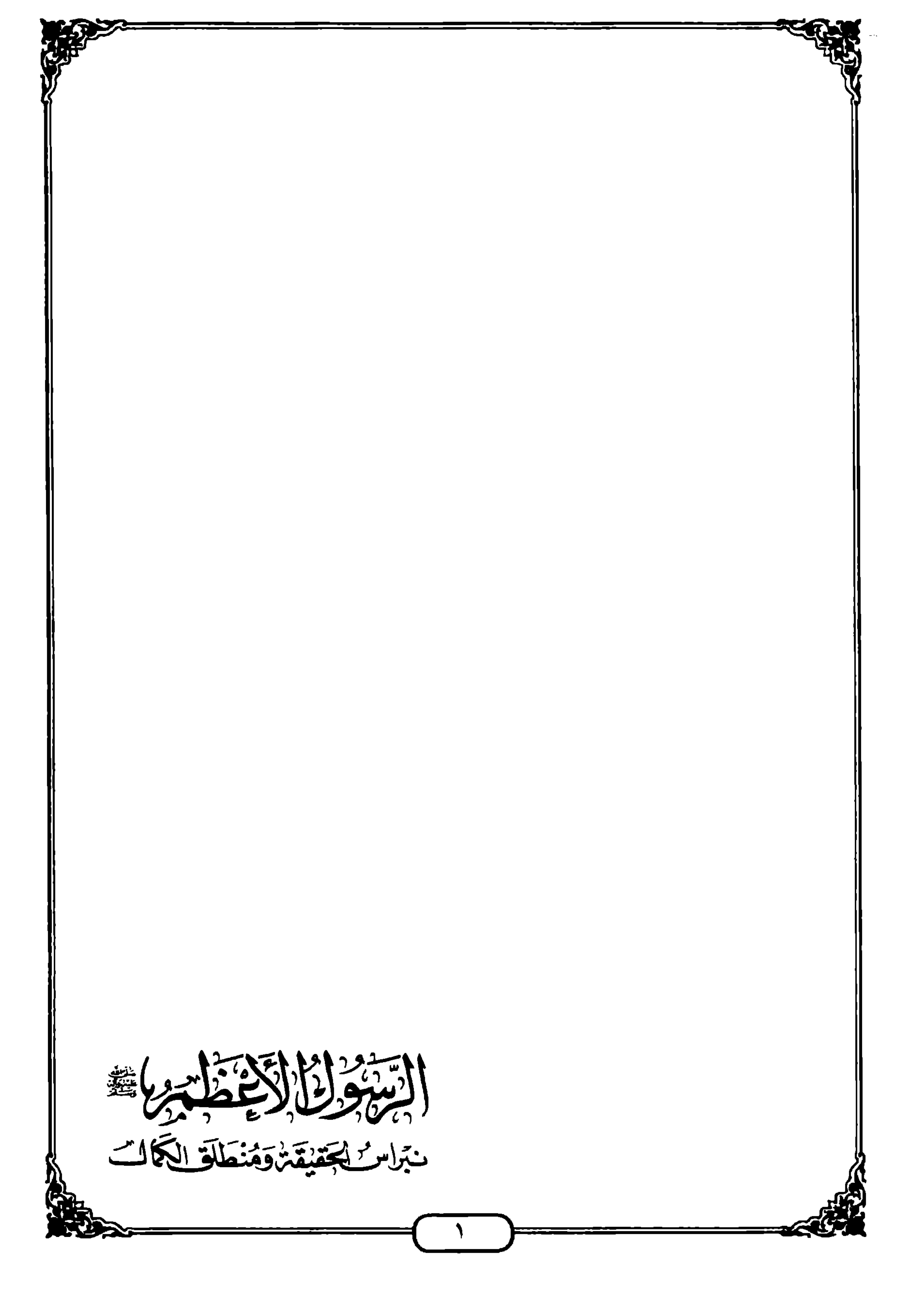
RESEARCHES

الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

نبراس الحقيقة ومنطلق الكمال

مجموعة من الباحثين




الرسول الأعظم ﷺ
نبراس الحقيقة ومنطلق الكمال



مجموعة من الباحثين





أبحاث مؤتمر الرسول الأعظم ﷺ

الذي أقامته مؤسسة شهيد المحراب مكتب البصرة ٢٠١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين

ففي رحاب ذكرى ولادة الرسول الاكرم ﷺ نجتمع لأن النبي محمد بما يحملُ من حقيقةٍ وصلةٍ ومحبّةٍ ورسالةٍ يجمعنا ويوحدنا، فهوالهادي والحبيب، وهوالوصل بالسماء والعدالة في الأرض فمولده هوالمُنعطَف الذي يؤرخ للبشرية سمات الانسانية والكمال والرفعة، تلك البشرية التي عمتها الفرقة والتمزّق لتهب لها تلك الولادة الشريفة الامل بالوحدة والوئام.

وبأقل مراجعة دقيقة ومنصفه للتاريخ، وبفهم وتحليل سليمين للواقع على اسس عقلية منطقية ناتجة من بعد عقلي عميق ومنطق انساني سليم، وباستنارة اشعاع ضوء الدين القويم والشرع المقدس وتلقي ما يريده ويطلبه وما يوصي به وما ينهى عنه والذي اضاء طريقنا بمعارف اساسية كلية يتفرع منها الكثير وهي من اين جئنا؟ الى اين سنذهب؟ اين نحن الان؟ كيف يجب أن نكون؟ ماذا ينبغي أن تعمل؟.

من هنا يتضح ويتبين لنا كثير من الامور نشير الى ما نحن بصدده، منها: بعد أن عرفنا أن هناك معادلات وسنن كونية مجتمعية وأخرى تكوينية طبيعية متغيرة وغير متغيرة قابلة للتحدي لفترة قصيرة وأخرى طويلة وأخرى غير قابلة للتحدي.

ومن هذه المعادلات هي أن العقول تتناسب طرديا مع الاهداف فكلما كانت العقول كبيرة ونيرة، فانها تهدف وتستهدف وتسعى لتحقيق اهداف كبيرة وسامية، وكذلك يظهر أن هذه للأهداف كلما كبرت تكبر التضحيات وتكون جسيمه من اجل الوصول الى تحقيقها، كما انه هناك مظلوميات يتعرض لها طلاب الحق والإصلاح واصحاب الاهداف النبيلة والسامية، وهذه المظلوميات بحجم الحق والحقيقة والنيل

التي يريد اظهارها من يتحرك من اجلها فتعرض الانبياء والائمة والمصلحون الى هذه المظلوميات وكانت بحجم ما يحملون من حقائق.

والمصداق الاجلى والأظهر والأبرز والأصدق لما ذكر اعلاه من معاني ومعادلات هوالرسول الاكرم ﷺ وامتداداته الشريفة والشخصيات المؤمنة الرسالية.

من هنا جاء المؤتمر الرسول الاعظم العلمي العالمي الثالث لمؤسسة شهيد المحراب في البصرة بمباركة وتوجيه الامانة العامة ومشاركة جامعة البصرة.

وهوليس الاول ولن يكون الاخير بل كانت هناك مؤتمرات في بعض المدن العراقية الاخرى كما هوفي ذي قار وميسان والديوانية وواسط وهكذا نشاطات وفعاليات اخرى ولكل حيث هووغاتيه وموضوعه وظروفه.

كان مؤتمر الرسول الاعظم العلمي العالمي الثالث في البصرة وتحت شعار الرسول الاعظم (نبراس الحقيقة ومنطلق الكمال) واهم ما يهدف اليه.

المساهمة في نهوض مستوى الارتفاء للكمال المطلوب للإنسان والمتمثل في مقدار رقيه العقلي وسموه الاخلاقي والتي تستقى وتنتهل من شخصية الرسول الاكرم ﷺ باليات مختلفة من خلال الفهم الافضل والوعي الاكمل والمعرفة الحقيقية لما يريد ه الرسول ﷺ وكيفية تجسيد ه عمليا بعد الشعارات والأقوال.

تحديد المواقف السليمة في السلوك العملي والتي تتاتي وتتحصل من الافكار والعقائد والروى الصحيحة التي تستوحيها وتحاكيها في شخصية النبي الاكرم.

تخليد الانبياء والائمة والقادة في ارواحنا وعقولنا ونفوسنا وفي المجتمع وهذه ثقافة واعية لتاصيل وتاصل الاصول والثوابت لتستمر ابدا في امتدادات المجتمع. والمجتمع الذي يخلد ويمجد رموزه افذاده مجتمع قادر على أن يعين معالم هدفه بوضوح ويرفع من ارادته ويرسم بناءا افضل لمستقبله ويحقق مصيره ويتحقق بواقعه.

مما نهتم بقوله أن مؤسسة شهيد المحراب بجميع منتسبيها تتقدم بوافر من الشكر والاحترام وجميل الثناء والتقدير لكل من اسهم وساهم في هذا المؤتمر، وباي حال اواسلوب حاضرا كان ام غائب من قريب اوبعيد، وكل حيث هو تتقدم بشكرها لأصحاب

البحوث الاعزاء سواء اللذين حضروا من خارج العراق اوداخله وناسف على من لم يوفق للحضور بسبب تقاطعات ادارية اواخرى فنية وأمنية، كما تتقدم بالاحترام والتقدير لجامعة البصرة للسيد رئيس الجامعة والعمداء والتدريسين والاساتذة والطلبة حيث كانوا شركاء للمؤسسة في مؤتمرها، ووقفوا اجمل موقف ازاء المؤتمر بلجانهم وبحوثهم وما هيئوا من مكان وغيره والجامعة بموقفها هذا ارادت أن تثبت أن منتسبيها المخلصين يمكن أن يكونوا هم من يحتاجه المجتمع لتفعيل نهجه السليم وأوامر قياداته الدينية بعد أن كان لديهم قدره من جمع الفكر مع الاخلاق والعقائد مع السلوك وكذلك اردوا اثبات أن الجامعي يمكن أن يكون حوزوي والحوزوي جامعي كما هناك تكامل وتكافل بين العلوم الانسانية والإسلامية والعلوم الاكاديمية التقنية ويكونوا في بوتقة واحده لتفعيل وتفجير طاقات المجتمع وتحقيق ما يسعى اليه من مطالب انسانية وثقافية ومجتمعية واقتصادية ومن ثم ايجاد افضل مستقبل.

والشكر الوافر لمحافظة البصرة المتمثلة بمحافظها وكوادرها على جهودهم في رفد واسناد المؤتمر ماديا ومعنويا.

وشكرنا وتقديرنا لشركة نفط الجنوب المعطاء وبالخصوص للسيد مدير الشركة ومعاونيه الاعزاء فضلاً عن منتسبي الشركة لحضورهم وفاعليتهم واخلاصهم ومساهمتهم في تهيئة الاجواء المناسبة للمؤتمر.

وقد قامت مؤسسة شهيد المحراب بطبع أبحاث وقائع مؤتمر الرسول الأعظم ﷺ، ليبقى اثراً ثابتاً يستفيد منه من يريد أن ينتفع منها، إسهاماً في التوعية والتعبئة اتجاه الثقافة السليمة.

ونعتذر شديد الاعتذار من اصحاب البحوث التي لم نوفق لطبعها حاليا، وذلك للقضية الفنية في شكل المطبوع وحجمه وكذلك ضوابط اللجنة العلمية التي كانت لها رؤى اجملت الامر كما هو بين ايديكم الكريمة.

وختاماً، نسأل المولى أن يوفق الجميع لما يحب ويرضى، والحمد الله على فضله الدائم...

السيد فرات الشرع

مدير مؤسسة شهيد المحراب/ البصرة

هدي الرسول الكريم ﷺ في حقل الجراحة

الأستاذ الدكتور ثامر أحمد حمدان

الأستاذ الدكتور ثامر أحمد حمدان

أستاذ جراحة العظام والكسور ورئيس جامعة البصرة

لقد كان فضل الإسلام على تطور العلوم كبيراً، نظراً لما احتوى القرآن الكريم من توجيهات ومبادئ عامة وضعت الإنسان على الطريق نحوبناء حضارة جديدة، كما فتحت أمامه جميع الأبواب نحوطلب المعرفة، باستخدام الحس والعقل والإبتعاد عن الأساطير والأوهام والخرافات، ويعود الفضل إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وسيرة الرسول الكريم في تحقيق هدفين من الأهداف التي تضع المعرفة الطبية في مكانها المناسب من المعرفة العلمية والفائدة العملية للناس جميعاً.

حين يذكر الإسلام يتبادر إلى الذهن مصادره، وفي طليعتها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، والقرآن المجيد ليس كتاباً في الطب أوفي أي فرع من العلوم الدنيوية، ولكنه منهج كامل ضرب الله عز وجل فيه للإنسان من كل الأمثال، وبين فيه ما يهمه من أمور عقيدته ويهمه لحفظ صحته، ولفت نظره إلى آيات الخالق العظيم وحثه على البحث والتأمل، فآيات القرآن الكريم معالم في طريق العلم، تمده وتضعه دائماً في مساره الصحيح، إذ جاء فيه قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وكذلك (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء).

وحين ننظر إلى الطب في السنة النبوية نلاحظ أنه قد بدأ من داخل الإنسان، من قلبه وضميره، ثم شمل بدنه، وانتقل إلى البيئة وأفراد المجتمع، واهتم بالجوانب العلاجية والوقائية والغذائية والترفيهية المباحة، والعلاقات الإجتماعية المتنوعة في إطار منهج متكامل لا يغفل جانباً من الجوانب، رابطاً بين الصحة والعبادة.

كان الرسول الكريم محمد ﷺ يأمر بالتداوي، كما جاء في مسند الإمام أحمد، وكان يبعث بالمرضى إلى طبيب العرب المشهور في ذلك الوقت، الحارث بن كلده، فضلاً عن أنه ﷺ كان يقوم بمعالجة بعض المرضى بنفسه أويصف لهم الدواء، ويوصي بسبل تعاطي الدواء، كأن يؤخذ مرة في كل يوم ولمدة ثلاثة أيام وسبعة ليال،

وأحياناً كان يلجأ إلى ما نسميه اليوم بـ (العلاج الطبيعي) فيعصب رأس المريض، في بعض الحالات، كما كان يوصي باستعمال الماء البارد، حين الإصابة بالحمى، وهوما يعرف في يومنا بـ (الكمّادات والمغاطس الباردة).

وتتجلى الحكمة النبوية في المجال الوقائي، فقد وضع رسول الله ﷺ الخطوط العريضة لما يطلق عليه في عصرنا بمصطلح (الوقاية) التي تعتبر خط الدفاع الأول ضد الأمراض المعدية وغير المعدية، فقد ورد في صحيح مسلم (رضي الله عنه) أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه الرسول ﷺ قائلاً: ارجع فقد بايعناك.

كذلك أولى الرسول الكريم عناية فائقة لسلامة البيئة، كما اهتم بالأمراض النفسية، وهوما يسمى في الإسلام بطب القلوب، ومن ذلك ما جاء في سنن ابن ماجد:

إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد عنه شيئاً. وكان الرسول ﷺ يدخل السرور على قلب المريض عند زيارته له.

واهتم الطب النبوي بالغذاء وأرشدنا إلى الخطوات الصحية التي يجب اتخاذها لحماية الغذاء من التلوث والتلف، بل إن النظرة الشاملة لهذا الطب امتدت إلى أمر الوراثة أيضاً. فقد روي عنه قوله ﷺ «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

وكان هدي الرسول المصطفى عظيماً في الحث على البحث العلمي في الميدان الطبي، حين قال «إن الله لم يخلق داء إلا وجعل له دواء». وهكذا فتح الباب أمام الباحثين والعلماء كي يطوّروا تجاربهم وابحاثهم حتى يصلوا إلى الدواء المنشود؛ كما أنه فتح باب الأمل والرجاء أمام المرضى؛ حيث يستقر في قلوبهم يقين بأن الدواء موجود، وأن الله سبحانه وتعالى قادر بأن ييسر لهم أسباب العثور عليه، وأن الأهتمام بالعلاج والتداوي واجب ديني. لا يتنافى مع الاتكال على الله العلي القدير. وهذا وأن الرسول الكريم حرم العلاج بالمحرمات، إذ قال ﷺ «فتداووا ولا تتداووا بالمحرم».

إضافة إلى ما تقدم، كان للرسول الجليل هدي عظيم في مجال الجراحة الحربية، تألف من شطرين: أولهما علاجي والثاني تنظيمي، فقد وضع أسس رصينة لتنظيم أمور مداواة الجرحى في الفتوحات الإسلامية، ففي الجانب العلاجي، ذكر الرسول المصطفى، إن كان في شيء من أدويتكم أويكون في شيء من أدويتكم شفاء، ففي شرطة محجم أوشربة عسل، أوكية بنار، وأنهى أمتي عن الكي. وروى الإمام البخاري

(رض) أن الرسول الكريم قال، العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، وكان النبي ﷺ يحجم ويوصي بالحجامة، وذكر عنه انه قال «خير ما تداويتم به الحجامة والفصد، ولا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله».

وفائدة الحجامة هي تخفيف الآلآم العضلية والعصبية، وتنفع في أنها تنقي سطح البدن أكثر من الفصد، والفصد لأعماق البدن أفضل، والحجامة تستخرج من نواحي الجلد، وجاء في سنن ابن ماجد عن علي أنه: (أنزل جبريل على النبي ﷺ بحجامة الأخدعين والكاحل) وفي سنن أبن داود من حديث جابر أن النبي ﷺ احتجم في وركه من ونيء كان به. وعن أنس بن مالك، قال سمعت رسول الله يقول دواء عرق النسا إلية شاه اعرابية، تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم تشرب على الريق في كل يوم جزء.

كما أن النبي ﷺ حمى صهيباً من التمر، وانكر عليه أكله وهوأرمد، وكذا حمى علياً من الرطب لما أصابه الرمد. وذكر أبونعيم في كتاب الطب النبوي أنه ﷺ كان إذا أرمدت عين امرأة من نسائه لم يأتها حتى تبرأ عينها، وقد روي في حديث مرفوع - الله أعلم به- أن علاج الرمد: «تقطير الماء البارد في العين، وهوأفضل الأدوية للرمد الحاد، نقل عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أجوى البطن، فقيل يا رسول الله: هل ينفع البط، قال الذي أنزل الداء، أنزل عليه الشفاء فيما يشاء.

وفي البط فائدتان، أحدهما إخراج المادة الرديئة المفسدة، والثانية منع اجتماع مادة اخرى إليها تقويها.

وجاء في الصحيحين عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دووي به جرح رسول الله ﷺ يوم أحد فقال، جرح وجهه وكسرت رباعيته. فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) يسكب عليها بالمحجن. فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم برماد الحصير المعمول من البردي الذي له فعل قوي في حبس الدم، لأن فيه تجفيفاً قوياً وقلة لذع، وهذا الرماد إذا نفخ وحده أومع الخل في أنف الراعف قطع رعافه.

ويؤيد ذلك ما قاله صاحب القانون من أن البردي ينفع من النزف ويمنعه، ويذرّ

على الجراحات الطرية.... وفضلاً عما تقدم كان المسلمون يلجأون إلى الاستشفاء بالصلاة عن عامة الأوجاع قبل استحكامها، فهي رياضة لكل المفاصل والعضلات في الجسم، فالصلاة-كما ذكر ابن القيم الجوزية: مجلبة للرزق حافظة للصحة، دافعة للأذى مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان مقربة للرحمن.

لقد عرف العرب الجراحة في صدر الإسلام، وبخاصة جراحة الحروب، وذلك لكثرة المنازعات والغزوات والحروب، ومن ثم الجرحى والقتلى، وروى عن أصحاب الرسول الكريم ﷺ أن الواحد منهم كان يصاب بأكثر من عشرين جرحاً ما بين طعنة رمح أوضربة سيف في المعركة الواحدة، ومع ذلك كان يشفى من كل هذه الجروح ويعود إلى القتال من جديد. وهنا لا بدّ من ذكر مقولة خالد بن الوليد الشهيرة: «لقد قاتلت في سبيل الله، وما في جسمي موضع شبر؛ إلا فيه ضربة من سيف أوطعنة من رمح، ومع ذلك فها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير». وأن شفاء جروحه دليل على وجود جراحة للحرب، وأن هناك تمريضاً بلغ درجة متقدمة، حتى أن الجريح كان يعود إلى ارض المعركة بعد مدة وجيزة. وكثيراً ما كانت تلتئم الجراح من غير تلوث أوتعفن أومضاعفات، ومن ذلك ما رواه ابن هشام، إذ قال: حدثني أهل العلم أن عبد الرحمن بن عوف أصيب في فمه في معركة بدر، وجرح عشرين جرحاً أوأكثر، إصابة بعضها في رجله فعرج، وقد شفا من جرحه كما هومعلوم، وهذا نموذج لعلاج مقاتل واحد يمكن أن يستدل به على المستوى الذي بلغته جراحة المسلمين حنيذاك.

مارس المسلمون، وبكثرة، جراحة قطع الأطراف ومعالجتها، بل وعرفوا الأطراف الصناعية تعويضاً لما فقدوا أطرافهم واعضاء اخرى في الحرب، وتروي في هذا المجال قصة عرفجة بن سعد الذي قطع انفه في الحرب، فصنع له الأطباء أنفاً نحاسياً، فكان يصدأ عليه فأشاروا عليه بصناعة أنف من ذهب ولكنه أبى ذلك، إلا أن يأذن له الرسول الكريم، لأن الإسلام يحرم على الرجل أن يتحلى بالذهب، وقد أذن له الرسول ﷺ بذلك، طالما أن فيه ضرورة طبية، وليس لمجرد التحلي والتباهي، فهي

الضرورة والضرورات تبيح المحضورات. وكذا إذن الرسول ﷺ بتركيب الأسنان، وخاصة أن الأضراس كثيراً ما تتساقط في الحرب.

ويبدوأنه كان هناك نوع من التخصص الطبي لدى بعض المسلمين في التعامل مع الجرحى، وإخراج السهام وحلقات الدروع من محلات انغراسها، ومع ذلك أنه حين أصيب الرسول المصطفى ﷺ في أُحد، نزع عقبه بن وهب بن كلدة الحلقتين من وجه الرسول.

كان الرسول العظيم حريصاً على سلامة أصحابه، وقد حدَّث ابن ابي سيرة، قائلاً: **جرحت يوم أحد جرحاً في عضدي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرفل ولم يعرج علي، ومضى عني وجعل الدم لا يرفأ، فقال رسول الله ﷺ اعصب جرحك، فجاءت امي عليّ، ومعها عصائب في حقوبها، وقد أعدتها للجراح، فربطت جُرحي، والنبي ﷺ واقف، ينظر، ثم قالت انهض يا بني فضارب القوم، وفي المعركة نفسها جرحت امي والرسول ينظر إلى الجرح في عنق أمي، فقال أمك أمك، إعصب جرحها، فلما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه دعا بفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى، ومعه أربع عشرة امرأة، كن مكلفات بعلاج الجرحى وحمل الماء، والطعام، فقال رسول الله ﷺ فمن كان مجروحاً فليقرّ في داره وليدأوجرحه، فباتوا يوقدون النيران ويداوون الجرح.**

كانت توجيهات الرسول المصطفى ﷺ تدل على اهتمامه ورعايته لعلاج الجرحى من أصحابه، فكان يأمر بتنظيف الجروح وغسلها بالماء الحار المغلي واشعال النيران وكي تلك الجراح، إذ إن كيها فائدة مضاعفة، فالكي يقطع النزف ويمنع الجروح من أن تتلوث بالجراثيم، وكان عليه ﷺ يقول «طهروا الأعضاء طهركم الله وخللوها بالماء - رواه الطبري- وكان يؤكد عليه أفضل الصلاة والسلام غسل الجراح وتطهيرها، وبفضل مبدأ الطهارة والنظافة، كانت جراح المسلمين تشفى بسرعة.

كانت إنجازات المسلمين في الجراحة والتخدير مذهلة بما أدخلوه من تجديد وابتكار، ويعتبر المسلمون أول من اكتشف التخدير الكامل في الجراحة، ويروى أنه قد ذهب وفد من الأطباء إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن الطب والإسلام، قد طلب بعضهم منه أن يأذن لهم باستعمال الخمر كمخدر قبل الجراحة. فنهاهم الرسول وقال

لهم (انها داء وليس دواء، وما جعل الله شفاء أمتي فيما حرمه عليها. ثم بدأ المسلمون البحث والتقصي عن دواء مخدر يغني عن الخمر، فكانوا أول من اكتشف النبات المسمىّ القناب العربي».

كان المسلمون يهتمون بنقل جرحاهم من ساحة المعركة.. ففي معركة بدر الكبرى تمت أول عملية إخلاء، ويمكن اعتبار الإمام علي (كرم الله مجهه) وحمزة (رض) أول حاملي نقالة في الإسلام، لأنهما تعاونا على نقل صاحبهما الجريح، ونقلاه سوية إلى صفوف المسلمين.

لم يكن آنذاك حد فاصل ووضوح كامل بين مهنة الطبيب والممرض، وبخاصة في زمن الحروب. إذ كانت الممرضة تكشف على الجريح وتقوم بالعمليات الجراحية. كالبتر وإخراج السهام وتجبير الكسور شأن الأطباء الآخرين، وفي الوقت نفسه تسهر على خدماتهم وتقديم الدواء والطعام بيديها لهم، فضلاً عن الإسعاف الفوري في ظروف الحرب، ونقل الجرحى ودفن الشهداء.

كانت رفيدة، وهي إمرأة من أسلم اتخذت من خيمة لها في مسجد الرسول ﷺ مقراً ومنتجعاً ومشفى للمسلمين، فكانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من به جرح منهم، وتعتبر هذه الخيمة أول خيمة طبية في الإسلام، أوأنها محطة تضميد متقدمة أومحطة إخلاء خسائر، وأنها نواة لوحدات الميدان والمستشفيات العسكرية الحالية.

وفي ذلك دليل على إهتمام المسلمين بجرحاهم وعلاجهم وعدم تركهم نهباً للإهمال والتلوث والتسمم والنزف.

وأقر الإسلام عمل النساء في تضميد الجراح وجبر العظام وإيقاف الدماء النازفة من جراح المقاتلين وغير ذلك من الإسعافات الأولية، وكان هذا سائداً وبدرجة محدودة قبل الإسلام، ولكنه حث عليه وطبقه عملياً في الغزوات والحروب. وكانت رفيدة تدرب النساء على فنون الإسعاف والتمريض، وتقسمهن إلى كراديس، أي إلى فرق، بعضهن للعمل في الميدان، وتحت سنابك الخيل، وفريق آخر للإسعاف في مركز قيادة الرسول ﷺ، وفريق ثالث في خيمة الميدان. وبهذا تكون رفيدة أول من أقام مستشفى ميدانياً متنقلاً تشرف عليه ممرضات مدربات في تأريخ الإنسانية. وكان

رسول الله ﷺ إذا ما جرح أحد أصحابه يقول: إنقلوه إلى خيمة رفيدة، لكي تسعفه ريثما أعوده.

ومن هذا يستدل على إهتمام النبي ﷺ بالجرحى، وأنه أول من أمر بالمستشفى الميداني. وعناية الإسلام بإسعاف رجال الحرب كانت قبل أن يعرف ذلك أبناء أوربا، ومثالاً وتقديراً لدور رفيدة البطولي في معارك الإسلام، وتكريماً لمهنة الطب والتمريض، فإن الرسول الكريم ﷺ قد كرمها، إذ ساوى الممرضة المؤمنة في الجهاد بالمجاهد الذي يقاتل بسيفه ورمحه في سبيل الله. وتقديراً لدور رفيدة الإنساني قال فيها الشاعر أحمد محرم:

رفيـدة علــمي النـاس الحنـانا	وزيـدي قومك العالـين شانا
خـذي الجرحى إليـك فأكرميهم	وطـوفـي حولـهـم آنــاً فآنـا

وصايا الرسول ﷺ بخلافة امير المؤمنين عليه السلام

من خلال كتاب السنن الكبرى للنسائي المتوفى ٣٠٣ هـ

الأستاذ الدكتور نزار عزيز حبيب

استاذ التاريخ الاسلامي والمنهج في جامعة البصرة

الأستاذ الدكتور نزار عزيز حبيب

استاذ التاريخ الاسلامي والمنهج في جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم التاريخ في الدراسات الاولية والعليا.

- اللقب العلمي استاذ.
- له عدد من المؤلفات والدراسات تجاوزت (٤٠) بحث ودراسة.
- شارك بعدد كبير من المؤتمرات الدولية والمحلية فضلا" عن الندوات.
- اشرف على العديد من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه.
- ترأس الكثير من لجان مناقشة الرسائل والاطاريح الجامعية فضلا" عن العضوية في جامعات العراق المختلفة.
- تولى العديد من المناصب الادارية منها رئيس لجنة التعليم في البصرة، وعضوية مجلس المحافظة ٢٠٠٥-٢٠٠٩، وعميد كلية التربية جامعة البصرة، ومدير مركز وثائق البصرة، ورئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات التاريخية وغير ذلك.
- تولى رئاسة تحرير مجلة ابحاث البصرة.

مقدمة

والحمد لله رب العالمين ثم الصلاة والسلام على البشير النذير محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

دراسة الجانب التاريخي والعقائدي من سيرة بطل الإسلام الإمام علي بن أبي طالب ﵇ تحتل مكانة بارزة في ثقافة المسلمين لأنها تساعد على فهم طبيعة الظروف التي عاش فيها الإمام علي ﵇ الى جانب النبي محمد ﷺ وتغذى من وحي الرسالة، فأعطى صورة مشرفة عن الإسلام عبّر من خلالها على الأصول النقية وأصالة أهل النبوة فكسبت شخصيته صفة الإقدام المطلق لدى المسلمين، فليس هناك أوثق ولا أوضح من كلام الإمام ﵇ ومنجزاته عبر شخصية امتثلت بأوامر الله عز وجل ونبيه المصطفى محمد ﷺ بتطبيق قوله تعالى: «ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»[1]وقوله عز من قائل: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[2].

أولاً: شخصية النسائي

نسبه:

أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي [3].

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) السمعاني، عبدالكريم بن محمّد بن منصور ت ٥٦٢ هـ: الأنساب ١٢ / ٧٧، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، بيروت ١٤٠٨ هـ. ابن خلكان، أحمد بن محمّد بن إبراهيم ت ٦٨١ هـ: وفيات الأعيان وأنباء الزمان ١ / ٧٧، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، د. ت. الذهبي: محمّد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت ١٤١٢ هـ ٢ / ١٢٥.

ينسب إلى مدينة نسا، وهي إحدى مدن خراسان، تقع على مقربة من مدينة إبيورد، حيث يفصلها مسير يوم واحد، وبينها وبين سرخس يومان، وإلى مروخمسة أيام وإلى نيسابور ستة أوسبعة أيام [1].

فتحت المدينة أيام عثمان بن عفان فأشار البلاذري إلى ذلك بقوله: «فلما استُخلف عثمان بن عفان ولى عبدالله بن عامر بن كريز البصرة سنة ثمان وعشرين. ويقال: سنة تسع وعشرين... فافتتح من أرض فارس ما افتتح. ثم غزا خراسان في سنة ثلاثين... ووجه ابن عامر عبدالله بن خازم السلمي إلى حمراتدز من نسا. وهورستاق ففتحه، وأتاه صاحب نسار فصالحه على ثلاثمائة ألف درهم. ويقال: على احتمال الأرض من الخراج على أن لا يقتل أحداً ولا يسبيه» [2].

ولادته:

ولد في مدينة نسا عام ٢١٥ هـ، وهي إحدى المراكز العلمية في الشرق الإسلامي، وطلب العلم وهوفي سن الخامسة، حيث خرج مع والده في أثناء عام ٢٣٠ هـ إلى قتيبة بن سعد محدّث خراسان وأقام عنده سنة وشهرين [3].

رحلته العلمية:

وبعد سماعه من مشايخ عصره في خراسان رحل إلى نيسابور وإلى الثغور الجزرية والثغور الشامية ورابط بها وجاهد ضد الروم البيزنطيين، وشارك في فداء الأسرى عام ٢٣٢ هـ.

ثمّ زار حلب والمصيصة، وزار بغداد والكوفة والبصرة، وثمّ رحل إلى قزوين واستقرّ في أواخر عمره في بلاد مصر [4].

---

(١) ياقوت الحموي، أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦ هـ: معجم البلدان، بيروت ١٣٩٩ هـ ٥ / ٨١ - ٨٢.

(٢) البلاذري، أبوالحسن أحمد بن علي بن جابر. فتوح البلدان، بيروت، ط ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م / ٢٤٠ - ٢٤١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ١ / ٧٧. الذهبي: تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٩٨. تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٧ / ٣٠١. السبكي: عبدالوهاب بن علي ت ٧٧١ هـ. الطبقات الشافية الكبرى، تحقيق: محمّد محمّد الغنامي وآخرون، بيروت، ٣ / ٧.

(٤) رحلته العلمية. ينظر: ابن الجوزي: المنتظم ١٣ / ١٥٥، الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٣ / ١٠٥.

مكانته العلمية:

يعدّ النسائي من كبار المحدثين وعلماً من أعلام عصره، أثنى عليه العلماء، فعلى سبيل المثال قال بحقه ابن عدي: «... أبوعبدالرحمن النسائي إماماً من أئمّة المسلمين»[1].

قال عنه ابن يونس ت ٣٤٧ هـ: «كان إماماً في الحديث، ثقة ثبتاً حافظاً»[2].

وقال عنه ياقوت الحموي عند وصفه لمدينة نسا: «خرج فيها جماعة من أعيان العلماء، منهم أبوعبدالرحمن النسائي القاضي الحافظ صاحب كتاب السنن، وكان إمام عصره في علم الحديث»[3].

مذهبه:

لم تشر المصادر التاريخية التي ترجمت للنسائي بنص صريح متفق عليه يدلّ على مذهبه، بل أشار بعضهم إلى تشيّعه كقول ابن خلكان: «فقد قيل: الرجل فيه تشيع»[4]. وأيده الذهبي بقوله: «إن فيه قليل من التشيّع وانحرف عن خصوم علي كمعاوية وعمرو»[5]. وقال ابن تيمية: «وتشيّع أهل العلم بالحديث كالنسائي و...»[6].

وربما أصحاب هذا الرأي استندوا إلى تصنيفه لكتاب فضائل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ دفعهم إلى رميه بالتشيّع.

فضلاً عن حادثة اغتياله بعد دخوله بلاد الشام ورغبتهم في تصنيف كتاب في فضائل معاوية، وكان رد النسائي: أن معاوية لا فضل له سوى إشباع بطنه، فكان سبباً لاغتياله[7] ويرى البعض أنّه على المذهب الشافعي، فأشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله: «... وكان

الصفدي: الوافي بالوفيات ٦ / ٢٥٦. ابن العديم: كمال الدين عمر بن محمّد (ت ٦٦٠ هـ). بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت ١٤٠٨ هـ ١ / ٤٤٧.

(١) عبدالله بن عدي الجرجاني ت ٣٦٥. الكامل، بيروت ١٤٠٧ هـ ١ / ١٣٧.

(٢) ابن يونس، أبوسعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري ت ٣٤٧. تاريخ ابن يونس المصري، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ ٢ / ٢٤.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥ / ٢٨٢.

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٧٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٤ / ١٣٣.

(٦) منهاج السنة النبوية، تحقيق: د. محمّد رشاد وسالم، ٧ / ٣٧٣.

(٧) المزي: تهذيب الكمال ١ / ٣٢٨. الذهبي: سير أعلام ١٤ / ١٢٣. الصفدي: الوافي ٦ / ٢٥٦.

شافعي المذهب، له مناسك الحج ألفها على المذهب الشافعي»[1]. وترجم له السبكي في طبقاته[2]، والأسنوي في طبقات الشافعية[3].

فضلاً عن علاقته مع شيخه الحارث بن مسكين[4] الذي كان على المذهب المالكي ورفضه حضور النسائي إلى مجلسه، بل كان يستتر في موضع لا يراه شيخه ويسمع منه[5].

ويستدلّ من ذلك أن النسائي على المذهب الشافعي، لاسيما وأن النسائي استقر في أواخر عمره في مصر، وفي المذهب الشافعي اعتراف بفضائل أئمّة أهل البيت، وما جاء من تأليف النسائي لمصنفه واعترافه بفضائل أمير المؤمنين ما هي إلا صحوة في أواخر أيامه بمكانة وعلم الإمام علي عليه السلام، وليس هوعلى المذهب الشيعي، لأنه لم يستقِ معلوماته من موارده من مصادر مواليه لآل البيت عليهم السلام، فضلاً عن معلوماته عن آل البيت عليهم السلام في سننه جاءت غير دقيقة وموثوقة في أغلبها.

مصنّفاته:

له العديد من المصنّفات منها:

١ - تسمية فقهاء الأمصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[6].

٢ - تسمية مشايخه[7].

٣ - تفسير القرآن[8].

٤ - فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام[9].

٥ - فضائل الصحابة[10].

---

(١) جامع الأُصول ٦ / ١٩٦.

(٢) الطبقات الشافعية الكبرى ١ / ٧٠٦.

(٣) الطبقات الشافعية الكبرى ٢ / ٢٦٧.

(٤) الحارث بن مسكين، الحافظ الفقيه على مذهب مالك ت ٢٥٠ هـ. ينظر ترجمته في شيوخه.

(٥) ابن الأثير: جامع الأصول ١ / ١٩٦.

(٦) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي.

(٧) المصدر السابق.

(٨) ابن الصباغ: الفصول المهمة في معرفة الأئمّة ١ / ٤٧.

(٩) طبع الكتاب بتحقيق محمّد الكاظم، محمّد إحياء الثقافة الإسلامية، ط ١، ١٤١٩ هـ.

(١٠) طبع في بيروت، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٦ - كتاب الجمعة [١].

٧ - الجرح والتعديل [٢].

٨ - الضعفاء والمتروكين [٣].

٩ - السنن الكبرى [٤].

شيوخه:

يعدّ النسائي من أشهر المحدّثين الذين طلبوا العلم منذ الصغر، فهوكما ذكرنا سابقاً رحل مع والده وعمره خمس سنوات إلى شيخ بلده قتيبة بن سعيد [٥] ليسمع منه، فضلاً عن سماعه عن مشايخ عصره في نسا وخراسان، فسمع من محمّد بن رافع بن زيد ت ٢٤٦ هـ [٦] وغيره.

ورحل بعد ذلك إلى مراكز فكرية مهمّة؛ رحل إلى العراق فسمع في بغداد من إبراهيم بن يونس بن محمّد البغدادي ت ٢٠٨ هـ [٧]، ومحمّد بن عبدالرحيم البغدادي صاعقة ت ٢٥٥ هـ [٨]، وعلي بن شعيب السمار ت ٢٥٣ هـ [٩]، وغيرهم، وسمع بالكوفة محمّد بن العلاء الهمداني الكوفي ت ٢٤٨ هـ [١٠]، وعلي بن المنذر ت

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢ / ١٤٥٢.

(٢) ابن حجر: لسان الميزان، بيروت ١٣٧١ هـ ١ / ٤٦٣.

(٣) سزكين: تاريخ التراث العربي ١ / ٣٣٠.

(٤) طبع الكتاب عدة طبعات.

(٥) قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي ت ٢٤٠ هـ ابن أيوب الباجي المالكي ت ٤٧٤ هـ. التعديل والتجريح، تحقيق: احمد بزاز، ط ٣، وزارة الأوقاف للشؤون المالية، مراكش، ٣/ ١٢١. الذهبي، تاريخ الإسلام ١٧ / ١٩٩ - ٣٠١. تهذيب الكمال ١٢ / ٢٩٥.

(٦) محمّد بن رافع بن زيد سابور الفشيري ت ٢٤٦ هـ ينظر: الباجي. التعديل والتجريح ٢ / ٦٨٧. ابن حبان، الثقات ٩ / ١٧. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣ / ١٤١ - ١٤٢.

(٧) إبراهيم بن يونس بن محمّد البغدادي ت ٢٠٨ هـ. ينظر: ابن حجر، تقريب التهذيب ١ / ٧٠. وتهذيب التهذيب ١ / ١٦١.

(٨) محمّد بن عبدالرحيم أبويحيى المعروف بالصاعقة ت ٢٥٥ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٨ / ٨. ابن حبان، الثقات ٩ / ١٣٢. ابن حجر، تقريب التهذيب ٢ / ١٠٦.

(٩) علي بن شعيب بن عدي بن همام، أبوالحسن السمار، البغدادي ت ٢٥٣ هـ. ينظر: ابن حبان، الثقات ٨ / ٣٧٥. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٢١ / ٤٣٤.

(١٠) محمّد بن العلاء أبوكريب الهمداني الكوفي ت ٢٤٨ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٨ / ٥٢.

٢٥٦ هـ[١]، وغيرهم. وسمع في البصرة من محمّد بن المثنى البصري ت ٢٥٢ هـ[٢]، ومحمّد بن بشار ت.... [٣]، وعباس بن عبدالعظيم العنبري ت... [٤].

ثمّ رحل إلى بلاد الشام وسمع فيها من هشام بن عمار بن نصر ت.... [٥]، وصفوان بن عمروالحمصي ابن عمروت ٢٥٥ هـ [٦].

ثمّ رحل إلى مصر واستقر بها، فسمع من يونس بن عبدالأعلى ت... [٧]، والحارث بن مسكين ت.... [٨]، وعيسى بن حماء زغبة ت ٢٤٩ هـ [٩]، وغيرهم من الشيوخ، فكان بهذه الرحلة الواسعة في طلب العلم ثمارها في تصنيفه لمصنّفات عدّة. ذكر فيها شيوخه الذين تتلمذ على يدهم، وكان لهم الفضل في إعداده ووصوله إلى مرحلة متقدمة في رواية علم الحديث.

تلاميذه:

يعدّ النسائي من الشيوخ المرحول إليهم، فقد اجتمع عنده من حفاظ علم الحديث

ابن حبان، الثقات ٩ / ٦٠٥. ابن حجر، تقريب التهذيب ٢ / ١٢١.

(١) علي بن المنذر بن زيد الأزدي المعروف بالطريقي ت ٢٥٦ هـ. ينظر: المزي، تهذيب الكمال ١٦ / ٧٢. ابن حجر، تقريب التهذيب ٢٣ / ١١٠. تهذيب التهذيب ٩ / ٣٩٥.

(٢) محمّد بن المثنى ابن عبيد بن قيس العنزي ت ٢٥٢ هـ. ينظر: ابن حبان، الثقات ٩ / ١١١. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٢ / ١٢٥. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٩ / ٣٧٨.

(٣) محمّد بن بشار أبوبكر بندار البصري ت ٢٥٢ هـ. ينظر: الذهبي، العبر ٢ / ٨. ابن حجر، مقدمة فتح الباري / ٤٣٦ - ٤٣٧. اليافعي، مرآة الجنان ٢ / ١١٧.

(٤) العباس بن عبدالعظيم بن توبة العنزي ت ٢٤٦ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٦ / ٢١٦. ابن حبان، الثقات ٨ / ٥١١.

(٥) هشام بن عمار بن نصر بن جسرة ت ٢٤٥ هـ. ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق ٤٣ / ٣٤٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٠ / ٤٢٠.

(٦) صفوان بن عمروالحمصي ت ٢٥٥ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٤ / ٤٢٢. ابن عساكر، تاريخ تاريخ دمشق ١٤ / ١٥٤.

(٧) يونس بن عبدالأعلى بن مسيرة ت ٢٦٤ هـ. ينظر: اليافعي، مرآة الجنان ٢ / ٦٣١.

(٨) الحارث بن مسكين بن محمّد بن يونس الأموي ت ٢٥٠ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٦ / ٢١٦. ابن حبان، الثقات ٨ / ٥١١.

(٩) عيسى بن حماد زغبة المصري ت ٢٤٩ هـ. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل ٦ / ٢٧٤. ابن حبان، الثقات ٨ / ٤٩٤.

الكثيرون، منهم من اجتمع معه في المدن الذي زارها واستقرّ أورابط فيها، فقد تتلمذ على يده الكثير منهم: إبراهيم بن صالح بن سنان المخزومي ت ٣٤٣ هـ [١]، وابن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد الإسفرائيني ت ٣١٦ هـ [٢]، وأحمد بن محمّد بن زياد ت ٣٤٠ هـ [٣]، وأحمد بن محمّد بن سلامة الطهماوي ت ٣٢١ هـ [٤]، والحسن بن خضر السيوطي ت ٣٦١ هـ [٥]، والحسن بن رشيق العسكري ت ٣٧٠ هـ [٦]، وحمزة بن محمّد بن علي الكناني ت ٣٥٧ هـ [٧]، وسليمان بن محمّد بن أيوب ت٣٦٠ هـ [٨]، ومحمّد بن أحمد بن محمّد ت ٣٤٣ هـ [٩]، ومحمّد بن عمروبن موسى ت ٣٢٢ هـ [١٠]، ومحمّد بن يعقوب بن يوسف ت ٣٤٤ هـ [١١] وعبدالله بن عدي ت.... [١٢]، ويوسف بن أحمد بن عمير بن يوسف ت،، [١٣].

وفاته:

استشهد النسائي عام ٣٠٣ هـ على يد أتباع معاوية في بلاد الشام، فقد أشار ابن

---

(١) عن تلامذته، ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق ٢٢ / ١٦٥. المزي، تهذيب الكمال ١ / ٢٤٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٢٧.

(٢) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان ٦ / ٣٩٧. المزي، تهذيب الكمال ١ / ٧٣٣. الذهبي، تاريخ الإسلام ٣ / ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٣) ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق ٥ / ٣٥٤. ابن الجوزي، المنتظم ١٤ / ٨٨. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥ / ٣٨٨.

(٤) ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤ / ٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٢ / ٢٢٧. والعبر ٢ / ١٩٢.

(٥) ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٦ / ٧٥. تاريخ الإسلام ٢٦ / ٢٨٠.

(٦) ينظر: الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق: علي محمّد البجاري، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١ / ٢٤٥.

(٧) ينظر: السمعاني، الأنساب ٥ / ٥٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٦ / ١٧٩. تاريخ الإسلام ١٦ / ١٦٠ - ١٦١.

(٨) ينظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق ٢٢ / ١٦٥. الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣ / ٩١٣.

(٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤ / ١٩٧ - ١٩٨. الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٥ / ٣١٢.

(١٠) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥ / ٢٣٦ - ٢٧٧. الصفدي، الوافيف بالوفيات ٤ / ٢٣.

(١١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١ / ٤٦٦ - ٤٦٧. تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٦٤ - ٨٦٥.

(١٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٤١، الصنعاني محمّد بن إسماعيل الكحلاني ت ١١٨٢.هـ، سبل الإسلام، تحقيق: عبدالعزيز الخولي، ط ٤، ١٩٧٣، مصر، ١ / ١٢٨.

(١٣) السمعاني، الأنساب ٢ / ١٢٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق ٥ / ١٠٩.

يونس بقوله: «خرج أبوعبدالرحمن من مصر سنة ٣٠٢ هـ إلى دمشق، وصنّف فيها كتاب الخصائص في فضل علي (عليه السلام) وأهل البيت وزاده فضائل الشيخين. وقيل له: ألا تخرج فضائل معاوية؟ فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل! وفي رواية أخرى: أي شيء أخرج حديث، اللهم لا تشبع بطنه»[1].

وربما استدعي إلى مسجد دمشق وضرب هناك ضرباً مبرحاً، وأساءت صحته ونقل إلى خارج دمشق إلى مكة فمات في الطريق، ونقل جثمانه إلى مكة ودفن بين الصفا والمروة. وفي رواية: دفن بالرملة بفلسطين[2].

ثانيا»: وصايا الرسول (صلى الله عليه وآله) ثانياً:

تضمنت وصايا الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) جانباً من سيرة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، يمكن إجمالها بما يأتي:

ثانياً: أحقية الإمام (عليه السلام) بالخلافة:

ورد عن النسائي الكثير من الأدلة التاريخية عبر الأحداث المروية عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أحقية الإمام بالخلافة واعتراف مدرسة الصحابة بذلك من خلال ما ورد في السنن، باعتبار النسائي أحد أعمدة هذه المدرسة التي خالفت مدرسة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في وصية الرسول (صلى الله عليه وآله) للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من بعده.

والإثبات من خلال المرويات على خلافة الإمام (عليه السلام) واختياره وإعداده وإعلان خلافته، فيمكن إجمالها بما يأتي:

١ - إسلامه (عليه السلام):

لا يختلف اثنان أن أمير المؤمنين (عليه السلام) منذ أن خلقه الله عز وجل كان مسلماً على ملة إبراهيم الخليل كأبيه وجده عبدالمطلب (رضي الله عنهما)[3]. وبذلك كان

---

(١) ابن يونس، تاريخ ابن يونس ٢ / ٢٤. وينظر: المزي، تهذيب الكمال ١ / ٣٢٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٤ / ١٢٣. الصفدي، الوافي ٦ / ٢٥٦.

(٢) عن استشهاده، ينظر: ابن يونس، تاريخ ابن يونس ٢ / ٢٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان ١ / ٧٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٢ / ١٣٣. الصفدي، الوافي بالوفيات ٦ / ٢٢٦.

(٣) ينظر: الشاكري، الحاج حسين، شيخ البطحاء أبوطالب (عليه السلام) (ستاره، قم) / جميع الصفحات، المحمداوي، عقيدة أبوطالب، جميع صفحات الكتاب.

النصر الأول إلى جانب السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ وتصديقه، وعملا كفريق واحد لإظهار الدين الإسلامي إلى أبناء العشيرة «الأقربين». وهذا ما يستدل من قول الرسول ﷺ: «إن الإسلام قام على مال خديجة وسيف علي[1]».

وبما أن النسائي يعد من مدرسة الصحابة، وكتابه السنن يعد من الصحاح الستة؛ فقد أشار إلى أسبقية الإمام عليه السلام للإسلام وصلاته وعبادته بعدة روايات عن زيد بن أرقم[2] قال: «أول من أسلم مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب[3]». وقال: «أول من صلى مع رسول الله ﷺ علي[4]». وأكد الإمام علي عليه السلام ذلك بقوله: «أنا أول من صلى مع رسول الله[5]».

وهذا ما أجمع عليه المؤمنون بقولهم: إن أول من اعتنق الإسلام واستجاب لرسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وبه نزلت الآية «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ[6]». ففسّرها ابن عباس قال: قال: «والسابقون الأولون نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، وهوسبق الناس كلهم بالإيمان، وصلى على القبلتين وبايع البيعتين:

---

(١) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ١/ ٢٢٠، الحائري، الشيخ محمد مهدي، ت ١٣٦٩ هـ، شجرة طوبى (منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف، العراق، ١٣٨٥ هـ) ٢/ ٢٣٣.

(٢) زيد بن الأرقم: الأنصاري من بني خزرج، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وعلي والحسن والحسين، وكان من السابقين، توفي سنة ستين أوثمان وستين للهجرة. ينظر: التفرشي، نقد الرجال، ٢/ ٢٨١، الأردبيلي، جامع الرواة وازاحة الاشتباهات عن الطرق والاسناد، مكتبة محمدي، د. ت، ١/ ٣٤٠، الخوئي، معجم رجال الحديث، ٨/ ٣٤٤.

(٣) السنن ٧/ ٤٠٧/ ٤٠٨، الأحاديث: ٨٣٣٤، ٨٣٣٥، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٤/ ٣٦٨، الترمذي، أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، ت ٢٧٩ هـ، سنن الترمذي (تحقيق عبدالوصي عبداللطيف، ط ٢، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م) ٥/ ٣٠٦، الحاكم النيسابوري، المستدرك ٣/ ١٣٦.

(٤) السنن ٧/ ٤٠٧/ ٤٠٨، الأحاديث: ٨٣٣٣، ٨٣٣٦، ٨٣٣٧، وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤/ ٣٦٨، الترمذي، سنن الترمذي، ٥/ ٣٠٥، البيهقي، السنن الكبرى، ٦/ ٢٠٦.

(٥) السنن ٧/ ٤٠٧، ٤٠٩، الأحاديث: ٨٣٣٢، ٨٣٣٨، ٨٣٣٩، وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١/ ١٤١.

(٦) الواقعة/ ١١.

بيعة بدر وبيعة الرضوان، وهاجر الهجرتين...[1]».

وعن ابن عباس أيضاً قال: «السابق ثلاثة: سبق يوشع بن ذي النون إلى موسى، وسبق صاحب [يس] إلى عيسى، وسبق علي بن أبي طالب إلى محمد عليه و(عليهم السلام)[2]».

فإن الإمام علياً (عليه السلام) أول من صدق وآمن وعبد وأسلم وصلى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) باتفاق المسلمين.

٢ - صحبة الإمام للرسول (صلى الله عليه وآله) وملازمته:

صحبة الإمام للرسول (صلى الله عليه وآله) الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله) لا تأتي من حيث القرابة فحسب، بل من جانب الإيمان بالله عزوجل، وبالإسلام ديناً للبشرية قبل أن يصدقه الآخرون، فالإمام (عليه السلام) تربى في حجر الرسول (صلى الله عليه وآله) من طفولته، فذكر أرباب السير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبوطالب (عليه السلام) ذا عيال كثير فقال الرسول (صلى الله عليه وآله) للعباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال فلنخفف من عياله... فأخذ الرسول (صلى الله عليه وآله) علياً وضمه إليه..[3] وأن النبي (صلى الله عليه وآله) تولى تسميته بعلي وتغذيته أياماً من ريقه المبارك بمص لسانه وهذا ما أكده الإمام علي (عليه السلام) بنفسه في إحدى المناسبات «وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقنيه[4]»، فلم يزل علي بن أبي طالب مع الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى بعثه نبياً، فاتبعه (عليه السلام) وأقرّ به وصدقه[5]. وروى عن زيد بن علي (عليه السلام) بقوله: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يمضغ اللحمة والتمرة حتى تلين، ويجعلها في فم علي (عليه السلام) وهوصغير في حجره[6].

---

(١) السيد الطباطبائي، تفسير الميزان، ٩/ ٣٨١. ينظر: الحويزي، عبدعلي بن جمعة العروسي، ت ١١١٢ هـ، تفسير نور الثقلين (تصحيح السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ط ٤، مؤسسة إسماعيليان، قم، ١٤١٢ هـ/ ١٣٧٠م) ٥/ ٢٠٨-٢١١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/ ٢٢٥.

(٣) ابن سيد الناس محمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى، ت ٧٣٤ هـ عيون الأُثر في فنون المغازي والسير (مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦م) ١/ ١٢٤.

(٤) نهج البلاغة (مطبعة النهضة، قم، إيران، ط ١، ١٤١٢ ه) ٢/ ١٩٧.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ٣٨/ ٣٣٨.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٣/ ٢٠٠.

وهكذا تربى الإمام (ع) في بيت رسول الله تحت كنفه ورعايته حتى بعثه الله نبياً فأقر به واتبعه وحماه عندما كلفه رسول الله (ص) بالدفاع عنه بالمبيت على فراشه حين اجتمع الملأ من قريش على قتله، فوهب أمير المؤمنين (ع) نفسه لله وشراها من الله في طاعته[1]، حتى نزلت الآية بحقه: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[2]»[3].

فالإمام علي (ع) كان حاضراً مع الرسول (ص) في كل أدوار الرسالة وملازماً له، وهذا ما أشار إليه النسائي عندما سأل عبدالرحمن قثم بن عباس[4]: من أين ورث علي رسول الله (ص) قال: «إنه كان أولنا به لحوقاً، وأشدنا له لزوماً[5]».

٣ - القرابة القريبة وحبّ الرسول (ص) للإمام علي (ع):

للإمام علي قرابة قريبة ارتضتها الإرادة الإلهية للإمام علي (ع) من النبي وعبر القرآن الكريم عن هذه القرابة بالكثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[6]».

---

(١) الشيخ، المفيد الارشاد، ١/ ٥١- ٥٢.

(٢) البقرة/ ٢٠٧.

(٣) الكراجكي، التعجب في أغلاط العامة في مسألة الإمامة (د. ت) / ١٢٣، الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ٢/ ٢٥٧، الراوندي، سعيد بن هبة الله ت ٥٧٣ ه، فقه القرآن (تحقيق السيد أحمد الحسيني، الناشر مكتبة آية الله المرعشي، ط ٢، ١٤٠٥ ه) ١/ ٢٦١، السيد الطباطبائي، تفسير الميزان، ٢ / ٩٩.

(٤) قثم بن عباس بن عبدالمطلب صحابي، أمره أميرالمؤمنين على مكة المكرمة وبقي على مكة إلى أن استشهد الإمام، شارك قثم في جيش سعيد بن عثمان بن عفان حتى قتل في سمرقند سنة ٥٦ هـ. ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب (تحقيق علي محمد البجاري، دار الجيل، بيروت، لبنان ط ١، ١٤١٢ ه) ٣/ ١٣٠٤، التفرشي، نقد الرجال، ٤/ ٥٢، ابن داود الحلي، رجال ابن داود/ ١٥٤، الشاهرودي، مستدركات علم رجال الحديث، ٦/ ١٧، السيد علي خان المدني الشيرازي الحسني ت ١١٢٠ هـ، الدرجات الرفيعة في صفات الشيعة/ ١٥١.

(٥) السنن ٧/ ٤٤٧، الأحاديث: ٨٤٣٩- ٨٤٤٠، ابن ابي شيبة، المصنف ٨/ ٣٤٨. وينظر: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٢٥، المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي ت ٩٧٠ هـ كنز العمال (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م) ١٣/ ١٤٣.

(٦) آل عمران / ٦١.

وأنفسنا وأنفسكم في الآية الكريمة أجمع عليها المفسّرون أن المراد بها نفس النبي هنا هوأمير المؤمنين عليه السلام[1]. وهذا ما أكده النسائي في كثير من الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله: علي كنفسي[2]وروى الشيخ الصدوق عن عبد الله عن أبيه عن آبائه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق الله آدم سلك ذلك النور في صلبه فلم يزل الله عزوجل ينقله من صلب إلى صلب حتى أقره في صلب عبدالمطلب، ثم أخرجه من صلب عبدالمطلب فقسمه قسمين، فصير قسماً في صلب عبدالله وقسماً في صلب أبي طالب، فعلي مني وأنا من علي...[3]».

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَأُولُواالأَرْحَام بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ[4]﴾وأولوالأرحام في الآية الكريمة دليل على مصداق القرابة القريبة بين الإمام علي عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله، فهوأقرب الأرحام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فقد كان أخاه في الدنيا والآخرة في أعلى مراتب الأخوة مقاماً. وفيها دلالة على أولوية آل البيت عليهم السلام بالإمامة والأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله[5].

وروي أن الإمام الحسين عليه السلام سأل جده المصطفى صلى الله عليه وآله عن تفسير الآية، فقال: «والله ما عنى بها غيركم، وأنتم أُولوالأرحام، فإذا مت فأبوك علي أولى بي...[6]».

---

(١) أبوحمزة الثمالي، ثابت بن دينار الثمالي، ت ١٤٨ هـ تفسير أبي حمرة الثمالي (ط ١، مطبعة الهادي، ١٤٢٠ هـ/ ١٣٧٨م) / ١٣٤، الطبرسي، جامع البيان، ٣ / ٤٠٧، السمرقندي، أبوالليث السمرقندي، ت ٣٨٣ هـ تفسير السمرقندي (تحقيق محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، د. ت) ١/ ٢٤٥.

(٢) السنن ٧/ ٤٣٤.

(٣) الخصال/ ٦٤٠.

(٤) الأحزاب/ ٦.

(٥) الكليني، الكافي، ١/ ٢٨٨، الصدوق، علل الشرائع، النجف، ١٣٨٥هـ ١ / ٢٠٧، ابن شهرآشوب، المناقب، ٢/ ١٧ - ٣١.

(٦) المجلسي، بحار الأنوار، ٣٦/ ٣٤٤، البحراني، السيد هاشم البحراني الموسوي التوبلي، ت ١١٠٧ هـ غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام (تحقيق السيد علي عاشور، د. ت) ١/ ١٩٥.

وهو القائل ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم أنت علي أولى بالمؤمنين[1]».

وقوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ[2]». فسّر المفسّرون آية أهل الذكر أنها تعني أهل بيت محمد وآل محمد: فاطمة وعلي والحسن والحسين[3]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: نحن أهل الذكر[4].

وقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[5]». ففي أغلب التفاسير أنها نزلت بحق آل بيت الرسول ﷺ، وعن أم سلمة قالت: نزلت الآية في بيتي فأرسل الرسول ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي[6].

وقال الرسول ﷺ: الناس من أشجار شتى، وأنا وأنت ياعلي من شجرة واحدة[7].

وفي حديث آخر قال: «خلقت ياعلي من شجرة خلقت منها[8]».

وخير ما عبر عن هذه القرابة القريبة الإمام علي عليه السلام في كثير من خطبه، منها على

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ٣٦/ ٣٤٥، الشاهرودي النمبازي، مستدرك، ١/ ٤٧٠.

(٢) النحل/ ٤٣.

(٣) العياشي، أبوالنظر محمد بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي ت ٣٢٠ هـ تفسير العياشي (تحقيق الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الناشر المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، إيران، د. ت) ٢/ ٢٦١، القمي، الحسن بن علي بن إبراهيم، ت ٣٢٩ هـ تفسير القمي (ط ٣، دار الكتاب، قم، إيران، ١٤٠٤ هـ) ١/ ٤.

(٤) فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم ت ٣٥٢ هـ تفسير فرات الكوفي (تحقيق محمد كاظم، مؤسسة النشر التابعة لوزارة الأوقاف والإرشاد الإسلامي، طهران، إيران، ط ١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م) / ٤٣٤.

(٥) الأحزاب / ٣٣.

(٦) فرات الكوفي، تفسير فرات الكوفي/ ٣٣٤، الحاكم الحسكاني، عبدالله بن عبدالله بن أحمد، ت ق ٥ هـ، شواهد التنزيل لفوائد التفضيل (تحقيق محمدباقر المعموري، مؤسسة الطبع التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، إيران، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠م) ٢/ ٨٧، الطوسي، الأمالي (دار الثقافة والنشر والتوزيع، قم، إيران، ط ١/ ١٤١٤ هـ) / ٣٦٨، السيوطي، الدر المنثور (دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت) ٥/ ١٩٨، المجلسي، بحار الأنوار، ٢٥/ ٢١٤، وحيد الخراساني، منهاج الصالحين (د. ت) ٢/ ٣٤٧.

(٧) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ٢/ ٦٨، الطوسي، الأمالي (تحقيق مؤسسة البعثة، ط ١، دار الثقافة، قم، ١٤١٤ هـ) / ٦١٠، السيوطي، الدر المنثور، ٤ / ٤٤.

(٨) الصدوق، عيون أخبار الرضا، ٢ / ٦٥.

سبيل المثال قوله: «... حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد ﷺ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعز الأرومات مغرساً من شجرة التي صدع منها أنبياءه وانتخب منها أمناءه، عترته خير العترة وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر...[1]».

والإمام علي عليه السلام أحد أفراد هذه الأسرة وعترته يعني أهل بيته وهم الإمام علي عليه السلام وفاطمة وابناؤهما الحسن والحسين والأئمة المعصومون من ذرية الحسين عليه السلام[2]».

والنبي ﷺ والإمام علي عليه السلام من شجرة واحدة أصل جذرها من النبي إبراهيم عليه السلام، وبذلك آباؤه وأمهاته هم آباء الرسول ﷺ وأمهاته[3]. وقال الرسول ﷺ: ياعلي أنت مني وأنا منك[4]. وقوله: لحمك من لحمي ودمك من دمي[5].

وعبر الإمام الرضا عليه السلام عن منزلة أمير المؤمنين من النبي ﷺ بقوله: «فهذه خصوصية لا يتقدمه فيها أحد، وفضل لا يلحقه فيه بشر ولا يسبقه إليه خلق، أن جعل نفس علي كنفسه[6]».

وأحاديث كثيرة سجلت لنا صحبة وملازمة الإمام عليه السلام للرسول ﷺ حتى آخر لحظات حياته، فكان آخر عهد به، حتى مات صلوات الله عليه في حجره وقام بتغسيله وتجهيزه والصلاة عليه ودفنه.

ووردت أحاديث عدة ذكرت مرتبة الإمام عليه السلام وقربه من الرسول ﷺ فعلى سبيل

---

(١) نهج البلاغة، ١ / ١٨٥.

(٢) الشيخ الصدوق، اكمال الدين وإتمام النعمة، قم، ١٤٠٥هـ / ٩٥، وينظر: العواد، انتصار عدنان عبدالواحد، النبي ﷺ في رؤية أمير المؤمنين (رسالة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣م) / ٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١/ ٣٠.

(٤) الخزاز القمي، أبوالقاسم علي بن محمد بن علي الخزاز القمي الرازي، ت ٤٠٠ هـ كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر (تحقيق السيد عبداللطيف الحسيني، الخيام، قم، ١٤٠١ هـ) / ١٥٨.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ٩٩/ ١٠٦، النقوي، خلاصة عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار، قم، ١٤٠٥هـ، ٤ / ١١٩، الأميني، الغدير، ٣/ ٢٣.

(٦) الصدوق، الأمالي، ط١، قم، ١٤١٧هـ، ٦١٨، عيون أخبار الرضا، ١/ ٢١٠، الطبري، محمد بن علي الطبري، ت ٥٢٥ هـ، بشارة المصطفى (تحقيق

المثال «سأل رجل ابن عمر[1] عن عثمان، قال: كان من الذين تولوا يوم التقى الجمعان، فتاب الله عليه، ثم أصاب ذنباً فقتلوه، وسأله عن علي فقال: لا تسأل عنه إلا لقرب منزلته من رسول الله ﷺ[2].

وهناك أحاديث كثيرة وردت في السنن نستدل من خلالها بإشارات صريحة معبرة عن لسان بعض الصحابة عن رسول الله ﷺ تبين درجة الصحبة واللزومة والقربة من الرسول ﷺ في مواقف وأحداث تاريخية كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر، عندما أمر الله الرسول الكريم أن يبشر بالدين الجديد، ونزول الآية الكريمة «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ [3]» دعا رسول الله ﷺ بني عبدالمطلب فصنع لهم مداً من الطعام، قال: حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو، كأنه لم يمس أويشرب، فقال: «يابني عبدالمطلب، إني بعثت إليكم بخاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون مني وصاحبي ووارثي؟ فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه وكنت أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس. حتى كان في الثالثة فضرب بيده على يدي، ثم قال: فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي[4].

وقال رجل لعبدالله بن عمر: ألا تحدثني عن علي وعثمان؟ قال: أما علي فهذا بيته من حب رسول الله ﷺ، ولا أحدثك عنه بغيره. وأما عثمان فإنه أذنب يوم أحد ذنباً عظيماً فعفا الله عنه، وأذنب فيكم صغيراً فقتلتموه[5]».

وجاء عن عائشة قالت: «... ما رأيت رجلاً أحب إلى رسول الله ﷺ منه [يعني

القيومي الأصفهاني، ط ١، مؤسسة نشر الإسلامي، ١٤٢٠ هـ) / ٣٥٢

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب العدوي صاحب رسول الله ﷺ، شهد الخندق وما بعدها، وشهد فتح مصر، وفتح فارس، توفي بمكة سنة ٧٣، وله ٨٤ سنة. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل، ٥ / ١٠٧، ابن حبان، الثقات، ٣/ ٢٩، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٧/ ١٩٧.

(٢) السنن ٧/ ٤٤٦، ٤٤٧، الأحاديث: ٨٤٣٦ - ٨٤٣٧.

(٣) الشعراء/ ٢١٤.

(٤) السنن ٧ / ٤٣١ - ٤٣٢، الأحاديث: ٨٣٩٧، ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ١٥٩.

(٥) السنن ٧ / ٤٤٦، الحديث: ٨٤٣٦.

علياً] ولا امرأة أحب إلى رسول الله من امرأته [فاطمة الزهراء][1]».

ويتجلى حب الرسول ﷺ للإمام علي ﷺ حيث خص الله عزوجل علياً بفاطمة وزواجهما وأنزل جبرائيل ﷺ وقال للرسول ﷺ: زوّج النور من النور[2].

ومن الأحداث التاريخية التي عبرت عن لصوق الإمام ﷺ بالرسول ﷺ غلق أبواب المسجد إلا باب علي ﷺ وهي إرادة إلهية؛ فقد جاء عن رسول الله ﷺ مخاطباً بعض المسلمين قال: «... بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فقد أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم: والله ما سددته ولا فتحته ولكني أُمرت بشيء فاتبعته[3]».

ومن النصوص التي ذكرها النسائي المعبرة عن حب الرسول ﷺ للإمام ﷺ وذكر منزلته وهودخوله على رسول الله ﷺ عند الصلاة، عن علي ﷺ: كنت أدخل على نبي الله فإذا كان يصلي سبح فدخلت وإن لم يكن يصلي أذن لي فدخلت[4].

وحديث الطير الذي أشار إليه النسائي في دعاء الرسول ﷺ قال: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير، فجاء أبوبكر فرده وجاء عمر فرده وجاء علي فأذن له[5]». وجاء اللطف الإلهي المعبر عن منزلة الإمام ﷺ في تبليغ سورة براءة لأهل مكة، بعد أن بعث رسول الله ﷺ أبا بكر وبعث علياً خلفه، فأخذها منه فقال: لا

---

(١) السنن ٧/ ٤٤٨، ٤٤٩، الأحاديث: ٨٤٤٣ - ٨٤٤٤، وينظر: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣ / ١٥٤، ٧/ ٣٩٠.

(٢) البرسي، الحافظ رجب البرسي، ت ٨١٣ ه، مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين ﷺ (تحقيق السيد علي عاشور، ط ١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م) / ٧٤١، آغا مجتبى العراقي، أهمية الحديث عند الشيعة (ط ١، ١٤٢١ هـ، مؤسسة النشر الإسلامي) / ١٠٤.

(٣) السنن ٧/ ٤٢٢ - ٤٢٣، ٤٣٤، الأحاديث: ٨٣٦٩ - ٨٣٧٤، وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤ / ٣٦٩، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٢٥، ابن حجر، فتح الباري، ٧/ ١٣.

(٤) السنن، ٧/ ٤٤٩-٤٥٠، الأحاديث: ٨٤٤٥- ٨٤٥٠، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ٧٧، البيهقي، السنن الكبرى، ٢/ ٢٤٧، أبويعلى الموصلي احمد بن علي بن المثنى التميمي، أبوعلي الموصلي ت ٣١٧ هـ، المسند أبويعلى (تحقيق حسين سليم الاسد، دار المامون للتراث دمشق، سوريا) ١/ ٤٤٥، كنز العمال، ٤/ ١٣٢.

(٥) السنن ٧/ ٤١٠، الحديث: ٨٣٤١، ينظر: الترمذي، سنن الترمذي، ٥/ ٣٠٠، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٣٠، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٢٦، المباركفوري، تحفة الأحوذي، ١٠/ ١٥٣.

يذهب بها رجل إلا رجل هومني وأنا منه[1].

وكما أن الإمام ﷺ كان أول الناس لصوقاً للرسول ﷺ فكان كذلك حتى في أواخر ساعات احتضار الرسول ﷺ يسارّه ويناجيه[2].

ومن الأدلة التاريخية على قرب الإمام ﷺ من الرسول ﷺ دون بقية أصحاب الرسول ﷺ ولايته على المدينة، لتوليه أمره المدينة أثناء غزوة تبوك[3] عام ٩ هـ، حيث خلف الرسول ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأخف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب ﷺ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهونازل بالجرف[4] فقال: يارسول الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني تستثقلني وتخفف مني، فقال رسول الله ﷺ: كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، ألا ترضى ياعلي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟ فرجع إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ إلى سفره[5]».

وحديث الرسول ﷺ للإمام علي ﷺ المعروف بحديث المنزلة، أشار إليه النسائي بطرق مختلفة منها على سبيل المثال عن سعد بن أبي وقاص[6] قال: «لما غزا رسول

---

(١) السنن ٧ / ٤٣٥ - ٤٣٦، الأحاديث: ٨٤٠٦- ٨٤٠٩، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١/ ٣٣١، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٣٣، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١١٩، العيني، عمدة القاري، / ٧٨.

(٢) السنن ٧/ ٤٦٥، الحديث: ٨٤٨٧، وينظر: أبويعلى، المسند، ١٢/ ٤٠٤، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٣/ ٣٩٤.

(٣) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل: تبوك بيت الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحوالنصف طريق الشام، توجه الرسول ﷺ لغزوها سنة ٩ هـ وهي آخر غزواته. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١٤.

(٤) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحوالشام. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١٢٨.

(٥) ابن هشام، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري، ت ٢١٨هـ، السيرة النبوية (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المدني، القاهره، مصر، ١٣٨ هـ/ ١٩٦٣م) ٤/ ٩٤٧، ابن كثير، السيرة النبوية (تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعر فة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧٦م) ٤ / ١٣.

(٦) سعد بن أبي وقاص: اسم أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، يكنى أبا إسحاق، مات سنة ٥٥ هـ. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣ / ١٣٧، ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/ ٦٠٦.

الله غزوة تبوك خلّف علياً على المدينة فقالوا فيه: ملّه وكره صحبته، فتبع علي ﷺ النبي ﷺ حتى لحقه بالطريق فقال: يارسول الله ﷺ: خلفتني بالمدينة مع الذراري والنساء، حتى قالوا ملّه وكره صحبته. فقال له النبي ﷺ: إنما خلفتك على أهلي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي(١)». وكرر النسائي الحديث بسند مختلف(٢).

وأشار النسائي إلى مشاركة الإمام علي ﷺ في الفتوحات والسرايا، ومنها غزوة بدر ٢ هـ، ونزول آية بحق الإمام ﷺ ذكرها النسائي في كتاب التفسير كما عن قيس بن عباد(٣) قال: «سمعت أبا ذر(٤) يقسم أن هذه الآية «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ»(٥)نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر حمزة وعلي والوليد وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد بن عتبة(٦)».

---

(١) السنن ٧/ ٣٠٧ – ٣٠٨، ٤٢٥، الأحاديث: ٨٠٨٢، ٨٠٨٣، ٨٠٨٤، ٨٠٨٥، ٨٠٨٦، ٨٠٨٧، و٨٣٧٥ – ٨٣٧٨، ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١/ ١٧٠، البخاري، صحيح البخاري، ٥/ ١٢٩، مسلم، صحيح مسلم، ٧/ ١٢٠، ابن ماجه، سنن ابن ماجة، ١/ ٤٥، الترمذي، سنن الترمذي، ٥/ ٣٠٤، النووي، ت ٦٧٦ هـ، شرح صحيح مسلم (دار الكتب العربية، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م) ١/ ١٩٥.

(٢) السنن ٧ / ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، الأحاديث: ٨٣٧٩، ٨٣٨٠، ٨٣٨١، ٨٣٨٢، ٨٣٨٣، ٨٣٨٤، ٨٣٨٥، ٨٣٨٦، ٨٣٨٧، ٨٣٨٨، ٨٣٨٩، ٨٣٩٠، ٨٣٩١، ٨٣٩٢، ٨٣٩٣، ٨٣٩٤، ٨٣٩٥.

(٣) قيس بن عباد القسي الضبي، أبوعبدالله البصري، قدم المدينة في خلافة عمر وأدرك أُبي بن كعب وعلي بن أبي طالب، مات بعد الثمانين، قتله الحجاج مع من أخرج مع الأشعث. ينظر: الرازي، الجرح والتعديل، ٧/ ١٠١، المزي، تهذيب الكمال، ٢٤/ ٦٤، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٨/ ٣٥٧، تقريب التهذيب، ٢ / ٣٤.

(٤) أبوذر: جندب بن جنادة ابن سفيان بن ربيعة بن حرام بن غفار، قيل: أسلم خامس خمسة وكان من أكابر العلماء والزهاد والفقهاء، مات في الربذة في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٢ هـ. ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١ / ٢٥٢، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ١/ ١٧، سير أعلام النبلاء، ٢/ ٤٦، الطوسي، رجال الطوسي/ ٥٩، السيد علي خان المدني، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة / ٢٢٥.

(٥) الحج / ١٩.

(٦) السنن ٧/ ٣١٢، الحديث: ٨٠٩٨، ٨/ ٣٩- ٤٠، ١٠/ ١٩٠، الأحاديث: ٨٠٩٨، ٨٥٩٥،

أنه ﷺ أول من بارز وشهر سيفه بوجه الكفر وقتل صناديدهم وأبطالهم، وتكللت المعركة بالنصر يوم خيبر[1] عام ٧ هـ، دليل آخر على منزلة الإمام ﷺ وقربه من الرسول ﷺ، فعن سهل بن سعد[2] أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر لأُعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجوأن يعطى، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يارسول الله يشتكي عينه. قال: فأرسلوا إليه. فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينه ودعا له فبرأ كأنه لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يارسول الله أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حُمر النعم[3]».

وعلى يد الإمام علي ﷺ فتح حصن خيبر وقتل زعيمهم مرحب اليهودي، وذكر النسائي حديث الراية بطرق مختلفة الأسناد[4]، فيه أشار إلى حصار خيبر وكيف أخذ اللواء أولاً أبوبكر ولم يفتح له وأخذه عمر ولم يفتح له وأصاب الناس شدة وجهد فقال الرسول ﷺ: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، لا

٨٥٩٦، ١١٢٧٨. ينظر: البخاري، صحيح البخاري، ٥/ ٦، مسلم صحيح مسلم، ٨/ ٢٤٦، ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ٢/ ٩٤٦، العيني، عمدة القاري، ١٧/ ٨٧.

(١) خيبر: هي ناحية على ثمان برد من المدينة لمن يردي الشام، وهي تشمل سبع حصون ومزرع ونخل كثير، غزاها النبي ﷺ سنة ٧ هـ. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٤٠٩.

(٢) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارث بن عمروالخزرجي الساعدي الأنصاري، من الصحابة، توفي سنة ٨٨ أو٩١ هـ، وقيل: هوآخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ. ينظر: البخاري، التاريخ الكبير، ٢/ ٩٧، ابن عبدالبر، الاستيعاب، ٢/ ٦٦١، التبريزي، أبوعبدالله محمد بن عبدالله الخصب، ت ٧٤١ هـ، الإكمال في أسماء الرجال (تعليق أبي أسدالله بن الحافظ محمد عبدالله الأنصاري، مؤسسة أهل البيت ﷺ، د. ت) / ٢٨٧، التفرشي، نقد الرجال، ٢/ ٣٨٥.

(٣) السنن ٧ / ٣١٠ - ٣١١، ٤١٣، الأحاديث: ٨٠٩٣، ٨٣٤٨.

(٤) السنن ٢ / ٣١١ / ٤١١ - ٤١٥، الأحاديث: ٨٠٩٤-٨٠٩٥، ٨٣٤٤- ٨٣٤٥، ٨٣٤٧-٨٣٥٣. وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٥/ ٣٣٣،، صحيح البخاري، ٤/ ١٢، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ٧/ ١٢٢، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ٣٨، البيهقي، السنن الكبرى، ٩/ ١٣١، أبويعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ١٣/ ٥٣١، ابن حجر، فتح الباري، ٧ / ٦٦٥.

يرجع حتى يفتح له...»[1].

وساهم الإمام علي بن أبي طالب في إسلام أهل اليمن بعد أن أرسل إليهم خالد بن الوليد ولم يحسن السيرة معهم فأرسل الإمام علياً ﷺ وكان قدومه مباركاً على أهل اليمن، حيث أسلمت همدان جميعاً وقبائل أخرى في يوم واحد[2]. إلا أن النسائي لم يشر إلى ذلك بل ذكر أن رسول الله ﷺ بعث علياً ﷺ إلى اليمن قاضياً فقال: إنك تبعثني إلى قوم أسن مني فكيف القضاء فيهم[3]، وفي موضع آخر عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن لأقضي بينهم فقلت: يارسول الله لا علم لي بالقضاء[4]. وجاء مضمون ذلك في أحاديث متعددة، مضافاً إليه قول الرسول ﷺ إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك[5].

إن إرسال الإمام ﷺ إلى اليمن بعد العام الثامن للهجرة وعمر الإمام ﷺ قد قارب ثلاثة عقود وهو أخ لرسول الله ﷺ وعنده علم الرسول ﷺ وليس هناك من هو أفضل منه، ودليل ذلك أن أهل اليمن أسلموا في يوم واحد حال وصول الإمام إليهم، وذكر النسائي عبر رواته روايات أرادوا بها التقليل من دور الإمام علي ﷺ، منها جاء قول «لا علم لي بالقضاء»، «إن الله يهدي قلبك ويثبت لسانك».

وهذا إن كان المراد به التقليل من منزلة الإمام ﷺ فهو مخالف للحقيقة، لأن الإمام ﷺ منذ ولادته عرف الحق وعمل به وزرعه داخل المجتمع وبغض الباطل، وأن الله عز وجل ثبت قلبه ولسانه على قول الحق ومناصرته وبه

---

(1) السنن ٧/ ٤١٢، الحديث: ٨٣٤٦، وعن فتح خيبر ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/ ٢٩٨- ٣٠٣، الذهبي، تاريخ الإسلام، ٢/ ٤٠٣- ٤٠٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٢٠٦.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/ ٣٩٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٠٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ٥/ ١٢، ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، ت ٨٠٨ هـ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت) ٢/ ٥٥.

(3) السنن ٧ / ٤٢٠ – ٤٢١، الحديث: ٨٣٦٣.

(4) السنن ٧ / ٤٢١، الحديث: ٨٣٦٥.

(5) السنن ٧ / ٤٢١ – ٤٢٢، الأحاديث: ٨٣٦٤، ٨٣٦٦ – ٨٣٦٨، وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ١ / ١٥٦، أبوداود، سنن أبي داود، ٢ / ١٦٠، البيهقي، السنن الكبرى، ١٠ / ١٤٠، أبويعلى، مسند أبي يعلى، ١ / ٣٢٤.

قـال الرسـول ﷺ: «أقضاكم علي[1]». وقال: علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار[2]. وربما دعاء الرسول ﷺ ليزيد الله من ثبات قلبه ولسانه، وهودعاء يزيد من مكانة الإمام ودوره، ولاسيما أن خصوم الإمام عليه السلام اتهموه بأمور غير حسنة، منها علاقته بجارية وتشكيكهم في بعض الأمور التي أقضى بها الإمام علي عليه السلام، وهذه القصة كان المراد بها خالد بن الوليد الذي بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن وفشل في إخضاعهم للإسلام، فدبر مؤامرة الجارية مع بريدة[3] ليقلل من شخص ومنزلة الإمام عليه السلام عند الرسول ﷺ بعد أن اتفقوا مع أربعة أشخاص[4] على رأي واحد وقابلوا الرسول ﷺ، فكان رد الرسول ﷺ كصاعقة على خالد وأتباعه بقوله: «ما تريدون من علي؟! إن علياً مني وأنا منه وهوولي كل مؤمن من بعدي[5]». وفي نص آخر قال الرسول ﷺ: لا تقعن يابريدة في علي، فإن علياً مني وأنا منه وهووليكم بعدي[6].

وهذه إشارة صريحة لقرب الإمام عليه السلام من الرسول ﷺ وتصريح صريح بولايته للمؤمنين قبل بيعة الغدير.

٤ – تعليم الرسول ﷺ الإمام عليه السلام العلم الإلهي:

---

(١) الكليني، الكافي، ٧/ ٤٠٨، الشيخ المفيد، المسائل الصاغانية (تحقيق محمد القاضي، ط ١، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤١٤ ه/ ١٩٩٣ م) / ١٠٩، ابن شهر آشوب، المناقب، ١ / ٣١٢، الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢/ ١٧٩.

(٢) الكوفي، محمد بن سليمان ت ٣٠٠ هـ مناقب الإمام أمير المؤمنين (تحقيق الشيخ محمدباقر المحمودي، النهضة، قم المقدسة، ط ١، ١٤١٢ هـ) ١/ ٤٢٢، القاضي نعمان المغربي، أبوحنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، ت ٣٦٣ هـ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار (تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ط ٢، ١٤١٤ هـ) ٢/ ٦٠، الخزاز القمي، كفاية الأثر/ ٢١، الشيخ المفيد، المسائل الصاغانية/ ١٠٩، الشريف المرتضى، الفصول المختارة (تحقيق السيد نورالدين جعفريان الأصبهاني، ط ٢، دار المفيد للطباعة، بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م) / ٩٧.

(٣) بريدة بن الحصيب بن عبدالله بن الحارث من فزاعة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٤/ ٢٤٢، البخاري، التاريخ الكبير، / ١٤١.

(٤) لم أعثر على ذكر نسبهم.

(٥) السنن ٧ / ٤٤٠، الحديث: ٨٤٢٠.

(٦) السنن ٧/ ٤٤٠- ٤٤١، وينظر: أبوداود الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري ت ٥٠٤ هـ، مسند أبي داود الطيالسي (دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت) / ١١١.

علّم الرسول ﷺ الإمام عليه السلام كل أسراره وعلمه الإلهي خلال صحبته وقربه، فقد ضمّه إليه وهوطفل، وبقي في كنفه بعد النبوة إلى أن لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، حيث اتخذه أميناً لسره، وكان كاتبه وشريكه في نسبه وزوج ابنته، واصطفاه لعلمه، حيث قال: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه[1]، وهذا يبين أن كل علم الرسول ﷺ كان للإمام علي عليه السلام والأحاديث كثيرة وأقوال الصحابة والتابعين التي تبين غزارة علم الإمام علي عليه السلام[2].

إنّ الرسول ﷺ كان يريد بالإمام علي عليه السلام كل الرفعة والمنزلة لإعداده وتأهيله للخلافة، لذا علمه كل علومه، ومن بين ما علّمه الأدعية كما أشار إلى ذلك النسائي قول الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام: «ألا أُعلمك كلمات إذا قلتهن غفر لك مع أنه مغفور لك: لا إله إلا هوالحليم الكريم لا إله إلا هوالعليم العظيم، سبحان الله رب السماوات السبع ورب العرش الكريم، الحمد لله رب العالمين[3]».

إنّ تأكيد الرسول ﷺ لتعليم الإمام علي عليه السلام للأدعية لما لها من آثار نفسية وتربوية وصحية واجتماعية، فالدعاء له أثر عميق في نفس الإنسان، لما يبعث فيه الطمأنينة ويحي في النفس روح الأمل والحركة، لذا نلاحظ كثيراً من الأدعية والتسبيحات التي أشار إليها النسائي عن الإمام علي عن الرسول ﷺ لما لها الأثر في تقويم السلوك الإنساني، فقد ذكر دعاء عند الكرب «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحانه وتبارك الله

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ٥ / ٩٩، الضحاك عمروبن عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ت ٢٧٨ هـ، الآحاد والمثاني (تحقيق باسم فيصل أحمد الجوابرة، ط دار الدراية للطباعة، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م) ٤ / ٢٧١، كتاب السنة (بقلم محمد ناصر دين الأنصاري، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) / ٥٥٢، ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١٥ / ٣٧٤، الحاكم، المستدرك، ٣ / ١٣٤، الثقفي، الغارات، ١ / ٣٤، محمد بن سليمان الكوفي، المناقب، ٢ / ٥٥٨، القاضي نعمان المغربي، شرح الأخبار، ١٥ / ٨٩.

(٢) عن علم الإمام علي عليه السلام ينظر: الكليني، الكافي، ١ / ٢١، ابن فروخ، بصائر الدرجات / ٣١٥، المظفر، الشيخ محمد حسين المظفر، علم الإمام علي عليه السلام / جميع الصفحات.

(٣) السنن ٧ / ١٣١ / ٤١٨، ٤١٩، ٩ / ٢٣٦ - ٢٣٧، الأحاديث: ٧٦٣١، ٨٣٥٦، ٨٣٥٨، ٨٣٥٩، ٨٣٦١، ١٠٤٧٣، ١٠٤٧٤، ١٠٤٧٥، ١٠٤٧٦، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ٩١، الحاكم، المستدرك، ٣ / ١٣٢.

رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين[1]».

ولما للأدعية من روحانية مقدسة هائلة لها أثرها بنفس الإنسان نلاحظ تعليم الرسول ﷺ للإمام كثيراً من الأدعية وبالتخصيص على سبيل المثال دعاء عند النوم كان الإمام ﵇ يقول عند مضطجعه: «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم، اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك، سبحانك وبحمدك[2]». وغيرها من الأدعية التي ذكرها بأسانيد مختلفة[3] التي خص بها الإمام علياً ﵇ لمعرفة الإمام بفلسفة الدعاء التي أثبتها العلم الحديث أن الدعاء يؤدي إلى نوع من النشاط الدماغي في الإنسان وإلى نوع من الانشراح والانبساط الباطني[4].

٥ - المصاهرة:

إن من أشد المنزلة الخصيصة للإمام ﵇ عند الرسول ﷺ هوزواجه من ابنته فاطمة الزهراء ﵍، هذا الزواج المبارك الذي تم وفق ما أمر به الله سبحانه وتعالى الرسول الكريم ﷺ، إذ روت المصادر التاريخية أن جماعة من المهاجرين ومنهم أبوبكر وعمر خطبا فاطمة ﵍ من الرسول ﷺ فأعرض عنهم وقال لهم: إنه ينتظر أمر الله فيها[5]. وفي رواية أخرى: أنتظر بها القضاء[6]، وما رواه النسائي: «إنها

---

(١) السنن ٧ / ٢٣٤ / ٢٣٦، الأحاديث: ١٠٣٩٠ - ١٠٣٩٦، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ٩١.

(٢) السنن ٩ / ٢٨١ - ٢٨٢ / ٣٠٠، الأحاديث: ١٠٥٣٥ - ١٠٥٣٧، ١٠٥٨٢ - ١٠٥٩٣.

(٣) السنن ٧ / ١٥٣ - ١٥٤، ٦٨٥، ٧ / ١٢٩، ٦٢٩، ٧ / ١٣١ / ٦٣٠، ٧ / ١٦١، ٥٠ - ٧٧.
وعن أدعية الإمام علي ﵇ ينظر: ابن طاووس، المجتبى من دعاء المجتبى (تحقيق صفاء الدين البصري، د. ت) / ٥٨ - ٥٩، الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان (ط ٢، مطبعة أسوة، قم، ١٤٢٤ هـ)، وردت أدعية كثيرة للإمام ﵇ في العديد من الصفحات: ٩٣، ٩٦، ١١٨، ١٢٢، ٢٠٨...

(٤) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (د. ت) ١ / ٥٣٠.

(٥) ابن حبان، صحيح ابن حبان، ١٥/ ٣٩٣، الطبراني، المعجم الكبير (تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، د. ت) ٢٢/ ٤٠٩، الهيثمي، موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (تحقيق حسين سليم وآخرون، ط ١، دار الثقافة العربية، ١٤١٢ هـ) ٧/ ١٧٢.

(٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨ / ١٩، ابن شاهين عمر بن احمد، ت ٣٨٥ هـ فضائل سيدة النساء،

صغيره فخطب علي فزوجها منه[1]». أي أن الآتي من خبر زواجها ﷺ يؤكد «أنتظر بها القضاء«ليس لصغر سنها إذ لم يكن زواجها ﷺ إلا بأمر من الله تعالى، وهذا ما رواه الخوارزمي عن علي بن الحسين: أن الله بعث ملكاً إلى رسول الله ﷺ يقال له: صرصائيل قال لرسول الله ﷺ: «بعثني الله إليك لتزوج النور من النور. فقال النبي ﷺ: ممن؟ قال: ابنتك فاطمة من علي بن أبي طالب ﷺ. فزوج النبي ﷺ فاطمة من علي بشهادة ميكائيل وجبرائيل، فنظر النبي ﷺ فإذا بين كتفي صرصائيل: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي بن أبي طالب مقيم الحجة[2]».

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «أُمرت بتزويجك من السماء[3]».

وروي أن رسول الله ﷺ قال: أتاني ملك فقال: يامحمد، إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: زوجت فاطمة من علي فزوجها منه، وإني أمرت شجرة طوبى أن تحمل الدر والياقوت والمرجان، وأن أهل السماء قد فرحوا بذلك وسيولد منهما ولدان هما سيدا شباب أهل الجنة وبهما تزين الجنة[4].

(تحقيق أبي إسحاق الجويني الأثري، ط ١، التربية الإسلامية، القاهرة، ١٤١١ هـ) / ٤٤، علي بن يونس العاملي، الصراط المستقيم، ١ / ١٧٣، المتقي الهندي، كنز العمال، ٩ / ٢٠٦، الحلبي، نور الدين علي بن ابراهيم بن احمد ت ١٠٤٤ هـ السيرة الحلبية (دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت) ٢ / ٤٧١.

(١) السنن ٧/ ٤٥٢.

(٢) الخوارزمي، الموفق بن أحمد بن محمد المكي ت ٥٦٨ هـ المناقب (تحقيق مالك المحمودي، ط ٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٤ هـ) / ٣٤٠.

(٣) ابن بطريق، يحيى بن حسين الأسدي، ت ٦٠٠ هـ، عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧ هـ) / ٢٦٧، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٤٢/ ١٢٦.

(٤) الحلي، عزالدين أبومحمد الحسن بن سليمان بن محمد، من أعلام القرن التاسع، مختصر بصائر الدرجات (تحقيق سيد علي أشرف، شريعت، قم، ١٤٢٤ هـ/ ١٣٨٢ ش) / ٢٣٨.

وروي عنه: ياعلي إن الله أمرني أن أتخذك صهراً[1]. وأحاديث كثيرة[2]ذكرت هذا الزواج الميمون الذي تم وفق الإرادة الإلهية، وهي الفضيلة التي خُصّ بها الإمام علي ﷺ دون غيره من الصحابة، وهذا ما ذكره النسائي باختصاصه بفاطمة ﷺ دون الأولين والآخرين، وهي بضعة منه وسيد شباب أهل الجنة[3]يكون من نسله الأئمة، وهوما ذكره الرسول ﷺ في خطبته ﷺ في زواجهما بقوله: الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته... إن الله عزوجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً وحكماً عدلاً... ثم إن الله شملهما وبارك لهما في نسليهما وجعل نسلها مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة...[4].

وهذا ما نجده في أئمة أهل البيت.

ثانياً: ولاية الإمام علي ﷺ:

الولاية لغة: «ولي: أصل صحيح يدل على القرب[5]».

وجاء عن ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: الولي هوالناصر، وقيل: المتولي لأمور الأمم والخلائق القائم بها، ومن أسمائه عزوجل: الولي هومالك الأشياء جميعها، المتصرف فيها، وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، ما لم يجتمع فيها لم يطلق عليه اسم الولي... وقد تكرر ذكر المولى في الحديث، وهواسم يقع على جماعة كثيرة، فهوالرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق، والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والصهر... وكل من ولي أمراً أوقام به فهومولاه ووليه...

---

(١) المحب الطبري، محب الدين أحمد بن عبدالله، ت ٦٤١ هـ ذخائر العقبى (مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٦ ه) / ٨٦.

(٢) ينظر: الخوارزمي، المناقب/ ٣٤٠، ابن شهر آشوب، المناقب، ٣ / ١٢٦، الحلي، المختصر / ٢٣٥، سيد هاشم البحراني، مدينة المعاجز (تحقيق عزة الله المولاتي الهمداني، بهمن قم، إيران، ط ١، ١٤١٣هـ) ٢/ ٤٠٩.

(٣) السنن ٧ / ٤٥٢.

(٤) مرعشي نور الله الحسيني، شرح إحقاق الحق وإزهاق الباطل لنور الدين التستري، النجف، د. ت، ٦ / ٥٩٨.

(٥) ابن فارس، أبوالحسن أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥هـ، معجم مقاييس اللغة (تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ) ٦/ ١٤١.

ومنه الحديث من كنت مولاه فعلي مولاه[1]».

ويقول ابن منظور: «المتولي أوالولي هومالك الأشياء والمتصرف فيها [2]».

وإن الذي يقرأ سيرة النبي ﷺ في بداية أمره وسعيه إلى تأسيس الدولة الإسلامية منذ اللحظة الأولى نجد أن الرسول ﷺ مهد لإيجاد قاعدة رئيسة في تأسيس دولته لتنظيم شؤونها، مصدر ذلك التأسيس من الله سبحانه وتعالى، وقد اختارت العناية الإلهية الإمام علياً عليه السلام وريث عهد النبوة وصاحب الأمر من بعده. والمتتبع لأقوال الرسول ﷺ وأفعاله يجد هناك تواتراً في تنصيب الإمام علي عليه السلام للولاية ابتداءً من أول الدعوة الإسلامية، إذ أخذ الرسول ﷺ يعد الإمام علياً عليه السلام للخلافة ويعمل على تهيئة المسلمين لمبايعته خليفة من بعده، فعندما أنزل الله سبحانه وتعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ[3]»، حيث دعا الرسول ﷺ بني عبدالمطلب فصنع مداً[4] من الطعام، قال: حتى شبعوا وبقي الطعام كما هوكأنه لم يمس، ثم دعا بغمر[5] فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أويشرب، فقال: «يابني عبدالمطلب، إني بعثت إليكم بخاصة، وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم، فإيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟ فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر القوم فقال: اجلس... حتى كان في الثالثة ضرب بيدي على يده...[6]».

على أن هذه الرواية حذفت بعضاً من مضامينها مثل وزيري وخليفتي[7].

ويكون هذا الدور التنصيبي الأول لخلافة الإمام علي عليه السلام بعد رسول الله ﷺ والذي جاء مقترناً بالبعثة النبوية الشريفة، ويستمر الرسول ﷺ بذكر ولاية الإمام

(١) النهاية في غريب الحديث (تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، ط ٤، إسماعيليان، قم، إيران، ١٣٦٤ هـ) ٥ / ٢٢٧.

(٢) لسان العرب، ١٥ / ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٣) الشعراء / ٢١٤.

(٤) مداً: من يمده مداً، ومد به فامتدّ، ومدده فتمدد، وتمددناه بيننا: مددناه. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٣٩٦.

(٥) غمر: الغمر الماء الكثير. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥/ ٢٩.

(٦) السنن ٧ / ٤٣١ - ٤٣٢.

(٧) القمي، تفسير القمي، ٢/ ١٢٤، الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ٤/ ٥٣، المجلسي، بحار الأنوار، ١٨ / ١٧٩ - ١٧٨.

علي ﷺ من بعده في كثير من الأحداث التاريخية، فما حدث في خيبر قول الرسول أني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له[1]حتى تمنى الكثير من الصحابة أن يأمره حتى قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ[2].

فهــذا الحــب المتبــادل بيــن الله ورســولـه وعـلـي هـوالـذي أكده الرسول ﷺ للإمام علي ﷺ أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق[3].

ومن الأدلة الأخرى على خلافة الإمام علي ﷺ حديث المنزلة، وهومن الأحاديث الصحاح،التي يتفق عليها جميع المســلمين الذي بــيّن خــلافة الإمــام علي ﷺ بعــد الرسول ﷺ، وقد ذكره النسائي بعدة طرق، منها عن سعد بن أبي وقاص: «قال رسول الله ﷺ لعلي: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[4]».

وفي رواية أخرى: «لما غزا الرسول ﷺ غزوة تبوك خلف علياً بالمدينة فقالوا فيه: ملّه وكره صحبته فتبع النبي ﷺ حتى لحقه في الطريق، فقال: يارسول الله خلفتني في المدينة مع الذراري والنساء حتى قالوا: ملّه وكره صحبته، فقال له النبي ﷺ: ياعلي إنما خلفتك على أهلي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبي بعدي[5]».

وهذا التشبيه والتمثيل من رسول الله ﷺ هوتثبيث لجميع ما تحلى به هارون من المقام والمنزلة لأمير المؤمنين ﷺ. أما المنازل التي كانت لهارون فهي:

أولاً: الوزارة، إن موسى ﷺ كما حكى عنه القرآن دعا الله أن يهب هارون منزلة الوزارة، قال تعالى: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي[6]».

وقد روي أن الرسول ﷺ قال: اللهم إني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح

---

(١) السنن ٧ / ٤١٢.

(٢) السنن ٧ / ٢١٤.

(٣) السنن ٧ / ٤٤٥.

(٤) السنن ٧ / ٤٢٥.

(٥) السنن ٧ / ٤٢٥.

(٦) طه / ٢٩ - ٣٢.

لي صدري وأن تيسّر لي أمري وأن تحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي اشدد به أزري[1].

ثانياً: الأخوّة: كان هارون أخا موسى عليه السلام والإمام علي عليه السلام كان أخا رسول الله صلى الله عليه وآله، فعندما آخا الرسول صلى الله عليه وآله بين الصحابة فقال علي: يارسول الله انقطع ظهري وساء ظني حيث صنعت بأصحابي ما لم تصنع. فقال الرسول صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده ما أخرتك إلا لنفسي، فأنت مني بمنزلة هارون من موسى وأنت أخي ووصيي ووارثي[2].

فهذه الأخوة تدل على أنه ارتفع عن كل مؤمن عندما أنزل الله «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [3]».

ثالثاً: الخلافة عندما أراد موسى أن يذهب لميقات ربه جعل هارون خليفة لنفسه قال تعالى: «وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي[4]».

كان هارون نائباً وخليفة لموسى عليه السلام وقد فرض موسى طاعته على بني إسرائيل وأوصاه أن يبلغ دعوته ويوطد رسالته[5].

والرسول صلى الله عليه وآله خلّف الإمام علياً عليه السلام بقوله: أنت خليفتي ووارثي وفرض طاعته منذ اليوم الذي أرسله إلى اليمن واعتراض المنافقين عليه، فجاء عن بريدة قال: قدمت على النبي صلى الله عليه وآله فذكرت علياً منتقصة فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يتغير وجهه وقال:

---

(١) الثعلبي، ابواسحق احمد بن محمد ابن ابراهيم النيسابوري ت ٤٢٧ هـ، تفسير الثعلبي (تحقيق أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م) ٤/ ٨١، الآلوسي، محمد بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تحقيق ماهر حبوش، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ د. ت) ١٦/ ١٨٦، الرازي، فخر الدين الرازي، ت ٦٠٦ هـ، تفسير الرازي ١٢/ ٢٦

(٢) الكوفي، المناقب، ١/ ٣١٦ – ٣١٧، السيوط، الدر المنثور ٤/ ٣٧١، وينظر: ابن مخلد القرطبي ت ٢٧٦ هـ، ما روي في الحوض والكوثر (تحقيق عبدالقادر محمد عطا صوخي، ط ٢، مكتبة العلوم، المدينة المنورة، ١٤٠٣ هـ) / ١٢٦.

(٣) الحجرات / ١٢.

(٤) الأعراف / ١٤٢.

(٥) النجمي، محمد صادق، أضواء على الصحيحين (ترجمة الشيخ يحيى كمال البحراني، ط ٢، باسدار، قم، ١٤١٩ هـ) / ٣٤٣.

يابريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يارسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه[1]. وفي رواية أخرى: ما تريدون من علي؟ إن علياً مني وأنا منه، وهوولي كل مؤمن من بعدي[2].

وبناءً على مضمون هذا الحديث فإن أمير المؤمنين هوخليفة رسول الله ﷺ والقائم مقامه ونائبه.

ومن منازل هارون النيابة والمؤازرة؛ فإن أحد مناصب هارون هي مؤازرته وإشراكه في أمره، وقد نص القرآن الكريم على طلب موسى هذه المنزلة لهارون من الله، حيث قال تعالى: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي[3]»، وجاء جوابه تعالى لموسى: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى[4]».

فعلي عليه السلام ناب رسول الله في كثير من الأحداث منها مبيته في فراشه، وبقاؤه في مكة عند هجرة الرسول ﷺ واستخلافه في تبوك، وتأتي النيابة بتبليغ سورة براءة وقول الرسول ﷺ: علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلا أنا أوعلي[5].

إذن هذه منزلة هاون أخي موسى وهي خليفته ووزيره وشريكه في أمره، وهي التي تجسدت في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام التي ذكرها الرسول ﷺ في أحاديثه.

ويأتي حديث الثقلين من النصوص الصريحة على ولاية الإمام علي عليه السلام، وهومن الأحاديث الصحاح التي اتفق عليها جميع المسلمين، وخاصة أصحاب الصحاح والمسانيد المعتبرة[6]، وقد أشار النسائي إلى هذا الحديث عن زيد بن أرقم قال: «لما رجع رسول الله عن حجة الوداع ونزل غدير خم أمر بدوحات فقمن، ثم قال: كأني قد دعيت فأجبت إني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل

---

(١) السنن ٧ / ٤٣٨.
(٢) السنن ٧ / ٤٤٠.
(٣) طه / ٣١ - ٣٢.
(٤) طه / ٣٦.
(٥) السنن ٧ / ٤٣٤ - ٤٣٥.
(٦) أحمد بن حنبل، المسند، ٣/ ٥٩، الضحاك، كتاب السنة/ ٦٢٩، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٠٩، الثعلبي، تفسير الثعلبي، ٨/ ٤٠، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٦٣، المتقي الهندي، كنز العمال، ١٣/ ١٠٤، الآلوسي، تفسير الآلوسي، ٦/ ١٩٤.

بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[1]». فقد حصر الرسول ﷺ الحديث بالعترة كما جاء عن ابن الأثير بقوله: «خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي«عترة الرجل أخص أقاربه وعترته أهل بيته الأقربون، وهو الإمام علي وأولاده عليهم السلام[2]في حين ذكر ابن منظور: «وأن عترة رسول الله ولد فاطمة (رض)[3]».

وقال الزبيدي: إن عترة رسول الله ولد فاطمة[4].

ومن خلال هذه الأقوال التي ذكرت أن عترة الرسول ﷺ هم أهل بيته الأقربون علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وهذا الحديث يعرب على أن العترة قرين القرآن الكريم في العصمة والمصونة من الخطأ والزلل[5]. وأن الرسول ﷺ أراد أن يبين هذا الحديث أن الخليفة على المسلمين بعد وفاته ﷺ القرآن والعترة الطاهرة من أهل بيته صلوات الله عليهم حتى تتمكن الأمة الإسلامية بعد وفاته ﷺ من الرجوع إلى كتاب الله العزيز والعترة الطاهرة[6].

ويلاحظ على النص أنه يصرح بخلافة الإمام علي عليه السلام، ذكر النسائي أن الرسول ﷺ لما رجع من حجة الوداع ونزل الغدير أي في اليوم الذي أنزل قول الله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »أي بخلافة الإمام علي عليه السلام بعده، ويأتي الدور التكميلي لتنصيب الإمام علي عليه السلام للولاية بعد الرسول ﷺ في حديث الولاية وحديث الغدير، وهومن الأحاديث التي دلت دلالة واضحة على خلافة الإمام علي عليه السلام؛ حيث ذكر فيه مناقب وخصائص الإمام علي عليه السلام عام ١٠ هـ عندما دعا رسول الله ﷺ قبائل البلاد العربية إلى مكة لأداء مناسك الحج وبعد قضاء المناسك وفي العودة إلى المدينة من مكة

---

(١) السنن ٧/ ٤٣٥ - ٤٣٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ١٧٧.

(٣) لسان العرب، ٤/ ٥٣٨.

(٤) تاج العروس، ٧/ ١٨٦.

(٥) الحلي، يحيى بن سعيد الحلي، ت ٦٨٩ هـ الجامع للشرائع (تحقيق جمع من الفضلاء، المطبعة العلمية، قم، إيران، ١٤٠٥هـ) / ٤.

(٦) ينظر: قصي عبدالصمد عبدالحي، رؤية ابن منظور للإمام علي عليه السلام، رسالة ماجستير، مقدمة مجلس كلية التربية، ٢٠١٢م/ ٢٥٩.

أمر الوحي جبرائيل أن يبلغ بحديث الولاية أمام هذا الجمع من أبناء المسلمين بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...[1]». حيث وقف الرسول ﷺ قرب وادي غدير خم[2] في موضع الجحفة[3] مفترق الطريق بين مصر والعراق والمدينة فأمر الركب المتقدم بالوقوف وأمر الركب المتأخر باللحوق وصلى بالناس في يوم شديد الحرّ حتى قيل إن المسلم تارة يضع رداءه على رأسه وأخرى تحت قدميه، وبعد ذلك قال: «إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن». ثم أخذ بيد علي فقال: «من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه». فقلت لزيد: سمعته من رسول الله ﷺ فقال: ما كان بالدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه[4].

وأشار النسائي إلى حديث الولاية بإسناد مختلف وبألفاظ الحديث من شهد على صدق الحديث من صحابة الرسول ﷺ[5]. فالرسول ﷺ بيّن أن الولاية كانت له ثم صارت لعلي عليه السلام والحديث يدل دلالة صريحة على أن الرسول ﷺ قد نص على أن الإمام علياً عليه السلام هوالخليفة من بعده. وأكد الرسول ﷺ ذلك بأحاديث أخرى ذكر النسائي منها أن علياً مني وأنا منه وهوولي كل مؤمن من بعدي[6].

وكان الرسول ﷺ عالماً بأبناء أمته ممن يمتثل لقوله وللإرادة الإلهية بتنصيب

---

(١) المائدة/ ٦٧.

(٢) غدير خم: موضع بين مكة والمدينة بالجحفة، وهوعلى ثلاثة أميال منها، وهوموضع نصب فيه عين بين الغدير والعين، وبينهما مسجد رسول الله ﷺ. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢ / ٣٨٩.

(٣) الجحفة: بالضم ثم السكون والفاء: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام، إن لم يمروا على المدينة، وسميت بالجحفة لأن السيل احتجفها وحمل أهلها في الأعوام. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١١١.

(٤) السنن ٧ / ٤٣٦ - ٤٣٧، الحديث: ٨٤١، وعن حديث الغدير ينظر: الصنعاني، أبوبكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١ هـ المصنف، ١١ / ٢٢٥، ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف ٧ / ٤٩٤، أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ٨٤، ابن ماجه، سنن ابن ماجة، ١ / ٤٥، الترمذي، سنن الترمذي، ٥ / ٢٩٧، الضحاك، الآحاد والمثاني، ٤ / ٣٢٥، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٠٩.

(٥) السنن ٧ / ٤٣٧ - ٤٣٩، الأحاديث: ٨٤١١ - ٨٤١٩.

(٦) السنن ٧ / ٤٤٠، الأحاديث: ٨٤٢٠، ٤٤٠.

الإمام (عليه السلام) خليفة من بعده ممن يعرض عن ذلك ويحارب الإمام (عليه السلام).

فأشار في أحاديث النسائي تحت عناوين منها الترغيب في موالاة علي (عليه السلام) والترهيب في معاداته[1]. ودعا على من أبغضه قوله لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق[2]. ما اظهر عند الامويين عن ظاهرة جديدة هي ظاهرة السب.

ثالثاً: ظاهرة السب:

تمثلت عدائية الكثير من الأُمويين للإمام علي (عليه السلام) في نشر ظاهرة السب، فقد سنّ معاوية سب الإمام (عليه السلام) على المنابر في خطب الجمعة، وأثناء المناسبات الرسمية، وإجبار الصحابة وأبنائهم على ممارسة ذلك والقول به، فجاء عن عامر بن سعد[3] عن أبيه قال: «يقول: قال معاوية لسعد بن أبي وقاص: ما منعك أن تسب علي بن أبي طالب؟ قال: لا أسبه، أما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأن تكون لي واحدة أحب إلي من حمر النعم لا أسبه[4]».

وأكد النسائي على ظاهرة السب بأحاديث منها عن أُم سلمة (رضي الله عنها) عن أبي عبدالله الجدلي[5]قال: «دخلت على أُم سلمة فقالت: أيسب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيكم؟

---

(١) السنن ٧ / ٤٤١ - ٤٤٣، الأحاديث: ٨٤٢٤ - ٨٤٢٧، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٤ / ٤٣٨، الضحاك، كتاب السنة / ٥٥٢، ابن أبي شيبة، المصنف، ٧ / ٤٩٥، أبويعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ١ / ٢٤٩.

(٢) السنن ٧ / ٤٤٥، الأحاديث: ٨٤٣١ - ٨٤٣٣، وينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ١ / ٩٥، الترمذي، سنن الترمذي، ٥ / ٣٠٦، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩ / ١٣٣.

(٣) عامر بن سعد بن أبي وقاص بن أصيب بن عبدمناف، ت ١٢٤ ه. ينظر: البخاري، التاريخ الكبير، ٦/ ٤٤٩، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ١٦٧، ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار/ ١١٠، الباجي، التعديل والتجريح، ٣/ ١١١.

(٤) السنن ٧ / ٤٢٨، الحديث: ٨٣٨٥.

(٥) أبوعبدالله الجدلي، اسمه عبد بن عبد ويقال عبدالرحمن بن عبدالله، أبوعبدالله الجدلي الكوفي، روى عن خزيمة بن ثابت وأُم سلمة وسلمان الفارسي، وهومن الرواة الثقات، وكان شديد التشيع، وكان على شرطة المختار فأرسله مع الجيش لإخراج محمد بن الحنفية من سجن عبدالله بن الزبير. ينظر: البخاري، التاريخ الكبير، ٦/ ١١٩، الرازي، الجرح والتعديل، ٦/ ٩٣، المزي، تهذيب الكمال، ٣٤/ ٢٤-٢٥، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ١٢/ ١٣٣.

فقلت: سبحان الله - أو- معاذ الله. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سب علياً فقد سبني[1]».

وحديث سعد بن مالك [2]لأبي بكر خالد بن عرفطة [3]بالمدينة فقال: ذكر أنكم تسبون علياً؟ قلت: قد فعلنا. قال: لعلك سببته؟ قلت: معاذ الله. قال: لا تسبه، فإن وضع المنشار على مفرقي على أن أسب علياً ما سببته بعدما سمعت من رسول الله ﷺ ما سمعت[4].

يستدل من الأحاديث دلالة واضحة على انتشار ظاهرة السب عند الأُمويين ووسائل التعذيب المستخدمة ضد من يرفض ذلك كما فعلوا بحجر بن عدي وأصحابه[5].

رابعاً: أحداث ما بعد السقيفة:

لم يشر النسائي إلى واقعة السقيفة ومن خالف الرسول ﷺ بصور مباشرة، بل وردت أثناء ذكره حديث الراية لما أعطاها للإمام علي عليه السلام: «قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ[6]». ويستدل من ذلك ما عمل به الجميع بعد شهادة الرسول

---

(١) السنن ٧ / ٤٤١، الحديث: ٨٤٢٢.

(٢) سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن بحر الخزرجي الأنصاري، يكنى أبا سعيد، عربي مدني، من أصحاب رسول الله ﷺ وأصفياء أمير المؤمنين عليه السلام، كان مستقيماً من العلماء الفضلاء العقلاء، مات سنة ٧٤ هـ. ينظر: ابن عبدالبر، الاستيعاب، ٤/ ١٦٧١، التفرشي، نقد الرجال، ٢/ ٣١٣، الأردبيلي، جامع الرواة، ١/ ٣٥٦، الخوئي، معجم رجال الحديث، ٩/ ٤٩-٥٠.

(٣) أبوبكر خالد بن عرفطة العذري القضاعي، حليف بني زهرة، روى عن الخباب بن الأرث وسعيد بن مالك، وهومن التابعين. ينظر: البخاري، الكنى جزء من تاريخ البخاري الكبير (د. ت/ ١١، الرازي، الجرح والتعديل، ٩/ ٣٤٠، المزي، تهذيب الكمال، ٣٣/ ٩٠، ابن حجر، تقريب التهذيب ٢/ ٣٦٣.

(٤) السنن ٧/ ٤٤١، الحديث: ٨٤٢٣، ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٦/ ٣٢٣، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ١٢١، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ١٣٠، ابن أبي شيبة، المصنف، ٧/ ٥٠٣، أبويعلى الموصلي، المسند، ١٢ / ١١٤.

(٥) عن ظاهرة السب ينظر: علي رحيم أبوالهيل، السياسة الأُموية المضادة للإمام علي عليه السلام، دراسة في سياسة السب، رسالة ماجستير آداب في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م/ جميع صفحاتها.

(٦) السنن ٧ / ٤١٤، وينظر: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٢ / ٣٨٤، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ٧ / ١٢١، الضحاك، كتاب السنة / ٥٩٤، المتقي الهندي، كنز العمال، ١٠ / ٤٦٨.

ﷺ قاد عمر بن الخطاب وأبوبكر لحمل الناس على البيعة بالقوة ونكران توصية الرسول ﷺ والتبليغ الإلهي بالولاية.

كما أشار إلى عدة من توصيات الرسول ﷺ للإمام عليه السلام قبل وفاته، وهي من معالم الغيبيات التي علمها الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام منها الأحداث التي ستواجه الإمام عليه السلام بعد رحيل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وانقسام المسلمين ومحاربة الإمام عليه السلام عبر أحاديث منها ما جاء «عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه ذكر ناساً في أُمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هم من شر الخلق، أوهم شر الخلق، تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق، قال كلمة أخرى، قلت بيني وبينه: ما هي؟ وأنتم قتلتموهم ياأهل العراق[1]».

وأشار الرسول ﷺ إلى خروج الخوارج ومن معهم ضد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وذكر سيماهم وانتصار الإمام عليهم في النهروان[2].

كما أشار إلى صفين من خلال حديث الرسول ﷺ لعلي يوم الحديبية عندما كتب بنود المعاهدة [... هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو، فقال سهيل بن عمرو: لوعلمنا أنه رسول الله ما قاتلناه! امسحها. فقلت: هووالله رسول الله ﷺ وإن رغم أنفك، لا والله لا أمسحها. فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها. فمحاهما، وقال: أما آن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطر[3].

وساهم الإمام علي عليه السلام مع الرسول ﷺ في تحطيم الأصنام وكسرها في العلن وليس في الخفاء حتى يتوارى بين البيوت كما أشار النص[4].

---

(١) السنن ٧/ ٤٧٠، الحديث: ٨٥٠٥، ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، ٣/ ٣٢، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ٣/ ١١٣، ابن داود، سنن ابن داود، ٢/ ٤٠٦، ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٤٥٦، أبويعلى، مسند أبي يعلى، ٢/ ٢٨٨، المتقي الهندي، كنز العمال، ١١/ ١٤٠.

(٢) السنن ٧/ ٤٦٩ -٤٧٩، الأحاديث: ٨٥٠١- ٨٥٢١. وعن حرب النهروان ينظر: اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن وضاح، ت ٢٨٤ هـ تاريخ اليعقوبي (دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت) ٢/ ١٩٢، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤/ ٥٣، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣/ ٣٣٤.

(٣) السنن ٧ / ٤٨١ - ٤٨٢، الحديث: ٨٥٢٣.

(٤) السنن ٧ / ٤٥١، الحديث: ٨٤٥٣.

الإسراء والمعراج
دراسة في رد الشبهات الإسرائيلية

الأستاذ الدكتورجواد كاظم النصر الله

جامعة البصرة كلية الآداب

الأستاذ الدكتور جواد كاظم النصر الله
جامعة البصرة كلية الآداب

الاستاذ الدكتور جواد كاظم النصرالله، تولد (١٩٧١) حصل على الماجستير عام ١٩٩٨ في تاريخ الاقتصاد الاسلامي، وعلى الدكتوراه عام ٢٠٠٢ في تاريخ الفكر الاسلامي، نال مرتبة الاستاذية في ١٢ / ٥ / ٢٠١١، أستاذ الدراسات العليا في كلية الآداب / جامعة البصرة، منذ ٢٠٠٣ في مادة (الفكر الاسلامي)، أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف الجامعات العراقية، له ثمانية مؤلفات مطبوعة و (٣٤) بحثا منشورا في المجلات العلمية، وله مشاركات في عشرات المؤتمرات والندوات العلمية. تولى مناصب إدارية منها، رئيس قسم التوثيق والمخطوطات، ومدير مركز دراسات البصرة، حاليا رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب.

مقدمة

إنّ إدعاء النبوة بحد ذاته أمر معجز، إذ أنه إدعاء الارتباط بالسماء، فلابد ممن يدعي ذلك أن يقدم ما يثبت صحة إدعائه، من هنا كان الأنبياء ﷺ يقدمون أدلة تثبت صحة نبوتهم وهوما عرف بالمعجزات[1].

ومن بينهم النبي ﷺ الذي واجه اتجاهات شتى وقفت بالضد من نبوته، كالمشركين[2]- وأهل الكتاب من اليهود والنصارى[3]. لذا لما فشل مفكروأهل الكتاب (يهود ونصارى) في مواجهة النبي ﷺ فكريا وعسكريا، لجئوا إلى تشويه سيرته المباركة[4].

كان الإسراء والمعراج من أهم معجزات النبي ﷺ الدالة على صدق نبوته، ولم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن ذلك ينظر: القاضي عبد الجبار المعتزلي: شرح الاصول الخمسة، اعتنى بها: الاستاذ سمير مصطفى رباب، ط٢، دار احياء التراث العربي،بيروت،٢٠١٢. ص٣٨٤ ٣٨٦. المغني في ابواب التوحيد والعدل، تحقيق محمود محمد قاسم، الجزء الخامس عشر، ص١٤٧ وما بعدها. محمد بن الحسن الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ط ٢، دار الاضواء، بيروت، ١٩٨٦. ص٢٤٤ ٢٥٩، المقداد السيوري: النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر، تحقيق وتعليق الشيخ مشتاق الزيدي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠١٠. ص٣٣٦ ٣٤١.

(٢) محمد بن اسحاق ت١٥١هـ: السير والمغازي، الطبعة الاولى، تحقيق: سهيل زكار،دار الفكر، ١٩٧٨هـ. ص٢٢٩ ٢٣١، ابومحمد عبد الملك بن هشام ت٢١٨: السيرة النبوية، تقديم: عمر عبد السلام تدمري،دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨. ص١٩٩ ٢٠٦،

(٣) ينظر: هادي عبد النبي التميمي: الدور اليهودي في الدولة الاسلامية حتى نهاية عصر الرسول ﷺ، مطبعة العالم، النجف الاشرف، ٢٠٠٦. ص١ وما بعدها.

(٤) ينظر: غالب الشابندر: ليس من سيرة الرسول الكريم ﷺ، دار العلوم، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦. ص ٥ وما بعدها.

يستطع مفكري أهل الكتاب رفضها علنا، وإنما قاموا بتشويهها مستفيدين من سذاجة العقل العربي، الذي كان ينظر لأهل الكتاب بأنهم (أهل العلم الأول) [1]. ومن هنا دسوا السم بالعسل في ما يخص معجزة الإسراء والمعراج.

وسنقف هنا على عدد من الشبهات التي دست في حادثة الإسراء والمعراج وتم تداولها خلفا عن سلف عبر التاريخ حتى غدت وكأنها من الحقائق، وما هي إلا إساءات لمقام النبي الأكرم ﷺ.

وتمثلت هذه الشبهات بالآتي: عد الاسراء والمعراج حادثة واحدة وليست حادثتين منفردتين، ثم شق صدر النبي ﷺ لتخليصه مما علق فيه من الشرك وحب الدنيا والذنوب، وما هي طبيعة الدابة التي امتطاها النبي ﷺ في رحلته هذه، وكيف تعامل معه جبرئيل، وهل كان الاسراء والمعراج روحاني أورؤيا؟ أوهوجسماني وروحاني كما هوصريح القرآن؟ وتعرض النبي ﷺ لسلسلة اختبارات منها دعوة داعي اليهود والنصارى له؟ وكذلك دعوة امرأة إياه؟ ثم تم اختباره بإن قدم له ثلاثة أواني (ماء ولبن وخمر) وترك له أمر اختيار أحدهم؟ وتبين أن ملائكة السماء فوجئوا ببعثة النبي ﷺ، وكانت الشبهة الاخيرة حول الخمسون صلاة التي فرضها الله تعالى على أمة النبي محمد ﷺ التي لولاها معرفة النبي موسى عليه السلام التي فاقت معرفة النبي ﷺ بل فاقت معرفة الله تعالى لكنا الان في أمر عصيب، إذ كيف بنا نؤدي هذا العدد من الصلوات ونحن أمة ضعيفة.

---

(١) الطبري: أبوجعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥. ٩ / ٦٧، ابن النديم: أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق ت ٤٣٨هـ، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، ص١٠٥، الثعلبي: ت٤٢٧ هـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبومحمد عاشور، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٢. ٣ / ٢٢٩، ابن عطية الاندلسي: ت ٥٤٦ هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣. ١ / ٣٥٣. ياقوت الحموي ت٦٢٦ هـ: معجم الادباء، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠ هـ. ١٨ / ٨.

الشبهة الأولى:

إن الإسراء والمعراج حادثة واحدة.

يظهر من الروايات التي تحدثت عن الإسراء والمعراج أنهما حادثة واحدة، إذ أسري بالنبي ﷺ من المسجد الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى (بيت المقدس) ومن هناك عرج به إلى السماء.

ذكر الطبري: «حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا محمد بن جعفر بن عدي، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، وهو رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلا يقول، أحد الثلاثة، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة: قلت: ما يعني به؟ قال: إلى أسفل بطنه قال: فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة، ثم أتيت بدابة أبيض، وفي رواية أخرى: بدابة بيضاء يقال له البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه منتهى طرفه، فحملت عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا إلى بيت المقدس فصليت فيه بالنبيين والمرسلين إماما، ثم عرج بي إلى السماء الدنيا... فذكر الحديث.»[1].

للإجابة عن هذه الشبهة نطرح بعض الحيثيات:

١ - إن ورود حرف العطف (الواو) بين الكلمتين دليل تغايرهما[2].

٢ - ما المقصود بالإسراء والمعراج لغة واصطلاحا؟

في اللغة:

الإسراء: مأخوذ من سرى أي سار في الليل، فهي تطلق على من ينتقل من مكان إلى آخر في الأرض ليلا. [3]

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥ / ٥.

(٢) أبوحيان الاندلسي: تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمدمعوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١. ٦ / ٤٥٧،٧ / ٢١٢، الشوكاني: محمد بن علي بن محمد ت ١٢٥٠هـ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، عالم الكتب، ب.ت. ١ / ١١٧.

(٣) الفراهيدي: ابوعبد الرحمن الخليل بن احمد ت١٧٥ هـ العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ابراهيم السامرائي، الطبعة الثانية، مطبعة الصدر، مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩ هـ. ٧ / ٢٩١،

قال امرؤ القيس:

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بارسان [1]

وقال النابغة:

أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد [2]

المعراج: مأخوذ من عرج، أي صعد وارتقى وعلا، والمعراج، بالكسر هوالمصعد، والعروج يعني الصعود، ومن أسماء الله تعالى «من الله ذي المعارج»[3]، أي معارج الملائكة إلى السماء، وقوله تعالى: «تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[4]، ومعنى تعرج أي تصعد. [5]

أما في الاصطلاح:

الإسراء: هومعجزة النبي ﷺ في الانتقال ليلا من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في زمن قصير. [6]

المعراج: هومعجزة النبي ﷺ في الصعود من الأرض إلى السماء. [7]

الجوهري: إسماعيل بن حماد ت٣٩٣ هـ، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧، ٦ / ٢٣٧٦، ابن الأثير: مجد الدين أبوالسعادات المبارك بن محمد ت٦٠٦ هـ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: أبوعبد الرحمة صلاح، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ٢ / ٣٦٤، ابن منظور: أبوالفضل جمال الدين، محمد بن مكرم، ت٧١١ هـ، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، نشر أدب الحوزة، قم، ١٤٠٥ هـ. ١٤ / ٣٨١ .٣٨٢

(١) ديوان أمرؤ القيس ص٢١٠.

(٢) ديوان النابغة ص٣١.

(٣) سورة المعارج الاية ٣.

(٤) سورة المعارج الآية ٤.

(٥) الفراهيدي: العين ١ / ٢٢٢، ٣٢٨، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣ / ٢٠٣، ابن منظور: لسان العرب ٢/ ٣٢١.

(٦) ابن كثير: أبوالفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ هـ، السيرة النبوية، تحقيق:مصطفى عبد الواحد، دار المعرفو، بيروت. ١٩٧١. ٢ / ٩٣، انتصار عدنان العواد: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام دراسة تاريخية، الطبعة الاولى، مؤسسة البديل، بيروت، ٢٠٠٩. ص١٠٦.

(٧) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٩٣، العواد: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام. ص١٠٦.

٣ -إشارة القرآن لهما

مما يدل على أنهما حادثتان منفصلتان أن القرآن ذكرهما في مكانين مختلفين، فالإسراء أشار له في سورة الإسراء «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[١].

أما المعراج فأشار إليه في سورة النجم، قال تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)»[٢]

٤ -الواقع التاريخي

نلاحظ من خلال الروايات أن النبي ﷺ تحدث للمسلمين والمشركين عن الإسراء، ولم يتحدث لهم عن المعراج[٣]، إذ كان بإمكانهم أن يتبينوا صدقه، لان منهم من ذهب إلى بيت المقدس[٤]، ولان النبي ﷺ أخبر عن بعض الحوادث التي وقعت له بالطريق كإحدى القوافل القادمة إلى مكة[٥].

قال ابن هشام: «فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا، وقالوا:

---

(١) سورة الاسراء الآية ١.

(٢) سورة النجم الآيات ١ ١٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤، الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥ / ٥، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ هـ، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، الطبعة الاولى، دار إحاء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨. ٣/ ١٣٧.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤.

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٦، الصدوق: أمالي الصدوق، الطبعة الأولى، مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٧ هـ ص٥٣٤، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٣٧، المجلسي: محمد باقر ت ١١١١ هـ، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة، تحقيق: عبد الرحمن الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣. ١٨ / ٢٣٣.

ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط! قال: آية ذلك أني مررت بعير[1] بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فند لهم بعير فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان[2] مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشف غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء[3]،ثنية التنعيم[4]، يقدمها جمل أورق[5]، عليه غرارتان[6] إحداهما سوداء، والأخرى برقاء[7]. قالت: فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الاناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء. وسألوا الآخرين، وهم بمكة، فقالوا: صدقوالله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وند

---

(١) العير: القافلة.

(٢) ضجنان: بالتحريك، ونونين، قال أبومنصور: لم أسمع فيه شيئا مستعملا غير جبل بناحية تهامة يقال له ضجنان، ولست أدري مم أخذ، ورواه ابن دريد بسكون الجيم، وقيل: ضجنان جبيل على بريد من مكة وهناك الغميم في أسفله مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، وله ذكر في المغازي، وقال الواقدي: بين ضجنان ومكة خمسة وعشرون ميلا، وهي لأسلم وهذيل وغاضرة، ولضجنان حديث في حديث الاسراء حيث قالت له قريش: ما آية صدقك؟ قال: لما أقبلت راجعا حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير فلان فوجدت القوم ولهم إناء فيه ماء فشربت ما فيه، وذكر القصة. ينظر: ياقوت الحموي: شهاب الدين أبوعبد الله ت٦٢٦ هـ: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩. ٣ / ٤٥٣.

(٣) البيضاء: قال الحموي: (البيضاء: ضد السوداء، في عدة مواضع منها: ثنية التنعيم بمكة، لها ذكر في كتاب السيرة.). معجم البلدان ١ / ٥٢٩ ٥٣٠.

(٤) التنعيم، قال ياقوت الحموي: «التنعيم: بالفتح ثم السكون، وكسر العين المهملة، وياء ساكنة، وسيم: موضع بمكة في الحل. وهوبين مكة وسرف. على فرسخين من مكة وقيل على أربعة. وسمي بذلك لان جبلا عن يمينه يقال له نعيم وآخر عن شماله يقال له ناعم، والوادي نعمان، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة وسقايا على طريق المدينة، منه يحرم المكيون بالعمرة.». معجم البلدان ٢ / ٥٠.

(٥) الأورق: الجمل الذي في لونه بياض إلى سواد، وهوالاطيب لحما. فتح الله كاشاني ت ٩٨٨ هـ: زبدة التفاسير، الطبعة الأولى، تحقيق ونشر: مؤسسة المعارف الاسلامية، قم، ١٤٢٣ هـ. ٤ / ٧.

(٦) الغرارة: بياض في جبهة الحيوان. الجوهري: الصحاح ٢/ ٧٦٨.

(٧) البرقاء: ما اجتمع فيه السواد والبياض. الجوهري: الصحاح ٤ / ١٤٤٩.

لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه»[1].

وجاء في تفسير القمي[2]: «فمر في رجوعه بعير لقريش، وإذا لهم ماء في آنية فشرب منه، وأهرق باقي ذلك، وقد كانوا أضلوا بعيرا لهم، وكانوا يطلبونه، فلما أصبح، قال لقريش: أن الله قد اسرى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس فعرض علي محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء، وانى مررت بعير لكم في موضع كذا وكذا، وإذا لهم ماء في آنية، فشربت منه، وأهرقت باقي ذلك، وقد كانوا أضلوا بعيرا لهم، فقال أبوجهل:... قد أمكنكم الفرصة من محمد، سلوه كم الأساطين فيها والقناديل؟، فقالوا: يا محمد! أن ههنا من قد دخل بيت المقدس، فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه؟ فجاء جبرئيل، فعلق صورة البيت المقدس تجاه وجهه، فجعل يخبرهم بما سألوه فلما أخبرهم، قالوا: حتى تجيئ العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم: وتصديق ذلك أن العير تطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل احمر، فلما أصبحوا واقبلوا ينظرون إلى العقبة، ويقولون: هذه الشمس تطلع الساعة، فبينا هم كذلك إذ طلعت العير مع طلوع الشمس يقدمها جمل احمر، فسألوهم عما قال رسول الله ﷺ فقالوا لقد كان هذا، ضل جمل لنا في موضع كذا وكذا ووضعنا ماءا وأصبحنا وقد أهريق الماء فلم يزدهم

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٣٧.

(٢) القمي: أبوالحسن علي بن إبراهيم ت٣٢٩ هـ، تفسير القمي، صححه: طيب الجزائري، الطبعة الثالثة، مؤسسة دار الكتاب، قم، ١٤٠٤هـ. ٢ / ١٣. وقال فتح الله كاشاني: «فخرج إلى المسجد، فجلس إليه أبوجهل فأخبره رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بحديث الإسراء. فقال: يا معشر بني كعب بن لؤيّ هلمّوا، فحدّثهم، فمن بين مصفّق وواضع يده على رأسه تعجّبا وإنكارا. وارتدّ ناسٍ ممّن كان قد آمن به. واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس، فجلّى الله له بيت المقدس، فطفق صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ينظر إليه وينعته لهم. فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب. فقالوا: أخبرنا عن عيرنا. فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها. وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق. وهوالإبل الّذي في لونه بياض إلى سواد، وهوأطيب الإبل لحما، وليس بمحمود عندهم في العمل. كذا قاله الأصمعي. فخرجوا يشتدّون في ذلك اليوم نحوالثنيّة، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد أشرقت. وقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم. ثمّ لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلّا سحر مبين.». زبدة التفاسير ٤ / ٧٦، الفيض الكاشاني: محسن ت١٠٩١ هـ، التفسير الصافي، صححه وقدم له: حسين الاعلمي، الطبعة الثانية، مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٦ هـ. ٣ / ١٧٦.

ذلك إلا عتوا».

وبهذا تمكن النبي ﷺ من أن يثبت صحة إسراءه، لكن الأمر بالنسبة للمعراج يبدومستحيلا للمشركين إذ كيف يصدقوا بخبر معراجه للسماء في زمن يبدوذلك مستحيلا. ولعل النبي ﷺ لم يخبر بالمعراج إلا أصحابه من المسلمين. سيما وان الروايات تشير لارتداد بعض المسلمين.

لكننا نتحفظ على ما ورد في الرواية أعلاه من شرب النبي (ﷺ من ماءهم دون أذنهم.

٥- لقد بدا الأثر اليهودي واضحا، حينما جمعت الحادثتين في حادثة واحدة، فجعلت النبي ﷺ يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك يتم العروج به إلى السماء.

ولان المعراج أفضل من الإسراء فهنا يبدوالأثر اليهودي بمحاولة إظهار أفضلية الأقصى على المسجد الحرام. وكأن الرحلة للأقصى تمهيدا للمعراج ليكون النبي ﷺ مهيئا لذلك، أي أن المسجد الحرام لا يسبغ تلك الميزات على النبي ﷺ كما يسبغها الأقصى.

ومع أن البخاري[1] أوردهما منفردين لكن ابن حجر أكد أن البخاري لا يعتبرهما حادثتين منفصلتين، فقد جاء في فتح الباري[2] «قال ابن دحية جنح البخاري إلى أن ليلة الاسراء كانت غير ليلة المعراج لأنه أفرد لكل منهما ترجمة. (قلت) ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما، وذلك أنه ترجم باب كيف فرضت الصلاة ليلة الاسراء، والصلاة انما فرضت في المعراج، فدل على اتحادهما عنده، وانما أفرد كلا منهما بترجمة لان كلا منهما يشتمل على قصة مفردة وان كانا وقعا معا».

وقد أوضحت الرواية اليهودية سبب المعراج من بيت المقدس، ذكر ابن حجر:

---

(١) البخاري: أبوعبد الله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ، صحيح البخاري، دار الفكر، ١٩٨١. ٤ / ٢٤٧ ٢٤٨.

(٢) ابن حجر: أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، ب.ت. ٧ / ١٥٠.

«روى كعب الأحبار أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس، فأخذ منه بعض العلماء أن الحكمة في الاسراء إلى بيت المقدس قبل العروج ليحصل العروج مستويا من غير تعويج وفيه نظر لورود أن في كل سماء بيتا معمورا، وان الذي في السماء الدنيا حيال الكعبة، وكان المناسب أن يصعد من مكة ليصل إلى البيت المعمور بغير تعويج لأنه صعد من سماء إلى سماء إلى البيت المعمور». [1]

ولكن الراوي تناسى فلم يخبرنا عن طريق عودة النبي ﷺ هل عاد بنفس الطريق أي من السماء إلى الأقصى أم مباشرة إلى مكة (البيت الحرام) ؟؟!!.

إن جمع الحادثتين في حادثة واحدة أشكل على الرواة فكانوا يتحدثون عن المعراج بلفظ (أسري) [2].

ولقد نفى الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أن يكون المعراج من المسجد الاقصى، فقد ذكر القمي: (عن إسماعيل الجعفي، قال: كنت في المسجد الحرام قاعدا، وأبو جعفر عليه السلام في ناحية، فرفع رأسه، فنظر إلى السماء مرة وإلى الكعبة مرة ثم قال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وكرر

---

(١) فتح الباري ٧ / ١٥، وينظر: الآلوسي: ابوالفضل شهاب الدين محمود البغدادي ت١٢٧٠ هـ تفسير الآلوسي (روح المعاني)، ب.معلومات، نسخة قرص مكتبة أهل البيت عليهم السلام. ١٥ / ١٢، الصالحي الشامي: محمد بن يوسف ت ٩٤٢ هـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣. ٣ / ١٨، الحلبي: علي بن بهاء الدين الشافعي ت ١٠٤٤ هـ السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ. ٢ / ٩٣.

(٢) الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد ت٣٦٠ هـ، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ب.ت. ٢٢ / ٤٠٠ ٤٠١، الحاكم النيسابوري: أبوعبد الله محمد بن عبد الله ت٤٠٥ هـ المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف المرعشلي، بيروت، ١٤٠٦ هـ. ٣ / ١٥٦، المفيد: محمد بن محمد البغدادي ت ٤١٣ هـ خلاصة الايجاز، تحقيق: علي أكبر زماني، الطبعة الثانية، ١٩٩٣. ص٤٣، القمي: تفسير القمي، ١/ ٣٦٥، الطوسي: أبوجعفر محمد بن الحسن ت ٤٦٠ هـ المبسوط في فقه الإمامية، صححه: محمد الباقر البهبودي، الطبعة الثانية، المطبعة الحيدرية، طهران، ١٣٨٨هـ. ٦ / ٤٧، الخطيب البغدادي: أبوبكر أحمد بن علي ت٤٦٣ هـ تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ٥/ ٢٩٢، محب الدين الطبري: أبو جعفر أحمد بن عبد الله ت ٦٩٤ هـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ ص٣٦.

ذلك ثلاث مرات ثم التفت إلي فقال: أي شئ يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قلت يقولون أسرى به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس فقال: لا ليس كما يقولون، ولكنه أسرى به من هذه إلى هذه وأشار بيده إلى السماء وقال ما بينهما حرم)[1].

الشبهة الثانية:

شق صدر النبي ﷺ

ذكر الطبري: «حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا محمد بن جعفر بن عدي، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، وهو رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلا يقول، أحد الثلاثة، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة: قلت: ما يعني به؟ قال: إلى أسفل بطنه قال: فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة، ثم أتيت بدابة أبيض، وفي رواية أخرى: بدابة بيضاء يقال له البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه منتهى طرفه، فحملت عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا إلى بيت المقدس فصليت فيه بالنبيين والمرسلين إماما، ثم عرج بي إلى السماء الدنيا... فذكر الحديث.»[2]

وذكر الطبري أيضا: «حدثنا الربيع بن سليمان، قال: أخبرنا ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نمر، قال: سمعت أنسا يحدثنا عن ليلة المسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال أحدهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك فلم يرهم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يرى ثلاثة والنبي ﷺ تنام عيناه، ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبرئيل عليه السلام، فشق ما بين نحره إلى لبته، حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم أتي بطست من ذهب فيه

---

(١) القمي: تفسير القمي ٢ / ٢٤٣، الفيض الكاشاني: التفسير الصافي ٣ / ١٦٦.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥ / ٥.

تور محشو إيمانا وحكمة، فحشا به جوفه وصدره ولغاديده، ثم أطبقه ثم ركب البراق، فسار حتى أتى به إلى بيت المقدس فصلى فيه بالنبيين والمرسلين إماما، ثم عرج به إلى السماء الدنيا»[1].

يلاحظ على الروايتين اعلاه:

التأكيد على أن النبي ﷺ كان نائما، لاثارة الشكوك حول صحة الاسراء والمعراج، وانه كان رؤيا.

التأكيد على جهل النبي ﷺ وصمته حيال ما يجري حوله.

تشير الرواية الثانية أن الاسراء حصل قبل الوحي وهذا مخالف للإجماع على أن الاسراء والمعراج وقعا بعد بعثته الشريفة[2].

قضية شق صدر النبي ﷺ واخراج ما فيه، وغسله بماء زمزم اي تطهيره، قال الطبرسي[3]: (وكذلك ما روي أنه شق بطنه وغسله، لانه ﷺ كان طاهرا مطهرا من كل سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء).

لم لم يخلق الله قلب رسوله ﷺ كما خلق قلوب أخوانه من الانبياء عليهم السلام، نقيا من السوء بغير هذه العملية الجراحيةالتي مزقت صدره الشريف.

الغريب أن قضية شق صدره الشريف تكررت مرارا، كانت اولها حينما زعم البعض انه كان في ديار بني سعد ايام صباه! [4] ولا يعرف ما الداعي لتكرارها اذن؟ هل كانت تلك العمليات تفشل في تحقيق المطلوب فيعاد اجرائها مجددا.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥ / ٦.

(٢) العواد: السيدة فاطمة عليها السلام ص٨٧ ١٠٣.

(٣) الطبرسي: ابوعلي الفضل بن الحسن ت٥٤٨ هـ مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء، الطبعة الاولى، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤١٥ هـ. ٦/ ٢١٦.

(٤) تناقلت المصادر قديمها وحديثها روايات تشير إلى أن النبي ﷺ قد تربى في ديار بني سعد لارضاعه من أمراة تدعى حليمة السعدية، وهناك يمضي النبي ﷺ ما بين ٤ ٦ سنوات، بعيدا عن أمه الفتاة الصغيرة، يرعى الغنم وليشق صدره الشريف، وبعد عودته تموت امه ليكون الفضل كله لتلك المرأة التي أسموها حليمة السعدية. لمزيد من التفاصيل ينظر بحثنا: نشأة النبي محمد ﷺ في ديار بني سعد، مجلة دراسات تاريخية، العدد التاسع، ٢٠١٠. ص ١ ٣٨.

إن الروايتين عن أنس بن مالك الذي لم يكن من أهل مكة بل هو من الانصار، وكان صغيرا لما هاجر النبي ﷺ، فإدعى أنه كان خادما للنبي ﷺ[1].

الشبهة الثالثة:

دابة النبي ﷺ

يظهر أن العقل اليهودي، وسذاجة العقل العربي يومذاك لم يستوعبا أن يتم الإسراء والمعراج وفق المشيئة الإلهية كسرعة البرق، ففهمت كلمة البرق بأنها البراق، عند ذاك صار السؤال عن طبيعة هذا البراق. فكان لابد من الأثر المادي، وأن حركة النبي ﷺ تستوجب أن ينتقل عن طريق آلة ما، وليس هناك آلة يومذاك إلا عن طريق الحيوان، وهوفي بلاد العرب يتمثل بالبعير أوالحصان أوالبغل اوالحمار، ولعل العقل العربي تصور أن يكون حيوانا صغيرا ليكون خفيفا في اختراق المسافات، لذا استبعد البعير لكبره وثقله، وقلة سرعته، وكذا الحصان والبغل، فلم يبق إلا الحمار، ولا يمكن الصعود عن طريق الحمار لأنه دابة الضعفاء، لذا تصوروه البراق انه دون البغل وفوق الحمار، إذا النبي ﷺ انتقل عن طريق حيوان يسمى البراق، وهودون البغل وأكبر من الحمار.

«جاء جبرئيل إلى رسول الله ﷺ بدابة دون بغل وفوق الحمار رجلاها أطول من يديها خطوها مد البصر، فلما أراد النبي أن يركب امتنعت فقال جبرئيل: إنه محمد فتواضعت حتى لصقت بالأرض قال: فركب فكلما هبطت ارتفعت يداها وقصرت رجلاها، وإذا صعدت ارتفعت رجلاها وقصرت يداها»[2].

وقال ابن هشام: (قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم في الحجرإذ جاءني جبريل...

---

(١) تنظر ترجمته: ابن عبد البر: أبوعمر يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣ هـ، الاستيعاب في اسماء الاصحاب، منشور بهامش الإصابة لابن حجر، دار الفكر، بيروت،١٩٧٨. ١/ ٧١ ـ٧٣، ابن حجر: شهاب الدين أبوالفضل احمد بن علي ت ٨٥٢ هـ، الاصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨. ١ / ٧١ـ٧٢.

(٢) الصدوق: أمالي الصدوق ص٥٣٤، البحراني: السيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة البعثة، قم، ب.ت. ٣/ ٤٨٥، المجلسي: بحار الأنوار ١٨/ ٢٣٣، الحائري: محمد مهدي ت١٣٦٩ هـ شجرة طوبى، الطبعة الخامسة، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥ هـ. ١/ ١٩٣.

فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.)[1].

وقال ايضا: (قال ابن إسحاق: وحدثت عن قتادة أنه قال: حدثت أن رسول الله ﷺ قال: لما دنوت منه لأركبه شمس، فوضع جبريل يده على مغرفته، ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع، فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه. قال: فاستحيا حتى ارفض عرقا، ثم قر حتى ركبته). [2]

والواقع أن حركة النبي ﷺ كانت كسرعة البرق، ولا أثر لحيوان، وقد تناسى الراوي جبرئيل، فلم يخصص له دابة، فإذا كان النبي ﷺ بحاجة لدابة تنقله في رحلة واحدة، إذا كيف كانت تنتقل الملائكة عبر أزمان لا يعلم مداها إلا الله تعالى؟!!!. ولا ادري لوكان الاسراء في زماننا هل تم بهكذا حيوان؟!!!.

الشبهة الرابعة:

كيفية تعامل جبرئيل مع النبي ﷺ ؟

ذكر ابن هشام: (قال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه، فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.). [3]

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤، الطبري: أبوجعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥. ١٥ / ٦. الكلاعي: سليمان بن موسى ت ٦٣٤، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٣٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤، القرطبي: أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت٦٧١ هـ الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥. ١٠ / ٢٨٤.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤، الطبري: جامع البيان ١٥ / ٦. الكلاعي: الاكتفاء ص٢٣٥،

هل هذا التعامل من جبرئيل جائز، ثم مع من؟ مع النبي ﷺ ؟

الشبهة الخامسة:

إن الإسراء والمعراج كان روحانيا؟

ورد عن السيدة عائشة أنها قالت: «ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن الله عز وجل أسرى بروحه[1].

أن السيدة عائشة لم تكن وقتذاك زوجة للنبي ﷺ لان الإسراء والمعراج وقعا في مكة بلا خلاف[2]، والنبي ﷺ لم يتزوج في مكة إلا السيدة خديجة وماتت في السنة العاشرة للهجرة[3]، وفي السنة الأخيرة تزوج سودة بنت زمعة[4]، أما السيدة عائشة فتزوجها بعد الهجرة[5]، فضلا عن ذلك أنها كانت وقت الإسراء والمعراج في عمر لا يضبط الأحداث، قال العيني: (وأما قول عائشة: ما فقد جسده، فلم يحدث عن مشاهدة لأنها لم تكن حينئذ زوجة ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت) [6].

الشبهة السادسة:

إن الإسراء والمعراج كان رؤيا ولم يكن واقعا؟

ورد عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول: «كانت رؤيا من الله تعالى صادقة» [7].

يظهر أن معاوية لم يع أنه يمكن أن يتم الإسراء والمعراج بالجسد، وبما أن الأمر

القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٨٤.

(١) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٥، ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٥.

(٢) رغم اختلاف الروايات في تحديد تاريخ الاسراء والمعراج لكنها اجمعت انه في مكة قبل الهجرة. لمزيد من التفاصيل ينظر. انتصار العواد: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ص ٨٧ ١٠٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل ينظر: حسين علي الشرهاني: حياة السيدة خديجة بنت خويلد،دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٥. ص١٦١ ١٨٧، ٢٧٧ ٢٩٢.

(٤) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٥٤.

(٥) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ٣٥٧، ابن حجر: الاصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٣٥٩.

(٦) العيني ت٨٥٥ هـ: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب.ت. ١٥ / ١٢٦.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٥.

ورد في القرآن إذن فالأمر كان بالرؤيا. ولعلها محاولة من معاوية للتقليل من شأن النبي ﷺ. ولا يبعد اثر كعب الأحبار [1] عن ذلك، إذ كان من مريدي معاوية[2].

لكن القرآن حسم الأمر وأكد أن الإسراء كان بجسده وروحه، «سبحان الذي أسرى بعبده»[3] وكلمة العبد حينما تطلق يراد بها الجسد والروح، وكذا الحال في سورة النجم «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)»[4].

فالآية صريحة أن النبي ﷺ رأى جبرئيل مرتين الأولى على الأرض «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢)»[5] والمرة الثانية في المعراج «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ

---

(١) هوابواسحاق كعب بن مانع من آل ذي رعين أومن آل ذي الكلاع، من اهل اليمن، قدم المدينة في عهد عمر بن الخطاب واسلم، روى عن النبي ﷺ مرسلا، وروى عن عائشة وعمر بن الخطاب وصهيب، وروى عنه من الصحابة ابوهريرة وعبد الله بن عمر وابن عباس وابن الزبير ومعاوية، ومن التابعين سعيد بن المسيب، وسكن الشام حتى توفي ايام عثمان، وامره معاوية أن يقص في المسجد فانتشرت رواياته الاسرائيلية، في فضل الشام وغيرها، مات في الشام سنة ٣٢ هـ في حمص. ينظر: ابن حجر: الاصابة ٣/ ٣١٥ ٣١٧. اسرائيل بن ولفنسون: كعب الاحبار، الطبعة الثالثة، راجع الترجمة: لويس صليبا، جبيل، لبنان. ٢٠١١.

(٢) قال معاوية: «ألا أن كعب الاحبار أحد العلماء إن كان عنده لعلم كالبحار وان كنا فيه لمفرطين). ابن حجر: الاصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٣١٦.

(٣) سورة الاسراء الاية ١.

(٤) سورة النجم الايات ١ ١٨.

(٥) سورة النجم الايات ٤ ١٢.

يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) »[١].

أي أن النبي ﷺ رأى جبرئيل عند سدرة المنتهى، وأن بصر النبي ﷺ لم يزغ ولم يطغى عما مسموح له أن يراه، والقرآن صريح بأن النبي ﷺ رأى من آيات ربه الكبرى والرؤية هنا واقعية بالعين الجارحة وليست رؤيا في المنام.

الشبهة السابعة:

داعي اليهود وداعي النصارى وداعي الدنيا

تشير الرواية أن النبي ﷺ في حركتة الاعجازية نودي من اليمين، فلم يلتفت ونودي من اليسار فلم يلتفت، ثم نادته امرأة عارية فلم يلتفت إليها. فجاء في الرواية «قال: فبينا انا في مسيري إذ نادى مناد عن يميني، يا محمد! فلم أجبه، ولم ألتفت إليه، ثم ناداني مناد عن يساري، يا محمد! فلم أجبه، ولم التفت إليه، ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة الدنيا، فقالت: يا محمد! انظرني حتى أكلمك، فلم ألتفت إليها،... ثم قال لي [جبرئيل]: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني مناد عن يميني، فقال لي: أوأجبته؟ فقلت: لا، ولم التفت إليه، فقال: ذاك داعي اليهود لوأجبته لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال: ماذا رأيت؟ فقلت: ناداني مناد عن يساري، فقال: أوأجبته؟ فقلت: لا، ولم التفت إليه، فقال ذاك داعي النصارى، لوأجبته لتنصرت أمتك من بعدك، ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة. فقالت: يا محمد انظرني حتى أكلمك، فقال لي: أفكلمتها؟ فقلت لم أكلمها ولم التفت إليها، فقال: تلك الدنيا، ولوكلمتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة)[٢].

لم يتضح مالمقصود بجواب النبي ﷺ هل يجيبهما لدعوتهما؟ وماذا يعني تهود أمته وتنصرها؟ فهل فعل الأمة تابع لأفعال النبي ﷺ ؟ أم لأفعالها هي؟ ومالمقصود بالأمة وقتذاك؟ ومن هوداعي اليهود هذا؟ ومن هوداعي النصارى؟ وماذا يعني وجودهما بين السماء والأرض؟

---

(١) سورة النجم الايات ١٣ ١٨.

(٢) القمي: تفسير القمي ٢ / ٤، السيد هاشم البحراني: البرهان في تفسير القرآن ٣ / ٤٧٣.

ثم لماذا الربط بين (إتباع الدنيا) وبين المرأة، مع أن الحياة التكليفية مشمول بها الاثنين، فإذا كانت المرأة مصدر إغواء للرجل فمن هومصدر إغواء المرأة.

الشبهة الثامنة:

عدم علم السماء ببعثة النبي ﷺ

تشير الرواية إن جبرئيل طرق باب السماء، فسألوا من؟ فقال: جبرئيل. فقيل: من معك؟ فقال: محمد. فقيل: أوبعث؟ بل كان السؤال يتكرر عندكل سماء.[1]

الغريب إن الملائكة المقربين لم يعلموا ببعثة النبي ﷺ وقد مضى عليها عدة سنين.

الشبهة التاسعة:

إناء الماء واللبن والخمر

تشير الرواية انه لما بلغ النبي ﷺ بيت المقدس[2] أوفي رواية لما حل في السماء[3]، ولعله من باب الضيافة قدم للنبي ﷺ اناءان احدهما فيه لبن والاخر فيه نبيذ[4] وقيل، ثلاثة أواني: إناء فيه ماء، وإناء فيه لبن، وإناء فيه خمر. ثم طلب من النبي ﷺ أن يشرب احدها[5]. فتبين أن الأمر اختبار وليس ضيافة.

فاختار النبي ﷺ اللبن وشربه، فقال جبرئيل: حسنا فعلت. انك لوشربت الماء لغرقت أمتك. ولوشربت الخمر لغوت أمتك. ولكنك شربت اللبن فهديت أمتك. [6]

موضع الإشكال هنا:

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ص ٢٢٧، ٢٢٩، البخاري: صحيح البخاري، ٤ / ٢٤٨.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٦.

(٤) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٦، ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٤، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٢٨٥.

(٥) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٥، ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٣. البخاري: صحيح البخاري ٤ / ٢٤٩، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ٢٨٤. الكلاعي: الاكتفاء ص٢٣٤.

(٦) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٦، ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٣، ٢٢٤، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٨٤. الكلاعي: الاكتفاء ص٢٣٤.

أولاً: الماء: لماذا تم الربط بين شرب الماء وإحدى خواصه السلبية وهوالغرق. والمعلوم أن الماء هوأصل الوجود وأصل الحياة، قال تعالى «وجعلنا من الماء كل شيء حي»[1]، وكذا الحال فالماء مطهر للإنسان حيا وميتا، بل مطهر لكل شيء، ولا غنى للإنسان وغير الإنسان من المخلوقات الحية عن شرب الماء، فهوالمفضل والمقدم على سائر الاشربة.

وما المقصود بغرق الأمة؟ ومن هي الأمة في أيام المعراج؟ إنهم يعدون عدا يومذاك؟ ثم الم تغرق الأمة عبر تاريخها[2].

ثانيا: الخمر: نحن نعلم إن في الدنيا من يقوم بعملية تحضير شراب الخمر من عصير العنب أوغيره، لكن من يقوم بهذا الفعل في السماء وبين الملائكة المقربين؟!، وهل يصح أن يقدم الخمر للنبي ﷺ من باب الضيافة! أليس في هذا امتهانا لمكانة النبي ﷺ وإذا كانت المسألة من باب الاختبار للنبي ﷺ لمعرفة خبايا نفسه، فهل هذا يعقل والسماء قد اختارته نبيا بل خاتم الأنبياء منذ سنين خلت؟!!!.

وإذا نظرنا إلى الواقع التاريخي فهل لم تغوالأمة؟ والنبي ﷺ يقول «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذوالقذة بالقذة والنعل بالنعل»[3]. وهل بقيت موبقة لم ترتكبها الأمة؟!.

ثالثاً: اللبن: تشير الرواية إن جبرئيل قال للنبي ﷺ حسنا فعلت بشربه للبن، لان على ذلك ترتب أمر هداية الأمة، فهل فعلا أن الأمة هديت؟ فمن هوالذي ضرب الكعبة بالمنجنيق؟[4] ومن هوالذي استباح مدينة رسول الله ﷺ حتى ولد أطفال

---

(١) سورة الانبياء الاية ٣٠.

(٢) لقد تحدث المؤرخون عن الكوارث الطبيعية التي كانت تحل بالعالم الاسلامي في كل عام. ينظر مثلا تاريخ الرسل والملوك للطبري ت٣١٠ هـ والمنتظم في تاريخ الملوك والامم لابن الجوزي ت٥٩٧ هـ والكامل في التاريخ لابن الاثير ت٦٣٠ هـ والبداية والنهاية لابن كثير ت٧٧٤ هـ.

(٣) ابن ابي شيبة: عبد الله بن محمد ت٢٣٥ هـ المصنف في الاحاديث والاثار، ضبطه وعلق عليه: سعيد اللحام، الطبعة الاولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩. ٨ / ٦٣٤، الشهرستاني: أبوالفتح محمد بن عبد الكريم ت٥٤٨ هـ الملل والنحل، تحقيق: محمد سعبد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ب.ت. ١ / ٢٠، المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين ت ٩٧٥ هـ كنز العمال في سنن الاقوال والافعال،مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩. ١١ / ٢٥٣،

(٤) ضربت الكعبة بالمنجنيق مرتان، الاولى على يد الحصين بن نمير حينما حاصر ابن الزبير في مكة ايام

كثر لم يعرف لهم أب بمدينة النبي ﷺ ؟[1]، ومن الذي استباح البيت النبوي ذبحا وعطشا وسبيا على شاطئ الفرات وفي بلاد المسلمين؟[2] هل الذي قام بذلك الروم أوالديلم أوالترك أم المسلمين؟ فأين الهداية والنبي ﷺ لم يمض على وفاته سوى نصف قرن؟؟؟!!.

نعم لا إشكال أن يقدم للنبي ﷺ ماء ولبن وخمر. فالماء هوالشيء المقدم أولا والمفضل لأي قادم، إما اللبن فلعله هوالطعام المفضل والمألوف يومذاك، أما الخمر فلا مانع من ذلك لكنه ليس خمر الدنيا وإنما خمر الآخرة الذي أشار إليه القرآن الكريم وأنه شراب أهل الجنة.

لكن الراوي إما عمدا يسيء إلى مقام النبي ﷺ أوجهلا بالواقع ذهب بعيدا في تأويلاته وإضافاته.

الشبهة العاشرة:

الخمسون صلاة

ذكر الطبري: «وموسى في السابعة بتفضيل كلامه الله، فقال موسى: لم أظن أن يرفع علي أحد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى فكان قاب قوسين أوأدنى، فأوحى إلى عبده ما شاء، وأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمته كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إلي خمسين صلاة على أمتي

يزيد بن معاوية، والثانية على يد الحجاج بن يوسف الثقفي عندما حاصر ابن الزبير ايام عبد الملك بن مروان. ينظر: ابن الاثير: عز الدين ابوالحسن علي بن ابي الكرم ت٦٣٠ ه، الكامل في التاريخ، حققه: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦. ٣/ ٢٢٢، ٤٠٠.

(١) وهوما عرف بموقعة الحرة. ينظر: ابن قتيبة: ابومحمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ الامامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، الطبعة الاولى، مكتبة الحيدرية، ١٤٢٨ هـ. ١ / ٢٢٤ ٢٤٣ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢١١ ٢١٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن مجزرة كربلاء ينظر: الخوارزمي الحنفي: أبوالمؤيد الموفق بن أحمد المعروف بأخطب خوارزم ت ٥٦٨ هـ مقتل الحسين ﵇، تحقيق: محمد السماوي، دار أنوار الهدى، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ. ٢/ ٩١٣.

كل يوم وليلة قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك وعنهم، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه أن نعم، فعاد به جبرائيل حتى أتى الجبار عز وجل وهومكانه، فقال: رب خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى عليه السلام فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه عند الخمس، فقال: يا محمد قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من هذه الخمس، فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبصارا وأسماعا، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت إلى جبرئيل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبرئيل، فرفعه عند الخمس، فقال: يا رب إن أمتي ضعاف أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فخفف عنا قال الجبار جل جلاله: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، فقال: إني لا يبدل القول لدي كما كتبت عليك في أم الكتاب، ولك بكل حسنة عشر أمثالها، وهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفف عني، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من هذا فتركوه فارجع فليخفف عنك أيضا، قال: يا موسى قد والله استحييت من ربي مما أختلف إليه قال: فاهبط باسم الله، فاستيقظ وهوفي المسجد الحرام.». [1]

تشير الرواية إن النبي صلى الله عليه وآله حينما انتهى إلى سدرة المنتهى ولقاؤه بالذات المقدسة في السماء السابعة عاد يخترق السماوات حتى انتهى إلى السماء السادسة حيث موسى عليه السلام الذي سأله عما افترض الله عليه، فاخبره النبي صلى الله عليه وآله أن الله فرض عليه وعلى أمته خمسون صلاة في اليوم. فما كان من موسى إلا واخذ بنصح النبي صلى الله عليه وآله وضرورة مراجعة الله ليخفف هذا الفرض، لان امة النبي محمد صلى الله عليه وآله ضعيفة لا تقوى على ذلك، وإذا بالنبي صلى الله عليه وآله يرجع إلى السماء السابعة ويسجد ويطلب من الله التخفيف، فيقلل الله عدد الصلوات إلى ٤٠ ويرجع النبي صلى الله عليه وآله ولكنه في طريق عودته يجد موسى عليه السلام في مكانه فيسأله، فيخبره بأن الله خففها عشرا، فيعترض موسى عليه السلام ويشير على النبي

(١) الطبري: جامع البيان ١٥ / ٨٧، وينظر: ابن هشام: السيرة النبوية ص٢٢٩، البخاري: صحيح البخاري ٤/ ٢٤٩ ٢٥٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٤٤.

ﷺ أن يرجع ويسأل الله التخفيف، فيعود النبي ﷺ مرة أخرى فيضع الله عنه عشرا، لتصبح (٣٠) وهكذا يستمر الأمر بالنبي ﷺ والنبي موسى ﷺ يشاوره، والله يضع عنه عشرا ثم عشرا حتى بلغت (خمس صلوات) فقط، فما كان من موسى ﷺ إلا والاعتراض مجددا بضرورة تخفيفها، لكن هنا وبعد عدة محاولات يظهر النبي ﷺ استحياؤه من مراجعة ربه، ولوأن النبي ﷺ صعد كما في المرات السابقة لألغيت جميع الصلوات لان الله تعالى كان يخفف (١٠) صلوات كل مرة، وبقيت (٥) صلوات فقط

لا إشكال في مكانة النبي موسى ﷺ وأنه من أولي العزم الخمسة[1]، بل هوكليم الله تعالى[2]. ووجوب تقديسه والإيمان به (لا نفرق بين احد من رسله)[3].

تظهر الرواية مكانة للنبي موسى ﷺ أفضل من النبي ﷺ، بل أن النبي ﷺ لا يفقه شيئا سوى الاستسلام التام لما يذكره النبي موسى ﷺ.

بعد مراجعة النبي ﷺ لله تعالى تم تخفيف الصلوات إلى (٥) صلوات فتبين أن قول موسى ﷺ صائبا حتى على حساب الله تعالى، فالله ذاته لم يكن عارفا بحقيقة أمة النبي ﷺ.

إن الله سبحانه وتعالى هوالأعرف والأعلم بمصالح العباد، وهوتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، فكيف يكلف أمة النبي ﷺ بخمسين ﷺ ثم يتراجع عن ذلك، فهل بدا له صحة قول موسى ﷺ ؟

كيف يصدر عن النبي موسى ﷺ اعتراض على تشريع الله تعالى. والأنبياء هم الأولى بالتسليم لأوامر الله كونهم الأعرف للحقيقة الإلهية.

يبدوإن الرواية أرادت أن تثبت فضلا للنبي موسى ﷺ على أمة النبي ﷺ وتؤكد على أفضلية واعلمية النبي موسى ﷺ على النبي محمد ﷺ.

نلاحظ أن الرواية ختمت بأن النبي استيقظ فإذا هوفي المسجد الحرام، فلاحظ دس الراوي ليقول أن المعراج كان رؤيا.

---

(١) سورة الاحزاب الاية ٧.

(٢) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٣) سورة البقرة الاية ٢٨٥.

والغريب أن ابن اسحاق يروي أن فرض الصلوات الخمس في بيت المقدس اي قبل المعراج[1].

الشبهة الحادية عشرة:

أكثر أهل النار من النساء.

أشارت الرواية إن النبي ﷺ طلب من جبرئيل أن يطلع على الجنة والنار، فرأى أن أكثر أهل النار من النساء، ولذا رأى صورا مرعبة لعدد من النساء وهن يعذبن[2].

يلاحظ على الحديث أنّ هذا لا يناسب ما نعلم من النبي «ﷺ»من خلق عظيم، قال سبحانه: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) [3]، وقد ورد في الكتاب الكريم كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال عزّ من قائل: (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالّتي هِيَ أَحْسَن) [4] فهذا يقتضي أن يكلمهنّ النبي «ﷺ»بنغمة ملائمة لا بقوله: فإنّكن أكثر أهل النار. ثمّ لوصحّ الحديث، وثبت انّ الرسول أخبر بأنّ أكثر أهل النار هم النساء، فهناك سؤال آخر وهوانّه كيف يكون النساء أكثر أهل النار مع أنّ الرجال أكثر اقترافاً للذنوب من النساء، لهيمنة الغضب والشهوة عليهم؟ ثمّ إنّ إكثار اللعن ليس إلاّ دعاء، إذا صدر في غير محلّه يكون أشبه بدعاء غير مستجاب، فكيف يكون سبباً لدخول النار وخلودها؟ كما انّ اكفار العشير ليس إلاّ عدم الوقوف على حقّهم، وهوإن لم يكن مقروناً بأمر محرّم، لا يوجب الدخول في النار بل يكون أمراً قلبياً. إنّ الحط من شأن النساء، وجعل أكثرهنّ من أهل النار لا يختص بهذا الحديث، بل ثمة مرويات حول هذا الموضوع تعكس فكرة الجاهلية في حقّ النساء، فقد روى عمارة بن خزيمة، قال: بينا نحن مع عمروبن العاص في حجّ أوعمرة، فقال: بينما نحن مع رسول اللّه «ﷺ»في هذا الشعب إذ، قال: انظروا هل ترون شيئاً؟ فقلنا:

---

(١) ابن اسحاق: السير والمغازي ص٢٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٣٥.

(٢) حسين النوري: الميرزا الطبرسي ت ١٣٢٠ هـ مستدرك الوسائل ومستنبط الوسائل، تحقيق: مؤسسة اهل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧. ١٤ / ٢٤٣، البروجردي: آقا حسين الطباطبائي، جامع أحاديث الشيعة، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٩ هـ. ٢٠ / ٢٤٠.

(٣) سورة القلم الآية ٤.

(٤) سورة النحل الآية ١٢٥.

نرى غرباناً، فيها غراب أعصم، أحمر المنقار والرجلين. فقال رسول الله «ﷺ»: لا يدخل الجنّة من النّساء إلاّ من كان منهنَّ مثل هذا الغراب في الغربان[1]. والحديث كناية عن قلة عدد النساء في الجنة وانّه لا يدخل منهن إلاّ اليسير النادر، فكأنّه سبحانه خلق النساء للنار والرجال للجنة، تبارك وتعالى عن ذلك. [2]

والواقع أن هذا يعود للرؤية اليهودية ولا يستبعد البدوية أيضا للمرأة إذ أن الرؤية سلبية عند اليهود للمرأة حتى حملوها مسؤولية خروج آدم من الجنة[3]، ولا يبعد الأثر البدوي الذي ينظر للمرأة بقسوة حتى أن البداوة كانت توئد البنت حال ولادتها. [4]

نخلص مما مر أن الأثر اليهودي حاضر في صياغة حادثة الإسراء والمعراج من عدة وجوه:

جمع الحادثتان في حادثة واحدة، فالنبي ﷺ يسرى به من المسجد الحرام (مكة) إلى المسجد الأقصى، ومن هناك يعرج به إلى السماء. فهنا محاولة لإعطاء أفضلية للمسجد الأقصى على المسجد الحرام. وكأن المسجد الحرام غير مؤهل للعروج منه إلى السماء.

الأثر المادي في تصوير حركة النبي ﷺ في الإسراء أوالمعراج التي كانت كسرعة البرق، مصورين إن النبي ﷺ أسري أوأعرج به على دابة. تسمى البراق، ثم أعطوا لها أوصافا ما.

التأكيد على أن الإسراء أوالمعراج إنما هورؤيا للتقليل من شأن المعجزة. إذ أن الرؤيا يمكن أن يتخيلها كل شخص.

التأكيد على الجبرية والحتمية في مصير الأمة الذي أريد أن يتم ربطه بشرب النبي ﷺ للماء أواللبن أوالخمر، والإساءة لمقام النبي ﷺ بأن قدم له الخمر.

---

(١) ابن حنبل: أحمد ت ٢٤١ هـ، مسند أحمد، دار صادر، بيروت، ب.ت. ٤ / ١٩٧.

(٢) جعفر السبحاني: الحديث النبوي بين الرواية والدراية، الطبعة الاولى، قم، ١٤١٩ هـ. ص١٢٧ .١٢٨.

(٣) شبر زهيرة الفقيه: المرأة بين جاهليتين، الطبعة الاولى، دار المتقين، بيروت، ٢٠١٠. ص٣٧.

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: مريم نور الدين فضل الله، المرأة في فضل الاسلام، الطبعة الاولى، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٩. ص١٣ ٢٠.

التأكيد على أن السماء لم تكن قد أعطت النبي ﷺ الثقة الكاملة فكان موضع اختبار في قضية الأواني الثلاث.

يظهر الأثر اليهودي واضحا في مسألة تشريع الصلاة إذ بفضل النبي موسى عليه السلام تم التخفيف الصلاة من (٥٠) إلى (٥) صلوات فقط، وفي هذا دلالة على تفضيل النبي موسى عليه السلام وأنه الأعلم من النبي محمد ﷺ الذي أظهرته الرواية لا يملك من أمره سوى الامتثال لما يمليه عليه النبي موسى عليه السلام.

ولا يبعد الأثر اليهودي في إدعاء الرواية أن أكثر أهل النار من النساء، إذ أن الرؤية اليهودية سلبية للمرأة.

التعايش السلمي
بين المجتمعات الإنسانية

رسول البشرية قدوة

السيد علي عاشور
مؤلف وباحث من بيروت

السيد علي عاشور

السيد علي عاشور العاملي: هو السيد علي بن محمد بن حيدر بن حسين بن عاشور العاملي الشقراوي.

ولد في بلدة شقراء العاملية في جنوب لبنان عام ١٩٦٩ ميلادية، ودرس في قم المقدسة فأكمل دراسته الحوزوية حتى عام ٢٠٠١ فاستقرّ في بلدة شقراء جنوب لبنان فدرّس وتفرغ للعمل التبليغي.

حقق الكثير من الكتب أهمها: مكيال المكارم، الطرائف لابن طاوس، إلزام الناصب للحائري، تفسير الثعلبي، ومشارق أنوار اليقين للبرسي.

وألّف في التاريخ والسيرة والاجتماع والأسْرَة منها: فاطمة بنت محمد ﷺ قدوة للنساء، طهارة آل محمد ﷺ، ولاية الفقيه الدستور الإلهي للمسلمين، فقه الأسرة وآدابها، من غير علي ﷺ يجيب، أسباب انتصارات حزب الله، ماذا قال علي ﷺ عن آخر الزمان، معاجز الدعاء وآثاره، آثار الذنوب وبركات التوبة، ظهور المهدي ﷺ وعدالة دولته، عجائب قبة الحسين ﷺ، المكنون من علم آل محمد ﷺ، عجائب قدرة آل محمد ﷺ، تربية الجنين في رحم أمّه، التربية الفاشلة وطرق علاجها، جفر الإمام علي ﷺ، أهوال عالم البرزخ والنجاة من عذاب القبر، تفسير القرآن الكريم برواية أمير المؤمنين ﷺ، آداب وقوانين الجسم الطبّي، موسوعة أمير المؤمنين ﷺ (ج ٢٠)، موسوعة أهل البيت ﷺ (ج ٢٠)، موسوعة الإمام الحسين ﷺ (ج ٢٠)، موسوعة فاطمة الزهراء ﷺ (ج ١٠)، موسوعة زينب الكبرى ﷺ (ج ١٠)، الجواهر في تفسير القرآن برواية أميرالمؤمنين وآله ﷺ (ج ٣٠).

مارس العمل الاجتماعي خاصة في الجانب الطبي، فأسس لهذا الغرض «مركز النور الطبي التخصصي» في جنوب لبنان.

أهمية التعايش مع كل البشر

إنّ التقوقع أو الاعتزال من بعض الأشخاص أو الفئات أو الأحزاب حالة شاذة في المجتمعات وخارجة عن الإنسانية، ولا يقع فيها إلا من كانت لديه مشكلة نفسية أو عائلية أو اجتماعية أو قانونية.

فعلى الإنسان مهما كان عرقه أو دينه التواصل مع بني جنسه قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1] فالتعارف يؤدي بنا الى التواصل ومشاركة الناس في أفراحهم وأحزانهم، فنفرح عندما يفرحون ونحزن عندما تحلّ بهم مصيبة أو فاجعة، وفي كلي الحالين تحصل حالة الانصهار الاجتماعي وتبادل المشاعر والخُبُرات والعلوم المتنوعة، وبذلك يتحقّق الشرط الأهم في بناء السعادة المطلقة للمجتمع الإنساني.

وبالتالي الاعتزال أو التنحي أو التقوقع سبب من الأسباب التي تؤدي الى فشل الشخصية أو الحزب أو الجماعة ولو جزئياً، بالإضافة الى المردود السلبي لأدائها على الحالة الاجتماعية.

وقد ورد في الروايات ما يحث على معاشرة كافة الناس وترك التقوقع الذي يضر بالشخص أو المجتمع:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّه لا بدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بدّ لبعضهم من بعض»[2].

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) أصول الكافي: ٢ / ٦٣٥ ح ١.

فالشارع المقدّس حثّ على مشاركة الناس في شؤونهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ونظر إلى الفرد بأنّه واحد من كلّ، واعتبر أن من يخالط الناس أجره عند الله تعالى أكثر من العابد المنعزل عنهم وإنْ أَكْثَرَ من صلاته وصومه وصدقته.

شواهد تاريخية على التعايش

إن سيرة النبي الأكرم ﷺ مليئة بالتعايش السلمي مع بني البشر ومن مختلف الأديان والطبقات.

فمعاشرته لبعض اليهود والنصارى خاصة لجيرانه منهم معروفة ومشهورة الأمر الذي كان يكشف عن كمال خلقه صلوات الله عليه.

وكذلك سيرته ﷺ الحياتية مع الفقراء والمرضى وأصحاب العاهات الخاصة ومجالستهم ومؤاكلتهم، وكذلك مع الشعوب المختلفة في اللون والبشرة.

بل نجده صلوات الله عليه كان يتعاطى بالأخلاق الحسنة حتى مع الأسرى والسبايا فقد روي أنه لما جاء سبي فارس في خلافة عمر كان فيهن ثلاث بنات للملك يزدجرد فأمر عمر برفع قناعهن فرفضوا فأراد ضربهن فمنعه أمير المؤمنين عليه السلام وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ارحموا عزيز قوم ذل وغني قوم اقتصر[1].

وروي أنه جيء بأسرى طيء وفيهم ابنة حاتم الطائي فعرفها النبي وقال: أكرموا عزيز قوم ذلّ، إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، فأطلق سبيلها، وردَّ لها ما سلب منها وأكرمها وقدم لها وسادة.

فآمنت ودعت له بأحسن الدعاء قائلة: أصاب الله ببرك مواضعه ولا جعل لك عند لئيم حاجة ولا سلب نعمة قوم إلا جعل ردها على يديك....[2].

ومقولة النبي ﷺ يوم فتح مكة مشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء[3].

وقوله: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن[4].

---

(١) نور الأبصار: ١٢٦، والإمام علي عليه السلام للخليلي: ٢٨٩.

(٢) شرح القصيدة الرائية للخليلي: ١٩٦، وقريب منه في شجرة طوبى للحائري: ٢ / ٤٠٠، وأعيان الشيعة: ١ / ٤١٥.

(٣) الكافي: ٣ / ٥١٣ ح ٢، وتهذيب الأحكام: ٤ / ٣٨ ح ٩٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ١ / ١٧٨، والطرائف: ٣٩٠، والخصال: ٢٧٦.

وقال ﷺ: ارحموا عزيز قوم ذل و غني قوم افتقر وعالم يتلاعب به الجهال [1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إني لأرحم ثلاثة وحق لهم أن يرحموا: عزيز أصابته مذلة بعد العز وغني أصابته حاجة بعد الغنى وعالم يستخف به أهله والجهلة[2].

وهذا دليل يحل لنا مشكلة إكرام بعض الناس خاصة غير المسلمين إذا كانت لديهم خدمات إنسانية، كإزالة القنابل العنقودية أو بناء الجوامع والحسينيات من بعض الهيئات الدولية.

قال النبي الأكرم ﷺ: تجافوا عن عقوبة ذوي المروءة ما لم يقع في حدّ وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

فقيل: يا رسول الله: من أدبك؟

قال ﷺ: أدبني ربي [3].

الأُسلوب القرآني في دعوة المجتمعات

ولا بأس باطلالة سريعة على الأساليب التي أمر الله تعالى بها للتعايش مع كل خلق.

قال تعالى: (وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) [4].

وقال سبحانه: (خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[5].

وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) [6].

وقال عزّ مِن قائل: (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ

(١) بحار الأنوار: ٢ / ٤٤ ح ١٦، ومعدن الجواهر للكراجكي: ٣١.
(٢) أمالي الصدوق: ٦٢ ح ٢٢.
(٣) مستدرك الوسائل: ٨ / ٣٩٧ ح ٩٧٨٥، والوسائل: ١٢ / ١٠١ ح ١٥٧٥٥، والكافي: ٢ / ٦٥٩ ح ١ باختصار.
(٤) سورة البقرة: ٨٣.
(٥) سورة الأعراف: ١٩٩.
(٦) سورة الرعد: ٢٢.

تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ) [١].

وقال سبحانه: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [٢].

وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [٣].

هذه الآيات تعطي تقريباً نموذجاً واضحاً للأسلوب القرآني الذي مشى عليه النبي الأعظم صلوات الله عليه وآله في الدعوة بل وكل أنبياء الله عليهم السلام.

ويلاحظ في الآيات تكرار قوله تعالى: الناس، الدال أن الإسلام في دعوته يأخذ بعين الاعتبار كل البشر بمختلف أديانهم ومعتقداتهم.

ويمكن أن نمثل ذلك بمواقف:

الموقف الأول: خطاب الناس والتعامل معهم

والأسلوب القرآني فيه هو قول الحُسنى واتباع المعروف واستيعاب الأجواء المتشنجة بالكلام الحَسن والجميل، بل ودفع السيئة، ولكن بالفعل الحسن الإيجابي.

فمعنى: (يدرؤون بالحسنة السيئة) بليغ، إذ فيه دفع للسيئات ليس بالإعتراض عليها بل بتناسيها وإعطاء صاحب السيئة الشيء الحسن قولاً أو فعلاً، كمن شتمك فليس فقط لا تشتمه، بل تتلطف معه وتدعوه إلى بيتك وتعطيه مالاً وطعاماً، وهو ما كان يجده الذين يعرفون القرآن ويعملون بتأويله عليهم سلام الله، كما جرى مع إمامنا الحسين عليه السلام [٤].

فالسيئة لا تدفع بالسيئة بل لا يدفع السيئة إلاّ الحسنة.

وهذا الموقف مجرّب من قبل أهل البيت عليهم السلام والعلماء الذين نهجوا نهجهم وكله نفع، وهو ما أشار إليه تعالى في قوله: (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

---

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة الحُجرات: ١٣.

(٤) انظر العوالم: ٦٤، والأنوار البهية: ٨٨.

وجادلهم بالتي هي أحسن) [1] وقال تعالى: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) [2].

فالأسلوب المثالي للقرآن أن ندعو بالحكمة والمعرفة والعلم والفطنة نصيغه بكلام لطيف وجميل، فيؤثر بالقلوب ويجذب النفوس فيتحول العدو إلى صديق وليس مجرد صديق بل ولي يتولى الحق وليس بالولي العادي بل ولي حميم.

ما أروع هذا الأسلوب وما أبلغ معانيه في هذه الآية النورانية التي تختصر الكثير من المشاكل والقتل والحروب والعنف بأقل الخسائر وأقصر وقت تحصل على هدفك وترضي ربك وتتحبب إلى الناس وتحببهم فيك.

وهذا الأسلوب لا يفرِّق بين من اختلفت معه في الرأي أو المذهب أو الدين، لأنه عام ونافع للجميع.

والأهم أن هذا الأسلوب يؤسس لعلاقة إنسانية مع كل الناس وإن اختلفوا في الآراء والمذاهب والمعتقدات، علاقة يُبنى على أساسها أسر وعوائل ودُول.

الموقف الثاني: التعامل والتكامل والتعارف

الأسلوب المثالي الآخر في القرآن هو تناسي الخلافات والفروقات من أجل التعايش في المجتمع وتقديم الخدمات من أجل رقي المجتمع وازدهاره، وذلك عبر التعاون على البر والتقوى قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لاَ الْهَدْيَ وَ لاَ الْقَلاَئِدَ وَ لاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [3] وهو ليس خطاب للأمر بالتعاون بين المسلمين فقط بل هو خطاب للمسلمين لكي يتعاونوا على البر والإحسان لبلوغ الكمال الإنساني مع غير المسلمين.

وهو ينهى في نفس الوقت عن الأعمال التي تؤدي إلى الإثم والعدوان في المجتمع عند التعامل مع غير المسلمين من بني البشر.

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة فصّلت: ٣٤.

(٣) سورة التوبة: ٢.

وكأنّ الآية تريد أن تصوّر المجتمعات على أنهم طوائف وآراء ومشارب وأفكار وكذلك خلقهم الله، بل في تنازع واختلاف فيما بينهم، ولكن هذا كله لا يمنع من التعاون على البر والإحسان والخدمة، كالتعاون في زماننا مع كل دول العالم على اختراع الأدوية الطبيّة من أجل علاج الأمراض المستعصية أو تطويرها من أجل خدمة الإنسانية.

نعم التعاون على البر بين المسلمين بمختلف أطيافهم ومشاربهم أوجب وآكد ، لما بينهم من نقاط إلتقاء أكثر.

وفي آية أخرى ذكر سبحانه أن هدف الخلقة التعارف كما تقدم: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ومعنى التعارف التلاقح والتفاهم والتعاون. فهو من أصل الخلقة ومأمورون به من الله تعالى الذي باختياره جعل الناس قبائل وشعوب ولم يجعلهم على دين واحد أو لون واحد أو صفة واحدة.

الموقف الثالث: إحترام إنسانية الإنسان

الأسلوب المثالي الثالث في القرآن الكريم هو ما جاء في قوله تعالى: «لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»[1].

وهذا الأسلوب في عصرنا من أنجح الأساليب لأنه يصوّر الواقع ويقدِّم الحلّ، فالمجتمعات مقسمة إلى أديان مختلفة تتعايش فيما بينها في وطن واحد، فهل ينعزل المؤمن جانباً أم ينخرط في هذه المجتمعات وشعوبها.

فالله تعالى لم يحرّم علينا الإنخراط بل أجاز لنا أن نخاطب الناس بالحسنى حتى لو خالفونا في الدين والمذهب، فضلاً عن الرأي واللون والعادات والطبقات، ثم حثنا على التعامل معهم على أساس البر والتقوى والإحسان كما تقدم في الموقف الثاني .

ثم هنا يُبيح لنا أن نبرّهم ونقسط إليهم أي أن نعطيهم حقوقهم ولا نظلمهم ولا نغشهم ما داموا غير ضارين للمجتمع أو قل غير محاربين ومخادعين ومستعمرين، بل أحب القرآن لنا أن نتعامل معهم بالعدل والإحسان، فلا نحقد عليهم ولا نهينهم. كل

---

(١) الممتحنة: ٨ ٩.

ذلك لأنهم مخلوقون من قِبله تعالى. ولو أراد الله تعالى لخلق الناس أمة واحدة [1]، ولكنه أرادها أمماً وقبائل لتتعارف وتتلاقح وتتنافس وأقربهم إليه من يتقي الله تعالى منهم في خلقه.

وهذا الموقف في القرآن من أروع المواقف وهو الموقف الذي يكرم به الله الإنسان لإنسانيته قال سبحانه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْأنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيم) [2].

وقال: (وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِير مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [3].

فالله تعالى يتباهى بالإنسان وحُسن خلقته حتى لو لم يكن مسلماً، وقد اختصر لنا أمير المؤمنين ﷺ هذا الموقف بقوله المشهور عن الناس: (فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق) [4]ولكل حقوقه وواجباته.

فالإسلام والقرآن حمى الأقليات وصان حقوقهم، ونلاحظ في كثير من الكتابات الإسلامية التي تؤكد على ذلك، منها ما كتبه الأستاذ حسن البنا مثلاً في قضية المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، فقد عالج الموضوع في رسالته «نحو النور»، التي كانت بمثابة مذكرة موجهة إلى ملك مصر وزعمائها منذ أكثر من نصف قرن تقريباً، تحت عنوان «الإسلام يحمي الأقليات ويصون حقوق الأجانب»وفيه دلل على أن الإسلام «قدس الوحدة الإنسانية العامة... ثم قدس الوحدة الدينية العامة، عندما قضى على التعصب، وفرض على أبنائه الإيمان بالأديان السماوية جميعاً»ثم قال... «هذا الإسلام الذي بني على هذا المزاج المعتدل والإنصاف البالغ، لا يمكن أن يكون اتباعه سبباً في تمزيق وحدة متصلة، بل بالعكس، إنه أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية، بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدني فقط»[5].

---

(١) كما في سورة المائدة: ٤٨، (لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم).

(٢) سورة التين: ٤.

(٣) سورة الإسراء: ٧٠.

(٤) نهج البلاغة: ٣ / ٨٤ العهد ٥٣، عهدت لمالك الأشتر، وتحف العقول للحراني: ١٢٧.

(٥) مجموعة الرسائل للإمام الشهيد حسن البنا (طبعة مؤسسة الرسالة بيروت) ص٤٥ ,٢٠٧ المصدر السابق ص٣٣٦.

وقال الشيخ محمد الغزالي [١]: إن «كتاب الله يفرض علينا أن نحقق العدالة حيث كنا، وأن ندعو إلى الإنصاف في كل محفل، لا نبالي بصداقة أو عداوة، بغنًى أو فقر».

وحدة المجتمع ومحذور التنازع

قال تعالى: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...) [٢].

وقال عزّ مِن قائل: (ولا يجرمنّكم شنئان قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب) [٣].

ركّز الإسلام على وحدة المسلمين وتعاونهم فيما بينهم، وحثّهم على فعل البرّ وسبيل الخير من أجل سعادة أفضل.

وأيّ عمل فردي مهما كان متقناً ومدروساً، يبقى يفتقد يد الجماعة وبركاتها، فالعقل والفكر والخبرة إذا كانت من شخص واحد أنتجت عملاً مفيداً، ولكنّها إذا كانت من أشخاص، فإنّها تنتج مشروعاً كبيراً لمكان تعدّد عقولهم وتجاربهم وأفكارهم، إضافة إلى عدم احتمال التنافس أو التقاتل على نفس المشروع أو بعض خصوصيّاته.

فعن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلاّ هدي إلى الرشد»[٤].

ومن العمل الجماعي العمل الذي يُبتني على التشاور، فيستطيع صاحب المشروع الفردي أن يستشير أصحاب الخبرة والعلم في كلّ فنٍّ، لكي يستطيع أن يدرك أفضل تفكير وعمل ممكن من خلال الإستعانة بخبرات وقدرات أقرانه.

ثمّ بيّن سبحانه أن التعاون لابدّ أن يكون على البرّ والتقوى والخير، وليدعوا التعاون على الإثم والفتن بين الناس، لما فيه من تضعيف القدرات لدى الجميع، بل فيه ذهاب الريح أيّ القوّة المعنويّة في المجتمع والتي منها تنتج كلّ أعمال البرّ والتقوى.

وأشارت الآية الثانية إلى أمر مهم وهو أنّ خطأ بعض الأشخاص أو اختلافه مع الآخرين لا يمنع من التعاون على البرّ والخير لبناء المجتمع.

---

(١) في كتابه «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»ص ٤ ط. القاهرة ١٩٦٥ دار الكتب الحديثة.

(٢) سورة الأنفال: ٤٦.

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) مجمع البيان: ٩ / ٥١.

أمّا خطأ البعض فسواء كان نتيجة لعدم خبرته أو لتقصيره في مقدّمات العمل أو لأيّ سبب آخر، فإنّ ذلك لا يضرّ ولا يلغي أن يستفاد من هذا الشخص في سبيل الخير.

وكذلك لا يضرّ أن يستفاد من الأشخاص الذين لا يلتزمون بالأحكام الشرعيّة أو يقصّرون في بعضها، حتّى تارك الصلاة ونحوها، إمّا لتشجيعه على الطاعة وأعمال البرّ والمعروف، وإمّا لعدم جواز منع صانع المعروف من فعله، على أنه يكون مشجعاً له الى التعرف على أخلاق المؤمنين أو المتدينين.

بل منطوق الآية أنّه يمكن التعاون على البرّ والتقوى مع الكفّار الذين صدّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، ولعلّه في هذه الأزمنة الأمر واضح، فإنّ كثيراً من المؤسّسات الإنسانيّة في العالم من الكفّار يجري معها التعاون من أجل أعمال البرّ والخير كالفلكيّين وعلماء الذرة والطاقة، وكالأطباء ومعاهد العلاج الطبّي والمختبرات.

بل في كثير من هذه العلوم أصبح التعاون واجباً شرعيّاً واجتماعيّاً لما فيه مصلحة للمسلمين ودفع ضرر محقّق الوقوع.

نعم لا يعني التعاون مع الكفّار على البرّ، التعاطف والتولّي المحرّم لهم.

قال تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾ [1].

وقال عزّ مَن قائل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [2].

وممّا يؤيّد ما قلناه قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [3].

فلم ينهانا الله تعالى عن الإحسان والبرّ إلى الكفّار غير المضادّين والمقاتلين لنا .

إنما نهانا عن توليهم واتباعهم على الباطل الذي يسيرون به، لأنه يعني التخلّي عن الإسلام وأحكامه الحقّة.

---

(١) سورة هود: ١١٣.

(٢) سورة المائدة: ٥١.

(٣) سورة المتحنة: ٩٨.

بين العادات الإسلاميّة والثقافة الاستكبارية

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا اللهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) [1].

بعث سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل ﷺ من أجل إحياء النفوس والأُمم، فما أتى به الأنبياء ﷺ كان مرتبطاً بعامّة الناس، فجاء ما ينظّم علاقة الإنسان بمجتمعه ويبيّن له حسن الارتباط مع أخيه وزوجته، ويفرض أهميّة برّ والديه.

فكانت الأحكام الشرعيّة والآداب الإسلاميّة والفضائل الحسنة من أجل إحياء ضمير الإنسان وحياة أفضل في الدارين، دار الدنيا وهي دار العمل، ودار الآخرة وهي دار الجزاء والثواب.

ولم يترك الإسلام أيّ حكم أو أدب يتعلّق بالإنسان وحياته وشؤونه إلاّ وأتى بها، بأفضل أُسلوب وأدقّ طرح وأعظم فائدة لهذا الإنسان سواء على نفسه أم عياله أم مجتمعه.

أتى القرآن الكريم والنبيّ ﷺ وترك لنا أهل البيت ﷺ ثقافة غنيّة وعادات تحيي نفوسنا وتجعل لنا نوراً نمشي به بين الناس، ما على الموالي إلاّ اتّباعها والمداومة عليها.

لكن أعداء الإنسانيّة وطواغيت كلّ عصر زرعوا ثقافات معادية وعادات سيّئة وأتوا بها إلى البلاد الإسلاميّة لتكون عن ثقافة وعادات القرآن والنبيّ وأهل بيته ﷺ.

وتماشى كثير من الناس مع ذلك بل أصبحوا أداة لتنفيذ هذه المعصية العظيمة:

فبتنا عندما نرى شيئاً جميلاً أو خارقاً نقول: (آتونا بالخشب لندقّ عليه) وتخلّينا عن ثقافة الإسلام الآمرة بالصلاة على محمد وآل محمد، اللهم صلّ على محمد وآل محمد، أو أن نقول: ما شاء الله، سبحانه الله، الله أكبر.

فرض الإسلام ثقافة بين الناس وهي التعاطف والتراحم والتعامل بالحسنى والتزاور وإلقاء السلام فيما بيننا، لكن بدأ الناس بالتخلّي عن ذلك والتمسّك بعادات الاستكبار المنحرفة القاضية بافتعال المشاكل والفتن بين الناس وظلمهم واستعمال الكلام البذي، والقطيعة بين الناس والأرحام وترك السلام أو عدم المبالاة به، أو السلام بغير تحيّة الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

أصبحنا نرى ونسمع عن خلاف بين الأب وابنه والأخ وأخته والعمّ وابن أخيه والجار لجاره، بل قد يستمر هذا الخلاف لسنوات ويموت بعضهم وهو لا يكلّم الآخر ولا يراه.

كلّ ذلك أثّر على نفوسنا ومجتمعنا وأخلاقنا، فتراجعنا من كلّ النواحي وأثمنا بكلّ الأفعال وحُرمنا من كَثير النِعم التي وعد الله تعالى المطيعين بها والمتأدّبين بالآداب الحسنة والأخلاق الفاضلة.

نحن أيُّها الإنسانيّون مدعوّون لإحياء إنسانيّة الإنسان بإحيائنا للآداب المحمديّة والفضائل الإسلاميّة والتي بها نحيي أنفسنا وأهلينا ومجتمعنا.

نحن مدعوّون للتخلّي عن عادات الاستكبار وثقافته ولباسه وشَكله، لأنّ التمثّل بهم وبلباسهم وأشكالهم من الأمور التي يمقتها الله تعالى.

بل التعامل معهم وشراء بضائعهم الداعمة للإستعمار والإستكبار مشكل شرعاً إذا أدّت الى تضعيف الإسلام أو المسلمين أو ثقافتهم.

أيُّها المسلمون، الإسلام يعلى ولا يُعلى عليه والمسلم عزيز مكرّم عند الله تعالى، فلماذا نبهر بالمستكبرين وعاداتهم وثقافتهم بل ومنتوجاتهم وقد أذلّهم الله تعالى لما في قلوبهم من الحقد والبغض للإنسانيّة، وما في أيديهم من ضرر لشعوب العالم.

قال إمامنا الصادق عليه السلام: «أوحى الله إلى نبي من الأنبياء: قُلْ للمؤمنين لا تلبسوا لباس أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تسلكوا مسالك أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي»[1].

وأعداء الله تعالى هم أعداء الإنسانية.

المساواة الإنسانية بين الرجل والمرأة

قال تعالى: (مَن عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة)[2].

من ناحية التكاليف الإلهيّة وثوابها وآثارها لم يفرّق سبحانه بين المرأة والرجل

(١) علل الشرائع للصدوق: ٢ / ٣٤٨ ح ٦، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ١ / ٢٦ ح ٥١، ووسائل الشيعة: ٤ / ٣٨٥ ح ٥٤٦٨.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

سوى ما يختصّ بكلّ منهما كإحرام المرأة والرجل في الحجّ أو ستر البدن ونحو ذلك.

بل نطقت الآيات الكثيرة بأنّهما سواسية في الأجر والثواب والجزاء، ومن يعمل منهما خيراً يجزى به.

وكذلك من ناحية الهويّة والعنصر والإنسانيّة، قال تعالى: (يا أيُّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) [1].

فجعل سبحانه وتعالى الشعوب والقبائل مؤلّفة من الذكر والأُنثى على حدّ سواءً ولا تفاضل بينهما إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

كما وتشترك المرأة مع الرجل في الفكر والعقل والإرادة وحسن الاختيار، وكذا في العاطفة، كلّ على حسب استعداده، والزيادة والنقصان تكون على حسب تقوية هذه الوظائف والقوى.

نعم هناك فروقات خَلقيّة وفطريّة فجسم المرأة على العموم ألطف وأنعم، على خلاف جسم الرجل.

والإحساسات اللطيفة أغلب على العموم عند المرأة من الرجل كالحبّ والعاطفة ورقّة القلب والميل إلى الجمال والزينة. وكذا التعقّل وتقرير الحجّة غالباً عند الرجال أكثر منه عند النساء.

لذا فرّق سبحانه بين وظائفهما التي تتأثّر بالإحساسات والتعقّل، فمنعها الشرع مثلاً عن منصب القضاء والحكم والولاية وأسقط عنها الجهاد في غير مورد الدفاع عن النفس، وأمرها بالتربية وتدبير المنزل[2]. قال تعالى: (الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى)[3]. وقال: (الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى) [4].

وقال سبحانه: (فأقم وجهكَ للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم) [5].

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) مستفاد من كلام العلاّمة الطباطبائي مع تلخيص وتصرّف، تفسير الميزان: ٢ / ٢٦٩ ٢٧٤.

(٣) سورة طه: ٥٠.

(٤) سورة الشمس: ٨.

(٥) سورة الروم: ٣٠.

كما خصّها الله سبحانه بأحكام تناسب صنفها كوجوب الحجاب وغيره.

ثم بيّن الله تعالى أن الهدف من هذا التنوع في الخلق بين الرجل والمرأة هو الحياة الطيبة في المجتمع الواحد فإنه عند التزام كل من الرجل والمرأة بواجباته سوف ينعكس ذلك على الأسرة والمجتمع وهي الحياة التي يريدها الله تعالى من الإنسان في المجتمعات.

فرق التعايش السلمي عن الإستعمار

قلنا أن التعايش السلمي هو عبارة عن العيش بين بني الإنسان من دون تفريق بين لون ولون أو غني وفقير أو دين ودين، مع الاستفادة المشروعة من قدرات أو علم أو خبرات الطرف الآخر، بل التعايش يعطي فرصة مهمة للأطراف لتطوير أعمالهم وأفكارهم أو زيادتها.

أما الاستعمار فهو نهبٌ لخيرات أو أفكار الدول أو الشعوب أو استغلالها لأغراض شخصية أو عِرقية.

فالمستعمر هدفه حتى لو أعطاك من اللسان حلاوة أو دفع لك بعض الأثمان هو السيطرة على خيرات البلد المستعمَر بالفتح، بل ليس من مصلحة المستعمِر بالكسر تثقيف الشعوب ووعيها لأن ذلك لا يخدم مصالحه.

بين مخاطر الاستعمار وفوائد التعايش

والاستعمار دائماً يؤدي الى القتل والدمار ونهب الدول والشعوب الضعيفة.

والاستعمار له وقت محدد وهو الى زوال.

والاستعمار يحاول طمس الخيرات والفوائد عند الشعوب.

أما التعايش فهو يؤدي الى التلاقح الفكري وزيادة المنتوج العلمي والاقتصادي.

التعايش يطور البلاد عند تبادل الخُبرات أو التجارب.

والتعايش مستمر ما دامت أُسسه موجودة.

الإرهاب والتطرّف الديني وأثره على التعايش

ومن الأمور الخطيرة التي تهدم التعايش السلمي بين البشر هو الارهاب والتطرف والإجرام الذي لا يفرق بين شخص وآخر.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الكُفرُ على أربَعِ دَعائمَ: علَى التَّعَمُّقِ، والتَّنازُعِ، والزَّيغِ، والشِّقاقِ، فمَن تَعَمَّقَ لم يُنِبْ إلَى الحَقِّ، ومَن كَثُرَ نِزاعُهُ بالجَهلِ دامَ عَماهُ عنِ الحَقِّ، ومَن زاغَ ساءَت عندَهُ الحَسَنةُ، وحَسُنَت عِندَهُ السَّيِّئةُ، وسَكِرَ سُكرَ الضَّلالَةِ، ومَن شاقَّ وعُرَتْ علَيهِ طُرُقُهُ، وأعضَلَ علَيهِ أمرُهُ، وضاقَ علَيهِ مَخرَجُهُ»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إيّاكم والتعمّق في الدين! فإنّ الله تعالى قد جعله سهلاً، فخذوا منه ما تطيقون؛ فإنّ الله يحبّ مادام من عمل صالح وإن كان يسيراً»[2].

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: المُتَعَمِّق: المبالغ في الأمر المنشود فيه الذي يُطلب أقصى غايته[3].

وفي «لسان العرب»: المُتَعَمِّق: المبالغ في الأمر المتشدّد فيه الذي يطلب أقصى غايته[4].

عنوان التعمّق هو عبارة عن المصطلح الجديد للتطرف الديني الذين عادوا إلى الحياة الإجتماعية والسياسية من جديد، ولدى أصحابه أفكار عجيبة حول اللباس والمرأة وحرمة تعليمها وتثقيفها وحول سرعة تكفير وقتل المخالف لهم في أبسط المفاهيم أو الأمور الحياتية وما إلى ذلك.

كما ولديهم سرعة القطع في الأمور كافة، خاصة فيما يرتبط بالعقيدة، فسرعان ما يحكمون على الإنسان المسلم بالكفر ثم يوجبون قتله بل ينفذونه كما يحصل في

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣١، الكافي: ٢/ ٣٩٢/ ١ عن سليم بن قيس، الخصال: ٢٣٢/ ٧٤ عن الأصبغ بن نباتة، تحف العقول: ١٦٦ كلّها نحوه، روضة الواعظين: ٥٣ وفيه «ينسب» بدل «ينب». وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٨/ ١٤٢.

(٢) كنز العمّال: ٣/ ٣٥/ ٥٣٤٨ نقلاً عن أبي القاسم بن بشران في أماليه عن عمر، الجامع الصغير: ١/ ٤٥٢/ ٢٩٣٣.

(٣) كتاب العين: ٥٧٩.

(٤) لسان العرب: ١٠/ ٢٧١، النهاية: ٣/ ٢٩٩.

بعض الدول الإسلامية.

ومحاربة الارهاب أو التطرف الديني أمر واجب على كل الأمم من أجل السلام والتعايش السلمي في كافة الدول، إذ في ظل الارهاب لا مجال للتعايش أبداً.

التعايش بين أول الزمان وآخره

ومرادنا بيان سيرة النبي الأعظم ﷺ ورحمته للبشر وبيان سيرة حفيده الإمام الثاني عشر المهدي المتظر ﷺ قال تعالى: (وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِى هَذَا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[1].

هناك قاسم مشترك بين النبي الأعظم ﷺ المرسل للعالمين في أول الزمان، وبين الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف، الذي وُعدنا به في آخر الزمان.

قال أمير المؤمنين: ﷺ: «كلنا واحد من نور واحد، وروحنا من أمر الله، أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد»[2].

فأول «محمد»هو النبي الأعظم ﷺ وآخر «محمد»هو المهدي المنتظر عجّل الله فرجه.

وهذه الآية المذكورة فيها معان كبيرة تدل على ذلك، فقوله تعالى: (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ) تشير الى آخر الزمان حيث لم يرث الصالحون كل الأرض من آدم الى محمد ﷺ إلى الآن، إنما يرثونها في زمن القائم ﷺ كما قال أيضاً: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ) [3].

وقوله تعالى في ذيل الآية الأولى: (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) يفيد أن رسالة النبي ﷺ «الإسلام»رحمة لكل البشرية، وكون الإسلام رحمة ليس كدين نظري بل عملي تطبيقي، فعندما تطبق كل أحكام الله تعالى كما أراد الله وعلى كافة

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥ ١٠٧.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦ / ١٦ ح، والزام الناصب: ١ / ٤٤.

(٣) سورة النور: ٥٤ ٥٥.

أرض الله يكون الدين رحمة للعالمين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(١).

فعند الإستجابة لأحكام الله تعالى والعمل بها تعطي أثرها من الرحمة والإحياء للفرد والأمة، ومن هنا قيل أن أحكام الله تشريف لا تكليف لأن في التكليف نوع مشقة وفي التشريف نوع رحمة، وأحكام الله رحمة وإحياء للأمة والفرد وفائدة دنيوية وأُخروية.

ولا يمكن لأي إنسان أن يحكم على شيء بالضعف أو القوة إلا إذا أحاط بكل تفاصيلة، كالصورة المقطعة الى أجزاء لا يعرف صاحبها الى بكامل الأجزاء، أو لا أقل الأجزاء الأساسية.

ومن المعلوم لم تطبق لحد الآن كل الأحكام وعلى كافة الأراضي، وبالتالي لم تكن رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين مصداقاً، نعم في زمن المهدي المنتظر عجلّ الله فرجه ودولة العدل يكون ذلك حيث لا يظلم أحدٌ أحداً ولا يعص الله في أرضه، كما في الأحاديث(٢).

وعليه فبين صدر الآية وذيلها ربط قوي يدل على الربط بين أول الزمان وآخره، من أجل نشر العدل وعموم السلام للأرض كل الأرض.

بيان ثان: لعلك تقول لم أقتنع بذلك فهل من مزيد؟

نقول وبالله التوفيق: قال تعالى: (بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(٣).

وقال: (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)(٤).

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: (سبحان الله أما تحبون أن يظهر الله تبارك وتعالى الحق والعدل في البلاد، ويجمع الله الكلمة ويؤلف الله بين قلوب مختلفة ولا يعصى الله عزوجل في أرضه وتقام حدوده في خلقه ويرد الله الحق إلى أهله فيظهر حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحد من الخلق! أما والله يا عمار لا يموت منكم ميت على الحال التي أنتم عليها إلاّ كان أفضل عند الله من كثير من شهداء بدر وأحد فأبشروا) الكافي: ١ / ٣٣٤ باب نادر في حال الغيبة ح ٢.

(٣) سورة ص: ٨٧ ٨٨.

(٤) سورة الفرقان: ١.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَ لاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

وقال الإمامُ الصّادقُ (ع): «إنّ اللهَ تباركَ وتعالى أعطى محمّداً (ص) شَرائعَ نُوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى . . . وأرسَلَهُ كافّةً إلَى الأبيَضِ والأسوَدِ، والجِنِّ والإنسِ»[2].

فما هو الذي وصفه الله ذكر للعالمين؟ هو القرآن أو رسالة النبي (ص) (الإسلام) أو هما معاً، فإذا كانا كذلك فأين العالمون الذين يعتبرون القرآن ذكرى، فإن من العالمين في زمن النبي (ص) وحتى هذا الزمان من لم يسمع بالإسلام ولا بالقرآن ولا حتى بنبي الرحمة (ص)، فكيف يكون لهم نذيراً، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾ متى أنذر النبي (ص) كل الناس ومتى وصلت دعوته الى العالمين كافة؟

إن القلة القليلة هي مَنْ أُنذر وقَبِلَ واعترف بالإسلام والقرآن والدعوة.

وعليه فإذا لم تصل الدعوة للناس كافة أو للعالمين ألا تكون الآيات لغواً؟!

كلا لا تكون، لأن ذيل الآيات أجاب عن ذلك: ﴿وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أجل سنعرف حقيقة الإسلام وإلقاء الحجة على كافة الناس حتى من لم يسمع بالقرآن والإسلام وكان يعيش في الأدغال ولكن بعد حين من الزمن.

﴿وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لاَ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَ لاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إن الوعد آت آت آت بإذن الله تعالى عندما يأذن لوليه بالخروج وينذر الناس كافة.

﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[3].

فلا يظهر دين النبي (ص) على كافة الأرض ولكل البشر إلا زمن المهدي المنتظر (ع).

وفي الروايات ما يزيد اطمئنانك أخي القارىء: فعن أبي عبد الله (ع) في جواب

---

(١) سورة سبأ: ٢٨ ٣٠.

(٢) المحاسن للبرقي : ١ / ٤٤٨ / ١٠٣٥ ، وتفير نور الثقلين: ٤ / ٣٣٦ ح ٦١.

(٣) سورة التوبة: ٣٢ ٣٣، وسورة الصف: ٩، والفتح: ٢٨.

من سأل عن سيرة المهدي (عليه السلام) قال: «يصنع ما صنع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يهدم ما كان قبله، كما هدم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر الجاهلية، ويستأنف الإسلام جديداً»[1].

وعنه (عليه السلام): «إن قائمنا إذا قام دعا الناس إلى أمر جديد، كما دعا إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»[2].

وعن أبي جعفر الباقر في حديث طويل قال فيه الإمام المهدي (عليه السلام) وهو في مكة: «... ومن حاجني في محمد (صلى الله عليه وآله) فأنا أولى الناس بمحمد (صلى الله عليه وآله) ومن حاجني في النبيين فأنا أولى الناس بالنبيين أليس الله يقول في محكم كتابه: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) فأنا بقية من آدم، وذخيرة من نوح، ومصطفى من إبراهيم، وصفوة من محمد صلى الله عليهم أجمعين».

ألا ومن حاجني في كتاب الله، فأنا أولى الناس بكتاب الله، ومن حاجني في سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأنا أولى الناس بسنة رسول الله..»[3].

فهذا هو الرابط بين أول الزمان وآخره فما بدأه النبي (صلى الله عليه وآله) أكمله المهدي (عليه السلام)، وقد قال نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله) عن خاتمها عجّل الله فرجه: «يقفو أثري ولا يخطىء»[4].

إن قيل: قوله تعالى: (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) لعل المراد بها أن النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه رحمة لا رسالته.

قلنا: صحيح الآية تشمل رحمة النبي (صلى الله عليه وآله) والتي بُيِّنت في آيات أُخرى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [5].

لكن لا يمكن فصل رحمة النبي (صلى الله عليه وآله) الشخصية عن رحمة الإسلام كرسالة التي

---

(١) بحار الأنوار: ٥٢ / ٣٥٣ ح ١٠٨، وغيبة النعماني: ١٢١ في سيرة القائم.

(٢) غيبة النعماني: ١٧٣ الإسلام بدأ غريباً، وعيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١ / ٢١٨ باب ٤٦ ح ١.

(٣) غيبة النعماني: ٢٩٠ ح ٦٧، وبحار الأنوار: ٥٢/ ٢٣٩، ومكيال المكارم: ١ / ٢١١.

(٤) انظر الفتوحات المكية: ٦ / ٧١ ٨١ باب ٣٦٦، وفي طبعة: ١ / ٣٢٦ باب ٣٦٦.

(٥) سورة آل عمران: ١٥٩.

هو حاملها ﷺ، فلا يتصور أصلاً ممارسة النبي ﷺ للرحمة الشخصية ولا تكون موافقة للرسالة، وكذلك العكس فلا يتصور ممارسة رحمة الرسالة من دون شخص النبي ﷺ هذا زمن حياته، نعم بعد وفاته ﷺ قد تتصور رحمة للإسلام والرسالة في مكان ما، لكنها في الواقع أيضاً تعود لصاحب الرسالة ومبلغها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1].

وقال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2].

فالنبي ﷺ رحيم على من حوله من المؤمنين ولكنه شديد على الكافرين.

وليس معنى الشدة والغلظة هو الإنتقام بل معناه ردعهم عن الظلم والطغيان وإرجاعهم للحق ودخولهم في رحمة الإسلام، فغلظة النبي أو المهدي صلوات الله عليه رحمة أيضاً للأعداء، ولو من باب أن نوم أو قتل الظالم عبادة، لأنه عندما ينام أو يموت فقد ترك معصية الله أو خففها فيقل ظلمه وعذابه، وأيضاً فهو يخفف عن المظلوم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَ كَفَى بِاللَّه شَهِيداً . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ...﴾[3].

وعليه فنحن ننتظر من سيملأ الأرض سلاماً وقسطاً ورحمة.

الرحمة المهدوية

وبما أن الكلام وصل بنا الى الرحمة فخذ نبذة عن الرحمة المهدوية:

هناك عدة روايات تدل على رحمة المهدي المنتظر عليه السلام من قبيل ما في كتاب سعد

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة التحريم: ٩.

(٣) سورة الفتح: ٢٨ ٢٩.

السعود نقلاً عن صحف إدريس عليه السلام: «وأُلقي في تلك الزمان الأمانة على الأرض فلا يضر شيء شيئاً ولا يخاف شيء من شيء ثم تكون الهوام والمواشي بين الناس فلا يؤذي بعضهم بعضاً وأنزع حمة كل ذي حمة من الهوام وغيرها وأذهب سم كل مايلدغ وأنزل بركات من السماء والأرض وتزهر الأرض بحسن نباتها، ويخرج كل ثمارها وأنواع طيبها وأُلقي الرأفة والرحمة بينهم..»[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في حديث جاء فيه: «ونحن الذين بنا تنزل الرحمة، وبنا تسقون الغيث ونحن الذين بنا يصرف عنكم العذاب»[2].

وفي رواية: «نحن أمان لأهل السماوات والأرض ولولانا لساخت»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وجعلنا عينه في عباده ولسانه الناطق في خلقه ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة»[4].

وإن المتأمل في هذه الأمور يدرك الرحمة الواسعة لإمام الزمان عليه السلام:

العدل ونشر السلام خير رحمة.

رفع الظلم.

إلغاء الفقر والتسول.

إلغاء العبودية لغير الله تعالى.

بلوغ التكامل والتكافل الإجتماعي والإنساني.

رفع الحرمان المادي والمعنوي (العلمي).

إيصال جميع الأمة الى عبادة الله تعالى والإلتزام بأحكام الإسلام.

مناصرة الضعيف وإرجاع حقه.

جمعه بين الذئب والغنم.

وهذه العناوين كلها مستخرجة من روايات أهل البيت عليهم السلام كما بُيّنت في محلّها.

---

(١) سعد السعود: ٣٥، وبحار الأنوار: ٥٢ / ٣٨٤ باب ٢٧ ذيل ١٩٤.

(٢) بصائر الدرجات: ٦٣ باب أنهم حجة الله وبابه، وبحار الأنوار: ٢٦ / ٢٤٩ ح ١٨ باب جوامع مناقبهم.

(٣) مشارق الأنوار: ٥٦، وقريب منه في بصائر الدرجات: ٥٠٩ باب ١٢ ح ٨.

(٤) التوحيد: ١٥١ باب ١٢ ح ٨، ونحوه في الكافي: ١ / ١٤٣ ح ٥٣، والاختصاص: ٢٤٨.

وقد ذكر ابن عربي تسع خصائص للإمام المهدي (عليه السلام) منها الرحمة فقال: .. فهذا المهدي لا يغضب إلاّ لله فلا يتعدى في غضبه إقامة حدود الله التي شرعها... ثم أخذ بتفصيل ذلك في كلام لطيف على مذهبه [1].

ومن حديث النبي تقدم قال (صلى الله عليه وآله): «يقفوا أثري ولا يخطىء»[2] يتبين أن المهدي رحمة كالنبي (صلى الله عليه وآله) ورحمته كرحمته قال تعالى: (وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِى هَذَا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ . وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)[3].

وقال: (فَبِمَا رَحْمَة مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [4].

ومن خلال قوله تعالى: (وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ .) فمع أن الآية نازلة في النبي (صلى الله عليه وآله) وتحديد رحمته الواسعة أو رحمة رسالته إلاّ أن مطلع الآية يتحدث عن الإمام المهدي (عليه السلام) حيث تتحدث الآية عن إرث الأرض في آخر الزمان، وهو الموافق لقوله تعالى: (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) [5] وهذه الآية نازلة في الإمام المهدي صلوات الله عليه.

العدل الإنساني زمن المهدي لكل الناس

من الملاحظ في الأحاديث الشريفة عن النبي وأئمة أهل البيت (عليهم السلام) المتعلقة بالإمام المهدي (عليه السلام) وحركته في آخر الزمان أنها تخاطب كافة الناس وفي مختلف بقاع الأرض منها ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أبشّركم بالمهدي يُبعث في أُمتي على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً

(١) الفتوحات المكية: ٦ / ٧٤ باب ٣٦٦، وفي طبعة: ١ / ٣٢٦ باب ٣٦٦.
(٢) الفتوحات المكية: ٦ / ٧١ ٨١ باب ٣٦٦، وفي طبعة: ١ / ٣٢٦ باب ٣٦٦.
(٣) سورة الأنبياء: ١٠٥ ١٠٧.
(٤) آل عمران: ١٥٩.
(٥) سورة القصص: ٥.

كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحاً».

فقال له رجل: وما صحاحاً؟

قال: «السويّة بين الناس»[1].

وعن النبي ﷺ: «تأوي إليه أمته كما يأوي النحل إلى يعسوبها، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً حتى يكون الناس على مثل أمرهم الأول لا يوقظ نائماً ولا يهرق دماً»[2].

فالعدل المنتظر وإلتفاف الناس حول المهدي عجل الله فرجه لكافة الناس ولكل أرض.

الرحمة التكوينية والتشريعية لمحمد وآل محمد

متى تبلغ رحمة الإسلام للعالمين؟

قال تعالى: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

تحمل شخصية النبي أثراً تشريعياً يرتبط بهداية الناس كل الناس وإرشادهم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[4].

كما ويحمل النبي أثراً تكوينياً يرتبط بوجود الكون ومن عليه.

الرحمة هنا ليست تشريعية فقط للمؤمنين والمسلمين فلو كانت لقال تعالى: رحمة للمسلمين، بل هي أعمّ حتى أنها تشمل الأمور التكوينية، ومعنى ذلك أن رسول الله ﷺ رحمة وأمان من العذاب لكل البشرية وبكل ما يحتاجون إليه، وهو أمر صريح في الآية (رحمةً للعالمين).

دليل آخر: وقال تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ

---

(١) فرائد السمطين ٢ / ٣١٠ ح ٥٦١، ومسند أحمد: ٣ / ٣٧ وبحار الأنوار: ٥١ / ٨١.

(٢) الفتن لنعيم بن حماد: ٢١٢، وشرح إحقاق الحق: ١٣ / ١٥٤، والملاحم والفتن لابن طاوس: ١٤٧ ح ١٧٨.

(٣) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٤) سورة التوبة: ٣٢ ٣٣، وسورة الصف: ٩، والفتح: ٢٨.

هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)[1].

فوجود رسول الله ﷺ مانع من نزول العذاب على كل الناس وبالخصوص على غير المؤمنين أي العاصين، ومعنى كونه مانعاً من العذاب أي رحمة وأمان وهو نفس مفاد الآية الأولى، وهذه حقيقة قرآنية لا جدال فيها.

ثم جاءت الروايات لتؤكد أن بعد رسول الله ﷺ ياتي أهل البيت ﷺ ليكونوا أماناً ورحمة من العذاب: قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمان لأهل السماء، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض، أي هلكوا»[2]. إذاً وجود محمد وآل محمد أمان ورحمة وبركة.

ترك لنا رسول الله ﷺ إرثاً كبيراً من الأقوال والأفعال يكشف لنا الرحمة الكبيرة لرسول الله ﷺ ويكفي قوله لمشركي مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وفعله مع ابنة حاتم الطائي وإكرامه إياها كما يأتي.

بيد أن الآية تتحدث عن معنى أكبر من هذه الرحمة، أنها تقول إن رسالة الإسلام جعلت رحمة ونوراً وضياء للعالمين، لكل مخلوق في هذا الكون وفي كل مكان.

كان الإسلام ونبي الإسلام من أجل استفادة كل البشرية من نوره وأحكامه والتي لا تؤخذ مجتزأة بل كمنظومة كاملة متكاملة. عظمة الإسلام أنه دين متكامل وشامل كالصورة إذا جزئت إلى ٥٠ جزء هل يُعرف صاحبها من ٣٠ جزء منها فقط ؟

لا يستطيع أي إنسان أن يفهم حقيقة الإسلام بالنظر إلى بعض أحكامه، الإسلام والآثار التي تترتب على حكمه والتزام الأمم به لا تُعرف ولا تتحقق إلا من خلال تحقق أحكامه كمنظومة متكاملة....

مثال تربية الأولاد داخل الأسرة فإنه يستفيد الأب عند تهذيبه لولده استفادة شخصية أما المجتمع فلا يحصد ثمرة تربية الأولاد إلا إذا كان كل أولاد المجتمع تحت رعاية الإسلام وملتزمين بالتربية والأخلاق.

فقد يفسد هذا الولد المربى جيداً عندما يلتقي بالأولاد في الشارع أو المدرسة أو الملعب فمن يريد تربية أولاده عليه بتربية كل ولد في المجتمع.

---

(١) سورة الأنفال: ٣٣.

(٢) كمال الدين: ٢٠٥ باب ٢١ ح ١٩، وأمالي الطوسي: ٣٧٩ ح ٨١٢.

- وهكذا إذا أخذنا مثالاً آخر كإبعاد الفساد عن عائلته فلا يتم بحبسهم أو السفر بهم بل لا يتم إلا بإزالة الفساد من كل بيت.

فأحكام الإسلام على الصعيد الاجتماعي مترابطة ضمن منظومة إلهية. فعندما نقول إن الإسلام كامل يلبي احتياجات الكون والأمم وقادر على حل كل مشاكل الإنسان سواء كانت في الأرض أم في السماء، عندما نقول ذلك لا نعني بالإسلام - بعض أحكامه بل كلها ولا نعني أيضاً الإسلام كمفهوم بل كمصداق تطبق كل أحكامه.

إذاً وجود محمد وآل محمد أمان ورحمة وبركة وسبب لنشر العدل والسلام في الكون.

توضيح وتعميق

لما أراد الله إنسان الكون وضع نظاماً عاماً متكاملاً لكل الكائنات ووضع بها حدود وأبعاد وأمكنة ومسافات وأزمنة ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنظمة:

نظام قهري تكويني.

نظام إرادي تشريعي.

نظام مركب أو ممزوج منهما.

أولاً: النظام القهري التكويني

وهي الأنظمة والحدود التي وضعها الله بين الشمس والقمر والأرض والكواكب والمجرات أو الموج والمد والجزر ونظام الجاذبية ونظام البحار وما إلى ذلك... (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَك يَسْبَحُونَ)[1].

فهذا نظام قهري غير إرادي ولا اختياري، لا يختلف ولا يتبدل ولا يتغير إلا ضمن الحدود والأطر والزمن الذي حدده الله له، وهذا النظام يكشف لنا قدرة الله وحكمته وعلمه.

بل حتى الزلازل والهزات والكسوف والخسوف هي ضمن نظام دقيق لا نتيجة ظروف طارئة.

بل حتى رد الشمس لأمير المؤمنين عليه السلام كان ضمن ذلك النظام، لأن المعجزة ليس

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٣.

فقط هي رجوع الشمس بل في توقف الزمن تلك الفترة وعدم تأثر بقية الكواكب بذلك.
وهذا نظام لكل البشرية تستفيد منه كما تشاء.

ثانياً: النظام الإرادي أو الاختياري أو التشريعي

وهي العلاقات أو الأنظمة التي وضعها الله بين بني البشر:

- العلاقة بين الآباء والأبناء: القائمة على طاعة الوالدين وحسن تربية الأولاد.
- العلاقة بين الزوج والزوجة: القائمة على الاحترام المتبادل والرحمة والمودة.
- العلاقة بين الجيران: القائمة على التودد ورفع الأذية...
- العلاقة مع الأمم المختلفة: (مسلم وغير مسلم) القائمة على محاربة المعتدي والتعامل بالحسنى والبر مع غير المحارب للاستفادة من علومه وخبراته.

وهي أيضاً تكاليف لكافة الناس.

ثالثاً: العلاقة المزدوجة

وهي علاقة الكون والبشرية مع محمد وآل محمد ﷺ

فهذه العلاقة لها جنبان: تشريعية وتكوينية:

تشريعية اختيارية.

قهرية وجودية تكوينية.

أما الأولى أي التشريعية: فهي المتمثلة بالعبادة، فالله أخذ وجود محمد وآله ضمن سلسلة العبادة، أمثلة عن ذلك:

أ - في الصلاة: فقد أخذت الصلاة على محمد وآل محمد وجوباً في التشهد وتركه مبطل للصلاة، واستحباباً في الركوع والسجود وعند ذكر اسمه الشريف وعند دخول المسجد ونحو ذلك.

ب في الدعاء: عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمّد وآل محمّد» [1].

وعن الإمام علي عليه السلام: «كل دعاء محجوب عن السماء حتى تصلّي على محمّد

---

(١) الكافي: ٢/ ٤٩١ ح ١.

وآله»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تجعلوني كقدح الراكب، فإنّ الراكب يملأ قدحه فيشربه إذا شاء، اجعلوني في أوّل الدعاء وفي وسطه وفي آخره»[2].

ج في الحب والمودة: قال تعالى: (قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) [3].

د- في الطاعة والولاية: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ) [4].

فمن يرفض وجود محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين أو توسطهم في العبادة فهو كإبليس عند رفض السجود لآدم لأن السجود لآدم عبادة لله تعالى مشروطة بالسجود لآدم [5].

الجانب الثاني: العلاقة التكوينية

فكما هناك علاقة تشريعية بأهل البيت عليهم السلام أيضاً هناك علاقة تكوينية وجودية.

أما العلاقة القهرية الوجودية التكوينية فتتمثل بأمور أربعة:

أ - عند ابتداء العبودية وإنشاء الخلق: في عالم الميثاق أخذ الله على البشرية جمعاء، الربوبية له والنبوة لمحمد والولاية لعلي قال تعالى: (وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [6].

عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى حيث خلق الخلق خلق ماءً عذباً، وماءً مالحاً أجاجاً فامتزج الماءان، وأخذ طيناً من أديم الأرض فعركه عركاً شديداً.

فقال لأصحاب اليمين وهم كالذرّ يدبّون: إلى الجنّة بسلام، وقال لأصحاب

---

(١) ثواب الأعمال وعقابها، ص: ٤٦.

(٢) الوسائل، باب: ٣٦، من أبواب الدعاء، حديث: ٧، والكافي: ٢/ ٤٩٢ ح ٥ ..

(٣) سورة الشّورى: ٢٣.

(٤) سورة النساء: ٥٩.

(٥) يروى أن إبليس قال: أسجد لك سجدة ٤٠٠ سنة فقال الله: لا حاجة لي بهذا السجود.

(٦) سورة الأعراف: ١٧٢.

الشمال : إلى النار ولا أُبالي ، ثم قال : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ) [1] .

ثم أخذ الميثاق على النبيّين ، فقال : «ألست بربّكم»وأنّ هذا محمّد رسولي ، وأنّ هذا عليّ أمير المؤمنين ؟ «قالوا : بلى» ، فثبتت لهم النبوّة .

وأخذ الميثاق على أُولي العزم أنّني ربّكم ، ومحمّد رسولي ، وعليّ أمير المؤمنين وأوصياؤه عليهم السلام من بعده ولاة أمري ، وخزّان علمي ، وأنّ المهديّ انتصر به لديني ، وأُظهر به دولتي ، وأنتقم به من أعدائي ، وأُعبد به طوعاً وكرهاً . قالوا : أقررنا يا ربّ وشهدنا» [2].

ب - في رفع العذاب والأمان: «نحن أمان لأهل السماوات والأرض ولولانا لساخت»[3].

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «نحن أمان أهل الأرض، ونحن الذين بنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه، وبنا يمسك السماء أن تميل بأهلها،... ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها»[4].

ج - عند تقسيم الأرزاق والمطر والنبات:

في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «بكم تنبت الأرض. بكم تنبت الأرض اشجارها وبكم تخرج الأشجار أثمارها»[5].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «بهم يرزق عباده وبهم يعمر بلاده وبهم ينزل القطر من السماء وبهم تخرج بركات الأرض وبهم يمهل أهل المعاصي ولا يعجل عليهم

(١) سورة الأعراف : ١٧٢.

(٢) الكافي : ٢ / ٨ ح ١ ، وبحار الأنوار : ٦٧ / ١١٣ ح ٢٣، ومدينة المعاجز : ١ / ٥٧ ح ٤ والبرهان : ٢ / ٤٧ ح ٨، ونور الثقلين : ٢ / ٩٤ ح ٣٤٤، ومرآة العقول : ٧ / ٢٢ ح ١، والوافي : ٤ / ٤١ ح ١٦٥٧ .

(٣) مشارق الأنوار: ٥٦، وقريب منه في بصائر الدرجات: ٥٠٩ باب ١٢ ح ٨.

(٤) أمالي الصدوق: ٢٥٣ ح ٢٧٧، وكمال الدين: ٢٠٢ باب ٢١ ح ٦، وروضة الواعظين: ١٩٩.

(٥) الكافي: ٤ / ٥٧٦ ح ٢، وكامل الزيارات: ٣٦٥، ومن لا يحضره الفقيه: ٢ / ٥٩٦ ح ٣١٩٩.

بالعقوبة والعذاب»[1].

د- في ثبات الكون: وتقدم ما يدل عليه منه حديث: «لولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها»[2].

وهذه العلاقة مما لا شكك فيه أنها لكل البشرية ولكافة الناس كما هو صريح القرآن.

ومن هنا يتبين أن العلاقة مع محمد وآل محمد ﷺ ليست فقط علاقة حب وطاعة واحترام بل علاقة وجود وبقاء واستمرار وحاجة، كحاجتنا للماء والهواء...

فكما نسعى لتحصيل الهواء لكي نبقى على قيد الحياة فعلينا تحصيل رضا محمد وآل محمد ﷺ بالزيارة لهم والدعاء بتعجيل فرجهم، بالصلاة عليهم، والتوسل بهم. فمن لا يجد في قلبه حبًّا لمحمد وآل محمد في أفعاله وأقواله تصرفاً يدل على الحاجة لآل محمد، ومن لا يعتقد أن محمداً وآل محمد ﵈ هم سبب وجود الكون واستقراره وسبب الرزق الإلهي، فإنه لم يصل إلى حقيقة الإسلام والإيمان ولم يعرف معنى الولاية والإمامة والنبوة، فاحذروا عباد الله غضب اللّه وغضب رسوله ﷺ.

أقول: فهذه الأمور التكوينية والفوائد الدنيوية هي بواسطة النبي وآله ﵈ وهي لكل البشر المسلم منهم وغيره، العاصي والمطيع، الأمر الذي يكشف لنا رحمة وبركة رسول الله وآله الكرام ﵈ من أجل نشر السلام والعدل والتعايش السلمي على أساسهما الخالي من العنف والتعصب والأضرار والمشاق.

---

(١) علل الشرائع: ١ / ١٢٤ باب ١٠٣ ح ١، وبحار الأنوار: ٢٣ / ١٩ ح ١٤، وتفسير نور الثقلين: ١ / ٥٠١ ح ٣٣٩.

(٢) انظر أمالي الصدوق: ٣٥٣ ح ٧٧.

الرسول الأعظم محمد ﷺ والموروث الحضاري عند عرب الجاهلية

الحياة الاجتماعية أنموذجا

الأستاذ الدكتور شاكر مجيد كاظم
قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة البصرة

الأستاذ الدكتور شاكر مجيد كاظم

قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة البصرة

مكان وسنة الولادة: البصرة ١٩٦٣

بكالوريوس تاريخ / كلية التربية / جامعة البصرة في ١٩٨٦

مساعد باحث علمي في كلية التربية جامعة البصرة في ١٩٨٦

ماجستير في تاريخ العرب قبل الاسلام / قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة البصرة، في ١٩٩٨ .

دكتوراه في تاريخ العرب قبل الاسلام / قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة البصرة، في ٢٠٠٢.

حاصل على لقب الأستاذية في ٢٠٠٨

رئيس قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة البصرة في ٢٠١٠ ولغاية ٢٠١٣

اشرف على (٦) رسائل ماجستير، و (٥) اطاريح دكتوراة.

ناقش (١٣) رسالة ماجستير و (٢٧) اطروحة دكتوراه في مختلف الجامعات العراقية

يدرس مادة تاريخ العرب قبل الاسلام للدراستين الاولية، والعليا.

نشر (١٧) بحثا في مختلف المجلات العلمية، واخرى مقبولات للنشر لديه (٤) كتب منشوره، واخرى منجزة.

شارك في (٧) ندوات علمية و (٨) مؤتمرات علمية في الجامعات العراقية.

شارك في مؤتمرات دوليه خارج العراق.

خبير علمي من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي لتقويم رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراة، والترقيات العلمية، وتقويم البحوث لغرض النشر في المجلات.

عضو الهيئة العلمية لموسوعة حضارة البصرة الصادرة عن رئاسة جامعة البصرة.

عضو الهيئة العلمية لمركز تراث البصرة.

ساد في مجتمع العرب قبل الإسلام قيم وعادات وتقاليد وأعراف وأحكام، ومن خلالها نظمت طبيعة العلاقات ما بين افراده والتي اكتسبت قوة أصبحت كقوة القانون بعد اعتراف المجتمع الجاهلي فيها وثباتها ورسوخها وعندما جاء الإسلام اتخذ من تلك القيم والمفاهيم ثلاث مواقف، موقف التحريم للقيم والتقاليد التي لا تتفق مع روح وجوهر الإسلام كالشرك، والزنا وشرب الخمرة، والسرقة وغيرها، وموقف التعديل والتشذيب لبعض من تلك القيم بهدف جعلها تتفق مع مبادئ الإسلام مثل اجراء تعديلات على أنظمة الزواج التي كانت سائدة آنذاك، وصيغ تلبية الحج، ومراسيم ذبح العقيقة....... الخ.

والموقف الثالث، موقف الاقرار والقبول لبعض القيم الجاهلية التي تتفق مع جوهر وروح الإسلام فأيدها ودعى الى التمسك بها مثل الكرم، الشجاعة، الصدق، الدفاع عن المرأة، الأمانة، وعدّها من مكارم الأخلاق.

ان بحثنا يتناول دراسة المفاهيم والقيم الاجتماعية التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام وموقف الإسلام من تلك القيم.

كان مجتمع العرب قبل الإسلام يتألف من فئات مختلفة من السادة الأشراف، والموالي، والعبيد، ولكل منها دوره ووظيفته في المجتمع وحقوقه وامتيازاته وكانوا يميزون بين فئة السادة والاشراف وهم أصحاب القدح المعلى. ثم يأتي من بعدهم الموالي الذين عدّوا في المرتبة الثانية وان حقوقهم وواجباتهم في المجتمع القبلي انهم كانوا في وضع مستضعف [1] ثم تأتي بعد ذلك مرتبة العبيد.

ان النظرة القبلية الى ابن الامة لم تكن بالمساواة مع ابن الحره التي يطلقون عليها كنية فيسمونها بام البنين كزوجة مالك بن جعفر الكلابي فأنجبت له عامر، وطفيل،

---

(١) جمال جوده، الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الاسلام، ص ٥٧.

وربيعة، وعبيدة، ومعاوية واشار اليهم لبيد بن ربيعة بقوله نحن بني ام البنين الأربعة [١].

وكذلك كانت فاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة الكلابية زوجة امير المؤمنين علي ﷺ تعرف باسم ام البنين فأنجبت له: العباس، وجعفر، وعبد الله [٢] وعثمان[٣].

وقد تزوج عروة بن الورد سبية لهُ من بني غفار فولدت لهُ أولاداً وكان شديد الحب لها وكان ولدهُ يُعيرون بأمهم ويُسمون بنوالاخيذة أي السبية [٤] وايضاً تطلق العرب عليها لفظ (النزيعة) لانها انتزعت بالقوة وبحد السيف من اهلها [٥] وكان العرب في الجاهلية لا تساوي بين الهجين والصريح في الديه فقد كانت ديته نصف دية الصريح ودية الحليف نصف دية الصريح، وكانت دية الصريح هي عشرة من الإبل[٦] وقيل أن دية الصريح مئة من الابل ودية الملوك الف بعير [٧] وقد رفض الإسلام التمايز بين الناس في الديات واقر بان دية المسلم مئة من الإبل [٨].

كان العرب في الجاهلية تتجلى فيهم الأثرة والأنانية وحب الاستعلاء والتمايز عن الآخرين، وكان العربي ينكر الإخاء البشري وينظرون للآخرين على انهم أحط منهم، كما أنهم يرفضون المساواة في الحقوق والواجبات بينهم وبين الموالي، والمجتمع العربي مؤسس على فئات وبيوت ترى نفسها فضلاً على غيرها، وكانوا يعاملون الأجناس غير العربية معاملة فيها احتقار وازدراء، فمن ذلك أن العربي يرفض أن يزوج ابنته من اعجمي مهما كان عظيماً وكان يرى ذلك امتهاناً لعربيته وإنسانية أبنته [٩].

ان شعور العبيد بالتمايز بينهم وبين فئة الأشراف والسادة في المجتمع الجاهلي كان

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٩.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٩، ابن حزم الاندلسي، جمهرة انسام العرب، ص ٣٧.

(٣) النصيبي، مطالب السؤول، ص ٢٢١.

(٤) ابوالفرج الاصفهاني، الاغاني ٣ / ٧٥، احمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٤٩٥.

(٥) الزبيدي، تاج العروس ٥ / ٥٣١ (نزع)، هاشم يحيى الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ٣٦٢.

(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٤٩٢ – ٤٩٣.

(٧) الآلوسي، بلوغ الارب ٣ / ٢٣.

(٨) الترمذي، سنن الترمذي، ص ٤٠٢ (كتاب الديات رقم الحديث ١٣٨٩)، القلقشندي، صبح الاعشى ١/ ٤٣٥ – ٤٣٦.

(٩) رواية بنت احمد عبد الكريم الظهار، حقوق الانسان في الاسلام، ص ١٤٦ – ١٤٧.

من بين الأسباب التي دعتهم لأن يكونوا من السباقين الى دخول الإسلام لشعورهم بالمكتسبات الروحية والاجتماعية والاقتصادية التي يحققها لهم ومن اشهرهم عمار بن ياسر وخباب بن الارت، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي ويسار بن عبد صفوان بن امية وعامر بن فهيرة (1) وسلمان الفارسي (2) ومما يعزز القول باستجابتهم للإسلام قبل غيرهم قول عظماء قريش لابي طالب ﷺ: (لوأن أبن أخيك طرد موالينا وحلفائنا كان أطوع له عندنا وأعظم في صدورنا) (3). أن قريش اتخذت دخول هذه المجموعة في الإسلام منفذاً للطعن بالدعوة الإسلامية أمام القبائل العربية وكانوا يسخرون منهم عند اجتماعهم بهم ويقولون (هؤلاء اصحابه كما ترون أهؤلاء مَن - الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، ولوكان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء، ولا خصهم الله بهم دوننا) (4) وقد طلب وفد تميم من الرسول محمد ﷺ أن يبتعد عن هؤلاء العبيد والموالي كشرط لأتباعه مما ادى هذا الموقف الى نزول بعض الآيات التي تدعو محمد ﷺ الى التمسك بهؤلاء والأرتباط بهم (5). كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (6).

ولكن الرسول ﷺ حطم مفاهيم الفوارق الطبقية بين المسلمين وعمل على دمج عناصر المجتمع بعضهم مع البعض الآخر وذلك من خلال نظام المؤآخاة بين المهاجرين والانصار الذي ساوى ما بين الأطراف المتآخية من حيث الحقوق

---

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٦، ١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٢٥٧ - ٢٥٨.

(3) جمال جودة، الاوضاع الاجتماعية، ص ٥٦.

(4) ابن هشام، السيرة ٢ / ٣٣؛ ابن كثير، تاريخ ابن كثير ٣ / ١٢٩.

(5) الواحدي، اسباب النزول، ص ١٢٤.

(6) القرآن الكريم، سورة الانعام / ٥٤.

والواجبات [1]. ومن التعديلات التي اجراها الرسول محمد ﷺ هي تكافؤ الدماء بين المسلمين لأن الموروث الاجتماعي عند عرب الجاهلية لا تقر بتكافئ الدماء بين افراد المجتمع فدية الحليف هي نصف دية الصريح، فالغى الإسلام ذلك وجعل دماء المسلمين متساوية فقد خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: (يد تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم) [2].

الحرف اليدوية:

عرف العرب قبل الاسلام العديد من الحرف والصناعات اليدوية وكانوا يأنفون من الحرف اليدوية كالنجارة والحدادة والحياكة والخياطة والصياغة والدباغة، وينظرون الى المشتغلين بها نظرة أحتقار وازدراء لأنها في عرفهم حرف وضيعة، وجدت للعبد والرقيق ولا تليق بالحر ويكرهون التزاوج مع اهل الحرف [3] حتى أن الشريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه اليها شخص من أصحاب هذه الحرف استنكافاً لأنه ليس في منزلته ومكانته [4] فعمل رسول الله ﷺ على تجويز حضور طعام أصحاب الحرف اليدوية وكان بنفسه يحضر منازلهم فعد القوم ذلك عملاً غير مألوف ومخالفاً للعرف والتقاليد والموروث الاجتماعي [5].

لذلك فان رسول الله محمد ﷺ أراد أن يوضح للمجتمع أهمية الحرف والاعمال اليدوية ودورها في تطويره وتقدمه لما تقدمه اليه من خدمات هوبأمس الحاجة اليها، هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الإسلام اكد على اهمية العمل وذوبان الفروقات الاجتماعية في المجتمع الجديد، المجتمع الإسلامي الذي يحمل مفاهيم وقيم تغاير ما كان سائداً في المجتمع الجاهلي، فالتصور الإسلامي للمجتمع أنه يتألف من تعاون العاملين فيه بل أعتبر العمل عبادة وهوبمثابة الجهاد في سبيل الله قال تعالى: «فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ

---

(١) صالح احمد العلي، دولة الرسول في المدينة، ص ٩١- ٩٥.

(٢) الشريف الرضي، المجازات النبوية ١ / ٢٠.

(٣) للتفصيل راجع جمال سليمان علي عامر، الحرف والصناعات اليدوية، ص ٢١ وما بعدها.

(٤) جواد علي، المفصل ٧/ ٥٤٣.

(٥) جواد علي، المفصل ٧/ ٥٤٣.

مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ»[1]فالضرب في الأرض معناه السعي بقوة وهذا يرفع الحرج عن المسلم الذي لا يعكف على قراءة القرآن ويجزئه ما تيسر منه انه على جهاد ما دام في عمل وقد أقام العمل له عذراً كجهاد المجاهدين في سبيل الله بل قدم عذر العامل على عذر المجاهدين، وقد ورد في القرآن الكريم (٣٢٨) أية تتحدث عن العمل وانه في هذه الآيات الكريمة لا يشمل فقط العمل الديني وانما يشمل ايضاً العمل الدنيوي [2]وهذا ما أشار اليه أمير المؤمنين علي ﵇ عندما جمع عمل الانسان والسعي لتحقيقه والحث عليه ولكن جعل له ضابط في تحصيله بان يكون وفق المعايير الإسلامية التي أساسها التقوى والعمل الصالح وذلك عندما قـال:

اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا

واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا [3]

وكان رسول الله ﷺ يعمل ويرغب في العمل ويحض عليه فقد كان النبي ﷺ يعمل بالتجارة [4]واكد ﷺ الأمر بالعمل وان أفضل الكسب كسب اليد فقال (ما أكل احد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)[5]وبيّن مكانة التاجر الصدوق فقال (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء) [6] ورغب ﷺ في العمل ومنه العمل الزراعي فقال: (ما من مسلم يغرس غرساً اويزرع زرعاً فيأكل منه طيراًاوانسان أوبهيمة الا كان له به صدقة) [7].

---

(١) القرآن الكريم / سورة المزمل آية ٢٠.

(٢) راوية بن احمد عبد الكريم الظهار، حقوق الانسان في الاسلام، ص ٢٦٨.

(٣) العلامة الحلي الحسن بن بن يوسف بن علي بن المطهر، تحرير الاحكام ١/ ١٥٩، المحقق البحراني، الشيخ يوسف البحراني، الحدائق الناضرة ١٨/ ٩؛ الميرزا النوري؛ الميرزا النوري، مستدرك الوسائل ١/ ١٤٦.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٢٢٤؛ اعلام الهداية (مجموعة مؤلفين) ١ / ٦٦.

(٥) البخاري، الصحيح، ص ٣٦٢ (باب البيوع رقم الحديث ٢٠٧٣) نسخة طبعة دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

(٦) الترمذي، السنن، ص ٣٥٣ (كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار) رقم الحديث ١٢٠٨ (نسخة طبعة دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠).

(٧) البخاري، الصيح، ص ٤٠٦ (كتاب الحرث والزراعة رقم الحديث ٢٣٢٠).

لقد افلح الاسلام بتغيير نظرة المجتمع الى بعض المفاهيم والقيم في الموروث الاجتماعي فبعد أن كانوا يحتقرون المهن والحرف والاعمال اليدوية أصبحوا الآن يعتزون بها ويُنسبون اليها فهناك العديد من أكابر العلماء لم ينسبوا الى آباءهم واجدادهم بل نسبوا الى حرف، وصناعات كانوا يعملون بها اويتعيشون منها آباؤهم فلم يحدوا حرجاً في الانتساب اليها مثل البّزاز، والزجاج، والجصاص، والخراز، والخياط، والفوط وغيرهم من الفقهاء والمؤلفين والعلماء في شتى جوانب الثقافة الاسلامية.

ومن مظاهر الموروث الاجتماعي عند العرب قبل الاسلام انه كان لديهم عدّة انواع من أنظمة الزواج ومنها زواج الشغار ويتم من غير مهر اوصداق وانما يزوج الرجل ابنته اواخته على أن يزوجه الآخر ابنته اواخته [1] وان الفتاة في نظر أهلها رأس مال لهذا تعامل معاملة المتاع الذي يباع ويشترى، وقد ظل هذا الزواج قائماً عند العرب حتى جاء الإسلام فامر الرسول محمد ﷺ بتحريمه حيث جاء ذلك في حديثه حيث روي انه ﷺ: (نهى عن الشغار) [2].

ومن عادات العرب قبل الإسلام الاجتماعية والتي توارثها الابناء عن آباءهم واسلافهم انه اذا مات الرجل وترك زوجة القى ابن زوجها أواحد اقاربه ثوب عليها فيمنعها من الزواج فأن رغب بها تزوج منها أويزوجها لغيره ويأخذ مهرها [3] اويعضلها أي يمنعها من الزواج [4] وهوما يُعرف بزواج الاستخلاف اوالمقت [5].

وقد شكت (كبيشه بنت معن بن عاصم الأوسي) الى النبي محمد ﷺ أبن زوجها (محصن بن أبي الأسلت) لما فعل بها إذ ألقى عليها ثوباً [6] فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله الكريم: «وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ» [7] ويفهم من هذا

---

(١) محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية، ص٤٠-٤١؛ محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور القديمة، ص٢٤٩.

(٢) البخاري، الصحيح، ص ٩٤٢ (باب الشغار رقم الحديث ٥١١٢).

(٣) محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية، ص٦٥.

(٤) محمد الحوفي، المرأة في العصر الجاهلي، ص ٢٥٧.

(٥) محمد الخطيب، حضارة العرب، ص ٢٤٩؛ سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب، ص٣١٠.

(٦) ابن حبيب، المحبر، ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٧) القرآن الكريم، النساء / ٢٢.

أن رجالاً خلفوا آباءهم على ازواجهم وقد سجل ذلك عمروبن معد يكرب الزبيدي إذ قال في زوجته التي خلف أباه عليها:

فلولا إخوتي وبَنّي منهـــــا ملأتُ لها بذي شُطُب يميني

لـقَعْقَعَةَ اللجام برأس طِرفٍ أحبُ اليَّ من أن تنكحيني [1]

ثم شكت نسوة الى الرسول ﷺ فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ»[2]ولكن العرب كانوا يمقتون هذا النوع من الزواج وقد نعته الله جل وعلا (انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) [3]فهوفاحشة وقبيح وممقوت في المروءة.

واورد ابن حبيب قائمة باسماء من فرق الاسلام بينهم وبين زوجات آبائهم كمنظور بن زيان بن سيار الفزاري، الذي كانت تحته مليكة بنت خارجه بن سنان المري، خلف عليها بعد أبيه فاولدها خولة بنت منظور، ومن الذين تزوجوا من امرأة أبيهم، تميم بن أبي مقبل، وكانت تحته دهماء امرأة أبيه [4]وكانت العرب قبل الاسلام تحرم الزواج من المحارم كانوا لا ينكحون الامهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات وهوما اقره الاسلام [5].

وقد حرم الاسلام الزواج من المحارم وقد نهى الرسول محمد ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أوالعمة على بنت أخيها، والمرأة على خالتها اوالخالة على بنت أخيها، والمرأة على خالتها اوالخالة على بنت اخيها [6].

تعدد الزوجات:

كان نظام تعدد الزوجات معروفاً عند العرب قبل الاسلام ولم يحدد عدد الزوجات

---

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٧.

(٢) القرآن الكريم، النساء / ١٩.

(٣) القرآن الكر-، النساء / ٢٢.

(٤) المحبر، ص ٣٢٦.

(٥) الالوسي، بلوغ الارب ٢/ ٥١؛ نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٣٠٤.

(٦) البخاري، الصحيح، ص ٩٤٢، رقم الحديث (٥١٠٨)؛ الترمذي، سنن الترمذي، ص ٣٢٥ (رقم الحديث ١١٢٦).

التي تكون في عصمة الرجل بل جعلها مطلقة اعتماداً على قدرته الاقتصادية [1]وقد اورد صاحب كتاب المحبر قائمة باسماء عدد من رجال ثقيف كان لدى كل واحد منهم عشر زوجات، كمسعود بن معتب، وسفيان بن عبد الله، ومعتب بن عمروبن عمير فدخلوا الاسلام فأمسك كل واحد منهم بأربع وطلق ست، اما عروة بن مسعود فقد كان متزوجاً عشر فاسلم ومات مسلماً ولم يكن أمر بالنزول عن نسائه [2] وكان غيلان بن أمية الثقفي عندما أسلم كان عنده عشرة نساء فقال له الرسول محمد ﷺ: (أختر منهن اربعاً) وفارق سائرهن [3] وروي أن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال أختر منهن اربعاً [4].

الطلاق الشائع:

وارتبط بموضوع الزواج موضوع الطلاق وحسب الموروث الاجتماعي عند العرب قبل الاسلام، فقد عرفوا آنذاك الطلاق حيث كانت العرب في الجاهلية تطلق ثلاثاً على التفرقة والزوج احق بزوجته الى أن يستوفي ثلاث طلقات فأن استوفاها انقطع سبيله اليها [5]وقد أقر الاسلام هذا النوع من الطلاق [6]فقد روي أن عمروبن عدس عندما اصبح شيخاً هرماً فرأى زوجتهُ دختنوس تتأفف منه يوماً فقال لها: أَيَسُرُّكِ أن افارقك؟ قالت نعم فطلقها وهكذا نرى أن المرأة إنما كان من حقها أن تطلب الطلاق وأن تُجاب الى طلبها، بل أن من حقها أن تشترط أن تكون العصمة في يدها وهكذا كانت نسوة من العرب يشترطن على ازواجهن أن يكون أمرهن بيدهن أن شئن أقمن وأن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق وذلك لشرفهن وقدرهن وهذا حق لم تظفر به امرأة في الامم التي عاصرت العرب، وجاء الاسلام فأبقى على حق المرأة في

---

(١) جواد علي، المفصل ٥، ٥٤٧.

(٢) أبن حبيب، ص ٣٥٧.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ص ٣٢٦ رقم الحديث (١١٢٨)؛ ابن الاثير، اسد الغابة ٤/ ٤١ رقم الترجمة (٤١٨٤)؛ ابن حجر، الاصابة ٤ / ٣٢١ رقم الترجمة (٦٩٢٣).

(٤) هاشم يحيى الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ٣٦٦.

(٥) ابن حبيب، المحبر ص ٣٠٩؛ الآلوسي، بلوغ الارب ٢/ ٤٨.

(٦) محمد ابراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني، ص ٣٨٠.

الطلاق اذا اشترطتهُ على الزوج [1] ومما يعزز الرأي بمعرفة العرب بايقاعهم الطلاق ثلاثاً قول الاعشى (ميمون بن قيس) حين تزوج أمرأة ورغب اهلها أن يطلقونها عنه فجاءوا اليه وهددوه بالضرب اويطلقها فقال:

أيا جارتي بيني فإنك طالقه كذلك أمور الناس غادٍ وطارقه

قالوا ثنه فقال:

وبيني فإن البين خير من العصا وان لا ترى لي فوق رأسك بارقه

فقالوا له ثلث فقال:

وبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقة فينا كذاك ووامقه

[2] فكرر الطلاق ثلاث مرات متفرقات، وينسب اهل الاخبار سنة هذا النوع من الطلاق الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام فكان الرجل يقول لامرأته أنت طالق واحدة فهوأحق الناس بها، فان طلقها أثنين فكذلك، فان طلقها ثلاثاً فلا سبيل له عليها وتصبح طالق طلاقاً بائناً [3].

وكان طلاق الثلاث دفعة واحدة في الاسلام كان لا يقع الى عهد عمر بن الخطاب إلا طلقة واحدة قال ابن عباس. أن الطلاق كان في عهد رسول الله ﷺ، وابي بكر، وسنتبين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: أن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة، فلوأمضيناه عليهم، فأمضاهُ عليهم [4].

طلاق الظهار

ومن صيغ الطلاق عند العرب قبل الاسلام أن يقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي، اوكبطنها أوكفخذها أوكفرجها [5] أوكظهر أختي، اوكظهر عمتي، فيقع بذلك

(١) محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور القديمة، ص ٢٥١.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص٣٠٩ - ٣١٠، ابوالفرج الاصفهاني، الاغاني ٩/ ١٤٢ - ١٤٤؛ الالوسي، بلوغ الارب ٢/ ٤٨ - ٤٩.

(٣) محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور الوسطى ص٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ص ٦٤١ رقم الحديث (١٤٧٢) (باب الطلاق)؛ عبد الحسين شرف الدين، النص والاجتهاد، ص ٢٤٨.

(٥) الآلوسي، بلوغ الارب ٢ / ٤٩.

طلاق الظهار [1] ومن اسباب وقوعه التسرع والتهور وعدم ضبط النفس والانفعالات العاطفية فلما كان الاسلام حرمه. وروي أنه ظاهر (اوس بن الصامت) زوجته (خولة بنت ثعلبة بن مالك) ففزعت الى رسول الله ﷺ فانزل الله سبحانه وتعالى قوله: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» [2] فنزل التشريع بجعل كفارة فيه ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم [3] إذ كانوا يعدون الظهار من اشد انواع الطلاق تحريماً [4].

طلاق الخلع:

ومن صيغ الطلاق الاخرى عند العرب قبل الاسلام والتي ورثوها عن آباءهم طلاق الخلع وهوأن تفتدي المرأة من زوجها بما لها وتختلع منه إذا أساء عشرتها [5] أوإذا لم ترغب به، وبما أن الطلاق من حقوق الرجل اما الزوجة فليس لها حق الطلاق ولكنها تستطيع خلع نفسها من زوجها بالاتفاق معه على ترضية تقدمها اليه، وذكر أهل الاخبار ا ن اول خلع كان هوخلع (عامر بن الظرب) العدواني وذلك أنه زوج أبنتهُ من ابن اخيه (عامر بن الحارث بن الظرب) ولكن لم يكن بينهما وئام وتوافق فطلقها منه على أن تدفع له المال الذي ساقه اليه كمهر [6].

وذكر انه سألت (ضباعة بنت عامر بن قرط) [7] زوجها عبد الله بن جدعان أن لأنه كان كبيراً وعاشت معه زماناً لا تلد ولأن هشام بن المغيرة المخزومي اغراها بطلب الطلاق فقال لها عبد الله أخاف أن تتزوجي هشام بن المغيرة قالت لا اتزوجه قال

---

(١) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٥٠.

(٢) القرآن الكريم، المجادلة / ٢.

(٣) ابن حجر، الاصابة ٧/ ٩٢-٩٣ (رقم الترجمة ١١١٠٦)

(٤) محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور القديمة، ص ٢٥٢.

(٥) محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور القديمة، ص ٢٥٢.

(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٥٢.

(٧) راجع ترجمتها عبد. آ. مهنا، معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والاسلام، ص ١٥٠ - ١٥١.

فان فعلت فعليك مائة من الابل تنحرينها بين أساف ونائله وتغزلين لي خيطاً يقطع ما بين الاخشبين - جبلي ابي قبيس وقعيقعان - وتطوفين بالبيت عريانة فارسلت الى هشام تخبره فارسل اليها، ما أيسر ما سألك، وانا ايسر قريش في المال، ونسائي اكثر نساء رجل من قريش، واما طوافك بالبيت عريانة فانا أسأل قريشاً أن يخلوه لك ساعة فقالت لزوجها فان تزوجت هشاماً فعلي ما قلت، فطلقها، فتزوجها هشام ونحر عنها مائة من الجزر وجمع نساءه فنسجن ثوباً يسع ما بين الاخشبين ثم طافت بالبيت عريانة وأنشدت تقول:

اليوم يبدوبعضُه أوكلـّه فما بدا منه فلا أحِلـّه

كم ناظرٍ فيه فما يملـّه أخثم مثل القـَعْب بادٍ ظلـّه [1]

وروي عن أبن عباس أن أمرأة (ثابت بن قيس) أتت النبي ﷺ فقالت: (يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خـُلقٍ ولا دين، ولكن أُكره الكـُفر في الاسلام فقال رسول الله ﷺ: أتـُردينَ عليه حديقته قالت نعم قال رسول الله ﷺ: أقبل الحديقة وطلقها[2].

وعرف العرب قبل الاسلام الإيلاء وهوالقـَسم على ترك المرأة مدّة شهور أوسنة أوسنتين ايذاءً لها فلا يقربها [3]وعندما جاء الاسلام أقر مشروعية الايلاء ولكنه شذب هذه العادة وقلل فترة المقاطعة فوقت الله لهم اربعة اشهر [4]فمن كان إيلاؤه أقل من اربعة اشهر فليس بإيلاء [5].

ومن الموروث الاجتماعي عند العرب قبل الاسلام هوعدّة المرأة بعد وفاة زوجها اوطلاقها [6]استبراءً للرحم وحداداً على الزوج وهي عادة كانت مشهورة ومعلومة في

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ (رسالة القيان ٢/ ١٤٩ - ١٥١؛ ابن حجر، الاصابة ٧ / ١٧٩ (رقم الترجمة ١١٤١٨).

(٢) البخاري، الصحيح، ص ٩٦٩، ٩٧٠ رقم الحديث (٥٢٧٤)؛ الترمذي، سنن الترمذي، ص ٣٤٥ (رقم الحديث ١١٨٥).

(٣) محمد الخطيب، حضارة العرب في العصور القديمة.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، ص ٣٤٩ (رقم الحديث ١٢٠١).

(٥) الالوسي، بلوغ الارب ٢ / ٤٩.

(٦) الالوسي، بلوغ الارب ٢ / ٤٩.

الجاهلية لا يكادون يتركونها [1] والغاية من ذلك المحافظة على النسب وعلى الدماء كراهة أن تختلط بالزواج العاجل بعد الطلاق اوالموت فوضعوا لذلك مدّة لا يسمح فيها للمرأة خلالها بالزواج تسمى (العدّة) [2]. وكانت عدّة المرأة المتوفي زوجها سنة كاملة حيث تلبس شر ثيابها ولا تمس طيباً ولا ماءً ولا تُقلم ظفراً، ولا تزيل شعراً ولا تستعمل كحلاً [3] والى تلك المعاني اشار لبيد بقوله:

وهم ربيعُ للمجاور فيهُم والمرملات اذا تطاول عامها [4]

وقد ذكر أن امرأة توفي عنها زوجها، فخشوا على عينيها، فأتوا رسول الله ﷺ فأستأذنوه في الكحل فقال: لا تكتحل قد كانت أحداكن تمكث في شر أحلاسها – شر بيتها – لمدة عام [5] فنلاحظ أن الإسلام قد أقر العدّة على المرأة المتوفي زوجها وعدم الزينة كوضع الكحل اوالطيب خلال فترة العدّة ايضاً ولكنه ابطل مدّة العدّة فلم يقرّ مدتها كما كانت عند الجاهلية لمدة عام ولكنه حددتها باربعة اشهر وعشرة أيام [6] وذلك بقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» [7].

أما بشأن عدّة المرأة المطلقة فقد ذكر أنها كانت تعتد عند العرب قبل الإسلام [8] ولكن لم يرد تفصيل لطريقة عدّتها وأجلها [9] وقد تكون حامل من زوجها الاول فلما تتزوج وتولد ينسب الولد الى الزوج الثاني لانها ولدته على فراشه وليس الى أبيه الذي هو من صلبه.

---

(١) احمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٧٧.

(٢) الالوسي، بلوغ الارب ٢ / ٥٠ – ٥١.

(٣) الالوسي، بلوغ الارب ٢ / ٥٠.

(٤) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٥٧.

(٥) البخاري، صحيح البخاري، ص ٩٨٠ (رقم الحديث ٥٣٣٨)؛ مسلم، صحيح مسلم، ص ٦٥٤ (رقم الحديث ١٤٨٩).

(٦) مسلم، صحيح مسلم، ص ٦٥٣ (رقم الحديث ١٤٨٤).

(٧) القرآن الكريم، البقرة / ٢٣٤.

(٨) الالوسي، بلوغ الارب ٢/ ٤٩.

(٩) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٥٦؛ احمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٧٨.

ومن الموروث الاجتماعي عند العرب قبل الإسلام هي قطع يد السارق [1] ولكن هذه القاعدة العرفية لا تنطبق على السادة والأشراف وابناء الرؤساء والزعماء وإنما كان يتم تطبيقها على ابناء العامة من العبيد والموالي وعامة الناس [2] وعندما جاء الإسلام وضح فساد تطبيقها لانها لا تطبق وفق مبدأ العدالة وإنما كانوا ينظرون الى المكانة الاجتماعية التي يتحلى بها المرء وعلى ضوء ذلك يتم تطبيق الحكم عليه حيث قال رسول الله ﷺ: (إنهم كانوا اذا سُرق الشريف تركوه، واذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد)[3] ووضع الاسلام آلية جديدة في تطبيق الاحكام والمتمثلة بمبدأ العدالة فالناس حسب المنظور الاسلامي جميعهم متساوين امام القانون كأسنان المشط وقد رسم لنا المصلح الاكبر محمد بن عبد الله ﷺ هذا المنهاج العادل في الحكم وحثنا على أن نستمسك بكلمة الحق دون مراعاة للأشخاص وأن ننصر الحق وان كان في جانب الضعيف وان نكيد للباطل وان كان في جانب القوي وان لا نفرق بين الشريف والوضيع في تنفيذ حدود الله تعالى[4] وقد جاء اسامه بن زيد مستشفعاً عند رسول الله ﷺ في امرأة من اشراف قريش سرقت ولكن المصلح الاكبر أبى أن يعطل حكم الله فيها وأرسل قوله المشهور (ايها الناس إنما اهلك الذين قبلكم إنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه، واذا سُرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد، وايم الله لوأن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) [5] وهكذا رفض مؤسس قواعد المثالية والعدالة والمساواة على وجه الارض أن يعطل حدود الله من اجل هذه المرأة المخزومية مهما بلغت من المكانة في نسبها والعزة في قومها، والمراد من ذكر اسم السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام لبيان علوشأنها ومكانتها في المجتمع فليس هنالك من هي أعلى مرتبة

---

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٧.

(٢) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٣٠٥.

(٣) البخاري، صحيح البخاري ص ٩٨٠ (رقم الحديث ٥٣٣٨)؛ النسائي، سنن النسائي ٨ / ٧١؛ الطبراني المعجم الوسيط ٧ / ٢٧٢.

(٤) مرتضى العسكري، احاديث ام المؤمنين ١ / ٣٩٣.

(٥) احمد بن حنبل، المسند ٢/ ٢٨٦، ٦ / ١٦٢؛ الدرامي، سنن الدرامي ٢/ ١٧٣؛ البخاري، الصحيح ٥ / ٩٧؛ مسلم، الصحيح ٥/ ١١٤؛ الدرامي، سنن الدرامي ٢/ ١٧٣؛ محمد ريشهري، ميزان الحكمة ١ / ٥٥٦.

ومنزلةً في المجتمع ليس الاسلامي فقط بل الانساني لانها سيدة نساء العالمين وأبوها سيد المرسلين فالنبي محمد ﷺ عندما ضرب بها مثلاً فهويريد أن يوصل رسالة الى ابناء المجتمع أن السارق مهما علـّت مكانته الاجتماعية يجب أن يطبق عليه القانون شأنه شأن أي مواطن من ابناء الامة.

وقد جسد الامام علي ﵇ مبدأ تطبيق العدالة في القانون عندما امتثل وهوخليفة امام قاضيه على الكوفة شريح في منازعته مع اليهودي في درع تعود ملكيته اصلاً لامير المؤمنين ﵇[1] لقد حضر علي الى مجلس القضاء بنفسه لأنه لا يريد أن يمنح نفسه تمييزاً أوتفضيلاً وبذلك فقد ضرب ﵇ أروع الامثلة في تطبيق العدالة في المجتمع.

العصبية القبلية

نظم المجتمع العربي قبل الاسلام نفسه في شكل من اشكال التنظيم القبلي الذي يرأس فيه القبيلة رئيس أوشيخ من أبنائها وتصبح القبيلة الى جانب وظيفتها الاجتماعية وحدة سياسية [2] فتكون لها علاقاتها الخارجية وتقوم بعقد التحالفات والدخول في احلاف [3] ويعتقد ابناء القبيلة انهم ينتمون الى جد واحد أعلى ومما يزيد في قوتها وتماسكها هوشعور أبناءها بصلة الرحم وبقوة الترابط بينهم [4] والتي عرفها أبن خلدون بانها تمثل العصبية القبلية حيث اطنب بالحديث عن اثرها في تماسك القبيلة وبين اهميتها في الوشائج والقربى بين ابناء القبيلة الواحدة [5]. وابناء القبيلة متضامنين في الخير والشر ويتحملون وزر الاعمال التي يجنيها الفرد منهم ولذلك قالوا (في الجريرة تشترك العشيرة) [6].

---

(١) أبن ادريس الحلي، السرائر ٣/ ٥٤٤؛ الشهيد الثاني زين الدين بن علي، مسالك الافهام ١٢/ ٤٢٨؛ المحقق السيزواري، محمد باقر بن محمد، كفاية الاحكام، ص ٢٢٦؛ المحقق النراقي، مستند الشيعة ١٧/ ١١٦.

(٢) شاكر مجيد كاظم، قبيلة خولان بن عمرو، ص ١.

(٣) ابراهيم محمد علي الجبوري، التحالفات بين القبائل العربية، ص ١٥٦ - ٢٣٠.

(٤) برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الاسلام، ص ١٦٥.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٩.

(٦) الميداني، مجمع الامثال ٢ / ٧٣.

وقد يحدث تعارض بين مصلحة الشخص الفردية ومصلحة الجماعة المنتمي اليها والمتمثلة بالقبيلة فان الموروث الاجتماعي عندهم يقرر بان مصلحة الفرد تذوب في بوتقة مصلحة الجماعة وهذا نفهمه من قول دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت ... وإن ترشد غزية أرشد[1]

وبأثر التلاحم وصلة القربى بين ابناء القبيلة فانها تهب جماعات ووحدانا لدفع عما يلحق بأحد أفرادها من ضرر دون التعرف على الاسباب والدوافع التي ادت الى حدوثها وهذا ما عبر عنه شاعرهم بقوله:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا [2]

لأنهم يطبقون مبدءاً عاماً كان سائداً عندهم وهومن القيم الاجتماعية المتوارثة والمتأصلة في مجتمعهم وهو«انصر أخالك ظالماً أومظلوماً »[3]وبغض النظر سواء أكانوا على الحق أم الباطل فهم يناصرون ابناء جلدتهم محقين كانوا أومبطلين، ولما جاء الاسلام وقف موقفاً رافضاً لمثل تلك الموروثات القيمية وعمل على انهاءها واحلال مباديء وقيم اسلامية تحل محلها فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: أنصر أخاك ظالماً أومظلوماً فقيل يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً[4] لأن هذه دعوة جاهلية فقال أن تناصر أخاك ظالماً وذلك يردعه عن الظلم ونهيه عن فعله وكفه عن ظلمه أن كان ظالماً[5]فتكون قد نصرته اذا منعته من الأثم لأن النبي ﷺ لا يأمر بنصرة الظالم [6]لأن الظلم يضر بالمجتمع وبذلك فانك ناصرته من خلال تقديم النصيحة له لأن الدين النصيحة وناصره مظلوماً وذلك بالوقوف الى جانبه حتى يأخذ الحق ممن ظلمه[7]فنلاحظ أن هذا المفهوم قد طرأ عليه تغيير جذري بكل أبعاده

---

(١) ابراهيم بن اسحاق الحربي، غريب الحديث ١ / ٢٢٧؛ ابن منظور، لسان العرب ١٥ / ١٢٥، ١٤٠.

(٢) ابراهيم محمد علي الجبوري، التحالفات بين القبائل العربية، ص ٩٦.

(٣) ابوهلال العسكري، جمهرة امثال العرب ١/ ٥٨، الزمخشري، المستقصى ١/ ٣٩٢.

(٤) أبويعلى، مسند أبويعلى ٦/ ٤٤٩ - ٥٥٠؛ الميداني، مجمع الامثال ٢/ ٣٣٤ (رقم ٤٢٠٣).

(٥) المتقي الهندي، كنز العمال ٢/ ٤١٤.

(٦) ابوهلال العسكري، جمهرة الأمثال (رقم ٣٤)؛ الزمخشري، المستقصى ١/ ٣٩٢ (رقم ١٦٧٥).

(٧) الطبراني، المعجم الوسيط ١/ ٢١٠.

بما ادخل عليه الرسول محمد ﷺ من تغيير وتبديل في المفاهيم السائدة من مفاهيم تعمل على تحطيم المجتمع وتهديم عرى الألفه والتواصل بين ابناءه الى جعلها عاملاً مساهماً في بناء المجتمع وتقوية الروابط بين أفراده وجعلهم كجسد واحدٍ اذا أشتكى عضواً تداعت له باقي اجزاءه بالسهر والحمى.

تحية العرب

أن من عادة الناس الجارية بينهم أن يحيي بعضهم بعضاً عند لقائه فكان العرب يقولون في تحيتهم بينهم في الجاهلية (أنعم صباحاً) و (أنعموا صباحاً) فيأتون بلفظ أنعموا وهي طيب العيش والحياة ويصلونها بقولهم (صباحاً) لأن الصباح أول النهار، وكذلك يقولون (أنعموا مساءً) ولهذا يقولون الناس الى اليوم (صبحك الله بالخير) و (مساك الله بالخير) فهذا هومعنى (أنعم صباحاً ومساءً) [1].

وقد ذكر العرب قبل الاسلام تلك الالفاظ في شعرهم كقولهم:

أنعم صباحاً بالسيوف وبالقنا ان السيوف تحية الفرسانِ[2]

كما كانوا يقولون (حياك وبياك) و (حياك الله) [3]كما كانوا يذكرون آلهتهم في تحيتهم كقولهم (حياك هبل) [4]

اما تحية الفُرس فكانوا يقولون: (هزار صال بِماني) أي تعيش الف سنة [5].

اما تحية الملوك عند العرب قبل الاسلام فكانت تختلف عن تحية عامة الناس فكانوا يخاطبونهم بلفظ (أبيت اللعن) أي أبيت أن تأتي من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه [6]وكانت هذه تحية ملوك المناذرة، اما تحية ملوك الغساسنة: (يا خير الفتيان)، وتحية بعض القبائل العربية: (أسلم كثيراً) [7].

(١) الالوسي، بلوغ الارب ١/ ١٨٨.
(٢) أبن وكيع التنيسي، السارق والمسروق منه، ص ٥٧٧.
(٣) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم، ص ٣٠٥.
(٤) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٢٤.
(٥) الالوسي، بلوغ الارب ١ / ١٨٨.
(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٢٣.
(٧) الالوسي، بلوغ الارب ١ / ١٨٩.

لقد كانت تلك الصيغ في التحية من الموروثات الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام، ولما جاء الاسلام أبطل تلك التحيات وشرع الله سبحانه وتعالى للمسلمين تحية بينهم (السلام عليكم) وهي اولى من جميع صيغ التحية السابقة لتضمنها السلامة التي لا حياة وفلاح الا بها وهي مشتقة من اسمه تعالى السلام، ولما كانت السلامة من كل عيب وشر وآفة بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة كانت تحية أهلها فيها سلام والرب يحييهم فيها بالسلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب [1]«سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»[2].

وروي انه لما دنا (عمير بن وهب) من رسول الله ﷺ قال: (أنعموا صباحاً) فقال رسول الله ﷺ: (قد اكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة)[3].

أسماء الأولاد

أن من عادات العرب قبل الاسلام أنهم كانوا يسمون ابناءهم باسماء فيها غلظة وشدة وخشونة وتدل على الصلابة والقوة والصبر مثل حرب، صخر، سيف، جبل أسد [4]وتلك الاسماء هي انعكاس لطبيعة البيئة التي يعيشون فيها، ونتاجاً من التكوين الثقافي والحضاري لهم ويبتغون من وراء ذلك الى اهداف كانوا يسعون لتحقيقها فقد سئل ابُي الدغيش الكلابي لم تسمون أبناءكم بشر الاسماء نحوكلب، وذئب، وعبيدكم بأحسن الاسماء نحومرزوق ورباح فقال: (انما نسمي ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا) [5]فالقصد من وراء تسميتهم بتلك الاسماء أن الابناء معدّة للأعداء في القتال

---

(١) الالوسي، بلوغ الارب ١ / ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) القرآن الكريم، الرعد / ٢٤.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري ٢ / ٤٧٣.

(٤) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٧٣.

(٥) القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٢٢، وكتابه الآخر، صبح الاعشى ١ / ٣١٢؛ الالوسي، بلوغ الارب ٣ / ١٩٣؛ الدميري، حياة الحيوان ٢ / ٢٤٢.

والحرب ونحوذلك [1] فاختاروا لاولادهم الشديد من الاسماء لكي يزرعوا الخوف والرعب في قلوب اعدائهم والنصر عليهم [2] في حين كانوا يختارون اسماء غلمانهم لمسرتهم، ومسرة ضيوفهم فاختاروا لهم الاسماء اللطيفة [3].

لما كانت الاسماء الجميلة والحسنة تُدخل المسرة والسرور في نفس الانسان ويتفاءل بها المرء نحو الخير والفلاح لذلك عمل الرسول محمد ﷺ على تغيير العديد من الاسماء التي فيها غلظة وشدة وغير محببة والتي لا تتفق مع روح الاسلام أولقبحها أوانها تحمل معاني تكرهها النفس الانسانية فقد روي انه قدم رجل اسم أبيه (بغيض) على النبي الاكرم محمد ﷺ فغيره الى حبيب [4] وابدل اسم (حزن) الى (سهل)، و (وبره) الى (زينب)، و (أحرم) الى (زرعه)، و (العاصي) الى (مطيعاً) [5] وحول اسم (حسيل بن عرفطة الاسدي) الى (حسين) [6] و (عبد الحارث بن زيد بن صفوان) الى (عبد الله) [7].

العقيقـة

كان العرب قبل الاسلام اعتزازاً منهم بالطفل، والفرح بمقدمه وذلك بذبح كبش اونحوذلك والتي تعرف باسم (العقيقة وهي من الذبائح التي كانت الجاهلية تفعلها) [8]

---

(١) القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٢٢؛ محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية، ص ١١٤.

(٢) الآلوسي، بلوغ الارب ٣ / ١٩٣، جاسم محمد عيسى الجبوري، قبيلة كلب ودورها في التاريخ العربي، ص ١٦.

(٣) جواد علي، المفصل ١ / ٥٢٥.

(٤) ابن حزم الاندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٢١١؛ ابن الاثير، اسد الغابة ١ / ٢٠٢؛ الذهبي، تجريد اسماء الصحابة ١ / ١٢٠.

(٥) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ١٠٢، ١٠٤؛ ابن حجر، ارشاد الساري ٩ / ٨٩، ٩٠.

(٦) ابن الاثير، اسد الغابة ٢ / ١٧؛ الذهبي، تجريد اسماء الصحابة ١ / ١٣١.

(٧) ابن حزم الاندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٠٦؛ للمزيد من المعلومات عن ذلك راجع محمد قي فلسفي، الطفل بين الوراثة والبيئة ٢ / ١٧٩.

(٨) الزمخشري، اساس البلاغة، ص٤٤؛ الزبيدي، تاج العروس ١٠ / ٨.

وكانوا يذبحونها في اليوم السابع من مولده[1]اما عن المراسيم التي كان يجريها العرب قبل الاسلام بشأن العقيقة فيحدثنا عنها (بريده الاسلمي): (قال كنا في الجاهلية اذا ولد لاحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمه) [2]تبركاً به لأن دم الذبيحة كان مباركاً عندهم حسب اعتقادهم ولم يكتفوا بذلك فقط بل كانوا يلطخون منه الهتهم تعظيماً لها واكراماً) [3]وكان الغبغب مذبحاً للاله العزى ينحرون فيه الذبائح [4]وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها [5]ولما جاء الاسلام أقر العقيقة فقد ثبت مشروعيتها بالسنة النبوية الشريفة اذ أن النبي محمد ﷺ عق عن الامامين الحسن والحسين عليهما االسلام [6]كبشاً كبشاً وقيل كبشين كبشين [7]ولكن الاسلام قام بتهذيب وتشذيب الذبح للمولود عما كانت عليه [8]وتقويم كل العادات التي لا تتفق مع المبادئ والقيم الاسلامية فقد جاء بالحديث النبوي الشريف النهي عن أن يُمس رأس الوليد بدم العقيقة [9].

ومن العادات الاجتماعية التي كانت عند العرب قبل الاسلام هوحلاقة شعر المولود[10]إذ كان من الموروث الاجتماعي لديهم أنهم كانوا يحلقون رؤوسهم عند اصنامهم [11]. ويحلقون شعر رؤوسهم بما يُعرف بـ (القزع) [12]وهوأن يحلق موضعاً

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ١٠/ ٢٥٨.

(٢) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ٣٣

(٣) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ٣٣.

(٤) ابن الكلبْ، الاصنام، ص ٢٠.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤ / ١٨٦.

(٦) ابن حجر، فتح الباري ٩ / ٤٨٩.

(٧) الشيخ المفيد، الارشاد ٢ / ٢/ ٥/ ٢٧، كتاب اعلام الهداية (لجنة تأليف) ٤ / ٤٤، ٥ / ٥٣.

(٨) العلامة الحلي، قواعد الاحكام ٣ / ٩٣.

(٩) الشيخ الصدوق، فقه الرضا، ص ٢٣٩؛ الفاضل الأبي، كشف الرموز في شرح المختصر النافع ٢/ ١٩٧-١٩٨.

(١٠) النويري، نهاية الارب ٤ / ١٦٨.

(١١) علي عبد الواحد، غرائب النظم ١ / ٣٤.

(١٢) ابن الكلبي، الاصنام، ص١٤ - ٤٨، ابن الاثير، المرصع، ص ٢٨٩.

وتترك موضعاً [١].

وقد عرف العرب قبل الاسلام اربع طرق، اواشكال (موديلات) لحلاقة شعر الرأس أنفرد بذكرها ابن قيم الجوزية وهي:

الطريقة الاولى: أن يحلق من رأسه مواضع من ههنا وهنا.

الطريقة الثانية: أن يحلق وسطه ويترك جوانبه.

الطريقة الثالثة: أن يحلق جوانبه ويترك وسطه.

الطريقة الرابعة: أن يحلق مقدمهُ ويترك مؤخره [٢]

وقد ورد ذكر القزع في الشعر العربي القديم [٣] وكان (لبيد بن ربيعة) في صباه رأسهُ مقزعاً وقد أثبت ذلك في شعره حيث يقول:

يا رب هيجا هي خير من دعة إذ لا تزال هامتي مقزعة [٤]

اما موقف الاسلام من حلاقة شعر الرأس فانه لم ينهى عنه بل كان يدعوأن يهتم الانسان بمظهره ويعتن بنفسه لأن الله جميل يحب الجمال قال تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» [٥] ولكنه اجرى تعديل على حلاقة شعر الرأس حسب طريقة اهل الجاهلية وان تكون مقبولة وتلاقي الاستحسان عند الآخرين. فقد حرم الرسول ﷺ ونهى عن القزع [٦]. وعن الامام الصادق عن آبائه عن علي بن ابي طالب عليه السلام قال: (لا تحلقوا الصبيان القزع) [٧] وروي انه جاءوا الى النبي ﷺ بصبي ليدعوله، وله قنازع فأبى أن يدعوله، وامر بحلق رأسه [٨] لقد اقر الاسلام حلاقة الشعر وحث الرسول ﷺ عليها حيث قال لرجل:

---

(١) الطبرسي، مكارم الاخلاق، ص ٥٧.
(٢) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ٨٠.
(٣) الاعشى، ديوانه، ص ١٥٧؛ ابن الكلبي، أنساب الخيل، ص ٧٨.
(٤) البغدادي، خزانة الادب ٤ / ١٧٢.
(٥) القرآن الكريم، الاعراف / ٣١.
(٦) احمد بن حنبل، المسند ٢ / ٤؛ البخاري، الصحيح ٧ / ٦٠.
(٧) الطبرسي، مكارم الاخلاق، ص ٥٧
(٨) الطبرسي، مكارم الاخلاق، ص ٥٧.

أحلق فانه يزيد في جمالك [1]وكان رسول الله ﷺ يهتم بنظافة جسمه ويسرح شعره ويمشطه، وقال الطبرسي أن رسول الله ﷺ كان يغسل رأسه بالسدر [2]وكان رسول الله ﷺ يتعطر [3]وقال ﷺ: حبب الي من دنياكم النساء، والطيب، وقرة عيني في الصلاة[4].

من خلال ما تقدم يتضح لنا انه سادت عند العرب قبل الاسلام عادات وتقاليد وقيم واعراف اجتماعية متنوعة وهي من الموروث الاجتماعي لديهم وعندما جاء الاسلام حرم بعضها، وشذب البعض منها بما يتفق مع قيم الاسلام، في حين اقر قسم منها لانها يتجسد فيها مبادئ الاسلام كالصدق، والامانة، والشجاعة........ وغيرها.

---

(١) الطبرسي، مكارم الاخلاق، ص ٥٧.

(٢) مكارم الاخلاق، ص ٥٩.

(٣) القاضي عياض، كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ١٥٣.

(٤) القاضي عياض، كتاب الشفا، ص ١٦٩.

عنصر النجاح
في إرادة التغيير النبوية

أ.د شكري ناصر عبد الحسن المياحي
أستاذ في جامعة البصرة
كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم التاريخ

الاستاذ الدكتور شكري ناصر عبد الحسن
أستاذ في جامعة البصرة / كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم التاريخ

اللقب العلمي استاذ
رئيس قسم التاريخ واستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة البصرة كلية التربية للعلوم الانسانية في الدراسات الاولية والعليا
له عدد من المؤلفات واكثر من (٣٠) بحث ودراسة
شارك بعدد كبير من المؤتمرات الدولية والمحلية فضلا" عن الندوات.
اشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه
ناقش عدد كبير من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه في جامعات العراق المختلفة
رئيس قسم التاريخ في كلية التربية للعلوم الانسانية حاليا"، ومقرره سابقا".

التغيير منهج من المناهج الاصلاحية التي تتبناها المجتمعات الانسانية المختلفة سعياً منها في بناء حضاراتها، ولا يقف هذا المنهج عند مستوى محدد بل يتعدى الى عدة مستويات ويتدخل في الجزئيات، ويعالج كل حيثية من الحيثيات، وكذلك أن هذا المنهج لا يرتبط بزمن معين اوانه حالة طارئة تنتفي بانتفاء الحاجة اليها، بل على العكس من ذلك تماماً انه دائماً ما يكون ملازماً لحركة المجتمعات، ولذلك غالباً اذا ما وجد التغيير وجد النجاح، ويبدأ التغيير عادة من الفرد وينتهي بالمجتمع.

ولعل فكرة التغيير اوما يمكن أن نسميه فلسفة التغيير من حيث الاصل انها فكرة قرآنية، وإذا ما زاوجنا بين الطرح القرآني والتغيير الذي انتهجه النبي محمد ﷺ نخرج بنتيجة مفادها أن التغيير هومشروع ونظرية الهية، لها اسسها ومتبنياتها واهدافها وتطبيقاتها.

وإذ ما انتقلنا بالحديث الى إرادة التغيير النبوية والتي يمكن تلمسها من المشاهد التاريخية التي نقلتها كتب السيرة النبوية نجد أن رسول الله ﷺ قد اولى عملية التغيير اهتماماً كبيراً وذلك لتماسها المباشر بالمسيرة الاسلامية وانها تتوقف عليها تثبيت جملة من القرارات المفصلية. اذ نلاحظ أن ايجاد الحلول والمعالجات لجملة من المشكلات التي اعترضت مسيرة الامة واثارت القلاقل بوجه المشروع الاسلامي انما كان بوضع سياسة تغييرية جذرية يترتب عليها عنصر النجاح لهذا المشروع وإلا فلا فائدة ترجى من الإقدام على عملية التغيير.

ولعل عنصر النجاح في عملية التغيير التي قام بها رسول الله ﷺ ارتبطت بشكل مباشر بعملية التغيير القيادي اذ وجد النبي ﷺ أن التركيز في التغيير يجب أن ينصب في استبدال القيادة الفاشلة بقيادة ناجحة قادرة على احداث نقلة نوعية في مجريات

الاحداث وبطبيعة الحال أن هذه العملية تحتاج الى علم ودراية بالامكانيات والقدرات والمواهب ولذلك نلاحظ وبشكل ملفت للانتباه بأن هذه العملية قد تركزت على شخصية الامام امير المؤمنين (عليه السلام) في مواقف كثيرة، ولدينا بعض الشواهد التاريخية في ذلك:

١-اختياره بديلاً عن خالد بن الوليد الذي فشل في اقناع اهل اليمن في دخول الاسلام فغيّره رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالامام علي (عليه السلام) وتحقق عنصر النجاح بدخول اهل اليمن الى الاسلام اذ اسلمت في ذلك اليوم.

روى البراء: بعثنا رسول الله - (صلى الله عليه وآله) - مع خالد بن الوليد إلى اليمن، قال: ثم بعث عليا بعد ذلك مكانه فقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب، ومن شاء فليقبل فكنت ممن عقب معه، قال: فغنمت أواق ذوات عدد [1].

وقد روى البيهقي تفصيل هذا الخبر عن البراء قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث خالد بن الوليد إلى اليمن يدعوهم إلى الاسلام، قال البراء فكنت في من خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الاسلام فلم يجيبوه ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالدا الا رجلا كان مع خالد فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه قال البراء فكنت في من عقب مع علي فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا علي ثم صفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأسلمت همدان جميعا، فكتب علي إلى رسول الله باسلامهم فلما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان السلام على همدا»[2].

ولعل من مميزات الامام علي (عليه السلام) انه لم يكن طيلة حياة النبي تابعا لغيره (صلى الله عليه وآله) الا ترى أنه لم يرسله في جيش أسامة، ولا في جيش ابن العاص، ولا في جيش أبي بكر وعمر حين بعثهما إلى خيبر فلما رجعا وبعث عليا كانا كلاهما تحت لوائه حتى فتح

---

(١) ابن كثير - السيرة النبوية - ج ٤ - ص ٢٠١، الأصبهاني - القول الصراح في البخاري وصحيحه الجامع - ص ٩٣

(٢) ابن الدمشقي - جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (عليه السلام) - ج ١ - ص ٢٨٨، السيد مرتضى العسكري - معالم المدرستين - ج ٢ - ص ١٧٢

الله عليه، ولما بعث خالد بن الوليد إلى اليمن بجيش وبعث عليا إليها بجيش آخر عهد إليهما بأنه إذا التقيتما فعلي على الجيشين وان افترقتما فكل منكما على جيشه الحديث وقد قال ابن عباس: أن لعلي أربع خصال ليست لاحد هوأول عربي وعجمي صلى لله تعالى مع رسوله ﷺ وهوالذي كان لواؤه معه في كل زحف الحديث[1].

وعن أبي البختري عن علي: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن. فقلت: يا رسول الله، تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا علم لي بالقضاء. فضرب بيده في صدري وقال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه. فما شككت في قضاء بين اثنين [2]

وعن وثاقة الحديث ذكر العلماء أن هذا حديث صحيح أخرج البخاري بعضه بهذا الإسناد[3]وقيل هذا إسناد صحيح قد اخرج البخاري صدر الحديث ولم يسقه بتمامه. وسجود الشكر في تمام الحديث صحيح على شرطه[4].

ان عنصر النجاح في هذه الارادة النبوية باختيار الامام علي عليه السلام يظهر بتمسك اهل اليمن بعرى الإسلام على يد علي عليه السلام، وصار هذا أكبر العوامل لصيرورتهم علويين مذهبا ونزعة. وفي ظل هذه النزعة ضحوا بأنفسهم ونفيسهم بين يدي علي عليه السلام في حروبه. أضف إليه أنهم سمعوا من المصطفى ﷺ فضائل إمامهم ومناقبه غير مرة، وهذا مما زادهم شوقا وملأ قلوبهم حبا وولاء له[5]، فقد روى المحدثون: أن اليمانيين طلبوا من النبي ﷺ أن يبعث إليهم رجلا يفقههم في الدين ويعلمهم السنن ويحكم بينهم بكتاب الله، فبعث النبي ﷺ عليا وضرب على صدره وقال: «اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه». قال الإمام علي عليه السلام: «فما شككت في قضاء بين اثنين حتى الساعة»[6].

وبقي الإمام علي عليه السلام بينهم مدة يفقههم في الدين، ويقضي بكتاب الله، ويحل المشاكل القضائية، بما تنبهر به العقول. ومن هنا تتوضح الصورة عن حقد الأمويين

---

(١) السيد شرف الدين – أبوهريرة – ص ١٣٥

(٢) الذهبي – تاريخ الإسلام – ج ٢ – ص ٦٩٠ – ٦٩١

(٣) الذهبي – تاريخ الإسلام – ج ٢ – ص ٦٩٠ – ٦٩١

(٤) البيهقي – معرفة السنن والآثار – ج ٢ – ص ٢٠٠ الذهبي – تاريخ الإسلام – ج ٢ – ص ٦٩٠ – ٦٩١

(٥) الشيخ جعفر السبحاني – أضواء على عقائد الشيعة الإمامية – ص ٣١٨ – ٣١٩

(٦) العبري: تاريخ مختصر الدول، ٥٠٠

على أهل اليمن وقسوتهم في تعاملهم معهم، كما فعل ذلك بسر بن أرطاة عند حملته على اليمن، حيث لم يترك محرما إلا استحله، ولا جريمة إلا فعلها فلحقته اللعنة في الدارين. نعم إن شيعة أهل اليمن كانوا من خلص شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فلا غروولا غرابة أن يذكرهم في شعره بقوله: فلوكنت بوابا على باب جنة * لقلت لهمدان ادخلي بسلام ومما يدل على فرط حبهم وولائهم لعلي عليه السلام ما قاله سيدهم سعيد بن قيس الهمداني - رضوان الله عليه - في وقعة الجمل: قل للوصي أقبلت قحطانها * فادع بها تكفيكها همدانها هم بنوها وهم إخوانها[1][2]

٢-وعند فتح مكة سنة ٨ للهجرة دخل سعد بن عبادة حاملاً الراية وهوينادي «اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة» فادخل الخوف والرعب في نفوس اهل مكة وقدم صورة الموت والقتل والسلب عن الاسلام، وهنا دعت الحاجة والضرورة الى التغيير لتقديم الصورة الحقيقية لهذا الدين، فأمر النبي صلى الله عليه وآله امير المؤمنين (عليه السلام الى أن يأخذ الراية وينادي «اليوم يوم المرحمة اليوم تحمى الحرمة»وتحقق عنصرالنجاح على يده عليه السلام، فكان أن انتشر بينهم الشعور بالامن والسلام، فقالوا عندما سألهم النبي صلى الله عليه وآله ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا اخ كريم وابن اخ كريم.

كانت راية رسول الله صلى الله عليه وآله مع سعد بن عبادة وهوأمام الكتيبة، فلما حاذاهما سعد نادى: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة * اليوم تسبى الحرمة اليوم أذل الله قريشا،... فوقف رسول الله صلى الله عليه وآله وناداه، يا أبا سفيان، بل اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا، وأرسل إلى سعد فعزله عن اللواء. واختلف فيمن دفع إليه اللواء فقيل دفعه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فذهب به حتى دخل مكة، فغرزه عند الركن[3]

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله أرسل عليا عليه السلام إلى سعد بن عبادة أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس رضي الله تعالى عنهما وقيل أعطاه للزبير وقيل لعلي كرم الله وجهه خشية أن يقع من ابنه قيس مالا يرضاه صلى الله عليه وآله [4]فقال سعد لعلي لولاك يا أبا الحسن ما اخذت

---

(١) ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ١: ١٤٤ - ١٤٥

(٢) الشيخ جعفر السبحاني - أضواء على عقائد الشيعة الإمامية - ص ٣١٨ - ٣١٩

(٣) ابن الأثير - أسد الغابة - ج ٢ - ص ٢٨٤، ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - ج ١٧ - ص ٢٧٢

(٤) السيرة الحلبية - الحلبي - ج ٣ - ص ٢٢

الراية مني[1]

وبهذا الشكل فتحت مكة دون إراقة دماء وكان لعفوالرسول ورحمته الأثر الكبير في القلوب، فدخل الناس في دين الله أفواجا. ودوى خبر الفتح في أرجاء الجزيرة العربية وذاع صيت الإسلام، وتعززت مكانة المسلمين.... هذا المشروع الإسلامي الجبار اقترن بالعفوالعام، لينقل قبائل الجزيرة العربية من ماضيهم المظلم إلى نور الإسلام بعيدا عن كل ألوان الصراع والتخبط الجاهلي. وهذا ساعد كثيرا على انتشار الإسلام وأصبح قدوة لحاضرنا ومستقبلنا. اللهم! إنك قادر أن تعيد للمسلمين عزتهم وعظمتهم في ظل الاقتداء بسنة رسولك المصطفى ﷺ[2].

٣-ونلمس ارادة التغيير واضحة في حادثة البراءة من المشركين عندما بعث النبي ﷺ ابا بكر بن ابي قحافة الى مكة ليبلغ عنه امر البراءة من المشركين، نزل الامر الالهي بضرورة التغيير وبانه لا يبلغ عنه الا رجل من اهل بيته، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام باخذ أمر البراءة وتبليغه الى الناس، فتحققت عملية التغيير هنا على يده عليه السلام فضلاً عن الاهداف الاخرى التي ترتبت على عملية التغيير ولعل اهمها هي ايصال رسالة الى المجتمع انه لا يحق لاحد أن يخلف رسول الله ﷺ الا امير المؤمنين عليه السلام.

جاء في قصة البراءة وقد دفعها النبي ﷺ إلى أبي بكر لينبذ بها عهد المشركين، فلما سار غير بعيد نزل جبرئيل عليه السلام على النبي ﷺ فقال له: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك. فاستدعى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وقال له: اركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر، فخذ براءة من يده وامض بها إلى مكة، فانبذ عهد المشركين إليهم، وخير أبا بكر بين أن يسير مع ركابك أويرجع إلي. فركب أمير المؤمنين عليه السلام ناقة رسول الله ﷺ العضباء، وسار حتى لحق أبا بكر، فلما رآه فزع من لحوقه به، واستقبله وقال: فيم جئت يا أبا الحسن، أسائر معي أنت أم لغير ذلك؟! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إن رسول الله ﷺ أمرني أن ألحقك فأقبض منك الآيات من براءة وأنبذ بها عهد المشركين إليهم، وأمرني أن أخيرك بين أن تسير معي أوترجع إليه. فقال: بل أرجع إليه. وعاد إلى النبي ﷺ، فلما دخل عليه قال: يا رسول الله،

---

(١) الشيخ جعفر النقدي - الأنوار العلوية - ص ٢٠١

(٢) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - ج ٢٠ - ص ٥٣٠ - ٥٣١

إنك أهلتني لأمر طالت الأعناق فيه إلي، فلما توجهت له رددتني عنه، ما لي، أنزل في قرآن؟! فقال النبي ﷺ: لا، ولكن الأمين هبط إلي عن الله جل جلاله بأنه لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك، وعلي مني، ولا يؤدي عني إلا علي [1].

ويطرح العلامة الطباطبائي بحثاً تاريخياً تحليلياً نقديا في قراءته لهذه الحادثة التاريخية وبيان اهميتها على المستوى العقائدي وما تشكله هذه الحادثة من اثر في بيان المقامات والافضلية الي حظي بها امير المؤمنين عليه السلام ومن ثم الرد على من حاول تقليص الدور المؤثر لاختيار الامام عليه السلام لهذه المهمة ومحاولة اشراك اشخاص اخرين في هذا الدور اذ يقول: قد عرفت أن الذي وقع في الروايات على كثرتها في قصة بعث علي وعزل أبي بكر - من كلمة الوحي الذي نزل به جبرئيل على النبي ﷺ - هوقوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك». وكذا ما ذكره النبي ﷺ حين أجاب أبا بكر - لما سأله عن سبب عزله - إنما هومتن ما أوحى إليه الله سبحانه، أوقوله - وهوفي معناه: «لا يؤدي عني إلا أنا أورجل مني». وكيفما كان فهوكلام مطلق؛ يشمل تأدية براءة وكل حكم إلهي احتاج النبي ﷺ إلى أن يؤديه عنه مؤد غيره، ولا دليل - لا من متون الروايات ولا غيرها - يدل على اختصاص ذلك ببراءة. وقد اتضح أن المنع عن طواف البيت عريانا، والمنع عن حج المشركين بعد ذلك العام [الفتح]، وكذا تأجيل من له عهد إلى مدة أومن غير مدة، كل ذلك أحكام إلهية نزل بها القرآن، فما معنى إرجاع أمرها إلى أبي بكر، أونداء أبي هريرة بها وحده، أونداؤه ببراءة وسائر الأحكام المذكورة في الجمع إذا بح علي عليه السلام حتى يصحل صوته من كثرة النداء؟! ولوجاز لأبي هريرة أن يقوم بها والحال هذه فلم لم يجز لأبي بكر ذلك؟! نعم أبدع بعض المفسرين - كابن كثير وأترابه - هنا وجهاً؛ وجهوا به ما تتضمنه هذه الروايات انتصارا لها، وهوأن قوله: «لا يؤدي عني إلا أنا أورجل مني «مخصوص بتأدية براءة فقط، من غير أن يشمل سائر الأحكام التي كان ينادي بها علي عليه السلام، وأن تعيينه ﷺ علياً بتبليغ آيات براءة أهل الجمع إنما هولما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أورجل من أهل بيته، ومراعاة هذه العادة الجارية هي التي دعت النبي ﷺ أن يأخذ براءة - وفيها نقض ما للمشركين من عهد - من أبي بكر ويسلمها إلى علي؛

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: ٣ / ٥٣ / ٤٣٧٤.

ليستحفظ بذلك السنة العربية فيؤديها عنه بعض أهل بيته. قالوا: وهذا معنى قوله ﷺ لما سأله أبوبكر قائلا: يا رسول الله هل نزل في شيء؟! قال: «لا ولكن لا يؤدي عني إلا أنا أورجل مني»، ومعناه أني إنما عزلتك ونصبت عليا لذلك لئلا أنقض هذه السنة العربية الجارية.... فليت شعري من أين تسلموا أن هذه الجملة التي نزل بها جبرئيل؛ «إنه لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك «- مقيدة بنقض العهد لا يدل على أزيد من ذلك، ولا دليل عليه من نقل أوعقل!! فالجملة ظاهرة أتم ظهور في أن ما كان على رسول الله ﷺ أن يؤديه لا يجوز أن يؤديه إلا هوأورجل منه، سواء كان نقض عهد من جانب الله - كما في مورد براءة - أوحكما آخر إلهيا على رسول الله ﷺ أن يؤديه ويبلغه. وهذا غير ما كان من أقسام الرسالة منه ﷺ مما ليس عليه أن يؤديه بنفسه الشريفة كالكتب التي أرسل بها إلى الملوك والأمم والأقوام في الدعوة إلى الإسلام، وكذا سائر الرسالات التي كان يبعث بها رجالا من المؤمنين إلى الناس في أمور ترجع إلى دينهم والإمارات والولايات ونحوذلك. ففرق جلي بين هذه الأمور وبين براءة ونظائرها؛ فإن ما تتضمنه آيات براءة وأمثال النهي عن الطواف عريانا والنهي عن حج المشركين بعد العام أحكام إلهية ابتدائية لم تبلغ بعد ولم تؤد إلى من يجب أن تبلغه؛ وهم المشركون بمكة والحجاج منهم، ولا رسالة من الله في ذلك إلا لرسوله. وأما سائر الموارد التي كان يكتفي النبي ﷺ ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت مما فرغ ﷺ فيها من أصل التبليغ، والتأدية بتبليغه من وسعه تبليغه ممن حضر؛ كالدعوة إلى الإسلام وسائر شرائع الدين، وكان يقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب». ثم إذا مست الحاجة إلى تبليغه بعض من لا وثوق عادة ببلوغ الحكم إليه أولا أثر لمجرد البلوغ إلا أن يعتني لشأنه بكتاب أورسول توسل عند ذلك إلى رسالة أوكتاب؛ كما في دعوة الملوك. وليتأمل الباحث المنصف قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك»، فقد قيل: «لا يؤدي عنك إلا أنت «ولم يقل: «لا يؤدي إلا أنت أورجل منك» حتى يفيد اشتراك الرسالة، ولم يقل: «لا يؤدي منك إلا رجل منك «حتى يشمل سائر الرسالات التي كان ﷺ يقلدها كل من كان من صالحي المؤمنين. فإنما مفاد قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك «أن الأمور الرسالية التي يجب عليك نفسك أن تقوم بها لا يقوم بها غيرك عوضا منك، إلا رجل منك؛ أي لا يخلفك فيما عليك كالتأدية الابتدائية

إلا رجل منك. ثم ليت شعري ما الذي دعاهم إلى أن أهملوا كلمة الوحي التي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبي ﷺ: «لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك»، وذكروا مكانها أنه «كانت السنة الجارية عند العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أورجل من أهل بيته «!! تلك السنة العربية التي لا خبر عنها - في أيامهم ومغازيهم - ولا أثر، إلا ما ذكره ابن كثير ونسبه إلى العلماء عند البحث عن آيات براءة. ثم لوكانت سنة عربية جاهلية على هذا النعت فما وزنها في الإسلام!! وما هي قيمتها عند النبي ﷺ وقد كان ينسخ كل يوم سنة جاهلية، وينقض كل حين عادة قومية، ولم تكن من جملة الأخلاق الكريمة أوالسنن والعادات النافعة، بل سليقة قبائلية تشبه سلائق الأشراف!! وقد قال ﷺ يوم فتح مكة عند الكعبة - على ما رواه أصحاب السير: «ألا كل مأثرة أودم أومال يدعى فهوتحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج». ثم لوكانت سنة عربية غير مذمومة، فهل كان رسول الله ﷺ ذهل عنها ونسيها حين أسلم الآيات إلى أبي بكر وأرسله، وخرج هوإلى مكة حتى إذا كان في بعض الطريق ذكر ﷺ ما نسيه أوذكره بعض من عنده بما أهمله وذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته، وهو ﷺ المثل الأعلى في مكارم الأخلاق واعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم وحسن التدبير؟! وكيف جاز لهؤلاء المذكرين أن يغفلوا عن ذلك وليس من الأمور التي يغفل عنها وتخفى عادة، فإنما الذهول عنه كغفلة المقاتل عن سلاحه. وهل كان ذلك بوحي من الله إليه؛ أنه يجب له أن لا يلغي هذه السنة العربية الكريمة، وأن ذلك أحد الأحكام الشرعية في الباب، وأنه يحرم على ولي أمر المسلمين أن ينقض عهدا إلا بنفسه أوبيد أحد من أهل بيته؟ وما معنى هذا الحكم؟ أوأنه حكم أخلاقي أضطر إلى اعتباره؛ لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقض إلا بأن يسمعوه من النبي ﷺ نفسه، أومن أحد من أهل بيته؟! وقد كانت السيطرة يومئذ له ﷺ عليهم، والزمام بيده دونه، والإبلاغ إبلاغ. أوأن المؤمنين المخاطبين بقوله: (عهدتم) [1]، وقوله: (وأذان من الله ورسوله إلى الناس) [2]، وقوله: (فاقتلوا المشركين)[3] ما كانوا يعتبرون هذا النقض نقضا دون أن

---

(١) التوبة: ١

(٢) التوبة: ٣

(٣) التوبة: ٥

يسمعوه منه ﷺ، أومن واحد من أهل بيته، وإن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبي بكر؟.... ليس التوغل في مسألة الإمارة مما يهمنا في تفهم معنى قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أورجل منك»؛ فإمارة الحاج سواء صحت لأبي بكر أولعلي، دلت على فضل أولم تدل، إنما هي من شعب الولاية الإسلامية العامة التي شأنها التصرف في أمور المجتمع الإسلامي الحيوية، وإجراء الأحكام والشرائع الدينية، ولا حكومة لها على المعارف الإلهية، ومواد الوحي النازلة من السماء في أمر الدين. إنما هي ولاية رسول الله ﷺ؛ ينصب يوما أبا بكر أوعليا لإمارة الحاج، ويؤمر يوما أسامة على أبي بكر وعامة الصحابة في جيشه، ويولي يوما ابن أم مكتوم على المدينة وفيها من هوأفضل منه، ويولي هذا مكة بعد فتحها، وذاك اليمن، وذلك أمر الصدقات. وقد استعمل ﷺ أبا دجانة الساعدي أوسباع بن عرفطة الغفاري - على ما في سيرة ابن هشام - على المدينة عام حجة الوداع، وفيها أبوبكر لم يخرج إلى الحج على ما رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي وغيرهم وإنما تدل على إذعانه ﷺ بصلاحية من نصبه لأمر لتصديه وإدارة رحاه. وأما الوحي السماوي بما يشتمل عليه من المعارف والشرائع فليس للنبي ﷺ ولا لمن دونه صنع فيه، ولا تأثير فيه مما له من الولاية العامة على أمور المجتمع الإسلامي بإطلاق أوتقييد أوإمضاء أونسخ أوغير ذلك، ولا تحكم عليه سنة قومية أوعادة جارية حتى توجب تطبيقه على ما يوافقها، أوقيام العصبة مقام الإنسان فيما يهمه من أمر. والخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهية من أوج علوها وكرامتها إلى حضيض الأفكار الاجتماعية التي لا حكومة فيها إلا للرسوم والعادات والاصطلاحات، فيعود الإنسان يفسر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العامية، ويستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظمه الله، ويستصغر ما استصغره الناس، حتى يقول القائل في معنى كلمة الوحي: إنه عادة عربية محترمة![1]

وقد ذهب العجلوني الى التقليل من شأن وأثر عملية التغيير هذه بقوله: روى الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم من حديث حبشي بن جنادة مرفوعا علي مني وأنا من علي لا يؤدي عني إلا أنا أوعلي، وليس في هذا كله ما يقدح في إجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم على أن أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ على

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٩ / ١٦٨ - ١٧٤.

الإطلاق أبوبكر ثم عمر وقد قال ابن عمر كنا نقول ورسول الله ﷺ حي أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر وعمر وعثمان فيسمع ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره، بل ثبت عن علي نفسه أنه قال خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبوبكر ثم عمر ثم رجل آخر، فقال له ابنه محمد بن الحنفية ثم أنت يا أبت فقال ما أبوك إلا رجل من المسلمين[1].

والعجب كل العجب من هذه الاقوال عندما يركن العجلوني عقله جانبا ويتبع هواه عندما لا يرى انه لا اثر ولا تاثير لعملية التغيير، والاعجب من ذلك انه يستند في اثبات رايه على ادلة واهية هي اوهن من بيت العنكبوت وابسط ما يقال عنها أن عملية التفضيل قامت على الاساس التاريخي وترتيبهم على اساس توليهم لمنصب الخلافة وهذا لا يغني من الحق شيئا بينما أفضلية الامام علي عليه السلام قائمة على ادلة قرانية متينة وصريحة فضلا عن احاديث النبي ﷺ.

ومما يدل على أن ذلك كان علامة على استحقاق الامر له بعد النبي ﷺ قول النبي ﷺ في جواب ذلك: انه قد أوحى [الله] إلى بأنه لا يؤدي عني إلا رجل مني [2]

ودلالة هذه الأحاديث على إمامته عليه السلام ظاهرة، لأنا لا نريد بالإمامة الا المؤدي عن الرسول القائم مقامه، فحصر التأدية فيه يفيد بطلان امامة غيره[3].

وخلاصة القول

١- أن ارادة التغيير النبوية انما قامت على اساس الامر الالهي في اختيار عنصر التغيير

٢-ان التغيير جاء في مواقف حرجة ومعقدة وليس في مواقف بسيطة ومنها نستشف أن هذه الارادة استندت الى فلسفة مضمونها انه ليس من شخصية قادرة على قيادة الامة سوى امير المؤمنين عليه السلام.

٣-ان النبي ﷺ استنفذ كل الخيارات الاخرى لكي تكون عملية التغيير ناجحة ولا يترك اي مبرر للاخرين بالطعن بهذا التغيير.

---

(١) العجلوني - كشف الخفاء - ج ١ - ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٢) الحافظ ابن البطريق - خصائص الوحي المبين - ص ١٦٧

(٣) محمد طاهر القمي الشيرازي - كتاب الأربعين - ص ٧٦

٤- تحققت على هذه الارادة نتائج مهمة جدا قد لمسها المحب والمبغض والعدووالصديق وهي انه لا يمكن لهذه الرسالة أن تستمر الا في ضوء الخيار والمنهج الذي رسمه لها النبي ﷺ.

٥-اتسمت ارادة التغيير النبوية بالشمولية والتنوع اذ انها رغم اقتصارها على شخصية محددة لكن تنوعت في مصاديقها فمرة نجدها على المستوى العبادي عندما ارسله في اية البراءة، واخرى ترتبط بعملية نشر الدين الاسلامي كما ظهر في بعثه الى اليمن، وثالثة في عملية توثيق المنهج الانساني للرسالة الاسلامية كما ظهر في فتح مكة، ونحتمل أن وراء هذا التنوع فلسفة مهمة ومقاصد دقيقة يتقدمها ترسيخ صورة في اذهان المجتمع الاسلامي بان القيادة التي يحق لها أن تقود الامة يجب أن تكون قيادة شمولية قادرة على التفاعل مع كل الظروف وليس فقط يقال لها حاكمة وهي لا تفقه صغائر القيادة وبديهياتها ومسلماتها.

توظيف الرسول ﷺ لعناصر الطبيعة في المواجهة العسكرية

الأستاذ الدكتور حميد سراج جابر
جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الأستاذ الدكتور حميد سراج جابر
جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

استاذ الفكر الاسلامي في جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم التاريخ في الدراسات الاولية والعليا

اللقب العلمي استاذ

له (١١) مؤلفا" في الفكر الاسلامي واكثر من (٦٥) بحثا منشورة داخل العراق وخارجه.

شارك بأكثر من (١٠٠) مؤتمر وندوة في العراق ودول مختلفة.

له عدد كبير من المقالات والدراسات المنشورة في مجلات وصحف متعددة فضلا" عن المنشورات العلمية.

عضو الرابطة الاكاديمية للبحث العلمي في لندن

رئيس تحرير مجلة البضعة العلمية التخصصية في السيدة الزهراء ﷺ

اشرف على عدد من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه

ناقش عدد كبير من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه في جامعات العراق المختلفة

تولى عددا من المناصب الادارية منها رئاسة قسم التاريخ في كلية التربية جامعة البصرة، وكذلك مدير الاعلام في الكلية المذكورة وغير ذلك، وحاليا" مقرر لجنة الترقيات في كلية التربية للعلوم الانسانية.

من المعلوم أن الفكر العسكري للرسول ﷺ اشهر من أن يذكر وان كان بعضهم يحاول التقليل من شأنه بحجة العصمة إلا أن عقلية الرسول ﷺ العسكرية أثبتها القادة اليوم، لا سيما مع تعدد المبادئ الحربية التي جاء بها الرسول ﷺ ولم تكن معروفة سابقا«مثل مبدأ الروح المعنوية والتخطيط الحربي وإرسال العيون والطلائع وغير ذلك الكثير.

وفي هذه الدراسة المتواضعة حاولنا أن نسلط الضوء على كيفية توظيف الرسول ﷺ لعناصر الطبيعة في المواجهات ولا نقصد ما يتعلق باستغلال الخريطة الطبيعية من وجود المصدات الدفاعية التي تتعلق بالتضاريس وإنما ما جادت به الطبيعة من عناصر الحياة ولا سيما الماء والنار أوالنبات فضلا«عن الحجر وكيف استطاع ﷺ أن يوظفه في إرعاب العدووتعويض النقص في عدد الجند أوالتموين وغير ذلك، وقد جاء ذلك وفق أبعاد عده هي البعد اللوجستي من التوظيف، والبعد المعنوي، والبعد الاستراتيجي أواستخدام العناصر كسلاح في المعركة.

والمهم في هذا الإطار هوتنقية هذا الطرح من الشوائب التي علقت به ولا سيما ما يتعلق منها بالإساءة للرسول ﷺ في مسألة قطع الماء عن العدوليتمكن من تحقيق النصر وهوالأمر الذي لم نكن نقصده في توظيف الماء في المعركة وقد حاولنا الرد على هذا الادعاء وبالأسلوب العلمي.

وهناك الكثير من الصور التي ذكرتها الروايات عن تلك العناصر وهي مثلت في الوقت نفسه عدة معارك ومواجهات إذ ظهرت الآثار الناجمة من الأساليب الذي اتخذها الرسول ﷺ وقد أدى إلى إرعاب وتخويف العدومن جهة ورفع معنويات المسلمين من جهة أخرى فضلا«عن التجهيز والتموين ومن ثم تحقيق النتائج من كل ذلك.

وعلى العموم فأن قراءة البحث بشكله الكامل تزيد وضوح الفكرة وتحقق المطلب الذي نقصده وتبين في الوقت نفسه تلك العقلية الفذة للرسول محمد ﷺ في القيادة العسكرية وإيجاد الحلول والبدائل وبحسب الظرف الطارئ.

من ابرز البديهيات في دراسة سيرة الرسول محمد ﷺ القول بفكره العسكري الذي شهد به العدوقبل الصديق لأنه تجسد بجملة صور لا يمكن لأحد إنكارها سواء ما يخص الإستراتيجية العسكرية أوما يتعلق بالجوانب اللوجستية وغير ذلك.[1]

ومن هنا فلا غرابة أن نجد الرسول محمد ﷺ يوظف عناصر الطبيعة في خدمة إستراتيجيته العسكرية ولا نقصد بعناصر الطبيعة المفهوم العام لكل المضامين التي تقع تحت مسمى الطبيعة وإنما العناصر الأساسية المعروفة الماء النار الحجر، وهذا التخصيص حتى تتوضح الفكرة حول طبيعة وأهمية ودقة الإستراتيجية العسكرية للرسول ﷺ.

وقبل الخوض في هذه العناصر يمكن القول إن دراستها لا تعني عدم وجود التوظيف الإجمالي للطبيعة في فكر الرسول ﷺ وإنما على العكس من ذلك فأن التخصيص جاء لكثرتها وتنوعها ودراستها في مشروع مخطوط قيد الطبع[2] ومنها مثلا"كيفية توظيفه لجبل احد في هذه الوقعة[3]وتوظيفه لتضاريس المدينة الطبيعية كخط حماية إلى جانب الخندق في وقعة الأحزاب[4]وغير ذلك.

أما ما يتعلق بالموضوع قيد الدراسة وهوتوظيف الرسول ﷺ لعناصر الطبيعة في المواجهة فيمكن أن يفهم من خلال أبعاده التي نستطيع إجمالها بما يأتي:

---

(١) ينظر عن هذا الفكر: حميد سراج، الدبلوماسية وقواعد المواجهة في فكر الرسول ﷺ، بجميع صفحاته، وكذلك الانغلاق الفكري عند مدعي التجديد في التعامل مع شخصية الرسول ﷺ، بجميع صفحاته.

(٢) يقوم الباحث حاليا"بإكمال مؤلفه بعنوان (الأبعاد اللوجستية في فكر الرسول ﷺ) ومن ضمنها التوظيف العام للطبيعة.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ١٠٠. وينظر جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من السيرة ٦/ ١٣٨.

(٤) ينظر الذهبي، تاريخ الإسلام ٢/ ٢٧٢.

أولاً: البعد اللوجستي في التوظيف

أن التموين والتجهيز من أهم القواعد التي تتحقق بها الأطر السليمة للمواجهات وهوالأمر الذي لم يغفله الرسول ﷺ في مواجهاته، وما دمنا بصدد البحث في عناصر محددة من الطبيعة فيطالعنا هنا أهم هذه العناصر التي يحتاجها الجيش ونقصد الماء الذي لا غنى عنه، لذا فقد أسهبت المصادر في ذكر طبيعة تجهيزه للمقاتلين زمن الرسول ﷺ ونقصد بالذات ما ذكر من روايات عن اتخاذ موقع آبار بدر وفق الرؤية الإستراتيجية العسكرية للاستفادة من مياهها ومنع العدومن استعمالها.[1]

وقد جاءت الرواية التاريخية بهذا الشأن بشكل صورت الرسول ﷺ في مواجهاته العسكرية بعيدا»في تصرفاته عن نبوته ولا نقصد من حيث الأوامر الإلهية وإنما ما عكسته الرواية من التنصل عن الخلق النبوي بمنع الماء عن الآخرين وفقا»لاستشارة احد الصحابة إذ يذكر الطبري أن الحباب بن المنذر بن الجموح اعترض على اختيار الرسول ﷺ للموقع العسكري في مواجهة المشركين يوم بدر فقال (يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هوالرأي والحرب والمكيدة قال بل هوالرأي والحرب والمكيدة فقال يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم تغور ما سواه من القلب ثم تبنى عليه حوضا فتملاه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم حتى نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية) [2]

وصحيح أن ما يهمنا هنا بيان الأسلوب الذي اتخذه الرسول ﷺ في إيجاد مورد التجهيز بالماء لإدامة المعركة غير أن ذلك لا يعني بالضرورة أن نقف مكتوفي الأيدي تجاه الإساءة التي قد تظهر بقصد أوبدون قصد بالقول أن الهدف لم يكن فقط التجهيز بل وأيضا»المنع للجيش المقابل كما أسلفنا، إذ أن هذا التصوير الذي ذكره الطبري عليه جملة ملاحظات:

---

(١) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٤٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٢.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٤٤. وينظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٢.

أن الرواية صورت هذا الصحابي بمظهر الخبير العسكري الذي يقدر الرأي والحرب والخطط العسكرية وهوالأمر الذي لم يظهر في سيرته سابقا»ولا حتى لاحقا»إلا بما ينسجم مع الهدف المراد تحقيقه من تلك الرواية.

هذه الرواية صورت لنا الرسول ﷺ بصورة المستسلم للواقع المتعامل مع الأمر بصورة عشوائية وبما يتناقض مع كل الصور اللاحقة التي أثبتت انه ﷺ قد جاء بمبادئ حربية لم تعرف إلا في العصور الحديثة.[1]

هذا الطرح ابعد الاتصال الإلهي بالرسول ﷺ من كافة الجوانب وهوالأمر البعيد فصحيح أن هناك مساحة لعقلية الرسول ﷺ إلا إنها لا تتناقض مع الحق ومع الإجراء الصحيح فالخلل ليس في مبدأ المشاورة العسكرية وإنما فيما وراءها.

الذي يدرس حياة هذا الصحابي (الحباب) يجد انه احد المشتركين في السقيفة[2]وكأن الأمر مترابط من حيث الشخوص التي تذكرها الروايات فأما يكون قد استغل لحرف الخط عن مساره بالأكاذيب والتضليل أوقد وظف اسمه في ذلك.

عندما نستقرئ التاريخ نجد أن أل بيت الرحمة هم احرص الناس على العدوفي كل الأمور ومنها في موضوع السقاية فتطالعنا المصادر أن الإمام علي في صفين لم يمنع الماء على جيش معاوية حينما سيطر عليه والعكس صحيح حينما سيطر معاوية[3]وكذلك الإمام الحسين عليه السلام في ملحمة كربلاء كان يسقي العدوبنفسه وهم

---

(١) ينظر حميد سراج، إستراتيجية الرسول ﷺ في رفع الروح المعنوية للمقاتلين، بجميع صفحاته. إذ حاول البعض نسبة مبدأ الروح المعنوية لجنرال من الحرب العالمية الثانية اسمه توينبي غير أن الدراسة الدقيقة تثبت أن الرسول ﷺ أول من وضع هذا المبدأ.

(٢) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٤٥٧.

(٣) ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣/ ١٥، وقد حاول البعض تركيب الفكرة عن الرسول ﷺ بوضع حديث يشير إلى انه ﷺ أمر الإمام علي عليه السلام بتطبيق رأي الحباب بطمس الآبار الأخرى إذ ورد أن أبوعبد الله الحافظ وأبوسعيد بن أبي عمروقالا ثنا أبوالعباس محمد بن يعقوب ثنا هلال بن العلاء ثنا أبوربيعة العامري ثنا أبوعوانة عن هارون بن سعيد عن أبي صالح الحنفي عن علي رضي الله عنه قال أمرني رسول الله ﷺ أن أغور ماء آبار بدر. البيهقي، السنن الكبرى ٩/ ٨٤-٨٥. (وكذلك) رواه يوسف بن خالد بن عمير عن هارون - ويوسف وأبوربيعة محمد بن عوف ضعيفان. البيهقي، السنن الكبرى ٩/ ٨٤-٨٥.

من حرموه وعياله من الماء.[1] وهنا يمكن القول أن الرسول ﷺ أولى بأن يطبق ذلك لا سيما وانه كما يصفه القرآن (وانك لعلى خلق عظيم). [2]

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ وكما في باقي المعارك هو من اختار ساحة المعركة وكانت فلسفة اختياره للآبار هي تجهيز الجيش الإسلامي بالمياه دون أن يقترن ذلك بمنعه عن العدو وإنما لضمان الاستمرارية في القتال إذا ما علمنا بالحاجة الماسة للماء بفعل ثقل الحديد وطبيعة الصحراء وحاجة دواب المسلمين فضلاً عن الحاجة الخاصة بأداء المراسيم العبادية.

وهناك صورة أخرى قد نجدها تقع في نفس الإطار في مسألة التجهيز وهي مسألة الاستفادة القصوى من عنصر الماء ومحاولة إيجاده بالشكل الذي يضمن الاستمرارية ومواجهة الطبيعة، والرواية التي بين أيدينا تشير إلى أن بعض المسلمين في تبوك ونتيجة للحر الشديد قاموا بنحر الإبل واستعمال المياه التي في جوفها [3].

ولا نستطيع أن نتصور أن هذا الأمر قد جرى بمعزل عن المنظومة العسكرية التي كان يديرها الرسول ﷺ لا سيما وان هناك ما يؤكد الأزمة المائية في تلك الوقعة إذ أشارت المصادر إلى أن الرسول ﷺ عالج الأمر بنطاق آخر وهو الاستسقاء[4] كما سيأتي في البعد المعنوي.

وهذا الأمر وان كان على نطاق ضيق أوفردي إلا انه يعني أن هناك مسعى لتهيئة كل جوانب التجهيز وحسب الظرف، فيما نجد أن الاستسقاء وان كان يمثل البعد المعنوي في صورته الرئيسة كما سيأتي فأنه يمثل البعد اللوجستي وحرص الرسول ﷺ على استخدام هذا العنصر في في سد الحاجة والتجهيز.

ثانيا :البعد المعنوي في التوظيف

وهذا البعد يمكن أن نلاحظه في اغلب حركات الرسول ﷺ وأساليبه وليس في

---

(١) ينظر المفيد، الإرشاد ٢/ ٧٨.

(٢) القلم/ ٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢/ ١٦٧.

(٤) الواقدي،المغازي: ٢/ ٣٩٣؛ ينظر: ابن هشام، السيرة: ٤/ ٩٤٩؛ ابن الاثير، الكامل ٢/ ٢٧٩.

توظيفه لعناصر الطبيعة فقط[1]إلا أن ما يهمنا هنا ذلك التوظيف لتلك العناصر بالشكل الذي ساهم في تجديد ورفع الروح المعنوية ولا سيما في عنصر الماء، فقد أكدت الروايات الخاصة بوقعة الخندق أن زمن الحفر شهد الكثير من هذه الصور والتي يمكن أن نسميها الصور الاعجازية إذ أشارت بعض المصادر إلى انه قد أصاب الناس كدية (صخرة قوية) فضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت فدعوا الرسول ﷺ فدعا بماء فصبه عليها فغدت كثيبا[2].

أن استخدام الماء هنا يقع في إطارين الأول انه استعمله لبيان الإعجاز وفي الوقت نفسه التوجيه المعنوي لان للرسول ﷺ مقصد خاص في ذلك الإعجاز يتعدى الجانب الغيبي ولا سيما في حفر الخندق ويمكن تحديد هذا المقصد بجملة أمور:[3]

١. لو نطالع طبيعة معجزات الرسول ﷺ وأوقاتها نجدها كانت على مراحل وذلك لتجديد المعنويات في كل مرحلة.

٢. ارتباط معجزات الرسول ﷺ بالأمر الذي كان يعاني منه الجند آنذاك، فلأنهم عانوا من صعوبة الحفر حدثت معجزة الكدية ويهدف الرسول ﷺ من ذلك أمرين أولهما حتى يتذكر المسلمون هذه المعجزة ليبقوا على اتصال بقائدهم، وثانيا حتى يسهل الرسول ﷺ الصعب أمام المسلمين في كل الظروف، والهدف العام أي رفع المعنويات.

٣. أن هذه المعجزات أعدت أيضا لتعالج حالة قد تعتري نفوس بعض المسلمين الذين لم يطمأنوا بعد، وهي حالة التراجع أوعلى الأقل التفكير بها، لاسيما بعد معركة احد.

والحال نفسه ينطبق على معجزة الماء يوم الحديبية، إذ احتاج المسلمون إلى الماء هناك فاخذ الرسول ﷺ سهما فأمر به فغرز في القليب فجاش لهم بالماء[4]، وكان الرسول ﷺ أكثر ما يحتاجه في هذا اليوم هوتجديد المعنويات لأصحابه لاسيما

---

(١) ينظر حميد سراج، إستراتيجية الرسول ﷺ في رفع الروح المعنوية للمقاتلين، بجميع صفحاته.

(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٤٥٢، ابن هشام السيرة ٣/ ٢١٨، أبوالفداء، المختصر ١/ ١٣٤.

(٣) ينظر حميد سراج، الدبلوماسية وقواعد المواجهة في فكر الرسول ﷺ ص٧١-٧٢.

(٤) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٨٧، الطبري، التاريخ ٢/ ٦٢٤.

وانه سيقدم على أمر ربما يعارضه الكثير منهم. وهذا ما حصل فعلا لذلك أراد بهذه المعجزة أن يمهد لهدفه يوم الحديبية.[1]

وقد يقع هذا العمل ضمن المفهوم اللوجستي إلا أن أبعاده وأهدافه المعنوية واضحة للعيان لا سيما مع التشكيك الذي ظهر واضحا «من بعض الصحابة على موقف الرسول ﷺ من بنود الصلح[2] إذ كانت هذه المعجزة التي استعمل فيها الماء لتأكيد الإعجاز عند بعضهم ممن لا يعي معنى النبوة والنبي، وخوفا «من تأثر قليلي الإيمان بتلك الأفكار.

ومن أهم صور التوظيف المعنوي للماء ما ورد عن استسقاء الرسول ﷺ أيام تبوك إذ تذكر المصادر انه لما احتاج الجند للماء شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فاستقبل ﷺ القبلة فدعا، وليس في السماء سحابا، فلما برح رسول الله ﷺ يدعوبدأت السحاب تأتلق من كل ناحية وبدأ المطر بالنزول فسمع تكبير الرسول ﷺ وسقي الناس وارتووا [3].

ويجب أن لا نفهم الأمور على صورتها الاعجازية فقط وإنما هناك ما وراء الإعجاز وبما يتعلق بالجانب المعنوي الذي يمكن أن نحدده وفق الظروف المحيطة آنذاك بما يأتي:

بعد المسافة إلى الروم وحاجة المقاتلين إلى الدعم اللوجستي والذي لا يمكن أن يتحقق وفق الأمور الطبيعية ولا سيما الحاجة إلى الماء.

كثرة من وصف بالنفاق وما يشكله هؤلاء من نسبة في الجيش فضلا «عن خطرهم على الآخرين.

قوة الروم واستعدادهم وكثرتهم وما عرف عنهم.

أن الحالة العسكرية تقتضي تجديد المعنويات بشكل مستمر فلا يمكن الاكتفاء بإجراءات ما قبل الخروج.

ونريد أن نصل بدراسة هذه الظروف المحيطة إلى أن هدف الرسول ﷺ من

---

(١) ينظر حميد سراج، الدبلوماسية وقواعد المواجهة في فكر الرسول ﷺ ص٧٢.

(٢) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٨٠.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢/ ٣٩٣؛ ينظر: ابن هشام، السيرة: ٤/ ٩٤٩؛ ابن الأثير، الكامل: ٢/ ٢٧٩.

استخدام الماء والاستسقاء بشكل إعجازي هو:

رفع الروح المعنوية للمقاتلين.

الرد على المشككين والمنافقين.

إيصال رسالة للعدوبهذا التجهيز المادي والإعجاز الديني.

مفهوم معنوي عسكري يمثل مرحلة من مراحل التجديد في التوجيه المعنوي للمقاتلين.

ثالثاً: البعد الإستراتيجي واستخدام العناصر سلاح في المعركة

وربما يمثل هذا البعد من حيث الشكل البعد الأكثر ارتباطا»بالجانب العسكري كونه يتعلق باستعمال هذه العناصر كسلاح مباشر في المعركة مثل استعمال النار والحجر وهكذا، فقد أمدتنا المصادر بروايات تؤكد أن الرسول ﷺ قد وظفها بالشكل الذي مثلها كسلاح في المعركة كما ورد عن وقعة حمراء الأسد[1]إذ نقل الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه أن الرسول الله ﷺ كان يأمرهم بالنهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمرهم أن يوقدوا النيران فيوقد كل رجل نارا، وأنهم كانوا في تلك الليالي يوقدون خمسمائة نار حتى كانت رؤيتهم من المكان البعيد، وذهب معسكرهم ونيرانهم في كل وجه إلى درجة إخافة العدو[2].

ولودرسنا ظروف هذه الوقعة بشكل دقيق أمكن معرفة الغاية والهدف والدقة في الأسلوب، فوقعة حمراء الأسد جاءت بعد يوم واحد من هزيمة الجيش الإسلامي من الناحية العسكرية فقد أمر الرسول ﷺ من ثبت معه في احد فقط بالالتحاق به لإشعار المتخلفين بخطئهم ومكافئة من ثبت وكان الهدف توجيه رسالة للمشركين بقوة المسلمين حتى لا يرجعوا للمدينة لإكمال الانقضاض عليها.[3]

ومن تلك الظروف يمكن القول أن الرسول ﷺ أراد من استخدام الحطب والنار

(١) حمراء الأسد هي منطقة تبعد عن المدينة ثمانية أميال خرج فيها الرسول ﷺ بمن ثبت من الجند في احد بعد يوم واحد من تلك الوقعة. ينظر الواقدي،المغازي ١/ ٣٣٤،ابن هشام،السيرة النبوية ٣/ ١٠١،الطبري،تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٥٣٤.

(٢) الواقدي، المغازي: ١/ ٢٨٦.

(٣) ينظر عن تلك الظروف، حميد سراج، الدبلوماسية وقواعد المواجهة في فكر الرسول ﷺ ص٧٦.

بهذه الطريقة معالجة عدة أمور:

النقص الحاصل في عدد المسلمين ومن ثم الحاجة إلى إشعار العدوبالكثرة وخير وسيلة تلك الكتلة من النار التي توحي بالكثرة.

محاولة معالجة أمر محتمل وهورجوع العدوللمدينة فهذا الإجراء يوحي بالاستعداد للرد بل للمبادرة.

إشعار العدوبوجود الجيش الإسلامي وهوالأمر الذي ربما لا يمكن أن يكون إلا في الليل وبهذه الصورة.

وعلى العموم فأن خسارة المعركة يومئذ لم تؤهل الجيش للمطاولة ولا سيما في حالة انقضاض العدوفكان إجراء الرسول ﷺ لسد هذا النقص فعوض هذا الخلل المادي بعناصر الطبيعة.

والأمر ينطبق على توظيف الحجارة كسلاح أيضا"إذ ذكرت الروايات انه في معركة الخندق كان المسلمون يسطرون الحجارة مما يليهم وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها [1]. وهذا الأمر يتبع طبيعة المعركة فقيام الرسول ﷺ باتخاذ هذا الأسلوب لأن طبيعة الخندق والحصن تختلف عن أسلوب الكر والفر والمواجهة المباشرة وغير ذلك فالتحصن بالخندق كان يقتضي استخدام طرائق وأسلحة مختلفة وهنا كان الاثر المادي لحجارة بالغ الأهمية لعدم وجود المواجهة المباشرة.

وهنا يمكن القول أن الرسول ﷺ كان يتناسب في طرحه العسكري مع طبيعة الظرف وكانت عقليته الفذة توظف جميع العناصر في خدمة الجند والخطة العسكرية في سبيل تحقق الشروط الصحيحة والمنتجة للمواجهة.

---

(١) الواقدي، المغازي: ١/ ٣٨٣.

دراسة في العلاقة التجارية

بين الرسول ﷺ والسيدة خديجة عليها السلام

أ.م.د حسين علي الشرهاني
كلية الآداب/ جامعة ذي قار

أ.م.د حسين علي الشرهاني
كلية الآداب/ جامعة ذي قار

استاذ في جامعة ذي قار كلية التربية للعلوم الانسانية قسم التاريخ.

دكتوراه في التاريخ الاسلامي من ايطاليا.

له العديد من المؤلفات واكثر من عشرين بحثاً.

شارك بعدد كبير من المؤتمرات والندوات العلمية.

درس وناقش العديد من طلبة الدراسات العليا فضلاً عن الاشراف على رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه في كليتي التربية للعلوم الانسانية والاداب جامعة ذي قار.

دأبت كتب السيرة النبوية على الاهتمام بحياة الرسول ﷺ وسيرته بعد البعثة، وذلك لأنها ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالتشريع الإسلامي، لكنها لم تعط الاهتمام نفسه لحياته قبل البعثة وقد يعود السبب في ذلك الى شحة المعلومات الواردة عن تلك الحقبة الزمنية، وهذا الأمر يعد نقصاً في فهمنا للسيرة النبوية لاسيما أن الرسول ﷺ كان قد عاش أربعين سنة قبل البعثة أي ثلثي عمره تقريباً، كما أن هذه المرحلة تعد مرحلة التأسيس للسيرة النبوية.

وبناءً على ما تقدم نرى أن هناك حاجة حقيقية الى دراسات جادة تهتم بتلك الحقبة وتبين لنا تفاصيلها، فجاء بحثنا هذا كمحاولة لتسليط الضوء على جانب مهم من جوانب السيرة النبوية قبل البعثة، وهذا الجانب يتعلق بممارسة الرسول ﷺ للعمل التجاري قبل البعثة، وقد تناول البحث بالدراسة والتحليل عمل الرسول ﷺ قبل لقائه بالسيدة خديجة ﵂ ومهارته في الأعمال التجارية من خلال تتبع الإشارات البسيطة المتعلقة بالموضوع، ثم فصل في العمل التجاري المشترك بينه وبين السيدة خديجة ﵂ فتوصل الى أن هذا العمل دام اكثر من اربع سنوات، وكان احد الأسباب الرئيسة في زواج الرسول ﷺ من السيدة خديجة ﵂ وذلك بعد أن تعززت المعرفة بينهما ووجد كل واحد منهما ما يبحث عنه في الآخر.

كما توصل البحث الى مجموعة من الاستنتاجات عن طبيعة العلاقة التجارية منها أن اعمال السيدة خديجة ﵂ كانت واسعة نوعاً ما لذلك كانت تحتاج الى عقلية تجارية امينة تدير هذه الأموال فوجدت هذا الامر متوفراً في الرسول ﷺ لذلك لم تتردد في اختياره، كما أن الرسول ﷺ وجد في هذا العمل فرصة مناسبة لتنمية دخله فأقبل عليه، وتوصل البحث الى أن الرسول ﷺ كانت شريكاً للسيدة خديجة ﵂ في

عمله معها ولم يكن أجيراً عندها.

كان النشاط الاقتصادي السائد في مكة هو التجارة، نتيجة لطبيعة المنطقة الصحراوية وعدم وجود مصادر أخرى للرزق، ونشطت هذه التجارة مع الاتفاقيات التي عقدها هاشم وإخوانه من بعده، مع حكام المناطق المجاورة للجزيرة.

وعرف عن السيدة خديجة ﵍ أنها كانت تاجرة ماهرة قبل أن يعمل الرسول ﷺ معها، إذ مارست هذا النشاط كما مارسه الرجال المكيون، لكن الملاحظة المهمة هنا هي إنها كانت امرأة ومع ذلك عملت في هذا المجال، ويبدو أنها كانت تمتلك صفات شخصية أهلتها لهذا العمل، يُزادُ على ذلك طبيعة الحياة التجارية في مكة، التي جعلت العمل بالتجارة أمراً ميسوراً حتى بالنسبة للنساء، إذ أن المعروف عن قريش كانت ترسل قوافل تجارية مشتركة، لذلك من الممكن للنساء الثريات إرسال أموالهن مع هذه القوافل، مع وجود وكلاء يقومون على خدمة هذه الأموال، وتحدثنا الروايات التاريخية بأن هناك مجموعة من النساء عملن بالتجارة، كأسماء بنت مخربة (أم أبي جهل) [١]، التي كانت تعمل ببيع العطور التي يجلبها لها ابنها عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن[٢]، وكانت قيلة أم أنمار تعمل بالتجارة[٣]، وهالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة ﵍ كانت تبيع الأدم في مكة[٤].

وقد يكون سبب ذلك هو أن مجتمع مكة كان أكثر تحضرا من بقية مجتمعات الجزيرة العربية، كنتيجة طبيعية لمجتمع يمارس التجارة، تفد عليه العديد من الثقافات مع التجارة الداخلة إليه، وتبع هذا الأمر تطور مكانة المرأة في هذا المجتمع، فاشتركت النساء في كثير من نشاطاته، وأهم هذه النشاطات هي التجارة التي لم تبق حكرا على الرجال.

لكن الروايات لم تبين لنا مصادر أموال السيدة خديجة ﵍ على أموالها، وقد يعود

(١) وهي أم أبي جهل (عمرو بن هشام) وكانت عند هشام بن المغيرة ثم طلقها فتزوجها أخوه أبو ربيعة فأنجبت له عبد الله وعياشاً أخوان أبي جهل لأمه وقد أسلموا في عام فتح مكة سنة ثمان للهجرة.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/ ٧٩، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/ ٣٠٠ ٣٠١، مصعب الزبيري، نسب قريش، ص٣١٧ ٣١٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٣١٧.

(٤) ابن بكار، منتخب من كتاب أزواج النبي، ص٣٩، الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ٢١٢.

السبب في ذلك الى أن المصادر التاريخية لم تهتم إلا بحياتها قبيل ارتباطها بالرسول ﷺ، ومن الممكن القول إنها ورثت هذه الأموال من أسرتها، إذ أن أباها وأثنين من إخوتها قتلوا في حرب الفجار[1]فورثت جزءاً من هذه الأموال من عائلتها، لاسيما أن خويلد لم يبقَ من ورثته غير نوفل والسيدة خديجة ؓ، وقد نستدل على ثراء هذه الأسرة من الحالة الاقتصادية التي كان عليها حكيم بن حزام بن خويلد، إذ كان من التجار المعروفين والمعدودين في مكة[2]. وإذا عرفنا إنها كانت تدير أموالها بنفسها، فإن هذا يقودنا الى التأكيد على الرأي المتقدم، إذ لوكانت تملك من يقوم على تجارتها لما عملت بنفسها.

أما الكيفية التي كانت تدير بها هذه الأموال فلم تبين الروايات ما يوضح هذه المسألة، لكنها تقول إنها كانت ترسل الأمناء في تجارتها[3]، وقد ذكرت الروايات أسماء بعض الأشخاص الذين عملوا معها، إذ كان غلامها ميسرة يذهب مع القوافل التجارية لخدمة أموال السيدة خديجة ؓ [4]، وهونفسه الذي رافق الرسول ﷺ في رحلته إلى الشام بأموالها[5]، كما ذكرت الروايات أسماً آخراً عمل معها في تجارتها وهوأحد أقربائها أسمه خزيمة بن حكيم البهزي[6]، زيادة على عمل الرسول ﷺ معها، وهذا يدل على إن هناك الكثير من الرجال عملوا في هذه التجارة، لأن الروايات لا تذكر لنا أنها كانت تخرج بنفسها لممارسة هذا العمل، وفي رواية أن حكيم بن حزام كان يشتري لها بعض السلع من سوق تهامة القريب[7]، وربما كان يعمل معها في تجارة مستمرة.

---

(١)اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٦، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٢، مصعب الزبيري، نسب قريش، ص٢٣٥ ٢٣٦، ابن دريد، الاشتقاق، ١/ ٩٣، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/ ١٨٧٣، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ٥٠، المقريزي، إمتاع الأسماع، ١/ ١١.

(٢) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ١/ ٣٧١.

(٣) ابن اسحاق، السير والمغازي، ص٨١، ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ١٧٠، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٦.

(٤) لم تفصل لنا الروايات في أخباره إذ لم يرد عنه في الروايات سوى خروجه مع الرسول ﷺ في تجارة السيدة خديجة ؓ ال سوقي حباشة وبصرى.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ١٧٢.

(٦) ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ١٣٤.

(٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٣/ ٤١، ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٣١٨.

وعلى الرغم من قلة المعلومات عن هذا الأمر لكن من الممكن القول إنها اعتمدت على النظام التجاري السائد في مكة، والقائم على القوافل التجارية المشتركة، فالسلع والبضائع التي تتاجر بها كانت تشتريها وترسلها مع القوافل الذاهبة للتجارة، وتكلف أحد الأشخاص بمرافقة الأموال والقيام عليها، وهذا الشخص نفسه تكلفه بشراء بعض السلع لتبيعها في مكة، وتباشر عملية البيع بنفسها، حسب ما تذكر الروايات وهذا ما ميزها على غيرها، كونها امرأة وهذا العمل محصور بالرجال، والسبب في ذلك أنها كانت تتمتع بنضوج عقلي ومكانة اجتماعية أهلتها للقيام بهذا العمل[1]، لكن في الوقت نفسه كانت تبحث عن شخص تثق به لمساعدتها في إدارة هذه الأموال، ووجدت ما تبحث عنه عندما التقت بمحمد ﷺ، فهوشاب في بداية حياته العملية، لم يكن من الأثرياء المنعمين بثروات أسرهم، بل هومجرد شاب يبحث عن عمل يديم به حياته، وهوفي الوقت نفسه من ذوي السمعة الطيبة في مجتمع مكة، من أسرة حازت كل الفضائل ولها تاريخ مشرف في خدمة الكعبة وزوارها.

وقبل أن يعمل الرسول ﷺ مع السيدة خديجة اكتسب خبرة تجارية أهلته للعمل معها، لأنه نشأ يتيما في كنف جده وعمه، وكان محتاجاً لممارسة العمل من أجل إعالة نفسه، وتكوين شخصية مستقلة غير مرتبطة بالآخرين، فبعد وفاة جده عبد المطلب، أختار عمه أبا طالب لكي يعيش معه، وذلك لأنه رأى عطفه عليه ورحمته به[2]، وقد قام أبوطالب بالعناية بمحمد ﷺ عناية كبيرة، إذ تذكر الروايات أنه كان يحبه حبا شديدا لا يحبه لأولاده[3]، فنشأ النبي ﷺ في أسرة أبي طالب كأحد أفرادها، وتعلم في هذه الأسرة على طبيعة العمل في مكة، إذ كان أبوطالب يعمل بالتجارة في بيع العطور[4]، لكنه لم يكن غنيا مثل بقية أثرياء قريش، وهوفي الوقت نفسه لم يكن مملقا كما تحاول بعض الروايات تصويره، ففي رواية عن الواقدي (إن أبا طالب كان مقلا بالمال، وكان

---

(١) قطب، خديجة بنت خويلد (رض)، ص١٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١١٩.

(٣) ابن أسحاق، السير والمغازي، ص٦٩، الصنعاني، المصنف، ٥/ ٣١٨، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١١٩.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٠، أبونعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ١/ ٢٩٠، ابن الجوزي، الوفا، ١/ ١٣٠.

له قطعة من الإبل يستطيع أن يعيش منها)[1].

ويبدوأن أبا طالب كان يفكر في تدريب الرسول ﷺ على العمل التجاري في فترة مبكرة من حياته، لذلك أخذه معه في إحدى سفراته التجارية الى الشام، وهوفي الثانية عشر من عمره[2]، وهذه الرحلة المبكرة هيأت للرسول ﷺ الاطلاع على طبيعة الحياة خارج مكة، وتعرف على العديد من الديانات والثقافات أثناء هذه الرحلة، وتعرف على طبيعة العمل التجاري، ومن خلالها تهيأ لدخول ميدان العمل. وعلى الرغم من أن الروايات لا تفصل كثيرا في كيفية دخول الرسول ﷺ للعمل، إلا أنها ذكرت أنه ورث عن أبيه بعض الأموال منها خمسة جمال وقطعة من غنم[3]، وعلى الرغم من أن هذا المال كان قليلا، إلا أنه كان كافيا للبدء بعمل بسيط.

ويبدوأنه عمل بهذه الأموال منذ فترة مبكرة بالتجارة، لذلك أطلق عليه لقب الأمين قبل أن يعمل في تجارة السيدة خديجة ؓ، وهذا اللقب يقترن بالعمل التجاري ولوأخذنا الرواية التي تقول إن الرسول ﷺ التقى بقس بن ساعدة الأيادي (وهوممن كانوا يدينون بالديانة الحنيفية ديانة إبراهيم الخليل) في سوق عكاظ، وسمع كلامه[4]، يتضح لنا انه كان يذهب إلى الأسواق التجارية القريبة.

وذكر ابن عبد البر رواية تعرفنا على الفترة التي ابتدأ بها عمله (فصار في حجر عمه حتى بلغ خمس عشرة سنة وكان أبوطالب يحبه ثم أنفرد بنفسه)[5]، وهذه الرواية تقودنا إلى معرفة الفترة التي ابتدأ فيها الرسول ﷺ العمل، وهي فترة مبكرة بالتأكيد لكنها تلائم وضعه الاجتماعي إذ كان يتيما وبحاجة إلى العمل، يزاد على ذلك الوضع المادي لعمه أبي طالب، لذلك استمر بعمله هذا وكان يتنقل بين الأسواق القريبة لمكة، وهذا ما تؤكده الرواية التي وردت عن حكيم بن حزام، في انه التقى بالرسول ﷺ في

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢٣.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٢/ ٢٣، الفاسي، شفاء الغرام، ٢/ ٩٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢١.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٦.

(٥) أبوالفرج الأصبهاني، الأغاني، ١٥/ ٥٥٧٠، المسعودي، مروج الذهب، ١/ ٨٢.

سوق حباشة[1]، وأشترى منه أحد أنواع الأقمشة[2].

كما ورد في بعض الروايات أن الرسول ﷺ كان يعمل برفقة أحد الأشخاص، وهذا الشخص ينتمي الى بني مخزوم، وقد دخل على الرسول ﷺ عند فتح مكة، فقال له: (كنت شريكي لنعم الشريك كنت لا تداري ولا تماري) [3]، وأسم هذا الشخص هوعبد الله بن السائب المخزومي[4]، ثم وردت رواية أخرى مفادها أن هالة بنت خويلد استأجرت إبلا تحمل عليها بضائعها (فكان في الإبل هووشريك له، فأكريا أخت خديجة فلما قضى السفر، بقي لهم عليها شيء، فجعل شريكه يأتيها فيتقاضى، ويقول لمحمد: أنطلق فيقول: اذهب أنت فإنما أستحي) [5].

---

(١) حباشة بضم أوله وبالشين المعجمة على وزن فعالة ويقال حباشة دون الف ولام، سوق للعرب معروف بناحية مكة، وهي أكبر أسواق تهامة، كانت تقوم ثمانية أيام في السنة، البكري، معجم ما أستعجم، ٢/ ٤١٨.

(٢) ابن اسحق، السير والمغازي، ص٨١، ابن هشام، السيرة النبوية، ١،١٧٨، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٩، محب الدين الطبري، السمط الثمين، ص١٢ ١٣، الأربلي، كشف الغمة، ٢/ ١٣٢، الكلاعي، الاكتفاء، ١/ ١٩٦، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/ ٤١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٣ ٢٩٤، السيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٢٦.

(٣) الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩/ ٢٢٢.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥/ ٤٤٥، البخاري، التاريخ الكبير، ٥/ ٨ ٩، الترمذي، سنن الترمذي، ٢/ ٣٤٣، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٤٣، أبونعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ١/ ١٢٤، ابن الأثير، اسد الغابة، ٣/ ٢٥٤، ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ابن حجر، الإصابة، ٢/ ٣١٤، السيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٢٢٥، وذكرت مصادر أخرى أن اسمه السائب بن أبي السائب وأبنه أسمه عبد الله وروى عنه، أبوداود، سنن ابي داود، ٤/ ٢٦٠، ابن عبد البر، الدرر، ص١١٨، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٣١٥، وذهبت مصادر أخرى الى أن اسمه السائب بن صيفي بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، ابن الجوزي، الوفا، ١/ ١٤٢، المقريزي، إمتاع الأسماع، ١/ ٨ ٩، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٥١، وذكر الذهبي أنه صيفي بن عائذ، ويكنى أبي عبد الله، معرفة القراء الكبار، ١/ ٤٠ ٤١، وذكرت مصادر أخرى أنه السائب بن عبد الله، أبن حنبل، المسند، ٣/ ٤٢٥، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٣١٦.

(٥) ابن بكار، جمهرة نسب قريش، ١/ ٣٧١، البكري، معجم ما أستعجم، ٢/ ٤١٨، المقريزي، إمتاع الأسماع، ١/ ٨، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٥٢.

هذه الروايات تؤيد ما ذهبنا الية في كون الرسول ﷺ، كان يعمل بالتجارة قبل عمله مع السيدة خديجة بمدة من الزمن، كما يبدوأن تعامل بعض أفراد عائلة السيدة خديجة معه، مثل حكيم بن حزام وهالة بنت خويلد، قرب بين السيدة خديجة والرسول ﷺ. وهذا التعامل دفع السيدة خديجة ﵂ الى أن تعرض عليه العمل معها، لذلك أرسلته الى سوق حباشة القريب من مكة، وهي من الأسواق الموسمية إذ لا تستمر سوى ثمانية أيام[1]، ويبدومن خلال رواية الزهري أن الرسول ﷺ كان يذهب الى هذه السوق عدة مرات: (أن رسول الله ﷺ لما استوى وبلغ أشده وليس له كثير مال، فاستأجرته خديجة بنت خويلد الى سوق حباشة، واستأجرت معه رجلا من قريش، فقال رسول الله ﷺ ما رأيت صاحبةً خيراً من خديجة ما كنا لنرجع أنا وصاحبي إلا وعندها تحفة من طعام تخبئه لنا، واستأجرته بسقب[2]يدفعه اليه غلامها ميسرة إذا رجع من سفرة من يمينه وخلفه البركة في سفره والزيادة في الربح وما رآه من رسول الله ﷺ قالت: فأرنيه، فلما أقبلت العير أشار اليه وإذا سحابة تظله وتسير معه، فأمرت له بسقب آخر) [3].وهذه الرواية تبين لنا عدة أمور، منها إنها أرادت أن تختبره في تجارة قريبة وبسيطة قبل أن تعمل معه في تجارة أكبر، كما تقودنا الى التعرف على الخبرة التجارية التي كان يمتلكها الرسول ﷺ، ففي البداية اتفقت معه على أجر معين ثم ضاعفته له، بعد أن رأت نسبة الربح الكبيرة، كما أن هذه الخبرة التجارية ساهمت في توثيق العلاقة بينهما، وأدت الى استمرار العمل التجاري حتى انتهى هذا التعامل بزواجهما، كما يبدومن هذه الرواية أن الرسول ﷺ عمل معها لفترة من الزمن قبل أن يذهب بتجارة كبيرة الى الشام، ويتضح هذا من الرواية التي رويت عن حكيم بن حزام: (كان حكيم بن حزام رجلا تاجرا لا يدع سوقا بمكة ولا تهامة إلا حضره، وكان يقول:كان بتهامة أسواق أعظمها سوق حباشة وكنت أحضره، وقال: رأيت رسول الله ﷺ حضر فاشتريت منه بزا من بز تهامة (أي ثياب) وقدمت به مكة، فذلك حين أرسلت خديجة

---

(١) ذكر الفاسي إنها لم تكن من الأسواق الكبيرة حيث لا تقام في مواسم الحج بل كانت تقوم في شهر رجب، شفاء الغرام، ٢/ ٢٨٣.

(٢) السقب هوولد الناقة ساعة يولد، ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ١٦٢.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٤٢١.

الى رسول الله ﷺ تدعوه الى أن يخرج لها في تجارة الى سوق حباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة فخرجا فأبتاع بزا من بز الجند وغيره مما فيه من التجارة ورجع الى مكة فربحا ربحا حسنا وكانت تقوم ثمانية أيام)[1].

كما تقودنا الروايات المتقدمة الى البحث في عمر الرسول ﷺ، عندما عمل مع السيدة خديجة ﷺ، من أجل معرفة المدة التي عملا فيها معا، ففي رواية عن الزهري مفادها أن عمر الرسول ﷺ عند زواجه بالسيدة خديجة ﷺ، كان إحدى وعشرين سنة[2]، فيما ذكرت روايات أخرى أن عمره كان خمساً وعشرين[3]، وعلى الرغم من أننا نؤيد أن زواج الرسول ﷺ بها كان عندما بلغ الخامسة والعشرين، وذلك لان هناك شبه إجماع عليه بين الروايات، لكننا نستفيد من رواية الزهري في أنها حددت عمره عندما عمل معها، إذ يقول إنه تزوجها بعد عودته من رحلة تجارية إلى سوق حباشة، والاختلاف الذي وقع بين الرواة وقع نتيجة لأن الرسول ﷺ، تزوج منها بعد عودته من إحدى الرحلات التجارية، فظن الزهري إنها بعد عودته من سوق حباشة عندما كان عمره إحدى وعشرين عاما، فيما ذهب غيره إليأنه كان بعمر الثلاثة والعشرين[4]، وفي هذا دلالة على تواصل هذا العمل، بينما جزم عامة الرواة أنه كان يبلغ من العمر خمساً وعشرين عاما، لأنه تزوجها بعد عودته من رحلة الشام.

ثم استمر عملهما بصورة متواصلة على الرغم من عدم وجود تفاصيل عنه، إذ

---

(١) ابن اسحق، السير والمغازي، ص٨١، ابن هشام، السيرة النبوية، ١٧٨،١، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٩، محب الدين الطبري، السمط الثمين، ص١٢ ١٣، الأربلي، كشف الغمة، ٢/ ١٣٢، الكلاعي، الاكتفاء، ١/ ١٩٦، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/ ٤١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٣ ٢٩٤، السيوطي، الخصائص الكبرى، ١/ ٢٦.

(٢) الدميري، حياة الحيوان، ٢/ ٢٥٧، الدياربكري، تاريخ الخميس، ١/ ٣٦١، المكي، سمط النجوم، ١/ ٣٦٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٩٨.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب، ٤/ ٢٠٨، السهيلي، الروض الأنف، ١/ ٢١٦، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ٤٧، مغلطاي، سيرة مغلطاي، ص١٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٣.

ذهب الى سوق جرش مرة أومرتين[1]، وفي كل سفرة تعطيه قلوص[2]، وهذا يدل على أن عمله التجاري معها كان منذ فترة مبكرة قبل ذهابه الى الشام، ويعزز هذا الرأي ما ورد في رواية الزهري (ما رأيت من صاحبة خيراً من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا) [3]، وهذه الرواية تدل على أنه كان يذهب بتجارتها مرات متعددة.

ثم تعددت الروايات التي تتحدث عن ذهاب الرسول ﷺ الى الشام، حتى يتصور القارئأن هذه الروايات تتحدث عن رحلات متعددة، فروى محمد بن إسحاق (كانت خديجة بنت خويلد ؓ امرأة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوم تجار، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام) [4].

كما أورد الواقدي بسنده عن نفيسة بنت منية[5]، رواية تتحدث عن ذهاب الرسول

---

(١) جرش بضم أوله وفتح ثانيه وبالشين المعجمة موضع باليمن، البكري، معجم ما أستعجم، ٢/ ٣٧٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ١٢٦، ينظر حول الرواية، البيهقي، سنن البيهقي، ٦/ ١١٨، الدميري، حياة الحيوان، ٢/ ٢٥٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/ ٢٩٥، المقريزي، إمتاع الأسماع، ١/ ٩، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٥١.

(٢) القلوص هي الشابة من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساء، ابن منظور، لسان الميزان، مادة قلص، ٢/ ١٦٠.

(٣) ابن بكار، منتخب من كتاب أزواج النبي، ص٣٦.

(٤) ابن الأثير، ألأسد الغابة، ٤/ ١٣٤، ابن حجر، الإصابة، ١/ ٤٢٧، الديار بكري، تاريخ الخميس، ١/ ٤٦٢، المجلسي، بحار الأنوار، ١٦/ ١٧.

(٥) هي نفيسة بنت أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحارث التميمي، أخت يعلى بن أمية حليف قريش، ومنية هواسم أمها منية بنت الحارث المازنية التي تزوجت بعد ذلك خويلد بن أسد والد السيدة خديجة ؓ، وأنجبت له العوام وعدي وحزام ورقيقة، ينظر ابن الأثير، أسد الغابة، ٧/ ٢٨٣، ابن حجر، الإصابة، ٣/ ٦٦٨، لكن ابن حزم ذكر إن أمها هي منية بنت جابر عمة الصحابي عتبة بن غزوان بن جابر من مازن بن منصور، وهم حلفاء بني نوفل بن عبد مناف ولم يشر الى أنها هي التي تزوجها خويلد أوهي أم العوام وإخوانه، جمهرة أنساب، ص٣٢٩، لكن الرواية التي

ﷺ إلى الشام (لما بلغ الرسول ﷺ خمسا وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين، لما تكامل فيه من خصال الخير فقال له أبوطالب: يابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد أشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيرها فلوتعرضت لها، وبلغ خديجة ذلك فأرسلت اليه وأضعفت له ما كانت تعطي غيره، فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم بصرى من الشام)[1].

ثم يروي الواقدي رواية أخرى بسنده عن نفيسة نصها (كانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها الى الشام، فيكون عيرها كعامة قريش، وكانت تستأجر الرجال، وتدفع المال مضاربة، فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وعشرين سنة، وليس له اسم بمكة إلا الأمين، أرسلت اليه خديجة بنت خويلد تسأله الخروج الى الشام في تجارتها مع غلامها ميسرة، وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطى قومك، ففعل رسول الله ﷺ، وخرج الى سوق بصرى فباع سلعته، التي خرج بها وأشترى غيرها، وقدم بها فربحت ضعف ما كانت تربح، فأضعفت لرسول الله ﷺ ضعف ما سمت)[2].

ثم أوردت المصادر رواية أخرى عن عبد الله بن محمد بن عقيل نصها: (وقال أبوطالب: يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين[3]، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطت، فهل لك أن تكلمها، قال:ما أحببت، فخرج اليها فقال: هل لك أن تستأجري محمد، فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون

أوردها ابن الأثير بها تكون هي الصحيحة وذلك تبلعا للصلة الوثيقة بين نفيسة والسيدة خديجة عليها السلام، ذكرت المصادر أن نفيسة أسلمت وروت أحاديث عن الرسول ﷺ، أنظر ابن الأثير، أسد الغابة، ٧/ ٢٨٣.

(١) ابن بكار، نسب قريش، ١/ ٣٧١.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٩، البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٩٧، المقدسي، البدء والتاريخ، ٤/ ١٣٧ ١٣٨، أبونعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ١/ ٢٢١، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣/ ١٤ ١٥، ابن الجوزي، الوفا، ١/ ١٤٣، صفة الصفوة، ١/ ٧١ ٧٢، الكلاعي، الاكتفاء، ١/ ١٩٥ ١٩٦، الدميري، حياة الحيوان، ٢/ ٢٥٧، الدياربكري، تاريخ الخميس، ١/ ٣٦٣، الحلبي، السيرة الحلبية، ١/ ١٤٧، المكي، سمط النجوم، ١/ ٣٦٥.

(٣) البكر ولد الناقة وهوفي الإبل بمنزلة الفتى في الناس والبكرة بمنزلة الفتاة، ابن منظور، لسان العرب، مادة بكر، ١/ ٢٥٠.

أربع أبكار، قال: فقالت خديجة: لوسألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب) [1].

كما وردت رواية عن الزهري نصها: (كان خزيمة بن حكيم يأتي خديجة في كل عام، وكان بينهما قرابة فأتاها، فبعثته مع النبي ﷺ الى الشام) [2].

وعلى الرغم من اختلاف ألفاظ الروايات أعلاه لكنها تتحدث عن رحلة واحدة، والمفيد فيها هوأنها فصلت في هذه الرحلة، إذ روى كل من الرواة جزء منها، ولوأتينا إلى تحليل هذه الروايات نجد أنها متسلسلة ويكمل بعضها بعضا، فرواية ابنإسحاق ليس فيها تفاصيل عن الرحلة، بقدر ما هي توصيف لعمل الرسول ﷺ مع السيدة خديجة ، والسبب الذي دفعها إلياختياره لهذا العمل ومرافقة غلامها ميسرة له في هذه الرحلة، أما روايتا الواقدي عن نفيسة بنت منية، ففيها تفاصيل مهمة جدا، فهي تبين لنا أن الرسول ﷺ لم يذهب في تجارة الى الشام، على الرغم من عمله مدة من الزمن في أموال السيدة خديجةكما أنها أكثر الروايات قربا للواقع، لأن نفيسة كانت وثيقة الصلة بالسيدة خديجة ، لأنها أخت العوام بن خويلد لأمه، وربما كانت تعيش عندها فتكون روايتها إخباراً عن الواقع وليس استنتاجاً، فهي تنقل حديث أبي طالب مع الرسول ﷺ وحثه على الذهاب في تجارتها بالقول: (فلوجئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك)، وهذا يعني أنها كانت قد تعاملت معه قبل ذلك، وقد قدمنا تفاصيل عن هذا الأمر، والدليل على ذلك انها كانت تعرف مواهبه التجارية، يزاد على ذلك معرفتها بصفاته كالصدق والأمانة، وربما كان حديث أبي طالب معه قبل مدة من خروج القوافل، حتى يتهيأ النبي ﷺ للعمل معها، أما الذي أبلغها بقول أبي طالب، فهوأبوطالب نفسه وهذا الأمر ذكره البلاذري عندما نقل رواية الواقدي عن

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/ ١٦.

(٢) الصنعاني، المصنف، ٥/ ٣٢٠، ابن بكار، منتخب من كتاب أزواج النبي، ص٣٦، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٢، البيهقي، دلائل النبوة، ١/ ٩٠، الطبرسي، إعلام الورى، ص٣٩، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٢١٠، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ٥٠، الأربلي، كشف الغمة، ٢/ ١٣٢، محب الدين الطبري، السمط الثمين، ص١٥٤، مغلطاي، سيرة مغلطاي، المقريزي، أمتاع الأسماع، القسطلاني، المواهب اللدنية، ١/ ٣٨، المجلسي، بحار الأنوار، ١٦/ ١٠٩.

نفيسة (فكلمها أبوطالب في رسول الله ﷺ فوجهته الى الشام)[1]، وكذلك رواية ابن سعد عن عبد الله بن محمد بن عقيل والتي تعد مكملة لرواية الواقدي الأولى، إذ كلم أبوطالب الرسول ﷺ في الخروج في تجارتها فوافق على الأمر، فذهب أبوطالب الى السيدة خديجة ﵂ وطلب منها أن تعطي محمداً مالاً يتجر به، وأشترط عليها أن تعطيه أربعة أبكار، الأمر الذي يتناسب وكفائته التي تعرفها السيدة خديجة ﵂ لأنها تعاملت معه سابقا.

أما ردها على أبي طالب (لوسألت لبغيض بعيد فعلنا فكيف وقد سألت لقريب حبيب)، يعني أنها على معرفة وثيقة بالرسول ﷺ هذه الصلة التي تكونت نتيجة لصلة القرابة التي تربطهما، وعمله معها لمدة من الزمن.

وبعد أن كلمها أبوطالب بالأمر، وأشترط عليها أن تعطيه ضعف ما تعطي رجل من قومه، قبلت بالأمر وبعثت الرسول ﷺ في تجارتها، وهذا ما تبينه رواية الواقدي الأولى[2]، أما روايته الثانية التي نقلها عن نفيسة بنت منية فهي تشبه رواية ابن إسحاق في كونها استنتاج لما حدث، إذ أعطى صورة عامة عن عمل الرسول ﷺ معها، فيبين صفاتها أولا، ثم ينتقل الى وصف عمل الرجال معها من حيث كونه مضاربة، ثم إجمال ماحدث وسؤالها له أن يخرج في مالها بناءً على طلب عمه ابي طالب المذكور في رواية الواقدي الاولى.

ومن خلال ما عرضناه من روايات تتضح لنا مسألة مهمة تحتاج الى مناقشة وهي ما ورد في روايتي ابن اسحاق والواقدي من كون الرسول ﷺ كان أجيرا في تجارة السيدة خديجة ﵂. إذ ذكر ابن إسحاق في روايته إنها كانت (تستأجر رجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم)، وفي رواية الواقدي إنها كانت (تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة)، وورد في بعض الروايات أنها استأجرته وأرسلته، أي أنه كان أجيرا في عمله معها، ثم أشار ابن القيم الجوزية الى هذا المعنى فقال: (إنما يحفظ عنه أنه أجر نفسه قبل النبوة في رعاية الغنم، وأجر نفسه من خديجة في سفره بمالها الى الشام، وأن كان العقد مضاربة، فالمضارب أمين أجير، ووكيل وشريك، فأمين إذا قبض

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ١/ ٩٨.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٩.

المال، ووكيل إذا تصرف به، وأجير فيما يباشره من العمل، وشريك إذا ظهر الربح)[1].

وعلى الرغم من أنّ الرسول ﷺ لم يكن ثريا لكن في الوقت نفسه لم يكن بحاجة ماسة ليكون أجيرا عند الآخرين، فرأي ابن القيم في أنه أجر نفسه في رعاية الغنم غير دقيق، لأن الرسول ﷺ عندما عمل في رعاية الغنم، كان يرعاها لأهله كما هي طبيعة المجتمع الصحراوي في تلك المدة، إذ يشترك أفراد الأسرة في العناية بالإبل والأغنام، وهذا ما ورد عن الرسول ﷺ: (بعث موسى عليه السلام وهوراعي غنم وبعث داود عليه السلام وهوراعي غنم وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد)[2]، وقد كان جزء من هذه الغنم ملكا له.

أما مسألة كونه كان أجيرا في مال السيدة خديجة عليها السلام كما يرى ابن القيم، فهورأي يحتاج الى دليل لأن الروايتين اللتين ذكرناهما لا تدلان على ذلك، إذ جاء فيهما لفظ المضاربة وهويعني أن تعطي المال لغيرك يتجر به فيكون له سهم معلوم من الربح[3]، وقد يكون الربح مشتركا[4]، ويعزز رأينا هذا ما روي عن الصحابي عمار بن ياسر انه كان يغضب على من يقول (استأجرته وأرسلته)[5]، ونقل عنه أنه كان يقول: (وأنه ما كان مما يقول الناس إنها استأجرته بشيء ولا كان أجيرا لأحد قط)[6]. كما أن رواية ابن اسحاق التي استند عليها ابن القيم والتي وردت فيها كلمة تستأجر أوردها الطبري بصيغة أخرى وهي (كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستتجر الرجال في مالها.....)[7]، والفرق بين تستأجر وتستتجر كبير، لأن الثانية تأتي من التجارة أي البيع والشراء وليس الاستئجار[8]. كما أورد ابن حزم

(١) ابن القيم الجوزية، زاد المعاد، ١/ ٥٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٢٦، ابن قتيبة، المعارف، ص١٤٤، أبونعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ١/ ٢٠٦، المتقي الهندي، كنز العمال، ١٤/ ١٨٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة ضرب، ٢/ ٥٢٠.

(٤) الصفوري الشافعي، نزهة المجالس، ٢/ ١٦٧.

(٥) ابن بكار، منتخب من كتاب أزواج النبي، ص٤١.

(٦) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ١٦.

(٧) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٠.

(٨) تجر يتجر تجرا وتجارة باع وأشترى وكذلك أتجر وهوأفتعل ابن منظور، لسان العرب، مادة تجر، ١/ ٣١٢.

الأندلسي ما يؤيد ذلك، إذ قال: (وكانت قريش أهل تجارة لا معاش لهم غيرها، وفيهم الشيخ الكبير الذي لا يطيق السفر، والمرأة والصغير واليتيم وذوي الشغل والمرض، فكانوا يعطون المال مضاربة لمن يتجر به بجزء من الربح، فأقر رسول الله ﷺ ذلك في الإسلام وعمل به المسلمون) [1].

كما إن الرواية التي وردت عن جابر بن عبد الله الأنصاريتؤيد كون الرسول ﷺ عمل شريكا في هذه التجارة: (وكانت خديجة بنت خويلد امرأة لها شرف.....، وكانت تبضع البضائع مع عبيد لها ومضاربين الى الشام في التجارة.....، ولما انتهى اليها عن رسول الله ﷺ ما قد فشى واستفاض عنه به الخبر، أرسلت اليه في أن تعطيه مالا يتجر لها به الى الشام) [2].

موارد إنفاق أموال السيدة خديجة عليها السلام

لابد لنا من التعرف أين أنفقت أموال السيدة خديجة عليها السلام، لاسيما أن هذه المسألة كان لها صدى واسع في روايات السيرة، وكتابات الباحثين سواء من المسلمين أوغيرهم، فيسأل أحد المستشرقين وأسمه لامنس فقال وهويتحدث عن زواج فاطمة بنت الرسول ﷺ (كيف لم يكن باستطاعته أن يخص فاطمة بهدية سنية تحملها إلى بيت عريسها؟) ثم يتساءل أين ذهبت هذه الأموال وهي كثيرة؟[3]، وهذه التساؤلات أجاب عنها أحد الباحثين بأن هذه الأموال كانت قليلة وقد صرفت في الدعوة الإسلامية، كذلك بقاء الرسول ﷺ وزوجته خمسا وعشرين سنة بدون عمل أدى إلى نفاذ هذا المال[4].

لكن رأي الباحث أعلاه غير منطقي لأنه ليس من المعقول أن يبقى رسول الله ﷺ بدون عمل بعد زواجه من السيدة خديجة عليها السلام، لاسيما أن هذا الأمر لا يتلاءم وسيرته، فنراه يؤكد بصورة مستمرة على العمل ويحث عليه، فبعد الزواج أصبح لديه رأس مال كاف ليبتدئ به تجارة تشبه تجارة أهل مكة وقتذاك، وقد وصلتنا بعض الروايات تشير الى نشاطه التجاري، ففي رواية أنه بايع أحد التجار سلعة ووعده في مكان معين لكن

(١) ابن حزم، المحلى، ٨/ ٢٤٧.
(٢) النعمان المغربي، شرح الاخبار، ١/ ١٨٣.
(٣) نقلا عن عمر أبوالنصر، فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ص٧١ ٧٢.
(٤) عمر أبوالنصر، فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ص٧٢.

التاجر نسي الأمر، وبعد أن تذكره أتاه بعد ثلاثة أيام فوجد الرسول ﷺ ينتظره فقال له: (يا فتى لقد شققت علي أنا ها هنا مذ ثلاثة أيام أنتظرك) [1].

وبعد البعثة وردت رواية عن أبي سفيان أنه كان خارجا الى اليمن في تجارة ثم عاد الى مكة، فجاءه أهل مكة يسألون عن بضائعهم، ثم جاء النبي ﷺ فسلم عليه ولم يسأله عن بضاعته ثم قام، فقال أبوسفيان لزوجته: (إن هذا ليعجبني ما من أحد من قريش له بضاعة إلا وسألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته فقالت لي هند: أوما علمت شأنه، فقلت وأنا فزع، ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله) [2].

ويبدوأن رسول الله ﷺ كان مختصا في بيع الأقمشة، فعندما التقاه حكيم بن حزام في سوق حباشة اشترى منه نوع من أنواع الأقمشة، وبعد البعثة حصلنا على روايتين تشيران الى شراء رسول الله ﷺ هذا القماش من تجار قدموا الى مكة[3].

وفي رواية أن أحد تجار قبيلة زبيد اليمنية قدم مكة بتجارة فأراد بيعها الى ابي جهل بن هشام، لكنه ظلمه بثمنها فأخذ الرجل يقول: (يا معشر قريش كيف تدخل عليكم مادة أوجلب وأنتم تظلمون من دخل اليكم، وجعل يقف على الخلق حتى انتهى الى رسول الله ﷺ وهوفي أصحابه، فقال له رسول الله ﷺ: من ظلمك؟ قال: أبوالحكم طلب مني ثلاثة جمال وهي خيار أبلي فلم أبعه إياها بالوكس، فليس يبتاعها أحد مني اتباعا لمرضاته، فقد أكسد سلعتي وظلمني فقال رسول الله ﷺ: وأين جمالك؟ قال: هي هذه بالحزورة، فأبتاعها رسول الله ﷺ منه فباع جملين منها بالثمن الذي التمسته، وباع البعير الثالث وأعطى ثمنه أرامل بني عبد المطلب) [4].

وقد يتبادر الى الذهن أن انشغال رسول الله ﷺ بالتفكر والتعبد أبعده عن دائرة الأعمال، لأنه هوالجزء الغالب على مرويات السيرة، وعلى الرغم من أن هذا الرأي قريب من الواقع، لكن في الوقت نفسه نقول إن التفكر والتعبد لم يأخذ كل

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٥٩، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ٢/ ٣٣٢ ٣٣٣، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١/ ٥١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٢٢٣.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، ٣/ ٥٦٨، أبوالشيخ، أخلاق النبي، ص١٢٠، ابن الأثير، أسد الغابة، ٢/ ٤٩٣.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ١٣٠.

وقت الرسول ﷺ، لأنه كما تذكر الروايات كان في أوقات معينة من السنة، وهذه الروايات التي قدمناها تشير بوضوح الى أنه أستمر في العمل التجاري، لكن ليس فيها ما يدل على أنه خرج الى خارج مكة للتجارة، ولا يستبعد أن تبقى السيدة خديجة عليها السلام تباشر إدارة أموالها وتجارتها، وإذا رجحنا هذا الاحتمال فهذا يعني أن زوجها رسول الله ﷺ لم يمنعها من ممارسة العمل التجاري والتصرف الحر بمالها باسم القوامة الزوجية أوالسلطة الدينية وهوصاحب التشريع، أي أن الإسلام لم يحرم المرأة من حقها في العمل[1]، كما أننا ذكرنا أن القوافل المشتركة التي كانت تبعث بها قريش هيأت لها إرسال أموالها معها دون أن تخرج هي والرسول ﷺ الى التجارة بأنفسهم، وهذا ما تشير اليه رواية ابي سفيان.

أما حجم أموال السيدة خديجة عليها السلام فعلى الرغم من أَنَّ الروايات لا تعطينا صورة واضحة عنها، لكنها تذكر إنها كانت من تجار قريش، أوترسل تجارتها مع الأمناء، أوانها (ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث الى الشام فيكون في عيرها كعامة عير قريش..)، أو (أن عيرها كان كعامة عير قريش).

ومن خلال معرفة حجم الإنفاق الذي كان ينفقه الرسول ﷺ، يمكن أن نستخلص إن هذه الأموال كانت كثيرة، فقد روي أن الرسول ﷺ كان يعتمد على مال السيدة خديجة عليها السلام بصورة كبيرة، فكان (يفك من مالها الغارم والعاني ويحمل الكل ويعطي في النائبة، ورفد فقراء أصحابه إذ كان بمكة، ويحمل من أراد منهم الهجرة، وكانت قريش إذا رحلت عيرها في الرحلتين، كانت طائفة العير لخديجة، وكانت اكثر قريش مالا، وكان ينفق منه ما شاء في حياتها، ثم ورثها هووولدها بعد مماتها)[2]، ويؤيد هذه الرواية ما جاء في الكثير من الروايات من أن الرسول ﷺ كان يساعد أصحابه من هذا المال، ففي رواية أن عمر بن الخطاب دخل (على حفصة وأسماء بنت عميس عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم فغضبت أسماء، وقالت:كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم،

---

(١) طبارة، التحرر يبدأ في عقول الرجال والنساء، ص٦٩ ٧٠.

(٢)- الطوسي، الامالي، ص٤٦٨، المجلسي، بحار الأنوار، ١٩/ ٦٣.

وكنا في دار البعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا، حتى أذكر ما قلت للنبي، وأسأله ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي قالت: يا نبي الله إن عمر قال: كذا وكذا، قالت: قال: (فما قلت له؟ قالت: كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم هجرتان)[1].

وهذا يعني أن السيدة خديجة ﴿عليها السلام﴾ كانت تمتلك كمية كبيرة من الأموال، لأن الرسول ﷺ كان ينفق منها حتى هجرته الى المدينة، ويساعد الكثير من أصحابه ممن لا يمتلكون أموال، وقد نستدل على هذه الكثرة من خلال تفرغ الرسول ﷺ للتفكر والتعبد بعد زواجه من السيدة خديجة ﴿عليها السلام﴾، أي إنه لم يعد بحاجة الى قضاء كل وقته في ممارسة التجارة، ومن خلال تتبع بعض الإشارات التي أوردتها بعض المصادر، نستطيع تكوين تصور بسيط عن أموال السيدة خديجة ﴿عليها السلام﴾، ففي كل سفرة يقوم بها الرسول ﷺ، كانت تعطيه حصة من الأرباح، فمثلا عندما عاد من الشام أعطته ثمانية أبكار، وهي نسبة عالية لشخص يعمل في أموال غيره، مما يدل على كثرة الأموال والأرباح، كما تذكر الروايات انها أعطت لأبنتها زينب بيتا عندما تزوجت من أبي العاص بن الربيع[2]، وهوغير البيت الذي سكنته مع الرسول ﷺ بعد الزواج.

ولوتتبعنا الموارد التي انفقت فيها أموال السيدة خديجة ﴿عليها السلام﴾، لعرفنا أن أموالها كانت كثيرة وقد انفقت على مراحل، إذ بقي الرسول ﷺ ينفق منها لفترة طويلة جدا، فكانت خير عون له وللمسلمين في تلك الفترة، التي عانى فيها المسلمون من المقاطعة والحصار وغيرها من الأساليب، من اجل ثنيهم عن التمسك بدينهم.

فقبل البعثة النبوية تتبعت السيدة خديجة الأشخاص الذين تربطهم علاقة بالرسول ﷺ وأخذت تكرمهم، فبدأت بإرسال الصلات والعطايا الى أسرة أبي طالب[3]، ثم طلب رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب، أن يدفع له أحد ولده، يتربى في بيته

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، ٧/ ١٧٢، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨/ ٢٨١، ابن حنبل، المسند، ٤/ ٣٩٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/ ١٧٢.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ٢/ ١٩٩، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٨٢.

(٣) المسعودي، إثبات الوصية، ص١٥٩.

لأن الحالة المادية لأبي طالب لم تكن بالمستوى المطلوب، فقال له أبوطالب: (إن تركتما لي عقيلا، فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله عليا وضمه اليه)[1]، وعندما أخذه الرسول ﷺ أهتم به كأنه ولده، وبالغت السيدة خديجة في إكرامه، فأخذت تلبسه فاخر الثياب[2].

كما قامت السيدة خديجة ﵏ بإكرام ثويبة مولاة أبي لهب، التي أرضعت الرسول ﷺ عند ولادته، وبقيت ترسل اليها العطايا طيلة حياتها، وقبل ذلك عرضت على أبي لهب أن تشتريها منه فرفض الأمر[3]، كما أكرمت السيدة خديجة ﵏ حليمة السعدية التي تولت العناية بالرسول ﷺ وإرضاعه في صغره، لذلك عندما قدمت حليمة السعدية لزيارة الرسول ﷺ، أعطتها السيدة خديجة ﵏ أربعين شاة وبعيرا[4].

وكانت أموال السيدة خديجة ﵏ حاضرة بعد البعثة، ففي خضم المعركة الكبرى التي خاضها الإسلام لمحاربة الشرك، قاسى المسلمون فيها شتى أنواع العذاب، واستخدم المشركون كل الوسائل للتضييق على من اتبع محمد، وكان في مقدمة هذه الوسائل العامل الاقتصادي، فصادروا أموال المسلمين وحرموهم من العمل، فأدى هذا الأمر الى فقدان الكثير من المسلمين لأموالهم، وحرموا من العمل نتيجة لهيمنة المشركين على اقتصاد مكة، إذ كان هؤلاء يحذرون التجار الذين يقدمون الى مكة من الكلام مع النبي ﷺ، لأنهم كانوا يقولون لهم إن كلام محمد فيه سحر، لذلك لم يجرؤ أحد على التعامل التجاري معه[5]، وكان أبوجهل (عمروبن هشام) يأتي الرجل المسلم فيقول له إذا أسلم: (أتترك دين أبيك وهوخير منك وتفيل شرفه؟ وان كان تاجرا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٢٨، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٥٨، الحاكم النيسابوري، المستدرك، ٣/ ٥٧٦، ابن البطريق، العمدة، ص٦٣.

(٢) المسعودي، إثبات الوصية، ص١٥٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١٠٨ ١٠٩، البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٩٦، ابن عبد البر، الاستيعاب، ١/ ٢٨، ابن الجوزي، الوفا، ١/ ١٠٧، النويري، نهاية الأرب، ١٦/ ٨٠ ٨١.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ١١٤، البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٩٥، السهيلي، الروض الأنف، ١/ ١٩٢، ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١/ ٦١ ٦٢، أبوالفداء، المختصر، ١/ ١١٣.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٦١.

قال ستكسد تجارتك ويهلك مالك، وان كان ضعيفا أغرى به حتى يعذب) [1]. وهذا يعني أن التجار لا يستطيعون أن يبيعوا محمد ﷺ وأتباعه خوفا من وجهاء قريش، كما أن المسلمين عندما يأتون بتجارة الى مكة لن يجدوا من يشتريها منهم، خصوصا وان أكثر التجار كانوا مشركين.

ثم قرر المشركون محاصرة الرسول ﷺ ومن يسانده في شعب أبي طالب، بعد أن يأسوا من رده عن دعوته، ومن التأثير على عمه ابي طالب بترك الدفاع عنه، لذلك خرج به الى الشعب وخرجت معه بنوهاشم وبنوالمطلب وقالوا: (نموت عن آخرنا قبل أن يوصل الى رسول الله ﷺ، فدخلوا الى الشعب مسلمهم ومشركهم المسلم لدينه والمشرك حمية) [2]. فكتبت قريش صحيفة تعاهدت فيها على أن (لا يبايعوا بني هاشم، ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم، حتى يدفعوا اليهم محمد فيقتلوه) [3]، ثم وصل الأمر الى إجبار بني هاشم ألا يخرجوا الى الأسواق إلا في موسم الحج[4]، لكن هذه الخطوة كانت محفوفة بالصعوبات، لأن المشركين من كبار قريش كانوا يعملون على زيادة أسعار السلع التي تفد الى مكة فالتاجر الذي يأتي مكة يدفعون اليه أعلى سعر مقابل سلعته حتى لا يبيعها الى بني هاشم، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي ينادي: (فمن رأيتموه عنده طعام يشتريه فزيدوا عليه وحولوا بينه وبينهم، ومن لم يكن عنده نقد فليشتر وعليَّ النقد) [5]، وكذلك كان حال ابي جهل وعقبة بن ابي معيط والنضر بن الحارث فقد مارسوا شتى أنواع العروض والضغوط على التجار، لئلا يبيعوا لبني هاشم شيئا، ثم يعودوا اليهم ليربحوهم على سلعهم، فوصل بنوهاشم الى درجة كبيرة من الجهد والبلاء (حتى كان يسمع أصوات صبيانهميتضاغون من وراء الشعب من الجوع) [6].

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ١٩٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣/ ٥٩.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ١/ ٢٣٠.

(٣) مؤرج، حذف من نسب قريش، ص٢٥، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٠٨ ٢٠٩.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٠٨، المقريزي، إمتاع الأسماع، ١/ ٢٥.

(٥) ابن أسحاق، السير والمغازي، ص١٥٩.

(٦) ابن أسحاق، السير والمغازي، ص١٥٠، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢٠٩، المقريزي، النزاع والتخاصم، ص٢٤.

وكان عدد المحصورين في الشعب كبيرا، وهذا العدد كان يحتاج الى طعام ومؤونة، فكان مال السيدة خديجة ﷺ خير عون لهم في هذه الأزمة التي استمرت ثلاث سنوات، لكن صعوبة هذا الحصار أدت الى نفاد هذا المال، حيث ذكرت الروايات أن السيدة خديجة ﷺ كان لها مال كثير أنفقته في الشعب، وكذلك فعل أبوطالب والرسول ﷺ حتى وصلوا حد الفقر والفاقة[1].

وبعد أن خرج رسول الله ﷺ وبنوهاشم من الشعب الذي حوصروا فيه كانت هذه الأموال قد شارفت على الفناء، لكن بقي منها ما مكن الرسول ﷺ من إدامة حياته حتى الهجرة الى المدينة، ففي رواية أن رسول الله ﷺ عندما أراد الهجرة أشترى أبوبكر بعيرين فقدم أحدهما الى الرسول ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: (لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به، قال:أخذتها بكذا وكذا، وقال: قد أخذتها بذلك، قال: هي لك، والحكمة في أنه ﷺ أحب أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه) [2]، ومن الطبيعي بعد كل هذا الإنفاق الكبير أن تنتهي هذه الأموال، أوتتناقص بدرجة كبيرة، لأن نسبة الصرف كانت أعلى من نسبة التجارة.

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٢٥، الطبرسي، أعلام الورى، ص٦٠، ابن شهر آشوب، المناقب، ١/ ٥٨.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٣٧٥، المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٧٩.

المستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل ودراستها لسيرة النبي محمد ﷺ

أ. د. حامد ناصر الظالمي
كلية التربية للعلوم الإنسانية - جامعة البصرة

د. حامد ناصر الظالمي

دكتور في كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة البصرة

الاستاذ الدكتور حامد ناصر الظالمي. استاذ في كلية التربية/ جامعة البصرة. دَرَسَ في البصرة وفيها اكمل دراسته حتى تخرجه من جامعة البصرة. ومنها نال شهادة الماجستير والدكتوراه. مؤلف غزير صدر له ١٣ كتاباً بين التأليف والتحقيق. شغل عدة مناصب ادارية منها عضو مجلس محافظة البصرة والامين العام للمكتبة المركزية في جامعة البصرة.

تعود العلاقات الإسلامية الألمانية الى مئاتٍ من السنين خلت، ففي نهايات القرن الثالث الهجري كانت للمسلمين في الأندلس علاقات دبلوماسية مع بعض الدول الأوروبية إذ نجد «إشارة من المُقّري صاحب نفح الطيب في تأريخ الأندلس الرطيب أنّ لقاءً قد تم بين الخليفة عبد الرحمن الناصر وبين رسول من قبل الألمان، ولكنه لم يذكر فيها تفاصيل حول هذا الموضوع، غير أنّ هناك دراسات استقصائية معاصرة أثبتت قيام سفارة ألمانية الى بلاط السلطان عبد الرحمن الناصر. وأنّ الامبراطور الألماني أوتوالكبير قد أرسل كاهناً يُدعى يوحنا (ويوحنا هوأسقف غورسي Corse) الى الخليفة الناصر كسفير له وكان ذلك سنة ٩٥٦م. وفي مقابل ذلك أرسل الخليفة الناصر الى الإمبراطور الألماني قساً من رعايا النصارى كسفير له عنده»[1]. وتطورت تلك العلاقات وخاصة المعرفية بالشرق بل تطورت كذلك فكرة تَخيُّل الشرق وصياغته أوصنعه فكرياً على يد مجموعة كبيرة من المستشرقين يصح إطلاق عبارة مدرسة الاستشراق الألماني عليهم فمنذ القرن التاسع عشر بدأ الاستشراق بالتخصص الفيلولوجي الدقيق حتى عُرِفَ الاستشراق الألماني أنه أكثر مدارس الاستشراق تخصصاً باللغات واللهجات والدراسات القرآنية والتصوف، ومن أبرز أقطاب تلك المدرسة تيودور نولدكه وبراجستراسر، ولكن المَلمح الأبرز هنا هوبُعد الجانب السياسي عن الاستشراق الألماني وعدم تأثير هذا الاستشراق بالأغراض السياسية والعسكرية وهذا ما يكاد يتفق عليه دارسوهذا الاستشراق، لكونه بعيداً عن تلك المؤثرات وليس كحال الاستشراق الفرنسي أوالأمريكي فيما بعد. ومن الأسباب التي

(١) الموضوعية في الاستشراق، المستشرقة الألمانية آنا ماري شيل ١٩٢٢ - ٢٠٠٣ نموذجاً، د. حسن بن محمد سفر، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد٢، عدده سنة ٢٠٠٥، ص١٩.

تُذكر عن ذلك ونقبلها بتحفظ قول الدكتور محمد الأرناؤوط أنّ «النظام النازي لم يحاول توظيف الاستشراق لعدم تقديره للثقافة الشرقية، بل كان يُفضّل الإعتماد على عملاء في المشرق لتحقيق أهدافه»[1]. لأنه من المعروف أنّ النظام النازي حكم ألمانيا في الربع الثاني من القرن العشرين وأنّ فترة عشرين أوثلاثين سنة لا تعطينا مؤشراً على ذلك، أي لا نستطيع أن نحكم على مدرسة استشراقية عرقية اهتمت بالشرق مئات السنين ودرسته في ضوء فترة حكم النظام النازي. فماذا نقول عن تلك المدرسة وهي تدرس الشرق في القرن التاسع عشر ولم يكن النظام النازي قد وجِدَ بعد؟.

آنا ماري شيمل

ولِدَتْ آنا ماري شيمل بمدينة إيرفورت وسط ألمانيا في ٧/ ٣/ ١٩٢٢ وتُوفيت عن عمرٍ ناهز الثمانين عاماً في مدينة بون في كانون الثاني عام ٢٠٠٣، كان والدها يعمل موظَفاً في البريد، إذ عصفت بألمانيا حربان عالميتان كانت شيمل تعيش أجواء هاتين الحربين، ومع تلك النزعات العسكرية عاصرت شيمل كذلك فترة المد الشيوعي والقومية النازية التي كانت تُمجّد العرق النازي بل واستمرت الفلسفات المعاصرة بالظهور في ألمانيا، وماري شيمل تراقب تلك الأحداث وتعيشها عن كثب، لقد عاشت في عالم فيه التطرف والعرقية والقسوة والحروب والصراعات السياسية والعكسرية والفكرية، لقد عاصرت المدارس الوجودية والظاهراتية التي كانت تترى آنذاك، ولكن شيمل عزمت على تلقي الدروس الخاصة باللغة العربية واللغات السامية الأخرى على يد المستشرق الألماني الدكتور ريتشارد هارتمان.

في الأول من نيسان عام ١٩٤٥ حصلت شيمل على شهادة الدكتوراة، عن رسالتها (بنية الطبقة العسكرية في الحقبة الملوكية المتاخرة) وكانت بإشراف ريتشارد هارتمان وهنريتش سكيدر)، إذ بدأت العمل على تلك الرسالة منذ عام ١٩٤٢. أي في قمة الصراع العسكري والفكري النازي وغيره. وناقشتها قبل سقوط الرايخ الثالث بعدة أسابيع مستغلة توقف القصف، ولكن علاقتها بمصر والشرق لم تكن عابرة إذ أنها

---

(١) الاستشراق الألماني بماذا يَختلفُ عن غيره..، د. محمد الأرناؤوط مقال على صفحات الشبكة المعلوماتية.

كانت قد حصلت على الماجستير في عام ١٩٤١ وكان عمرها ١٩ سنة ورسالتها عن (القضاء والخلافة في مصر الفاطمية والمملوكية).

درست شيمل تأريخ الفن الاسلامي على المستشرق إرنست كونل والدراسات التركية على يد (فون كابلين) وفي بدايات الخمسينيات تَعرَّفَتْ على ابن خلدون فترجمت بعض فصول مقدمته الشهيرة وواصلت دراساتها في الآداب العربية والتركية والفارسية، وحصلت على كرسي الأستاذية في قسم العلوم الإسلامية واللغات الشرقية في جامعة بون وخاصة الشعر الصوفي، وإنّ أول كتاب نُشِرَ لها كان عن شعر جلال الدين الرومي (١٢٠٧ - ١٢٧٣) الذي عشقته شيمل فزارت قبره أكثر من مائة مرة وترجمت أعماله وكتبت عنه العديد من البحوث والدراسات.

حصلت شيمل على شهادة الدكتوراه ثانيةً سنة ١٩٥١ وكانت عن تأريخ الأديان وذلك في كلية اللاهوت بجامعة ماربرغ في (دراسات عن مصطلح الحب الصوفي في التصوف الإسلامي المبكر) وبإشراف المستشرق فردريك هايلر، وحصلت كذلك وللمرة الثالثة على شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٢ في الفلسفة الإسلامية.

أتقنت آنا ماري شيمل اللغات الشرقية (العربية والفارسية والتركية والأُردية والسندية ولغة البشتووالبنجاب) وكذلك اللغات الغربية (الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والهولندية) وفي ضوء هذه المعارف المتعددة واللغات المختلفة أصدرت شيمل أكثر من مائة كتاب، ثمانين منها من تأريخ الشرق والإسلام والتصوف والفكر والشعر وتُرجمت العديد من الكتب من لغاتٍ شرقية الى غربية وبالعكس [1]. وأعمالها عبارة عن قصة حب تعيشها وتكتب عنها وليست هي مُكرهةً عليها، فهي تعيش الشخصية

---

(١) يُنظر حول هذه المعلومات: المنصفون للإسلام في الغرب، د. رجب البنا، دار المعارف، مصر، د. ت، ص١٣-١٥. والهند الإسلامية من الفتح وحتى نهاية عصر السلطنة في دراسات المستشرقين مع التركيز على جهود المستشرقة آنا ماري شيمل أنموذجاً، د. ياسر المشهداني، مجلة التربية والعلم للعلوم الإنسانية والتربوية، جامعة الموصل، كلية التربية، مجلد ١٧، عدد٢، سنة ٢٠١٠، ص٢٤. والاستشراق الألماني وأثره في الثقافة العربية آنا ماري شيمل أنموذجاً، د. سعيد بوفلاقة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، سنة ١٩، عدد ٧٣، سنة ٢٠١١، ص٦٨-٦٩. وسفيرة الشرق، شتيفان فيلد ترجمة خليل الشيخ منشور على شبكة المعلومات الدولية: WWW.MIDDLE-EAST-ONLINE.COM

والحالة التي تريد الكتابة عنها بل وتتشبع بها تماماً حتى لوكانت تكتب عن شيء لا يتَعلَّق بالفكر إذ يقول تلميذها بيرجل مثلاً (كانت شيمل تحب القطط وكُنّا نراها عندما تغادر الجامعة في تركيا بعد إنتهاء المحاضرة تنحني على الأرض لترفع إحدى القطط وتضمّها إلى صدرها، بعد سنوات نشرت شيمل كتاباً بعنوان القطة الشرقية صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ والطبعة الثانية سنة ١٩٨٩»[١].

مؤلفات آنا ماري شيمل

كما ذكرنا سابقاً إنّ لشيمل أكثر من ثمانين كتاباً في الفكر الاسلامي والتصوف فضلاً عن كتب أخرى عن حياتها وشعرها، ولذلك نعتقد أنّ ماذكره الدكتور سعيد بوفلاقة: إنّ مؤلفات شيمل بلغت نحوثلاثين كتاباً هي معلومة غير دقيقة[٢]. إذ ذكرت شيمل نفسها أنها ألفّت أكثر من هذا العدد وذلك في حوار مع الدكتور رجب البنا.

ومن مؤلفاتها:

القضاء والخلافة في مصر الفاطمية والملوكية وهي رسالتها للماجستير

بنية الطبقة العسكرية في مصر في الحقبة المملوكية المتأخرة وهي إطروحتها للدكتوراه.

دراسة عن كتاب (بدائع الزهور في وقائع لابن إياس) سنة ١٩٤٥.

(صوت الناي) مجموعة شعرية سنة ١٩٤٨.

مختارات من مقدمة ابن خلدون (ترجمت من العربية الى الألمانية) سنة ١٩٥١.

مختارات من الشعر العربي المعاصر ١٩٧٥.

تعليم اللغة العربية سنة ١٩٧٥.

الأسماء الاسلامية من علي الى الزهراء سنة ١٩٧٣.

محمد إقبال اللاهوري (ترجمت له عدة دواوين شعرية هي جاويد نامة وجناح جبرائيل ورسالة الشرق وزبور عجم).

جلال الدين الرومي (ترجمت له وكتبت عنه ومنها مختارات من ديوان شمس

---

(١) نقلاً عن المنصفون للإسلام في الغرب، ص١٢.

(٢) يُنظر الاستشراق الألماني، د. سعيد بوفلاقة، ص٩٦.

البتريزي والرومي، وحياة وتراثه جلال الدين الرومي، والشمس المنتصرة، وانظر الى الحب).

(المرأة الشرقية) مجموعة شعرية ٩٩٨.

أدعية ومناجاة إسلامية (ترجمته من العربية الى الألمانية).

محمد رسول الله ﷺ بالألمانية عام ١٩٨١ وبالإنجليزية عام ١٩٨٧.

ديوان شعر (عنادل تحت الثلج) ترجمته للعربية الشاعرة أمل الجبوري ويبدوفيه أثر الحلاّج في شعر شيمل واضحاً.

الأبعاد الصوفية في الإسلام عام١٩٧٤ تُرجم الى العربية والألمانية عام ١٩٨٥ لأنّهُ كان مكتوباً بالإنجليزية.

الوردة والعندليب (في الشعر الصوفي التركي والفارسي).

الشمس الظافرة صدر عام ١٩٧٨ عن شعر جلال الدين الرومي وترجمه الى العربية الدكتور عيسى علي العاكوب بعنوان الشمس المنتصرة.

النجم والزهرة عام ١٩٨٤ (شعر)

كتاب عن الفن الاسلامي وفن الخط العربي.

الحياة والأسطورة وهوكتاب عن الحلاّج.

حدائق المعرفة عام ١٩٨٢.

آخر كتبها (شرق وغرب حياتي الغربية والشرقية) وتَحدَّثت فيه عن سيرتها العلمية والشخصية.

مقدمة في تأريخ الإسلام يتناول سير الحضارة الاسلامية ومراحل انتشار الاسلام في مختلف البلدان ومنها الهند وبلدان جنوب شرق آسيا.

الإسلام في شبه القارة الهندية.

الإسلام في الهند وباكستان.

مراكز الثقافة الإسلامية في الهند.

مناهج التعليم في الهند.

باكستان قصر ذوألف باب صدر عام ١٩٦٥ وتناولت فيه شيمل ماضي الباكستان وحاضرها وكيف كانت موطناً للبوذية والهندوسية ومن ثم دخول الإسلام إليها

وما أحدثه المسلمون من تطور وعمران.

دراسة في الأفكار الدينية للشاعر محمد إقبال وقد اهتمت شيمل بإقبال الأب الروحي للباكستان منذ الخمسينات وتَرجَمت أعماله في عام ١٩٧٧ واختارت مجموعة من شعره وترجمتها الى اللغة الألمانية تحت عنوان رسالة الشرق.

دراسة عن المتصوف الهندي أسد الله الغالب.

دراسة عن إثنين من كُتّاب التصوف الهندي في القرن الثامن عشر في الهند[1].

أحلام الخليفة (الأحلام وتعبيرها في الثقافة الاسلامية).

وغير ذلك من الكتب. التي أوضحنا أنّ عددها تجاوز المائة كتاب. وليست هذه الكتب صغيرة الحجم أوكراسات يُطلق عليها كتب مجازاً بل هي موسوعات كبيرة فمثلاً كتابها الشمس المنتصرة دراسة في آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي يقع في ٨١٦ صفحة في الترجمة العربية التي قام بها الدكتور عيسى علي العاكوب وصدرت في طهران عام ٢٠٠١ وكتابها أحلام الخليفة يقع في ٥١٠ صفحات صدر عن دار الجمل بترجمة حسام الدين جمال بدر ومحي الدين جمال بدر وحارس فهمي شومان ومحمد اسماعيل السيد سنة ٢٠٠٥ وكتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام يقع في ٥١٧ صفحة صدر عن دار الجمل بترجمة محمد اسماعيل السيد ورضا حامد قطب. وكتابها عن الرسول محمد ﷺ يقع بـ٥٠٠ صفحة ترجمه الدكتور عيسى علي العاكوب وصدر في طهران عام ٢٠٠٨.

وهكذا فدراسات شيمل لم تكن مختصرة بل كانت دراسات رائدة. فقد امتلكت قدرةً على الكتابة بمجموعة من اللغات فقد «أخبرت آنا ماري شيمل ذات مرة أحد أصدقائها أن بوسعها كتابة ثلاثين صفحة بالآلة الكاتبة يومياً، بل وأكثر من ذلك إذا اقتضى الأمر»[2].

قامت شيمل بالتدريس في دولٍ عديدة ودرَّست مختلف العلوم كالآداب العربية والفارسية والتركية والهندية والفن الإسلامي والتصوف وفي جامعة أنقرة درَّست

---

(١) عن مؤلفات شيمل انظر: الهند الاسلامية، ص٢٦. والاستشراق الألماني، د. سعيد بوفلاقة، ص٦٩.

(٢) سفيرة الشرق.

العلوم الإسلامية منذ عام ١٩٤٥ بكلية الشريعة وكانت تحاضر باللغة التركية. وعادت الى ألمانيا عام ١٩٦١ فأصبحت أستاذة الأدب العربي في جامعة بون وفي عام ١٩٦٥. وسافرت الى الولايات المتحدة الأمريكية للمشاركة في مؤتمر الأديان في جامعة كالفورنيا فعُرِضَ عليها كرسي الثقافة الاسلامية في الهند في جامعة هافرد الذي أسسه أحد الهنود المسلمين وأوصى بأمواله، لهذا الغرض خدمةً لشعراء الهند وهناك درَّست كذلك مادة الخط الإسلامي وتأثير الخطوط العربية على الفن الأوربي المعاصر، بل وكانت لمدة عشر سنوات مستشارة لشؤون الخط الإسلامي في متحف نيويورك العالمي ومن طلبتها في جامعة هارفرد الأمريكية كانت رئيسة الوزراء الباكستانية السابقة بناظر بوتو، ودرَّست شيمل كذلك في العديد من معاهد وجامعات العالم في لندن والهند والسويد وكانت قد ترأست معهد غوته في بيروت وكانت عضواً في كثيرٍ من الأكاديميات العالمية وعضواً في دائرة المعارف الإسلامية للأديان لذا تُعد واحدة من أهم الباحثات في مجال الاستشراق وخاصة ما يتعلّق منه بالتصوف الإسلامي والتأريخ، ولم يسبق أن لقيت باحثة ألمانية مثل هذا الإهتمام خارج ألمانيا. فأعمالها مترجمة الى العديد من اللغات الشرقية والغربية. بل وأُطلِقَ اسمها على أحد الشوارع المهمة في مدينة لاهور في باكستان[١] وقد قامت أواخر حياتها (بإنشاء مؤسسة خاصة لتقديم المُنح الدراسية للعلماء والطلبة المسلمين بالتعاون مع جامعة بون وفي عام ١٩٩٥ حصلت على أكبر جائزة ثقافية وفكرية في ألمانيا هي جائزة السلام) [٢]وعند استلامها لهذه الجائزة تَعَرَّضت شيمل الى حملة إعلامية كبيرة ظالمة بسبب رأيها الناقد للمرتد سلمان رشدي ففي حفل التكريم قالت إنها تستطيع أن تَتفَّهم لماذا شعر المسلمون بالاستياء من تلك الرواية[٣]

---

(١) يُنظر حول تلك المعلومات: كتاب المنصفون للإسلام في الغرب، ص١٢. والهند الاسلامية، ص٢٤. والاستشراق الألماني، د. سعيد بوفلاقة، ص٦٩. وسفيرة الشرق.

(٢) المنصفون للإسلام في الغرب، ص١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢.

وإجابة عن سؤالٍ وجه لها عن رأيها في الإسلام قالت شيمل: «إنني أحب الإسلام ولولا أنني أحبه ماكتبتُ عنه أكثر من ثمانين كتاباً. وقد وجدتُ فيه دين تسامح وروحانية وتوقفتُ كثيراً عند كلمات القرآن (لا إكراه في الدين) البقرة ٢٥٦. وقد قلتُ لِمَنْ وجهّوا إليّ النقد أنّي أحب الرسول محمداً ﷺ وعندما سألوني عن رأيي في غضب المسلمين بسبب رواية سلمان رشدي آيات شيطانية قُلتُ لقد جرح سلمان رشدي مشاعر المسلمين فتعرّضتُ بسبب كلماتي هذه الى حملةِ اضطهاد شديدة. ولولا أنّ الرئيس الألماني في ذلك الوقت كان يساندني لكانت الذئاب افترستني ولكنني مع ذلك قَضَّيت في هذه المحنة ستة شهور»[1].

وقالت في مقابلة مع تلفاز ألمانيا A.R.D «إنني أعتقد أنّ المسّ بأحاسيس وعواطف جمعٍ عظيم من المؤمنين طريقة سيئة وأنني لا استطيع أن أقبلها، إنني سوف أنتقد هذا الموقف حتى الموت، إن جماعات الضغط المؤيدين لسلمان رشدي لا يستطيعون أن يخيفوني وأنّ القليل فقط في أوربا يعرفون أن رسول الاسلام هومركز الولاء والمحبة لملايين المسلمين وكم هذا الكلام يستثير مشاعرهم وهل يمكن أن يفعل ذلك بآيات الإنجيل؟ وهل كان العالم الغربي يسمح بذلك»[2].

ومما يؤيد إبتعادها عن المسيحية قولها: «لم أدخل كنيسة منذ السادسة عشرة من عمري إلاّ لحضور جنازة صديق أوزواج أُدعى لمراسمه»[3] ويَذكر عنها الدكتور أحمد زكي يماني أنها عندما كانت «تذكر الرسول ﷺ تقول قال حبيبي وقُرّة عيني رسول الله ﷺ ثم تذكر الحديث النبوي الشريف سنداً واتصالاً ومتناً»[4]. ولذا أوصت الدكتور يماني أن يقرأ سورة الفاتحة على قبرها بالعربية يوم دفنها[5].

وهكذا وجدت الدكتورة آنا ماري شيمل في الإسلام مالم تجده في الغرب وفي

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨.

(٢) يُنظر صادق العبادي آنا ماري شيمل السفير الثقافي بين الشرق والغرب، مقال منشور في مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣٢٢، ربيع الثاني، ١٤٢٤، يونيو٢٠٠٣، ص١١٩.

(٣) أحمد زكي يماني، جريدة عكاظ، العدد ١٣٣٠٧ في ٢٩/ ١١/ ١٤٢٣هـ ١/ ٢/ ٢٠٠٣م، ص٣١.

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) شتيفان فيلد – سفير الشرق.

ألمانيا النازية فقد «ربطت شيمل اهتماماتها العلمية بالتصوف وبتحليل العلاقة بين الله والإنسان جواباً على ما تميزّت به النازية من قسوةٍ وعنف»[1]. وحاولت اكتشاف ذاتها عبر التصوف والشرق الروحي فهي رحلة كشف إذن وحياة متصوفة رأت أن الخلاص يتحقق في الفناء في الذات الإلهية وليست كما رأى «هنري كوربان أن التصوف الإسلامي ليس سوى عودة الى عقيدة التثليث المسيحية وما رآه ماسينيون أن التصوف الإسلامي نتاج الفلسفات الفارسية»[2].

قراءة المستشرقة آنا ماري شيمل لسيرة الرسول ﷺ

في عام ١٩٨١ أصدرت شيمل كتابها «وأنّ محمداً رسول الله» وأعادت طبعه عام ١٩٨٧ وترجمه الى العربية الدكتور عيسى علي العاكوب عام ٢٠٠٨، ومن عنوان الكتاب يتضح أنه الشطر الثاني من شهادة المسلم، فالمسلم يقول أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وبهذا فهي قد شهدت بوحدانية اللّه سابقاً عبر دراستها للتصوف الاسلامي والعرفان ولذلك بَقيَ الشطر الثاني من شهادة الإسلام الذي جعلته عنواناً لكتابها عن الرسول محمد ﷺ.

يتألّف الكتاب من إثني عشرَ فصلاً هي:

الفصل الأول: ملاحظات حول السيرة

الفصل الثاني: محمد الأسوة الحسنة

أدب الشمائل والدلائل

الجمال المادي للنبي

الجمال الروحي للنبي

الفصل الثالث: المنزلة الفذّة لمحمد

الفصل الرابع: أساطير ومعجزات

الفصل الخامس: محمد الشفيع والصلاةُ عليه

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المنصفون للإسلام في الغرب، ص٣٠.

الفصل السادس: أسماء النبي

الفصل السابع: نورُ محمد والتقليد الصوفي

الفصل الثامن: الاحتفال بيوم ميلاد النبي

الفصل التاسع: إسراء النبي ومعراجه

الفصل العاشر: الشعر في مدح النبي

التقليد العربي

شوق الشعراء الى المدينة

شوق النعتية في التقليد الفارسي والشعبي

الفصل الحادي عشر: الطريقة المحمدية والتفسير الجديد لحياة النبي

الفصل الثاني عشر: النبي محمد في آثار محمد إقبال

ملحق: الأسماء المباركة للنبي

أعتقد أنّ هذا الكتاب يأتي متزامناً مع مرحلة توجيه مجموعة إساءات للنبي ﷺ عرفها العالم وخاصة رواية سلمان رشدي والطبعة الثانية للكتاب، وهي الطبعة الإنجليزية نشرتها المؤلفة «على نحوٍ متزامن في باكستان بتنسيق خاص مع مطبعة جامعة نورث كارولينا الأمريكية سنة ١٩٨٧»[١]

في مدخل الكتاب وبعد أربع صفحات فقط تقول شيمل: «في أوربا حيث فُهِمَ محمد أحياناً على أنّه عابد أوثان أومحوَّل الى مهاوند Mahavnd روح الظلام»[٢]وفي لقاء معها تعيد ذكر هذا الموضوع إذ تقول كذلك «والإساءة الى الإسلام كانت شائعة في القرون الوسطى ويظهر ذلك في الشعر الفرنسي من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر. كما يظهر في الأدب الإنجليزي والاسكتلندي حتى أنهم حرّفوا اسم النبي محمد الى Mahovnd وهواسم يتكَوَّن من مقطعين والمقطع الثاني hovnd

(١) مقدمة المترجم، د. عيسى علي العاكوب، ص٧.

(٢) كتاب إن محمداً رسول الله، ص٢٧.

يعني كلب. وفي نصوص أخرى نجد أنّ اسم النبي محمد ﷺ تحوّل الى اسم معناه الشيطان وحتى في الأشعار الألمانية الرومانسية سنة ١٨٠١ نجد اسم محمد ﷺ قد تحوّل الى Mahom ماحوم»[١].

كلامها هذا يأتي كما قُلنا في مدخل الكتاب ونعتقد أنه بطريقة أوبأخرى محاولة للرد على فكرة المرتد سلمان رشدي الذي جعل من شخصية ماهاوند الشخصية المهمة أوالرئيسة في روايته آيات شيطانية، بل وعنواناً للفصل الثاني من الرواية. وهذا يؤكد لنا أن كتاب شيمل يأتي ضمن سياق الرد على الإساءات للنبي محمد ﷺ ولكنها لم تحدد شخصية سلمان رشدي هنا عندما ترد.

في الفصل الثاني من الكتاب وهومحمد الأسوة الحسنة تتحّدث عن طيب عطر النبي ﷺ وعبير شذاه وتستذكر أجمل القصائد الصوفية لجلال الدين الرومي:

جذرُ الورد وفرعُه هما عرقُ المصطفى الطيب

وبقوته يصيرُ هلالُ الوردةِ الآن بدرا

وهكذا يغدوعندها النبي ﷺ الأصل لكل كمال بشري[٢]

وفي الفصل ذاته تقارن بين قميص النبي يوسف ﵇ وقميص النبي محمّد ﷺ الذي أهداه الى شخصٍ باعه ليهودي أعمى فالأول عاش بثمنه واليهودي قد شُفي من العمى فاعتنق الإسلامَ وكذلك قميص يوسف ﵇ الذي كان سبباً في شفاء عمى والده ورجع إليه بصرتّه بمجرد وصول القميص اليه. وتذكر من الشعر السندي قصيدة رائعة حول تلك الفكرة[٣].

إنّ الشعر الذي تناولته شيمل أغلبه كان فارسياً وهندياً وسندياً وأُردياً وتركياً وكان نصيب الشعر العربي قليلاً جداً. ولكنها كانت متذوقة للشعر. فقصة نعل النبي محمد ﷺ الذي عَرَج به والذي لم يخلعه كما هوالحال مع موسى ﵇ الذي خلع نعليه لأنه وصل الى الوادي المقدس. وأن العاشق المُتيم بحب النبي ﷺ يؤمِّل أن يلمس خده ذلك النعل، فاختارت شيمل هذه المرة قصيدةً لشاعرةٍ أندلسية هي سعدونة الحميرية

---

(١) المنصفون للإسلام، ص٢٥.

(٢) يُنظر إن محمداً رسول الله، ص٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٢.

١٢٤٢ م تقول عن هذا النعل.

سألثُمُ التمثالَ إذ لم أجد لِلثم نَعل المصطفى من سبيلِ لعلّني أحضى بتقبيله في جنّة الفردوس أسنى سبيل وأمسحُ القلبَ به عَلَّهُ يُسكِنُ ماجاش به من غليل [1]

هذا الجمال الذي تذوقْته شيمل عن وصف نعل النبي ﷺ أين منه مَنْ يقتل ذرية ذلك النبي ﷺ لقد هام الشعراء بعطر الرسول وبقميصه ونعله، وغيرهم كانت مشاهد الدم تروي عيون الحاقدين فقلوبهم صدية خاوية عاجزة عن الجمال بل وغيرهم يطمس معالم الرسول وآله.

وتذكر شيمل أنّ المؤرخ المقّري ت ١٦٤٤ م كرّس كتاباً ضخماً لموضوع نعلي النبي ﷺ هوكتابه (فتح المُتعال في مدح النِعال)، وهي لاتنسى كذلك الحديث عن آثار قدم النبي ﷺ. لِمَ لا وقد ذُكر في السِيَر أن أحد القساوسة عندما التقى ركب السبايا من أهل البيت عليهم السلام وهم مكبّلون وذاهبون الى الشام قال لهم القس مَنْ أنتم؟ قالوا: نحن آل الرسول ﷺ قال إن لنا أثراً لحافر حمار عيسى نزوره وأنتم تقتلون عترته، فوضع رأس الحسين عليه السلام في حجره وبات معه.

وفي هذا الفصل تَتحدَّث شيمل عن الطب النبوي والدعاء النبوي والشفاء بذكر النبي ﷺ.

والفصل الثالث عنوانه (المنزلة الفذّة لمحمد)

تَحدّث شيمل عن كشوفات النبي ﷺ وإزالة الحُجب عنه تدريجياً وأنه مَرَّ بمراحلَ عديدة من الكشف والذوق والصراع وترويض الغرائز والرغائب حتى وصل الى الكمال الروحي ورغم ذلك فهويقول (ما عرفناك حَقَّ معرفتك) فهوالنموالدائم والكدح المتقدّم تجاه المقام الآلهي «هوالذي يشكلّ عند مولانا جلال الدين الرومي البرهان الحقيقي على تفوق محمد على الآخرين فعندما سأل شمسُ تبريز لماذا لم يكن بايزيد البسطامي الذي هتف سُبحاني أعظمُ من محمد الذي إعترفَ للحق قائلاً ما عرفناك حق معرفتك أجاب مولانا الرومي بأنّ بايزيد قد وقف في مقام عَدَّ فيه نفسه ممتلئاً باللّه بين النبي ﷺ رأي كُلَّ يوم أكثر وتقدَّم في القُرب الإلهي وكاَن عالماً أن لا

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٣.

أحدَ أبداً في وسعه أن يعرف تماماً عظمة الحق»[1].

هذه المعرفة والكشف والقُرب من الحضرة الإلهية والكدح الى الرب جعلت من النبي ﷺ يتفوّق على غيره من الأنبياء إذ «أن الأنبياء السابقين جميعاً لم يكونوا إلاّ مظاهر جزئية لنور محمد التي أصبحت شائعة جداً في الاتجاهات الصوفية بتأثير ابن عربي ويتغنّى جامي وهونصيرٌ كبير لهذه الفكرة شعرياً بعظمة محمد مقارنةً بالأنبياء الآخرين، بينما مسَّ سليمان عرشَ ملكة سبأ بيده ومسَّتْ قدمُ النبي ذروة العرش، وخدمه جبريل وكما خدم الهُدهُد سُليمان»[2].

ومقارنة أخرى جميلة اتخذها الصوفيون والعُرفاء تَتحدَّث عنها شيمل، فلكلمة أمِّي أي النبي الأمي تعني هنا عند الصوفية الطهارة من كل شيء بل من كل فكرةٍ مسبقة بل تعني الطهارة الروحية والعقلية فقلبه وعقله وعاءٌ نظيف وطاهر لنقل الوحي مثال ذلك طهارة مريم عليها السلام «ومثلما أن مريم ينبغي أن تكون عذراء لكي تستطيع أن تحمل بطهارة الكلمة الإلهية الى تجسيدها لابد من أن يكون محمد أُمياً لكي يحدث تنزيلُ الكلام الإلهي في الكتاب من دون تدخّل فعاليته العقلية بوصفه فعلاً من أفعال الفضل الصرف»[3] وهذا يذكر بكلمة مريم (أنى يكون لي غلامٌ ولم يمسّسني بشرٌ) أي يمسّ مشاعري وعقلي بشر فهي أرادت نفي المسّ العقلي بل أنه لم يمسّ خيالها بشرٌ فمن باب أولى أنه لم يلمسها بشر. وهكذا فالطهارة والعفّة متحققة جسداً وروحاً وخيالاً.

وفي الفصل السادس عن (أسماء النبي)

تتحدث شيمل عن قدسية اسم الرسول محمد ﷺ وأن مجموعات من المسلمين لم تطلق اسم محمد على أحدٍ من أبنائها بل غيّرت من هذا الاسم قليلاً كي لا يختلط في ذلك الإساءة للشخص المُسمّى بأسم النبي ﷺ وتتجاوز تلك الإساءة إلى النبي ﷺ لفظاً، فلجأت مجموعة من المسلمين إلى طرق «تَمثَّلت في إضافة كلمة تشريف إذا ما قَصِدَ النبي مثل سيدنا أوسيدي أوحضرت أُودائماً إضافة التصلية عند ذكره

---

(1) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(2) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(3) المصدر نفسه، ص١١٥.

أوفقط التحدّث عنه بوصفه النبي الكريم وكان ثمة طريقة أخرى لحل هذه المشكلة وذلك بنطق الأحرف الساكنة في اسمه م ح م د بتلفظٍ مختلف عند استخدامها في إنسان عادي، هكذا يجد المرء في مراكش أسماء مثل مِحَمَّد أومَحَمَّد أوفقط مُح واختصارات مماثلة. وفي غربي إفريقيا تُستخدم صورٌ من هذا الاسم مثل مَمادووفي تركية كانت طريقة التلفظ هكذا (مِهمِت) مقبولة على الجملة في الاستخدام الشخصي وقُصِرت الصيغة الصحيحة مُحَمَّد على النبي ﷺ [1]. ونحن في العراق مثلاً نطلق على إحدى القبائل العريقة عشائر البومْحِمَد بكسر الحاء وفتح الميم الثانية، وكذلك الحال في مصر يقولون مَحَمَد بالفتح للميم والحاء والميم.

ولكن للصوفية تأويلاتٌ أخرى فمن «بين الشعراء الفُرس الأوائل كان نظّامي أكثر بلاغة في تفسير اسم أحمد.

أحمد: أليس أحمدُ.

مستقيماً كالألف في الوفاء والعهد

الأول والآخر في الأنبياء؟

وهذه توريةٌ لطيفةٌ جداً ذلك لأن كلمة أنبياء تبدأ وتنتهي بالألف الحرف الأول من أحمد وهكذا يؤكد دور أحمد الثنائي حتى في قضية صرفية»[2].

ولكن لفريد الدين العطار تأويلٌ جميل آخر إذ يقول:

«بدا شُعاع نور التجلّي غاب ميمُ أحمد أي إنه لم يبقَ إلاّ الله أحد»[3]

ولحذف الميم كما ورد تأويلٌ ولوجودها تأويل إذ تقول شيمل «وفي النظام الحسابي العربي هذا الحرف له قيمة ٤٠ وهورقم الصبر والنضج والابتلاء والإعداد، ظَلَّ بنوإسرائيل أربعين سنة في الصحراء وأمضى عيسى ﷺ أربعين يوماً في الصحراء وكان محمد ﷺ في سن الأربعين عندما جاءت دعوته، أيام الصوم الكبير الأربعون، أيام الخلوة الأربعون عند الصوفية.... وفي التأملات الصوفية الإسلامية يُشير العدد ٤٠ أكثر من ذلك إلى الأربعين خطوة التي يكون على الإنسان أن يجتازها في طريق

(١) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٣) المصدر نفسه، ص١٧٨.

عودته إلى أصله وذلك موضوع فصّله فريد الدين العطار في كتاب مصيبت نامة... وأن كل زيادة على الكمال نقصٌ الـ (أحدُ) كاملٌ وأحمدُ لمّا يصل إلى حد الكمال عندما يُزالُ الميم يغدوكمالاً كاملاً.»[1]، لِمَ لا والميم هوميم محمد وهوقافية البوصيري في قصيدته لمدح النبي ﷺ بل هي القافية لمعظم معارضات المدائح النبوية لِمَ لا وهوالحرف الأول الذي ينطقه الطفل عند التكلّم، عندما يقول (ماما) لِمَ لا وهوالحرف الذي وقف عليه نطق هارون عليه السلام أخ موسى عليه السلام عندما قال: (يا أبن أُمِ) وليس (يا أبن أمي).

والفصل السابع (نورمحمد والتقليد الصوفي)

قد نستذكر الميم مرةً أخرى بكلمة خاتم وهوأحد أسماء النبي ﷺ وينتهي بالميم فالختم هنا والخاتم هوحجرٌ «يحمل النقش به الملك صناديق كنوزه، إن الإشارات الكثيرة إلى القلب بوصفه الخاتم الذي تتكرر في الآداب الإسلامية في القرون التي أعقبت تأليف ابن عربي كتابه في موضوع علم النبوة (فُصوص الحكم) يمكن أن تكون تقريباً مُستَلهمة من هذا الكتاب الذي تتضح في عنوانه رمزيةُ الختم»[2].

والفصل الثامن كان عن إسراء النبي ﷺ ومعراجه

هذا الحادث الذي افتُتِحَتْ به سورة الإسراء بل هوالدعاء الجميل الموسيقي «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»عَبَّرت عنه الألف الطويلة في كلمة الأقصى التي تأتي في جميع الكتابات بالأقصى بالألف المقصورة مشيرةً إلى الأعلى والمقام الإلهيّ الجميل ولكن أين نحن من تأويلنا هذا مع شعراء الصوفية إذ تقول شيمل: «وَلعلَّ الوصف الأكثر إحكاماً للحادثة قدّمه شاعرٌ هندي - فارسي من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي هوجمالي كنبوة ﷺamali Kanboh الذي يلخص هذا السرّ في دوبيتٍ شهير.

خرج موسى من عقله بتجلٍ واحدٍ للصفات

(١) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

وأنت ترى جوهر الذات وتظلُ تبتسمُ»[1].

هذه مقارنة أخرى تُضاف إلى ما سبق من مقارنات مع النبي ﷺ مثل مريم وسليمان وموسى عليهم السلام، فصفة الكلام الإلهي التي تجلَّت لموسى عليه السلام جعلته يخر صعقاً وخَلَعَ نعليه عند دخوله الوادي المقدس، ولكن تجلّي الذات الإلهية كلها والوصول الى سدرة المنتهى بل قاب قوسين أوأدنى جعلت النبي ﷺ يقول ما عرفناك حق معرفتك، وبما أن الذات الإلهية لا يحيطها مكان ولا سماء ولا أرض فقد يكون التجلّي ليس مكانياً أي العروج ليس إلى الأعلى، وهوما يتعارف عليه الصوفية لأنّ الحق لا يخلومنه مكان ولا يحويه مكان بل هومع العبد لذلك فالصوفية «كثيراً ما أعادوا فكرة أنه لا يمكن أن يكون هنا معراجٌ بالمعنى المكاني لأن الحق كُلّي الوجود... هذا التفسير الصوفي الحقيقي للمعراج وجد تعبيره الأقوى في رباعية للصوفي الفارسي الذي نِيلَ منه كثيراً سَرمَد، الذي أُعدِمَ بسبب الإبتداع في دلهي سنة ١٦٦١م.

يقول الشيخ إنّ أحمد صَعِدَ إلى السماء.

ويقول سرمد إنّ السماء نزلت إلى أحمد»[2].

الفصل التاسع (الشعرُ في مدح النبي)

يتميّز الشعر المدائحي بموسيقاه الجميلة والسَلِسة والقوافي المُنتقاة ليس في العربية وحدها بل في معظم اللغات فمن «الشعراء المسلمين في القرون الوسطى الذين لم يكونوا حصراً مدّاحين أوصوفية كان سعدي ت ١٢٩٢ م دائماً مُحبباً عند القُرّاء الفرس بسبب لغته الأنيقة الواضحة الشفافة وبرغم أنّ عدد قصائده النعتية ضئيل نسبياً. يدين له الأدب الفارسي بواحدةٍ من قصائده الأكثر إنشاداً وقراءة وهي محبوبة جداً في الهند وهي موجودةٌ في القسم التمهيدي من مثنويه الذي يحمل عنوان بُستان وتتغنّى بالنبي بكلماتٍ بسيطة وجميلة وعلى وزن البحر المتقارب البسيط جداً والسهل التذكّر وهنا يظهر النبي هكذا.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٦.

قسيمٌ جسيمٌ بسيمٌ وسيم»[1].

وغالباً ما ترتبط المدائح النبوية بالتقاليد الموسيقية عند الشعوب فضلاً عن الإيقاع الموسيقي الذي تتميز به تلك القصائد والروح الغنائية العالية فيها وفي «الهند والباكستان على المرء أن يتذكّر أيضاً في هذه المنطقة كان تقليد الموسيقا الدينية نشيطاً جداً، ولذلك فإن معظم القصائد في مدح النبي قابلةٌ للغناء أي أنها تمتلك خاصية إيقاعية قوية وقوافٍ بسيطة نسبياً وكثيراً ما تُعاد مثل ابتهال. وكثيرٌ منها يستخدمُ مجانسةً استهلالية في اللازمة يبدوفيها حرفُ الميم الحرف الأول من محمد يلعب دوراً مهماً جداً»[2].

الفصل العاشر كان عن الطريقة المحمدية والتفسير الجديد لحياة النبي

تناولت شيمل فيه قراءات المحدثين لسيرة النبي ﷺ وهي ليست ككتب السيرة السابقة التي ركّزت على الجانب الشخصي والعبادي للنبي ﷺ بل تناولت هذه القراءات المعاصرة (التي عرضت لها شيمل) الجانب السياسي والفكري والحضاري للدعوة المحمدية وأثرها في الفكر المعاصر إذ «نما التأليف حول محمد بإطراد وأُلفت كتبٌ حول حياته في الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين أكثر مما أُلف في القرون السابقة كلها ومهما يكن فإنّ كتباً صوفية أودينية أُلّفت الشطر الأعظم من التأليف الديني في القرون الوسطى وما قبل الأعصر الحديثة. لم تعد على قدر كبير من الشهرة وما تزال كذلك أما الاهتمام الجديد بالنبي النشيط والفعّال سياسياً والموثوق به إجتماعياً فقد وجد تعبير حتى في الشعر»[3].

وهذه الكتب المؤلفة عن النبي ﷺ تمثل غتجاهاً آخر للفكر المعاصر والذين كتبوها ليس لهم علاقة بالدراسات الدينية التقليدية مثل طه حسين (على هامش

(١) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٨.

السيرة) وغيره وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل (حياة محمد) وتوفيق الحكيم وفتحي رضوان الذي كتب (إمام الإشتراكية) ومحمد شلبي (إشتراكية محمد) وعبد الرحمن الشرقاوي الذي كتب بعقليته اليسارية (محمد رسول الحرية) وعباس محمود العقاد (عبقرية محمد) وهكذا، فهي قراءات لشخصية النبي ﷺ الإجتماعية والسياسية «وكل كاتب حداثي يرى في النبي الحبيب التحقق المثالي لتلك الصفات التي يحسب هونفسه أنها أسمى وأكثر ضرورة في العالم. وصورة النبي المتعددة الألوان التي تنبثق هكذا تعتمد الخيوط الأكثر تنوعاً للتقليد الممتد لقرونٍ وتترجم مديح (خير البرية) في لغة حديثة»[1].

الفصل الحادي عشر (النبي محمد ﷺ في آثار محمد إقبال)

فمحمد إقبال الذي أكمل دراساته في الفلسفة والقانون تعرّف على ألمانيا عام ١٩٠٧ وأُعجب «بغوته الذي تؤلف أعماله لدى إقبال اسمى تجلٍّ للشعر المُبدع ومن حيث هنا يمكن فهم أنه شَعَرَ بانجذاب كبير إلى شخصية فاوست الإنسان المناضل دائماً الباحث عن تحقيق الذات والى الديوان الشرقي وفي سنة ١٩٢٣ أَلَّف إقبال رسالة الشرق إجابةً فارسية للديوان الشرقي»[2].

ولكن إقبال غير المُتطرّف الذي أحب النبي ﷺ وعلي عليه السلام معاً والذي كان يُنشد[3]:

أنا ابنُ المدينة وابنُ النجف ... غبـارهما كان في مقلتي
غبارهما قطرةٌ للـعيون ... وأنفع طِبّ لذي عِلَّـة

وجد أن وحدة الأمة الاسلامية، هي في هجرتها الطائفية والعشائرية والعرقية وهوما ننشده الآن جميعاً لذلك «فاختيار الهجرة بدايةً للتوقيت الاسلامي كان في إدراك إقبال دال دلالة عميقة: لوقَبِلَ المكّيون سريعاً لرسالة محمد ﷺ لكانت مسيرةُ التأريخ مختلفة بقطع روابط العائلة والعشيرة أراد النبي أن يُقدّم مثالاً للأجيال القادمة...

(١) المصدر نفسه، ص٣٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤٩.

وهكذا فالتوترات القومية المتزايدة التي شهدها وهوطالبٌ في إنجلترا وألمانيا من ١٩٠٥ - ١٩٠٨ ثم أصبحت عاملاً خطيراً جداً في سياسة الشرق الأدنى بعد الحرب العالمية الثانية أغرقت إقبالاً منذ وقتٍ مبكر بصياغة موقفٍ غير منسجم مع القومية السياسية الضّيقة.

إن الوطن شيءٌ مختلفٌ في التعاليم الصحيحة للنبي والوطن شيءٌ مختلفٌ في كلمات الساســـة، ولذلك لم يتوقف عن ترديد أنّ الاسلام معارضٌ للعِرقية. والحق وأن أعظم معجزة تحققت للنبي تَمثلَّت في بناء أمةٍ متحدة روحياً»[1].

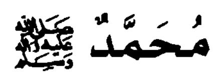
ما أحوجنا الآن الى أن نكون أمة متحدة روحياً وليست متفرقة عِرقياً وعشائرياً وطائفياً وجغرافياً و...

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٦٣.

التعايش السلمي

في سيرة النبي الأكرم



أ. د. ساجت أحميد عبل الركابي

كلية القانون والسياسة - جامعة البصرة

الأستاذ الدكتور ساجت أحميد عبل الركابي
كلية القانون والسياسة
جامعة البصرة

التولد-البصرة-١٩٦٢

الشهادة-دكتوراه

التخصص العام-علوم سياسية

التخصص الدقيق-نظم سياسية ودستورية

اللقب العلمي-استاذ

مكان العمل-كلية القانون والسياسة-جامعة البصرة

النشاطات العلمية:

١: كتاب (موقف الاسلام من الارهاب) (٢٠٠٦)

٢: كتاب (ادارة الصراع في المجتمع التعددي.انموذج العراق) (٢٠١٢)

٣: بحوث ودراسات علمية وعددها ٤٨ بحث نشرت داخل وخارج العراق

٤: مشاركة في مؤتمرات علمية داخل العراق وخارجه

المناصب الادارية والعلمية:

رئيس قسم القانون العام- معاون العميد الاداري- عميد الكلية (٢٠٠٧-٢٠٠٨).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطاهرين وأصحابه الميامين... وبعد.

فإن التعايش السلمي من ضرورات الوجود الإنساني اليوم، إذ أن معظم المجتمعات، ومنها مجتمعنا، تضم عناصر وقوميات وأديان وطوائف مختلفة يعيشون ضمن حيز جغرافي معين، تجمعهم أواصر الحياة المشتركة والمصالح والمنافع المختلفة ويسعون إلى الأمن والسلام ويرغبون في العدل والمساواة والحياة الرغيدة، إلا أن ذلك لم يتحصل بسهولة ويسر فتطغى المصالح الفردية والأنانية، وتظهر النعرات العنصرية والانتماءات الدينية والمذهبية وتزداد الخلافات التي تؤدي إلى التناحر والنزاع في أحيان كثيرة لهذا فإن التعايش السلمي أوروح المواطنة أوالسلم الأهلي هوالعنصر الذي يتوقف على وجوده نماء المجتمع واستقراره.

التعايش يعني الوجود المشترك لفئتين أوأكثر مختلفة ومتناقضة في محيط واحد ويكون سلمياً إذا ما تعايشت تلك الفئات جنباً إلى جنب دون اعتداء إحداها على الأخرى، وهوالمفهوم العملي للتعايش السلمي، أما القول تعايشوا الناس، فيعني عاشوا على الألفة والمودة، إن السمة الرئيسة في (التعايش) هوالعلاقة بالآخرين والاعتراف بوجودهم، وتعني العيش المشترك والقبول بالتنوع بما يضمن وجود علاقة ايجابية مع الآخر(١).

عُرف الإسلام بسماحته وعدله ورحمته للناس جميعاً، واحترمت مبادئه كرامة الإنسان وحقوقه، سواء أكان مسلماً أم كان من اتباع الديانات الأخرى أم كان مشركاً أوكافراً، عربياً أم أعجمياً، لذلك انتشر الإسلام بين شعوب وأجناس مختلفة فخفف

---

(١). كومار ربسنكة: ما هوالتعايش، ترجمة ذاكر آل حبيل، Kalema.net.

من وطأة همجيتها واعتبرها أمة واحدة(١).

فجاءت شريعته السمحاء بنصوص صريحة تقرر المساواة وتفرضها، فالقرآن يقرر المساواة ويفرضها على الناس جميعاً كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (٢).

وبذلك ساوى الإسلام بين الناس جميعاً دون تفريق على أساس العنصر والجنس واللون وكلهم خُلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا، لا ليتناحروا ويتدابروا ليزيل كل أسباب النزاعات العنصرية والجنسية بتقرير وحدة الإنسانية لينتفع الناس بعضهم ببعض[٣].

وهذا ما أكده الرسول الكريم ﷺ بقوله: (الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)، وقوله ﷺ: (إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لأن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم) [٤]، بهذا تفوق الإسلام على معظم الأديان، فهويوصي بالأخوة بين جميع الأجناس، والألوان والأمم ضمن رحابه[٥]، ويدعوإلى التعاون والبر والعدل كما في قوله تعالى: (لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [٦]، وهذا هوجوهر التعايش السلمي، الذي جسده الرسول الكريم منذ بدء الرسالة السماوية حتى إقامته دولة الإسلام وانتشار الدين الحنيف، لقد أسس النبي الكريم ﷺ نظاماً عاماً أساسه التعايش السلمي في المدينة، إذ وجد فيها مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والعقيدة والانتماء القبلي والعشائري، ومن حيث نمط المعيشة، كان في المدينة، المهاجرين من قريش والمسلمون من الأوس والخزرج والوثنيون من الأوس والخزرج واليهود من

---

(١). أجناس جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة د. محمد يوسف موسى، وآخرون، دار الكتب الحديثة بمصر، ص٢٧.

(٢). سورة الحجرات/ الآية ١٣.

(٣). د. محمد سلام مدكور، المدخل للفقه الإسلامي، دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٠، ص٢١.

(٤). عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، الجزء الأول، دار العروبة، القاهرة، ط/ ٣، ١٩٦٣، ص٢٦.

(٥). د. جيمس ميشينر، دفاع عن الإسلام، ترجمة محمود شبيب، دار الأنوار، بغداد، ١٩٧٦، ص٣٠.

(٦). سورة الممتحنة/ الآية ٨.

القبيلتين وقبائل اليهود الثلاثة، بنوقينقاع، وبنوالنضير، وبنوقريظة، والأعراب الذين يساكنون أهل يثرب والموالي والعبيد وغيرهم.

هذه العناصر تتوزع في أعمالها على التجارة والصناعة والزراعة والرعي والصيد والاحتطاب وكانت تسكن على هيئة قرى أوآطام[1]، أوحصون تحيط بها البساتين والأراضي المزروعة يدخلون حصونهم بعد حلول الظلام يحرسون منازلهم خوف العدووالغارة.

كان لكل عشيرة زعامة تقوم على رعاية شؤونها وضمان عيشها، والحالة العامة في المدينة كانت قائمة على تحكم النظام العشائري وأعراف القبائل السائدة مع شيوع الجهل والأمية لدى معظم سكان يثرب بينما كان أهل الكتاب أهل علم ودين ولكنهم يمارسون الربا واستغلال التجارة ويعملون على إثارة النزاعات بين الأوس والخزرج ليتمكنوا من ضمان سيادتهم ومصالحهم وسلامتهم[2].

هذا المجتمع المتنوع، بين الدين الإسلامي وبين دين أهل الكتاب وبين الوثنية وبين العشائرية؛ فهم من قريش، وبني عوف، وبني الحارث، وبني ثعلبة، وبني النِّبيت، بني ساعدة، وبني جُشم، وبني، النجار، بني عمروبن عوف، بني الأوس، وغيرهم، حكمه النبي الأكرم ﷺ. فكيف وفق النبي ﷺ بين هذه الانتماءات الدينية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة، وكيف ألَّف بينهم ووضع نظاماً يشملهم جميعاً ويوحدهم؟[3]، وكيف أصبح هذا النظام عاماً شاملاً للأمم والشعوب التي استظلت بالإسلام فأصبح إنموذجاً متكاملاً وشاملاً للتعايش السلمي الحقيقي؟

اعتمد أنموذج التعايش السلمي النبوي على ركائز وأسس الدين الحنيف ومبادئه السمحاء المتمثلة بالعدل والمساواة والرحمة والتسامح، فضلاً عن شخصية النبي الأكرم ﷺ المتكاملة وسماحة أخلاقه السامية والمثالية، فضلاً عن أسس ومبادئ

---

(١). آطام وأطوم (جمع) والمفرد الأطم، الحصن أوالبيت المرتفع. كان عدد الآطام أوالأطوم في المدينة (٥٩). د. محمد راتب النابلسي، مفهوم التعايش السلمي، موسوعة النابلسي الإسلامية، www.nabulsi.com.

(٢). المصدر السابق.

(٣). في السنة الأولى للهجرة (٦٢٣م) وضع النبي الأكرم ﷺ وثيقة المدينة (معاهدة المدينة) والتي تعتبر أول دستور مدني في التاريخ.

التعايش السلمي التي اعتمدها، والشواهد النبوية للتعايش السلمي والتي كانت التطبيق العملي لشخصه الكريم ومبادئه وأخلاقه وهي امتداد لمبادئ وأخلاق الإسلام باعتباره دين سلام للإنسانية جمعاء.

على هذا النحو، اشتملت الدراسة ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخُلُق الكريم للنبي الأكرم ﷺ

المبحث الثاني: أسس وقواعد التعايش السلمي النبوية.

المبحث الثالث: الشواهد النبوية في التعايش السلمي.

المبحث الأول

الخُلُق الكريم للنبي الأكرم ﷺ

لم تشهد البشرية إنساناً اكتملت فيه الصفات والأخلاق النبيلة مثلماً اكتملت في النبي الأكرم محمد ﷺ، وقد قال فيه الله سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) [1]، والخُلُق هو الملكة النفسية التي تصدر عن الأفعال، وينقسم إلى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجُبن، وإذا أُطلق فُهم منه الخُلُق الحسن.

إن الآية الكريمة تمدح خُلُقه ﷺ وتُعظّمه، غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفووالإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك[2]، وخُلُق النبي ﷺ العظيم جعله أسوة حسنة وقدوة للإنسانية، مصداق ذلك قول الله سبحانه وتعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَان يَرْجُواللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [3]، والمعنى: ومن حُكم رسالة الرسول وإيمانكم به أن تتأسوا به في قوله وفعله وأنتم ترون ما يقاسيه في جَنْبُ الله وحضوره في القتال وجهاده في الله حق جهاده[4].

(١). سورة القلم/ الآية ٤.

(٢). محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ج١٠، ص٣٦٩.

(٣). سورة الأحزاب/ الآية ٢١.

(٤). الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٦، ص٢٨٨.

لذلك كله، أرسله الله رحمةً للعالمين، وفيه قال جل وعلا: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [1]، أي أنك رحمة مرسلة إلى الجماعات البشرية كلها، وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين في الأخذ به سعادة أهل الدنيا في دنياهم وأخراهم، وهو ﷺ رحمة لأهل الدُنيا من حيث الآثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحقة في مجتمعاتهم مما يظهر ظهوراً بالغاً بقياس الحياة العامة البشرية اليوم إلى ما قبل بعثته ﷺ وتطبيق إحدى الحياتين على الأخرى[2].

والآية الكريمة تدل أيضاً، على أن النبي ﷺ نعمة عليهم، الناس، فهورحمة للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فهورحمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر بأن عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والمسخ[3].

إن هذه الصفات الإنسانية والأخلاق الكريمة للنبي الأكرم محمد ﷺ لا تُعد ولا تُحصى، وتلمس بعضها للاستدلال على فكرة التعايش السلمي وحقيقتها في أقوال وأفعال الرسول ﷺ والتي جسدها من خلال تعامله مع الناس كافة، المسلمين والمشركين وأتباع الديانات الأخرى، مثلت دين الإسلام بحق، وذلك ينفي إدعاءات المكذبين والمنافقين وأعداء الإسلام، في النيل من الرسول الأعظم ﷺ وتشويه دين الإسلام باعتباره دين الإنسانية والسلام وخاتمة الرسالات.

إن ما سيتم بحثه هوغيض من فيض، فلا يمكن الإلمام بالأخلاق الكريمة للنبي محمد ﷺ في صفحات قليلة، بل هوللاستدلال والتيقن من جوهر التعايش السلمي في أفعال وأقوال وسلوكيات ومعاشرة جميلة صدرت من نفس عظيمة وكريمة مباركة للنبي محمد ﷺ.

كان ﷺ دائم البِشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب (من الصخب وهوشدة الصوت) ولا فحّاش ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه ولا يخيب منه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المِراء[4]، والإكثار

(1). سورة الأنبياء/ الآية ١٠٧.

(2). الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١٤، ص٣٣١.

(3). أبوالفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤، مكتبة الحياة، بيروت، ص٦٩.

(4). المِراء لُغةً: الجدال، والتماري والمماراة: المجادلة على مذب الشك والريبة، اصطلاحاً: هوكثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه في كلام الغير لإظهار خلل فيه غرضه تحقير الغير، وإفحامه والباعث

(الإطالة والزيادة والإطناب) وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يُعيّره، ولا يطلب عثراته ولا عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجى ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث[1].

عن الإمام علي (عليه السلام) قال: سمعتُ النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: بُعِثتُ بمكارم الأخلاق ومحاسنها.

وفي مكارم الأخلاق عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.

وفي نهج البلاغة قال الإمام علي (عليه السلام): فتأسَّ بنبيك الأطهر الأطيب، قضم الدنيا قضماً، ولم يعرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً، عُرضت عليه الدنيا عرضاً فأبى أن يقبلها، ولقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويُخصِّف بيده نعله، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه[2].

عن الإمام علي (عليه السلام) أنه كان إذا وصف رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: كان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة (العريكة: الطبيعة والنفس، لين العريكة: سلس الخُلق، السمح)، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، لم أر قبله ولا بعده مثله (صلى الله عليه وآله) [3].

كان (صلى الله عليه وآله) أسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأ الليل لم يأوإلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله.

على ذلك الترفع وهوالطعن. (الدرر السنية، www.dorar.net)

(1). الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ٦، ص ٣٠٥، محسن النوري الموسوي، أخلاق المعصومين (عليهم السلام)، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ص٢١.

(2). المصدر السابق، ص٣٠٨، آية الله العظمى صادق الحسيني الشيرازي، السياسة من واقع الإسلام، دار صادق للطباعة والنشر، كربلاء، ط/ ٥، ٢٠٠٥، ص ٧٠ - ٧١، أهضم من الهضم وهوخمص البطن وخلوها من الجوع، الكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، أخمصهم: أخلاهم. محسن النوري الموسوي، مصدر سابق، ص١٦.

(3). الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٦، ص٣٠٩ - ٣١٠، الشيرازي: مصدر سابق، ص٧١ - ٧٢، النوري الموسوي: مصدر سابق، ص٣١.

لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر، أوعلى أصحابه، وكان يمشي بين أعدائه بلا حارس، ولا يهوله شيء من أمور الدنيا.

يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هوأفضل منهم، لا يجفوعلى أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه.

كان له عبيد وإماء من غير أن يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس، لا يمضي له وقت من غير عمل لله تعالى أولما لا بد منه من صلاح نفسه، يمشي إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره أوزمانته (الزَمِن: دائم المرض، أوالضعيف من الكِبَر)، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعوهذا وهذا إلى الله دعاءً مستوياً.

كان ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس[1].

كان ﷺ إذا سُرَّ ورضي فهوأحسن الناس رضى، فإن وعظ، وعظ بجد، وإن غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى.

كان النبي ﷺ يرقع ثوبه، ويُخصِّف (خرزها أوخاطها وأصلحها بالمخصف) نعله ويحلب شاته، ويأكل مع العبد، ويجلس على الأرض، ويركب الحمار ويُردف، ولا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغني والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو، ويُسلّم على من استقبله من غني وفقير وكبير وصغير، ولا يحتقر ما دعي إليه ولوإلى حشف التمر.

كان ﷺ خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسّاماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، ولم يتجشأ من شَبع قط، ولم يمد يده إلى طمع قط[2].

وعن الإمام الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ، خمس لا أدعُهُنَّ حتى

---

(١). المصدر السابق، تفسير الميزان، ج٦، ص٣١٠.

(٢). الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ٦، ص ٣١٠ - ٣١١، النوري الموسوي: مصدر سابق، ص١٦.

الممات: الأكل على الأرض مع العبيد، وركوبي مؤكفاً[1]، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سُنّة من بعدي[2].

وعن الإمام علي (عليه السلام) قال: ما صافح رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحداً قط فنزع يده من يده حتى يكون هوالذي ينزع يده، وما فاوضه أحدٌ قط في حاجة أوحديث فانصرف حتى يكون الرجل هوالذي ينصرف، وما رُئي مقدماً رجله بين يدي جليس له قط، ولا خُيِّر بين أمرين إلا أخذ بأشدهما، وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى تُنتهك محارم الله فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى، وما أكل متكئاً قط حتى فارق الدنيا، وما سُئل شيئاً قط فقال لا، وما رد سائل حاجة قط إلا أتى بها أوبميسور من القول، وكان أخف الناس صلاة في تمام، وكان أقصر الناس خطبة وأقلهم هذراً، وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل، وكان نظره اللحظ بعينه، وكان لا يكلم أحداً بشيء يكرهه، وكان يقول إن خياركم أحسنكم أخلاقاً، وكان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا يتنازع أصحاب الحديث عنده، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا حدث بحديث تبسم في حديثه[3].

مثّل النبي (صلى الله عليه وآله) العدالة بأجل صورها في وصاياه وأفعاله، ففي وصية للإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) يقول: (قد بعثتك وأنا بك ضنين[4]، فابرز للناس وقدم الوضيع على الشريف، والضعيف على القوي، والنساء قبل الرجال، ولا تدخلن أحداً يغلبك على أمرك، وشاور القرآن فإنه إمامك) [5].

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يورِّث درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا وليدة (الآمة، الصبية إلى أن تبلغ)، ولا شاة ولا بعير، ولقد قُبض (صلى الله عليه وآله) ودرعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً شعيراً استلفها نفقة لأهله[6].

ومن خطبة للإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام) يذكر فيها النبي (صلى الله عليه وآله): (خرج من الدنيا

---

(١). أوكفه أي شد عليه الإكاف، والإكاف برذعته أوإزار أووازرة، وأُزُر، الحمار.

(٢). الطباطبائي: ج ٦، ص ٣١٢.

(٣). الطباطبائي: ج ٦، ص ٣١٢ – ٣١٣، النوري الموسوي: مصدر سابق، ص ٣٠.

(٤). ضنين: شديد البُخل، البخيل بالشيء النفيس، والمعنى هنا: (حريص عليه).

(٥). نقلاً عن/ د. محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط/٢، ١٩٥٠، ص٧٥.

(٦). الشيرازي: مصدر سابق، ص ٦١.

خميصاً (خالي البطن، كناية عن عدم التمتع بالدنيا)، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر (لم يبنِ بيتاً أومقراً كحاكم)، حتى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربه.

وقال ﷺ يصف ابن عمه وصفيه ﷺ: (سيرته القصد (الاستقامة)، وسنته الرُشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل، وقال: كان ﷺ أجود الناس كفاً، وأكرمهم عِشرة، من خالطه فعرفه أحبه.

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم خيبر ويوم قريضة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف تحته إكاف من ليف[1].

عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك.

عن ابن مسعود قال: أتى النبي ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: (هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القد)[2].

عن أنس بن مالك قال: خدمت النبي ﷺ تسع سنين فما أعلمه قال لي قط: هلا فعلت كذا كذا، ولا عاب علي شيئاً قط[3].

إن عدالة النبي الكريم ﷺ وكرمه وسخائه وجوده وتواضعه وبساطته ومحبته للناس فضلاً عن شجاعته وبسالته، تعبر عن سموورفعة أخلاقه ومبادئه فكانت أسس وقواعد رصينة لبناء يتعايش فيه الناس بسلام ومودة فأدى الرسالة السماوية خير أداء وانجزها أفضل إنجاز وجسد قول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)[4]، فهوالشاهد على الخلق في إطاعتهم للتعاليم الإسلامية التي جاء بها وبلغها إياهم أم عصيانهم لها، وهوالمبشر بالثواب الإلهي المنشود بالجنة لمن أطاع التعاليم الإسلامية وعموماً أطاع الله سبحانه وتعالى في كل أوامره ونواهيه، وهوأيضاً النذير بالعقاب (النار) لمن عصى الله تعالى

---

(١). الشيرازي: مصدر سابق، ص ٦٩، النوري الموسوي: مصدر سابق، ص١٧.

(٢). القد: هوالقديد وهواللحم المجفف في الشمس، الشيرازي: مصدر سابق، ص ٦٨ - ٦٩.

(٣). النوري الموسوي: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٤). سورة الأحزاب/ الآيتان، ٤٥ - ٤٦.

في أوامره ونواهيه، وهو ﷺ الداعي إلى الله تعالى بإذنه، أي إلى طاعته وعبادته، فضلاً عن أنه السراج المنير بالعلم والأخلاق والهدى والحق[1].

المبحث الثاني

أسس وقواعد التعايش السلمي النبوية

أرسى الرسول الكريم ﷺ أسساً وقواعداً للتعايش السلمي ليس للمسلمين وحسب، وإنما للإنسانية جمعاء بمختلف شعوبها وأديانها وألوانها وتمثلت في الآتي:

أولاً: العفووالصفح الجميل:

واجه الرسول الكريم محمد ﷺ شتى أنواع الأذى والاضطهاد والمكائد، ولم ينج المؤمنين بدعوته من أصناف العذاب والتشريد والموت، ومع ذلك كانت السنوات العشر الأولى للدعوة الإسلامية في مكة قد كرست للدعوة السلمية ولم يأذن الله جل وعلا لرسوله وللمؤمنين بقتال المشركين إلا بعد الهجرة إلى المدينة، وعلى الرغم من ما واجهه النبي الأكرم ﷺ من اضطهاد فإنه كان يعفو، فالعفوأجل ضروب فعل الخير، وكان يرد على أصحابه الذين قالوا، يا رسول الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلاء، (إني أُمرت بالعفوفلا تقاتلوا القوم) وقوله ﷺ أيضاً: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، ومن لا يغفر لا يُغفر له)، و (ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم)[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفوعمن ظلمني وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة)[3].

---

(١). النوري الموسوي: مصدر سابق، ص١٢.

(٢). الجصاص، ابوبكر احمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، ج١، المطبعة البهية، ١٣٤٧هـ ص٢٠٣، المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، م٢، ج٣، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧، ص١٩٣ - ١٩٤.

(٣). القرطبي، ابوعبد الله محمد بن احمد الانصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص٣٤٦.

وروي عنه ﷺ أن جبرائيل (عليه السلام) قال له: (يا محمد إن الله يأمرك أن تعفوعمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك) [1]، وقوله ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [2].

أي أسلكوا معهم سبيل العفووالصفح عما يكون منهم من الجهل والعدواة، ومصداقاً لقوله تعالى: (إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيرا) [3]، أي (أن تصفحوا عمن أساء إليكم مع القدرة على الانتقام منه فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي أذنت لكم أن تجهروا به) [4]، وقوله جل شأنه (فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) [5]، أي فاعرض يا محمد عن مجازاة المشركين وعن مجاوبتهم وأعف عنهم عفواً جميلاً، والصفح ممدوح في سائر الحالات وهوكالحلم والتواضع، حُكي عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): أن الصفح الجميل هوالعفومن غير عتاب، وقيل هوالعفوبغير تعنيف وتوبيخ[6].

ثانياً: العدالة:

حفلت السُنّة النبوية الشريفة بأحاديث نبوية كريمة تؤكد معاني العدالة متضمنة منزلة الإمام العادل وأجره، ومسؤولية الإمام عن الرعية، ففي الإمام العادل، قال ﷺ (إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا)، وقوله ﷺ: (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر)، وفي مسؤولية الإمام العادل قال ﷺ: (ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته)، وقوله ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت ويوم يموت وهوغاش

---

(١). الطبرسي، ابوالفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، م٣، ج٩، مكتبة الحياة، بيروت، ص٨٩.

(٢). سورة البقرة/ الآية ١٠٩.

(٣). سورة النساء/ الآية ١٤٩.

(٤). الطبرسي، مجمع البيان، ج٢، ص٢٧.

(٥). سورة الحجر/ الآية ٨٥.

(٦). الطبرسي، مجمع البيان، م٤، ج١٤، ص٤١.

لرعيته، إلا حرّم الله عليه الجنة)[1].

إن ذلك يمثل فكرة العقد الاجتماعي ويطرح المسؤولية للحاكم أمام الأمة وتُثبِّت أسس شرعية الحكم قبل أن يتبناها الفقه القانوني الدستوري الحديث[2].

ثالثاً: تحريم الظُلم:

حرّمت الشريعة الإسلامية الظُلم تحريماً مطلقاً، فقد حرّم الله تعالى ذكره الظلم فبدأ بنفسه وحرّمه على عباده، فعن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته حراماً فلا تظالموا)[3]، وهوخطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحدٌ أحداً، والأمر بالعدل في الدماء والأموال والابضاع والأنساب والأعراض، ولهذا جاءت السنة بالقصاص في ذلك، ومقابلة العادي بمثل فعله، كما أن الظلم مُحرّم في كل شيء ولكل أحد فلا يحل ظلم أحد أصلاً سواء أكان مسلماً أم كافراً أم كان ظالماً.

ويؤكد النبي الأكرم ﷺ: (إن الله يملي (يمهل) للظالم فإذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)[4]، وقوله ﷺ: (اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ويقول الله: وعزتي وجلالي لأنصُرنّك ولوبعد حين)، وقوله ﷺ: (يقول الله اشتد غضبي على من ظَلَم من لا يجد له ناصراً غيري)[5]، كما ذكر ﷺ ظلم صاحب القدرة والسلطان، فحدد ثلاث خصال للرجل حتى يصلح للإمامة: (ورع يحجزه عن معاصي الله، وحُلم يملك به غضبه، وحُسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم)، أو (حتى يكون للرعية كالأب

---

(١). د. ساجد احميد عبل الركابي، موقف الإسلام من الإرهاب، المركز الوطني للدراسات الاجتماعية والتاريخية، البصرة، ٢٠٠٦، ص٣٠.

(٢). المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص ١١٠.

(٣). ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، المجلد الاول، دار المعرفة للطباعة، بيروت، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٤). سورة هود/ الآية ١٠٢، الحديث في المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص١١١ - ١١٢.

(٥). المنذري، المصدر السابق، ص ١١٤، النووي، محيي الدين ابي زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق محمد عمارة، دار الفكر، بيروت، ص ١١٥.

الرحيم) [1]، لقد أقر الرسول الكريم ﷺ وهوقدوة الأمة، مراجعة الصحابة له في العديد من القضايا السياسية والاجتماعية كما حدث في صلح الحديبية، وعند توزيع غنائم (حُنين) على المهاجرين دون الأنصار وغيرها[2]،

لم يقف تحريم الظلم عند هذه الحدود، بل تعدى إلى تحريم ظلم أهل الذمة وليس ضد المسلمين فحسب بل شمل ظل الإسلام العادل أهل الذمة والمعاهدين، بل إن الرسول الكريم ﷺ بذاته الكريمة ناصرهم ضد من يظلمهم، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: (من ظلم معاهداً أوكلفه فوق طاقته أوانتقصه أوأخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة) [3].

رابعاً: تحريم العنف وسفك الدماء:

وردت أحاديث نبوية شريفة عن رسول الله ﷺ تُحرّم العنف، متضمنة ترويع المسلم وإخافته وتحريم القتل وسفك الدماء، وهي بمنزلة الأحكام واجبة الإتباع مصداقاً لقوله تعالى: (وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [4]:

تحريم الترويع والإخافة: (من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة)، (لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه)، (إن الله يكره أذى المؤمنين) [5].

تحريم شهر السلاح: (لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار)، وينزع أي يرمي، وأصل النزع الطعن والفساد[6].

---

(1). الكليني الرازي، أصول الكافي، المجلد الأول، دار الأسرة للطباعة والنشر، ايران، ١٤٢٤هـ، ص٤٦٢.

(2). د. محمد احمد مفتي، أركان وضمانات الحكم الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، العدد الثاني عشر، ربيع الآخر، ١٤٠٩هـ/ ديسمبر ١٩٨٨، ص١١٠.

(3). المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص٣٧٨.

(4). سورة الحشر/ الآية ٧.

(5). الغزالي، ابوحامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص٢١٢.

(6). المنذري، الترغيب، م٢، ج٣، ص٣٠٤ – ٣٠٥، أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، منحة المعبود

تحريم القتل وسفك الدماء: (لا يحل دم أمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[1]، (قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)، (لوأن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لكبهم الله جميعاً على وجوههم في النار)[2]، (من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله)[3].

تحريم قتل وسفك دماء أهل الذمة والمعاهدين: (من قتل معاهداً في كنهه حرّم الله عليه الجنة)، (من قتل نفساً معاهدةً بغير حقها لم يجد رائحة الجنة، وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام)[4].

خامساً: الدعوة السلمية للإسلام:

مثل التعامل النبوي مع المشركين واتباع الديانات الأخرى قمة التعامل الإنساني والحضاري الذي احترم عقائد الآخرين ودعاهم إلى الإسلام بأجمل أسلوب وأعذب عبارة، مصداقاً لقوله تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[5]، وفي الآية بيان لكيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب، اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس والصابئون، إلا بالمجادلة والتي هي أحسن المجادلة (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[6]، والجدل أوالمجادلة (مقابلة الحجة بالحجة) إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظاً وطعناً وإهانةً، فمن حُسنها أن تقام رفقاً وليناً في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب من خصمه ويدنومنه حتى يتفقا

في ترتيب الطاليسي ابي داود، ج٢، المطبعة المنيرية بالأزهر، ١٣٧٢هـ ص٢٨٩.

(١). الساعاتي، المصدر السابق، ص٢٩١.

(٢). المصدر السابق، ص٢٨٩، المنذري، الترغيب، م٢، ج٣، ص١٨٣ - ١٨٦.

(٣). الساعاتي، المصدر السابق، ص٢٩٠، المنذري، الترغيب، م٢، ج٣، ص١٨٧.

(٤). المنذري، المصدر السابق، ص١٨٧.

(٥). سورة العنكبوت/ الآية ٤٦.

(٦). سورة النحل/ الآية ١٢٥.

ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حُسنا على حسن فكانت أحسن[1]، إن ذلك يدلُ دلالة واضحة على أن أسلوب الدعوة للإسلام لم يكن الإكراه وإجبار الناس على اعتناقه مصداق ذلك قول الله جل وعلا: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [2]، إنما بالحوار وهومنهج حضاري إنساني لم تكن تألفه الشعوب والأمم آنذاك واستخدمت أساليب الحرب والقتل والقسر والإكراه، وما يدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [3]، وآية (المباهلة) التي نزلت في مباهلة زعامات النصارى من قبل الرسول الكريم ﷺ وآل البيت، علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وإلقاء الحجة عليهم، إذ قال سبحانه وتعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) [4]، ولذلك بقي الرسول الكريم ﷺ يدعوبالحكمة والموعظة الحسنة ويصبر على الظلم خمس عشرة سنة قبل الإذن له بالقتال وخروجه لقتال المشركين في واقعة بدر[5]، وفي إطار دعوته السلمية أرسل ﷺ الكتب والبعوث إلى الشيوخ وغيرهم من زعماء القبائل العربية المختلفة فضلاً عن الكتب والبعوث التي أرسلها إلى الملوك والأمراء من خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام، ولم تنقطع دعوة الرسول الكريم ﷺ للمشركين لاعتناق الإسلام حتى عندما أصبح في المدينة مسيطراً على جيش كبير يأتمر بأمره، وأرسل أيضاً البعوث الدينية لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد الإخفاق في بعضها على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام

---

(١). الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٦، ص١٣٧ – ١٣٨.

(٢). سورة البقرة/ الآية ٢٥٦.

(٣). سورة آل عمران/ الآية ٦٤.

(٤). سورة آل عمران/ الآية ٦١.

(٥). عبد الرحمن عزام: الرسالة الخالدة، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٩٧ – ١٩٨.

القوة[1].

لقد توسع دين الإسلام في رحمته بالإنسانية بقيم نبيلة أساسها الرأفة والرحمة وليس القهر والاستلاب وفرض تعاليمه على المشركين والمخالفين واتباع الديانات الأخرى، وتمثل ذلك في أروع أسلوب وخطاب، فيتوجه الخطاب الرباني إلى الرسول الكريم ﷺ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

إن الآية تتضمن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لأن يسمع كلام الله، ولازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يُرجى فيه الوصول إلى هداية ضال والفوز بإحياء حق وإن كان يسيراً قليلاً، فإن الحق حق وإن كان يسيراً وللمشرك غير المعاهد، وهذا غاية ما يمكن مراعاته من أصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الإنسانية اعتبره القرآن الكريم وندب إليه الدين القويم[3].

سادساً: الوفاء بالعهود والمواثيق:

يستمد القانون الدولي الإنساني الإسلامي قوته من القواعد الإنسانية ومنها الوفاء

---

(١). توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط/ ٢، ١٩٥٧، ص٥٤، من هذه البعوث، البعثة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة وتألف البعثة من أربعين مسلماً من شباب المدينة الذين حذقوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلاً للدراسة وإقامة الصلاة ولكنهم قتلوا غدراً بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبوالبراء عامر ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم، وفي السنة الثانية للهجرة أوفد النبي ﷺ كتيبة من خمسة عشر رجلاً إلى حدود شرق الأردن ليدعوالناس إلى الدين الحنيف ويستطلعوا أخبار الروم وقواتهم، فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلوهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار، كذلك مقتل رسول النبي ﷺ الحارث بن عمير إلى أمير غسان في سوريا يدعوه إلى الإسلام فقبض عليه شرحبيل بن عمروسيد مؤتة وهي قرية بجوار الكرك وقتله، انظر في ذلك: توماس آرنولد، المصدر السابق، ص ٥٤ - ٥٥، سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٤، عبد الرحمن عزام، مصدر سابق، ص١٩٩.

(٢). سورة التوبة/ الآية ٦.

(٣). الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٩، ص ١٥٣ - ١٥٤.

بالعهد، ولذلك كانت للمعاهدات العادلة قيمتها في تكوين ذلك القانون، فالمعاهدات قبل الإسلام كانت وسيلة لفرض السلطان من قبل الأقوياء على الضعفاء، وإذا ما قوي الضعيف نبذها وقاتل لإخراج نفسه من القوي، فهي صورة لقوة الأقوياء وليست عملاً لتنظيم السلم العادل، أما القرآن فإنه لا ينظر إلى المعاهدات هذه النظرة ويأمر بالوفاء بالعهد مطلقاً غير مقيد بضعف أوقوة[1].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[2]، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[4]، وقوله سبحانه تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[5]، أما السنة النبوية الشريفة المطهرة فقد بلغت من الدقة في تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغاً يكفي في وصفه أن نورد بعض من الأحاديث النبوية وبرهنتها بالأفعال النبوية في الشواهد النبوية للتعايش السلمي بعد ذلك.

فمن أحاديث النبي الأكرم ﷺ في الأمان والوفاء بالعهد: (حُسن العهد من الإيمان)، (إن خيار عباد الله الموفون المطيبون)، ومعناه القوم الذين يغمسون أيديهم في الطيب في الجاهلية وتحالفوا ضد أعدائهم، (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمرها أوينبذ إليه على سواء)، (أنا أكرم من وفى بذمته)، (المسلمون عند شروطهم ما وافق الحق من ذلك)، (من ظلم معاهداً مقراً بذمته مؤدياً لجزيته كنت خصمه يوم القيامة)، (لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف له بقدر غدرته، ألا

---

(١). عبد الرحمن الجزيري، السُنة، الوفاء بالعهد، مجلة (الأزهر) مشيخة الأزهر، م١١/ ج١، محرم ١٣٥٩هـ الشيخ محمد ابوزهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، الدار القومية للطباعة، القاهرة، ١٩٦٤، ص٧٤.

(٢). سورة النحل/ الآية ٩١.

(٣). سورة الأنعام/ الآية ١٥٢.

(٤). سورة الإسراء/ الآية ٣٤.

(٥). سورة التوبة/ الآية ٤.

ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة)[1].

وقال الرسول الأكرم ﷺ أيضاً: (اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا أتُمنتم)، وقال ﷺ (لا إيمان لمن لا أمانة له) و (إنه لا دين لمن لا أمانة له)، (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)، وشدد ﷺ على العهد فقال: (ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم)، أي عمهم الحرب وقتلوا بعضهم بعضاً، وقال ﷺ: (أيما رجل آمن على دمه ثم قتله، فأنا بريء، وإن كان المقتول كافراً)[2].

المبحث الثالث

الشواهد النبوية في التعايش السلمي

لم يقف النبي الأكرم ﷺ في دعوته للتعايش السلمي عند وصاياه وأحاديثه بل عززها بأفعال وشواهد برهنت سماحة مبادئ الإسلام الحق، فأضحت منارات تضيء الحياة الإنسانية، ودليل عمل للمسلمين للحذوحذوه لينعموا بالسلام والأمن، لعل من أبرز هذه الشواهد النبوية وهي لا تُعد ولا تُحصى، الآتي:

أولاً: شواهد العفووالصفح الجميل:

بعد أن نالت قريش من رسول الله ﷺ ما نال من أذى واضطهاد، خرج إلى الطائف وتوجه إلى نفر من ثقيف قصدوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة حتى توجه بدعائه ﷺ إلى ربه فقال: (اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوٍ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي...)[3].

وعن هذا اليوم روى الشيخان (البخاري ومسلم) عن أم المؤمنين عائشة، أنه ﷺ قال:

---

(1). الهندي، كنز العمال، م٤، ص ٢٢١ - ٢٢٥.

(2). المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

(3). ابوعبد الله محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي، سيرة النبي ﷺ، ج١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(رفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبرائيل ﷺ فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردّوه عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال وسلّم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (جبلي مكة: أبا قبيس ومقابله قعيقعان) فقال ﷺ: بل أرجوأن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً) [1].

وفي واقعة أُحُد، كُسرت رباعيته[2]، وشُج في وجهه وجُرح في شفته السفلى فجعل الدم يسيل على وجهه الشريف، وهويمسح الدم ويقول (كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهويدعوهم إلى ربهم) [3]، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) [4]، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن ينشف دمه النازف لئلا ينزل على الأرض وهويقول: (لووقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء) وشق ذلك على الصحابة فقالوا: لودعوت عليهم، فقال: (إني لم أُبعث لعّاناً، ولكن بُعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي)، وفي رواية: (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) [5]، فقدم لهم العذر بالجهالة، ودعا لهم بالهداية.

جسد الرسول الكريم ﷺ السماحة والرحمة عندما نصره الله تعالى وفتح مكة فأوصى أصحابه (لا تجهزوا على جريح، ولا يتبعن مدبر، ولا يقتلن أسير، ومن أغلق بابه فهوآمن)، ثم خطب ﷺ فقال: (الحمد لله الذي صدق وعده ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده، ألا أن كل مأثرة كانت في الجاهلية وكل دم ودعوى موضوعة تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) [6]، لقد كان من شدة حيائه لما فتح مكة، كان لا يحدق النظر في رجال قريش لكي لا يثير فيهم الشعور بالخجل والإنكسار رغم أن

---

(١). عبد الله سراج الدين، سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، حلب، ط٢، ١٩٧٨، ص١٨٩.

(٢). رباعية: سن بين الثنية (السن الأمامي) والناب وهي أربع: اثنان في الفك الأعلى واثنان في الفك الأسفل.

(٣). سيرة ابن اسحاق، ج٣، ص٥٩٧ - ٥٩٨، ابن كثير، السيرة النبوية، ص٥٨.

(٤). سورة آل عمران/ الآية ١٢٨.

(٥). نقلاً عن: عبد الله سراج الدين، مصدر سابق، ص١٧٦.

(٦). البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٣ -٥٤.

قريشاً هي التي جهدت على مناجزته، فأتى ﷺ الكعبة، وأخذ بعضادتي الباب وقال لصناديد قريش: (ما تقولون وما تظنون، ما ترون أني صانع بكم)، فقالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت: أقول كما قال أخي يوسف ﷺ (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [(١)]، اذهبوا فأنتم الطلقاء[(٢)].

عن أنس بن مالك: إن النبي ﷺ أدركه اعرابي والبُرد (كساء مخطط يلتحف به) على كتفيه فجذب الاعرابي أطراف الرداء جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه وهويقول بخشونة بالغة: يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ﷺ هنيئة ثم قال ﷺ: المال مال الله وأنا عبده، وقال ﷺ: ويُقاد (يُقتص) منك يا اعرابي ما فعلت بي؟ قال: لا. قال ﷺ: ولِمَ؟. قال: لأنك تعفو، وتصفح، ولا تكافئ بالسيئة السيئة. فضحك النبي ﷺ ثم أمر ﷺ أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر[(٣)].

عفوه عن غوث بن الحارث الذي وقف على النبي ﷺ وهونائم، مُصلتاً سيفه رافعاً يده على النبي ﷺ وصاح به، من يمنعك مني يا أبا القاسم؟ فقال النبي ﷺ: الله، فسقط السيف من يده، فبدر النبي ﷺ إلى السيف وأخذه ورفعه على غوث قائلاً له: يا غوث من يمنعك مني الآن؟ فقال غوث: عفوك، وكن خير آخذ، فتركه النبي ﷺ وعفا عنه[(٤)].

عفوه عن اليهودية التي سمّت الشاة للنبي ﷺ فقال لها: ما حملك على ما صنعتِ؟ فقالت: قُلت إن كان نبياً لم يضره، وإن كان ملكاً أرحت الناس منه، فعفا عنها رسول الله ﷺ [(٥)].

يحفظ التاريخ لرسول الله ﷺ عطايا فريدة في بابها، فقسم ما أصاب من الغنائم يوم حُنين في المؤلفة قلوبهم من قريش ورؤوس الشرك عن إسلامهم تأليفاً لهم ولأقوامهم ولسائر قريش من أهل مكة وآخرين من القبائل العربية، وجعل للأنصار

---

(١). سورة يوسف/ الآية ٩٢.

(٢). البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٤، البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص١١٨، ابوزهرة، ص٢٦.

(٣). الشيرازي، مصدر سابق، ص٣٧، النوري الموسوي، مصدر سابق، ٣٠.

(٤). الشيرازي، المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦.

(٥). المصدر السابق، ص٤٠.

شيئاً يسيراً، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ونحوها لمعاوية ابنه وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية والحرث بن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، بلغ عددهم أربعة عشر، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش بلغ عددهم ستة وعشرين كما يذكرهم ابن هشام في سيرته[1].

ثانياً: شواهد العدالة:

تمثلت العدالة بأجمل صورها في أفعال الرسول الكريم ﷺ وأحكامه ومنها حكمه في شأن المرأة المخزومية التي سرقت واهتمت قريش بأمرها وسعت إلى وساطة أسامة بن زيد للشفاعة لها أمام الرسول ﷺ فقال ﷺ: (أتشفع في حدٍ من حدود الله تعالى)، ثم قام واختطب فقال: (أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق منهم الشريف تركوه، وإذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، لذلك قال ﷺ: (أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم)[2].

لقد كان الرسول ﷺ مثلاً أعلى في العدالة التي وضعها موضع التنفيذ فبدأ بنفسه، فعن ابن عباس، عن الفضل بن عباس قال: أتاني رسول الله ﷺ وهويوعك وعكاً شديداً، وقد عصب رأسه فقال: خُذ بيدي يا فضل، قال: فأخذت بيده حتى قعد على المنبر، ثم قال: ناد في الناس يا فضل، فناديت، الصلاة جامعة، قال: فاجتمعوا فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: (أما بعد، أيها الناس إنه قد دنا مني خلوف (الغياب، وهي كناية عن الموت) من بين أظهركم، ولن تروني في هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقوّمه فيكم، ألا فمن كُنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد[3]، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد، ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء (الحقد والعداوة والبغضاء) من قبل رسول الله، ألا وأن الشحناء ليست من شأني ولا من خُلُقي، وإن أحبكم إليَّ من

---

(١). ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ١٠٤.

(٢). صحيح مسلم، ج٥، ص١١٤، النووي، رياض الصالحين، ج٣، ص١١٢، سنن ابن ماجة، ج٢، ص٨٤٩.

(٣). من القود وهوالقصاص أي يقتص مني.

أخذ حقاً إن كان له عليَّ أوحللني فلقيتُ الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة)[1].

ثالثاً: شواهد تحريم الظلم والعنف وسفك الدماء:

يقول الرسول الكريم ﷺ: (إن الله يملي (يمهل) للظالم فإذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)[2]، وقوله ﷺ: (من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين)[3]، وأكد ﷺ على جهاد وظلم الحاكم بقوله: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)، وقوله ﷺ في البراءة من الإمام الظالم ومن يناصره: (يكون أمراء تغشاهم غواش (تتردد إلى مجالسهم جماعات من الناس)، أوحواش (تخدمهم وتحيط بهم جماعة من الناس) يكذبون ويظلمون، فمن دخل عليهم، فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولست منه، ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم، فهومني، وأنا منه)[4]، ودعى ﷺ إلى محاسبة الحاكم الظالم فيقول: (إن السلطان والقرآن سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب الكتاب، سيكون عليكم أمراء مضلّون، يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟، قال: كما صنع أصحاب عيسى نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصيته)[5].

لم يضرب الرسول ﷺ بيده الكريمة أحداً قط، إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله[6]، لذلك لم يكن عقابه ﷺ بغرض الانتقام والثأر وإنما بغرض تطبيق الشريعة السمحاء والحفاظ على الدين القيم، قال ﷺ في تحريم سفك الدماء وحرمتها في خطبة حجة الوداع: (أيها الناس،

---

(١). ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤، ص٤٥٧.

(٢). سورة هود/ الآية ١٠٢، انظر الحديث في المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص١١١ - ١١٢.

(٣). المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص ١١٤، النوري، رياض الصالحين، ص١١٥.

(٤). المنذري، الترغيب والترهيب، م٢، ج٣، ص ١١٨ - ١١٩.

(٥). نقلاً عن: د. محمد أحمد مفتي، مصدر سابق، ص ١١٠.

(٦). الغزالي، إحياء علوم الدين، م٢، ص٣٩٥.

إن دمائكم وأموالكم وأعراضهم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت، اللهم فأشهد)[1]، ومن أمثلة السماحة النبوية، أن وقع سُهيل بن عمروفي الأسر في معركة بدر فقام عمر بن الخطاب (رض) قائلاً للرسول ﷺ يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي[2] سُهيل بن عمرويدلع لسانه (أي يخرج) فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبدا، فقال رسول الله ﷺ (لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً)[3].

كان ﷺ شديداً في محاسبة الذين يسفكون الدماء وإن كانوا مسلمين، ومن أبرز الحوادث الدالة على ذلك هوبعثه ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ومعه قبائل من العرب، فوطئوا بني جذيمة بن عامر، فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى الرسول الكريم ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد)، ثم دعا رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: (يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك)، فخرج الإمام علي عليه السلام حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال، حتى أنه ليدي ميلغة الكلب[4]، كذلك تكرر الأمر في حادثة قتل محلم بن جثامة بن قيس لعامر بن الأضبط الأشجعي، بشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره وغنمه فأتوا به النبي ﷺ، فغلظه الرسول ﷺ قائلاً: (إن الله أبى على من قتل مؤمناً) قالها ثلاث، وقال لمحلم بن جثامة: (أمنته بالله ثم قتلته، أوقتلته بسلاحك في

---

(١). د. محمد الحيدرابادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦، ص٢٨٢.

(٢). ثنية، جمعها ثنايا، وهي الأسنان الأربعة التي في مقدم الفم اثنتان من فوق واثنتان من تحت، فالثنية إحدى الأربع المذكورة.

(٣). سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٨٠، الواقدي، كتاب المغازي، ج٢، ص٨٥٧ – ٨٥٨.

(٤). ميلغة الكلب: ما يحفر من الخشب ليلغ فيه الكلب، ويكون عند أصحاب الغنم، سيرة ابن هشام، ج٢، ص٤٢٨ – ٤٣١، سيرة ابن كثير، ج٣، ص٥٩١ – ٥٩٢، البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص١١٥.

غرة الإسلام، اللهم لا تغفر لمحلم بن جثامة) ثلاث مرات بصوتٍ عالٍ[1].

كذلك حادثة قتل أسامة بن زيد واتباعه رجلاً قال أشهد أن لا إله إلا الله عندما شُهر السلاح عليه، فقال له الرسول ﷺ: (يا أسامة من لك بلا إله إلا الله؟ أوقتلته يا أسامة، وقد قال لا إله إلا الله) قال أسامة: يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذاً (لجأ إلى أواعتصم بها) بها من القتل، فقال ﷺ: (فمن لك بها يا أسامة؟ أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟) أي تنظر أصادق هوفي قوله أم لا[2].

رابعاً: شواهد حرية العقيدة والدعوة السلمية للإسلام:

من الثابت أن النبي ﷺ قد أسر من المشركين أسرى، ولم يكره أحداً منهم على الإسلام، ولوكان القتال لأجل الكفر أوالشرك ما كان لهؤلاء إلا السيف، لأن الموجب للقتل على هذا الزعم متحقق فيهم، وإن القرآن قد صرّح بالنسبة للأسرى، بأنه بعد أن يضعف الأعداء عن الاعتداء يخير القائد أن يطلق سراحهم في نظير مال أويمن عليهم من غير مال[3]. لذا جاء فيه، بأنه بعد أن يضعف الأعداء عن الاعتداء يخير القائد (حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)[4].

قيل أن آية (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) نزلت في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتاً[5]، فتجعل على نفسها أنه إن عاش لها ولد تهوّده، فلما أجلت بنوالنضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى الآية، وفي رواية، إنما ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه، فنزلت (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) من شاء التحق بهم ومن شاء دخل الإسلام، وقيل أنها نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبوحصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة

---

(١). سيرة ابن اسحاق، ج٤، ص ١٠٤٣ – ١٠٤٥، البيهقي، ج٩، ص١١٦، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٥، ص٣٣٩.

(٢). سيرة ابن اسحاق، ج٤، ص ١٠٣٩ – ١٠٤٠، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م٣، ص ٣٥ – ٣٧.

(٣). أبوزهرة، نظرية الحرب في الإسلام، ص١٢.

(٤). سورة محمد/ الآية ٤.

(٥). المرأة المقلات: هي المرأة التي لم يبق لها أولا يعيش لها ولد أوهي التي تلد ولداً واحداً ثم لا تلد بعد ذلك.

يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا حصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أمرهما ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما[1].

الكتب والبعوث التي أرسلها الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء من خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام، فقد كتب إلى يهود خيبر وأسقف أيله وأهلها وكذلك لحنينا ولأهل خيبر والمقنا ولاساقفة نجران ومعاهدته مع نصارى نجران والتي نصت (ولنجران وحاشيتها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أوكثير، لا يغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية، ولا يُحشرون (جمع الناس وحشرهم) ولا يُعشرون (تكتيلهم في الحشر من الجيش عشرة عشرة)، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم، غير مثقلين بظلم)[2].

وكتب ﷺ ذات المضمون في معاهداته مع أبي حارث بن علقمة أسقف نجران، والحارث بن كعب ولأهل ملته ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فتضمن حماية الرسول ﷺ والمسلمين لهم وكنائسهم وبِيَعهم (الكنائس المرتفعة المستدقة الضيقة) وبيوت صلواتهم ومواضع رهبانهم من أي عدوان عليهم والتأكيد على (ولا يُجبَر أحد ممن كان على ملة النصرانية كُرهاً على الإسلام، (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، ويخفض لهم جناح الرحمن ويكف عنهم أذى المكروه حيث كانوا، وأين كانوا من البلاد)[3]. وكتب ﷺ إلى عمروبن حزم (عامله على اليمن): (وأنه من أسلم من يهودي أونصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له

---

(١). الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، م٣، ج٣، ص٧ - ١٠، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٢٨٠، النحاس، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ص٨٠.

(٢). د. محمد حميد الله الحيدرابادي، مصدر سابق، ص ٣٨، ٥٣، ٥٥، ٥٩، ٦٠، ١١٠، ١١٢، ١١٥.

(٣). المصدر السابق، ص١٤٠.

مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أويهوديته فإنه لا يُرد عنها)[1].

من حق زوجة المسلم (اليهودية والنصرانية) أن تذهب إلى الكنيسة أوالمعبد، ولا حق لزوجها في منعها من ذلك، يؤكد ما كتبه ﷺ للحارث بن كعب ولأهل ملته من النصارى، (إذا صارت النصرانية عند مسلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها فقد خلف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهوعند الله من الكاذبين)[2].

لم يحل الإسلام إكراههم (أهل الذمة) على الزواج بالمسلمين، فقال ﷺ في كتاب إلى الحارث بن كعب ولأهل ملته، من النصارى: (ولا يحملوا من النكاح شططاً[3] لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين ولا يضار في ذلك أن منعوا خاطباً وأبوتزويجاً، لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به)[4].

تأكيده ﷺ لوصاياه بأهل الذمة، عندما نزل النبي ﷺ خيبر مع أصحابه وأقبل صاحب خيبر يسأل النبي ﷺ فقال يا محمد ألكم أن تذبحوا حُمُرنا[5]، وتأكلوا ثمارنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب النبي ﷺ وقام خطيباً فقال لأصحابه: (أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله عز وجل لم يحرّم شيئاً إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء مثل القرآن أوأكثر، وأن الله عز وجل لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نساءهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم)[6].

خامساً: شواهد الوفاء بالعهود والمواثيق:

روي عن ابي رافع، وهومولى رسول الله ﷺ قال: بعثتني قريش إلى رسول الله

---

(١). المصدر السابق، ص١٢٣ - ١٢٥.

(٢). د. محمد حميد الله الحيدرابادي، مصدر سابق، ص ٤١.

(٣). شططاً: الإفراط في الظلم والجور والبُعد عن الصواب والحق.

(٤). المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٥). الحُمُر جمع ومفرده: حمار.

(٦). البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص٢٠٤.

ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقى في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: إني لا أخيس (أي لا أفسد العهد ولا أنقضه) العهد ولا أحبس البُرد (بضم الباء جمع بريد أي القاصد)، ولكن ارجع فإن في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع، قال: فذهبت، ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت)[1].

عن حذيفة بن اليمان قال: ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي الحسيل، فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده، وما نريد إلا المدينة، ولا نقاتل معه، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننطلق إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: (انصرفا، نفي لهم بعهدهم ونستعين بالله عليهم)[2].

وعن نعيم بن مسعود الأشجعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لرسولي مسيلمة الكذاب، حيث قرأ كتابه: (ما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، قال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما)[3].

وروي عن النبي ﷺ أنه ردَّ أبا جندل بن سهيل بن عمرووقد أسلم، وهويكتب صلح الحديبية مع أبيه موفداً لقريش، فقال له ﷺ: (يا أبا جندل، إصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً، وإنا لا نغدر)[4].

سادساً: شواهد أخلاقيات الحرب الإسلامية:

نظم الإسلام الحرب (الجهاد) على قواعد وأسس إنسانية رحيمة ولم تشن الحرب من أجل التوسع والاستيلاء والاستعباد وإنما لأغراض مشروعة وهي، دفع الظلم والاعتداء والمعاملة بالمثل، حرية العقيدة ودفع الفتنة في الدين، دفع الظلم ونصرة المظلومين والضعفاء والدفاع عنهم، وتأمين سلطان الإسلام وسيادته، لكن تلك الحرب المشروعة تقوم على قواعد إنسانية جسدها النبي الأكرم ﷺ في وصاياه

(١). مختصر سنن أبي داود للمنذري، ج٤، ص٦٢ - ٦٣.
(٢). ابن تيمية، المنتقى من أحاديث الأحكام، ص٧٢٤.
(٣). مختصر سنن أبي داود للمنذري، ج٤، ص٦٤.
(٤). أبويوسف، الخراج، ص٢١٠، الواقدي، المغازي، ج، ص٦٠٨، ابن تيمية، المنتقى من أحاديث الأحكام، ص ٧٢٩ - ٧٣٠.

لبعوثه وجيوشه وأوامره التي التزم بها المسلمون واتخذوها منهجاً راسخاً في نشر الإسلام بين الشعوب والأمم، ومنها:

الدعوة للإسلام قبل القتال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً قال: (تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت ولا مدر ولا وبر (أهل المدن أوالقرى أوالبادية) ألا تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم) [1]، ما كانت الدعوة إلى الإسلام أوالمعاهدة إلا من قبيل إيثار جانب السلم على جانب القتال، وإبعاد فكرة الانتقام عن الاعتداء الماضي، وإيثار السلم في المستقبل على تأريث العداوة، وإشعال نيران الحرب[2].

الجنوح للسلم والقبول بالصلح: مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [3]، لذلك وادع النبي ﷺ بني صخر من كنانة أن لا يغزوهم ولا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً بذلك[4]، وعاهد النبي ﷺ حين قدم المدينة أصنافاً من المشركين منهم بنوالنضير، وبنوقينقاع، وبنوقريظة، وعاهد قبائل من المشركين، ثم كانت بينه وبين قريش هدنة الحديبية، إلى أن نقضت قريش ذلك العهد بقتالها خزاعة حلفاء النبي ﷺ على الرغم من أن هدنة الحديبية كانت مثالاً لقبول المسلمين بصلح مجحف بشيء من حقوقهم لكن في الوقت ذاته حقن الدماء وترك الحرب إلى مدة عشر سنين مع ما اشترط مشركوقريش منه من الشروط الثقيلة التي كرهها الصحابة وكادت تكون فتنة، وكان جواب النبي ﷺ عن سر العدول عن دخول مكة (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا اعطيتهم إياها) [5].

تحريم الإبادة البشرية والتخريب: إذا كان الإسلام أباح الحرب كضرورة من الضرورات، فإنه يجعلها مقدرة بقدرها[6]، وحرب الإسلام حرب رفيقة تتسم بالتأليف،

---

(١). الهندي، كنز العمال، ج٤، ص٢٩٦.

(٢). أبوزهرة، نظرية الحرب، ص٢١، الرازي الكليني، الفروع من الكافي، ج٥، ص٣٦.

(٣). سورة الأنفال/ الآية ٦١.

(٤). محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ج١٢، ص٧٨.

(٥). ابن تيمية، المنتقى من أحاديث الأحكام، ص ٧٢٥.

(٦). السيد سابق، فقه السُنة، ج٣، ص ٦٠.

وتتسم بالمحافظة حتى على الأعداء، وأحب إليه ﷺ أن يأتوه بهم سالمين قد عمر الإيمان بالحق قلوبهم من أن يأتوا إليه بالنساء والذرية سبايا، لذلك فهي ليست حرباً وحشية، بل هي حرب نبوية[1].

تحديد الأهداف الحربية: وَجَّهَ رسول الله ﷺ وأوصى قادة سراياه (أغز بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله لا تغل (تظلم) ولا تغدر ولا تقتل وليداً)، (لا تقتُلَنَّ (لا تقتلوا) كبيراً ولا فانياً ولا صغيراً ضرعاً، ولا تقتلنَّ امرأة ولا تُغرقنَّ نخلاً ولا تقطعنَّ شجرة ولا تهدِمَنَّ بيتاً)، (ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تغلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)[2]، وقد حرص النبي ﷺ على توفير الحماية للضعفاء من التعرض لكل ألم نفسي، فقد روي عنه ﷺ حينما افتتح القَموص (حصن بن أبي الحقيق في موقعة خيبر) وقد أُتيَ رسول الله ﷺ انتهاء حصار المدينة بنصر المسلمين، بصفية بنت حُيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمضى بهما بلال إلى مركز القيادة مارّاً بميدان المعركة فجاء بهما على قتلى من قتلى اليهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ كره ما صنع بلال فقال: (أذَهَبَت (انُزِعَت) منك الرحمة يا بلال، تمر بجارية حديثة السن على قتلى رجالها؟)[3].

حظر استخدام وسائل الانتقام الوحشية في الحرب: نهى ﷺ عن المُثلة[4]، فقال: (ولا تمثلوا ولا تغلوا ولا تغدروا، كما ونهى عن التمثيل بالحيوان، (من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأله الله عز وجل عن قتله، قيل يا رسول الله: وما حقها، قال: أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي بها)، (ولُعِن من مثّل بالحيوان)، وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن الرسول ﷺ إذا بعث جيشاً من المسلمين قال: (... ولا

---

(١). محمد أبوزهرة، نظرية الحرب في الإسلام، ص٢٢.

(٢). الهندي، كنز العمال، م٤، ص٢٢٣، الكليني الرازي، الفروع من الكافي، ج٥، ص٣٠.

(٣). سيرة ابن هشام، ج٢، ص٣٣٦، الواقدي، المغازي، ج٢، ص٦٧٣، د. محمد عبد الله دراز، القانون الدولي العام والإسلام، المجلة المصرية للقانون الدولي، الجمعية المصرية للقانون الدولي، القاهرة، المجلد ٥، ١٩٤٩، ص٨.

(٤). المُثلة: تعذيب المقتول بقطع أعضائه، وتشويه خلقه قبل أن يُقتل أم بعده، ذلك مثل أن يُجدع أنفه أوأذنه، أويفقأ عينه، أوما شابه ذلك من أعضائه، مختصر سنن أبي داود للمنذري، ج٤، ص١٢.

تمثلوا بآدمي ولا بهيمة ولا تغدروا ولا تغلوا)[1].

نهى الإسلام عن الإبادة البشرية بطريق التسميم: فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُلقى السم في بلاد المشركين)[2].

نهى الإسلام عن حبس الطعام عن المدن لتجويع سكانها: فهو لا يبيح فرض حصار يرمي إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء[3].

وعلى الرغم من فرض مشركي قريش الحصار على المسلمين وقاطعوهم في شِعاب مكة ثلاث سنوات فحرموهم مما يملكون ومن الطعام وقطعوا صلات أرحامهم، إلا أن المسلمين لم يعاملوهم ذات المعاملة يدل على ذلك حادثة ثمامة بن آثال الحنفي سيد أهل اليمامة الذي أسلم على يد الرسول صلى الله عليه وآله بعد أن مَنَّ عليه فمنع توريد الحنطة من اليمامة (وكانت ريف مكة) لقريش حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنع أن تحمل الحنطة إلى مكة حتى جهدت قريش فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها وأن ثمامة قد قطع عنا ميراتنا (الميرة: الطعام) وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يُخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل) فكتب رسول الله صلى الله عليه وآله: (أن أخل بين قومي وبين ميرتهم)، ومن هذا القبيل، أن النبي صلى الله عليه وآله أهدى قُريشاً خمسمائة دينار ليستعينوا بها في إحدى سنيهم الشديدة تآلفاً لهم وعطفاً عليهم وهم مقيمون على شركهم وعدوانهم[4].

النهي عن التخريب: جاء النهي عن التخريب وقطع الشجر وقطع النخل صريحاً في وصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لأمراء سراياه فكان يقول: (ولا تحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً لأن لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا (قطع قوائم الدابة) من البهائم مما يؤكل لحمه إلا ما لا بد لكم من أكله)،

---

(١). سنن النسائي، ج٧، ص٩٣، البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص٨٦ - ٨٧، الهندي، كنز العمال، م٤، ص٣٠٣.

(٢). الكليني الرازي، الفروع من الكافي، ج٥، ص٣٠.

(٣). سيرة ابن هشام، ج٣ و٤، ص٤٢٨ - ٤٢٩، البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص١١٥.

(٤). د. نجيب الأرضازي، الشرع الدولي في الإسلام، ص١٠٢، ابن اسحاق، سيرة النبي صلى الله عليه وآله ج٤، ص١٠٥٥، البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص٦٥ - ٦٦، الحيدرابادي، ص٢٩ - ٣٠.

(ولا تغرقن نخلاً، ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بيتاً، أولا تهدموا بناءً)[1].

المعاملة الإنسانية للأسرى والأرقاء: حث الرسول الكريم ﷺ على الرفق بالأسرى فقال: (استوصوا بالأسارى خيراً) وقال في الرقيق (هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)، و (من لطم مملوكه أوضربه فكفارته عتقه)، (من قتل عبده قتلناه، ومن جدع (قطع أنفه أوطرفاً من أطرافه) عبده جدعناه) ودعا ﷺ إلى تعليمهم وتأديبهم فقال ﷺ: (من كانت له جارية فعلمها، وأحسن إليها وتزوجها، كان له أجران في الحياة وفي الأخرى، أجر النكاح والتعليم، وأجر العتق)[2].

خاتمة:

لا ريب أن أنموذج التعايش السلمي الذي أقامه الرسول الكريم ﷺ كان متكاملاً ومستجيباً لطبيعة المجتمع الذي نشأ فيه الإسلام وانتشر، واعتمد على دعامتين أساسيتين هما، مبادئ الإسلام المستمدة من القرآن المجيد وهوكلام الله وتشريعه المتكامل، وبما أن الإسلام هودين الفطرة السليمة فإنه يستجيب لما يسعدها ويوفر لها الأمن والسلام والعدل والمساواة، وهي جوهر التعايش السلمي.

والدعامة الثانية، هي النبي الأكرم ﷺ بشخصيته المتكاملة ومبادئه وأفعاله وأقواله التي أصبحت سُنّة تُتبع، وأن هذه الأخلاق والمبادئ والتطبيق العملي مهد الطريق لإقامة التعايش السلمي الحقيقي الذي شمل الإنسانية جمعاء، وفي ذلك إجابة على التساؤل الذي طرحته مقدمة الدراسة، كيف وفق النبي ﷺ بين كل هذه الاختلافات والتنوع بين أقوام وأديان وطوائف وقبائل وعناصر اجتماعية لتكون المجتمع الإسلامي؟

إن استجابة هذا التنوع للذوبان في مجتمع التعايش، ليس سهلاً ولا سريعاً، بل تطلب زمناً وجهداً وصبراً ومكابدة، قدمها الرسول الأعظم ﷺ والمسلمين، وتطلب

---

(١). الكليني الرازي، الفروع من الكافي، ج٥، ص٢٩، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م١، ج٧، ص٣٩١.

(٢). أبوزهرة، نظرية الحرب في الإسلام، ص٣٢، السيد سابق، فقه السُنة، ص٨٩.

أيضاً تفاعلاً مع العناصر والمكونات المختلفة والتي تلمست الشخصية السامية والخلق الكريم والأفعال الرحيمة للنبي ﷺ والتي مهدت الأرضية لترصين مجتمع إسلامي قائم على السلم الأهلي والتعايش السلمي، لذلك فإن بساطة وكرم وسماحة وعفة وتواضع وتسامح ورفعة وبسالة النبي الأكرم ﷺ ومبادئه التي وضعها موضع التنفيذ في مجتمع المدينة والمتمثلة في التسامح والعفووالصفح الجميل، والعدالة وتحريم الظلم والعنف وسفك الدماء والوفاء بالعهود والمواثيق جسدت فعلاً أنموذج التعايش السلمي الحقيقي والذي تنشده الإنسانية اليوم وتفتقده.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وآله الطيبين الطاهرين.

من خطاب الرسول الاعظم ﷺ الموجّه على لسانه الى الآخر في القرآن الكريم

دراسة دلالية

أ. م. د. سالم يعقوب يوسف السلمي
كلية التربية للعلوم الانسانية - جامعة البصرة

الاستاذ المساعد الدكتور
سالم يعقوب يوسف السلمي

اللقب العلمي استاذ مساعد
تدريسي في كلية التربية للعلوم الانسانية جامعة البصرة قسم اللغة العربية في الدراسات الاولية والعليا
له عدد من الدراسات العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة
اشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه
ناقش عدد كبير من رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه في جامعات العراق المختلفة
معاون عميد كلية التربية للعلوم الانسانية السابق، ورئيس قسم اللغة العربية لدورتين في نفس الكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الَّذي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»و«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ».

المقدمة

لقد كان أمر الناس مريباً يعيشون متناحرين متفرقين حتى منَّ الله عليهم برسول من انفسهم يجمع كلمتهم ويؤالف بين قلوبهم بوحي من السماء منزل من الله الواحد الاحد الى عبده الذي اوحى اليه وعلمَّه وسدّدهُ، ليهديَ به الى صراط العزيز الحكيم «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»وقد وصفه سبحانه بقوله: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى»«وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى»«انْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»«عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» (النجم: ٢-٥).

لقد كانت أمة العرب أمة بيان وتعبير، والكلمة عندهم عالية القدر، يتبارون فيها في منافراتهم وأشعارهم، ونزل القرآن بلغتهم فجاء بأفصح كلام وابلغه فتحدّى العرب ببيانه وتعبيره، وقد شهد بذلك اعداؤه وأيقنوا أنّه ليس من كلام البشر، فملك ألبابهم حتى وقفوا عاجزين أمامهُ فلن يستطيعوا أن يأتوا بأقصر سورة منه «وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»، وخطاب القرآن عام شامل لجميع ما في الدنيا والآخرة، لا يقف عند جانبٍ محدد ولا وقت معين.

تناول البحث في هذه الصفحات شيئاً من الخطاب المرسل على لسان النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم الموجّه للطرف الآخر وهومتنوع ومتعدد في التنزيل العزيز، يدور اكثره على محورية الاقناع الموجّه للمشركين وغيرهم على لسان النبي الاعظم

ﷺ متخذاً لذلك (اللغة) وسيلة للإقناع بطرق مؤثرة في نفوس فئة من الناس وقفوا في طريق الرسالة السماوية والشريعة السمحة فكابروا وعاندوا الحق لما جاءهم.

تلوين الخطاب على لسان النبي ﷺ في الآيات الموجهة للمشركين:

اسلوب الرفق والتلطف في الخطاب:

انّ ما يتلقاه النبي الاعظم ﷺ يكون منهاجاً له يسير عليه، ولا يحيد عنه طرفة عين، وما يأمره به يلزمه تنفيذه وأداؤه وتبليغه، ومن هذا ما جاء في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ» (فصلت:٦) ذلك ما علّمه سبحانه أن يخاطب به قومه الذين عصوه، فقد طلب منه أن يسلك طريق الحوار والإقناع معهم بأساليب متنوعة، فأخبر بصدر الاية بحقيقة أمره لكونه بشراً وما يتلقاه فهومن الله سبحانه، وهذا اسلوب خبري اتبعه معهم في هذا الموقف المهم وهوموقف الدعوة الى التوحيد الداعي الى ترك عبادة الآله المتعددة المزعومة عندهم، واللجوء الى عبادة الحقّ الذي لا شريك له في ملكه من خلال قوله تعالى «إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»فالخطاب محكيّ عن الله المبلّغ بلسان نبيه صلوات الله عليه وآله بلفظ (إلهكم) وهوعام وشامل لا يقتصر على الكفار فحسب، وأكدّ هذا التركيب بأداة الحصر (انّما)، وكذلك بالصفة التي حددته بـ (واحد). وهوعلى غير الخطاب الذي تضمنّه لفظ (مثلكم) فهذا موجه للكفرة من دون غيرهم[1].

ثم انتقل الخطاب الى الاسلوب الانشائي من خلال الامر المطروح في الآية المباركة المكرر في الفعلين (واستقيموا اليه واستغفروه).

وجاءت هذه الآية ردّاً على قول المشركين وموقفهم من دعوة النبي ﷺ الذي يتصف بالقسوة والجفوة والإعراض والسخرية والاستهزاء كما في قوله تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» (فصلت: ٥).

يتجلى صدودهم وإعراضهم عن دعوته صلوات الله عليه واضحاً بيّنا من خلال اغلاق ادوات الاستقبال لهذه الدعوة، فبدؤا بأهم الاعضاء وهواذا ما انفتح على شئ

ومال اليه انقادت له النفس وسارت وراءه اعضاء الجسم الاخرى ذلك هو (القلب) من قوله تعالى: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ».

وأوضح الزمخشري لفظ (أكنة) في الاية المتقدمة أنّ عليها أغطية[1]، وذكر الرازي «انّه انّما وقع الاقتصار على هذه الاعضاء الثلاثة؛ وذلك لان القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف، فلمّا بين أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك اقصى ما يمكن في هذا الباب»[2].

وأورد الزمخشري قوة التباعد بينهم وبين النبي ﷺ من خلال ما أوردوه من تمثيلات، وما ذكر من قوله «وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ»فقد افادت (من) الزائدة الدالة على ابتداء الغاية في المكان «انّ حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسألة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لافراغ منها»، وهذا ما دلّ على قوة الحجاب[3]. وبهذا لم يفقهوا دعوته لما أصابهم من صمم وكأنّ دعوته لم تصل الى قلوبهم لان في آذانهم وقراً، ثم جاء وصف اعراضهم كليّاً في قولهم (بيننا وبينك حجاب)، وهوأشدّ الاعراض لأنهم عطّلوا عنه السمع، والرؤية، والرؤية لها تأثير على استجابة الاشياء، فانّك حينما ترى وان كنت لم تسمع فلعلك تتأثر بالشئ من خلال ما يقدمه الآخر من اعمال.

ويصل الكلام عندهم على أشدّه في قولهم (فاعمل اننّا عاملون) ويرون انّ فيه قولين «أحدهما اعمل على ابطال امرنا انا عاملون على ابطال امرك، والثاني على دينك انا عاملون على ديننا»[4].

ويرى الرازي انهم لم يكذبوا لمّا وصفوا انفسهم بهذه الحال، ولكنهم بلغوا الكفر

---

(١)الكشاف لأبي القاسم الزمخشري (٥٣٨ه) - تحقيق عبد الرزاق المهدي - دار احياء التراث العربي- بيروت (ط٢) (١٤٢١-٢٠٠١): ٤/ ١٩٠.

(٢)التفسير الكبير - الفخر الرازي (٦٥٦ه) - دار احياء التراث العربي - بيروت (ط٤) (١٤٢٢-٢٠٠١): ٩/ ٥٤٠.

(٣)الكشاف: ٤/ ١٩٠-١٩١ وينظر التفسير الكبير ٩/ ٥٤٠-٥٤١.

(٤)زاد المسير في علم التفسير - لابن الجوزي (٥٩٧ه) - دار ابن حزم - بيروت (ط١) (١٤٢٣-٢٠٠٢): ١٢٥٢.

في قوله (فأعمل اننا عاملون) [1].

وعلى الرغم من هذا الطرح والمقابلة الجافية له لكنه ﷺ لم يقابلهم بتلك الجفوة وذلك الاعراض والصدود الذي بدا منهم مستهجنين الدعوة ومبتعدين منها، بل انه قد ازال الفوارق بينه وبينهم مبيناً انه بشر، ولم يكتفِ بقوله (انما أنا بشر يوحى اليّ)، بل ادخل المثلية ليشير الى انه مخلوق وعبد من عبيده، ولم يجابههم بالوعيد في أول الاية، وهذا من لطف التعبير كي يهديهم الى سواء السبيل، وكذلك ساق كلامه على وجه التأكيد من خلال القصر بـ (انما) ليؤكد لهم انه بشر مثلهم.

وتصدّر خطاب النبي المنزل عليه ﷺ النداء الموجه بقوله (يا قوم) في قوله تعالى: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (الانعام:١٣٥). وهذا تلطف بهم، وكثيراً ما يأتي نداء الانبياء بهذا النوع لاستمالة قلوبهم من خلال بيان الصلة بين النبي وقومه، ويدلّ على حلم الرسل والانبياء عليهم السلام وصبرهم وأناتهم وتحملهم [2].

ومن سموالخطاب القرآني على لسان النبي الاكرم ﷺ، مجاراة الاخر المعاند ومحاورته، وإقناعه بالجواب الحسن من ذلك ما جاء في قوله تعالى يدعوهم الى التفكر والنظر والتدبّر في الامور وعواقبها قال تعالى: «قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (الانعام:١١).

وترتبط هذه الاية بما قبلها من الكلام المجيد من قوله تعالى: «لو لا انزل عليه ملك» (الانعام:٨)، فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحاور المشركين ردّاً على قولهم المتقدم، فجاء خطابه لهم على وجه العبرة والعظة ممن تقدمهم من العاصين والمكذبين، ولذلك افتتحت الايةبالأمر وهوالفعل (قل) وجاء ما بعده بياناً للآية المتقدمة: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ»، ولعنادهم ومكابرتهم جاء قولهم: «لولا انزل عليه ملك»زيادة في الاستهزاء والتعجيز لتيقنهم بحسب عقليتهم، اذ انهم طلبوا أن يبعث معه ملكاً يصدقه، وعلى الرغم من خطابهم السافر وجرأتهم فالقرآن يتخذ من تقديم الجواب على

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٩/ ٥٤١.

(٢)ينظر النداء في القرآن الكريم – د. معن توفيق الحيّالي- دار الكتب العلمية- بيروت (ط١) (٢٠٠٨): ٢٠٦-٢٠٧.

فكرهم وسيلة للاقناع بقوله تعالى: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ»بمعنى جاء (هلاكهم من هورؤية الملك في صورته)[1].

ويظهر خطابه لهم في قوله (ثم انظروا) دعوة للتأمل والتفكر والتدبر في تحكيم الفكر والعقل والتروي بأسلوب حجاجي مقنع، ودعوة منه ليقفوا بأنفسهم، على عاقبة المكذبين المزرية.

- حسن الاستنتاج الموجه للمشركين.

لقد كان صلوات الله عليه وآله متيقناً من عمله الذي قابل فيه عملهم بقوله تعالى (اني عامل) فجاء الخطاب مشيراً الى النتيجة والمحصلّة النهائية بينه وبينهم من خلال قوله تعالى: (فسوف تعلمون) وهوما يؤول اليه عمله وعملهم، اذ انهم سيقفون على حقيقة ذلك في المستقبل.

وقد اشتملت الآية على اسلوب الانشاء الذي تمثل بفعل الامر في قوله تعالى «اعملوا»، واسلوب الخبر في قوله تعالى «اني عامل»، وعلى الرغم من أن الخطاب عقد بين طرفين من حيث العمل، وهوعمل المشركين، وعمل الرسول ﷺ، ولكن الخطاب تخصص بتوجيهه اليهم في قوله تعالى «فسوف تعلمون»، ولم يقل سوف (نعلم) بعد ذلك من تكون له عاقبة الدار، الذي يدل على اشتراك الطرفين في عملهما، لأنه عالم بذلك مسبقاً وليس في ذلك ريب ولا شك، أما الجاهلون بذلك فهم المشركون ومنكروالنبوة.

وقد أشار ابن عاشور الى حسن الخطاب وروعة التعبير القرآني الذي جرى على لسان النبي ﷺ بعدما افصح في وعظهم وأبلغ في نصحهم من خلال الآية المتقدمة «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ»بحججه الساطعة «أمر رسوله ﷺ بأن يوادعهم موادعة مستقرب النصر، ويواعدهم ما اعدّ لهم من خسر»[2].

ولهذه الاية الكريمة علاقة وارتباط ومناسبة في الايات السابقة لها لكونها قد جاءت في سياق الجواب لما تقدمها من كلام وهويتحدث عن عبادة المشركين للأصنام، ولما

---

(١)ينظر تفسير التحرير والتنوير- تفسير ابن عاشور - محمد الطاهر ابن عاشور - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت (ط١) (١٤٢٠-٢٠٠٠): ٦/ ٢٧-٢٨

(٢)تفسير التحرير والتنوير: ٢٤/ ٩٦.

كانت نتيجة هذه العبادة خاسرة، ولا تجدي نفعاً، أمره سبحانه أن يوكل أمره الى الله في قوله «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» (الزمر: ٣٨).

وبين ايضاً انّ جملة «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا»لم تعطف على جملة «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ»لأنه لم يكن القصد من الثانية ابلاغ المشركين بعدما ألقى الحجة عليهم، وبين أن آلهتهم لا تقدم نفعاً ولا ضرّاً، ولم يأمر النبي ﷺ أن يقولها لعدم اطاعتهم، لأن ما تقدم في الآية كان مقنعاً من قلّة الاكتراث بأصنامهم، وإنما قالها لتكون شعاراً له (صلوات الله عليه وآله) في جميع شؤونه.

- الخطاب المتضمن اسلوب التهديد والوعيد والانكار على الآخر:

يظهر تعنت المشركين وعنادهم فيما طلبوه منه ﷺ في قوله تعالى: «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً» (الاسراء: ٩٣)، وذلك بأن يأتيهم بما هوليس بمقدوره فقد ذكر الزمخشري أن هذا عناد ولجاج منهم[١].

وارتبطت هذه الاية بالآية السابقة لها لأن هذا الرد الذي صدر منهم عناداً ومكابرة، انما هوناتج عن عجزهم حينما تحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله بقوله تعالى: «قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (الاسراء: ٨٨).

وذكر ابن الجوزي أن آية التحدي التي ظهر فيها عجزهم اغنت عن ردّه ﷺ عليهم، ولما كان قولهم مكابرة وعناداً أمره (صلوات الله عليه) أن يردّ عليهم ويجيبهم على وجه التعجب بقوله تعالى (سبحان ربي..) وكذلك بالاستفهام الانكاري بصيغة الحصر في قوله تعالى «هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً»، فدلّ الاستثناء بـ (الاّ) على حصره ﷺ على البشرية[٢].

ومن خلال الآية الكريمة نجد خطابين مختلفين الاول هوخطاب المشركين وهوبعيد عن الواقع والنواميس الطبيعية، لأنهم يريدون أن يروه جهرة يعرج بسلّم الى السماء أويكون له بيت من ذهب الى غير ذلك، وجاء الخطاب الثاني وهوخطابه (عليه

---

(١)الكشاف ٢/ ٦٤٩.

(٢) ينظر زاد المسير ٨٣٢ والتحرير والتنوير ١٤/ ١٦٦.

وآلهالصلاة والسلام) بكلام موجز مختصر مثير لنفوسهم من خلال انكاره عليهم باسلوب الاستفهام الانكاري الذي خرج الى التعجب، والتعجب هواستغراب شئ خرج عن حده ممهداً له بعلم التسبيح وهوالمصدر (سبحان) الذي أضيف الى لفظة (ربي) ملتجئاً ولائذاً به ممّا ينكرون من خلال اضافة الرب الى ياء النسبة أوالمتكلم، ليكون اقرب اليه، ويكون متمسكاً به، أولعلّ هذه اللفظة اكثر مناسبة في هذا المقام لأن هؤلاء المشركين اربابهم متعددة كما وردَ في سورة يوسف ﷺ «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» (يوسف: ٣٩)، ولكن ربّه (صلوات الله عليه وآله) واحد صمدَ متفرد في خلقه، أولعل لفظ الرب يعني هوالمتولي للأمر والقائم على تدبيره فلذلك اكتفى بهذه العبارة الموجزة مشيراً اليه بعدم الردّ على كلامهم المتعدد المتناقض، لانه هوالمتكفل بالنصر عليهم، وسيهزمهم.

وممّا جاء في الخطاب المتضمن الانكار والتبكيت على المشركين قوله تعالى «قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّه كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» (الانعام: ١٢).

تصدّر الخطاب الشريف الذي تضمن الردود على المشركين في سورة الانعام مفتتحاً الكلام بقوله (قل) لأن الفعل مسند الى النبي ﷺ، وقد أمره أن يسألهم على وجه التبكيت والإنكار عليهم فيلزمهم الحجة بما الزموا به انفسهم وهوخلق السموات والأرض وما بينهما من خلق عظيم لأنهم لا ينكرون ذلك على الله سبحانه، اذ قال «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (لقمان:٢٥)، ولما كانت الحجة واضحة وبينة لم يلزم الخصم بالجواب عن السؤال الموجه له، بل انه امر نبيّه ﷺ أن يجيب بقوله تعالى: (قل الله) وهوتقرير عمّا انكره عليهم في سؤاله المعجز لهم، ولكونه ظاهراً بيّناً لا ينكره أحد، فمجيئ السؤال والجواب في آن واحد اثبت على قيام الحجة، وأمّا الاستغناء عن جواب الاخر بسبب التسليم من السائل فان الثاني لا يستطيع أن ينكر استدلال المتكلم لوثوقه بذلك وثبوته لدى الجميع[1].

---

(١)ينظر الكشاف ٢/ ١٠ والتفسير الكبير ٤/ ٤٨٨-٤٨٥ والميزان في تفسير القرآن – السيد محمد حسين الطباطبائي– مؤسسة المجتبى للمطبوعات – ايران – قم (ط١) (١٤٢٥-٢٠٠٤): ٧/ ٣٧.

ونقل الآلوسي في عدم اصدار الجواب منهم لكونهم قد تثاقلوا عنه لوقوع الحجة عليهم[1].

وبعد هذا الخطاب البالغ الحجة تحول خطابه المرسل على لسانه الى الكلام عن رحمة الله في قوله تعالى «كتب على نفسه الرحمة»بعدما كان الحديث يشير الى انذار ووعيد من خلال السؤال الذي خرج الى التبكيت والإنكار الدال على نفاذ قدرته والتصرف المطلق في ملكه، اردف حديثه بالرحمة تنبيهاً لهم الى أن رحمته تسبق غضبه كي يقلعوا عن عصيانهم، ويلجؤا الى الله تعالى[2].

وعدّ ابن عاشور جملة (كتب على نفسه الرحمة) جملة (معترضة وهي من القول الذي أمر الرسول بأن يقوله)، موضحاً المعنى الذي افاده ذكر الرحمة التي سبقت بعد الكلام الذي انكر عليهم جحودهم في الوحدانية، وبهذا فقد حصل تحول في الخطاب وهواسلوب حجاجي للوصول الى الابلاغ، فأنه لمّا أخبر بقدرة الله المطلقة وتصرفه في ملكه ما يشاء، جاءت رحمة الله بعد هذا الكلام، وذلك لعلّ الكافر يسأل عن عدم التعجيل بأولئك المنكرين والجاحدين لأنعم الله بالهلاك، وكذلك سؤال المؤمن باستبطاء تأخير عقابهم لهذا التساؤل انعطف الخطاب الى افاضات الله وعفوه الى من يستحقها من خلقه، وقد أوجبها على نفسه تبارك وتعالى بدليل الفعل (كتب)، والى هذا أشار الشيخ ابن عاشور أن الرحمة التي وصف نفسه بها أنها (متعلقة تعلقاً عاماً مطرداً بالنسبة الى المخلوقات.. فلما كان ذلك مطرداً شبهت ارادته بالالتزام، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هوحقيقة في الايجاب، والقرينة هي مقام الالهية... والمقصود أن ذلك لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب، فأنهم اذا ارادوا تأكيد وعد اوعهد كتبوه[3].

ونجد في هذا النظم خطاباً مترابط الاجزاء والفقرات ترابطاً محكماً، فجملة (ليجمعنكم يوم القيامة) جاءت نتيجة لما تقدم من الكلام وهوارتباطها في الرحمة التي وعدها الله لعباده في قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) «فكأنه قيل: وما

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - لأبي الثناء الالوسي (١٢٧٠هـ) تحقيق مجموعة من الباحثين - مؤسسة الرسالة - بيروت (ط١) (١٤٣١-٢٠١٠): ٨/ ٦٢.

(٢) ينظر البحر المحيط - لابي حيان الاندلسي (٧٤٥هـ). دار احياء التراث العربي - بيروت (ط١) (١٤٢٣-٢٠٠٢): ٤/ ١١٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٦/ ٣٣ وينظر الميزان ٧/ ٢٨.

تلك الرحمة؟ فقيل انه تعالى (ليجمعنكم الى يوم القيامة)، وذلك بأنه يجازى الناس بأعمالهم فيربح المؤمنون ويخسر غيرهم»[1].

وفي قوله تعالى ملمح حجاجي على درجة عالية من الابلاغ والتأثير والوصول الى الاقناع من خلال سبك الكلام وترابطه، فجاء قوله تعالى: «الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»وهي جملة من الاية نفسها جاءت مفرعة عن الجملة الاولى (ليجمعنكم الى يوم القيامة)، وفيها اشارة واضحة من الوعيد والتهديد لأولئك المجموعين، واسم الموصول (الذين) وصلته جاء بدلاً عن المخاطبين الذي دلّ عليهم كاف الخطاب في (ليجمعنكم) في محل نصب، قال الاخفش «أي ليجمعنّ الذين خسروا انفسهم»[2]، وقيل غير هذا وهوأن (الذين خسروا أنفسهم) رفع بالابتداء لأنه يشمل الجميع[3]، وأورد ابوالسعود أن «الجملة تذييل مسوق من جهته لتقبيح حالهم غير داخل تحت الامر»[4].

ولقد التفت المفسرون الى ظاهر قوله تعالى: «الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»، وهوأن عدم الايمان ناتج عن الخسران قال الزمخشري (فان قلت كيف جعل عدم ايمانهم مسببّاً عن خسرانهم، والامر على العكس) قلت الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون) [5].

وقال الرازي (هذا يدل على سبق القضاء بالخسران والخذلان هوالذي حملهم على الامتناع من الايمان) [6]، وانكر ابوحيان على الزمخشري ما ذهب اليه، وردّ ذلك الى مذهب الاعتزال[7].

---

(١) التفسير الكبير: ٤/ ٤٨٩ وينظر الميزان ٧/ ٢٨ والتحرير والتنوير ٦/ ٣٣.

(٢)معاني القرآن – لأبي الحسن الاخفش (٢١٥هـ) تحقيق د. فائز فارس (ط٣) (١٤٠١-١٩٨١). ٢/ ٢٧٠.

(٣) ينظر التفسير الكبير: ٤/ ٤٩٠.

(٤) تفسير أبي السعود: ٢/ ١٣٠.

(٥) الكشاف: ٢/ ١٠.

(٦) التفسير الكبير: ٤/ ٤٩٠.

(٧) البحر المحيط: ٤/ ١١٠.

الزام الخصم ومحاكمته باستعمال اساليب الحجاج في الخطاب الموجّه:

التحول والعدول في الخطاب:

ان التحول في الخطاب من اسلوب الى آخر كالتحول من التهديد والوعيد والإنذاروالإنكار الى اللين والمحاورة والاستماع الى كلام الخصم وتقديم الجواب والحجة لهووسيلة منْ وسائل الاقناع وواحدة من آليات الخطاب كالتحول في الاسلوب اوالعدول في الصيغ الكلامية من ذلك ما اشار اليه الزمخشري في عدول الخطاب من قوله (فانظروا) بالفاء التي تفيد التعقيب والإسراع في العطف كما جاء في سورة آل عمران «فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (ال عمران: ١٣٧) الى (ثم انظروا) في سورة الانعام، باستعمال (ثم) الدالة على التراخي في عطف ما بعدها، فهويرى أن الاستعمال (فانظروا) بالفاء (جعل النظر مسبّباً عن السير.... فكأنه قيل سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله «سيروا في الارض ثم انظروا»فمعناه اباحة السير في الارض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبّه على ذلك بـ (ثم) لتباعد ما بين الواجب والمباح»[1]، وعلّق احمد الاسكندري على قوله أن الاجدر عليه أي الزمخشري أن يجعل الاستعمال (بالفاء وثم) دالاً على معنى واحد وهوأن يكون السير سبباً في النظر الاّ انّ (الفاء) لاظهار السببية، و (ثم) فللتنبيه، ويكون النظر هوالمقصود في السير، وان السير وسيلة آليه[2].

وأشار الغرناطي الى مناسبة الخطاب الموجز الموجه لهم على لسانه ﷺ من اكثر من جهة، اذ انّ قوله »يفصح عن تكذيبهم فيما خوطبوا به من آيات متقدمة في أول السورة منها «بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ» (الانعام: ٥)، وقوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ» (الانعام: ٦)، مما تقدم من الآي كان مغنياً عن خطابه ﷺ مكتفياً بالتلميح والإشارة، وكذلك اشار الى علّة العطف بـ (ثم) وليس بالفاء كما جاء في سور أخرى، فقد جاء العطف فيهن بالفاء (فانظروا) [3]، وذلك أن آية الانعام أفتتحت بآيات تدل على التفكر في ملكوت السماوات والأرض، والتدبر والتأمل فيها كما في قوله

(١) الكشاف ٢/ ١٠.

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف للزمخشري لأحمد الاسكندري ٢/ ١٠.

(٣) ينظر سورة الروم ٤٢ والعنكبوت ٢٠.

تعالى: «الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» (الانعام: ١) وكذلك «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى» (الانعام: ٢)، فهذه الايات الدالة على الخلق العظيم كان من المناسب أن يكون العطف في خطابه المتسبب عما قبله بحرف العطف (ثم) لتكون مهلة في الزمن لما يستلزمه ذلك من أناة في التفكير والتبصر لفخامة الامر، ولما فيه من تفاوت من منظور وتجريد[١].

وذكر ابن عاشور انّ الخطاب ذيّل بوصفهم (بالمكذبين) في حين ختمت الاية التي قبلها بـ (يستهزئون) وهوقوله تعالى: «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ» (الإنعام:١٠). «للدلالة على أن التكذيب والاستهزاء كانا خلقين من اخلاقهم، وان الواحد من هذين الخلقين كان من استحاق تلك العاقبة»[٢].

وأفاد العدول في تركيب الخطاب من الضمير الى الاسم الموصول ملمحاً حجاجياً، وهوما جاء في قوله تعالى: «الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»والتقدير (فانتم لا تؤمنون لأنكم خسرتم انفسكم يوم القيامة)، ذكر ابن عاشور فائدة العدول الى الاسم الموصول لكونه يحتاج الى صلة تتم معناه وتلازمه قال«واشرب الموصول معنى الشرط ليفيد شموله كل من اتصف بمضمون الصلة»[٣].

وكذلك افاد العدول معنى التوكيد والشدة في المعنى حينما تحول الخطاب من ضمير الغيبة الى ضمير الخطاب في قوله تعالى «قل لمن ما في السموات والارض قل لله..»فهذا الكلام ورد بصيغة الغائب، وبعده تحول الى ضمير الخطاب في قوله تعالى «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٤].

- اقناع الخصم في الحجج المتضمنة في الخطاب.

تعدّ الحجة والزام الخصم من اكبر وسائل الاقناع في الخطاب القرآني بما جاء على لسان الرسول الاعظم ﷺ، وتعدّ اللغة أداة للابلاغ والانجاز الكلامي، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (الانعام:١٣)،

(١)ينظر ملاك التأويل - لابن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ) تحقيق عبد الغني محمد علي الفاسي - دار الكتب العلمية. بيروت (ط١) (١٤٢٧-٢٠٠٦): ١/ ١٤٤-١٤٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٦/ ٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ٦/ ٢٤.

(٤) التفسير الكبير: ٤/ ٤٩٠.

سيقت الاية الكريمة في سياق اثبات قدرة الله سبحانه، وتصرفه في ملكه متناسقة مع الآيات السابقة لها لدحض منكري التوحيد وردعهم، فقد اختلف في دلالة الفعل (سكن) في الاية المتقدمة، ذهب الزمخشري الى انه من السكنى، وهوما ثبت وأقام في المكان، وقيل هومن السكون الذي يقابل الحركة، وقد رجحوا الثاني وهوالسكون والخفاء لانه اعم، فكل متحرك يسكن وليس كل ساكن يتحرك[1].

ورجح أبوحيان أن قوله تعالى (سكن) هواستئناف وليس معطوفاً على قوله (لله) وبيّن معنى ذلك انه كانت السموات والأرض وما بينهما ملكاً لله سبحانه وهذا ظاهر في المكان أتمّ بقوله أن ملكه شامل في المكان والزمان، وقدّم ما كان ملكاً في المكان لأنه اقرب للعقل والفهم، وفيه كناية عن الخفاء، وهومن باب ذكر الخاص بعد العام، فلما دلّ الكلام المتقدم عليه على العام جاء بعده بالخاص وهوما سكن في الليل والنهار لإثبات عموم الملك في الظاهر والخفي[2]، ويرى ابن عاشور انه تخصص الليل بالذكر لان الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، فهوكقوله «وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ» (الانعام:٩٥).

وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول، لأن الليل لمّا كان مظنّة الاختفاء فيه قد يظن أن العالم يقصد الاطلاع على الساكنات فيه بأهمية ولا يقصد الى الاطلاع على الساكنات في النهار، فذكر النهار لتحقيق تمام الاحاطة بالمعلومات)[3].

واذا كان (السكن) من السكون المقابل للحركة فهذا يدلّ على الشمول والاحاطة للمخلوقات كافة الساكن منها والمتحرك، ولكن التعبير خصّ (الساكن) ولم يذكر المتحرك، ففسر هذا انّه اكتفى بذكر الاول وهوالساكن من دون ذكر ضدّه وهوالمتحرك، والتقدير (ما سكن فيها وتحرك)، لان السكون اشمل كما ذكر في قوله «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» (النمل: ٨) وأراد الحرّ والبرد، فاستغنى بالاول عن ضدّه بالقرينة الدالة وهوالضدية.

واختيار الفعل (سكن) غاية في الدقة لما فيه من دلالة عميقة تعني العموم والشمول

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ١١ وزاد المسير ٤٢٧.

(٢) البحر المحيط ٤/ ١١٠-٢١١ وينظر تفسير التحرير والتنوير ٤/ ٣٥.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٦/ ٣٥.

لأنه لا شئ في المخلوقات الاّ يمرّ في حالة من السكون، فكل متصف بها حتى المتحرك[1].

ودلّ تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: «وله ما سكن»«على الحصر وهوحصر الساكنات في كونها له لا لغيره أي في كون ملكها التام له) [2].

ان هذا الخطاب الكريم الموجه الى اولئك المنكرين والمكابرين قد بلغ الغاية في التأثير في النفوس لما فيه من الحجج البينة الواضحة من خلال الفعل الكلامي والتعليلات الواضحة المقنعة، فهويستعمل القوة في الكلام من خلال المؤكدات والضديّات، وأساليب الحذف والتقديم والتأخير، وسدّ التغيرات التي ينفذ اليها المخاطب المعاند، فيسوق الخطاب القرآني الحجج تلوالحجج لرفع توهم ما يذهب اليه الآخر، فقد يساق الخطاب ويحتاج الى اكثر من حجة لاثباته، فقد جاء قوله تعالى خطاباً على لسان نبيّه المصطفى ﷺ يأمره بقوله «قل لمن ما في السموات والارض...»حجة على منكري البعث والمعاد، ولما كانت النظرة الاولى منهم تغفل أن يكون ملكه تعالى يوجب علمه واحاطته بها - أي علمه واحاطته في السموات والارض - فساق قوله تعالى «وله ماسكن في الليل والنهار»لتكون مقدمة للحجة في الآية المتقدمة «قل لمن ما في السموات والارض...»ثمكرر بحجة أخرى دفعاً لما عرف سبحانه عنهم الوهم، ولعله العناد والتكبر كرر ما يدل على ملكه المطلق تنبيهاً لهم على ذلك، فختمت بالسمع والعلم بقوله تعالى: «وهوالسميع العليم»تفريعاً لما تقدمها من الكلام[3].مما تقدم ندرك أن الله سبحانه وجه خطابه على لسان نبيّه ﷺ بأبلغ كلام، وكلّمهم على قدر ادراكهم، وكلامه تعالى يجاري فيه اساليب العرب في كلامها، ولعل هذا الخطاب المقدس يوجه اليهم وتراعى فيهم احوالهم ومقاماتهم، ومراعاة المقام، وحال المرسل اليه، أوالمخاطب تنبه اليه الدارسون الاوائل في ابحاثهم عن ميزات العرب في كلامها وخطبها، اذ أدرك الجاحظ انه (ينبغي للمتكلم أن يعرف اقدار المعاني، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين، وبين اقدار الحالات

---

(١)روح المعاني ٨/ ٧٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٦/ ٣٥.

(٣)ينظر الميزان: ٧/ ٣١.

فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني، ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات) [1]. وفي هذا المجال (فالمرسل يوجه خطابه نحوالمرسل اليه سواء كان سامعاً أوقارئاً، والمرسل اليه ليس غفلاً فخصائصه معروفة لدى المرسل مسبقاً، اذ لن يحاجج الاّ من سبق أن فقه موقفه وعرف خصائصه، بل استحضرها في ذهنه قبل انتاج الخطاب) [2]، وان استحضار المتكلم لحال المستمعين وطبيعتهم وظروفهم كفيلة بالإقناع ونجاعة الخطاب وفعله الكلامي[3].

ان ما ورد في هذا البحث الشئ القليل مما جاء في الخطاب القرآني المرسل الى الآخر الموجه على لسان النبي الاكرم (محمد) ﷺ ولا سيما المشركون في أمر الدعوة ونشرها اوالشؤون الاخرى نسأل الله أن يمكننا توسيعه اكثر.

والحمد لله رب العالمين...

(١) البيان والتبيين - لأبي عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي- القاهرة (١٩٧٥): ١/ ١٣٨-١٣٩.

(٢) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية - عبد الهادي بن ظافر الشهري - دار الكتاب الجديد المتحدة (٢٠٠٤) (ط١): ٤٥٨.

(٣)ينظر بلاغة الاقناع في المناظرة-د.عبد اللطيف عادل - دار الامان- الرباط. (ط١) (١٤٣٤-٢٠١٣): ٦٦.

السلام والتعايش في الرؤية الإسلامية في ظلّ سيرة النبي محمد ﷺ

أ. د. علي عبد المنعم طالب
مدير فرع بيروت - جامعة آزاد الإسلامية

الدكتور علي عبد المنعم طالب

أستاذ الفلسفة والأديان لدى جامعة آزاد والجامعة الاسلامية في لبنان

- الدكتور الشيخ علي عبد المنعم طالب
- مواليد: بيروت ١٩٦٨
- درس الفقه والشريعة في قم- إيران منذ العام ١٩٨٤ حتى ٢٠٠٠.
- حضر البحث الخارج منذ العام ٢٠٠٠ حتى العام ٢٠١٠.
- حائز على دكتوراه في الفلسفة من الجامعة الإسلامية في لبنان - ٢٠١١ بتقدير جيد جداً.
- كتب في أكثر من مجلة ونشرة، وأعد وأذاع برامج إجتماعية ودينية في إذاعات محلية.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات، وله بعض المؤلفات الفقهية والكلامية والفلسفية.
- حالياً: أستاذ في الجامعة الاسلامية في لبنان، ومدير فرع بيروت في جامعة آزاد الإسلامية.

- الهاتف: ٠٠٩٦١٣٧٢١٩٤٥
- البريد الإلكتروني: dr-ali-taleb@hotmail.com

إن أهمّ ما تتطلّبه فطرة الإنسان في علاقاته مع بني جنسه في ميادين الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة المختلفة إنما هو السلم والتعايش، بغضّ النظر عن العوامل الخارجيّة. وترتبط هذه الحالة الفطريّة ارتباطاً وثيقاً بالشمائل الطيّبة، والسجايا الرفيعة، والملكات المحمودة التي يكتسبها الإنسان.

وعلى الرغم من أن حالة الحرب والصراع بين البشر تنبع من عواطف باطنيّة جامحة، وأن غريزة حبّ الذات وحسّ الإستغلال للآخرين وما يتفرّع عنهما من غرائز تؤدي دوراً هاماً في التمهيد للحرب ونشوب حالة الصراع، فإنه لا ينبغي إغفال مسألة ارتباط الحرب بالغرائز البشرية، وكون ذلك مقبولاً في حالة تطرّف الإنسان في استغلال الغرائز الباطنية.

كما تلقى العلاقة الفطرية والطبيعية والأخلاقيّة التي تربط الإنسان بالتعايش والسلم والصلح الترحيب والتأييد من منظار الحقائق التاريخيّة البيّنة، وتعزّز مبادئ العقل والفكر والعلم هذه العلاقة المعنويّة بصورة أعمق. ولئن نظر البعض إلى الحرب باعتبارها أمراً لا مناص منه في الحياة الإنسانيّة، فإن أدلّتهم في هذا المجال تمثّل انحرافات في اختيار أساليب الحياة، تُمنى بها الشعوب أو حكّامها[1].

إن السلام يحظى بأهمية خاصة في الفقه السياسي الإسلاميّ، وقد استُعمل في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وروايات أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ لتبيان مبدأ قانونيّ وسياسيّ، تمّ التأكيد عليه من خلالها، وتراوحت اشتقاقاته بين السلم والسلام والسلامة والتسليم والإسلام وغيرها...

---

(١)- الزنجاني، عباس علي: القانون الدوليّ في الإسلام، ترجمة علي هاشم، ايران - مشهد، مجمع البحوث الإسلاميّة، ط ١، ١٤١٧ هـ ص ٢٥٤-٢٥٥.

ولقد ركزّ سيد البشرية محمّد ﷺ في مسيرته وسيرته ومشروعه الإسلاميّ على هذا المبدأ، حتّى شكّل أصلاً لا مهرب منه، ولا غنى عنه في العلاقات والإرتباطات والميادين السياسية المختلفة في الإسلام. ويبرز ذلك من خلال جملة من النقاط:

أ- لا يبدأ المسلمون القتال[1] إلاّ بعد دعوة عدوّهم إلى ثلاثة أمور: إما الإسلام، وإمّا الجزية، وإلاّ فالحرب التي تُعدّ آخر الداء. فالمسلمون يعرضون إسلامهم على أعدائهم، لأن فيه سعادتهم الدنيويّة والآخروية، فإن قبلوا هذا الدين واعتنقوه فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا فرق بينهم، ينضوون تحت لوائه، ويحملون تبعة الدولة الإسلاميّة، وفي ذلك كفّ عن القتال، وصيانة للدماء. فإن أبوا ذلك عُرضت عليهم الجزية التي يُحمى بها أهل الذمة، ويكون المسلمون إزاء دفع الذميّن للجزية ملزَمين بحمايتهم والذّبِّ عنهم والمحافظة عليهم، وفي ذلك حقن للدماء، وصيانة للنفوس، وكفّ عن القتال. فإن أبوا هذين الأمرين كان النزال والقتال.

ويتبيّن ذلك من سيرة النبي ﷺ، إذ كان يوصي أمراء جيشه بتقوى الله، ومراعاة هذه المبادئ، فيقول لهم: «... وإذا لقيت عدّوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيّتهن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، أدعهم إلى الإسلام فإن قبلوا فاقبل منهم وكُفّ عنهم، ثمَّ ادعهم إلى التحوّل إلى دار المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلْهُم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[2].

ب - قرّر الإسلام الجهاد بغية إعلاء كلمة الله، وتخليص الإنسانيّة من ظلم الأنظمة البشريّة. وإزالة الظلم تعني إرساء قواعد العدل، أي: إرساء قواعد السلم والسلام، فالجهاد يمنع الظلم والإستبداد، ويرفعه عن بني الإنسان، وفي ذلك إعزاز للسلم

---

(١)- المقصود بالقتال هنا الجهاد الابتدائي الذي هو من مختصات رسول الله ﷺ فقط، ولا يجوز لغيره العمل به لا في عصره ولا في غير عصره.

(٢) - النيسابوريّ، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، مصر، مطبعة بولاق، لا.ط، لا. ت، ج٢، ص٤٦.

والسلام، وإذلال للباطل، فلولا دفع الباطل بالقتال، لهدمت صوامع العباد، وخرِّبت بيوت الله، وأُزيلت كنائس النصارى، وقد جاء في النصّ القرآني قوله تعالى:«أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»[1].

ج- أظهرت لنا الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة أن الجدال قبل القتال، ودعوة الناس تبدأ باللسان قبل اللجوء إلى السِّنان، والمكالمة بالحروف قبل المقارعة بالسيوف، فقال الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»[2]. ولو جعل النبي ﷺ الحرب أساساً، لما امتثل لأمر الله بدعوة الناس بالتي هي أحسن، ولما تحقق الهدف المتوخّى من هذه الآية.

د- يرى بعض المفسرين أن أولى الآيات التي نزلت على قلب محمد ﷺ حول الجهاد هو قوله تعالى:«إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ»[3] وهذه هي حالة الدفاع، ومن هنا يتبين لنا أن الجهاد إنما شُرِّع أساساً بهدف الدفاع عن الأمة الإسلامية ومكتسباتها.

ويتأكد هذا المعنى من خلال عدة آيات أخرى، من جملتها قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»[1]، وهذه بالضبط عين حالة الدفاع، إذ المظلوم الذي يُقاتَل لا بد وأن يدافع عن نفسه، إلا أنه في الوقت عينه، وحتى في حالة الدفاع، يجب أن لا يتجاوز الحدود من خلال الإعتداء على الآخرين، كقتل العجائز والنساء والأطفال ومن لا علاقة له بالحرب.أطفال آ

هـ- تبيِّن لنا السيرة النبوية مثالية رسول الله ﷺ ورحمته ومرونته، فقد كان يؤذى

---

(١) - سورة الحج: الآيتان ٣٩-٤٠.

(٢) - سورة النحل: الآية ١٢٥.

فيصبر، ويُهان فيصفح. ولئن قال الله تبارك وتعالى:«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»[1]، فإن النبي ﷺ كان يقول:«بل نصبر»، ويتمكن من أهل مكة، إذ يقفون أمامه موقف الذليل المستسلم، إلا أنه يقول لهم: «إذهبوا فأنتم الطلقاء..»[2]

فسيرة النبي ﷺ تُظهر لنا أن الانتقام ليس من خُلُقه، وأن الحرب وما ينتج عنها من إهدار للدماء أمر كرَّهه الله إليه، ولو كانت الحرب أصلاً لما تجلّت هذه المواقف، بل كنّا إزاء بطولات الملاحم وأساطير الإنتقام.

و- ربّما يُعترض على المعنى المتبادر من أمر الله بالإعداد للقتال، ويُلصق بهذا السياق التنافي مع مبدأ الإسلام، ولكنّ الله تبارك وتعالى يبيّن المقصد من الإعداد للقتال من خلال قوله:«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ»[3].

فالهدف من الإعداد إرهاب أعداء الله الذين يقفون أمام الدعوة الإسلاميّة، ويتربّصون بها شرّاً. فلا بُدّ من تعبئة الجند والنفير وسائر مظاهر القوة العسكرية التي تُنزل في قلوب الأعداء الخوف، وتؤرق مضاجعهم، فتجعلهم يحسبون للمسلمين ألف حساب، كي يحاولوا قدر استطاعتهم مجانبة الصدام مع المسلمين، وبذلك تُحفظ دماء الطرفين وتُقلّص حالة الحرب. وهذه إحدى سمات نبيّنا ﷺ التي تفرّد بها عن غيره من سائر الأنبياء، إذ جاء في الحديث أنّه أُعطي خمساً لم يعطهنّ أحد قبله، منها:«ونُصرت بالرعب مسيرة شهر»[4].

ز- إنّ قوله تعالى: «وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً»[5] يشكّل شعاراً يتم التمّسك به من أجل إحلال السلام والتعايش، إذ كان قادة المسلمين يجعلون

---

(١)- سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢)- الحسني، هاشم معروف: سيرة المصطفى، بيروت - لبنان، دار التعارف،لاط، ١٩٩٦ م، ص ٥٩١.

(٣)- سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٤)- الحسن، محمد علي: العلاقات الدولية في القرآن والسنة، عمان- الأردن، مكتبة النهضة الإسلامية، ط ٢، ١٩٨٢ م، ص٢٦٥.

(٥)- سورة النساء: الآية ٩٤.

مقولة: «والله، إنّ إسلامكم أحبّ إلينا من حربكم»[1] بمنزلة القاعدة التي يتعاملون من خلالها مع أعدائهم.

وتأخذنا هذه النقاط بصورة تلقائية إلى اعتبار السلم والتعايش الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وليست سيرة الرسول ﷺ سوى أنموذج تتمثل فيه النصوص الدالة على ذلك بصورة عمليّة.

وانطلاقاً من ذلك، يمكن الحكم بعدم الصحة على ما ذهب إليه «بعض الفقهاء في زمن الأمويين والعباسيّن، والحرب مشتعلة، من أن الأصل في العلاقة هو الحرب، وقد أخذوا قولهم هذا من الواقع، لا من أصل النصوص»[2].

وعليه، فمن استند إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والحروب المحمديّة، رأى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم والصلح والتعايش، لا القوة والحرب والإرهاب.

لقد عاش العالم على قانون الغاب في علاقات القبائل والعائلات والدول بعضها ببعض فترات طويلة من الزمن، فكان كلّ طرفٍ يبغي على الآخر، ولا رادع إلا أن يكون هذا الطرف ضعيفاً غير قادرٍ على الإعتداء، أو يكون هناك ميثاق محترم ما بقي الطرفان متعادلين، ومتى ما شعر طرف بأنّه الأقوى غزا الطرف الآخر بدون أيّ رادع ولا وازع على قاعدة: «من جاورك فهو عدوّك تُخضِعُهُ ويُخضِعُك، وتبدأه بالحرب متى استطعت، أو يبدؤك بالحرب متى استطاع»[3]... وبذلك تنقضّ الدولة أو القبيلة أو الأسرة القوية على الدولة أو القبيلة أو الأسرة الضعيفة، راميةً عرض الحائط أيّ قانون أو أو نظام وازع أخلاقيّ.

ولا يختلف الأمر عنه في هذه الأيام، فإن العرف الدولي القائم يسير على أنه لا يكون سلم ثابت بين دولةٍ وأخرى إلا بميثاق عدم الإعتداء، ويبقى هذا الميثاق ما بقيت القوتان متعادلتين، ويعتبرون المعاهدات التي يُفرَض توقيعها فرضاً بعد الحروب

(١)- م. س، ص ٢٦٦.

(٢)- أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية في الإسلام، مصر- القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، لاط، ١٣٨٤ هـ ص ٥١.

(٣) - العقاد، عباس محمود: حقائق الاسلام وأباطيل خصومه، مصر- القاهرة، لاط، لات، ص ٢٣٢.

على الدول المهزومة قانونية ونافذة رغم أنها كانت بفعل الضغط والإكراه، ويتحدث العقلاء كثيراً عن قضية السلام العالميّ، ويبذلون جهوداً مضنية في سبيل الحصول على حلّ لها يطمئن العالم على حياته ومسيرته ومستقبله إلى نواحي الخير والسعادة.

ولكن النص القرآني والسنّة النبويّة والسيرة العملية للمسلمين التي كانت تقع تحت نظر نبيّهم ﷺ، كلّ ذلك يظهر لنا مستوى ما وصل إليه الأمر من العمل بقوّة على إرساء مبادئ السلام العامّ، إذ تجلّى الأمر نظرياً وتطبيقياً للمسلم بأن يتمسك بالسلام على نفسه وعلى إخوانه. فقد قال تعالى: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً»[1]، كما أمر عباده بالتسليم على نبيِّهم بقوله: «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً»[2]، كما جعل السلام تحية عباده الصالحين في الجنة كما في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ»[3]، وجعل السلام أيضاً مفتاحاً لدخول البيوت: «لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا»[4]، بل جعل السلام تحية لجميع الرسل: «سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ»[5] و«سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ»[6]، و«سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»[7]، و«وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ»[8].

وما كان الله ليشيع السلام في هدايته لعباده على هذا النحو «إلاّ ليغرس في قلوبهم حبّ السلام والعمل على السلام. وإذا كان الله يحبّ من عباده أن يكونوا على صفته، وكان إعلانه أسماءه وصفاته توجيهاً لهم نحو ما في هذه الأسماء والصفات من كمال ينزل الإنسانية عن مكانتها عنده إذا انحرفوا عن التحلّي بما توحيه هذه الصفات، كان

---

(١) سورة النور: الآية ٦١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٣) سورة يونس: الآيتان ٩ - ١٠.

(٤) سورة النور: الآية ٢٧.

(٥) - سورة الصافات: الآية ٧٩.

(٦) - السورة ذاتها: الآية ١٢٠.

(٧) - السورة ذاتها: الآية ١٠٩.

(٨) - السورة ذاتها: الآية ١٨١.

مقتضى الإنسانيّة المكرّمة أن تعمل جُهدها في التحلّي بالإسلام والدعوة إلى السلام وإفشائه بين العباد»[1].

ومن هنا، فقد حملت هذه المكانة التي تبّوأها السلام والتعايش في الرؤية الإسلاميّة جماعة من المستشرقين المنصفين على تقدير ما رسمه الدين الاسلاميّ الحنيف من مبادئ سليمة، تجسدت بادئ الأمر في النصوص القرآنية والنبوية من جهة، والسيرة المحمديّة التي شكلّت التجربة الأولى في هذا الميدان من جهة أخرى.

فقد رأى المستشرق (جب) أن:«الإسلام ما زال في قدرته أن يقدّم للإنسانيّة خدمة سامية جليلة، فليس هناك أيّ هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهراً في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جهة واحدة، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس، فلا بُدّ من الإلتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع»[2].

ولقد قدَّر (سيرت وأرنولد) مبدأ السلام والتعايش والرحمة والعدل فيما كتباه، إذ أشارا إلى اضطهادات هرقل، وكيف لجأ الروم إلى القوة، فنهبوا الكنائس، وسلبوا الديار، وأنزلوا العقاب من غير رحمة ولا شفقة، بينما تحقق الأمن والسلام عندما أسلمت المدن، وتمّ الخلاص من ربقة الإضطهاد، حتى كتب أهالي وادي الأردن من المسيحيّين:«يا معشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا ومنازلنا»، كما أغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحبّ لهم من ظلم الإغريقيّين وتعسّفهم»[3].

وينطلق مبدأ السلم والتعايش في الإسلام من قاعدة أنّ«الناس سواسية»، فقد جاء في النص القرآني قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»[4] كما ورد قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

---

(١) - شلتوت، محمود: من توجيهات الإسلام، مصر - القاهرة، مطبعة الأزهر، لاط، لات، ص ٨٢-٨٥.

(٢)- المستشرق جب: حيثما يكون الإسلام (نقلاً عن: سيد قطب: الإسلام والسلام العالميّ، ص ١٣٩).

(٣) سيرت وأرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن، مصر، ط٢، ١٩٥٧م، ص ٥٣ و ١٣٩.

(٤)٢٧- سورة الأنبياء: الآية.٩٢

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ»[1]، وهذه الآيات تُصرح بأن الناس كلّهم أمّة واحدة، وهي تناديهم: يا بني آدم، إن الله فرّعكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم[2]، ثم نشر من تلك النفس المخلوقة خلقاً كثيراً.

كما أشارت الآيات القرآنية إلى وحدة الجنس البشري، ولا يمنع هذه الوحدة اختلاف اللغات والألوان، بل يمكن أن تتم من خلالها آليات التعارف والتآلف، فالله يريد من خلقه التعارف والتآلف، لا التنافر والتقاتل، فهو يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[3].

وليتحقق هذا التعارف، حثّ القرآن الكريم على السعي والضرب في الأرض طلباً للرزق، وطلباً لهذا التعارف الإنسانيّ، وليحصل كلّ إقليم على ما عند الآخرين[4]. فالناس ذوو كفاءات متنوّعة، وفي بلادهم مصادر مختلفة، فبتعاونهم واستغلالهم للثروات تنعم الإنسانيّة بالعيش الرغيّد، ولكن هذه الغاية لا تُدرك إلا على أساس شريعة حقة، فبوحدة العقيدة ووحدة الهدف يمكن للشعب الواحد أن يتآلف بعشائره وقبائله، وخير دليل على ذلك واقع العرب قبل أن ينطلق فيهم النبي محمّد ﷺ، فقد كانوا قبائل شتّى متناحرة ومتنافرة، فلّما بزغ فجر الإسلام وحّدهم تحت رايته: «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[5].

وقد علّق الزمخشري على هذه الآية مشيراً إلى أن التأليف بين قلوب من بُعِثَ إليهم رسول الله ﷺ يعتبر من الآيات الباهرة، لأن العرب بما فيهم من الحميّة والعصبيّة والإنطواء على الضغينة في أدنى شيء، وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلب، ثم ائتلفت قلوبهم على اتّباع رسول الله ﷺ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لمّا نظم الله من إلفتهم، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) الزمخشري: الكشاف، القاهرة، مصر، الاستقامة، لاط، ١٩٤٦ م، ج١، ص ٥٠.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٤) أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية في الإسلام، م. س.، ص ٢١.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

التحابّ والتوادّ، وأماط عنهم التباغض والتماقت، وكلّفهم الحبّ في الله، والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب، فهو يقلّبها كما يشاء، ويصنع فيها ما أراد[1].

كما حرص الإسلام على نشر روح التوادّ والتآلف لا بين العرب وحدهم، بل بين العرب وغير العرب، وحارب التفرقة بين جنس وآخر، وبين لون وآخر، فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصاني، ولو كان شريفاً قرشيّاً»[2].

ويدعو الدين الإسلامي إلى الإسلام المبني على العدل، لا إلى الإستسلام المبني على الذلّ والخنوع، فالاستسلام لمبادئ الشرّ لا يُسمى سلاماً، وإنما يُسمى ظلماً وذَلاً وهواناً، فقد نبذ القرآن فرص السلم الرخيصة بقوله: «فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ»[3].

وهو يرفض تلك النظريات التي ولّدتها فظائع الحروب، والقائلة بأن الحرب لا تليق بالعقلاء، وأنه ما من سلام ولو كان ظالماً إلاّ ويُفضّل على أعدل الحروب[4]، ويرى في المقابل أنّ الناس إذا ظُلموا واعتُديَ عليهم، فالحرب أجدى على الدنيا من السلام.

وهكذا يظهر أن النص القرآني وسيرة النبي ﷺ يدعوان إلى السلام على النحو الذي ارتضاه لعباده، فالله يرى أن الدينونة لا تنبغي لأحد سواه، وأن العدل لا يكون في غير ما أراده، وأن التعدّي على البشر بإخضاعهم لنظام غير نظامه هو انتهاك لسلمهم وسلامتهم وسلب لكرامتهم، ولذا ندّد الإسلام بأولئك الذين يسلبون سلام شعوبهم وأمنهم، ودعاهم إلى الكفّ عمّا هم عليه من الظلم ليعمّ لسلام والسلم جميع بني البشر.

وإذا كان النصّ القرآني قد دعا إلى الحكم بما أنزل الله من الشريعة التي تستهدف

---

(١) الزمخشري: الكشّاف، م.س.، ج١، ص٥٣٩.

(٢) أبو زهرة، محمّد: العلاقات الدولية في الإسلام، م.س.، ص ٢١.

(٣) سورة محمد: الآية ٣٥

(٤) أوزموس: أوزموس وشكوى الإسلام، ترجمة نور الدين حاطوم، جامعة دمشق، ج١، ص٣٧.

جميع البشر، ووسم الذين لا يحكمون بما أنزل الله بأنهم كافرون[1] وفاسقون[2] وظالمون[3]، وقد شرّع الجهاد فريضة تستهدف تبليغ هذه الرسالة، وإخضاع الناس لها، فإن سيرة النبيّ ﷺ أوضحت في سياقها العامّ أن هناك فرقاً بين اعتناق الإسلام والخضوع له. فاعتناق الإسلام ليس فرضاً إلزامياً على غير المسلمين «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»[4]، وأمّا الخضوع للنظام فهو التزام الإسلام في المعاملات وتطبيق العقوبات، لتحقيق العدالة والتعايش والسلام بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومهما يكن فإن إزالة الظلم هي الخطوة اللازمة لبناء أسس السلم والتعايش والعدالة بحسب الرؤية الاسلامية، كما تظهر لنا السيرة النبويّة أنه لا سلام بغير تطبيق الإسلام في خطوطه الكبرى، وفي تفصيلاته التي تعالج شتّى المشاكل والطوارئ والاختلالات، كما أن الخضوع لنظام الاسلام يشكّل واحداً من أهمّ الأسس التي بنى عليها القرآن وسيرة النبي ﷺ فكرة السلام والتعايش، وإن أصبحنا اليوم إزاء إشكاليات جديدة تنبع من وجود أنظمة وضعية حديثة يعيش المسلمون فيها كأقليّات، لا حول لهم ولا قوّة، ولا سيّما عندما تُفرض عليهم أحكام وتشريعات تخالف جوهر الشريعة الاسلامية.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) السورة ذاتها: الآية ٤٧.

(٣) السورة ذاتها: الآية ٤٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

ثِقافةُ التَّسامُحِ في الخِطاب النَّبوي

أ. م. د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي
كلية التربية القرنة - جامعة البصرة

أ. م. د. مرتضى عبد النبي علي الشاوي
كلية التربية القرنة / جامعة البصرة

السيرة الذاتية للأستاذ المساعد الدكتور مرتضى عبد النبي علي الشاوي

الأستاذ المساعد الدكتور مرتضى عبدالنبي علي الشاوي

باحث أكاديمي وتدريسي في قسم اللغة العربية / كلية التربية القرنة / جامعة البصرة

الاختصاص العام: اللغة، والاختصاص الدقيق: البلاغة

حاصل على شهادة الماجستير من جامعة البصرة / كلية الآداب في النحو العربي ٢٠٠٥ م

وحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة البصرة / كلية الآداب في البلاغة والنقد ٢٠١٠ م

وحاصل على لقب الأستاذ المساعد سنة ٢٠١٤ م.

ولديه حضور ومشاركات متميزة في المؤتمرات الأكاديمية والثقافية

ولديه بحوث مختلفة منشورة ومقبولة للنشر في مجلات محكمة وغير محكمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف / ١٩٩

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النبي المصطفى ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطيبين وصحبه المنتجين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

المقدمة

تتوقف الحركة الثقافية والعلمية عند التزود من معين النصوص النبوية في إشاعة ثقافة التسامح والألفة والمحبة والتعاون والحوار وتجنب ثقافة العنف واللا حوار، فالتسامح بوصفه مفهوماً هوامتزاج ما بين الفكر والأخلاق، والتعبير عن موقف فكري من جهة، وموقف أخلاقي من جهة أخرى، وربما تكون سجية من سجايا الإنسان التي من الله سبحانه وتعالى عليه.

حرص البحث أن يقدم نماذج من صفات الإنسان المتسامح وفق المنظور الإسلامي، والمتوشح بالخطاب النبوي العام في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة التي أشارت إلى التحلي بهذه الصفات؛ لأنّها جزء من أخلاق المسلم بل هي دليل العاقل والعارف، فوصايا الرسول الكريم ﷺ في هذه المضامين كثيرة ومتنوعة وتشكل رافداً تربوياً ومنهجاً أخلاقياً، وهوقدوة للمؤمنين ومناراً للإنسانية جمعاء، فكان النبي ﷺ معروفاً بخَلقه وخُلقه وسيرته مع جلسائه، لقد وصفه القرآن الكريم (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيم) القلم / ٤، وقال عن نفسه (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، فكتب السيرة والتاريخ تنقل عنه كلّ شيء وكذلك كتب المتون والأحاديث وكتب التاريخ، فعلى المسلم أن يتزود منها بإخلاص، وأن يتحلى بها.

وقف البحث عند تمهيد عن مفردة التسامح لغة واصطلاحاً، ثم بيّن الصفات القرآنية للمتسامح من تواضع وحِلم وعبادة وخوف من الله، واعتدال في السلوك، والإخلاص في التوحيد، وعدم الاعتداء على الآخرين، وترك الفواحش الأخلاقية، وترك الكذب وترك الشهادة بالكذب واحترام آيات الله؛ لأنّها مصاديق معرفية دالة على القدوة الحسنة.

ثم عرض مظاهر التسامح في الخطاب النبوي في ضوء الإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية بإيجاز ولا بد أن نؤكد دائماً جانب الأسوة والقدوة في صفات الرسول ﷺ التي تحدث عنها القرآن الكريم وأشار إليها في سياق الأسوة والقدوة ونحن في ذلك نكون مصداقاً لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) الأحزاب / ٢١

يهدف البحث إلى غايتين:

التركيز على جانب معنوي وأخلاقي هوإشاعة ثقافة التسامح كما يوصي بها النبي الأعظم في أحاديثه الشريفة، ودرره العبقة لأجل تربية جيل مثقف واع تحكمه الأخلاق والآداب والسنن التي صدرت من خاتم الأنبياء.

البحث في تراث النبي ﷺ من أقوال حكيمة بما ينسجم مع سلوك الإنسان المعاصر لكي يكون قدوة للآخرين.

التمهيد: التسامح لغةً واصطلاحاً:

يراد من التسامح في الشيء في المعنى اللغوي، التساهل فيه، والمسامحة هي المساهلة والتَّساهُل هوالتسامُح واسْتَسْهَلَ الشيءَ عَدَّه سَهْلاً [1]، على الرغم من أنّ العربية لا تنطوي على مفهوم واضح للتسامح بالمعنى المعاصر للكلمة.

إنّ التسامح نابع من السماحة، وهواعتراف بثقافة الآخر، وتفاهم جماعي متبادل بين مختلف الفئات والشعوب.

---

(١) لسان العرب – سهل: ١١ / ٣٤٩

وقد ورد عن التسامح اصطلاحاً في تعريفات الجرجاني:

(هو استعمال اللفظ في غير الحقيقة، بلا قصد علاقة معنوية، ولا نصب قرينة دالة عليه اعتماداً على ظهور المعنى في المقام، فوجود العلامة بمعنى التسامح، أي يرى أحداً لم يقل إن قولك: رأيت أسداً يرمي في الحمام، تسامح، وهو ألّا يعلم الغرض من الكلام، ويحتاج في فهمه إلى تقدير لفظ آخر)[1].

وكذلك تعني (المسامحة ترك ما يجب تنزيهاً)[2]، علماً أنّ (السماحة هي بذل ما لا يحب تفضلاً)[3]، والتسامح عند علماء اللاهوت هو الصفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدين كما هي هو الديانات.

الصفات القرآنية للمتسامح:

يعطي القرآن للمؤمنين أوصافاً كثيرة، لأنّهم أصحاب التسامح، وتعدّ صفات حسنة للمتقين بشكل عام يجب التحلي بها منها[4]:

١- التواضع: قال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان / ٦٣).

٢- الحلم: قال تعالى: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان / ٦٣).

٣- العبادة والخوف من الله: قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)) (الفرقان: ٦٤- ٦٥

٤- الاعتدال في السلوك الشخصي: قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان/ ٦٧).

٥- الإخلاص في التوحيد: قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان / ٦٨)

---

(١) التعريفات: ٤٥

(٢) المصدر نفسه: ١٧٢

(٣) المصدر نفسه: ١٠٠

(٤) تأملات قرآنية حول التقوى: ٩٠ -٩١

٦- عدم الاعتداء على الآخرين: قال تعالى: (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (الفرقان / ٦٨)

٧- ترك الفواحش الأخلاقية: قال تعالى: (وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان / ٦٨)

٨- ترك الكذب وترك الشهادة بالكذب: قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (الفرقان / ٧٢)

٩- احترام آيات الله: قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) (الفرقان / ٧٣)

١٠- القدوة الحسنة: أي يضعون أنفسهم قدوة حسنة للآخرين فيكون سلوكهم نموذجاً قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان / ٧٤)، فهذا ليس مجرد ادعاء، بل هوسلوك وممارسة عمل بحيث يكونون قدوة للآخرين.

وهناك إرشادات للقرآن في السيطرة على الغضب، فينبغي لمن سلك مادة التربية والتعليم أن يسيطر على قوته الغضبية [1]، وهكذا تبدوثقافة العفووالصفح بارزة في النص القرآني كما تشير الآيات الكريمة إليها:

- (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت / ٣٤)

- (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / ١٣٣- ١٣٤)

- (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) (الشورى / ٣٧)

- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) (الحجر / ٨٥)

- (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ

---

(١) أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث: ٨٥

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور / ٢٢)

- (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة / ١٣)
- (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف / ١٩٩)
- (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (الفرقان / ٧٣)

ويتضح من ذلك إنّ باب العفووالصفح من المضامين القرآنية التي دعا الله سبحانه وتعالى عباده إلى التحلي بها، والعفوعند المقدرة هي سمة من سمات الإنسان الرفيع والمخلص في إيمانه، وتبدوعلامات العفووتباشير الصفح عند المؤمنين بارزة؛ لأنها سجية قد فطرها الله به وزادها حسن معاملة وطيب الأخلاق.

وقد نصّ الخطاب النبوي تأكيداً عليها كما جاء في أقوال منقذ البشرية منها: قوله: (عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فتعافوا يعزكم الله) [1]، أوقوله (إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [2]، أو (إنّما بعثت لأتمم حسن الأخلاق) [3]، أو (عليكم بمكارم الأخلاق، فإن الله عز وجل بعثني بها، وإنّ من مكارم الأخلاق أن يعفوالرجل عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وأن يعود من لا يعوده) [4].

فثقافة التسامح تتوشح بالألفة والرفق والمداراة والعفووالصفح والمسامحة وإتباع الحق والتجرد من العصبية وغيرها.

فليس هناك أيّ لون من التعصب لدى الناس فهم أخوة في الإنسانية والإسلامية، وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من التعصب والعصبية، إذ روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة من أعراب الجاهلية) [5]، وكذلك عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (من تعصّب أوتُعُصّب له فقد خلع ربقَ الإيمان من عنقه) [6]، وكذلك قوله

---

(١) الأصول من الكافي – باب العفو، ح ٥: ج٢ / ٣٣٩

(٢) كنز العمال، ح ٣١٩٦٩: ١١ / ٥٥٩

(٣) المصدر نفسه، ح ٥٢١٨: ٣ / ٣٣

(٤) بحار الأنوار: ٦٦ / ٣٧٥

(٥) الأصول من الكافي – باب العصبية ح ٣: ٢ / ٤٣٩

(٦) المصدر نفسه – باب العصبية ح ٢: ٢ / ٤٣٩

ﷺ: (ليس منا من دعا إلى عصبية أوقاتل على عصبية) [1]؛ لأنّ من أخلاق الوحدة الإسلامية التجرد والتحرر من العصبية والالتزام بالحق، كما إنّ من أخلاق الخلاف والفرقة (العصبية).

مظاهر التسامح في الخطاب النبوي:

لقد كان رسول الله ﷺ ينطلق في تعامله مع الناس كافة على أساس كلّهم كأسنان المشط، وكلّهم من آدم وآدم من تراب إمّا أخوك في الدين أوأخوك في الخلق، كما ذكرها أمير المؤمنين ﷺ على الرغم من الاختلاف، فالتعارف هوالتعامل الحسن كما في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات / ١٣

وقد جاء الخطاب النبوي صريحاً على أن لا فرق بين الناس إلا بالتقوى، وهوالمعيار العام كما جاء في أقوال الرسول الكريم ﷺ وقد حرصت السنة النبوية إظهار تلك الجوانب في المسامحة الإنسانية:

- قوله: (إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ودينكم واحد، ونبيكم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، ولا أحمر على اسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى) [2]

- قوله: (إنّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لأفضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى) [3].

- (يا أيّها الناس إنّ العربية ليست بأب والد، وإنما هولسان ناطق، فمن تكلم به فهوعربي، ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب، والله لعبد حبشي أطاع الله خير من سيد قرشي عاص لله، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم) [4]

---

(١) سنن أبي داود، ح ٥١٢١: ٤ / ٤٩٤

(٢) كنز العمال، ح ٥٦٥٢: ٣ / ١٧٣

(٣) بحار الأنوار: ٧ / ٢٣٩

(٤) المصدر نفسه

وقد بيّن الخطاب القرآني الكريم معالم شخصية الرسول الأعظم محمد ﷺ كما أشارت الآيات الكريمة إلى تلك المعالم الحميدة والصفات الفاضلة:

- (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوااللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب / ٢١)

- (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) (الضحى / ٦)

- (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف / ٦)

- (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) (التكوير / ١٩ -٢١)

- (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (الشورى / ١٥)

- (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة / ١٢٨)

- (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران / ١٥٩)

- (طه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه / ١-٢)

- (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم / ٤)

وفي هذا مدعاة إلى الانفتاح على الإنسان مهما كانت درجة علاقته بك أوعدم علاقته فهوإنسان قبل كلّ شيء، وإنّ هناك أكثر من مشترك بينك وبينه ويكفيان أن يكون إنساناً، وليس مخلوقاً من جنس آخر؛ لكي تحبه، وتحاوره، وتقلص من مسافات البعد والخلاف بينك وبينه[1].

وتظهر في صحيفة المدينة التي أعلنها رسول الله ﷺ حين دخل يثرب الاسم الأول للمدينة المنورة، مدى الحرص على إقامة مجتمع مدني متسامح، تنفتح فيه الجماعات على بعضها تفاعلاً، وتبادلاً بدون عنف أوقسر ففي أول خطاب ألقاه

(١) الفهم الحضاري للخطاب القرآني وأثره في المجتمع العراقي الحديث: ١٤٣.

الرسول ﷺ قال: (فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنّ بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)[1].

وقد جاء في وصيته ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام تأكيد على هذه الثقافة الإنسانية: (يا علي سيد الأعمال ثلاث خصال: إنصافك من نفسك ومساواة الأخ في الله وذكر الله على كل حال)[2]، وكذلك قوله: (يا علي: ثلاث من أبواب البر: سخاء النفس، وطيب الكلام، والصبر على الأذى)[3] وكذلك الابتعاد عن الشتم كما في وصيته لمعاذ بن جبل (وإياك أن تشتم مسلماً)[4]، والتنبيه على سؤ الخلق شؤم[5].

وكذلك المداراة كما في قوله: (مداراة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش)[6]، والترغيب في حسن الخلق فهو يثبت المودة[7].

ومن ذلك كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار لموادعة اليهود التي تتضمن كثير من العهود والمواثيق والإقرار على الدين والأموال فيما بينهم[8].

فضلاً عن المؤاخاة التي آخ فيها الرسول بين الأنصار والمهاجرين وهي أولى بوادر الألفة والمحبة والتسامح والتعايش الاجتماعي بحسب قوله ﷺ: (تآخوا في الله أخوين أخوين)[9]، فكان الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أخ لرسول الله ﷺ بقوله (هذا أخي).

وللرسول الكريم ﷺ أحاديث جمّة في آداب معاشرة، تدخل في ثقافة التسامح والتعايش الاجتماعي بين أبناء الأمة الواحدة أومع أقوام آخرين، فقد كان يحذر

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢ / ٦٥، ودلائل الخيرات في كلام سيد السادات: ١٢

(٢) تحف العقول عن آل الرسول: ٢٨

(٣) المصدر نفسه: ٢٩

(٤) المصدر نفسه: ٤٦

(٥) المصدر نفسه: ٦٤

(٦) المصدر نفسه: ٦٢

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٦٥

(٨) ينظر: سيرة ابن هشام: ٢ / ٦٦ -٦٧

(٩) المصدر نفسه: ٢ / ٦٨

المؤمنين من شرار الناس بقوله ﷺ: (ألا أنبئكم بشرار الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من نزل وحده ومنع رفده، وجلد عبده، ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة ثم قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره. ثم قال: ألا أنبئكم بشر من ذك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه) [1]، وفي هذا النص النبوي درس كبير عالي المضامين على التسامح، والتأكيد على صفات الأشرار لتجنبهم والابتعاد عنهم.

وقد تجلى في الخطاب النبوي كثير من الفهم الحقيقي للإحترام، فالأخوة الإسلامية نابعة من صميم الأبوة المحمدية، إذ قال في خطبة الوداع: (أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمنّ أنفسكم اللهم هل بلغت) [2].

فليس هناك أيّ لون من التعصب لدى الناس فهم أخوة في الإنسانية والإسلامية، وقد حذّر الرسول الكريم من التعصب والعصبية.

إذ روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة من أعراب الجاهلية) [3].

وهناك كثير من المضامين الدالة على ثقافة التسامح في الخطاب النبوي يمكن الإشارة إلى أهمها:

العفووالصفح:

قال رسول الله: (يسرّوا ولا تعسروا وبشّروا ولا تنفروا) [4].

قال رسول الله في إحدى خطبه: (ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفوعمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من

---

(١) تحف العقول: ٤٧

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤٧

(٣) الأصول من الكافي - باب العصبية ح ٣: ٢ / ٤٣٩

(٤) كنز العمال، ح ٥٣٢٦: ج٣/ ٧١

حرمك)[1].

قال رسول الله: (عليكم بالعفو فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فتعافوا يعزكم الله)[2].

الخلق الحَسَن:

قال رسول الله: (إنّ صاحب الخلق الحسن له مثل اجر الصائم القائم)[3].

قال رسول الله: (أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً المؤطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وتوطأ رحالهم)[4].

الصدق في القول:

- قال رسول الله: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[5].

الحلم والتحمل:

قال رسول الله: (ما أعز الله بجهل قطّ لا أذلّ بحلم قطّ)[6].

قال رسول الله: (إنّ الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف)[7].

البشاشة في اللقاء:

قال رسول الله: (ألق أخاك بوجه منبسط)[8]

قال رسول الله: (إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن

---

(١) الأصول من الكافي - باب العفو: ح ١: ٢/ ٣٣٩

(٢) المصدر نفسه - باب العفو ح ٥: ٢/ ٣٣٩

(٣) المصدر نفسه - باب حسن الخلق ح ٥: ٢/ ٣٣٥

(٤) المصدر نفسه، ح ١٦: ٢/ ٣٣٦

(٥) كنز العمال ح ٦٨٦١: ٣/ ٦١٤

(٦) الأصول من الكافي - باب الحلم، ح ٥: ٢/ ٣٤١

(٧) المصدر نفسه - باب الحلم، ح٨: ٢/ ٣٤١

(٨) المصدر نفسه - باب حسن البشر، ح٣: ٢/ ٣٣٧

البشر)[1].

الوفاء بالوعد والعهد:

قال رسول الله: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان)[2].

حفظ اللسان:

قال رسول الله: (نجاة المؤمن في حفظ لسانه)[3].

قال رسول الله: (من لم يحسب كلامه من عمله كثرت خطاياه وحضر عذابه)[4].

قال رسول الله: (إنّ كان في شيء شؤم ففي اللسان)[5].

المداراة:

قال رسول الله: (ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل ورع يحجزه عن معاصي الله وخلق يداري به الناس وحلم يرد به جهل الجاهل)[6].

قال رسول الله: (أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض)[7].

قال رسول الله: (مداراة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش)[8].

الرفق:

قال رسول الله: (مدارة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش)[9].

قال رسول الله: (الرفق يمن والخرق شؤم)[10].

---

(١) المصدر نفسه - باب حسن البشر، ح ١: ٢ / ٣٣٦

(٢) كنز العمال، ح ٨٤٢: ١ / ٢٩٥

(٣) الأصول من الكافي - باب الصمت وحفظ اللسان، ح ٩: ٢ / ٣٤٢

(٤) المصدر نفسه - باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٥: ٢ / ٣٤٣

(٥) المصدر نفسه - باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٧: ٢ / ٣٤٣

(٦) المصدر نفسه - باب المداراة، ح١: ٢ / ٣٤٤

(٧) المصدر نفسه - باب المداراة، ح ٤: ٢ / ٣٤٤

(٨) المصدر نفسه - باب المداراة، ح ٥: ٢ / ٣٤٤

(٩) المصدر نفسه - باب الرفق، ح٥: ٢ / ٣٤٤

(١٠) المصدر نفسه - باب الرفق، ح٤: ٢ / ٣٤٥

قال رسول الله: (إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا تزع من شيء إلا شانه)[1].

قال رسول الله: (ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمها أجراً وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه)[2].

وغيرها من الأحاديث النبوية الشريفة، يمكن أن يتعرف عليها المسلم ويتكيّف معها، لتكون له نوراً يستضاء به.

وفي الختام يجدر بنا أن نشير إلى أنّ أحاديث النبي المصطفى «ﷺ» أحد أسباب تأسيس حالة التسامح الحاكمة على علاقات المسلمين مع أتباع الأديان الأخرى، وكذلك مع بعضهم البعض[3]، ويمكن أن نؤكد أنّ الإنسان بطبيعته يميل إلى التعايش الاجتماعي، فلا بد أن يكلل بالتسامح في أبعاده الإنسانية، وقد أولى الإسلام أهمية كبرى لهذه الثقافة التي ترجمها الخطاب النبوي، وقد أشرنا إلى نماذج منها دلالة على أهمية الموضوع بحسب الرؤية الإسلامية السمحة.

نتائج البحث

حرص البحث أن يقدم نماذج من صفات الإنسان المتسامح وفق المنظور الإسلامي المتوشح بالخطاب النبوي العام في ضوء الأحاديث النبوية الشريفة التي أشارت إلى التحلي بهذه الصفات؛ لأنّها جزء من أخلاق المسلم.

ولعل أهمية البحث هي سمة مميزة تشير إلى الغاية الحقيقية لكتابة البحث وهي:

يهدف البحث إلى الكشف عن أهمية ثقافة التسامح لدى أفراد المجتمع وإشاعة ثقافة العفووالصفح في التعامل مع الآخر متخذاً من النص النبوي خطاباً هادفاً في إشاعة ثقافة التسامح في حفظ الحياة الاجتماعية واحترام الآخر.

وقف البحث عند معنى التسامح لغة واصطلاحاً بوصفه مرادفاً للرفق ومضاداً للعنف الذي يمثل الشدة والقسوة، ومدى الفرق بينه وبين العنف من حيث اللغة والاصطلاح، فالتسامح يمثل صفة اللاعنف في معناه العام.

---

(١) المصدر نفسه - باب الرفق، ح ٦: ٢ / ٣٤٥

(٢) المصدر نفسه - باب الرفق، ح١٥: ٢ / ٣٤٦

(٣) ينظر: دور ثقافة الحوار في نبذ الطائفية: ١١٦

إظهار ثقافة التسامح بإيجاز وبيان مزاياه ومعرفة أهميته من منظور اجتماعي والنظرة إليه في ضوء رؤية الخطاب النص القرآني ففي القرآن الكريم هناك أكثر من آية تدعوإلى اللين والسلم ونبذ العنف والبطش وهناك رؤية السنة النبوية المؤكدة لذلك.

إدراك سر الخطاب الإسلامي في اعتداله وتوازنه من اجل بناء الإنسان القويم هي ثقافة نبوية هادفة.

ترسيخ مبادئ الدين الإسلامي والتأكيد عليها لدى عامة الناس في جانب المحبة والتسامح والاعتدال والحوار البناء وفقا للخطاب القرآني والنبوي.

التأكيد على ثقافة التسامح بين أبناء الوطن على الرغم من تعدد أطيافه العرقية والمذهبية والقومية؛ لأجل أن يعيشوا بسلام، فالإسلام في توازنه كفل الحرية العامة للناس في العيش في الحياة الدنيا وجاء ذلك في الخطاب النبوي.

محاولة إشاعة اثر التسامح والاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع وبيانه من وجهة نظر إسلامية في ضوء النص القرآني والنبوي.

إنّ التسامح الذي يدعوإليه الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم أوبين أنفسهم ليس هونوع من الانفلات واللا مسؤولية، بل هوالتسامح المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعايش الاجتماعي في المجتمع أوعلى مستوى الفرد وهوما يعرف بالتعايش السلمي في وقتنا المعاصر.

القيادة السياسية للنبي الأكرم ﷺ وانعكاساتها على الفكر الإسلامي

خالد عبد القادر مريهج الحسناوي
باحث إسلامي - العراق

الباحث: خالد عبد القادر مريهج الحسناوي

مؤسسة دار الدراسات القرآنية/ بغداد

الباحث وكاتب اسلامي، من البصرة وليد في ١٩٧٤م. حاصل على شهادة بكالوريوس علوم سياسية، وماجستير علوم سياسية في الفكر السياسي بدرجة جيد جدا عالي ، حول رسالته الموسومة «السلطة السياسية في فكر حزب الدعوة الإسلامية»، شارك في إقامة المركز الثقافي في مدينته، وعضوفي الهيئة التأسيسية لرابطة الكفاءات المستقلة في البصرة سابقاً، أكمل الدراسات الحوزوية من المقدمات والسطوح في النجف الاشرف وقم المقدسة، وحالياً يشغل أستاذ الفكر والأخلاق والمعرفة. ومعاون الإدارة في (مؤسسة دار الدراسات القرآنية).

إنَّ نظرية القيادة وموضوع الإمامة من أهم اطاريح الفكر السياسي الإسلامي وأكثرها تأثيراً في حياة الأمة وفي رسالتها وحضارتها، وكلما كانت هذه النظرية دقيقة ناضجة مبلورة، قائمة على أسس شرعية كانت الطمأنينة بها أكثر، ويكون دورها وموقعها الطليعي السياسي فعالاً في مسيرة الأمة وحياتها. لأنها تمثل امتداد طبيعي لفكرة القيادة الإلهية، ولمشروع خلافة الإنسان على الأرض، وبخط الأنبياء والأئمة والفقهاء والقادة، فمنذ الخلقة الأولى نظم الباري (عز وجل) مسيرة البشرية من خلال خط الشهادة والقيادة، فلم تخل الأرض من شهيد سواء أكان نبياً اواماماً، اوفقيهاً مرجعاً، امتداداً لخطِ الشهادة في مواصفاته لا في شخصه.[1]

حيث أعطى الإسلام أهمية كبرى لمسالة القيادة بمفهومها العام الذي يعكس اتجاه الإنسان في الحياة، وبمفهومها الخاص الذي يعني الإدارة السياسية والاجتماعية للإنسان، وكونها قيادة القلوب لا الأبدان، وقيادة الرضا وليس التسلط، وبدون حالة الرضا التي تشكل أرضية القيادة في المجتمع يستحيل إيجاد الحالة القيادية في قمة الهرم القيادي، اوالقائد الأعلى لهذه الأمة[2].

وقد قدم الإسلام نموذج القيادة المتكاملة التي استوعبته في موقع الخلافة البشرية الأولى وفي موقع الشهادة الممتدة عبر الزمن، ضمن ظروف معقدة ومتشابكة، تجاوزتها بنجاح، ومنحتها قوة أشعاع روحي على المجتمع، جعلتها المثل الأعلى الذي يجب أن

---

(١) عادل الربيعي: القيادة في فكر الشهيد الصدر، الفكر الجديد، دار الاسلام، اشراف حسين الشامي، العدد السادس، السنة الثانية، محرم ١٤١٤ ه - تموز ١٩٩٣ م، ص١٣٤.

(٢) اية الله محمد تقي المدرسي: القيادة السياسية في المجتمع الاسلامي، دار محبي الحسين، ط١، ١٤٢٥ ه - ١٩٩٣ م، ص٩.

تحتذي به القيادة الإسلامية المعاصرة في انجاز الأهداف الملقاة على عاتقها.(١) وعليه يكون أقدم تنظيم قيادي لمبدأ كامل يملك أفكاراً لمعالجة حياة الناس اليومية وتنظيمها ويستوعب القضايا الفردية والاجتماعية وقضايا الدولة الداخلية والخارجية ويعمل من خلال التنظيم ليصل الى أهدافه، قد تجسد في العمل الذي أقامه الرسول ﷺ للدعوة الإسلامية، حيث نظمها من بداية لبناتها الأولى الى أن أقامها دولة قوية تحكم الجزيرة العربية وتستعد لمناهضة الدولتين الكبيرتين الروم وفارس. (٢)

وعليه تكون القيادة عند الرسول ﷺ بناء ذات، واكتساب صفات، وحركة فعلية واقعية، فليس من السهل على الانسان أن يتصدر الاخرين، مالم تتوفر فيه عوامل تلهب نفوسهم، وتسهم في اضفاء روح الرضا لديهم، وفيما يلي نشير الى جانب مشرق منها:

الاجتباء والاصطفاء الالهي، والعامل الغيبي، ودور الوحي والتوجيه الالهي في بناء شخصية الرسول ﷺ القيادية، أعطى القيادة الرسالية كارزمةً، وبعداً غيبياً من شأنه أن يُثبّت قناعة الامة في قوله وفعله وتقريره، ويقول الله تعالى واصفاً محمداً رسولاً ﷺ: (يا أيها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ومنذراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً) (٣)، وهذا يمثل العنصر الصعب في القيادة التي تخلف المعصوم عليه السلام لذا تجدها تحاول التعويض عنه من خلال النصوص والاتّباع والمكانة العلمية والاجتماعية.

المؤهلات الشخصية، واثر البيئة الاجتماعية، والدور الريادي في عصر الجاهلية، فالصدق والامانة من اهم المؤهلات والمقومات القيادية لديه ﷺ بل هما من اعظم الشمائل التي جعلته رائداً في قومه، ومصدقاً في دعوى النبوة، ففي الجاهلية هو الصادق الامين، وفي الاسلام هو (الذي جاء بالصدق وصدق به). (٤)

دور الرسول ﷺ في قيادة مجاميع المسلمين والافراد ونشر الدعوة الاسلامية،

---

(١) عادل الربيعي: مصدر سابق، ص١٣٥.

(٢)- العمل الحزبي: منشورات حزب الدعوة الاسلامية، الاعلام المركزي، ط٣، ص٥.

(٣) سورة الاحزاب: ٤٦.

(٤) سورة الزمر: ٣٣.

والتحول في القيادة من التشرذم القبلي والمجاميع الصغيرة نحوالامة الواحدة، والقيادة الرسالية في تأدية دورها هذا، ليس ببعيدة ولا مختلفة عن الامة، بل تربطها بهم وشائج عاطفية وخلقية ونفسية واجتماعية، وهومن دواعي الرحمة بالامة بان يكون رسولها منها (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [1]، وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) [2]، وعليه ذهب جملة من الفقهاء أن يكون الامام اوالقائد من قريش.

خاتمية وتمامية الاحكام والقوانيين وتجسدها في شخصه وشخصيته الرسالية، وصلاحيتها الممتدة عبر الاجيال من خلال اكتسابها صفة القدوة الحسنة، فهومأمور بخفض الجناح والتواضع (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِين[3]، فأصبح معلماً بارعاً ومؤدباً فذاً، يعلم الجاهل، ويجبر الكسير، ويأكل الطعام مع الفقراء من الاعراب ورعاة الابل، ويتمشى في الاسواق. وكان ناظراً الى بشريته بقدر ما هوناظر الى روحهِ القدسية، حتى لا يشقى به قومه، ويكون لهم الاسوة الحسنة (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[4] ويتعلمون منه امور دينهم ودنياهم.

التوازن بين مرونة الشريعة وصرامة الاحكام والحدود، أضفى على القائد الرسول حكمة اقامة القانون ونشر العدالة من منطلق اليسر وروح القانون، ومن هنا يكمن الفشل في القيادات المزعومة التي غالباً ما تسقط في الافراط اوالتفريط في تطبيق الاحكام، لعدم قابليتها واهليتها على تشخيص الاحكام الموضوعية وتفريعات الاحكام ومستثنياته ا. وان تعامل الرسول ﷺ مع الحكم الشرعي نابع عن معرفة تامة في الحكم والمحكوم، ووقوفه على سبب

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة الجمعة: ٢

(٣) سورة الشعراء: ٢١٥.

(٤) سورة الاحزاب: ٢١.

النزول والحادثة، فنراه يفعل اشياء ينهى الاخرين عن فعلها، وهذه الاحكام المنهي عنها، اما خاصه بشخصه الكريم، اواستثنائية مقطوعة الحكم، فكان ﷺ ينهى اصحابة من سؤاله مسألة تشدد وتصعب الامور والاحكام على المسلمين بقوله: «اتْرُكُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فَخُذُوا عَنِّى فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[1]، وهذا راجع الى رفع الاصر والثقل عن اصحابة وعن الامة، وهوعين اليسر الذي دعت له الرسالة السمحاء (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم)[2].

كما كان ﷺ عون للمظلوم وخصم للظالم، وهذا واضح من سيرته الشريفة في تأييده للاحلاف التي قامت في الجاهلية والاسلام، كحلف الفضول،الذي تشكل لنصرة الضعفاء واصحاب الحقوق المسلوبة.

الجانب العبادي والروحي المتمثل في قوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)[3]، وانعكاسه على القائد الرسالي من خلال اقامة الصلاة والارشاد والخطابة التي تسهم في تهيئة نفسية الرعية لتقبل الاحكام والمواقف الخارجة عن حدود عقولهم كالاخبارات الغيبية، والتوجه للحروب غير المتكافئة، اوتغيير العادات والتقاليد والتربية الخاطئة.

القيادة العسكرية، والقدرة على المناورة، وعقد الصلح، واقامة الاحلاف، والاستعانة باصحاب الفن والاختصاص، وكان ﷺ مأمور بالمشاورة على الرغم من قدرته وكفائته (وشاورهم في الامر، فاذا عزمت فتوكل على الله)[4]، فتتمحور مشاورته لهم في المجال العسكري والحروب ليستقر له الراي الصحيح، حيث

---

(١) سنن الترمذي: أبوعيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٩٧ هـ) ب. ط، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ، ج١٠، ص١٩٩

(٢) سورة الاعراف: ١٥٧.

(٣) سورة الروم: ٣٠.

(٤) سورة ال عمران: ١٥٩.

كان يقول ﷺ: (ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم)[1]، ومشاورته لهم تأليفاً لهم وتطييباً لنفوسهم، ولعلمه بالنفع والفضل الحاصل منها، وكذلك ليقتدي ويستن به المسلمون، ويتبعه فيه المؤمنون، وان كان عن مشورتهم غنياً[2].

القابلية واللياقة السياسية والدبلوماسية في التعامل مع دول الجوار، والطوائف الدينية المجاورة لدولة المسلمين، وسياسة ترويض القبائل، والعفوعند المقدرة، كما في فتح مكة وعفوه عن الطلقاء، وسياسة الرشيدة مع المنافقين والمتمردين، ووضع الاتفاقيات والعهود مع قبائل العرب واليهود في الجزيرة العربية، كما لا يخفى اسلوبه الدبلوماسي في التعامل مع دول الجوار كقائد دولة، من خلال اتباع نظام تمثيل دبلوماسي ونظام بريد ومراسلة من خلال البعثات التي أرسلها للفرس والروم والحبشة والبحرين، كل ذلك سار وفق الطابع السلمي، اما اذا اقتضت الضرورة في فرض الحرب والقتال تكون على موازين الشرع والعقل.

الخبرة الاقتصادية والمالية، والعدالة في توزيع الثروة والحقوق، فكان ﷺ قائداً منصفاً بالاتباع والرعية، وهذا الجانب تحدث عنه القرآن والسنة بالتفصيل في شؤون الصدقات والزكاة والخمس والغنائم والإرث والأنفال من الأراضي المفتوحة، وكذلك فرض الضرائب والديات والجزية، والتي تُجمع بالشؤون الحسبية.

صناعة القادة وتهيئة العاملين على ادارة الدولة، ووضع الاكفاء في مراتبهم، وتقريب الرعية ومخالطته لهم، فلا يستنكف أن يجالس الفقراء، ولا يرد دعوة الى طعام، وكان يمشي في الاسواق، ويعود المريض، ويقبل الهدية، ويجود بما يملك من مال اوطعام، يمازح الصغار ويوقر الكبار، ويحضر الجنازة، ويدعوا لجيرانه ويشاركهم الافراح والاتراح.

---

(١) محمد باقر المجلسي (ت: ١٠٣٧-١١١٠هـ): بحار الانوار، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط٢، ج٧٥، ص١٠٥.

(٢) ابي الحسن، علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ): الاحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط٤، ص٥٣-٤٥.

وكذلك طريقة الرسول الاكرم ﷺ في مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومستوياتهم، واختلاف اساليب العمل في التحرك لديه، كاختلاف اساليب التعبير في الدعوة، فمن الخطا الوقوف عند نموذج معين حصراً، الا فيما تحدده احكام الشريعة من حدود اومن خطوط عامة. [1] وهذا ناتج عن التطور الحاصل في المجتمع، والتنوع بالاساليب، والذي بدوره اعطى الفقه زخماً كبيراً لمواكبة الواقع في حركتهَ وسيرورته، وقد لا يحصل الا من خلال تفاعل عميق بين الفقيه والواقع، لان العلاقة مع النص لوحدها لا تكفي، بمعزل عن العلاقة الوثيقة مع الواقع، والتفاعل الواعي مع الحياة. وبما أن الشريعة الاسلامية لم تامر باتباع اسلوب محدد في التبليغ والتغيير، جاز لنا شرعا انتهاج اية طريقة نافعة في نشر مفاهيم الاسلام واحكامه وتغيير المجتمع بها ما دامت طريقته لا تتضمن محرما من المحرمات الشرعية. [2]

المبحث الاول:

القيادة السياسية

أن القيادة السياسية تشكل الركن الرئيس في النظرية السياسية، والقاعدة الاساسية في بناء حياة المسلمين، لذا نجد التاريخ الاسلامي حافلاً بالصراع والكفاح الفكري والعسكري الطويل بسبب اختلاف وجهات النظر في مفهوم القيادة والامامة. [3] كما ينظر اليها كونها تمثل فن معاملة الطبيعة البشرية والتاثير في السلوك البشري وتوجيهه نحوهدف معين وبطريقة تضمن بها طاعة وثقته واحترامه، وأنها (خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا) [4]، ويتوقف نجاحها على القائد وما يتصف به من مزايا وخصائص، علماً أن هنالك بعض السمات الفطرية التي قد تساعد على

---

(١)- محمد حسين فضل الله: الحركة الإسلامية هموم وقضايا، دار الملاك، بيروت - لبنان، ط٤، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١،، ص٨٠ - ٨١.

(٢)- من فكر الدعوة الإسلامية: منشورات حزب الدعوة الإسلامية، الأعلام المركزي، ص٩.

(٣) - ثقافة الدعوة الإسلامية: منشورات حزب الدعوة الإسلامية، ط ١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٩٤.

(٤) الامام ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المالكي الحضرمي (ت: ٧٣٢-٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون، دار الشرق العربي، لبنان - بيروت، ص١٦٦.

تنمية الامكانات القيادية، ولكن الى حد معين وبقدر معلوم، ولابد من استكمالها (الشخصية القيادية) من قدرات اخرى فكرية وروحية وجسمية وتنظيمية واخلاقية وشخصية، تتمثل في:

١-البلوغ

٢-العقل

٣-الحرية

٤-الذكورة

٥-الورع اوالعدالة

٦- العلم

٧-الكفاية اوالمقدرة

٨-النسب القرشي.[١]

ومركز القائد في الامة الاسلامية مركز حساس، وضرورة من ضرورات قيامها وبقائها، تقع على عاتقه واجبات ومهام جسام منها[٢]:

١-حفظ الدين على اصوله المستقرة.

٢-حماية بيضة الاسلام، وتحصين ثغور المسلمين بالعدة والعدد.

٣-جهاد الكفرة والمعاندين للاسلام.

٤-تنفيذ الاحكام،وقطع الخصومات، واقامة الحدود.

٥-اختيار الامناء والاكفاء، وتقليد الولايات والمدن للثقات النصحاء.

٦-جباية الاموال على وجه الشريعة.

٧-تقدير العطاء والاستحقاقات المالية.

٨- مشارفة الامور العامة بنفسه

ويمكن أن تطلق القيادة على كل من يشغل عنوان (النبي،الرسول، ولي الامر، امير المؤمنين، الوزير، الخليفة). [٣]

---

(١) الماوردي: مصدر سابق، ص٦.

(٢) انظر: باقر شريف القرشي: نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ط ١، ١٣٨٦ - ١٩٦٦ م، ٢٢٩.

(٣) آية الله محمد مهدي الخلخالي: الحاكمية في الاسلام، نشر مجمع الفكر الاسلامي، ترجمة الشيخ جعفر الهادي، ط ١، ايران - قم، ١٤٢٥ ق، ص١٣٣.

والمتصدي لهذا المنصب ما لم تتوفر في شخصيته الصفات القيادية اللازمة فسيبقى مركز القيادة مزعوما مضطربا بالغاً ما بلغ القائد من الثقافات الفكرية اوالقدرة الخطابية، لان منطق القيادة اوالعمل القيادي غير منطق الكلام عن القيادة من المنظور الاسلامي، وفي خضم الاحداث والمجريات التي مرت على التجربة الاسلامية وتشابكها مع لعبة الزعامة الدينية والسياسية في مسالة تشخيص القيادة ودورها ومراحلها وحدودها ونوعيتها. [1]وان أي تصور اولي يمكن أن يضعنا امام نظرة سريعة على شكل ونوع القيادة وعلاقتها بالسلطة، حيث لايتضمن الكلام عن الجانب الفكري النظري، بل يمتزج بالواقع الفعلي والعملي (التطبيقي) لنظرية القيادة لدى الامة، ومن اجل معرفة دور القيادة السياسية الاسلامية يجب أن ننظر لها من منظار المحك السياسي المتمثل بالسلطة، حيث نستطيع من خلاله معرفة نوع القيادة وامكانياتها وخصائصها، والدور الذي لعبته في الساحة السياسية، واستناد الإسلام على ركيزة المزج بين السلطتين الدينية والسياسية والذي يعبر عنها بالمفهوم الإسلامي (دعوة ودولة)، والجمع بين الشؤون المادية والروحية، وتنظيم نشاط الإنسان الدنيوي كما يتناول سلوكه تجاه ربه. لهذا كان الخليفة أوالحاكم الإسلامي يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية، فبصفته حاكما دينيا يستطيع إعلان الحرب على الكفار ومعاقبة الخارجين، وكذلك أقامته في الصلاة على حدا سواء.[2]

وفي معرض الحديث عن فكر المدرستين الإسلاميتين السنية، والشيعية الأمامية في الجانب السياسي، نلاحظ أن النظرية السياسية السنية قد اكتملت منذ قرون، أي ثبات واستحكام أرائها حول المسائل الأساسية للفقه السياسي، حتى لا نكاد نجد في الفقه المعاصر لهذه المدرسة ألا القليل مما يختلف مع تلك الثوابت، [3] متمثلة بالآراء الجديدة في الأفكار الانقلابية للمدرسة السلفية الجديدة، وبفكر جمال الدين الأفغاني وتلامذته، محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وسيد قطب، ونحى نحوهم أبوالأعلى المودودي في أرائه وكتاباته السياسية التجديديه، وكذلك

(١)- حسين علاوي: حزب الدعوة الإسلامية إشكالية الصراع، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، ص١٤٩.

(٢) د. ثروت بدوي: أصول الفكر السياسي النظريات والمذاهب السياسية الكبرى، ج ١، مصدر سابق، ص١١١.

(٣) يعقوب إبراهيم: موسوعة الفقه السياسي للشيخ زنجاني، قضايا إسلامية، قم. الجمهورية الإسلامية الإيرانية، العدد السادس، ١٤١ ه - ١٩٩٨م، ص٦١٢.

فكر حسن البنا والأخوان المسلمين كنموذج واضح للفكر السلفي الإسلامي المعتدل.[1]

أما المدرسة الشيعية الأمامية فإنها تقوم على إيمانها بالعلاقة الذاتية بين الدين والسياسة، إذ لا يمكن للإسلام إلا أن يكون دين سياسة في رؤية هذه المدرسة. لكن عدم وجود نظرية سياسية شاملة للفقيه في الزمن الماضي، راجع لأسباب كثيرة منها قمع السلطات لهم، وبعدهم عن الحكم، واهتمامهم في بحث واستنباط الاحكام الفردية والتكاليف الشخصية، وأهم بروز فكري لهم كان أبان ولادة الفقه السياسي الشيعي فيما يخص ولاية الفقيه نيابة عن المعصوم عليه السلام.[2]

المبحث الثاني:

نظريات القيادة السياسية في الفكر الشيعي الأمامي

على الرغم من أن الآراء السياسية للشيعة الأمامية لم تدون حتى ألان على شكل منظومة منسجمة، ولكن مع ذلك يمكن رؤيتها بوضوح في ظلال تفسير بعض آيات القران الكريم، ومن كيفية تبويب المجاميع الروائية وشرح أحاديث المعصومين عليهم السلام كما تلحظ في شطر من الحكمة العملية التي تشمل الرسائل السياسية، ومواثيق الحكم وسياسة المدن. كما يمكن العثور عليها في بعض أبواب الكلام في بحوث النبوة وبالذات مسائل الإمامة والغيبة، ووردت في بعض السير التاريخية لمنهج وسلوك علماء الدين مع السلاطين وكيفية تعاطيهم مع مختلف القضايا لعصرهم. وتُلحظ أيضا في مواضع مختلفة من أبواب الفقه التي تنطوي بين ثنايا مسائلها وأحكامها الآراء السياسية للفقهاء على نحوواضح، كما في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقضاء والحدود والجهاد والخمس والبيع.[3]

ومن ثم اخذ الفكر السياسي الشيعي بالتوسع والظهور بعد نشر الآراء السياسية

---

(١) د. الشيخ فتحي يكن: الإمام الخميني في مواجهة الانحرافات الفكرية والشيطنة الأمريكية، ثورة الفقيه ودولته، إعداد - حميد حلمي زادة،دمشق - سوريا، ط ٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م، ص٤٣.

(٢) يعقوب ابراهيم: مصدر سابق، ص٦١٣

(٣) محسن كديور :نظريات الدولة في الفقه الشيعي،، قضايا إسلامية، قم. الجمهورية الإسلامية الإيرانية، العدد السادس، ١٤١ ه - ١٩٩٨م، ص٥٦.

للإمام الخميني على الساحة في دعوته لضرورة الثورة على نظام إيران الملكي، ووجوب تأسيس الحكومة الإسلامية. [1]ويضاف إلى ذلك سُنوح الفرصة للإمام الخميني باختيار نظرية ولاية الفقيه في مجال العمل بعد أن استطاع تأسيس أول حكومة إسلامية تقوم على أساس الفقه الشيعي. [2] وقبل الخوض في مضمار الكلام عن ولاية الفقيه لا بد لنا من معرفة إجمالية لمعنى الولاية، فهي تقسم إلى:

١-الولاية التكوينية: ويقصد بها حق الطاعة في مجال التكوين وتسخير الأشياء والموجودات لإرادة صاحب الولاية، التي تمكنه من التصرف في الموجودات الخارجية بلا مناقضة لمبدأ العلية والسنن الكونية أومبدأ التوحيد الذي يرجع كل شيء في الكون إلى إرادة الله، وهذا من مختصات عباد الله الذين اصطفاهم الله، وهذه الولاية بجميع مراتبها خارجة عن موضوعنا.[3]

٢- الولاية التشريعية: وهي قسمان:

أ- حق التشريع: وهي الولاية الخاصة بالرسول ﷺ والإمام المعصوم عليه السلام الذين لهم حق التشريع، الذي يراد منه أن لهم القدرة على بيان الحكم الشرعي الواقعي الذي يريده الله تعالى، والمعرفة الصحيحة لأحكام الله.

ب - حق الأمر والنهي: ويقصد به الولاية التشريعية التي تخول الولي أن يأمر وينهى وعلى الآخرين أن يطيعوا ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، أي حق الأمر وحق الطاعة، حيث الولاية التشريعية الأولى (حق التشريع) ليست من مختصات الفقيه، بل هومكلف كغيره لا يستغني عن الأنبياء والأئمة عليهم السلام في معرفة أحكام الله تعالى. [4] أما

(١) جلال الأنصاري: الإمام الخميني ومدارس الفقه السياسي، ثورة الفقيه ودولته، إعداد - حميد حلمي زادة،دمشق - سوريا، ط ٢، ١٤٢٤ه - ٢٠٠٣ م، ص٣٦٠.

(٢) محمد مهدي الاصفي: تصورات وأفكار حول المرجعية، الفكر الجديد تصدر عن دار الإسلام للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، العدد ٤، السنة الأولى، كانون الأول ١٩٩٢ م - ١٤١٣ ه، ص٢٦١.

(٣) آية الله العظمى المنتظري: دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية - ج ١، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم - إيران، ط١، جمادى الثانية - ١٤٠٨ ه. ق، ص٧٦.

(٤) انظر: آية الله محمد تقي مصباح اليزدي: نظرة عابرة إلى نظرية ولاية الفقيه، ترجمة - السيد علي الهاشمي، المجمع العالمي لأهل البيت، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ ه.ق - ٢٠٠٦، ص٩٨ - ١٠١.، آية الله المنتظري: مصدر سابق - ج ١، ص٧٧.، بحوث في ولاية الفقيه: سلسلة العلوم

المراد من مشروعية الفقيه السياسية، فهي تندرج تحت التحليل العقلي المفسر لأعمال الحاكم لسلطته، أي الشرعية التي يستند إليها الحاكم ويمارس على أساسها سلطته. حيث يمكن تصنيف نظريات الدولة في الفقه الشيعي على أساس منشأ المشروعية إلى قسمين[1]:

الأول: النظريات التي تعتمد على الشرعية الإلهية.

إن أساس مشروعية هذه النظريات ومنشأ الدولة لديهم متأتي من التنصيب الإلهي، والدولة القائمة من خلاله منتسبة إلى ذاته المقدسة وتحضى بموقع القوة، وتجلس على كرسي السلطة بالإذن الإلهي، ولا دخل لرأي الأمة ولا اثر لأرادتها في المشروعية الإلهية. وليس أمام الأمة إلا أن تقبل هذه الدولة المشروعة وتطبيقها، والدولة التي تنصب من قبل الله هي دولة مشروعة سواء أقبلت بها الأمة أم أدبرت عنها. وعليه يكون الفقهاء منصبون بإذن الله من قبل الإمام المعصوم (عليه السلام)، وبذلك يكون الحاكم على المجتمع هوخليفة الله في الأرض، ونائب النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام (عليه السلام)، ويمكن لنا أن نفرق بين نوعين منها.

١ - الولاية التعينية المطلقة للفقيه

تَعد الولاية التعينية المطلقة للفقيه من النظريات ذات الطابع النظري والعملي (التطبيقي) لكونها هي السائدة في نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية في الوقت الحاضر، ورائدها هوالإمام الخميني، والتي تمتد جذورها إلى أبحاث وفتاوى المولى احمد النراقي، والشيخ محمد حسن النجفي (صاحب كتاب الجواهر المتوفى عام ١٢٦٦ هـ) اللذان يصنفان في عداد القائلين بولاية الفقيه المطلقة، إلا أن النظرية لم تتحول إلى مدونه ينتظمها الانسجام الفقهي إلا مع الإمام الخميني.

كما نجد لها شرعية مدعومة بالأدلة العقلية والنقليه، وأستناد قيامها في المجتمع من الأمور التي حتمتها الضرورة[2]، وعلى مشروعية الولاية التي هي حق لله،

والمعارف، مؤسسة المعارف الإسلامية - الكتاب ٣، ص ٥ - ٩.

(١) - محسن كديور، مصدر سابق، ص٦٦.

(٢) الإمام الخميني: الحكومة الإسلامية، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني - الشؤون الدولية، ص٧١.

ولا يملك احد هذا الحق بدون أذنه. فهي بالاصالة ترجع إلى الله وبالإذن الإلهي تكتسب شرعيتها، فبدون الإذن تصبح طاغوتية غير مشروعة. [1] وولاية الرسول ﷺ تمتد شرعيتها في طول الولاية الإلهية ومن بعده تم تنصيب الإمام علي عليه السلام للخلافة والولاية من قبل الله تعالى عن طريق إخبار الرسول ﷺ ومن بعده الأئمة المعصومين واحدا بعد واحد إلى صاحب الأمر الإمام صاحب الزمان (عج)، أما ولاية الفقهاء العدول في زمن غيبة المعصوم (عج) فهي بطول ولاية المعصوم (عج) وتكون على نحوالاعتبار،[2] والفقيه مفوض من الله في خلافة الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام في الجانب العملي لقيادة المسلمين، وليس في المنزلة والرتبة. [3] وولايته على المجتمع في زمن الغيبة بنص شرعي، من انطباق المؤهلات اللازمة لحكم الناس[4] ولكون الحياة الإسلامية لا يمكن بأي حال أن تزدهر من دون وجود حاكم شرعي يقيم بين المسلمين معالم الدين وأحكام الشريعة، حيث تظافرت بهذا المضمون الأخبار الدالة على أهمية الخلافة وان المسلمين لابد لوجودهم السياسي والديني من حاكم يسوي أمرهم ويعالج قضاياهم على ضوء كتاب الله وسنة نبيه ويسير بينهم بسيرة العدل الخالص والحق المحض. [5]

أما في زمن غيبة المعصوم (عج) يجب إقامة وتأسيس الحكومة الإسلامية من قبل الفقهاء العدول وعلى الأمة وجوب إتباعهم ونصرتهم، وفي حال بسط يد احد الفقهاء بإقامة الحكومة الإسلامية وجب على باقي الفقهاء متابعته، [6] وله صلاحية النيابة عن الإمام المعصوم (عج) في أمر الحكومة [7] وله ما للنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام

---

(١) – محسن كديور، مصدر سابق، ص٧١.

(٢) الإمام الخميني: مصدر سابق، ص ٧٣ – ٧٤.، آية الله محمد تقي مصباح اليزدي، مصدر سابق، ص٢٢ –٢٣.

(٣) – الإمام الخميني: المصدر نفسه، ص٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٥) باقر شريف القرشي: مصدر سابق، ص٢١١.

(٦) الإمام الخميني، مصدر سابق، ص ٧٢.

(٧)– السيد محمد باقر الحكيم: القيادة الإسلامية.. معالمها وآفاقها في شخصية الإمام الخميني،، ثورة الفقيه ودولته، إعداد – حميد حلمي زادة،دمشق – سوريا، ط ٢، ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣ م، ص٢٦٩.

من اختيارات، وولايته مطلقة ودائمة ومتمركزة غير قابلة للتفكيك،[1] وهذه الأحكام التي تخص بناء الحكومة الإسلامية هي ذات طابع مستمر.[2]

أما في حال تعارضت فتوى المجتهد المرجع مع صلاحية الولي الفقيه فهذا الأمر يعالج بكون فتوى المرجع ترخيصية وحكم الولي القائد إلزاميا، ولهذا لا تمنع فتوى المرجع من العمل بحكم الولي لأنها ترخيص وليست إلزاما.[3] وولي الفقيه يمثل منشأ مشروعية النظام والمؤسسات الحكومية والقوانين والدستور فتصبح مشروعة بإمضائه، ومن صلاحياته إن له مدى واسع جدا على الصعيد الجغرافي والإنساني، أي ولايته لها حق الالتزام من قبل الأشخاص والجماعات خارج الحدود الجغرافية للبلد المبسوط اليد.[4]

٢- الولاية التعينية المقيدة للفقيه.

تقوم الرسالة الإسلامية على معطيات الوحي ونتائج العقل، فهناك دائما حبل متصل بالسماء هوالوحي، وجسر متصل بالأرض هوعقل الإنسان، وبينهما تعيش البشرية حياتهما الكريمة مستمدة منظومة القيم وأنظمة الحكم من هذين العنصرين، وعلى أساس الوحي والعقل أقام الإسلام نظامه في الحكم.[5]

وهذه النظرية تقوم على أساسيات تشترك بها مع النظرية التعينية المطلقة للفقيه، وتختلف معها في بعض النقاط، فتشترك معها في مسالة احتياج المجتمع الإنساني المتمدن إلى حكومة، أي كون الحكومة ضرورة لان الإسلام أكمل الأديان وغطى جميع احتياجات الإنسان المادية والمعنوية من ضمنها الحكومة الإسلامية التي

---

(١) آية الله محمد تقي مصباح اليزدي، مصدر سابق، ص١٢٩ - ١٣١.، محسن كديور، مصدر سابق، ص ٧١.

(٢)- الإمام الخميني، مصدر سابق، ص ٧١.

(٣) ماجد علي: كتاب ولاية الأمر في عصر الغيبة للسيد الحائري، قضايا إسلامية، قم. الجمهورية الإسلامية الإيرانية، العدد السادس، ١٤١ هـ - ١٩٩٨م، ٦٠٢.

(٤) آية الله محمد تقي مصباح اليزدي، مصدر سابق، ص١٤٣ - ١٤٥.

(٥)- محسن باقر الموسوي: قاعدتا الحكم في الإسلام ولاية الله وخلافة الأمة، قضايا إسلامية معاصرة، رئيس التحرير - عبد الجبار الرفاعي، لبنان - بيروت، العدد الثاني - ١٤١٨ - ١٩٩٨ م، ص٥٥.

يتوقف عليها تنفيذ وأجراء أكثر الأحكام. [1]وقيامها على اصل الولاية والحاكمية (السلطة) فهي لله تكوينا وتشريعا، وولاية الرسول (صلى لله علي واله) هي مستمدة من قبل الله وهي من بعده للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الذي له بالنصب حق الولاية والإمامة والحكومة، وهذا الحق ينتقل من بعده إلى بقية الأئمة المعصومين (عليهم السلام) ومن منطلق قاعدة اللطف وجب على الإمام المعصوم في زمن حضوره وغيبته أن ينصب وليا وحاكما يرعى مصالح الناس.[2] والفقهاء العدول أصحاب نيابة عامة من قبل الإمام صاحب الزمان (عج) وهولاء هم القيمون على أمور الشيعة الحافظون للشؤون الاجتماعية والسياسية ولقوانين الدين والدنيا وفي هذه الدائرة تجب على الناس عامة الطاعة والتنفيذ والامتثال. [3]

وهذه النظرية قيدت ولاية الفقيه بحيث لا يكون له حق التصرف بأموال الناس، ولا تجب طاعته على الإطلاق في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإنما تتحرك اختيارات الولي الفقيه وصلاحياته في إطار الأحكام الإلهية الفرعية فقط ولا ينفذُ خارج تلك الدائرة أي شرط أوقانون.[4]ومحور الاختلاف عن النظرية السابقة هوأساس طبيعة اختيار الدولة ومدى ما تتمتع به من صلاحيات، ومن بين الفقهاء الذين يميلون إلى هذا النظرية آية الله العظمى الكلبايكاني، وآية الله لطف الله الصافي.

الثاني: النظريات التي تعتمد على الشرعية الشعبية برعاية الضوابط الإلهية.

تؤمن هذه النظريات بالحق الإلهي المطلق في الألوهية والتشريع، وتؤمن في نفس الوقت أن الله وهب الأمة حقا في إطار ضوابط معينة، أي وجود حقوق فطرية (طبيعية) للأمة تمارسها عمليا وتجسدها فعليا في إطار الحدود الإلهية. وهذه الحقوق لا تتعارض مع الحق الإلهي، فهي في طوله وفي رتبة متأخرة عنه، والقائلون بهذه

---

(١) – آية الله محمد مهدي الخلخالي: مصدر سابق، ٣٤٤ – ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٧. محسن باقر الموسوي: مصدر سابق، ٧٠.

(٣) محسن باقر الموسوي: مصدر سابق، ص ٧٠. آية الله محمد مهدي الخلخالي: مصدر سابق، ٣٥٨.، محمد مهدي الاصفي: مصدر سايق، ص١٣٧.

(٤) الشيخ محمد علي التسخيري: فقه الدولة – دراسة في المسؤوليات والامكانات والإطار التشريعي، مجلة الاجتهاد والتجديد، العدد الرابع – السنة الأولى، ص٢٧٦ – ٢٧٨.، آية الله محمد مهدي الخلخالي: المصدر السابق، ص٣٥٣.

النظرية يذهبون إلى منشأ الشرعية هوالأحكام الإلهية وحقوق الأمة لا يتعارضان فيما بينهما، بل الاثنان قابلان للجمع.[1]

ويمكن تقسيم هذه النظريات على قسمين:

١- نظريات تمثيل الفقيه للأمة.

وتعتقد أن الأمة مكلفة بان تُوكل الحاكمية إلى الفقهاء، فالفقيه العادل هوممثل الأمة ووكيلها يحكم على أساس الإسلام. ويدخل في نظريات هذا القسم

أ- شهادة (إشراف) المرجع وخلافة الأمة:

وهي النظرية القائمة على افكار الشهيد السيد محمد باقر الصدر والتي «ترفض إسلاميا نظرية القوة والتغلب، ونظرية التفويض الإلهي للجبارين ونظرية العقد الاجتماعي ونظرية الدولة عن العائلة، وتؤمن بان الدولة ظاهرة نبوية وتصعيد للعمل النبوي بدأت في مرحلة معينة من حياة البشرية»[2] و«إن الدولة ظاهرة اجتماعية أصيلة في حياة الإنسان، وقد نشأت هذه الظاهرة على يد الأنبياء ورسالات السماء، واتخذت صيغتها السوية ومارست دورها السليم في قيادة المجتمع الإنساني وتوجيهه من خلال ما حققه الأنبياء في هذا المجال من تنظيم اجتماعي قائم على أساس الحق والعدل، ويستهدف الحفاظ على وحدة البشرية وتطوير نموها في مسارها الصحيح»[3]، وان غياب الدولة الإسلامية يعني سقوط الحضارة الإسلامية وتخليها عن قيادة المجتمع وبذلك ستتم عملية تفكيك المجتمع الإسلامي فتنهار الأمة وتندمج ذائبة مع العالم الكافر الذي غزاها.[4] وتقوم النظرية على أساس أن الله تعالى هومصدر السلطات جميعا، وتعني هذه الحقيقة إن الإنسان حر ولا سيادة لإنسان أخر أوطبقة أولأي

(١)- انظر: الشيخ محمد مهدي الاصفي: مصدر سابق، ٧٠ - ٧١.، محسن كديور: مصدر سابق، ص٧٦.، محسن باقر الموسوي: مصدر سابق، ص٧٧.

(٢) - محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، لمحة فقهية تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية في إيران، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، قم - إيران، ط ٢، ١٤٢٤ م، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) - محمد باقر الصدر: مصدر سابق، ص١٣.

(٤) محمد باقر الصدر: أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، ص١٢٨.

مجموعة بشرية عليه، وإنما السيادة لله وحده. [1] وإن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع في الدولة الإسلامية، والأحكام الشرعية على ثلاثة أقسام هي:

- أحكام الشريعة الثابتة بوضوح فقهي مطلق تعتبر بقدر صلتها بالحياة الاجتماعية جزءا ثابتا في الدستور سواء نص عليه صريحا في وثيقة الدستور أم لا.

- أي موقف للشريعة يحتوي على أكثر من اجتهاد يعتبر في نطاق البدائل من الاجتهاد المشروع دستوريا، ويظل اختيار البديل المعين من هذه البدائل موكولا إلى السلطة التشريعية.

- في حالة وجود موقف حاسم للشريعة من تحريم أوإيجاب يكون للسلطة التشريعية التي تمثل الأمة أن تسن من القوانين ما تراه صالحا على أن لا يتعارض مع الدستور، وتسمى مجالات هذه القوانين بمنطقة الفراغ. [2]وتكون النيابة العامة عن الإمام ﷺ في عصر الغيبة للمجتهد المطلق العادل، وتعني قيومية على تطبيق الشريعة، وله الإشراف الشامل على ذلك. [3]

أما البناء الفكري لنظرية السيد الصدر السياسية يمر من خلال ثلاث مراحل هي: الأنبياء، الربانيون (الأئمة)، المراجع. والدور الثالث المتمثل بالمراجع يتمثل في حفظ الدين والإشراف على نحوممارسة الأمة لخلافتهاً وبيان الأحكام الإلهية، والحيلولة دون الانحراف الذي قد يطرأ على المسار واتخاذ التدابير الممكنة والتدخل لضمان سلامة المسير.

حيث ترى هذه النظرية إن المرجع الشهيد معين من قبل الله بالصفات والخصائص أي الشروط العامة، ومعين من قبل الأمة بالشخص إذ تقع على الأمة مسؤولية الاختيار الواعي له. [4] والخلافة العامة حق للأمة أوكلها الله حق الاستخلاف وممارسة هذا الحق على أساس قاعدة الشورى، ضمن إطار الإشراف والرقابة الدستورية للمرجع،

---

(١) د. محمد طي: الفكر السياسي والدستوري عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر، إشراف السيد محمود الهاشمي، المنهاج، العدد ١٧، السنة الخامسة - ربيع ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م، ص٣٦٥.

(٢) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، لمحة فقهية تمهيدية، مصدر سابق، ص ١٨ - ١٩.

(٣)- محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، قم - إيران، ط ٢، ١٤٢٤ هـ ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار الفكر، ط٤ - بيروت، ١٣٩٣ ه - ١٩٧٣ م، ص٢٦٢ - ٢٦٣.

والمرجعية الرشيدة هي المعبر الشرعي عن الإسلام، ولها النيابة العامة عن الإمام من الناحية الشرعية، كما تكون وظيفة الخلافة والشهادة للمرجع في عصر الطاغوت، لان الأمة قاصرة عن ممارسة حقها، أما أوجه الاقتراب مع ولاية الفقيه المطلقة فتظهر واضحة من خلال ما تمنحه النظرية من صلاحيات للمرجع لا تقل عن الصلاحيات المُعطاة في ولاية الفقيه المطلقة إن لم تكن نفسها، وهذا واضح من احتياج حق الاستخلاف إلى تأييد المرجع دائما، وهذا يشير إلى عدم ممارسة الأمة حقها عمليا. وكون النظرية لم تحدد سلطات المرجع الواسعة، وهل كونه مسؤول أمام الأمة أم لا.[1] فدور المرجع عند الإمام الصدر وولاية الفقيه عند الإمام الخميني مترادفان نظرياً وتطبيقياً وهما يمثلان قمة بارزة في تطور الفكر السياسي الشيعي.[2]

ب - ولاية الفقيه الانتخابية.

إن عناصر هذه الولاية لا تختلف في بعضها عن الولايات الأخرى للفقيه، حيث ترى أن الحكومة ضرورة لجميع العصور، وان تطبيق الكثير من الأحكام الإسلامية لا يتم إلا من خلال إقامة الحكومة وتعطيلها يؤدي إلى تعطيل قسم كبير من أحكام الشريعة.[3] أما في حالة وجود فقيه واحد متصف بالشرائط يجب على الأمة القبول بولايته، وفي حالة تعدد الفقهاء فيتم انتخاب الولي الفقيه من قبل الأمة، ومن اجل ضمان السلامة يتم الانتخاب على شكل مرحلي، في المرحلة الأولى تنتخب الأمة (الخبراء) وفي المرحلة الثانية ينتخب الفقيه الحاكم من قبل الخبراء.[4]

وتستند شرعية الحكومة في عصر الغيبة إلى الأمة، والحكومة هي عقد بين الحاكم والمحكوم أمضاه الشارع، أي إن الحكومة الإسلامية هي عقد شرعي بين الأمة والحاكم المنتخب.[5] وكذلك يجوز تعدد الحكومات إذا تعذر جمعها في دولة إسلامية واحدة كبيرة [6]. وذهب إلى هذا الرأي الشيخ محمد مهدي شمس الدين حيث يرى أحقية

---

(١) محسن كديور: مصدر سابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) عقيل سعيد: نظرية الدولة عند الإمام الشهيد الصدر، الفكر الجديد، العدد - السادس، ص ١٦٦.

(٣) آية الله المنتظري: مصدر سابق، ص ٣ - ١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٩٥ - ٤٩٨.

(٥) المنتظري: مصدر سابق، ص ٤٩٥ - ٤٩٧، ص٦١٨.، محسن كديور: مصدر سابق، ص٨٩.

(٦) المنتظري: المصدر نفسه، ص٤٢٠.

الأمة بالاختيار والانتخاب، وولايتها على نفسها، أي ينتخب كل شعب مسلم حكومته في إطار وحدة الأمة ولايمكن لدولة عالمية تشمل جميع الأقاليم. (١)ومال إلى هذا الرأي العلامة محمد حسين فضل الله حيث أشار إلى وحدة وعالمية الدولة خاصة في الدولة المعصومة فقط. (٢) أما الشيخ علي المنتظري لا يذهب إلى مطلق التعددية بل يرى تعدد الإمامة والولاية إلا في حالة تعذر الوحدة، لان إقامة دويلات إسلامية أفضل من إهمال أمر الأمة نهائيا. (٣)

وهذه النظرية ما هي الا استكمال لنظرية النائيني ومن القائلين بها آية الله منتظري ذكرها وعرفها في كتابه (دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية) وذهب إلى جانب هذا الرأي آية الله مطهري الذي يرى أن الأمة هي التي تنتخب الفقيه أساسا. (٤)

٢ - نظريات حرية الأمة بانتخاب الحاكم.

هي التي تؤمن بان الأمة الإسلامية حره في انتخاب الحاكم وممارسة الولاية السياسية، وان حيز الفقاهة يقتصر على دائرة تطبيق قوانين الشرع لأنها شرط لازم في الحاكم ودخيلة في إدارة المجتمع ممثلة في:

أ- نظرية الحكومة الدستورية المقيدة.

إن هذه النظرية من النظريات الأولى في أصول الدولة في الفقه الشيعي، وصاحبها هوالعلامة الميرزا محمد حسين النائيني، حيث ذكرها في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) والتي سعت للتأليف مابين الحق الإلهي وحق الأمة. وهي ثمرة مساعي وتوجيهات وأفكار جمال الدين الأفغاني وتطلعاته السياسية. (٥) مستندة على عدة أركان هي:

- تعد الأمور السياسية من وظائف المعصوم (عليه السلام) وفي زمن الغيبة تكون من وظائف المجتهدين العدول.

---

(١) عبد الكريم آل نجف: الأبعاد العالمية للنظرية السياسية الإسلامية قضايا إسلامية، قم. الجمهورية الإسلامية الإيرانية، العدد السادس، ١٤١ ه - ١٩٩٨م، ص١٤٢ -١٤٣.

(٢) محمد حسين فضل الله: مصدر سابق، ص٣٠٠ - ٣٠٣.

(٣) عبد الكريم آل نجف: مصدر سابق، ص١٤٥.

(٤) محسن كديور: مصدر سابق، ص ٩٠.

(٥) حسين بركة الشامي: المرجعية الدينية من الذات إلى المؤسسة، دار الإسلام، بغداد، ط ٣، ١٤٢٧ ه - ٢٠٠٦ م، ص ٧٥.

- تكون الأمور السياسية في عداد الأمور الحسبية، وهي تلك التي لا يرضى الشارع بتركها أبدا، وعليه تكون مسؤولية المراجع ووظيفتهم في حفظ نظم الممالك الإسلامية وشؤونها أهم من جميع الأمور الحسبية الأخرى ومقدمة عليها. [1]

- عندما لا يتيسر للمجتهدين العدول التصدي لهذه الأمور، يكون العمل وفق ثلاث أصول، وذلك لجهة عدم أمكان ترك هذه الأمور وإهمالها.

الأصل الأول: تدوين دستور يتضمن جميع ما للأمة من حقوق وحريات، وتحديد واجبات الحكام وصلاحياتهم، وشروط تعينهم وعزلهم عن مناصبهم على أن يتم ذلك كله بحيث يوافق الدين ومقتضياته.

الأصل الثاني: أن يكون لأعضاء مجلس الشورى الوطني حق الإشراف على عمل الدولة ومحاسبتها في المسؤوليات المناطه بها للحول دون تجاوز الدولة وتفريطها بالواجبات الملقات على عاتقها.

الأصل الثالث: تشتمل الهيئة المنتخبة (المجلس) على عدد من المجتهدين العدول أومن الماذونين عنهم، لتسبغ الشرعية على عمل المجلس والقرارات الصادرة عنه من خلال ما تقوم به من تصحيح وتدخل وإمضاء لما يجري في المجلس. [2]

لقد سعى النائيني للموائمة بين النظرية التقليدية في ولاية الفقيه وبين حقوق الأمة (التوفيق مابين التكليف الإلهي وحق الأمة) وانتهى بإمضاء مشروعية الحكومة الدستورية بشرط وجود عدد من المجتهدين بين أعضاء القوة التشريعية (المقننة) ورعاية المجلس لأرائهم، والأخذ بها في سن القوانين، وذلك في حال عدم انبساط يد المجتهدين العدول. [3] ومن العلماء المدافعين عن هذه النظرية هوالمرجع محمد كاظم الخرساني (الاخوند) ت: ١٣٢٩ ه، وهومن المتحمسين لها حيث قرض كتاب

---

(١) آية الله المحقق النائيني: تنبيه الأمة وتنزيه الملة، مؤسسة أحسن الحديث، تعريب عبد الحسين آل نجف، ط ١، قم، ١٣٧٧ ش - ١٤١٩هـ ص ١٣٣.

(٢)- د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، دار الكتاب الإسلامي، المجلد الثاني - ج ٣، ٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ ه. ق، ص ١٢٧.، آية الله المحقق النائيني: المصدر السابق ص١٠٥ - ١٠٦.

(٣) رشيد الخيون: المشروطة والمستبدة، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد - بيروت، ط،، ص ٣٣٨.

النائيني (تنبيه الأمة) رغم كونه من الفقهاء الذين لا يقولون بولاية الفقيه السياسية. [1]

- نظرية الحكومة الانتخابية المبنية على القوانين الإسلامية.

قد تتبين صورة وهدف هذه النظرية من خلال عنوانها الذي يعبر بوضوح عن الدولة الإسلامية القائمة على أساس الآراء العامة، أي أنها حكومة قائمة على أساس رأي الشعب ومقيدة في إطار قوانين الإسلام. وتذهب هذه النظرية إلى أن الحكومة أمر ضروري في كل مجتمع وأمر عقلائي ففي زمن المعصوم ﷺ تناط أمور الدين والدنيا ورئاسة الدولة وتنفيذ الأحكام بهم وتكون تحت ولايتهم، أما العلماء في زمن غيبة المعصوم ﷺ تنحصر ولايتهم بالفتوى والقضاء والأوقاف العامة وأموال الغائب والقصر وما شابه ذلك، وولاية الفقيه طبقا للنص والإجماع هي اضعف وأضيق من ولاية المعصوم ﷺ، وعلى هذا المبدأ يفقد الفقيه العادل شرعا الولاية السياسية. [2]

أما وظائف الفُقهاء فتنحصر في تطبيق القوانين مع الشريعة (تفقيه القوانين وأسلمتها) وممارسة القضاء على أساس مشروع، والاضطلاع بمهمة الإصلاح والدعوة إلى الخير. ومن ابرز المنادين بهذه النظرية محمد جواد مغنية وجمع كبير من الفقهاء الذين لا يرون صلاحية واسعة للفقيه في الأمور السياسية، كالسيد ابوالقاسم الخوئي.

المبحث الثالث:

نظرية الدولة والقيادة من المنظور السني السلفي

إن الفكر السياسي الإسلامي يستقي معينه من رافدين مهمين هما من المصادر الأساسية في صياغة الأحكام والقوانين التي تتعلق بالإحكام السلطانية، أولها المصدر التشريعي المتمثل بالكتاب والسنه، وثانيهما المسار السياسي الواقعي لحقبة صدر

(١)- د. علي الوردي: مصدر سابق، ص ١٣٥.، أسامة البصري: المؤسسة الدينية ثوابت الماضي وضرورات الحاضر، الفكر الجديد، العدد السادس - السنة الثانية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣ م، ص ٢٢.

(٢) محمد جواد مغنية: الإمام الخميني والدولة الإسلامية، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ٧٣ - ٧٦.

الإسلام، وهذا العامل له الأثر الكبير والواضح في الفكر السياسي وعلى امتداد تاريخ الإسلام وحتى بداية العصر الحديث الذي شهد حركة نهضة إصلاحية متنامية مستمدة مصدرها من مسار الخلافة الذي دارت حوله (كتب الأحكام السلطانية، والسياسة المدنية، ونصائح الملوك) عند سائر فقهاء الجمهور على اختلاف مشاربهم المذهبية.[1] حيث ظهر في الساحة فكر جديد يدعوللرجوع للكتاب والسنة ويحارب التقليد للمذاهب يدعى بالمذهب السلفي نسبة للسلف المتقدم الذين كان مذهبهم وطريقهم في معرفة الأحكام الشرعية وأخذها من الكتاب والسنة الصحيحة، وقد قام بهذه الدعوة السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه من بعده الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، ومحمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) ويقترب هذا الفكر من المذهب الوهابي في مسألة الرجوع إلى أصل الشريعة، والاجتهاد، ونبذ الخرافات والبدع، والثورة على جميع التقاليد. ويرى هذا المذهب إن الشرع يتماشى مع الحضارة الحديثة، ويفتون بحلية أكثر المعاملات التي اقتضتها الحاجة التجارية في هذه الأيام، ويرون أن صريح المنقول في الشرع الإسلامي لا يخالف صريح المعقول.[2] وكان من أبرزها دعاتها الفكر السياسي السلفي الذي اعتمد على أصول ومرتكزات تتمثل في:

١ - الخلافة الإلهية:

إن الخلافة الإلهية هي ميزه للإنسان دون غيره من المخلوقات، لقابليته على:

أ - التوحيد: هوالغاية من وجود الإنسان في الأرض وبه فضله الله على المخلوقات وميزه عنها بما أودع فيه من معارف وعلوم ومدارك في فطرته، وخصه بالعبودية وكافئه عليها في الرزق والحياة ونيل الفضيلة والشرف والرفعة إذا استخدم ما منحه الله من حرية الإرادة والاختيار وما وهبه من قوة العلم والإدراك لكي يعرف الله.[3]

ب - العقل والعلم: الخضوع للقوة التي وضعت قانون الطبيعة هي نفس القوة التي وضعت قانون الأخلاق والطاعة، وإذا فعل الإنسان ذلك نال الفضيلة والخلافة

(١)- صائب عبد الحميد: محمد باقر الصدر المشروع الفكري والحضاري، ص١٣٣.

(٢)- الشيخ علي ال كاشف الغطاء: ادوار علم الفقه وأطواره، دار الزهراء، ط١، بيروت - لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ص٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) أبوالأعلى المودودي: مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، دار القلم، الكويت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، ص٢٥.

في الأرض، والعقل والعلم هما وسيلة وأداة لكسب الفضيلة لكي تمكن الإنسان من الخروج من طابعة الحيواني والعبودية الإلزامية الحيوانية إلى درجة العبادة الاختيارية الإنسانية إذا مارسها بطريقة صحيحة.[1]

٢ – الطاعة:

إن طاعة الناس للسلطة والحاكم ضرورية لتمكن الدولة من تنفيذ أهدافها وأغراضها، ومنشأ الطاعة في الإسلام يرجع إلى طاعة الرسول ﷺ لأنه الرئيس الأعلى للدولة فيمثل السلطان الروحي كامتداد للنبوة، ويمثل السلطان المادي باعتباره رئيساً.[2] وهي على نحوين:

أ – ثبوت الطاعة للرسول ﷺ في الأمور والأحكام الخاصة بأمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، والأحكام المفوضة إليه كسلطة الحكومة وإدارة الخلافة في الأرض، وهذه الصفات ليست ذات صيغة ذاتية مصدرها شخص الرسول ﷺ بل هي مفوضة إليه من عند الله تعالى، إذ ليست طاعته إلا طاعة الله نفسه كما في قوله تعالى (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله)[3].

ب – الجانب الشخصي للرسول ﷺ: أما من الناحية الشخصية للرسول ﷺ يفتح للناس أبواب الحرية الفكرية والاستقلال العقلي ويقذفه في روع أتباعه، ويروضهم على أقوم وأسمى مبادى الديمقراطية ومزاولة أبعاد الحرية الفكرية تجاه كل إنسان، وطاعة الرسول ﷺ إلا من خلال كونه قد أوتي الحكم والنبوة من الله، وما طاعة الحكام ألا كونهم منفذين لأحكام الله ورسوله، وإذا جاء احد منهم بأمر من الله فتجب على المسلمين الطاعة، لان لا حرية لأحد في الفكر والرأي أبدا أمام خالقه ورازقه وحاكمه الحقيقي المطلق. أما طاعة المسلم ليس واجبه في الآراء الشخصية، ولكل شخص حرية اتخاذ الآراء وتبني أي رأي موافق له، فمن خلال ذلك يرى الإسلام لا طاعة لبشر كونه أحد البشر[4]

---

(١) – سيد قطب: معالم في الطريق، دار دمشق، قم، ط ١، ١٤٠٥ هـ ص٨٣ – ٨٤.، انظر أبوالأعلى المودودي: المصدر نفسه، ص٢٥ – ٢٦.

(٢)– عبد القادر عوده: الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص١٢٠.

(٣) – سورة النساء، ايه٨٠.

(٤) – أبوالأعلى المودودي: مصدر سابق، ص٩٣ –٩٦.

وان من مبادئ الإسلام أن يطيع المحكومين أولي الأمر فيهم والقائمين على شؤنهم من الحكام، وان يخلعون طاعة الحاكمين إذا خرجوا على طاعة الله، وبذلك ربط الإسلام طاعة المحكومين للحاكمين بطاعة الله من قبل الحاكمين، فالحكومة الإسلامية يجب أن تقوم على أمر الله وليس لها أن تنحرف عما انزل الله وألا فقدت حقها في الطاعة وبالتالي حقها بالحكم.[1]

٣ – مراجع الحكم في النظام الإسلامي: إن أمر الله تعالى وهدي الرسول ﷺ هما بمنزلة القانون الأساسي والحكم النهائي في نظام الإسلام، ففي حالة حدوث نزاع في أمر من الأمور بين المسلمين أوبين الحكومة والرعايا لامناص للحكم فيه إلا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولابد للمسلمين جميعا أن يخضعوا لما يصدر عنهما من حكم أوأمر خضوعا كاملا، فالكتاب والسنة النبوية هما مرجعا وكلمة فصل ومن خصائص النظام الإسلامي اللازمة التي تميزه عن نظام الكفر والباطل للحياة الإنسانية.[2]

أما في حالة وقوع النزاع بعد زمن الرسول ﷺ حول تأويل الكتاب والسنة وإخراج الأحكام منها، فأي شخص أوهيئة في النظام الإسلامي يكون لها أن تقرر الحكم والمقصود من الشريعة وفض النزاع. والجواب على ذلك أن هنالك ثلاث أصول يمكن أن تحدد لنا من له الأحقية في تحديد وتوضيح الأحكام وفض النزاعات بين الأفراد والهيئات.

أ – أهل الذكر: أهل الذكر هم النخبة الممتازة التي احتفظت بهذا التعليم في صدرها، أي أصحاب المرجعية في المجتمع الذين عندهم علم الكتاب والطريقة التي أمر الرسول ﷺ بها المسلمون بانتهاجها والسير بمقتضاها.

ب – أولي الأمر: هم الذين بأيديهم أزمة الأمور وعليهم تبعات توجيه المسلمين في شؤونهم الاجتماعية، ويتمتعون بكفاءة جيده للاستنباط، أي باستطاعتهم معرفة الأمور المستحدثة من الكتاب والسنة، وهم المرجع في النوازل الاجتماعية وفي قضايا المجتمع الخطيرة بدلا من أهل الذكر.

ج – نظام الشورى: جاء نظام الشورى في كتاب الله طريقا للبت في أمور المسلمين

---

(١) – عبد القادر عوده: مصدر سابق، ص٨٧ – ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠.، أبوالأعلى المودودي: المصدر السابق، ص١٨٦.

الاجتماعية بصورة نهائيه كما في أية الشورى (وأمرهم شورى بينهم) [1] أي أن على كل عامة المسلمين أن يرجعوا إلى أهل الذكر في ما يعرض لهم في حياتهم الفردية من مسائل ومشاكل، وعلى أهل الذكر أن يدلوهم على أحكام الله ورسوله في بابها. أما المشكلات أوالمسائل التي تخص المجتمع والدولة فتعرض على أولي الأمر وهم بدورهم يجتهدون بالتشاور فيما بينهم واستبانة ما هوأصوب واقرب إلى مقصود كتاب الله وسنة رسوله. [2]

فالأصل في الحكومات أنها ضرورة اجتماعية لا مفر منها، وبما أن الله جل شانه أوجب علينا أن نتحاكم إلى ما انزل الله على رسوله وان نحكم به، فقد أوجب على المسلمين أن ينصبوا عليهم حكومة تقيم فيهم أمر الله وترعاه وأن يتعبد أفرادها بإقامة الحكم طبقا لما انزل الله كما يتعبدون بالصوم والصلاة، فإذا وجب أن يقوم الحكم طبقا لشريعة الإسلام فقد وجب أن تكون الحكومة إسلامية يؤمن أفرادها بالمبادئ التي يقوم عليها الحكم ويحرصون على العمل بها، ووجوب أن يكون الحكام مسلمين، وان يتحاكموا إلى الإسلام، ويتخذوا القران دستورا للحاكمين والمحكومين، وهذا الدستور الأعلى يرسم المناهج التي لا يصح أن يتعدوها، ويترك للحكومة المناهج التفصيلية. [3]

وهذا يبدوجلياً في نظرة الأخوان المسلمين الشمولية للإسلام في كل النواحي الدنيوية والأخروية، العبادية والروحية، وانه دين ودولة، وروحانية وعمل، وسيف ومصحف، يهدف الى تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، وصبغ الأمة بالهيئة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها، وذلك عن طريق تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على تعاليم الإسلام والنزول على حكمها. [4] وقد حضيت القيادة لديهم باهتمام بالغ باعتبارها أهم الأركان التي يعتمد عليها التنظيم في الجماعة، حيث إن شخصية القائد وتحليه بالصفات والمميزات الخاصة والخارقة،

(١) - سورة الشورى، آية ٣٨.

(٢)- أبو الأعلى المودودي: مصدر سابق، ص١٨٧ - ١٨٩.

(٣)- عبد القادر عوده: مصدر سابق، ٨٤ - ٨٩.

(٤)- يوسف القعيد: حسن ألبنا متى.. كيف.. ولماذا، قضايا عربية، العدد الثالث - السنة الخامسة، بيروت - لبنان، آب - حزيران، ص٣٥.

يضفي عليه حالة التقديس والعظمة والهيبة في نفوس أتباعه، وهذا ما نراه من سلوك وكلام الشيخ حسن البنا واعتماده على الاخبارات الإلهامية في حل المشاكل التنظيمية والسياسية، بل وحتى تسمية الجماعة جاءت من هذا المصدر، وهذا الأمر يجعل من طيف القائد محلقاً فوق الجماعة وأصدقائها وأعدائها على السواء حتى بعد وفاته، أي يُضفي القائد على نفسه شخصية كارزمية من شانها أن ترفع من معنويات الجماعة وفرض السلطة عليهم وعلى الآخرين. [١]

أما الحكومة فتعد ركن من أركان الإسلام وضرورة عند الأخوان المسلمين، والحكم لديهم من العقائد والأصول، فهم لا يطلبون الحكم لأنفسهم فهوفي نظرهم وجوب كفائي، أما إذا لم يتصدى له احد فيصبح من ضمن منهاجهم ويعملون على تخليصه من كل حكومة لا تنفذ أوامر الله، وهم يعتقدون بالنظام الدستوري الذي يمثل لديهم اقرب النظم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، أي يسلمون بالمبادئ الأساسية للحكم الدستوري باعتبارها مستمدة من نظام الإسلام. [٢]

الخاتمة

إن ما يميز القيادة الشرعية الاسلامية عن غيرها من القيادات هوانها وضعت هيكلية عامة لتحركها، فكان في مقدمة اهدافها الحفاظ على بيضة الاسلام، وخلق مثل اسلامي تتجه نحوه القلوب، مثلما تعمل على بناء القاعدة الاساسية في الامة التي تحمل هذا المثل، واذا حدث تراجع ظاهري اونقلة تاريخية في اسلوب عمل القيادة فهذا مرده الى الظروف المعقدة التي تواجهها القيادة. فقد تعمد القيادة الى بذل دمائها من اجل وقف مسيرة الانحراف واعطاء الامة دفقاً حيوياً جديداً وقد تعمد الى اقرار الصلح مع الحاكم الظالم في سبيل الحفاظ على وحدة المسلمين وفي سبيل الحفاظ على القاعدة الاسلامية وفي كلا الاحوال كان موقف القيادة يتوقف على تحقيق النتيجة الافضل لمصلحة الاسلام. [٣] لذا نجد أن هنالك اختلاف في منشأ

(١)- المصدر نفسه، ص١٤٢- ١٤٣.

(٢) حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس، مطابع عويدات، بيروت، ص ٣٨ – ٤١.

(٣)- عادل الربيعي: مصدر سابق، ص١٣٣.

واصل السلطة باختلاف المذاهب، إلا انه لا خلاف في ارتكازها إلى مبدأ واحد ومنشأ أصيل هوالوحي المتمثل بالقران والسنة النبوية، إلا أن البعض يُضيف تراث الحكومة في الدولة الإسلامية المتمثل بالاحكام السلطانية، الأمر الذي أدى إلى أرباك وخلط في النظرية الإسلامية السياسية في اعتمادها على أصولها الأولى، بسبب ظهور نماذج متطرفة، حيث تعرضت القيادة والزعامة إلى انحرافات كبيرة وخطيرة على مدى السنين المنصرمة، حتى وصل بها الانحراف في القيادة إلى تقمص الأحكام الإلهية والصفات الرسالية القيادية بصورة جامدة مشوهة، خالية من روح الدين.

وكان المقصود منها خداع الناس وتظليلهم على ايدي المستغلين لمنصب القيادة والخلافة نيابة عن الرسول ﷺ، وأسوء مصداق لهم القيادة والخلافة المزعومة بدولة الخلافة الإسلامية في العراق والشام (داعش) التي ظهرت مؤخراً في أجزاء من العراق وسوريا، تحت شعار «لا آله الا الله، محمد رسول الله»، وبزعمهم أنها «خلافة على منهاج النبوة»، والإيحاء لأنصارها بكونها «باقية وتتمدد»، والتي تقوم على أساس المذهبية الضيقة والفكر المتحجر، بأتباعهم النصوص التي تحمل أوجه كثيرة ومختلفة، أوتفسيرها وفق الرأي والمصلحة، والتي أدت الى إبراز المصالح الفردية وإشاعة الروح القبلية، وبث التفرقة والنعرات الطائفية بين المسلمين، وإنشاء الانقسامات الجغرافية، وتمكين المستبدين والظالمين وأصحاب المصالح على شؤون الأمة، والعبث بمقدسات وتراث البلدان والديانات الأخرى من إتباعهم سياسة طمس المعالم وتهديم دور العبادة والآثار، وكذلك سلب حرية الأديان والأقليات.

كما اتبعت هذه الجماعة طريقة البيعة القسرية على الناس، ومطالبتهم بالطاعة اوالقتل اودفع الفدية، حتى أصبح فهمهم للدين بحسب قيادتهم هوالتطبيق السطحي للشريعة نيابة عن الرسول ﷺ، وما هذا الا نموذج مشوه ومنحرف في القيادة والنيابة، خصوصاً بعد أن بين الرسول ﷺ في سنته، والقرآن في منهاجه منطق الحرية، وسياسة عدم الإكراه في الدين، والقهر والجبر الفكري على الآخرين (لا أكراه في الدين) [1].

ونستطيع أن نستنتج أن هناك أكثر من نظرية للسلطة والقيادة في الفكر الإسلامي السياسي، وهذا الأمر ناشئ من اختلاف المذاهب الإسلامية والأصول المتبعة،

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

والى المرونة التي يتمتع بها الإسلام في وضع البدائل على حسب حاجات المجتمع ومقتضى الضرورة، أي إن نظرية السلطة والقيادة في دولة الرسول ﷺ تختلف عنها في زمن الخلفاء الراشدين، وكما تختلف عنها بالنسبة للدولة الإسلامية في زمن الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات التي ظهرت، بغض النظر عن صحة ومشروعية السلطة لديها فهي تمثل فكر إسلامي غير خالص، أي اختلاطه بالأنظمة المادية القائمة على فكر الإنسان، ومن هنا جاء الفقيه ليضع نظريته في السلطة السياسية ونظام الحكم الإسلامي ليس بالصورة المتكاملة والتامة مع حكومة الرسول ﷺ بل على سيرته وخطاه، وهي من البدائل الإسلامية في زمن غيبة المعصوم (عليه السلام).

عطايا وهبات النبي محمد ﷺ لعامة الناس وخواصهم

أ.د. رحيم حلومحمد البهادلي
كلية التربية للبنات - كلية الآداب - جامعة البصرة

أ.م.د توفيق دواي الحجاج
كلية الآداب - جامعة البصرة

أ.د. رحيم حلومحمد البهادلي

كلية التربية للبنات / جامعة البصرة كلية الآداب / جامعة البصرة

ا. د. رحيم حلومحمد شناوة البهادلي. من مواليد ١٩٧٠ في ميسان / قضاء المجر الكبير.
استاذ التاريخ الاسلامي والفكر في كلية التربية للبنات/ جامعة البصرة.
تخرج من كلية الاداب/ جامعة البصرة بكالوريوس، وماجستير من نفس الكلية عام ٢٠٠١م، ثم دكتوراه من نفس الكلية. عام ٢٠٠٤م. وقد درس في جامعة البصرة وجامعة ميسان.

أ.م.د توفيق دواي الحجاج

كلية الآداب / جامعة البصرة

ا.م.د توفيق دواي موسى الحجاج. من مواليد ١٩٦٣م في البصرة. تدريسي في كلية الاداب جامعة البصرة.
تخرج من جامعة البصرة١٩٩١م. وحصل على الماجستير من معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا في جامعة الدول العربية عام ٢٠٠٢م. ودكتوراه من نفس المعهد عام ٢٠٠٥م.

لقد اتسم المجتمع العربي الإسلامي منذ عصر النبي ﷺ بسمات إنسانية كبيرة شكلت معالم حضارية كان من شأنها تنظيم حياة الفرد وتوطيد العلاقات الاجتماعية بين الدولة وأبنائها، كما شكلت فاصلا كبيرا مع بقية المجتمعات الأخرى، ولعل مسألة الهبات والعطايا لعموم المسلمين وخواصهم وحتى غيرهم تأتي في مقدمة تلك المفردات الإنسانية التي أكدت عليها الشريعة الإسلامية، وقد أولى الرسول الكريم ﷺ وكبار المسلمين وأغنيائهم اهتماما كبيرا بهذا الجانب، إذ لا شك أن المجتمع العربي الإسلامي في أيام النبي محمد ﷺ كان فيه تفاوت ماثل كبير في درجات الغنى والفقر، كإرث ورثه ذلك المجتمع من أيام الجاهلية التي كانت من سماتها وجود تفاوت طبقي كبير بين أبنائه لعدم وجود واعز يرشد الجميع إلى مساعدة أهل الفقر والفاقة والمحتاجين من الناس وقتذاك، ولما جاء الإسلام حاول النبي محمد ﷺ قدر المستطاع بل انه ﷺ بذل جهودا جبارة في سبيل أن يذيب ذلك التفاوت وان يقضي على حالات الفقر المستعصية بالعمل وفق عدة روافد منها: مبدأ التكافل الاجتماعي، ومنها: الهبات، ومنها: العطاء، ومنها: الكرم، ومنها الجود، ومنها: السخاء لرفد الفقراء من الناس والمحتاجين منهم بما يحتاجون إليه من الأموال لغرض تحقيق موازنة فعلية بين أبناء المجتمع العربي الإسلامي، كي لا يكون هناك تفاوتا كبيرا بين أبناء ذلك المجتمع الذي أراده الله عز وجل أن يكون متوازيا ومتساويا في جميع الحقوق والصفات التي من شأنها خلق جيل جديد لا يؤمن إلا بقضية واحدة وهي الإيمان بالدين الإسلامي.

هذا من جانب ومن جانب آخر كان النبي محمد ﷺ طالما يهب الهبات والعطايا لعموم الناس وخواصهم مسلمين كانوا أم غير مسلمين، من غير المحتاجين وبالذات

الوافدين عليه من دول ومدن وقبائل أخرى وقد جاءت له خاضعة أما سياسيا أومعلنة الإسلام، فأكرمهم الرسول الاكرم ﷺ لا لفقر أولحاجة وإنما كنوع من أنواع الصلات وديمومة العلاقة التي كانت ولا تزال معروفة عند أصحاب الشأن والسلطان وبالذات عطايا النبي محمد ﷺ للوافدين عليه في عام الوفود (٩ هـ).

أن الحديث عن هذا الموضوع يفرض علينا منهجا معينا نسترعي فيه أن نقسمه إلى قسمين، الأول منه نتحدث فيه عن عطاء الرسول الكريم ﷺ وإكرامه إلى عموم العرب المسلمين من الفقراء والمحتاجين منهم، كنوع من أنواع المساعدة التي طالما كان الناس وبالذات الفقراء منهم بحاجة ماسة إليها لتحسين الواقع المعيشي، والقسم الثاني الحديث فيه عن هبات الرسول الكريم وعطاياه وهداياه إلى الشخصيات البارزة في المجتمع العربي الإسلامي والوفود القادمة عليه من مختلف المدن والدول المجاورة والتي جاءت لعقد صفقة سياسية أوجاءت معلنة الدخول في الدين الإسلامي افرادا كانوا أوجماعات، فكانت تلك الهبات كنوع من أنواع إدامة الصلة والعلاقات الاجتماعية والسياسية وتحسين الوضع المعيشي للبعض الآخر أيضا.

عطايا النبي محمد ﷺ

وفيما يخص الحديث عن عطاء النبي ﷺ وكرمه لعموم الناس الفقراء منهم والمحتاجين، وردت في ذلك مجموعة من آيات الذكر الحكيم التي تحث الفرد المسلم وتأمره على مساعدة أهل الفقر والفاقة وأبناء السبيل، منها على سبيل المثال قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم »[1]، وقوله تعالى أيضا: «وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير »[2]، وقوله تعالى أيضا: «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٥.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٠.

ولا خلال »[1]، وقوله تعالى أيضا: «من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم »[2]، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تصب في نفس الرافد، والتي فيها إشارة واضحة من الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ وعباده على وجه العموم بضرورة مساعدة من لا طاقة له من عباده الصالحين على تحمل أعباء الحياة ونفقات العيش المرهقة، والتي قد تعي البعض عن توفر أقل متطلبات العيش اليومية في أقل تقدير.

كما نجد في أقوال الرسول الكريم ﷺ توجيهات كثيرة مهمة بهذا الصدد، وهي وان كانت مأخوذة من روح النص القرآني الكريم، إلا أنها جاءت مكملة من حيث التأكيد والتوجيه، وداعية لمن يملك الأموال أن ينفق منها لمستحقيها كنوع من أنواع التكافل الاجتماعي في ظل التشريع السماوي الذي انزله الله عز وجل رحمة للعالمين، ومن تلك الأحاديث النبوية الشريفة منها قوله ﷺ: «ما من مسلم ينفق من كل مال له زوجين في سبيل الله عز وجل إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده »[3]، وقوله ﷺ: «من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين حسنة واحدة منهن يصلح الله بها له أمر دنياه وأخرته واثنتين وسبعين في الدرجات »[4]، وقوله ﷺ أيضا: «لا حسد إلا في اثنتين رجل علمه الله القرآن وهويقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أعطاه الله مالا فهوينفقه آناء الليل وآناء النهار »[5]، وغيرها من الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على نفس المعنى.

وعلى هذا كان لا بد أن يكون الرسول الكريم ﷺ على رأس قائمة من تولى العطاء للناس المحتاجين وإكرام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل استنادا لما أوردنا في أعلاه من نصوص آي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية المطهرة، فكان الرسول

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣١.

(٢) سورة الحديد، الآية ١١.

(٣) احمد بن حنبل: مسند احمد بن حنبل، ٥ / ١٥١ . وينظر النسائي: السنن الكبرى، ٣ / ٣٢؛ الطبراني: المعجم الأوسط، ٣ / ٣٣٦.

(٤) أبويعلى الموصلي: مسند أبويعلى، ٧ / ٢٥٥. وينظر الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨ / ١٩١؛ المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ٦ / ٤٤٥، ٤٤٦.

(٥) مسلم: صحيح مسلم، ٢ / ٢٠١؛ ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ٢ / ١٤٠٨؛ الطبراني: المعجم الكبير، ١٢ / ٢٢٩.

ﷺ يكرم كل من يأتيه من عامة الناس أوالفقراء أومن كان طالبا للحاجة مادية كانت أم عينية، ومن ذلك نذكر شأن بلال الحبشي مؤذن الرسول الكريم ﷺ بهذا الصدد، إذ يروى أن بلالا كان في ضيق شديد من أمره وقد أصابه العوز والحاجة، فلم يجد بلال غير الرسول الكريم ﷺ يقصده لقضاء حوائجه، فذهب إليه وقضى عنه الرسول ﷺ جميع حوائجه وديونه وُأكرمه خير إكرام [1]. فقد كان بلال رجلا فقيرا سواءا قبل الإسلام ام بعده، وكان أمرا طبيعيا لرجل مثل بلال أن يكون فقيرا في ظل المجتمع المكي الذي كان من مقوماته التفاوت الطبقي الكبير بين أبناء المجتمع المكي قبل الإسلام، فكان هناك الأسياد وكان هناك العبيد وهم من طبقة الفقراء [2]وبلال الحبشي كان من تلك الطبقة الفقيرة، وحتى بعد إسلامه فماذا يستطيع الإسلام أن يفعل له في ليلة وضحاها، فقد ظل فقيرا ماديا حتى بعد الإسلام، نعم أصبح هورجلا حرا في الإسلام ولكن بقي وضعه الاجتماعي والمعيشي لم يتحسن بعد، وإذا كان لا بد من أن يتحسن فذلك أمرا مرهونا بعامل الزمن، فظل الرجل فقير الحال بدليل طلبه للحاجة من الرسول ﷺ.

وقد يثار التساؤل هنا من أين كان يعطي الرسول الكريم ﷺ تلك المعونات لبلال، فهل كانت من صلب ماله الخاص؟ أم هي من أموال عموم المسلمين؟ إن إلقاء نظرة سريعة على الواقع المعيشي للرسول ﷺ نجده كان في وضع لا يحسد عليه فهولم يكن رجلا غنيا ولكنه في الوقت نفسه لم يكن فقير الحال، وما عساه ﷺ أن يملك وكان مشغولا منهمكا بالنبوة وقيادة المسلمين، ولذلك يمكن القول بأن شأنه اجتماعيا كان شأن أي شخص من المسلمين، فكل ما كان يملكه الرسول ﷺ هوقوت يومه، وبدليل انه في أثناء زواج الإمام علي عليه السلام من ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، نجد أن كلا منهما تعاونا على متطلبات الحياة الزوجية الجديدة للإمام علي عليه السلام، فباع الإمام درعه بأربعمائة وثمانون درهم مع هدايا بسيطة جدا أهداها له الرسول ﷺ من متطلبات

---

(١) ينظر أبوداود: سنن أبوداود، ٢ / ٤٦؛ الطبراني: الأحاديث الطوال، ص ١٢٩؛ المعجم الأوسط، ١ / ١٤٨؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٦ / ٨١.

(٢) ينظر الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤ / ٢٥٥ وما بعدها.

منزلية وهي جل ما كان يملك [1]، لذلك لا يبقى أمامنا سوى القول أن الرسول الكريم ﷺ كان يعطي الفقراء والمحتاجين من ما يقدم إليه من هدايا وما تأتيه من غنائم وفيء وما شاكل ذلك، بدليل قوله ﷺ لبلال بعد أيام عدة من طلب الحاجة: «ابشر فقد جائك الله بقضائك، الم تر الركائب المناخات الأربع؟.. أن لك رقابهن وما عليهن»، وكانت عليهن كسوة وطعام من ملك فدك فأخذها بلال جميعها لقضاء حوائجه [2].

وعلى هذا المنوال كان الرسول ﷺ يكرم كل من يأتيه من الفقراء وأصحابه وعموم الناس المحتاجين طلبا للحاجة والطمع في الحصول على المعونات المادية أوالعينية، حتى أن العرب كانت تسمي الرسول الكريم ﷺ (قثم) [3]وتعني في العربية الرجل المعطاء [4]، وهي تسمية تتوافق جدا مع صفة الرسول الكريم في هذا الجانب، لأنه ﷺ كان على حد إشارة المجلسي: «أجود بالخير من الريح الهابة، يعطي فلا يبخل، ويمنح فلا يمنع» [5]، من ذلك أن رجلاً من عامة العرب من غير المسلمين قصده طالبا الحاجة فوهبه الرسول ﷺ غنماً، وحينما عاد الرجل إلى قومه خطب قائلا: «يا قوم اسلموا فوالله إن محمداً ليعطي عطاء رجل لا يخاف الفقر» [6].

ومع أن صفة الكرم والسخاء تلك كانت هوية للرسول الكريم ﷺ كما أوردنا، فان هذه الرواية تحمل بين طياتها إشارة واضحة إلى أن الرسول الكريم ﷺ كان يعطي الأموال كنوع من أنواع التشجيع على الدخول في الدين الإسلامي، لا كهدف أساسي بقدر ما هوإفصاح عن مقررات هذا الدين الذي من أهدافه مساعدة من لا طاقة له على تحمل أعباء الحياة، بدليل أن الرجل الذي أعطاه الرسول ﷺ الغنم قد اسلم ثم ذهب

---

(١) ينظر البلاذري: انساب الأشراف، ٢ / ٣١؛ ابن الجوزي: صفة الصفوة، ١ / ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤ / ٣١٦ - ٣١٧؛ الهيثمي: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ص ٦٢٩ - ٦٣٠.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، ١٦ / ١١٨.

(٤) ينظر الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٥ / ٢٠٠٥؛ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ٤ / ١٦؛ ابن منظور: لسان العرب، ١٢ / ٤٣٤.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار، ١٦ / ١١٨.

(٦) مسلم: صحيح مسلم، ٧ / ٧٤ - ٧٥؛ ابن بلبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ١٠ / ٣٥٤؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ٢ / ٢٣٢.

إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام.

فهكذا كان عليه الصلاة والسلام يكرم الفقراء والمحتاجين بل حتى في أثناء مسيره، من ذلك ما روي انه ﷺ ذات مرة كان يمشي وبرفقته الصحابي الجليل انس بن مالك فاعترضه إعرابي وقد جذب رداء الرسول ﷺ قائلا له: «يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك «فالتفت إليه الرسول الكريم ﷺ وأكرمه مالا [1].

ولم يقتصر عطاء الرسول ﷺ لعموم العرب والمسلمين على من يأتيه طالبا للحاجة فقط، إنما كان عليه الصلاة والسلام يتفقد كل من كان بحاجة إلى مأكل أوملبس أوزوجة أومأوى، فيعينه على توفير متطلبات عيشه كنوع من أنواع سبل التكافل الاجتماع التي كانت ولا زالت من مقررات الإسلام الأساسية، فحينما بعث المقوقس ملك مصر مع حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله الرسول ﷺ إليه يعرض عليه الإسلام، بعث المقوقس مع حاطب إلى الرسول ﷺ جملة هدايا فيها كسوة وجواري وفيهن مارية القبطية والدة إبراهيم ابن الرسول محمد ﷺ وأختها سيرين أوشيرين على اختلاف الروايات، تزوج الرسول ﷺ مارية ووهب أختها لأحد أصحابه وهوشاعره حسان بن ثابت [2]، فكانت سيرين أم ولده عبد الرحمن [3]، وقد كان حسان شاعرا مختصا بالرسول ﷺ وفقير الحال [4]، فأكرمه الرسول الكريم ﷺ على هذا الأساس.

وتتركز جل عطايا الرسول الكريم ﷺ وهباته في الوفود القادمة عليه من مدن وبلدان وقبائل أخرى جاءت معلنة الدخول الإسلام سواء كان ذلك قبيل فتح مكة أوبعده، فأكرمهم الرسول ﷺ كنوع من أنواع الصلة وإدامة المودة ومد خيوط المحبة والألفة والتعايش السلمي، وتشجيعا منه عليه الصلاة والسلام في دخول اكبر عدد

---

(١) ينظر البخاري: صحيح البخاري، ٧ / ٤٠؛ الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص١٧؛ المجلسي: بحار الأنوار، ١٦ / ٢٣٠.

(٢) ينظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨ / ٢١٢؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ٣ / ٥١٥؛ المجلسي: بحار الأنوار، ١٦ / ١٢٦؛ ٢٠ / ٣٨٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥ / ٢٦٦.

(٤) ينظر ابن عساكر: تاريخ دمشق، ١٢ / ٣٧٨ وما بعدها؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢ / ٥١٢ - ٥٢٣.

ممكن في الإسلام، وكانت للرسول الكريم ﷺ بهذا الشأن أحاديث لطيفة منها قوله ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[1]، وقوله ﷺ أيضا: «وأجيزوا الوفد بنحوما كنت أجيزهم»[2]، في إشارة منه عليه الصلاة والسلام أن لا بد من إكرام من يفد عليه معلنا الإسلام كسنة أرادها الرسول الكريم ﷺ أن تكون سارية عند المسلمين بصورة عامة.

هبات النبي محمد ﷺ

قبيل فتح مكة كانت تتقاطر على الرسول ﷺ بعض الأفراد سواء كانوا من العامة أومن الشخصيات المؤثرة يومذاك من غير المسلمين وقد جاءوا معلنين الدخول في الدين الإسلامي، فكان الرسول ﷺ يقبل إسلامهم ويرحب بهم ويهب لهم الهبات كجائزة وصلة لهم، ومثال ذلك ما حصل بعد صلح الحديبية (٦هـ) الذي عقد بين الرسول ﷺ ومشركي قريش، فقد توفر لدى الرسول ﷺ مناخا ملائما لدعوة أبناء المدن والأمم المجاورة ورؤساء القبائل العربية إلى الإسلام، فوجه إليهم كتبه يدعوهم إلى الإسلام وكان فيمن كتب إليهم بني حنيفة في اليمامة داعياً إياهم إلى الإسلام، فوجه هؤلاء بوفدهم إلى الرسول ﷺ وقد ترأس ذلك الوفد جملة أشخاص مؤثرين ووجهاءا من أهل اليمامة فيهم سلمى بن حنظلة ومجاعة بن مرارة الذي أسلم وسأل الرسول ﷺ أرضاً مواتا في اليمامة فأقطعها له، ومسيلمة الكذاب الذي طلب من الرسول ﷺ أن يجعل الأمر له بعده إن هوأسلم، فرد عليه الرسول ﷺ قائلا: «لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك»، وآخرين غيرهم[3].

وفضلا عن ذلك التكريم أجازهم الرسول الكريم ﷺ في أثناء عودتهم إلى ديارهم، فلما أراد هؤلاء الرجوع إلى بلادهم أكرمهم الرسول الكريم ﷺ بهبات وجوائز منها (خمسة أوقية) لكل رجل فيهم[4]، وقيل أن مسيلمة الكذاب لم يدخل معهم فقد خلفوه

---

(١) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ٢ / ١٢٢٣؛ البيهقي: السنن الكبرى، ٨ / ١٦٨؛ الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١ / ٤٢.

(٢) الصنعاني: المصنف، ٦ / ٥٧؛ النسائي: السنن الكبرى، ٣ / ٤٣٤؛ أبي يعلي الموصلي: مسند أبي يعلي، ٤ / ٢٩٨.

(٣) ينظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣١٦-٣١٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٩٣.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣١٧.

في عناية رحالهم وركابهم، فبعث إليه الرسول ﷺ أيضا بنفس الجائزة قائلا لهم انه: «ليس بشركم مكانا لحفظه ركابكم ورحالكم»[1].

وورد أن الشاعر المعروف كعب بن زهير (ت ٢٦ هـ) - وهومن فحول الشعراء المخضرمين بين الجاهلية والإسلام -[2]، كان قد هجى الرسول الكريم ﷺ بجملة أبيات من الشعر نال فيها من الإسلام ما نال في شعره وقد كان كافرا آنذاك، فلما تناهت تلك الأبيات إلى مسامع الرسول ﷺ أهدر دمه وأمر بقتله بقوله: «من لقى كعبا فليقتله»، فلم يجد الرجل مفرا غير التوجه بنفسه إلى الرسول ﷺ وطلب العفوشخصيا منه، بعد أن أيقن أن صفة العفة والتسامح هي الغالبة على شخص الرسول الكريم ﷺ، فتوجه كعب بنفسه وافدا على الرسول ﷺ في السنة السابعة من الهجرة وأعلن إسلامه وندمه على ما بدر منه من استهزاءه بمقدرات الدين الإسلامي ومعلنا التوبة، ثم أصبح كعب شاعرا من شعراء المسلمين يمدح الرسول ﷺ في شعره بعد أن كان يهجوه وهوعلى كفره، فقبل الرسول الكريم ﷺ إسلامه وتوبته ثم أجازه عليه الصلاة والسلام بان كساه بردته [3]، وهي التي قيل اشتراها معاوية بعد ذلك منه بعشرين ألف درهم، وهي نفسها التي كان يلبسها الخلفاء في العيدين على حد إشارة بعض المصادر [4].

وبعد عام الفتح وبالتحديد في عام (٩ هـ) تكاثرت على الرسول الكريم ﷺ أعداد الوافدين عليه ﷺ من مدن وقبائل وبلدان عديدة، جاءت معلنة الدخول في الدين الإسلامي الجديد بعد أن سقطت مكة بيد الإسلام المسلمين وخضعت تماما لسلطة الرسول ﷺ، فتحول ولاء تلك المدن والقبائل لسلطان الرسول ﷺ والإسلام سياسيا ودينيا، ولكثرة أعداد الوافدين على الرسول الكريم ﷺ أطلق على ذلك العام

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣١٧. وينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٤: ٩٩٨ - ٩٩٩؛ الطبري: تاريخ، ٢ / ٣٩٣؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٢٨٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٥ / ٦١.

(٢) ينظر عنه أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ١٧ / ٦٢ - ٦٩.

(٣) ينظر ابن كثير: البداية والنهاية، ٤ / ٤٢٣ - ٤٢٩؛ السيرة النبوية، ٣ / ٦٩٩ - ٧٠٩؛ الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ١٢ / ٧٠ - ٧١.

(٤) بن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، ١ / ١٥٣ - ١٥٥؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تميز الصحابة، ٥ / ٤٤٤.

اسم (عام الوفود) [١]، كما نزلت في تلك المناسبة سورة النصر [٢]قال تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا »[٣].

وتلك الوفود القادمة على الرسول الكريم ﷺ نالت قسطا كبيرا من الجوائز والمكافآت والهبات، لا لأنهم قد يكونوا من الفقراء ففيهم - إن لم نقل اغلبهم - رؤساء قبائل وملوك ووجهاء وأعيان ومن علية القوم وساداتهم، هؤلاء أكرمهم الرسول الكريم ﷺ بالهدايا والهبات لإدامة الصلة وتشجيعا منه ﷺ لاستمالتهم وكسبهم إلى صالح الإسلام والمسلمين، ففي ذلك إصلاح كبير وميل وخضوع كبيرين يصب في صالح الاسلام، ومن تلك الوفود التي أكرمها الرسول ﷺ هووفد قبيلة طي والذي كان يتكون من خمسة عشر رجلا بزعامة زيد الخيل بن مهلهل، وفيهم قبيصة بن الأسود بن عامر، ووزر بن جابر بن سدود وآخرين، فلما دخل هؤلاء النفر على الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام فأسلموا جميعا عن أنفسهم وعما ورائهم من قبيلة طي، ولإدامة الصلة مع هؤلاء أجازهم الرسول الكريم ﷺ بجوائز وهبات قيمة كانت فوق ما يتوقعون ويطلبون، إذ وهب لكل واحد منهم (خمسة أواق) من الفضة في حين وهب لرئيسهم زيد الخيل (اثنتي عشر أوقية) من الفضة، لا تميزا منه عليه الصلاة والسلام بين فرد وآخر وإنما أعطى ﷺ تلك الهبات على قدر منازلهم، اذ نستشف ذلك كله من قول الرسول الكريم ﷺ في أثناء منحهم الجوائز والهبات: «ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد فانه لم يبلغ كل ما فيه»، فميزه الرسول الكريم ﷺ عنهم وسماه (زيد الخير)، واقطعه أيضا ارضين في منطقة فيد [٤]– بلدة قريبة من مكة –[٥].

كما أكرم الرسول الكريم ﷺ وفد تجيب الذين وفدوا عليه من اليمن في ثلاثة

---

(١) ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٤ / ٩٨٥؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ١ / ٢٣.

(٢) النيسابوري: أسباب نزول الآيات، ص٣٠٨.

(٣) سورة النصر، الآيات ١، ٢، ٣.

(٤) ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٤ / ٩٩٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢ / ٣٩٩؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٢٨٥.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤ / ٢٨٢.

عشر رجلا، فقد أمر الرسول الكريم ﷺ بلال الحبشي أن يحسن ضيافتهم وأن يتابع بنفسه عملية إكرامهم، ثم اخذ الرسول ﷺ يسأل الوفد إن كان أحدا منهم لم يستلم جائزته، فقيل له أن فتى لهم خلفوه في رحالهم يحفظها لهم، فأرسل إليه الرسول ﷺ وأعطاه من الجوائز مثل الذي أعطي لأصحابه، ثم سأله الرسول ﷺ إن كانت له حاجة أخرى، فأجاب الفتى عندئذ: «إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقضي حاجتي»، فلما سأله الرسول الكريم ﷺ عن حاجته قال الفتى: «تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي»، فوهبه الرسول الكريم ﷺ عندئذ أجمل هدية فضلا عن جائزته، حينما قال له داعيا الله عز وجل بالقول: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه»، فكان الفتى بعد ذلك من أزهد الناس وأغناهم نفسا [1]، وفي تقديرينا أن هذا الفتى نال من الجوائز والهبات في تلك الوفادة أكثر مما ناله بقية أعضاء الوفد، فقد فاز بمرضاة الله عز وجل وهي أفضل هبة قدمها له الرسول الكريم ﷺ.

ويبدوأن لأهل اليمن خصوصية كبيرة عند الرسول ﷺ، تلك البلاد التي كانت تمثل أصل العرب وان فيها من الملوك ورؤساء القبائل من ثقلت موازينه وكثر أتباعه، فكان الرسول الكريم ﷺ يكرم كل من جاء منهم وافدا للدخول في الإسلام تشجيعا منه ولتوطيد صلة العلاقة الطيبة والمودة الحسنة مع هؤلاء القوم، فقد أكرم الرسول الكريم ﷺ أيضا وفد كندة الذين وفدوا عليه ﷺ وكانوا في ستين شخصا [2]وقيل سبعين [3]وقيل ثمانين راكبا [4]، بزعامة الأشعث بن قيس الكندي – احد ملوك اليمن قبل الإسلام –[5]، ذلك الرجل الذي كان له ثقلا لا يستهان به، فقد أكرم الرسول الكريم ﷺ كلا من أعضاء الوفد (عشر أواق) من الفضة، في حين وهب للأشعث بن قيس

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢٣. وينظر ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٣٠١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٥ / ١٠٨.

(٢) ابن عبد البر النميري: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١ / ١٣٣.

(٣) ابن حبيب البغدادي: المحبر، ص ٢٩١؛ ابن قتيبة: المعارف، ص ٣٣٣.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤ / ١٠٠٦.

(٥) ينظر عنه ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٦ / ٢٢ - ٢٣؛ خليفة بن خياط: الطبقات، ص ١٣١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢ / ٣٧ - ٤٣.

(اثنتي عشر أوقية) [1]، ويبدو أن الرسول الكريم ﷺ أجازهم وميز الأشعث عنهم في الهبة لا لحاجتهم وحاجة الأشعث لتلك الجوائز والهبات، فقد كان القوم من الأغنياء والملوك الأثرياء وقد جاؤوا أصلا بهيئة الملوك من الجباب المكفكفة بالحرير وعليهم الديباج المخضوض بالذهب ونحوذلك [2]، فجميع ذلك يعطي انطباعا أن الرسول الكريم ﷺ أجازهم كنوع من أنواع إدامة الصلة وتحسين الخاطر وما شابه ذلك.

كما أجاز الرسول الكريم ﷺ بقية الوفود ووهب لهم الأموال والهبات على شاكلة ما كان يعطي للوفود في أعلاه، فقد وهب لأعضاء وفد سعد هذيم اواقا من فضة لكل منهم أوقية [3]، ووهب لوفد بلي كما كان يجيز الوفد على حد إشارة ابن سعد [4]، وكذلك فعل أيضا مع وفد عذرة [5]، ووفد سلامان [6]، ووفد غسان [7]، ووفد غامد [8]، وغيرها من الوفود الأخرى [9].

كما نجد أن الرسول الكريم ﷺ طالما يكرم بعض الشخصيات التي أسلمت بعد الفتح من أهل قريش، حرصا منه عليه الصلاة والسلام على استطابة نفوس هؤلاء وفي محاولة منه عليه الصلاة والسلام أيضا على كسب ولاءهم وودهم أوإذابتهم في المجتمع العربي الإسلامي الجديد على اقل تقدير لما يمثله هؤلاء من ثقل اجتماعي وسياسي في قريش قبل الإسلام، فقد أعطى الرسول الكريم ﷺ ووهب لحويطب بن

---

(١) ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٤ / ١٠٠٦؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢٨؛ الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ٦ / ٢٧٦.

(٢) ينظر ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢٨؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٢٩٣؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ٤ / ١٤٠ - ١٤١.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢٩ - ٣٣٠؛ الطبري: تاريخ، ٢ / ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٣٠. وينظر ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢ / ٣١٠.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٣١ - ٣٣٢.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٣٢ - ٣٣٣؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٣١٧.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٣٨ - ٣٣٩؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٣١٦؛ الصالحي الشامي: سبل الهدى، ٦ / ٣٩١.

(٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٤٥؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢ / ٣١٩؛ الصالحي الشامي: سبل الهدى، ٦ / ٣٩٠.

(٩) ينظر مثلا ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١ / ٣٢٨ وما بعدها.

عبد العزى (مائة من الإبل) من غنائم غزوة حنين [1]، وحويطب هذا كان سيدا معروفا من سادات قريش قبل الإسلام وكان ممن أوفدته قريش لمفاوضة المسلمين على صلح الحديبية (عام ٦ هـ) [2]، كما كان الرجل من المعمرين فقد عاش في الجاهلية ستون عاما وفي الإسلام ستون عاما أيضا [3]، وشخصا بتلك المواصفات لا بد أن يكون محط الأنظار ومحمل الآمال لكل من يريد الخروج والنيل من الإسلام، مما يعطي انطباعا أن الرسول ﷺ أكرمه كي ينخرط الرجل في الإسلام ويكسب ولاءه ودينه وألفة لقلوبهم.

وكان لا بد أن ممن أعطاهم الرسول الكريم ﷺ من الهبات الكبيرة للشخصيات الكبيرة من قريش التي أسلمت توا في فتح مكة، كان على هذا المنوال أيضا وللأسباب والدوافع ذاتها التي اتبعها مع حويطب بن عبد العزى، فقد وهب الرسول الكريم ﷺ لأبي سفيان بن حرب (مائة بعير) [4]، وأبوسفيان كان زعيما لقريش قبل الفتح وكان له سلطانا وتأثيرا كبيرين على أهل مكة خاصة والعرب عامة، وفي صلاح أبي سفيان صلاحا لعامة العرب، فمن هذا المنطلق يمكن القول أن الرسول الكريم ﷺ أكرمه لذلك السبب.

وعلى هذا أعطى الرسول الكريم ﷺ رجالاً آخرين من قريش فيهم معاوية بن أبي سفيان الذي أعطاه (مائة من الإبل)، وسهيل بن عمرو (مائة بعير) أيضاً، وعيينة بن حصن (مائة بعير) أيضا، وغيرهم الكثير من سادات قريش في الجاهلية ممن أسلم توا بعد فتح مكة [5].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥ / ٤٥٤.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣ / ٨٢٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥ / ٤٥٤.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣ / ٩٢٩.

(٥) ينظر ابن هشام: السيرة النبوية، ٣ / ٩٢٩ - ٩٣٠.

الحياة الاخروية للنبي محمد ﷺ

أ.م. د بلاسم عزيز شبيب
كلية العلوم الإسلامية - جامعة كربلاء

أ.م. د بلاسم عزيز شبيب
أستاذ في جامعة كربلاء/ كلية العلوم الاسلامية

من مواليد ١٩٦٢ واسط/ النعمانية. سجين سياسي لمدة اربع سنوات في ايام النظام الصدامي البائد.

التخصص العام: الشريعة والعلوم الاسلامية. التخصص الدقيق : الفقه واصوله.

المهام العلمية والادارية: عضو اللجنة الوزارية العليا لتطوير كليات العلوم الاسلامية العراق. ورئيس لجنة الفقه واصوله وهي اللجنة الفرعية المنبثقة من اللجنة الوزارية أعلاه. ورئيس قسم الفقه واصوله في كليتنا من تاريخ٢٠١١ الى الآن. ورئيس لجنة الدراسات العليا في كلية العلوم الاسلامية. رئيس تحرير مجلة (دراسات اسلامية معاصرة). ورئيس قسم الفقه وأصوله.

المؤلفات : تحقيق الحبل المتين في إحكام أحكام الدين للشيخ البهائي. دراسة وتحقيق وجيزة الشيخ البهائي في علم الدراية. المشاركة في تحقيق منتهى المطلب في تحقيق المذهب للعلامة الحلي. المشاركة في تحقيق كشف الغطاء في الشريعة الغراء للشيخ جعفر كاشف الغطاء . الشهرة في علم الاصول دراسة تحليلية. الجهد الاصول عند العلامة الحلي دراسة تطبيقية في الفقه مختلف الشيعة انموذجا. وله تسعة عشر بحثا منشور.

الاشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. وله مشاركات في العشرات من المؤتمرات العلمية .

لا يخفى أن النبي محمد ﷺ يحظى بمكانة مرموقة تفرّد بها عن بني البشر، ألا وهي كونه ر سول الله، خاتم الرسل، وحبيب الله تعالى، بالاضافة إلى مايميّزه من الخُلق الرفيع، كما وصفه الله تعالى: (وانك لعلى خلق عظيم) القلم/ ٤، والرحمة بالمؤمنين كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) التوبة/ ١٢٨ . وقد وصفه وقومه قبل بالبعثة بالصادق الأمين.

فكان ﷺ رحمة بالعالمين كما قال تعالى: (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين) الانبياء/ ١٠٧ . فهو الذي أنقذ قومه من ظلمات الجهل، وحيرة الضلال، وأوصلهم إلى نور المعرفة والهداية، والصراط المستقيم، والطريق السوي الذي يأمن فيه الضعيف والقوي، والعبد والسيد على حدٍّ سواء. وكان شعاره اقامة العدل والاحسان ونصرة المظلوم،والاقتصاص من الظالم، وإقراءالضيف وإيواءالخائف، فهكذا كان في الدنيا.

وأما في عالم الآخرة فقد حظي بمقامات مروقة عالية، اكراما له، ولما فعله في الدنيا من ابلاغ الرسالة، وإقامة العدل، فأكرمه الله تعالى بالجنة وبالرضا، ثم حباه بالشفاعة ليكون رحيماً في امته في عرصات المحشر المخيفة والمذهلة، ليكون رحيماً رءوفا بامته كما كان في الدنيا، فتجده حاضرا في صحراء المحشر لإنقاذ المذنبين من المؤمنين من امته، وهو ينادي (امتي امتي) بعد اشغال كل انسان بنفسه.

وقد دلّت الروايات المستفيضة بل المتواترة على حضور روحه المتسامية عند المؤمنين في حال الاحتضار، وسكرات الموت، وعند قبض الروح، وفي البرزخ يوم يُخلّى المرء وبينه وبين عمله، ولتلك الروح الطاهرة فيوضات خاصة، تطمئن بوجودها النفوس، ويُنفّس بحضورها الكرب، ويُكشف الهم، ويُرفع الغم، كما كان يفعل في الدنيا.

وفي يوم المحشر ذلك اليوم المخيف الذي تصعق فيه الأرواح، وتزهق فيه النفوس، وتخرج من الأجاث، ويأتي كل واحد بعمله، وترى الناس حيارى وسكرى من هول المطلع، وهنا ترى نبي الرحمة ﷺ حاضراً بروحه وجسده مع امته، يواسيهم ويبشرهم بالشفاعة لمن يستحقها، فتراه في موقف البعث والنشر والحشر، وهو المتقدم في تلك المواقف، ثم على الحوض يسقي المؤمنين من امّته بيده وبيد وصيه علي ﷺ، شربة لا ضمأ بعدها، ثم عند تطاير الكتب، ثم عند الميزان، ثم عند الصراط، ثم على كثبان الأعراف، ثم على باب الجنة ليأذن للمؤمنين بدخولها، ثم على باب النار ليمنع شررها ولهبيها عنهم.

وهمه الأكبر في ذلك اليوم العصيب إنقاذ المؤمنين من امّته وتخليصهم من عذاب النار، بما حباه الله من الشفاعة، ويشفع للمذنبين منهم حيث اذن له في ذلك.

وهذا من مصاديق قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) الاسراء/ ٧٩؛ إذ يغبطه الأولون والآخرون بما فيهم الأنبياء والاوصياء والصديقون والشهداء، ويحمدونه على ذلك لما يفيضه عليهم من فيوضات.

والناس مشتغلون في ذلك الموقف بأنفسهم، لا يتسنى لهم أن يحمدوا أحداً إلا إذا أفاض عليهم ما ينجيهم به من هول المطلع والخوف وذهول ذلك اليوم.

والمراد من المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى، التي أذن الله له بها، وليخلص المذنبين وأهل الكبائر من أمته بها.

ويبدو أن شفاعة النبي وشفاعة أهل بيته لم تكن عامة وبلا حدود بل هي خاصة بالتوابين من المذنبين ومرتكبي الكبائر، أو الذين ارتكبوها عن غفلة أو جهل أو سفه أو بلهٍ أو إكراه أو اضطرارٍ وزادوا عن مورد الحاجة، وعليه فالشفاعة لا تشمل الكفار والمشركين، ولا قاتل النفس المحترمة، ولا الزاني، ولا من هتك عرضا، ولا من أصر على الذنوب.

وكذا لا تشمل من تعدّى على حقوق الناس إلاّ إذا أمكن أن يستوهبها النبيّ أو أهل بيته ﷺ من المظلوم بواسطة الشفاعة.

لأن شمول الشفاعة لمثل هؤلاء مخالف لهدف الرسالات السماوية الآمرة بالعدل، بل مخالف للعدل الإلهي الذي بمقتضاه الذي لا يستوي فيه الظالم والمظلوم،

والمحسن والمسيء، والعامل وغيره. وهكذا كان النبي ﷺ رحمة لامته في الدنيا فكذلك سوف يكون رحمة لهم في الآخرة.

المبحث الأول

النبي ﷺ في الآخرة

اعتقد المسلمون ان الموت هو الانتقال من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى، لذى نفوا حصول الفناء بالموت، بل اعتقدوا أن الموت ارتقاء بحياة أفضل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهم يتمتعون بحياة ملئها السعادة واللذة والراحة، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، بل أعتقدوا أن الحياة الاخروية هي الحياة؛ لانها باقية دائمة، ليس فيها نصب ولا هرم ولا جوع ولا ألم، على العكس من الحياة الدنيا التي هي سجن المؤمن ولا يسلم من نصبها وألمها ويهرم فيها حتى الكافر.

وأما الحياة الاخروية بالنسبة إلى غير المؤمنين العاملين مثل الكافرين والمشركين والفاسقين والمنافقين فهي حياة ملئها الشقاء والعذاب الدائم.

وبما ان النبي ﷺ هو سيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهو الذي حمل الرسالة السماوية إلى امته، ورسالته بالعدل والاحسان وايتاء كل ذي حق حقه، وقد اقسم النبي رحمه بكل ما أمرت به الشريعة الإسلامية وطبقه على نفسه قبل أن يطلبه من المسلمين، فكان رحمة للعالمين اتصف بالحلم والعلم والتواضع والسماحة والفتوة وحب الخير للجميع، وكان حزءاً من جسد الامة ما يسرها يسره وما يؤلمها ويؤلمه، فأراد الخير لهم والحياة الكريمة السعيدة حتى للذين ارادوا الشر له، وسعوا في قتله وحرمانه، فكانه هذا موقفه في الدنيا.

وكذا يكون موقفه في الآخرة، بَيْدَ ان كل انسان يقول نفسي نفسي لهول المطلع، وعسرة المقام، وذهول الناس عن اقرب المقربين منهم كما قال تعالى: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ)[1]، وقوله تعالى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[2]، إلاّ نبيّنا ﷺ فانه يقول: (امتي امتي). فهو كان رحمة للعالمين

---

(١) الحج: ٢.

(٢) عبس: ٣٤ - ٣٦.

في هذه الدنيا. ورحمة للعالمين في البرزخ. وسيكون رحمة للعالمين في يوم المحشر ويوم الحساب، فحريٌّ بنا نطلع على مقامات النبي بالآخرة، وشفاعته لامته.

المطلب الأول: علامات يوم القيامة وأوصافها

يوم القيامة هو اليوم الموعود الذي تقف فيه جميع الخلائق للحساب أمام حاكم عدل هو الله الواحد الأحد، وسوف تعلم جميع الخلائق وكل حسب مداركه العقلية بان ذلك هو يوم القيامة لوجود العلامات مثل الصيحة والنفخة في الصور وغيرها. وأما قبل هذه العلامات فلا يعلم به أحد سوى رب العزة والجلال.

أما العلامات

أولاً- الصيحة

تعدّ الصيحة أبرز علائم يوم القيامة، حيث ان وقوع يوم القيامة يكون بعدها مباشرة، كما قال تعالى: (وَمَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخصِمُونَ)[1]. وتكون هذه الصيحة من السماء، وهي النفخة الأولى، التي تؤذن بحصول يوم القيامة، ويأتي هذا بغتة، وبدون علم مسبق، وتأخذهم الصيحة وهم يختصمون في أمرهم ويتبايعون في الأسواق، ويلهون في مواطن اللهو، ويعيشون الأمل والحرص وحب البقاء.

كما في الحديث: (تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتى تقوم القيامة، والرجل يرفع اكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم، والرجل يليط حوضه ليسقي ما شيته فما يسقيها حتى تقوم)[2]. ويدل على ذلك قوله تعالى: (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)[3].

تعني الآية انه عند حصول الصيحة يصعق الناس من لحظتهم، فلا يستطيعون الايصاء بشيء ولا إلى أهلهم يرجعون، ولا وقت لاعتذار أحدهم من آخر، وبل تأخذهم الساعة بغتة وعلى الحال الذي هم فيه.

ويستفاد من الآية ان هذه الصيحة مختصة بالأحياء، لإماتتهم جميعاً، ودخولهم في

---

(١) يس: ٤٩.

(٢) الطبرسي/ تفسير مجمع البيان ٨: ٢٧٩، القرطبي/ تفسير القرطبي ١٥: ٣٩٠.

(٣) يس: ٥٠.

عالم البرزخ ولو لوقت قليل جداً.

وان هذه الصيحة سوف تصعق كل مخلوق حيّ سواء كان من الإنس أو الجن أو الملائكة بل حتى العجموات إلا ما استثنيّ وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت كما ورد في رواية أنس عن النبي ﷺ انه قال: تلا رسول الله ﷺ: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ)(١).

قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله؟ قال ﷺ: (جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت فإذا قبض الله أرواح الخلائق: قال: يا ملك الموت من بقي؟

قال: يقول: سبحانك... بقي جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت،... قال تعالى: خذ نفس إسرافيل... خذ نفس ميكائيل... ثم يقول تعالى: مت يا ملك الموت، ثم يقول تعالى: يا جبرئيل لابد من الموت... ثم قال رسول الله ﷺ .فعند ذلك يموت جبرائيل وهو آخر من يموت من خلق السموات والأرض) (٢).

ثانياً- النفخة

وتحصل بعد الصيحة وقد تسمى بالنفخة الثانية عندما تسمى الصيحة بالنفخة الأولى. كما قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)(٣).

والمراد من الصور: الكون، ومن الأجداث: القبور، ومن ينسلون: يسارعون.

وعندما يسارعون إلى المحشر في يوم القيامة رؤوا أهوالها: (قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا)(٤) أي من منامنا، أو من قبورنا.

ثم يقولون: (هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)(٥).

وقد جمع النفختين في آية واحدة كما في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ

---

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) القرطبي/ تفسير القرطبي ١٥: ٢٨٠، السيوطي/ الدر المنثور ٥: ٣٣٦، العلامة المجلسي/ بحار الأنوار ٨٩: ١٨٤.

(٣) يس: ٥١.

(٤) يس: ٥٢.

(٥) يس: ٥٢.

يَنْظُرُونَ)[1].

ويبدو ان النفخة الثانية مختصة بإيقاض الأموات الراقدون، وإرجاع الروح إلى الجسد ونشور الإنسان بجسمه وبشكله الذي كان في الدنيا وقد أشار القرآن الكريم إلى حال الناس أثناء الخروج من القبر والمسير إلى صحراء المحشر بقوله تعالى: (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ)[2].

المطلب الثاني: منازل النبي في الآخرة

أولاً: وفاة النبي ﷺ

ان الموت أمر لا يستثنى منه مخلوق قط، وهو جار على الأنبياء والأوصياء والملائكة والجن، ونبينا ﷺ لم يخرج من هذه القاعدة، وانه ﷺ وفاه الأجل بعد أن أكمل ابلاغ رسالته وقد رحل بعد اعلان نبوته بثلاث وعشرين سنة.

وقد وردت استثناءات خاصة في وفاة النبيّ ﷺ وكالآتي:

١- استئذان الموت في قبض روحه.

ان ملك الموت لم يستأذن على أحد في قبض روحه، لا من الأنبياء ولا من غيرهم إلاّ نبينا محمد ﷺ، ولا يكون ذلك إلا لميزة اختصه الله بها، وقد ورد ذلك في رواية الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: (سمعت أبي عليه السلام يقول: لما كان قبل وفاة رسول الله بثلاث أيام هبط عليه جبرئيل:

فقال عليه السلام: يا أحمد ان الله أرسلني إليك إكراماً وتفضيلاً لك وخاصة يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف نجدك يا محمد؟

قال ﷺ: (أجدني يا جبرئيل مغموماً... مكروباً) فلما كان في اليوم الثالث هبط جبرئيل وملك الموت ومعهما ملك يقال له: إسماعيل في الهواء على سبعين ألف ملك فيسبقهم جبرائيل فقال:

---

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) ق: ٤١ - ٤٥.

يا أحمد ان الله أرسلني إليك إكراماً وتفضيلاً لك وخاصة يسألك عما هو أعلم به منك.

فقال: كيف تجدك يا محمد؟

قال ﷺ: (أجدني يا جبرائيل مغموماً... مكروباً.

فاستئذن ملك الموت، فقال جبرائيل: يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على أحدٍ قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك.

فقال ﷺ (ائذن له) فأذن له جبرائيل، فأقبل حتى وقف بين يديه، فقال يا أحمد ان الله أرسلني اليك، وأمرني ان أطيعك فيما تأمرني؟! ان امرتني بقبض نفسك قبضتها، وان كرهت تركتها.

قال النبي ﷺ: (اتفعل ذلك يا ملك الموت)

قال نعم، بذلك أمرت أن أطيعك فيما أمرتني.

فقال جبرائيل: يا أحمد ان الله تبارك وتعالى قد اشتاق إلى لقائك.

فقال ﷺ: (امض لما أمرت به) [1].

وما هذا الاستئذان إلى كرامة خاصة بنبينا.

وفي الرواية كرامة أخرى وهي حضور جبرائيل عند قبل روح النبي بل ان ملك الموت لم يتكلم مع النبي مباشرة إلا بعد الإذن من جبرئيل ومن النبي ﷺ.

٢- حنوط النبي ﷺ من السماء

استعمال الحنوط من سنن ومستحباتى مراسم تجهيز الأموات، والحنوط عند أهل اللغة: (هو نوع من الطيب يخلط للميّت خاصة، وكل ما يطيب به الميّت من مسك وذريرة وصندل وعنبر وكافور وغير ذلك مما يذرّ عليه تطيباً له، وتجفيفاً لرطوبته فهو حنوط) [2].

ويدل على ذلك وما روي في علل الشرائع عن ابن سنان قال: قال محمد بن أحمد: (ورووا ان جبرائيل نزل على رسول وعادة الحنوط من المواد آنفاً وهي من صنع البشر، وأما حنوط النبي ﷺ فلم يكن كذلك، بل أتى به جبرائيل من السماء،

---

(١) الصدوق/ الأمالي: ١٦٥.

(٢) الفيومي/ المصباح المنير: ١٥٤.

وكان وزنه أربعين درهماً فقسّمه رسول الله ﷺ إلى ثلاثة أجزاء، جزء له، وجزء لعلي عليه السلام، وجزء لفاطمة عليها السلام)[1].ومثله عن الشيخ الطوسي في التهذيب[2].

٣- خصائص جسد النبي ﷺ في القبر

أجساد الأنبياء عليهم السلام ونبينا ﷺ لا تبلى وتبقى محفوظة في الأرض، لا يصيبها ما يصيب أبدان الخلائق من تآكل وتفسّخ بل هي باقية على حالها، ويدل على ذلك ما ورد في مسند أحمد بن حنبل عن أويس قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل أيامكم يوم الجمعة فان صلاتكم معروضةٌ عليَّ).

فقالوا: يا رسول الله وكيف؟ وقد ارمت، أي وقد بليت؟ قال ﷺ: (ان الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)[3].

ثانياً: أول من تنشق عنه الأرض

عندما تنشق الأرض في النفخة الثانية ويخرج الراقدون في القبور إلى المحشر، فان أول من تنشق عنه الأرض هو النبي محمد ﷺ وقد كثرة الأدلة على ذلك، كما في قوله ﷺ: (أنا أول من يدعى من القبور)[4]، ويبدوا ان هذه الدعوة سابقة أو مقارنة لانشقاق عنه ﷺ فالنبي ﷺ أول من يدعى من القبور وأول من تنشق عنه الأرض.

عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: (إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ)[5].

قال: فقال ﷺ: (أنا أول من تنشق عنه الأرض فأجلس جالساً في قبري فيفتح لي باب إلى السماء بحيال رأسي، حتى أنظر إلى العرش ثم يفتح لي باب من تحتي أنظر إلى الأرض السابعة حتى أنظر إلى الثرى، ثم يفتح لي باب عن يميني حتى أنظر إلى الجنة ومنازل أصحابي، وان أول الأرض تحركت تحتي.

٧فقلت: مالكِ أيتها الأرض.

---

(١) الصدوق/ علل الشرائع ١: ٣٠٢.
(٢) التهذيب ١: ٢٩٠.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٨ ح٨.
(٤) ابن جبر/ نهج الإيمان: ٤١٥.
(٥) الإنشقاق: ١ – ٢.

قالت: ان ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي وان أتخلى عنه، فأكون كما كنت إذ لا شيء فيَّ، فذلك قول الله تعالى: (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ)[1][2].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع)[3].

ثالثاً: أول حاشر ومحشور

والمراد بالحاشر ان يحشر أول الناس ويحشر الناس في أثره، وقد وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ يصف نفسه بأنه الحاشر، فقد روي عنه ﷺ انه قال: (وسمّاني في القيامة الحاشر، يحشر الناس على قدمي)[4]أي ان ربي سوف يسميني بالحاشر وتحشر الخلائق خلفي.

وروي عنه ﷺ أيضاً قوله: (وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي)[5].

أي انني سوف احشر أول الناس ويحشرون على أثري، وهو موافق لقوله ﷺ: (يحشر الناس على عقبي).

وروي أنه ﷺ أو محشور فانه ﷺ قال: (أنا أول منشور وأول محشور)[6].

ويراد من الحشر انه ﷺ أول من يذهب إلى ساحة المحشر لكي يستلم مقام الشفاعة، وهناك فرق بين النشر والحشر كما قال أهل اللغة، فقد جاء في مجمع البحرين: نشر الميّت ينشر نشوراً من باب قعد، أي عاش بعد الموت، وفي الدعاء: (أسألك بالقدرة التي بها تنشر بها ميت العباد)، أي تحييه[7].

وأما الحشر فقد قال ابن منظور: الحشر: الجمع، ومنه يوم المحشر.

---

(١) الإنشقاق: ٣ - ٥.

(٢) محمد الثعالبي المالكي/ تفسير الثعالبي ٥: ٥٦٧.

(٣) مسلم/ صحيح مسلم ومثله في سبل الهدى والرشاد ١٠: ٣٨٠.

(٤) ابن بابويه القمي/ الخصال: ٤٢٥، معاني الأخبار: ٥١، المجلسي/ بحار الأنوار ١٦: ٩٣ و١١٤.

(٥) ابن حجر/ فتح الباري ٦: ٤٠٦.

(٦) ابن حجر/ نهج الإيمان: ٤١٥.

(٧) الطريحي/ مجمع البحرين ٣: ٤٩٣.

أي جمع الناس يوم القيامة[1].

وعلى هذا فنبيّنا ﷺ أول من يُحيى من الأموات، وأول من يُحشر يوم القيامة.

رابعاً: مواقف النبي ﷺ في المحشر

بعد بيان منازل النبي ﷺ عند ارتحاله ومواقفه عند البعث والنشور من القبر، علينا أن نشير إلى بعض مواقفه في صحراء المحشر وفي يوم القيامة، واختلف الروايات في تسلسل مواقف النبي ﷺ في الآخرة فبعضها تقول ان مواقفه في الآخرة كالآتي: عند باب الجنة، ثم عند الحوض، ثم عند الصراط، ثم عند الميزان، ثم عند شفير جهنم.

وخبر آخر تقول: ان أول موقف تراه فيه ابنته الزهراء عليها السلام هو الحوض، ثم الميزان، ثم الصراط.

وخبر ثالث يقول: أول موقف تراه فيه فاطمة الزهراء رسول الله عليها السلام هو الميزان، ثم عند الدواوين إذا نشرت الصحف، ثم في مقام الشفاعة.

وأما الأخبار التي تشير لذلك على سبيل المثال

قالت فاطمة عليها السلام يا أبتاه أين القاك يوم الموقف الأعظم، ويوم الأهوال، ويوم الفزع الأكبر؟

قال ﷺ: (يافاطمة عند باب الجنة ومعي لواء الحمد وأنا الشفيع لأمتي إلى ربي).

قالت عليها السلام: يا أبتاه فان لم ألقاك هناك؟

قال ﷺ: القيني على الحوض وأنا أسقي أمتي،

قالت عليها السلام: يا أبتاه فان لم ألقاك هناك؟

قال ﷺ: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربي سلم أمتي.

قالت: عليها السلام: فان لم ألقاك هناك؟

قال ﷺ: القيني وأنا على الميزان أقول: ربّي سلم أمّتي.

قالت: فان لم ألقاك هناك؟

قال ﷺ: القيني عند شفير جهنم أمنع شررها ولهبها عن أمّتي، فاستبشرت فاطمة عليها السلام بذلك)[2].

---

(١) لسان العرب ٣: ١٨٥.

(٢) الصدوق/ الأمالي: ٤٢٢ ح ١٤.

وفي حديث آخر قال ﷺ تلقيني عن الصراط وأنا أقول: سلم سلم شيعة علي، فقال أبو ذر فسكن قلبي، ثم التفت إليّ رسول الله ﷺ فقال ﷺ: يا أبا ذر انها بضعة منّي فمن آذاها فقد آذاني، ألا إنها سيدة نساء العالمين وبعلها سيد الوصيين...)[1].

وهناك خبر ثالث ان فاطمة عليها السلام سألت أبيها ﷺ وقالت: (يا أبت اخبرني كيف يكون الناس يوم القيامة؟

قال ﷺ: يا فاطمة يشغلون فلا ينظر أحد إلى أحد ولاوالد إلى الولد ولا ولد إلى امه.

قال ﷺ: تبتلى الأكفان وتبقى الأبدان، وتستر عورة المؤمن وتبدي عورة الكافر.

قالت عليها السلام: وما يستر المؤمن؟

قال ﷺ: نور يتلألأ لا يبصرون أجسادهم من النور.

قالت عليها السلام: يا أبت فأين القاك يوم القيامة؟

قال ﷺ: أنظري عند الميزان وأنا أنادي رب أرجح من شهد ان لا إله إلا الله، وأنظري عند الدواوين إذا نشرت الصحف وأنا أنادي: رب حساب أمتي حساباً يسيراً، وأنظري عند مقام شفاعتي على جسر جهنم وكل إنسان يشتغل بنفسه وأنا مشتغل بامتي، أنادي: يارب سلّم أمتي، والنبيون عليهم السلام حولي ينادون: سلم أمة محمد)[2].

ويبدو ان اختلاف الفاظ الروايات بسبب اختلاف المواقف اجمالاً وتفصيلاً، ويحتمل ان يكون هذا الاختلاف بسبب اختلاف الرواة، لان كل واحدٍ منهم نقل الحديث بمعناه لا بلفظه، فالبعض منهم ذكر كل المواقف والبعض ذكر بعضها.

رسول الله محمد ﷺ أول من ينادى عليه في يوم المحشر

يطلق على يوم المحشر ويوم النداء، الذي ينادى فه على العباد، وأول من ينادى عليه في ذلك في محضر الربوبية، هو نبينا محمد ﷺ، وقد اتفقت روايات الفرق الإسلامية على ذلك، كما ورد في الرواية عن أبي جعفر الصادق عليه السلام: (... فأول من يدعى بنداء يُسمع الخلائق أجمعون ان يهتف باسم محمد بن عبد الله النبي القرشي العربي، قال فيتقدم حتى يقف على يمين العرش، قال ﷺ ثم يدعى بصاحبكم علي

(١) القمي: علي بن محمد الخزاز/ كفاية الأثر: ٣٦.

(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٧: ١١١ ح ١٤١.

ابن أبي طالب (عليه السلام) فيتقدم فيقف على يسار رسول الله، ثم يدعى بأمة محمد فيقفون على يسار علي (عليه السلام).

ثم يدعى كل نبي وأُمته معه، من أول النبيين إلى آخرهم وأُمتهم معهم فيقفون إلى يسار العرش)[1].

فان اختصاص نبينا (صلى الله عليه وآله) بذلك وايقافه عن يمين العرش وإيقاف بقية المسلمين عن يساره، وبقية الناس عن يسار العرش تُعدّ منزلةوإكراماً لنبينا (صلى الله عليه وآله).

رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) أول من يسأل في يوم المحشر بعد حصول النداء وتحضر المخلوقات جميعاً في محضر الله جل وعلى تبدأ المسألة وتبدأ المسألة للقلم واللوح المحفوظ والملائكة المقربين، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة مسائلة بني البشر وأول من يخضع للمسائلة أمام الواحد القهّار هو الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وأمام جميع الخلائق، كما قال الإمام الباقر (عليه السلام): (... فان أول من يدعى من ولد آدم للمسائلة هو محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) فيدنيه الله تعالى حتى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذٍ منه:

- ولم يراد هنا القرب المكاني بل يراد القرب المعنوي

فيقول الله تعالى: يامحمد هل بلّغك جبرائيل ما أوحيت إليك وأرسلته به اليك من كتابي وحكمتي وعلمي؟ وهل أوحى ذلك اليك؟

فيقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (نعم يارب قد بلّغني جبرائيل جميع ما أوحيته، فيقول الله تعالى لمحمد: (هل بلّغت امّتك ما بلّغك جبرئيل من كتابي وحكمتي وعلمي؟

فيقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (نعم يارب قد بلغت أمّتي ما أوحي إليّ من كتابك وحكمتك، وعلمك وجاهدت في سبيلك).

فيقول الله تعالى لمحمد (صلى الله عليه وآله): (فمن يشهد لك بذلك؟

فيقول (صلى الله عليه وآله): أنت الشاهد لي بتبليغ الرسالة وملائكتك والأبرار من أمتي كفى بك شهيداً.

فيدعى الملائكة ويشهدون لمحمد بتبليغ الرسالة)[2].

ثم تدعى أمة محمد (صلى الله عليه وآله) فيشهدون بذلك أيضاً

---

(١) القمي: علي ابن إبراهيم/ تفسير القمي ١: ١٩٠.

(٢) القمي: علي ابن إبراهيم/ تفسير القمي ١: ١٩١.

وتقديم الرسول ﷺ في المسألة ما هو إلا اكراماً له ﷺ وان بعض هذه المطالب لم تكن مختصة برسول الله، ولكن تمتع بالأولوية فيها، فالناس كلهم يبعثون ويحشرون ويساءلون، ولكن كان لرسول الله ﷺ الأولوية وحق والسبق، وبعد بيان هذه المنازل والمراحل تبيّن ان هناك مواقف خاصة أو به وبأهل بيته من دون بقية الناس. وهي كالآتي:

الموقف الأول: الأخذ بالحجزة

الحجزة لغة: (موضع شد الإزار والحزام، وقيل للتكة: الحجزة أيضاً للمجاورة، ثم استعيرت في الكلام للسبب القائم بمن يلتجأ إليه ويعمهم من الهلاك... والحجزة في الحديث كالعروة الوثقى في الآية. واحتجز الرجل بالإزار إذا شده على وسطه فاستعاره، للاعتصام والالتجاء)[1].

وأما بحسب الاصطلاح الشريعي فقد وردت لها معاني لا تبتعد عن المعنى اللغوي من حيث تأدية الغرض في المنع والعصمة عن الهلاك، كما في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: (... الصلاة حجزة الله، وذلك لأنها تحجز المصلي عن المعاصي ما دام في صلاته قال الله: (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ)[2])[3]، يبدو ان الصلاة تحجز عن المعاصي إذا كان المصلي مقيماً لها ومقيداً بها يعني ماذا وتطبق ما يقول، لا كل صلاة.

وبعد بيان معنى الحجزة، فقد وردت الروايات الكثيرة القائلة ان رسول الله ﷺ آخذ بحجزة الله يوم القيامة، وأهل البيت عليهم السلام آخذون بحجزة الناس والشيعة آخذون بحجزة أهل البيت، كما في الخبر عن محمد بن الحنفية قال: سمعت أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ان رسول الله ﷺ يوم القيامة آخذ بحجزة الله ونحن آخذون بحجزة نبينا ﷺ، وشيعتنا آخذون بحجزتنا،

قلت: يا أمير المؤمنين وما الحجزة؟

---

(١) ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري/ النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٤، وظ: للطريحي، فجر الدين/ مجمع البحرين ٤: ١٤.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

(٣) الصدوق/ كتاب التوحيد: ١٦٦، معاني الأخبار: ٢٣٦، المجلسي/ بحار الأنوار ٤: ٢٥.

قال (عليه السلام): الله أعظم من أن يوصف بالحجزة أو غير ذلك، ولكن رسول الله آخذ بأمر الله، ونحن آخذون بأمره، وشيعتنا آخذون بأمرنا)[١]، فسرت الحجزة في بعض الأخبار بنور الله[٢]، وبدين الله[٣]وعليه فالحجزة التي يتمسك بها رسول الله ﷺ يوم القيامة هم المعصم والمنجي والمخلص من هلكات يوم القيامة سواء كان فسرت بأمر الله، أو بنور الله أو بدين الله بل يمكن ان يقال ان جميع هذه الألفاظ ترجع إلى معنى واحد وهو ما يتمسك به للخلاص من عذاب يوم القيامة.

وفيها دلالة على ان ما أتى به رسول الله ﷺ ناسخ للديانات السابقة فمن كان قبل الإسلام يحاسب على موازين دينه وأما من كان في عهد الإسلام يحاسب لى موازين دين محمد ﷺ فمن كان مؤتمراً بما أمره الله ومنزجراً عمّا نهى فاولئك لهم حسن المآب وحسن العاقبة.

الموقف الثاني: أول مصافحة الرسول محمد ﷺ يوم المحشر

المصافحة افضاء اليد إلى اليد ووضعها فيها، وقال الفيومي: صافحته مصافحة أفضيت بيدي إلى يده[٤].

ويلتقي الناس يوم المحشر ويتعارفون ويتصافحون، وأول من يصافح الرسول ﷺ يوم القيامة هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقد كثرة الروايات في ذلك ما فرق المسلمين كافة، كما في الخبر عن ابن عباس انه قال: قال رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام): (هذا أول من يصافحني يوم القيامة)[٥].

وروى الهيثمي عن أبي ذر وسلمان <، حيث قالا: (أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: (هذا أول من آمن بي، وهذا أولب من يصافحني يوم القيامة)[٦].

وتعد هذه المصافحة إكراماً للرسول ﷺ لان صافح كفاً لم يسجد صاحبها لصنم

---

(١) م. ن: ١٦٥.

(٢) م. ن: ١٦٥.

(٣) م. ن: ١٦٥.

(٤) الفيومي/ المصباح المنير: ٣٤٢.

(٥) ابن شهرآشوب/ مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥.

(٦) الهيثمي، ابي بكر/ مجمع الزوائد ٢: ٩١، وظ: المناوي، فيض القدير ٤: ٣٥٨، وظ: النعمان المغربي/ شرح الأخبار ٢: ٥٩٨، والكوفي، محمد بن سليمان مناقب أمير المؤمنين ١: ٣٦٧.

قط ولم يرى على معصية قط، وكذا إكراماً لعلي عليه السلام انه صافح رسول الله.

وبعد ذلك يصافح النبي الأنبياء والأوصياء وبقية المسلمين الذين آمنوا وعملوا صالحاً، ومنهم زوار سبطه الحسين العارفين بحقه والمقربين بولايته[1].

الموقف الثالث: الركبان يوم القيامة:

الركبان والركوب جمع راكب، ومنه سارت الركبان، وقال الراغب في المفردات: الركوب في الأصل كون الإنسان على ظهر حيوان، وقد يستعمل في السفينة والراكب اختص في التعاريف بمنطي البعير) [2].

وقد ورد في الأخبار ان الناس كلهم مشاة في يوم القيامة أو ركباناً على دواب غير مميزة الاّ أربعة وهم رسول الله صلى الله عليه وآله ويركب البراق، وصالح النبي على ناقته وفاطمة على ناقة رسول الله العضباء، وعلي عليه السلام يركب ناقة من الجنة.

وقد امتاز رسول الله صلى الله عليه وآله بركوبه ذلك المخلوق العجيب السريع والذي لم يركبه إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله في معراجه وفي يوم المحشر، ويبدو انه خلق لرسول الله صلى الله عليه وآله خاصة.

يود ذلك ما رواه عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (يا أيها الناس نحن في القيامة ركبان أربعة ليس غيرنا.

فقال قائل: بأبي أنت وأمي يا رسول الله من الركبان؟

قال صلى الله عليه وآله: (أنا على البراق، وأخي صالح على ناقة الله التي عقرها قومه، وابنتي فاطمة على ناقتي العضباء، وعلي بن أبي طالب على ناقة من نوق الجنة)[3].

ولكل مركب وصف خاص يطول فيه المقام، ونختصر البحث على مركوب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو البراق:

وهو دابة يركبها النبي صلى الله عليه وآله يوم المحشر وليس من دواب الأرض ولا شبيهة بها، وقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: (وجهها كوجه الإنسان، وخدّها كخد الفرس، وعرفها

---

(١) ظ: جعفر بن محمد بن قولويه: ٢٣٠ ح ٣٣٨.

(٢) الأصفهاني/ الراغب/ مفردات الراغب: ٢٠٢.

(٣) الشيخ المفيد/ الأمالي: ٢٧٢، الشيخ الطوسي/ أمالي الطوسي: ٣٥، المجلسي، بحار الأنوار ٧: ٢٣.

من للؤلؤ مسموط[1]، وأذنها زبر حدتان خضراوان، وعيناها مثل كوكب الزهرة تتوقدان مثل النجمين المضيئين، لها شعاع مثل شعاع، الشمس، يتحدر منها الجمان، مطوية الخلق، طويلة البدرين والرجلين، لها نفس كنفس الآدميين، تسمع الكلام وتفهمه، وهي فوق الحمار ودون البغل) [2]، وهناك أوصاف أخرى.

وقد منحها الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ دون غيره من الخلق إكراماً، وسوف يغبطه الأولون والآخرون على ذلك المركوب.

الركبان من الأنبياء والأولياء

وقد وردت الروايات مصرحة بان الأنبياء يحشرون على الدواب ويحشر بعض الأولياء على نوق من نوق الجنة، كما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الأنبياء يوم القيامة على الدواب ليوافوا من يومهم المحشر، ويبعث صالح على ناقته وابعث أنا على البراق ويبعث ابناي الحسن والحسين على ناقتين من نوق الجنة).

وأما علي عليه السلام وشيعته فانهم سوف يكونوا راكبي نوق من النور، كما في ابن عباس ان النبي صلى لله قال مخاطباً علياً: (هذا جبرائيل يخبرني عن الله، إذا كان يوم القيامة جئت أنت وشيعتك ركباناً على نوق من نوق الجنة) [3].

والمراد الشيعة هو الذين يقتفون أثر الأئمة ويسيرون خلفهم النعل بالنعل والقذة بالقذة ولا ينحرفون يميناً ويساراً، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولا يفعلون إلا المعروف وما أمروا به ويجتنبون كل منكر منهي عنه، لا كل من سمي شيعياً أو ولد من شيعي.

الموقف الرابع: رسول الله ﷺ على الحوض

قد ورد في روايات فرق المسلمين ان لرسول الله ﷺ حوضاً يوم القيامة يسقي منه اتباعه ويذود عنه الأعداء، وسوف يكون هذا الحوض بيد علي ابن أبي طالب عليه السلام.

واعطي هذا الحوض للرسول ﷺ اكراماً واعظاماً له وقد وردة روايات كثيرة في

---

(١) اللؤلؤ المسموط: المنظوم في السمط، والسمط بالكسر خيط النظم أو الخيط ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتضماً فيه، وقال ابن الأثير الجزري يتحدر منه العرق مثل الجمان، وهو اللؤلؤ الصغار.

(٢) ابن بابويه القمي/ الخصال: ٢٠٣، النيشابوري؛ محمد بن الفتال/ روضة الواعظين: ١٠٨.

(٣) فرات الكوفي/ تفسير فرات الكوفي: ١٢٠، المجلسي/ بحار الأنوار ٧: ٢٣٥.

الحوض وصلة إلى حد الشهرة بل الاستفاضة.

وقد الف ابن مخلد القرطبي المتوفي سنة ٢٧٦ هـ، كتاب تحت عنوان ما روي في الحوض والكوثر، جمع فيه ما تيسر له من الأحاديث الوارد في الحوض.

وهذا الحوض يقع في أرض المحشر وقبل دخول أهل الجنة للجنة وأهل النار للنار وهذا ما يستفاد من الأحاديث التالية.

كما ورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) انه قال: (... فيقوم رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيتقدم أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين ابله وصنعاء[1] فيقف وينادي بصاحبكم، فيقوم أمام الناس فيقف معه، ثم يؤذن للناس فيمرون،... فبين وارد يومئذ وبين مصروف، فإذا رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من يصرف عنه من محبينا أهل البيت بكى.

وقال: يارب شيعة علي، شيعة علي)

قال فيبعث الله إليه ملكاً فيقول له ما يبكيك يا محمد؟

قال: فيقول: (وكيف لا أبكي لأناس من شيعة علي بن أبي طالب أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار ومنعوا من ورود حوضي،

فيقول الله له: يا محمد اني قد وهبت لك وصفحت لك عن ذنوبهم...) [2].

ويظهر من هذا الحديث عدّة أمور

الأول: ان الحوض في أرض المحشر وقبل الجنة والنار بدليل قوله: (أراهم صرفوا تلقاء أصحاب النار) [3] لأن الجنة محرمة على أهل النار فلا يدخلوها، ومن دخل الجنة قد يمنع من بعض مراتبها العالية ولكن لا يصر إلى النار.

ثانياً: ان الحوض غير الكوثر الذي هو في الجنة بنفس الدليل اعلاه.

ثالثاً: ليس المراد بالشيعي من يسمى شيعياً أو ولد من شيعي بل منه صاحب العمل الصالح والذي صدر منه بعض لعمد وتاب عنها أو لغفلة أو لجهل وما شابه ذلك.

---

(١) ابله: موضع أو مكان في اعلى المدينة وهو جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع وصنعاء مدينة في اليمن.

(٢) المفيد؛ أمال الشيخ المفيد: ٢٩١.

(٣) الطوسي؛ أمال الطوسي: ٢٢٨.

أوصاف الحوض

قد وردت أوصاف خاصة في هذا الحوض كما في رواية أبي أيوب الأنصاري حيث قال: كنت عند رسول الله ﷺ وقد سئل عن الحوض، فقال ﷺ: أما إذا سألتموني عن الحوض فاني سأخبركم عنه، ان الله تعالى أكرمني به دون الأنبياء، وانه ما بين ايلة إلى صنعاء، يسيل فيه خليجان من الماء، ماؤهما أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، بطحاؤهما مسك أذخر وحصياؤهما الدر والياقوت... - ثم ذكر شروط الشرب منه فقال: شرط مشروط من ربي لا يردهما إلا الصحيحة نياتهم، النقية قلوبهم، الذي يعطون ما عليهم في يسر، ولا يأخذون مالهم عسر، المسلمون للوصي من بعدي)[1].

وفي خبر آخر عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ: (ستجدون أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض شرابه احلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأبرد من الثلج، والين من الزبد)[2].

وقد تميّز النبي في موقفه على الحوض عن الكافة الأنبياء فهي كرامة خاصة به.

الموقف الخامس: المقام المحمود

اختُصَّ رسول الله ﷺ بالمقام المحمود في يوم المحشر، وهو مقام الشفاعة ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل البيت عليهم السلام، وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً)[3]، أي أفعل الذي أمرتك به؛ لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم الله تبارك وتعالى)[4].

وبما ان يوم المحشر يوم فيه تكشف السرائر، وتبلى الضمائر ويبقى الإنسان وعمله، ولا يسعفه عمله ان يلتفت يميناً وشمالاً، ويصاب الناس بالذهول فلا يسع أحد من الخلق ان يحمد أحداً إلاّ ان يكون لذلك المقام المحمود يفيض منه الرحمة الإلهية للخلق وهو مقام الشفاعة باذن الله.

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة[5].

---

(١) الطوسي؛ أمال الطوسي: ٢٢٨.

(٢) المجلسي؛ بحار الأنوار ٨: ٢٦ ح١٨.

(٣) الإسراء: ٧٩.

(٤) ابن كثير، تفسير ابن كثير ٣: ٥٨.

(٥) ظ: السنن الكبرى ٦: ٣٨١.

وفي البخاري: (ان الناس يصرون يوم القيامة جثاءاً كل امة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع يافلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً)[1].

ويستفاد من كثير من الأخبار الواردة عن أهل بيت النبوة ﷺ ان المقام المحمود هو مقام الشفاعة، يشفع فيه الرسول المصطفى ﷺ لأمته)[2].

وقال ﷺ: إذا قمت في المقام المحمود تشفعت لأهل الكبائر من أمتي؛ فيشفعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي)[3].

وما روي عن جابر في الدعاء بعد الفراغ من الأذان، قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال حيث يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة، وأبعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلّت له شفاعتي)[4].

ويستفاد من هذه الأحاديث أمثالها ان النبي ﷺ أكرم بالمقام المحمود في يوم المحشر، وهو مقام الشفاعة وأذن له ان يشفع لأصحاب الكبائر من أمّته، وقد تفرّد ﷺ في هذا المقام وفي هذا الموقف الرهيب المخيف.

المقام السادس: لواء الحمد

اللواء لغة: هو الراية التي يمسكها صاحب الجيش، وقال ابن الأثير: ومنه الحديث: لكل غادر لواء يوم القيامة أي علامة يشهر بها في الناس لان موضع اللواء شهرة الرئيس، وجمعه الوية[5].

وقيل: (اللواء علم الجيش دون اللوية)[6].

وقد كثرت الأخبار بل تواترت في كتب الفرق الإسلامية جميعاً ان لرسول الله

---

(١) البخاري؛ صحيح البخاري ٥: ٢٢٨.

(٢) العروسي؛ عبد علي بن جمعه/ تفسير نور الثقلين ٦: ٣٨١. وقد نقلت طائفة من الروايات في الشفاعة.

(٣) السيد المرتضى؛ رسائل المرتضى ١: ١٥١، الطوسي؛ أمالي الطوسي: ٣٨٠.

(٤) ابن قدامة/ الشرح الكبير ١: ٤١٧.

(٥) ابن الأثير/ النهاية ٤: ٢٧٩.

(٦) الحسين بن يوسف/ الافصاح في اللغة ١: ٦٢٤.

ﷺ لواءاً في عالم الآخرة يسمّى لواء الحمد) [1].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: (بيدك لوائي، وهو لواء الحمد وهو سبعون شقة والشقة منه أوسع من الشمس والقمر) [2].

ولواء الحمد عظيم وهو اللواء الذي يستظل به الأولون والآخرون كما جاء في الخبر عنه ﷺ انه قال: (ادم من دونه تحت لوائي يوم القيامة) [3].

ويستفاد من اطلاق الخبر في عبارة: (ادم من دونه) كون جميع الأنبياء والأوصياء تحت لواء الحمد.

وهذا موضع اكرام آخر لنبينا محمد ﷺ حيث كون اللواء الوحيد في يوم المحشر تحت اختياره.

الموقف السابع: عند تطاير الكتب

تطاير الكتب أو تطاير الصحف، مأخوذ من تطاير الشيء إذا تفرق وتوزع[4] فتطاير الكتب هو تفريقها وتوزيعها على أصحابها في يوم المحشر، كما أشار القرآن الكريم لذلك: (وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً)[5].

وفي هذا الموقف العصيب لا يحضر أحد لأحد لمواساته واعانته، إلا النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام فان يحضر لأمته.

وكذا الأئمة من ذريته فانهم يحضرون في يوم تطاير الكتب كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: (من زارني في حياته زرته بعد وفاته وعند تطاير الكتب وعند الصراط وعند الميزان) [6].

وهذه الأخبار وان كانت تصرح بحضور الأئمة عليهم السلام ولم يتسنى لي الحصول على خبر يصرّح بحضور النبي، لكن أجد في هذه الأخبار دلالة واضحة على الحضور وذلك بالأولوية، حيث ان حضور النبي في تلك المواطن أولى من حضور أولاده وقد

---

(١) الصدوق/ أمال الصدوق: ٧٥٦ ح ١٠١٩.

(٢) ن. م.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ١٨٣، بحار الأنوار ١٦: ٤٠٢ ح١.

(٤) الطريحي/ مجمع البحرين ٣: ٣٨٦.

(٥) الأسراء: ١٣.

(٦) الشيخ الطوسي/ التهذيب ٦: ٨٥ ح ١٦٩.

ثبت حضور أولاده، فحضوره حاصل من باب أولاً.

وهذا أيضاً موضع اكراماً له ورأفة منه.

الموقف الثامن: حضور رسول الله ﷺ عند الميزان

الميزان هو ميزان الأعمال: ويراد به الموقف الذي يتضح فيه المصير الأبدي للجنة أو للنار كل حسب ما قدم في دنياه، والميزان في المحشر دلّ عليه الكتاب العزيز والسنة والمتواترة، فالاعتقاب به وجب، وان حصل اختلاف تفاصيله وكيفيته.

وقال السيد عبد الله شبر: (الميزان حق يلزم الاعتقاد به وان كان وقع الاختلاف في معناه وكيفيته) [1].

وقال العلامة المجلسي: (نحن نؤمن ونردّ علمه إلى حملة القرآن ولا نتكلف علم ما لم يوضع لنا تصريح البيان) [2].

وأراد من حملة القرآن النبي ﷺ وخلفائه من أهل بيته.

وقد ذكر الميزان في القرآن الكريم بقوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ)[3] أي العدل، توزن به صحائف الأعمال، وقيل: وضع الموازين: تمثيل الارصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل) [4].

وعن هشام قال: (سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قوله: (وَنَضَعُ الْمَوازِينَ...) قال: هم الأنبياء والأوصياء) [5].

ونبينا ﷺ من حملتهم بل أفضلهم وخاصتهم فيكون هو المصداق الأول لحضوره عند الميزان بدلالة القرآن المفسّر من حملة القرآن الكريم.

ويؤيد ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ انه قال: (أنا عند الميزان غداً، فمن رجحت سيئاته على حسناته جئت بالصلاة عليَّ حتى أُثقل بها حسناته) [6].

ويبدو ان تثقيل ميزان الحسان هو نوع من أنواع شفاعة النبي ﷺ لأنه لا يفعل ذلك

---

(١) السيد عبد الله شبر/ حق اليقين ٢: ١٠٩.

(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٧: ٢٥٣.

(٣) الأنبياء: ٤٧.

(٤) البيضاوي/ تفسير البيضاوي ٢: ٧٤.

(٥) الصدوق/ معاني الأخبار: ٣١ ح ١، وظ: الكليني/ أصول الكافي ١: ٤١٩ ح ٣٦.

(٦) الصدوق/ المقنع: ٢٩٧، ظ: العاملي؛ محمد بن الحسن/ وسائل الشيعة ٧: ١٩٥ ح ١٢.

ان يسأل ذلك، فيقبل شفاعته، فيفعل.

الموقف التاسع: شهادة نبينا ﷺ على الأمم

والمراد بشهادة النبي ﷺ ان يشهد على امته بانه بلغ لهم الرسالة وان استمعوا لها، ويشهد أيضاً على انبياء الأمم السالفة، بانهم بلغوا رسالتهم ويدل على ذلك قوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً)[1].

هذا بناء على ان المراد من (هؤلاء) في آية هم الأنبياء، وهناك رأي آخر كما قال الطبرسي في ذيل هذه الآية: (فكيف حال الأمم، وكيف يصنعون إذا جئنا من كل امة من الأمم بشهيد، وجئنا بك يا محمد على هؤلاء - يعني قومه - شهيداً) [2].

ويبدو ان الراي الثاني ناظر إلى الوجود المادي للنبي ﷺ وقياس الشهادة على ما هو معمول في الشهادة عند عامة الناس ولكن بما اننا نعتقد بان النبي هو عالم بما كان وبما يكون، وأحد شروط الشهادة هو العلم، والعلم حاصل عند النبي ﷺ فيحق له ان يشهد على الأمم السالفة، وعليه فان نبينا ﷺ يشهد يوم القيامة على امة، وان لكل امة من الأمم من شهد عليها، وان نبينا سوف يكون شاهداً على من يشهد على تلك الامم وهو الأنبياء من قبله بانهم ادوا أمانتهم في تبليغ الرسالة.

ويدل على هذا قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ)[3].

وقال العياشي في تفسير قوله تعالى: (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس؛ أي بالطاعة والقبول، إذا كنتم من أهل الطاعة والحسنات، شهد لكم وصرتم عدولاً، تستشهدون على الأمم الماضية، بان الرسل بلغوهم الرسالة وانهم لم يقبلوا، وقيل معناه ليكون الرسول شهيداً عليكم في ابلاغ الرسالة) [4].

وشهادة النبي على قومه وعلى الأمم السالفة ما هي إلا اكراماً له ﷺ.

الموقف العاشر: تولي الحساب

من الادوار التي يقوم بها النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام في صحراء المحشر تولي

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) الطبرسي/ مجمع البيان ٢: ٣٧٨.

(٣) النحل: ٨٩.

(٤) العياشي/ تفسير العياشي ١: ٢٤٢.

حساب امته وأصحابه كما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا، فمن كانت مظلمته فيما بينه وبين الله حكمنا فيها فأجبنا، ومن كانت مظلمته بينه وبين الناس استوهبناها فوهبت لنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنا أحق من عفا وصفح) [1].

وان تولي الحساب بما أذن لهم، وهو نوع من أنواع الشفاعة الموكولة للنبي وأهل بيته من قبل رب العزة والجلالة، فان كانت المظلمة في حق الله استشفعوا له عند الله وان كانت في حق الناس استشفعوا له عند صاحب الحق وان كانت في حقهم (عليهم السلام) فهم أولى بالصفحة،

وتولي الحساب يكون رحمة بالمؤمنين، ولم تشمل هذه الرحمة كل العصاة، بل مختصة فيما دون الدم والعرض، ولمن تاب بعد ظلم، أو ارتكب الظلم خطأً أو جهلاً.

وقد تكاثرت الأخبار في الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) يتولون حساب اتباعهم ومحبيهم ومواليهم وهو نوع من الشفاعة الكبرى.

ولا يختصر الأمر على حساب محبيهم بل يعمّ الأمر حساب الخلائق وقد ورد خبر عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: يا جابر إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين لفصل الخطاب ودعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ودعا أمير المؤمنين (عليه السلام)... إلى قال ثم يدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس فنحن والله ندخل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار) [2].

وهذا الحساب يدخل ضمن الشفاعة الكبرى فمن تنفع معه الشفاعة فيدخل الجنة والا فالنار مثواره.

الموقف الحادي عشر: شهادة النبي لنوح (عليه السلام)

وقد يدخل هذا الموقف في عموم شهادة النبي على الأمم السالفة، ولكن خص في بحض منفرد لخصوصية الموقف مع نوح وكان الدليل عام هناك، ولكن ورد هنا بصورة خاصة في قوم.

وقد روي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) انه قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢: ٦٨، المجلسي/ بحار الأنوار ٦٥: ٩٨ ح١.

(٢) نورا لثقلين ٥: ٥٦٩.

تبارك وتعالى الخلائق وكان نوح أول من يدعى به، فيقال له هل بلّغت؟

فيقول: نعم.

فيقال: من يشهد لك؟

فيقول: محمد بن عبد الله.

قال: فيخرج نوح فيتخطى الناس حتى يجيئ إلى محمد ﷺ وهو على كثيب المسك، ومعه علي، وهو قول الله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا)[1].

فيقول نوح عليه السلام لمحمد ﷺ: يامحمد ان الله تبارك وتعالى سألني هل بلّغت؟ فقلت: نعم، فقال: من يشهد لك؟ فقلت: محمد، فيقول ﷺن يا جعفر: ياحمزة: إذهبا وأشهدا له انه قد بلّغ) [2].

ويبدو ان جعفر وحمزة نقلوا شهادة نبينا.

وهذا إكرام آخر له ﷺ.

الموقف الثاني: جسر جهنم والقنطرة السابعة

جسر جهنم والجسر المؤدي إلى جهنم بين صحراء المحشر وجهنم من عبره فسوف يدخل فيها.

وأما القنطرة السابعة فهي أحد القناطر المؤدية إلى جهنم أيضاً والقناطر تكون معقود على الصراط، وعلى قنطرة نوع السؤال فعلى القنطرة الأولى السؤال عن حب أهل البيت وولايتهم، وعلى الثانية يسألون عن الصلاة، وعلى الثالثة يسألون عن الزكاة، وعلى الرابعة يسألون عن الصيام، وعلى الخامسة يسألون عن الحج، وعلى السادسة يسألون عن الجهاد، وعلى السابعة يقف عليها النبي ﷺ يستوهب الظالم من المظلوم ويسوى ما كان بينهما.

ورسول الله ﷺ لا يستقر له قرار في الدار الآخرة حتى يخلص من يمكن تخليصه من نار جهنم، فهو يسعى ان يكون في موقف من مواقف يوم المحشر رحمة بالناس، فتراه واقفاً على جسر جهنم يصلح أمور بعض المسلمين، وتراه يشفع لأمته، ويقف عند الميزان والحوض وهكذا.

---

(١) الملك: ٢٧.

(٢) الكليني ٨: ٢٦٧ ح ٣٩٢.

وقد دلت الأخبار على وقوفه على جسر جهنم والقنطرة السابعة، كما روي عن ابن عباس قال: قالت فاطمة عليها السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في سكرات الموت: (يا أبا لا أصبر عنك ساعة من الدنيا فأين الميعاد غداً؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أما انك أول أهلي لحوقاً بي، والميعاد على جسر جهنم،

قالت عليها السلام: يا أبة أليس قد حرم الله عزوجل جسمك ولحمك على النار؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: بلى، ولكني قائم حتى تجوز أمتي،

قالت عليها السلام: فان لم أراك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: تريني عند القنطرة السابعة من قناطر جهنم استوهب الظالم من المظلوم.

قالت عليها السلام: فان لم أراك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: تريني في مقامالشفاعة وأنا أشفع لأمتي...) [1].

وهدف النفي صلى الله عليه وآله وسلم من هذا الوقوف هو انقاذ بعض امته من نار جهنم حيث يتشفع لهم ويستوهب لهم ذنوبهم ممن ظموا.

الموقف الثالث عشر: تخليص الزوار

الزوار جمع زائر والزائر هو من يحضر عند المزور الحي أو الميت مسلماً عليه ومواسياً له في فرح أو غم.

وللزيارة ثواب عظيم سواء كانت لنبي أو إمام أو ولي من أولياء الله أو رحم أو صديق.

وبما ان الفعل عظيم وموجب لشفاعة النبي وأهل بيته، لذا نجد ان جملة مهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي يقوم بها في يوم المحشر هو التدخل في تخليص الزوار الذين زاروه أو زاروا أحد من أهل بيته عليهم السلام من غم ما أصابهم إلى يسكنهم الجنة، وقد دلت الروايات الكثيرة على ذلك، منها ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن ابيه عن آبائه عليهم السلام، قال: قال الحسن بن علي لرسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبتاه ما جزاء من زارك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (من زارني أو زار أباك أو زارك أو زار أخاك كان حقاً عليّ أن أزوره يوم القيامة

(١) الأربلي، علي بن عيسى/ كشف الغمة في معرفة الأئمة ٢: ١١٩.

حتى أخلصه من ذنوبه)[1].

وفي رواية أخرى عن الحسين بن علي عليه السلام وقد سأل جده رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: يا أبتاه ما لمن زارنا؟

قال صلى الله عليه وآله: يابني من زارني حياً أو ميتاً، ومن زار أباك حياً، أو ميتاً، ومن زارك حياً أو ميتاً ومن زار أخاك حياً أو ميتاً كان حقيق عليَّ أن أزوره يوم القيامة وأخلصه من ذنوبه وأدخله الجنة[2].

يظهر من الروايات حضور النبي صلى الله عليه وآله لتخليص زواره من ذنوبهم وادخالهم الجنة، والمراد من الذنوب وما كانت دون الدم والعرض، وما تاب عنه من حق الله، وما وقع جهلاً أو خطأً أو أكراهاً، لا كل الذنوب، لما في ذلك من محذور مخالفة أصل الرسالة النبوية.

وأما حق الناس فهو لا يغفر الا برضى ذوي الحق وليس من العدل الإلهي غفرانه، نعم يحق للرسول يستوهب ذلك من ذوي الحق مقابل ان يشفع لهم في مجال آخر.

الموقف الرابع عشر: الجلوس على المنبر والخطبة

رسول الله صلى الله عليه وآله له الكرامة العظمى في دار الآخرة ويسكن أعلى الجنات، ويشفع اعرض الشفاعات، ويخطب أفضل الخطب، ويعلو اعلى المنابر، كما ورد في الخبر عن الصادق عليه السلام قال:

قال أبو جعفر عليه السلام حدّثني أبي، عن جدّي، عن رسول لله: قال: (إذا كان يوم القيامة نصيب للأنبياء والرسل منابر من نور فيكون منبري أعلى منابرهم يوم القيامة.

ثم يقول الله تعالى: يا محمد أخطب، فأخطب بخطبة لم يسمع أحد من الأنبياء والرسل بمثلها... ثم يخطب بعد علي عليه السلام... ثم يخطب الحسن والحسين...)[3] والحديث طويل اكتفنيا في مورد الحاجة منه، وفيه دلالة علم عظم منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وخطبته في المحشر.

ويمكن لصالح المؤمنين ان يكون منبره بجوار منبر نبينا صلى الله عليه وآله كما قال الامام أبا

---

(١) الكليني/ الكافي ٤: ٥٤٨ ح٤، الصدوق/ علل الشرائع: ٤٦٠ ح٥.

(٢) الكليني/ الكافي ٤: ٥٧٩ ح١ الصدوق/ الفقيه ٢: ٣٤٥، الطوسي/ التهذيب ٦: ٤ ح٧.

(٣) المجلسي/ بحار الأنوار ٨: ٥١ ح٥٩.

جعفر محمد بن علي الجواد: (من زار قبر أبي بطوس غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإذا كان يوم القيامة نُصب له منبر بحذاء منبر رسول الله ﷺ)[1].

كل ما تقدم هو مواقف رسول الله ﷺ في المحشر، وأما ما يأتي فهو ما بعد المحشر ونأخذ نموذجية فقطة وهو الاعراف والصراط.

الموقف الخامس عشر: رسول الله ﷺ على الأعراف

من المواقف المهمة للرسول وأهل بيته عليهم السلام في الآخرة هو الوقوف في الأعراف رأفة بالأمة المرحومة.

معنى الأعراف لغةً واصطلاحاً:

أما لغةً: الأعراف: جمع عرف مستعار من المكان العالي المأخوذ من الديك والفرس[2].

وأما اصطلاحاً: هو كثبان بين الجنة والنار والكثبان جمع كثيب وهي تلال من الرمل[3]هذا بحسب ما نلمسه في الدنيا، وأما في آخره فهي ولا نعرف ماهيتها ومادتها الا من خلال كلام النبي وأهل بيته، ويدل على ذلك ما روي عن الصادق عليه السلام انه قال: (الأعراف كثبان بين الجنة والنار، فيقف عليها كل

نبي وكل خليفة نبي مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش من الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى اخوانكم المحسنين قد سبقوا إلى الجنة فيسلم المذنبون عليهم، وذلك قوله تعالى: (وَنَادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ)[4].

ثم أخبر سبحانه انهم لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون ان يدخلهم الله فيها بشفاعة النبي ﷺ والإمام عليه السلام، وينظر هؤلاء المذنبون أهل النار، فيقولون: (رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[5].

ثم ينادي أصحاب - الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء - أهل النار مقرعين لهم: (ما

---

(١) روضة المتقين ٥: ٤٠١.

(٢) الطريحي/ مجمع البحرين ٥: ٩٣.

(٣) ن. م ٢: ١٥٦.

(٤) الأعراف: ٤٦.

(٥) الأعراف: ٤٧.

أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ)[1]- يعني أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحقرونهم وتستطيلون بدنياكم عليهم -

ثم يقولون أهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله لهم بذلك: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)[2].

والواضح من الرواية ان أصحاب الأعراف هم الأنبياء والأوصياء يجسلون هناك يرون أصحاب الجنة وأصحاب النار الذين لا تنفعهم الشفاعة، وبجنبهم على الأعراف طائفة من المستضعفين الذين يدخلون الجنة متأخرين.

وان زعيم أهل الأعراف هو نبي الرحمة محمد ﷺ وتمن حوله أهل بيته عليهم السلام الأقرب فالأقرب كما قال الإمام الصادق عليه السلام: (فأما في يوم القيامة فإنا وأهلنا نجزي عن شيعتنا كل جزاء ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، والطيبون من الهم فنرى بعض شيعتنا في تلك العرصات...)[3].

فمن كان منهم مقصراً في بعض شدائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار... فينقضون عليهم كالبزاة والصقور... فيزفونهم إلى الجنة زفاً)[4].

وهذا مصداق لقوله تعالى: (وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ)[5].

ويستفاد من الروايات الكثيرة في هذا الباب ان كل نبي وخليفة يشفع للمستضعفين من قومه كما هو الحال في نبينا وأهل بيته عليهم السلام.

ويراد بالمستضعفين المغلوب على أمرهم أو الذين تابوا عما فعلوا من الذنوب ولم تكن بحد الشرك وقتل النفس وهتك العرض والزنا، فان كانت ذنوبهم في حق الله يشفع بها النبي وأهل بيته، وان كانت بحق الناس استوهبوها من المظلومين مقابل الشفاعة لهم، وان كانت في حق أهل البيت فهم أولى بالصفح.

ويعدّ هذا الموقف (الأعراف) من أهم المواقف، وهو مصداق لكون النبي ﷺ

---

(١) الأعراف: ٤٨ - ٤٩.

(٢) الأعراف: ٤٩.

(٣) تفسير الإمام العسكري: ٢٤٢، بحار الأنوار ٨: ٤٤ ح٤٥.

(٤) تفسير الإمام العسكري: ٢٤٢، بحار الأنوار ٨: ٤٤ ح ٤٥.

(٥) الأعراف: ٤٦.

رحمة للعالمين.

موقف النبي ﷺ على الصراط

الصراط لغةً: هو الطريق، وسمى الديق صراطاً، لانه طريق الصواب والمسلمون يعتقون بان الصراط في عالم الآخرة هو حق، وهو من ضروريات الدين الإسلامي والصراط عبارة جسر منصوب على جهنم أدق

من الشعرة ومن حد السيف يمر عليه جميع الخلائق فمن اجتازه عبر إلى الجنان ونجا ومن لم يعبره يلحقه نصيبه من نار جهنم) [1].

أول من يقطع عقبة الصراط

ان رسول الله ﷺ هو أول من يقطع عقبة الصراط والثاني هو علي ابن أبي طالب عليه السلام ثم الذين يلونهم من أهل بيت العصمة عليهم السلام، وقد دلّت السنة النبوية على ذلك فقد قال ﷺ في قوله تعالى: (فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)[2]: ان فوق الصراط عقبة كؤوداً طولها ثلاثة آلاف عام، ألف عام هبوط وألف عام شوك وحسك وعقارب وحيات وألف عام صعود، وانا أول من يقطع تلك العقبة، وثاني من يقطع تلك العقبة ههو علي بن أبي طالب... ولا يقطعها في غير مشقة الا محمد وأهل بيته) [3].

والعقبة الكؤود هي العقبة الشاقة التي يصعب عبورها ويشق، وقال في العين: (عين كأداء ابن ذات مشقة، وهي أيضاً كؤود) [4].

وقال ﷺ: (اتاني جبرئيل عليه السلام، فقال: ابشرك يا محمد بما تجوز على الصراط؟

قال: قلت: بلى.

قال: تجوم بنور الله ويجوز علي بنورك نور من الله وتجوز امتك بنور علي ونورك، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) [5].

وقيل يمضي محمد وأهل بيته كالبرق الخاطف، ثم قوم مثل الريح ثم قوم مثل عدو الفرس، ثم يمضي قوم مثل المشي، مثل قوم مثل الجثو، ثم قوم مثل الزحف، ويجعله

---

(١) عبد الله شبر/ حق اليقين ؟؟؟.

(٢) البلد: ١١.

(٣) ابن شهرآشوب ٢: ٦.

(٤) ترتيب كتاب العين ٣: ١٥٤٧، وظ: ابن الأثير/ النهاية ٤: ١٣٧.

(٥) ابن المغازلي/ المناقب: ٢٤٢، ابن البطريق/ العمدة: ٣٦٩.

الله على المؤمنين عريضاً وعلى المذنبين دقيقاً.

قال تعالى: (يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا)[1]، حتى تجتاز على الصراط...) [2].

ملخص البحث

حظي النبي ﷺ في عالم الآخرة بمقامات مروقة عالية، اكراما له، ولما فعله في الدنيا من ابلاغ الرسالة، وإقامة العدل، فأكرمه الله تعالى بالجنة وبالرضا، ثم حباه بالشفاعة ليكون رحيماً في امته في عرصات المحشر المخيفة والمذهلة، ليكون رحيماً رءوفا بامته كما كان في الدنيا، فتجده حاضرا في صحراء المحشر لإنقاذ المذنبين من المؤمنين من امته، وهو ينادي (امتي امتي) بعد اشغال كل انسان بنفسه.

فتراه في موقف البعث والنشر والحشر، وهو المتقدم في تلك المواقف، ثم على الحوض يسقي المؤمنين من امّته بيده وبيد وصيه علي عليه السلام، شربة لا ضمأ بعدها، ثم عند تطاير الكتب، ثم عند الميزان، ثم

عند الصراط، ثم على كثبان الأعراف، ثم على باب الجنة ليأذن للمؤمنين بدخولها، ثم على باب النار ليمنع شررها ولهيبها عنهم.

وهمه الأكبر في ذلك اليوم العصيب إنقاذ المؤمنين من امّته وتخليصهم من عذاب النار، بما حباه الله من الشفاعة، ويشفع للمذنبين منهم حيث اذن له في ذلك.

وهذا من مصاديق قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) الاسراء/ ٧٩؛ إذ يغبطه الأولون والآخرون بما فيهم الأنبياء والاوصياء والصديقون والشهداء، ويحمدونه على ذلك لما يفيضه عليهم من فيوضات.

والحمد لله رب العالمين

(١) التحريم: ٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٧، بحار الأنوار ٨: ٦٧.

السيرة النبوية وحقائق الاختلاف والحوار والوحدة

الشيخ محمد محفوظ
باحث ومؤلف من السعودية

الشيخ محمد محفوظ
باحث ومؤلف من السعودية

مواليد ١٩٦٦، مدير مركز آثار للدراسات والبحوث. ومدير تحرير مجلة الكلمة، كاتب أسبوعي في جريدة الرياض السعودية. له العديد من المؤلفات، منها:

١ - الإسلام مشروع المستقبل.

٢ - الإسلام ورهانات الديموقراطية.

٣ - الإسلام ورعاية المسنين.

٤ - ظاهرة العنف في العالم العربي، قراءة ثقافية.

٥ - ضد الطائفية.

٦ - الطريق إلى التسامح.

٧ - التسامح وقضايا العيش المشترك.

٨ - سؤال الثقافة في المملكة العربية السعودية.

٩ -أوليات في فقه السنن في القرآن الحكيم.

١٠ - الآخر وحقوق المواطنة.

تشكل سيرة الرسول الأكرم ﷺ بكل مراحلها وأطوارها مصدرا مهما وأساسيا لفهم شخصية الرسول ﷺ وكيف أدى رسالته، وواجه قوى مجتمعه، وكيف شكل مجتمع المؤمنين الذي انطلق في بناء ملحمة إنسانية تاريخية، حولت العرب والمسلمين في فترة زمنية وجيزة من طور إلى آخر ومن حالة إلى أخرى. وتنبع أهمية هذه السيرة بوصفها أحد المداخل الأساسية لفهم قيم الإسلام ومبادئه الأساسية.

ولوتأملنا في الآيات القرآنية التي تحدثت عن الرسول ﷺ فإنها تحدثت عنه بوصفه إنسانا بعيدا عن الأساطير. إذ يقول تعالى (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) [1].

والبعد الآخر الذي أكدت عليه آيات الذكر الحكيم هورسوليته ورساليته وأنه مكلف برسالة ولا بد من تبليغها وإيصالها إلى الناس كافة، ويتوسل في سبيل تبليغ رسالته ودعوته بالدعوة والهداية والتبشير والإنذار والإبلاغ والتبيين. يقول تبارك وتعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) [2]، (هوالذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) [3]، (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ[4])، (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) [5]، (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) [6]، (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجولقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [7]. وغيرها من الآيات القرآنية الشريفة، التي تؤكد بشرية الرسول ورساليته في آن، ولا انفكاك بينهما.

وإن هذه الرسالة جاءت من أجل إسعاد الإنسان فردا وجماعة، وإخراجه من طور الشرك بالله سبحانه وتعالى والانقياد إلى أهواء البشر وشهواتهم إلى عبادة رب العباد

---

(١) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٩٣.

(٢)القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية ٧.

(٣)القرآن الكريم، سورة الفتح، الآية ٢٨.

(٤)القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية ٤٨.

(٥)القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية ٢٨.

(٦)القرآن الكريم، سورة النحل، الآية ٦٤.

(٧)القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية ١١٠.

وتوحيده وعتق وتحرير الإنسان من كل الكوابح والقيود.

يقول تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هوسبحانه عما يشـركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون * هوالذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون) [1].

(بشرية الرسول لا تعني أنه سواء وغيره من البشر في الفضائل والشمائل، فقد اجتباه ربه واصطفاه لتبليغ آخر دعوة إلى الناس كافة، ومن ثم أدبه فأحسن تأديبه، وبعثه ليتمم به مكارم الأخلاق، ومن كانت هذه مهمته لا بد أن يكون كاملا لا تعتريه شائبة من شوائب البشر الناقصة، وصدق الله إذ يقول عن نبيه (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم، ٤)، خلق شامل كامل، خلق عظيم لا يدانيه خلق آخر، ولا غروأن كان هذا النبي الأمي أسوة وقدوة ومثلا أعلى لمن أراد نعيم الدنيا والآخرة) [2].

ولقد سجلت آيات الذكر الحكيم شعور الرسول الأكرم نحودينه وقومه، وهوشعور جياش بالحب والرحمة والرغبة العميقة في نشر نور الله بين الناس والصبر على ما كان منهم من عنف واضطهاد وكان يسأل الباري عز وجل لهم دائما بالمغفرة والهداية. ومن الآيات التي سجلت هذه السيرة قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هوعليه توكلت وهورب العرش العظيم) [3].

لذلك ثمة ضرورة معرفية واجتماعية دائمة، لتظهير قيم الرسالة التي جسدها الرسول الأكرم في سيرته وفي جميع أطوار ومراحل حياته الشريفة. ومن هذا المنطق سنحاول أن نقترب من الطريقة التي انتهجها رسول الإسلام ﷺ في التعامل مع مكونات وتعبيرات المجتمع الإسلامي الأول. لأننا ندرك أن مجتمع عصر الرسالة، يحتضن تعبيرات متعددة، والرسول حقق وحدة المسلمين الداخلية عبر احترام حقائق

---

(١) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية ٣١ - ٣٣.

(٢) محمد الدسوقي، الرسول كما صوره القرآن الكريم، كتاب ندوة السيرة النبوية، ص ١٧٢، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ١٩٨٦م.

(٣) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

التعدد والتنوع. لأن الوحدة الحقيقية والصلبة في أي مجتمع، هي تلك الوحدة التي تبنى على قاعدة احترام حقائق التنوع وصيانة حقوق جميع المكونات والتعبيرات. فطريق الوحدة في المجتمعات المتنوعة أفقيا وعموديا، ليس في دحر الخصوصيات أوالعمل على طمسها وتغييبها بوسائل قسرية، لأن هذا السلوك يجعل جميع التعبيرات تتمسك بخصوصياتها بطريقة مرضية تزيد من انطواء الجميع مع الجميع، بحيث يتحول المجتمع الواحد إلى مجموعة مجتمعات متغايرة ومختلفة على مستوى الذاكرة التاريخية، وطريقة تعاملها مع حقائق الراهن وتحدياته. لذلك وانطلاقا من تجربة الرسول الأكرم ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي الأول وإدارته، فإننا نعتقد أن وحدة المجتمعات لا يمكن أن تتحقق بوسائل قهرية - عنفية، وإنما ببناء حقائق التعايش واحترام مقتضيات التعدد والتنوع. فهذه القيم ومتوالياتها، هي القادرة على بناء وحدة اجتماعية وسياسية لمجتمع يعيش التعددية الأفقية والعمودية.

وكان رسول الله ﷺ يسيج هذه الوحدة ويعززها بإشاعة قيم المحبة والتآلف والصدق بين المؤمنين، وإبعادهم أخلاقيا وسلوكيا عن كل النزعات الجاهلية التي تفرق بين الناس على أسس ومقتضيات لا كسب للإنسان فيها. ويتحمل الرسول الأكرم ﷺ في سبيل إنجاز ذلك كل أشكال الإغراء والترغيب والترهيب، إلا أن كل هذه الأمور لم تزد رسولنا الكريم إلا تمسكا بنهجه ودعوته ورسالته.

وبفضل ذلك انتقل الإنسان آنذاك من الغلظة والشدة والعداوة إلى الرأفة واللين والمحبة والأخوة. إذ يقول عز من قائل (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) [1].

وبهذا تشكل المجتمع المسلم الذي يصفه الباري عز وجل في محكم التنزيل بقوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ

---

(١) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) [1].

وقوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) [2].

حق الاختلاف:

ثمة تصورا ورؤية أيدلوجية وفكرية وسياسية، قائمة على ضرورة أن تتحد قناعات الناس وأفكارهم وآراءهم، حتى يتسنى لهم صناعة التقدم أوالانخراط في مشروع التطور في مجالات الحياة المختلفة. فهي تصورات وآراء، لا تحبذ التنوع والتعدد والاختلاف، وإذا امتلكت القدرة المادية أوالسلطة، فإنها تستخدم وسائل قسرية لإنجاز مفهوم الوحدة بدحر وإفناء كل حقائق التعدد والتنوع من الفضاء الاجتماعي.

لهذا فإن هذه الأيدلوجيات تعمل بآليات متعددة ومتداخلة، لإنهاء كل مظاهر التعدد والتنوع. وذلك لأن فهمها للوحدة قائم وكأنها المعادل الموضوعي للرأي الواحد والموقف الواحد. وهذا بطبيعة الحال مما تأباه نواميس الحياة وحقائق مجتمعاتنا التاريخية والثقافية والواقعية.

فالوحدة لا تساوي بالضرورة، أن تكون كل قناعاتنا ومواقفنا واحدة ومتطابقة في كل شيء. ومن يبحث عن الوحدة بهذا المعنى، فهوأحد حالتين: إما أنه سيصدم بحقائق التنوع الراسخة في الوجود الاجتماعي والإنساني، مما يجعله يتراجع عن رؤيته الشوفينية والعدمية للوحدة، أوإنه سيمارس القهر والعنف من أجل إنجاز مفهومه للوحدة. ولا ريب أن استخدام وسائل القهر وآليات العنف، في كل التجارب الإنسانية، لا تفضي على الصعيد الواقعي إلى الوحدة الصلبة في الفضاء الاجتماعي والسياسي. بل هي (أي آليات العنف ووسائل القهر) تؤسس لتشظيات وانقسامات عميقة عمودية وأفقية في المجتمع الواحد. ولعل الذي يؤكد هذه الحقيقة هوأن الإنسان أوالجهة التي تستخدم العنف لبناء الوحدة الاجتماعية والسياسية، فهي تعيش مفارقة كبرى على هذا الصعيد.

---

(١) القرآن الكريم، سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية ٢٦.

فباسم الوحدة يتم تجزئة المجتمع، وباسم الوفاق والأخوة، يتم غرس أخدود عميق بين تعبيرات المجتمع الواحد، وباسم الاتحاد والائتلاف تتعمق أسباب الفرقة والتشرذم في الفضاء الاجتماعي.

فالوحدة بكل مستوياتها، لا تنجز بوسائل عنفية وقهرية، كما أنها لا تتحقق بدحر حقائق التنوع والتعدد، وإنما باحترام هذه الحقائق وضمان حق الاختلاف.

ولعل الخطوة الأولى في هذا السياق، هوعدم ترذيل الاختلاف، وضمان حق الجميع في أن تكون لديهم قناعات وأفكار مختلفة عن قناعاتي وأفكاري.

إننا نعتقد إن ضمان حق الاختلاف بكل مستوياته، هوالخطوة الأولى في بناء مشروع الوحدة الاجتماعية والسياسية على أسس صلبة ومستقرة.

ودون ذلك ستبقى الوحدة، من الشعارات المجردة، التي لا تسند بحقائق مجتمعية، تحول الشعار إلى حقيقة راسخة في الوجود الإنساني والاجتماعي. والسؤال المركزي الذي يمكن أن يوضح حقيقة حق الاختلاف من جميع أبعاده هو: كيف نحمي ونضمن حق الاختلاف في مجتمع متعدد ومتنوع على المستويين الأفقي والعمودي؟.

١ - الإيمان العميق بقيمة الحرية وإن من لوازمها الأساسية صيانة حق الاختلاف. فلا يمكن أن يدعي أي إنسان، بأنه يؤمن بالحرية ويعمل على قمع حق الاختلاف. لأن حماية حق الاختلاف هي إحدى الثمار الأساسية لقيمة الحرية.

ويبدوإننا لا يمكن أن نصون قيمة الاختلاف، بدون تعميق قيمة الحرية في الفضاء الاجتماعي والثقافي. فجذر حق الاختلاف، هوأن البشر بنسبيتهم وخضوعهم لظروف زمانهم ومكانهم لا يمكنهم أن يدركوا كل الحقائق والمقاصد، وإنما هم يجتهدوا ويعملوا العقل ويستفرغوا جهدهم في سبيل الإدراك والفهم، وعلى قاعدة الاجتهاد وتعدد نتائجه، يتأسس الاختلاف في الفهم والإدراك والقناعات والمواقف، ويبقى هذا الحق مكفولا للجميع. فالاختلاف مظهر طبيعي في الاجتماع الإنساني، وهوالوجه الآخر لحقيقة التعدد والتنوع. أعني أن التنوع لا بد أن يستدعي الاختلاف ويقتضيه. وهووجود متحقق سواء من حيث الوجود المادي للإنسان أومن حيث الفكر والسلوك وأنماط الاستجابة.

ووفق هذا المنظور لا يشكل الاختلاف نقصا أوعيبا بشريا يحول دون إنجاز

التطلعات الكبرى للإنسان عبر التاريخ. وإنما هوحق أصيل من حقوق الإنسان، ويجد منبعه الرئيسي من قيمة الحرية والقدرة على الاختيار.

وإجماع الأمة تاريخيا حول قضايا فكرية أوسياسية وما شابه ذلك، ليس وليد الرأي الواحد، وإنما تحقق الإجماع عن طريق الاختلاف الذي أثرى الواقع، وجعل الآراء المتعددة تتفاعل مع بعضها وتتراكم حتى وصلت الأمة إلى مستوى الإجماع.

والإسلام بكل نظمه وتشريعاته، كفل حق الاختلاف، واعتبره من النواميس الطبيعية، وجعل التسامح والعفوسبيل التعامل بين المختلفين. فحق الاختلاف لا يعني التشريع للفوضى أوالفردية الضيقة والأنانية، وإنما يعني أن تمارس حريتك على صعيد الفكر والرأي والتعبير، وتتعامل مع الآخرين وفق نهج التسامح والعفو.

فالاختلاف لا يساوي الرذيلة والإثم والخلل، وإنما هوناموس كوني وجبلة إنسانية. النزاع والخلاف والتشرذم والتفرقة، هي التي تساوي الإثم والخلل. وعلى هذا من الضروري أن نجدد رؤيتنا للاختلاف ونتعامل معه وفق عقلية جديدة، لا ترى فيه إثما ومعصية، وإنما قدرة مفتوحة ومتواصلة لإثراء الحقيقة والواقع.

٢- ما دام من حق الجميع أن يختلف عن غيره، ويعبر عن هذا الاختلاف ضمن وسائل سلمية وحضارية، من الضروري أونوضح أن الذي ينظم هذه المسألة هووجود منظومة قانونية متكاملة، توضح الحدود، وتحول دون الافتئات على أحد، أوخلق حالة من الفوضى في المجتمع والوطن الواحد. فسيادة القانون هي ضمانة الجميع للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، دون أن يقود هذا الحق إلى خلق الفوضى في المجتمع.

وعليه فإن حق الاختلاف لا يمكن صيانته وإدارته في إطار اجتماعي، إلا بسيادة القانون الذي يتعامل مع الجميع على قدم المساواة، بدون تحيز لأحد أوتغطية لتصرفات طرف دون بقية الأطراف. فالعلاقة بين حق الاختلاف وسيادة القانون، علاقة عميقة، لأنه لا يمكن ضمان حق الاختلاف على المستويين الاجتماعي والوطني بدون سيادة القانون. والقانون بدون ضمان حق الاختلاف، سيتحول إلى غطاء لتمرير ممارسات وتصرفات لا تنسجم وروح القانون وطبيعة التنوع الذي يحتضنها أي وجود إنساني. والقانون هوالذي يضمن عدم إنتاج العصبيات الدينية والمذهبية والقومية دون أن يفتئت على خصوصياتها.

فالرسول الأكرم ﷺ بنى دولته من قبائل ومكونات مختلفة، ولكنه ﷺ أدار هذا التنوع والتعدد بعدالة، لذلك شعر الجميع بأن هذا المجتمع هومجتمعه، وإن هذه الدولة هي دولته. فالإنسان مهما كانت منابته الأيدلوجية، حينما يحترم في خصوصياته الدينية والثقافية، ويحصل على حقوقه كبقية أبناء المجتمع، فإنه سيشعر بالأمن العميق، وسيمارس دوره في تعزيز وحدة مجتمعه ووطنه انطلاقا من احترام حقوقه وخصوصياته الذاتية. فالاندماج والتفاعل الإيجابي، لا يمكن أن يتحقق بين المكونات والتعبيرات في الإطار الوطني أوالاجتماعي الواحد بدون العدالة وصيانة الحقوق واحترام الخصوصيات.

فالرسول ﷺ بنى مجتمعا متحدا ومستقرا انطلاقا من احترام خصوصية جميع القبائل والأطراف والمكونات. كما أن الدولة التي أسسها رسول الإسلام ﷺ هي دولة جامعة وحاضنة لجميع التعبيرات والحساسيات. ولعل نص صحيفة المدينة وهوبمثابة الدستور الذي عمل به الرسول الأكرم ﷺ، يوضح ويجلي هذه الحقيقة. إذ لم يستثن أحد من التعاقد الدستوري، كما أنه ﷺ وضع للجميع حقوقهم وواجباتهم. فالدولة التي أسسها النبي الأعظم ﷺ هي دولة الجميع، والجميع اعتبرها دولته لأنها احترمت خصوصياته وصانت حقوقه ودافعت عنه وجودا ورأيا وحقوقا.

وجماع القول: إن دولنا ومجتمعاتنا العربية مطالبة بحماية حق الاختلاف وضبطه بمنظومة قانونية وذلك من أجل ضمان الاستقرار السياسي وفق أسس سليمة وعميقة.

الفكر الآخر:

من الطبيعي القول: أن كل إنسان يحمل فكرا وثقافة، فهوسيعتز بها، ويدافع عنها، بصرف النظر عن قناعة الآخرين بهذا الفكر أوهذه الثقافة. فالإنسان بطبعه نزاع إلى الاعتزاز بفكره وثقافته والتقاليد والأعراف المترتبة عليهما.

وهذا الاعتزاز هوالذي يقوده للعمل على تعميم هذا الفكر، وتوسيع دائرة المؤمنين بالثقافة التي يحملها.

والبشر جميعا يشتركون في هذه الحقيقة. فالإنسان بصرف النظر عن دينه أومعتقده أوبيئته الثقافية والحضارية، يعتز بأفكاره ويدافع عنها ويوضح بركاتها، ويسوق

حسناتها.

وفي سياق اعتزاز الإنسان بفكره، يعمل عبر وسائل عديدة إلى تعميمه، ودعوة الآخرين إلى تبني ذات الأفكار.

وهذه الطبيعة ليست محصورة في إنسان دون آخر، أوبيئة ثقافية دون أخرى، فالإنسان بطبعه يريد ويتمنى ويتطلع أن يحمل كل الناس الأفكار التي يحملها، ويتبنى كل البشر الثقافة التي يتبناها. وعلى الصعيد الواقعي والإنساني، تتزاحم هذه الإرادات، وتتناقض هذه الدعوات. فكل إنسان وأمة يعمل على تعميم ثقافته ونمطه الحضاري، مما يولد الصدام والمواجهة، وإن تعددت أساليب الصدام والمواجهة، تبعا لطبيعة الثقافة وبيئتها الاجتماعية والحضارية وأولوياتها.

وبفعل هذا الصدام، سيعمل بعض الأطراف، للاستفادة من القوة لفرض رأيه أوتعزيز منطقه وثقافته، وبذات القوة، يمنع الطرف الآخر من بيان وتوضيح رأيه وثقافته.

وهذه الممارسة الإقصائية، تأخذ أشكالا عديدة ومسوغات متنوعة. فتارة يتم الحديث عن أنه لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية. فباسم الديمقراطية نقصي الآخرين، ونقمع أفكارهم، ونمنعهم من ممارسة حقوقهم العامة، لكونهم في نظرنا من أعداء وخصوم الديمقراطية.

وتارة باسم مجابهة الباطل والضلال، تتم عمليات الحرب الفكرية ومشروعات الإقصاء والتهميش. فنحن نحارب الفكر الفلاني، لكونه في نظرنا من الباطل الذي يجب محاربته. وهكذا يتم قمع فكر الآخر، تحت عناوين ويافطات، لا تمت بصلة إلى المعرفة والثقافة والفكر.

فلا يمكن الدفاع عن الحق بالباطل، ومن يلجأ للدفاع عن حقه وفكره، بأساليب ووسائل باطلة، هويشوه فكره، ويحرمه من حيويته وفعاليته.

فالجدال بغير التي هي أحسن، لا يفضي إلا إلى المزيد من الجحود والبعد عن الفكر الذي تدافع عنه بوسائل لا تنسجم وطبيعة الفكر الذي تحمل. فالإنسان الذي لا يمتلك الثقافة والعلم الواسع، فإنه يدافع عن قناعاته بطريقة تضر بها حاضرا ومستقبلا. فالأفكار لا تقمع، والقناعات لا تصادر، مهما كانت قناعتنا بها. ومن يقمع فكر الآخرين لأي اعتبار كان، فإنه يحوله إلى فكر مظلوم ومضطهد، سيتعاطف معه الناس

وسيدافعون عنه بوسائلهم المتاحة.

لهذا فإننا نعتقد إننا نعطي للفكرة الخطأ قوتها حينما نمنعها من حريتها، ونمارس بحقها عمليات القمع والحضر والمنع.

فالأفكار لا تمنع وتقمع، وإنما تناقش بالأساليب العلمية والموضوعية، ويتم الحوار معها بعيدا عن نزعة الإلغاء والمنع.

ودائما الفكر الضعيف هوالذي يحتاج إلى ممارسة الظلم والعسف تجاه الفكر المقابل.

أما الفكر القوي فهولا يخاف من الحرية والحوار، ونصاعته ومتانته، لا تبرز إلا في ظل الحرية التي تتناقش فيه الأفكار بحرية، وتتحاور فيه الثقافات بدون تعسف وافتئات.

فالفكر القوي يصل إلى كل الساحات من خلال غناه وثراءه، لا من خلال وسائل المنع والقمع والحضر. والفكر الضعيف هووحده، الذي يحتاج إلى القمع والقوة، لفرض قناعاته على الآخرين. لهذا كله فإننا نرى أن التعامل مع الفكر الآخر، ينبغي أن ينطلق من أساس الحرية، وحقه في التعبير عن نفسه وقناعاته في ظل القانون. وإن عمليات المنع والحضر، هي مضادة للحرية الفكرية وطبيعة الاشتغال الثقافي والعقلي.

فللفكرِ الآخر حقه الطبيعي في التعريف بنفسه، وبيان متبنياته، وللآخرين حق النقد والمناقشة والتقويم والتفكيك.

فالقيم الحاكمة بين الأفكار وأهلها، هي قيم الحرية والاحترام والنقد والتمحيص.

أما المنع والقمع والحضر، فإنها ممارسات، تميت الحياة الفكرية والثقافية، وتؤدي إلى غرس بذور أمراض خطيرة ومزمنة في حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ومن الضروري في هذا الإطار، أن نتجاوز حالة الرهاب التي قد تصيبنا أوتصيب بعض مكوناتنا من الفكر الآخر ووسائطه الثقافية المختلفة. فالرهاب من الفكر الآخر، لا ينتج إلا منطق المنع والإقصاء وإطلاق الحروب على الفكر الآخر. أما الحرية والانفتاح والتواصل، مع الفكر الآخر، فهويثري الساحة، ويهذب الأفكار ويطورها، ويحول دون عسكرة الحياة الثقافية والعلمية.

فالفكر الآخر لا يخاف منه، وإنما ينبغي الحوار معه، والانفتاح على قضاياه،

والتواصل مع مبانيه ومرتكزاته، حتى نتمكن من استيعابه والحؤول دون تطرفه واندفاعه نحوالدهاليز المظلمة، التي تحوله من فكر إلى حقائق بشرية، تمارس التشدد والتطرف على قاعدة أن أفكارها لم يسمح لها بالوجود بالوسائل السلمية والحضارية.

فلكي لا ينزلق المجتمع صوب التطرف، نحن أحوج ما نكون إلى قيمة الانفتاح والحوار مع الفكر الآخر بعيدا عن الرهاب ونزعات الإقصاء والنبذ.

وتعلمنا تجربة الرسول الأكرم ﷺ أن صعوبات الطريق ورفض ومعاندة بعض الناس في المجتمع لمشروع ما أولفكرة ما، ينبغي أن لا يدفع الدعاة إلى مخاصمة مجتمعاتهم والتعالي على قضاياهم. فالرسول ﷺ واجه مصاعب شتى من مجتمعه، ولكن هذه الصعوبات لم تغير من إصرار الرسول ﷺ على تبليغ دعوته وإنارة الطريق لأبناء مجتمعه. فالإنسان الذي يحمل مشعل الدعوة ينبغي أن لا يتوقف عن مشروع دعوته مهما كانت المثبطات والصعوبات. فأخلاق الرسول ﷺ وصدقه وأمانته ومناقبياته الأخلاقية الأخرى، هي التي جعلت للرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها حضور فاعل في كل قضايا مجتمعه وأمته.

ومن خلال هذا الحضور والمشاركة التي تستهدف دائما تعميم الخير وصناعته في أرجاء المجتمع، أضحى له ﷺ مكانة مرموقة لدى المجتمع المكي وأضحى مهابا وأطلقوا عليه من شدة إعجابهم بسيرته وسلوكه بالأمين والصادق لسموروحه، وتعاليه القيمي والأخلاقي على أخطاء مجتمعه وإساءاتهم إليه.

إدارة التنوع الإنساني:

ثمة حقيقة إنسانية ثابتة وراسخة في الوجود الإنساني. وهي أنهم متنوعون ومتعددون، ولا يمكن أن يكون الإنسان نسخة كاملة من الإنسان الآخر. فالباري عز وجل خلق الإنسان وأوجد فيه هذه الجبلة الإنسانية.

وأي سعي لتجاوز هذه الجبلة الإنسانية أومخاصمتها، فإنه (أي السعي) لا ينتج إلا المزيد من الاستبداد وكل متوالياته الكارثية.

ولكن هذا التعدد والتنوع الإنساني في القناعات والميولات والأهواء والأولويات، ليس مدعاة للفوضى أوالانعزال والانكفاء عن الجماعات الإنسانية. فالناموس الرباني الذي أودع في كل إنسان قابلية الاختلاف وحقائق التنوع على المستوى العقلي

والنفسي، هوذاته الذي دعانا جميعا إلى بناء حياة إنسانية مشتركة قائمة على هذه الحقائق وصياغة أنظمة اجتماعية وأخلاقية لا تمارس العسف بحق مقتضيات الجبلة الإنسانية.

فنحن جميعا كبشر مختلفون ومتنوعون، ولكن هذا الاختلاف والتنوع، لا يبرر لنا أن نعيش وحدنا أوننعزل عن محيطنا الاجتماعي أونهرب إلى الكهوف رافضين المساهمة في بناء حياة إنسانية واجتماعية على أسس متينة ومنسجمة ونواميس الخالق عز وجل في الوجود الإنساني.

فالمطلوب في هذا السياق هوإدراك إننا كبشر متنوعون، والله سبحانه وتعالى خلقنا على هذه الجبلة. ولكن في ذات الوقت جاءت التوجيهات الربانية لتدعونا إلى التعارف والانفتاح والتواصل مع الإنسان الآخر. إذ يقول تبارك وتعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [1].

فالآية القرآنية الكريمة، ترسي وتؤصل لمبدأ الكرامة الإنسانية الذاتية، وإن الفضل بين البشر ليس وليد شكل الإنسان أولونه أوقومه، وإنما هووليد كسبه الذاتي الذي تشير إليه الآية القرآنية بأن (أكرمكم عند الله أتقاكم) فالتقوى ليست إرثا يحصل عليه الإنسان، كما أنها ليست صنوا لقوم معين أوجماعة بشرية محددة، وإنما هي قيمة أخلاقية وسلوكية يحصل عليها أي إنسان بصرف النظر عن قومه وبيئته، هذا إذا هذب نفسه وسيطر على شهواته وأهوائه. فالبشر يتفاضلون مع بعضهم البعض من جراء كسبهم الذاتي وليس لشيء آخر.

فالتنوع الإنساني حقيقة راسخة في الوجود الإنساني، وجميع البشر تجاه هذه الحقيقة سواء. بمعنى لا يوجد عرق أفضل من عرق آخر، ولا يوجد شعب أفضل ذاتيا من شعب آخر. فالجميع متساوون ووسيلة التفاضل الوحيدة بين البشر هي وسيلة كسبية ومرهونة بقدرة كل فرد أومجتمع على بناء واقعه على أسس صلبة تمكنه من التقدم وحيازة الصفوف الأولى في السباق البشري.

وحتى لا يتحول التنوع الإنساني إلى سبب للفوضى أوالصراع المدمر بين

---

(١) القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية ١٣.

المجتمعات، هناك قيمتان مركزيتان تضبطان حقيقة التنوع وتديرها على أسس صحيحة، وهاتان القيمتان هما:

١- العدل: إن التنوع الإنساني بكل مستوياته، يتحول إلى مصدر للجمال والثراء المعرفي والأخلاقي، حينما يدار وفق قيمة العدل. فالاختلافات الإنسانية لا تشرع لأي أحد للافتئات على أخيه الإنسان.

وإنما الاختلاف ينبغي أن يدار ويضبط بقيمة العدالة ومقتضياتها الأخلاقية والسلوكية. لذلك يقول تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هوأقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) [1].

وجاء في تفسير هذه الآية أن العدل شعار الإسلام في الحياة. وينطلق القرآن في التأكيد عليه في بناء شخصية الإنسان المسلم بمختلف الأساليب، من أجل إلغاء كل النوازع والأفكار والمشاعر المنحرفة من تكوينه الذاتي، لئلا تحول بينه وبين الانسجام مع حركة الخط المستقيم في الحياة.

فتعالوا جميعا من مختلف مواقعنا الفكرية والاجتماعية أن لا يخرجنا تباين قناعاتنا واختلاف مواقفنا في أي أمر أوموضوع عن العدالة ومقتضياتها. لأننا جميعا مأمورون بالالتزام بالعدالة، وأن لا تكون اختلافاتنا المبرر الأخلاقي لعدم الالتزام بالأمر الرباني. فالله سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين وأمرنا بالعدالة في القول والفعل.

وأعتقد أن الكثير من المشكلات القائمة بين المختلفين سواء كانوا أفرادا أوجماعات هومن جراء عدم الالتزام بمقتضيات العدالة. فالاختلاف مهما كان حجمه لا يشرع للظلم ونحن جميعا مطالبون بالالتزام بالعدالة.

٢- التعارف:

لكوننا على المستوى الإنساني، نعيش التنوع والتعدد بكل أشكاله، فإن المطلوب دائما ليس خلق الحواجز بيننا، وإنما فتح آفاق التعارف وإطلاق مشروعات للتواصل لكسر حاجز الجهل المتبادل وتطوير مستوى الفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات. فالتنوع الديني أوالمذهبي أوالقومي أوالأثني، لا يشرع لأحد الانغلاق والانزواء وبناء

---

(١) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية ٨.

مجتمعات خاصة مغلقة، وإنما هي مدعاة لنا جميعا للانفتاح والتواصل وتعزيز قيم التعارف.

ولا بد أن ندرك في هذا السياق: أن التعارف ليس هدفه إنهاء الاختلافات والتباينات، وإنما إدارتها على أسس مشتركة تضمن للجميع حقوقهم المادية والمعنوية. لهذا ومن منطلق قيمة العدالة والتعارف، فإننا نرفض كل أشكال التحريض بين المختلفين وندعوالجميع من موقع المحبة إلى الالتزام بمقتضيات العدالة والتعارف. والتحريض بكل أشكاله ضد العدالة والتعارف وهويؤسس لمناخات نفسية واجتماعية تدمر المشتركات وتطلق غرائز التدمير والحروب وتفكك أسس النسيج الاجتماعي.

لهذا كله: فإننا في الوقت الذي نقر فيه بحقيقة التعدد والتنوع الإنساني، وندرك أن هذا التنوع، سيقودنا لقناعات ومواقف مختلفة في شؤون الحياة المختلفة. ولكن هذا الاختلاف في القناعات والمواقف، ينبغي أن يحكم بقيمتي العدالة والتعارف، حتى نتمكن جميعا من صيانة استقرار مجتمعاتنا والحفاظ على أسس العيش المشترك أوالواحد.

والنبي الأعظم ﷺ في كل مراحل دعوته، لم يرذل التنوع والتعدد، وإنما تعامل معه باحترام. فهوامتدح الأنصار كما امتدح المهاجرين، وتعامل مع جميع أصحابه في كل الظروف والأحوال بعيدا عن أصولهم ومنابتهم الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية. فالجميع سواء أمام رسول الله ﷺ. فالمحسن يجازى على إحسانه، والمسيء يقوم لكي لا تتكرر الإساءة. بحيث تكون قيم الإسلام ومناقبياته الأخلاقية، هي الحاكمة لنظام العلاقة في داخل المجتمع الإسلامي التي أرسى دعائمه الرسول الأكرم ﷺ.

وتنقل كتب السير أنه (كان النبي ﷺ يختار من يقدر على أداء دور ما في نشر الرسالة كالقدرة على البيان والاقناع، ومن أسس الاختيار التنوع القبلي، والغاية من التنوع هومد جذور الرسالة إلى كل القبائل لإبعاد المجتمع عن الصراعات القبلية وخلق حالة الموازنة بين كل العشائر، وهي حالة مطلوبة في تلك الفترة من العصر القبلي. فاختار الرسول ﷺ من كل قبيلة اثنين وثلاثة ليعتنقوا الإسلام، من بني هاشم ومن عبد شمس ومن نوفل وتيم وأسد بن عبد العزى وعدي وأمية وزهرة وعبد الدار

ومخزوم وعامر والحارث بن فهر وجمح وسهم، بالإضافة إلى العبيد الذين آمنوا) [1].

لذلك فإن المجتمع الذي أسسه الرسول الأكرم ﷺ هومجتمع متنوع أفقيا وعموديا، وتبقى قيم الإسلام هي حاضنة الجميع وصانعة المساواة بين الجميع.

في تفكيك ظاهرة الكراهية:

ثمة موجات عنفية خطيرة، تجتاح بعض الدول العربية حيث القتل العشوائي اليومي، والذي يذهب ضحيته العشرات من الأبرياء،وتزيد هذه الموجات العنفية من أزمات وصعوبات الحياة. حيث لا تكتفي هذه الموجات بقتل البشر،وإنما أيضا تقوم بتدمير البنى التحتية للمدن،وتنهي كل أسباب الحياة الطبيعية في المناطق التي تقتل وتفجر فيها. والذي يزيد من خطر هذه الموجات العنفية،هوإنها تتغذى من مقولات دينية تبرر عمليات القتل والتفجير، وتساهم في خلق موجة من الكراهية بين الناس والمواطنين لأسباب دينية ومذهبية وقومية،مما يزيد من مخاطر عمليات القتل والتفجير، ويدخل هذه البلدان في أتون العنف والعنف المضاد،والكراهية المتبادلة. لذلك فإن العمل على تفكيك خطاب الكراهية ومقولاته المتعددة،يعد اليوم من الضرورات القصوى لأمن واستقرار المنطقة. وفي سياق العمل على تفكيك هذا الخطاب من الضروري القول: أن ثمة أفكار وقناعات عديدة حين التفكير في الإجابة على السؤال المتعلق بطبيعة ظاهرة الكراهية في المجتمعات الإنسانية. لأن الإجابة السريعة تقول: أن الكراهية بين الناس تتم لأسباب دينية أومذهبية أوقومية، لذلك فهي ظاهرة دينية – ثقافية، ولا دخل للسياسي في إنتاج ظاهرة الكراهية.

ولكن حين التأمل في هذه الظاهرة المعقدة والمركبة، نجد أن جوهرها العميق جوهرا سياسيا. بمعنى أن ممارسة الكراهية تتم لأغراض سياسية دنيوية، بحيث يسعى الطرف الممارس إلى إزاحة الطرف الآخر أوالأطراف الأخرى عن طريقه من أجل غايات سياسية بحتة. ولأن النخب السياسية السائدة تعتمد باستمرار في إدارة شعبها على قوتين أساسيتين وهما: القوة الخشنة – الصلبة عبر وسائلها المباشرة وقدراتها الصلبة. والقوة الناعمة التي تستدعي خطابات دينية وثقافية وإعلامية، تغطي ممارسة

---

(١) محسن الموسوي، دولة الرسول، ص ٨٥، دار البيان العربي، بيروت ١٩٩٠م.

صانع الكراهية، وتبرر له نهجه الفئوي والعصبوي. ومن المؤكد في هذا السياق أن الدين كمؤسسة ومقولات أيدلوجية، يستخدم في تبرير عملية النبذ والطرد، الذي من متوالياته ومقتضياته بث الكراهية بين المواطنين لأسباب دينية أوقومية.

ولكن لوغاب الانحياز الديني أوالقومي الذي يمارس لأغراض سياسية دنيوية، لما برزت حالة الكراهية بين المواطنين لعناوين دينية أوقومية.

ولكن الإرادة السياسية والخيار السياسي، هوالذي يوقظ الخصوصيات على نحوسلبي، فينتج من جراء ذلك التباغض والكراهية بين المواطنين. لأن جميع المواطنين بدأت تتلمس حقيقة أن انتماءها الديني أوالمذهبي أوالقومي له مدخلية أساسية في نيل حقوق المواطنة الكاملة أومنعها عنه. فلذلك تنموالحساسيات بين المواطنين، والتي تنتهي بحالة من الجفاء المستحكم. لأن الطرف الممارس للكراهية، حصل على الخيرات لاعتبارات غير كسبية لا دخل له فيها، لذلك سيستميت هذا الإنسان إلا ما ندر لإبقاء هذه الامتيازات القائمة في جوهرها لأسباب سياسية ودنيوية لا دخل للمقولات الدينية الجوهرية فيها.

وفي المقابل فإن الطرف أوالمكون المطرود من نيل حقوقه لاعتبارات لا دخل له فيها في الغالب سيندفع من الناحية السيولوجية للتشبث بخصوصياته وسيرفع مظلوميته وسيطالب بإنصافه وجماعته الدينية أوالمذهبية أوالقومية.

من هنا فإن تفكيك هذه الآفة الخطيرة، وإنهاء موجباتها وأسبابها المباشرة وغير المباشرة، يقتضي العمل على تنقية الراهن وبناء العلاقة بين أهل الوطن الواحد ومنظومة الحقوق والواجبات على قاعدة المواطنة الجامعة. بحيث لا يكون كرهي لأحد (لا سمح الله) سبب لحرمانه من حقوقه الطبيعية والأساسية، كما لا يكون حبي لأحد هوالدافع لمنحه امتيازات تتجاوز حقوقه الطبيعية. وهذا يتطلب من جميع الدول العربية والإسلامية العمل من أجل التالي:

١- سيادة القانون ورفض اختراقه أوتجاوزه، بحيث يكون التعامل مع جميع المواطنين بصرف النظر عن انتماءاتهم ومنابتهم وأصولهم على حد سواء فللجميع كامل الحقوق وعليه كامل الواجبات.

فكل المجتمعات الإنسانية تعيش حقيقة التعددية والتنوع بكل أبعاده وآفاقه،

وبعضها دخلت هذه التنوعات في حقبة من حقب الزمن في صراعات وصدامات دموية، ولكن الجميع لم يتمكن من تفكيك ظاهرة الصدام الدموي بين حقائق التنوع، إلا ببناء منظومة قانونية متكاملة، تكون هي مرجعية الجميع، وتضمن حق الجميع بدون افتئات على احد لأي سبب من الأسباب، ولا تكفي هذه المجتمعات ببناء مرجعية قانونية، وإنما تعمل بكل إخلاص لكي يكون لهذه المرجعية سيادة وحاكمية على الجميع. لذلك فإن سيادة القانون، هوأحد المداخل الأساسية لبناء علاقات سوية وإيجابية بين جميع تعبيرات الوطن والأمة.

٢- إعادة بناء رؤية وموقف حضاريين من أحداث التاريخ ورجاله. لأن الكثير من الموضوعات التي تثير الكراهية بين المسلمين تعود إلى التاريخ. ونحن جميعا لا نتحمل مسؤولية ما جرى في التاريخ. رجال تلك الحقبة هم وحدهم من يتحمل مسؤولية ما جرى في راهنهم. لذلك آن الأوان بالنسبة لنا جميعا ومن مختلف مواقعنا أن نتحرر من عبء التاريخ، ونبني علاقاتنا وفق معطيات راهننا ومستلزمات استقرارنا الاجتماعي والسياسي.

٣- تطوير نظام الشراكة العامة على قاعدة المواطنة الجامعة واحترام الخصوصيات الثقافية والمجتمعية، دون تحويلها إلى مبرر للانكفاء والانعزال.

ومن الضروري في هذا السياق أن نفرق بين مرحلتين في التجربة العربية. المرحلة الأولى هي ما قبل الموجة الأصولية التي اجتاحت المنطقة العربية بعد انتصار الثورة في إيران وحقبة الجهاد في أفغانستان، وهي موجة ساهمت بطريقة أوبأخرى في إشعار الجميع وعلى نحوعدائي في حدوده الدنيا بين الذات والآخر قاعدة الهوية الضيقة التي يحملها الإنسان ووجوده الاجتماعي، وفي هذه المرحلة ازداد منسوب الخصومة والكراهية بين المختلفين والمغايرين من جراء الخوف المتبادل والتباين في المواقف والنظرات على أحداث وتطورات المنطقة.

فالموجة الأصولية ساهمت في بناء الحدود بين الناس على قاعدة الهوية الدينية أوالمذهبية، لذلك تراجعت حقائق التسامح وازدادت صور الإحن بين الناس على قاعدة دينية أومذهبية.

أما مرحلة ما قبل الموجة الأصولية فكانت العلاقة قائمة في أغلبها على الود

والتسامح والتدين الشعبي الذي يسمح بالاختلاف ويتعامل مع تجلياته بروح المحبة والمودة، وإن كانت هناك نوازع كراهية كامنة في النفوس والعقول.

لذلك ثمة قناعة عميقة على هذا الصعيد، وهي أن إنهاء موجة الكراهية الدينية والمذهبية والقومية التي تجتاح المنطقة اليوم ولأسباب سياسية تتغذى من خطاب ديني متشدد أومقولات مذهبية متعصبة، لا يتم إلا بالعودة إلى التدين الشعبي الذي لا يحمل خوفا من وعلى المرأة، ولا يدعوإلى المفاصلة الشعورية والعملية بين المختلفين وتبرز في ثناياه مضامين إنسانية رائعة تتجاوز التباينات التاريخية والفروقات المذهبية لصالح متحد اجتماعي قائم على المعايشة والتواصل والصحبة الإنسانية.

فحينما تزداد وتيرة الخلافات والتشظيات الداخلية والأهلية في أي بيئة اجتماعية، تتعاظم فرص دخول الأجنبي وتدخلاته المريبة. لأن الأجنبي بكل مخططاته ومشروعاته، لا يمكن له الدخول إلا في ظل بيئة منقسمة أفقيا وعموديا. بحيث تبقى الساحة الداخلية مكشوفة لكل الإرادات الدولية.

والرسول الأكرم ﷺ واجه هذه المشكلة حينما قدم إلى يثرب، حيث أن الهيمنة اليهودية على أهل هذه المدينة ومقدراتها واقتصادها، يعودا إلى الصراعات المحتدمة بين الأوس والخزرج. فهذا الصراع بكل متوالياته الاقتصادية والأمنية والاجتماعية، هوالذي يديم سيطرة اليهود على مصائر هذه المدينة وشعبها. لذلك فإن من المهام الأولى التي قام بها الرسول ﷺ هي تجسير العلاقة بين الأوس والخزرج وإنهاء كل أسباب وموجبات الاحتراب بينهما. وعبر بناء حقائق التفاهم والوحدة بينهما، تفككت السيطرة اليهودية على يثرب.

من هنا نستطيع القول: أن الوحدة الوطنية والاجتماعية هي من الضرورات القصوى في كل البيئات والتجارب. وإن المهمة الملقاة على عاتق أهل المعرفة والوعي هي العمل على تصليب الوحدة الداخلية لمجتمعاتنا وأوطاننا. وإنه مهما كانت المعيقات والكوابح، من الضروري أن نبقى متمسكين بخيار وحدة مجتمعاتنا وأوطاننا، لأنه في تفتتها الداخلي ضياع لكل الحقوق وانهيار لكل المكاسب، ودخول الجميع في أتون الاحتراب العبثي. ولا يمكن أن ننهي ظاهرة الاحتراب بين مكونات الشعب والوطن الواحد، إلا ببناء دولة عادلة وعبرة عن الجميع. فالدولة العادلة هي وحدها القادرة

على إيقاف حالة الانحدار التي قد تصيب مجتمعاتنا على صعيد علاقاتها الداخلية.
ولعل من أهم الأسباب التي ساهمت في تعميق حالة الانشقاق الأهلي على أساس طائفي أومذهبي أوقومي، هووجود دولة ظالمة ومستبدة وذات قاعدة اجتماعية ضيقة، تمارس الطرد والنبذ لأكثر المكونات والتعبيرات وتمنع كل الحقوق والمسؤوليات لفئة اجتماعية ضيقة. فالدولة حينما تكون دولة البعض، فإنها ستكون صانعة للفروقات بين أهل الوطن الواحد. لذلك لا خيار للخروج من هذه المآزق إلا ببناء دولة دستورية عادلة، تتعامل مع جميع المواطنين على حد سواء ووفق منظومة الحقوق والواجبات المتعلقة بمفهوم المواطنة الجامعة.

فالرسول الأكرم ﷺ لم يعالج ظاهرة الاحتراب بين الأوس والخزرج بالموعظة الأخلاقية فحسب، بل ببناء نظام متكامل في المدينة المنورة، يرعى حقوق الجميع، وينهي كل موجبات الاحتراب في الاجتماع الإسلامي، ولعل خطوة المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، هي التي أرست دعائم الوحدة بين المسلمين على قاعدة الأخوة المفتوحة على كل قيم الإيثار والتضحية والمحبة.

ولعل في واقعة المؤاخاة درس لكل التجارب الوطنية والاجتماعية الجديدة، إلى تبني سياسات الصفح والمصالحة، والبعد عن نزعات الثأر والانتقام. لأن هذه النزعات الأخيرة لا تبني أوطانا ولا تحافظ على وحدة مجتمعات. لذلك فإن السياسة الضرورية في لحظات التحول والانتقال السياسي والديمقراطي، هوتبني خيار المصالحة الوطنية. وبدون هذا الخيار لن نتمكن من بناء مجتمع جديد ووطن جديد. لأن الانتقام سيقود إلى ممارسة العنف وهذا بدوره يستدعي عنفا مثله، مما يدخل الجميع في أتون العنف. وهذا يفضي إلى تدمير وتخريب النسيج الوطني والاجتماعي.

من هنا وانطلاقا من تجربة الرسول الأكرم ﷺ في بناء دولة المدينة، إننا بحاجة إلى التعالي على الجراح وتجاوز حالة الانتقام، لأن هذا التعالي والتجاوز هوسبيلنا للخروج من نفق المرحلة السابقة بكل صعوباتها ومآسيها، والانفتاح بعقولنا وقلوبنا صوب بناء أوطاننا على أسس الوئام والتآلف والحؤول دون إنتاج نظام الاستبداد والاستئثار من جديد.

حقائق الألفة:

حين نتحدث عن مكونات مجتمعاتنا العربية والإسلامية المذهبية والقومية، فإننا لا ندعوإلى تكريس الفروقات المذهبية والقومية بين العرب والمسلمين، وإنما ندعوإلى إطلاق حالة من التعارف العميق بين مكونات الأمة وتعبيرات أوطانها.

والذي يؤكد هذه القناعة، هوإننا لا نتحدث عن الشيعة أوالسنة أوأي مذهب إسلامي، بوصفه مجموعة من العقائد والخصوصيات، وإنما بوصفهم جماعة بشرية يشكلون حقيقة اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية، يؤثرون في الواقع العام، كما يتأثرون به.

من خلال هذه الرؤية نحن نتحدث عن تعبيرات الأمة المتعددة. وفي هذا السياق ثمة رؤيتان وهما:

رؤية تتبنى خيار المزيد من إبراز الهوية المذهبية والقومية بكل تعبيراتهما وشعائرهما وطقوسهما، حتى لوأثارت بعض هذه التعبيرات الهواجس والمخاوف لدى شريك الوطن أوالآخر المذهبي والقومي. وبين رؤية أخرى تقول أن المجتمعات العربية والإسلامية بكل مكوناتها المذهبية والقومية، لا تحتاج في هذه اللحظة إلى إبراز هوياتها المذهبية المتصارعة - المتحاربة والمتوجسة من بعضها البعض، بل هي بحاجة إلى بناء جسور الثقة بين مكوناتها، وإطلاق مبادرات للفهم والتفاهم والحوار والتواصل والتعايش بين جميع تعبيراتها وأطيافها.

وإن بناء الثقة يتطلب إبراز المشتركات وتنميتها، وصياغة السياسات والأولويات على هدى هذه الجوامع والمشتركات.

وإن الاستغراق في مسائل التباين المذهبي والقومي بين أهل الوطن الواحد، سيفضي إلى المزيد من التآكل الداخلي الذي لا يربح إلا خصوم الأمة والعرب والمسلمين.

وفي سياق تظهير هذه القناعة المركزية، نود التأكيد على النقاط التالية:

١ - إن المسلمين بكل مذاهبهم ومدارسهم الفقهية وقومياتهم وأعراقهم، هم جزء أصيل من الأمة الإسلامية، وإن مستقبلهم، ليس منفصلا عن مستقبل الأمة الإسلامية.

وإن طبيعة الظروف والتحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية سواء الداخلية

أوالخارجية، تتطلب بناء رؤية وصياغة إستراتيجية تمكن هذه المجتمعات بكل نخبها ومؤسساتها العامة من مواجهة هذه التحديات.

٢- إن المستقبل السياسي والثقافي والاجتماعي للمسلمين جميعا، مرهون بقدرة المجتمعات الإسلامية بكل أطيافها من تطوير علاقتها الداخلية بين مختلف تعبيراتها ومؤسساتها الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية. لأن الكثير من الجهود والطاقات تصرف في صراعات وتباينات أقل ما يقال عنها أنها لا تخدم راهن هذه المجتمعات ومستقبلها، وإنما تضره وتدفعه نحوخيارات تصرف هذه المجتمعات بكل قواها ومؤسساتها عن القضايا الكبرى والأهداف العليا لهذه المجتمعات والأمة جمعاء.

٣- في كل حقب ومراحل تطور وتقدم هذه المجتمعات، هي بحاجة إلى مؤسسات للرعاية والحماية الاجتماعية، التي تحتضن الحلقات الضعيفة في المجتمع، وتوفر مؤسسات جادة للتنشئة والتربية والتدريب، وبناء الأطر الاجتماعية والخيرية والتطوعية التي تستوعب طاقات الشباب وتوفر الخدمة على مستويات مهنية راقية لكل المحتاجين والمعوزين.

فالمجتمعات لا تصمد في معاركها وتحدياتها المختلفة فترة زمنية طويلة، بدون مؤسسات الرعاية والحماية.

وفي هذا السياق ندعوالمؤسسات والأطر الدينية والاجتماعية المختلفة، للاهتمام الجدي بهذه المسألة، ودعم وتشجيع الجهات والفعاليات الصالحة في المجتمع للقيام بهذه المهمة الحيوية والهامة في كل مجتمعاتنا ومناطقنا.

فمعركة مجتمعاتنا ليست معركة سياسية أوثقافية فحسب، وإنما هي أيضا معركة اجتماعية لمحاربة الفقر برعاية مؤسسة للفقراء والتخطيط المستمر والدائم لإنهاء كل موجباته (الفقر) من مجتمعاتنا. كما إننا بحاجة أن نقدم حلولا عملية لمواجهة كل الصعوبات المعيشية والحياتية التي تواجه مجتمعاتنا وبالخصوص الفئات والشرائح الضعيفة فيها. ودائما تبقى قوتنا في التزامنا الأخلاقي والقيمي.

٤- من الضروري أن ندرك أن إنهاء أزمات وجودنا، مرهون بقدرة مجتمعاتنا العربية والإسلامية على التحرر من ربقة الاستبداد، وتعزيز الحياة الدستورية والديمقراطية وقيام دولة المواطنين التي لا تفرق لاعتبارات دينية أومذهبية أوعرقية بين مواطن

وآخر.

فخلاصنا في كل مجتمعاتنا من مشكلاتنا السياسية والأمنية والاقتصادية، يعتمد على قدرتنا مع شركائنا في الوطن، على بناء دولة مدنية عادلة تستوعب جميع الأطياف وتكون تعبيرا أمينا عن مكونات شعبها ومصالحه الحيوية. فلا خلاص لنا بمعزل عن إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية العامة في مجتمعاتنا ودولنا.

ومما يذكر المؤرخون أن يهوديا كان له على رسول الله ﷺ دنانير فتقاضاه فقال له يا يهودي ما عندي ما أعطيك، فقال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تقضيني، فقال: إذاً أجلس معك، فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتهددونه ويتواعدونه فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: ما الذي تصنعون به، قالوا يا رسول الله يهودي يحبسك، فقال ﷺ لم يبعثنِ ربي عز وجل بأن أظلم معاهدا ولا غيره. فلما علا النهار قال اليهودي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وشطر ماله في سبيل الله. أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإني قرأت نعتك في التوراة محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا متزين بالفحش ولا قول الخناء وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسوله وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله وكان كثير المال.[1].

لهذا فإننا نعتقد أن إنهاء حالة التباين والخلافات بين توجهات الأمة وأطيافها، يقتضي العمل على بناء حقائق الاتحاد والألفة بين هذه التوجهات والأطياف. لهذا فإنه لا يكفي أن نتحدث عن الألفة والوحدة، وإنما من الضروري العمل على بناء معطيات وحقائق للألفة والوحدة في الفضاء الاجتماعي.

وعلى كل حال ما نود أن نقوله في هذا السياق، أن العلاقات الداخلية بين تعبيرات وأطياف ومؤسسات المجتمعات الإسلامية تحتاج إلى مبادرات وخطوات جادة من الجميع لتحسين العلاقة وتطويرها. وإن استمرار حالة الجفاء والتباعد وسوء الظن والفهم وغياب التنسيق والتعاون يفضي إلى نتائج سلبية على عموم الواقع الإسلامي.

---

(١) الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، جزء ١٦، ص ٢١٦، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٣م.

وهذا بطبيعة الحال،يتطلب من جميع الأطراف، وبالذات في ظل هذه الظروف الحساسة، العمل الجاد من أجل وأد كل محاولات الفتنة بين العرب والمسلمين،وبناء حقائق ومعطيات يحس بها الجميع وتعزز قيم الإخاء والألفة بين المسلمين بكل تعبيراتهم وحقائقهم المجتمعية. لهذا فإن المطلوب من الجميع،ليس رفع الصوت للمطالبة بالألفة بين المسلمين فحسب،بل بناء حقائق التآخي والألفة في واقعهم الحياتي بكل أبعاده ومستوياته.

التربية على التفاهم والوحدة:

حينما تتصاعد سحب الفتن المتنقلة،ويستسهل الجميع بقيمة الوئام والتعايش والمحافظة على مقتضيات الوحدة بين العرب والمسلمين،تتأكد الحاجة إلى قيم التفاهم والوحدة. فسحب الفتن ينبغي أن لا تدفعنا بوعي أوبدون وعي،للانخراط في مشروع تمزيق الأمة وتجزئة أوطاننا ومجتمعاتنا. وإنما أمام هذه الفتن والصعوبات والمآزق التي تتعرض إليها تجربة العلاقة الداخلية بين مكونات مجتمعاتنا العربية والإسلامية، تتعزز الحاجة إلى ضرورة العمل المتواصل لوقف الانحدار، وتوفير كل أسباب إفشال هذا النسق التمزيقي، والذي يتغذى على الكثير من المقولات والممارسات. من هنا فإن التربية على التفاهم والتعايش وصولا إلى الوحدة، تعتبر من ضرورات المرحلة، وأحد الروافع الأساسية للخروج من مآلات التطورات السلبية التي تجري على أكثر من صعيد في المنطقة العربية والإسلامية.

والحديث عن الوحدة في مستوياتها المتعددة، لا يعني الحديث عن كليات أوقوالب فكرية جاهزة، وإنما هوحديث عن مسار اجتماعي وسياسي وحضاري، يتجه بقوة ويندفع بحماس إلى التشكل وفق السياقات الإسلامية الحضارية.

ولوتأملنا في النصوص الإسلامية التأسيسية نجد أن الباري عز وجل قرن وحدة الأمة بعقيدة التوحيد. إذ قال تعالى {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}. فالانحراف في العقيدة يفضي إلى الانحراف في إدراك مفهوم الأمة. فالوحدة كمفهوم مجتمعي وسياسي بحاجة دائماً إلى عقيدة سليمة وحية في حالة الوعي والسلوك. لذلك نجد أن هناك علاقة وطيدة بين مفهوم الوسطية ومفهوم الوحدة. إذ أن التطرف

بكل صوره وأشكاله لا يصنع وحدة، وإنما يؤسس لكل عوامل التمزق والتفتت والتجزئة. ويشير إلى هذه المسألة الشيخ محمد مهدي شمس الدين بقوله: «والأمر في وسطية الأمة كالأمر في وحدتها سواء. فالوسطية هي تعبير عن توازن عام وشامل في علاقات الإنسان بمحيطه وبالعالم على مستوى الوعي وعلى مستوى السلوك، وهذا التوازن مرتبط موضوعياً بعقيدة التوحيد من جهة وبوحدة الأمة من جهة أخرى. وعقيدة التوحيد هي المعيار الذي يحكم حالة التوازن، وأي خلل فيها يحدث خللاً عند الإنسان في وعي موقعه من المجتمع والعالم، ومن ثم يختل التوازن في العلاقات بينه وبين محيطه فتنعدم الوسطية»[1]، والآية الأساس في الوسطية هي قوله تعالى {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}.

ومن خلال العديد من التجارب العربية والأجنبية، نرى أن استخدام القوة والقسر والفرض، لا يؤدي إلى الوحدة الحقيقية بين الشعب الواحد أوالشعوب المختلفة. وذلك لأن استخدام القوة، لا يفضي في هذا الإطار، إلا إلى المزيد من اكتناز المشروع الذاتي أوالخاص، ويتحين أصحابه الفرصة السانحة لإنهاء الوحدة المفروضة بقوة الحديد والنار. فالقوة التي استخدمت لإنجاز الوحدة بين شعوب الاتحاد اليوغسلافي السابق، لم تنه الطموحات الذاتية لدى الشعوب، التي استغلت ونهبت ثرواتها وخيراتها تحت يافطة الوحدة بين شعوب الاتحاد. وإنما جعلتها كامنة ومضمرة، ومع الزمن والقسوة التي استخدمت من قبل أجهزة السلطة اليوغسلافية، تبلورت ونضجت وانتظرت الفرصة المؤاتية للخروج من هذا القيد والأسر. فالوحدة بين الوجودات الاجتماعية والكيانات البشرية، لا يمكن أن تنجز بالفرض والقوة، وأي وحدة تنجز بهذا السبيل فإن مآلها الأخير هوالفشل والتشظي والهروب من كل الأشكال الوحدوية والارتماء في أحضان المشروعات الذاتية الضيقة، كوسيلة من وسائل الدفاع عن الذات لتقليل بعض أخطار الوحدة التي فرضت بالقسر والقوة.

وذلك لأن الوحدات الاجتماعية، التي تفرض بقوة الحديد والنار، تقضي باستخدامها القوة، على كل القيم والمبادئ الضامنة لمشروع التوحيد والوحدة والحافظة على

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، دراسات ومواقف في الدين والسياسة والمجتمع، الجزء الثاني، ص ٩١، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١م.

الأخلاقية المطلوبة في هذا الإطار. فالقوة والعسف من وسائل الافتراق بين البشر والكيانات الإنسانية، واستخدامها من أجل التوحيد والجمع لا يؤدي إلا إلى المزيد من التفتت والتشرذم والتشظي. لأنها تزيد النفوس ابتعاداً عن بعضها، وتنفر العقول من البحث عن المشترك ووسائل التعايش والوحدة وتهيئ الأوضاع والظروف للهروب من كل مقتضيات الوحدة ومتطلباتها الاستراتيجية. فالتجارب الإنسانية جميعها، تقف بقوة ضد كل المشروعات الوحدوية التي تبنى بالقسر والعسف والإرهاب، لأن مردوداتها السلبية والعكسية خطيرة وآثارها البعيدة تزيد من عوامل التفتت والاحتماء بالمشروعات الضيقة، التي تزيد الناس انغلاقاً وتعصباً وبعداً عن أخلاق الوحدة وثقافة التعايش والمشترك الإنساني.

من هنا لابد من القول: أن النواة الأولى لتحقيق مشروع الوحدة العربية والإسلامية، هي تعميق جميع القيم والمبادئ الإنسانية والحضارية، وفسح المجال لجميع المؤسسات والأطر، التي تأخذ على عاتقها نشر قيم احترام التعدد والتنوع، ونسبية الحقيقة والتسامح. لأنه في مثل هذه الأجواء، تتبلور قيم الوحدة الحقيقية وسبلها الحضارية. وبدون هذا العمل سيبقى شعار الوحدة العربية شعاراً أجوفَ، يثير خوف الآخرين، ويزيد من هواجسهم الأمنية والسياسية، ولكن بدون أن يتحول هذا الشعار إلى حقائق ووقائع تملأ كل أوطان العرب وبلدانهم.

الوحدة العربية والإسلامية تتطلب من كل مواطن عربي ومسلم، أن يبدأ من واقعه ومحيطه في غرس حقائق ووقائع الاتحاد، حتى تنموهذه الحقائق، وتزداد هذه الوقائع، حتى نصل إلى مستوى أن تكون الوحدة حقيقة فعلية قائمة، وليست شعاراً يتغنى به الإنسان ويحلم به، دون أن يكون له نصيب من وقائع العرب وحقائق عصرهم الراهن. والوحدة في المنظور الإسلامي هي جزء من العقيدة والمنظومة القيمية، لذلك لا فصل بين هذا المفهوم وبقية المفاهيم والقيم الإسلامية. فالإسلام هونظرية الحياة، والحياة هي تطبيق النظرية، والأمة هي مجال التطبيق وأداته. وإذا تعمقنا أكثر في الفكر الإسلامي فسنجد أن وحدة الأمة هي أحد مظاهر الوحدة العام في الكون التي تستبطن وحدة الحياة والطبيعة، وهي تستبطن وحدة الجنس البشري. فالوحدة على مستوى الأمة ليست هدفاً عاطفياً أومصلحياً سياسياً، وإنما هي أساس في تكوين الإسلام

عقيدة وفكراً ومجتمعاً وحضارة، وحينما ينحسر الوعي بالتوحيد، أوتنقطع العلاقة بين عقيدة التوحيد، وبين وعي الإنسان بذاته ومجتمعه. تقع التجزئة. والمطلوب الدائم في كل المجتمعات العربية والإسلامية،هوالتربية على التفاهم وضبط التباينات،وبناء حقائق التعايش والوحدة في الفضاء الاجتماعي. وهذا لا يتحقق بالرغبات المجردة أوالخطابات الوعظية، وإنما بالعمل المتواصل، والإرادة المستديمة، والوعي العميق بضرورة هذا الخيار على مستوى راهن الأمة ومستقبلها.

الخاتمة

تعلمنا سيرة الرسول الأعظم ﷺ وتجربته في بناء الانسان المسلم والمجتمع المؤمن والدولة الإسلامية،على إن من لايحترم التنوع والتعدد في بيئته الاجتماعية والثقافية والسياسية،لن يتمكن من وحدة اجتماعية حقيقية وصلبة، لأنه ثمة علاقة عميقة بين حقائق التعدد والتنوع وحقيقة الوحدة الوطنية والاجتماعية. بمعنى لاسبيل لوحدة الأمم والمجتمعات على نحوحقيقي بدون احترام حقائق التعدد والتنوع في المجتمع والوطن.

ولعل الخطوة الأولى في مشروع تظهير العلاقة بين التعدد والوحدة، هوفي ضمان حق الاختلاف بين الإفراد والمكونات الاجتماعية والوطنية.

وكل هذه القيم بحاجة إلى تربية وتطوير قابلية استيعاب الناس لهذه القيم ومقتضياتها ومتطلباتها على المستويين الخاص والعام.

وتبقى سيرة الرسول الأعظم ﷺ هي الينبوع الذي لاينضب،التي ترفدنا بكل نماذج الحوار والوحدة التي تبنى على قاعدة احترام الاختلاف والتنوع الإنساني.

الرسول محمد ﷺ
حامل لواء العربية وفصاحتها

أ. م. د. مرتضى عباس فالح
كلية التربية للعلوم الانسانية - جامعة البصرة

أ. م. د. مرتضى عباس فالح
أستاذ في كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة البصرة

-المواليـد: ١٩٧٤
-المرتبة العلمية: أستاذ مساعد
-مكان العامل: قسم اللغة العربية - كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة البصرة.
-حاصل على الماجستير سنة ٢٠٠٢م
-حاصل على الدكتوراه سنة ٢٠٠٨م
-حاصل على مرتبة الاستاذ المساعد سنة ٢٠١١م
-مشارك في العديد من المؤتمرات العلمية في البصرة وغيرها من محافظات العراق
-له العديد من البحوث المنشورة والمقبولة للنشر فضلا عن البحوث المنجزة.

الحمد لله القائل في كتابه المجيد (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [1] والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد النبي العربي الأكرم محمد واله الطيبين الطاهرين الميامين. السلام على اللغة العربية التي قال فيها شاعر العربية من مصر «حافظ إبراهيم» عن لسانها اذ نعت حظها بين أهلها فمن ذلك [2]:

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً	وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامت	فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فلا تكلوني للزماني فإنني	أخاف عليكم أن تحين وفاتي
ابطر بكم من جانب الغرب ناعب	ينادي بوادي في ربيع حياتي
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً	يعز عليها أن تلين قناتي

إنَّ اللغة العربية هي إحدى أشهر اللغات السامية [3] فنشأت ونمت في ظروف شتى أغنت كتب اللغة في ذلك. فغدت بخصائص رائعة منها الإعراب ودقة التعبير بخصب المفردات والتراكيب وبالمعاني والدلالات [4].

ومما تقدم نقف في محاور متعددة على اثر الرسول ﷺ في نهضة اللغة العربية وتطويرها، كيف لا وهو القائل ﷺ: «أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه» [5] وهذا دليل عظيم فصاحة النبي وجليل معرفته باللغة العربية وإحاطته بدلالات ألفاظها، وفضلا عن ذلك يبرز لنا قول آخر للرسول المصطفى ﷺ: «أنا أعرب العرب، ولدتني قريش،...» [6]. وهذا يطلعنا على ما للرسول الأكرم ﷺ من دور كبير في الحفاظ على

(١) سورة يوسف: الآية ٢.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم: ٢١٠-٢١١.

(٣) ينظر: طرق تدريس اللغة العربية: ١٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٥-١٦.

(٥) كنز العمال: ١١/ ٤١٢.

(٦) المصدر نفسه: ١١/ ٤٠٢.

لغة القران الكريم وإثرائها بألفاظه ودلالاتها مما أسهم بشكل كبير جدا في نهضة العربية وتطويرها.

إن بحث الرسول محمد ﷺ حامل لواء العربية وفصاحتها، يقوم وفق ما يأتي:

المقدمة:

المحور الاول: في تعريف اللغة ووظيفتها.

المحور الثاني: اولا فصاحة النبي ﷺ ومعرفته باللهجات العربية.

ثانياً: خصائص الألفاظ النبوية.

الخاتمة: في تلخيص فكرة البحث.

المحور الاول

تعريف اللغة ووظيفتها

ما هي اللغة؟

هي وسيلة الاتصال بين الفرد وأبناء مجتمعه أوغيرهم [1]، وفضلاً عن ذلك فهي هوية الامة واعظم مقومات وجودها ومفاخرها، وهذا ما كان للغة العربية من مفهوم وروعة وعظمة [2]، وهذه العظمة جاءتها بدرجة عالية جداً كونها لغة كتاب الله العزيز (القران الكريم) فضلاً عن روعة معانيها المتشحة بأروع الالفاظ إفراداً وتركيباً والتي نجد اليوم الاساءة الكبيرة اليها من خلال وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة [3]بحجة تيسير استعمال الاعلاميين اوغيرهم، وهذا يوجب علينا أن نزيد ونؤصل من ارتباطنا باللغة العربية وان ننهل من معينها ونتغذى من ثمارها الدانية.

وتلك الثمار تمتدّ جذور شجرتها الى القول بانها إحدى اشهر اللغات السامية [4]فنشأت ونمت في ظروف شتَّى أغنت كتب اللغة في ذلك، فَغَدت بخصائص رائعة منها الاعراب ودقة التعبير بخصب المفردات والتراكيب وبالمعاني والدلالات [5].

---

(١) ينظر: طرق تدريس اللغة العربية: د. جودت الركابي: ٩

(٢) ينظر: نحو إتقان الكتابة العلمية باللغة العربية: د. مكي الحسني: ٨

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٠ – ١١.

(٤) ينظر: طرق تدريس اللغة العربية: ١٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٥-١٦.

واللغة ايضا هي قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز (إعتباطية) منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما.

قال (العقاد): «وقد قيل كثيرا: إنَّ اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن الكريم / وهوقول صحيح لا ريب فيه، ولكن القرآن الكريم إنمّا ابقى اللغة لأنَّ الاسلام دين الانسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب اوقبيل، وقد ماتت (العبرية) وهي لغة دينية أولغة كتاب يدين به قومه ويحسبون أنهم وحدهم المخصصون بالخطاب من عند الله، ولم تمت (العبرية) إلاّ لأنَّها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية، وتخرجها من حضيرة العصبية الضيّقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون.

إنَّ هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرّق بين العربي والأعجمي ولا بين القرشي والحبشي لهي التي أنهضت لخدمة اللغة أناساً من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية.

نعم فهي لغة المساواة لدين المساواة ولكتاب المساواة.

وظيفة اللغة:

إنَّ من أهم وسائل بيان أهمية اللغة ولا سيما اللغة العربية هوبيان جملة من وظائفها التي ساعدت على حيويتها وديمومة تلك الحيوية ومن ذلك [1]:

تُعدُّ اللغة عامة واللغة العربية خاصة وسيلة للتفاهم بين الافراد والجماعات.

اللغة العربية تساعد على ضبط التفكير بأستخدام الالفاظ الدلة على معانٍ محددة وفي ذلك قيل: التفكير كلام نفسي، والكلام تفكير جهدي.

إنَّ اللغة عموماً واللغة العربية خصوصاً تُعتَبَرُ من أهم الوسائل لنشر الثقافة الواعية والهادفة فضلاً عن أنها تنقل المعارف والحضارات بين الشعوب نفسها وبين غيرها.

ومن أهم وظائفها أيضاً أنْ تعرّف الشعوب غير العربية بهوية الشعوب العربية فضلاً عن الهوية العظمى وهي أنَّ اللغة العربية والفوائد والوظائف، ولعل إنشاء مجامع للغة العربية في مصر وسوريا دليل على أهمية اللغة العربية وسعة وظائفها للأنسانية جمعاء.

المحورالثاني

(١) ينظر: طرق تدريس اللغة العربية: ٩-١٠، ١٨.

اولاً فصاحة النبي ﷺ ومعرفته باللهجات العربية:

للفصاحة دورها الكبير في إغناء اللغة بالإقناع والتأثير في المتلقي وهذا واضح في كثير من النصوص ولا سيما في كتاب الله العزيز، إذ تأخذ المفردة القرآنية مكانها وهي بأنقى وأجود صور الفصاحة، وهذا واضح أيضاً لدى الرسول محمد ﷺ في أحاديثه الشريفة بل وفي بقية كلامه ﷺ.

إنَّ النبي ﷺ أسس مبادئ الفصاحة والبيان ممّا

ألهمه الله تعالى من العلم اللدنّي، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[1]ومن صور ذلك التأديب ما ألهمه تعالى نبيَّهُ من فصيح المعرفة والتدبّر والتأمل وفصيح إتقان اللغة، وقد قال ﷺ: «أعطيتُ فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه»[2].

إنَّ هذه النشأة في ظل الإلهام الرباني وما كان يعيشه ﷺ في أحضن جده عبدالمطلب ومن ثَمَّ عمه أبي طالب فضلاً عن قبيلته قريش وما كان يتعلمه ﷺ ويستفيدهحركة التجارة واللقاءات الادبية وما يكون من ميادين المعرفة والفكر، فكان للبيئة القرشية أثرها الواضح في فصاحة النبّي محمد ﷺ.

إنَّ قريش كانت ذات دور ومنزلة في انتقاء الالفاظ وحسن استعمالها وابراز لغتها على بقية لغات أولهجات العرب، وهذا ما اجتمع للهجة قريش من رفعة ومكانة عالية اكتسبتها من موقعها الجغرافي والتجاريّ وما لذلك من دور في التقاء الحضارات بلغاتها.

إنَّ الرسول ﷺ نشأ في تلك البيئة العربية الواسعة والتي أختصرت في بيئة قريش، فقد أشار النبّي ﷺ الى ذلك بقوله: «أنا أفصح العرب بيدَ أني من قريش»[3].

إنَّ ما تقدّم يوضّح الصفات الكمالية وما اكتسبه الرسول ﷺ من بيئته وغيرها لهودليل على عظمة الرسالة وصاحب الرسالة الذي أرسل للعالمين أجمعين.

مما تقدّم، فإنه ليس من الغريب أنْ يُكلمّ النبّي ﷺ كل قوم من العرب بلغتهم أولهجتهم، وهذا واضح وجلّي فيما قاله عمر بن الخطاب بقوله للرسول ﷺ: «ي

---

(١) كنز العمال: ١١/ ٤٠٦؛ وينظر: مجمع البيان: ١/ ٨٦.

(٢) كنز العمال: ١١/ ٤١٢.

(٣) الاختصاص: الشيخ المفيد: ١٨٧.

رسول الله إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه، ولنحن العرب حّقاً»[1].

إنَّ كلام العرب مشتمل على كثير من لهجات العرب، ومعرفة الرسول ﷺ بكلام العرب يُعتبر بمثابة الحفظ للهجات العرب وحفظ ذلك التراث، ومن أمثلة ذلك: ما أورده ابن الاثير للبنّي ﷺ قوله: «لا مانع لما أنطيت ولا منطي لما منعت»و«اليد المنطية خير من اليد السفلى»[2].

إنَّ هذه اللهجة يبرز فيها ظاهرة «الإستنطاء»وهي موجودة في لهجة قبائل هذيل، والأزد، وقيس، وهذه الظاهرة تجعل لعين الساكنة نوناً إذا جاوزت الطاء[3].

إنَّ الرسول ﷺ حينما يستعمل هذه اللهجة وغيرها، إنمّا ذلك لأجل التأثير في هذه القبائل وغيرهم في إيصال الرسالة الإسلامية، وحتى يساعد رواة تلك القبائل في إيصال الرسالة إلى غيرهم من القبائل وبلسانهم.

ثانياً مميزات الالفاظ النبوية:

من أهم ميزات وسمات الالفاظ النبوية ما يأتي:

١- الإيجاز في لغة الحديث:

وهذا واضح في كلامه في مواطن كثيرة وحسبما يقتضي المقام الحال سواءٌ في خطبه أورسائله أوكلماته وهيرها، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «الحربُ خدعة»[4]إنَّ هذا الحديث الشريف على وجازته لكن فيه كثير من المعاني المتعلقة بالحرب وما تتطلبه من أمور مهمة ومنها: الحنكة القيادية وعنصر المباغتة والمفاجأة، فضلاً عن ضرورة الكتمان في تدبير الخطط العسكرية والحذر في تحرّك الجيش[5]. وهذا كله في إطاره ومجاله الإيجابي الذي لا يتصرف الى المعاني السلبية للفظة (خدعة) مع ملاحظة أن المدلول اللغوي لهذه اللفظة إنما تقوم على دلالة أنَّ كلَ ما تكتمه فقد خدعته[6].

---

(١) فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته: عادل البدري: ١٤٠.

(٢) النهاية: ٥/ ٧٦.

(٣) ينظر: فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته: ١٤٦-١٤٧.

(٤) المعجم الكبير: الطبراني: ٣/ ٨٢.

(٥) ينظر: فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته: ١٥٣.

(٦) ينظر: جمهرة اللغة: ابن دريد: ١/ ٥٧٩.

٢- سهولة وسلاسة تلقي الالفاظ النبوية:

إنَّ سماع الالفاظ النبوية يترك في العقل والقلب قبل الاذن كل وقع جميل ورائع فضلاً عن دلالتها ومعانيها، قاصداً إيصال كلامه المبارك الى أقصى درجات التلقي لدى السامعين أوالقارئين ومنْ ثَمَّ ترك الاثر في نفوس المتلقين.

ومن أمثلة ذلك: ما قاله ﷺ: «إنَّ لربّكم في أيام دهركم نفحات فتعرضّوا له، لعلَّه يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً»[1] إنَّ المتأمل في هذا الحديث المبارك يستشعر اللطائف الإلهية والمشاعر الرحمانية على لسان النبي المبعوث رحمة للإنسانية جمعاء، وهوينصح الامة باستثمار الوقت وتوظيفه في طاعة الله تعالى وأنَّ لا يفوّت الانسان أية فرصة أولحظة في سبيل استنزال الرحمة الإلهية.

إنَّ لفظة (نفحة) الواردة في الحديث الشريف أشارت إلى عظيم هذه العطايا والمنح الإلهية المباركة.

ولوجئنا الى المعنى اللغوي للفظة (النفحة)، فإنَّ معناها يقوم على دلالة دفعة الريح، وإلى ذلك أشار ابن فارس بقوله: «النون والفاء والحاء أصل يدلّ على اندفاع الشيء أودفعه، ونفحة رائحة الطيب: انتشرت واندفعت»[2]، وهذا واضح في إندفاع العطاء الإلهي وإغداقه على العالمين في تلك الاوقات القائمة على الطاعة والايمان.

٣: تجسيد ألفاظه المباركة لفنيّة التعبير عن مشاعر، فضلاً عن تجسيد تلك الالفاظ لما حوله من بيئة يجعلها وكأنها كائن حي يجسد ما اراده ﷺ في جبل احد:

«هذا جبلٌ يحبّنا ونحبّه»[3]، إذ جعل احجار الجبل مليئة بالمشاعر والاحاسيس والانفعالات والمودة والحب الذي تتبادله مع النبي ﷺ [4]، وهذا في ضوء ما يتركه الإنسان من آثار لأعماله وأفعاله في أرض الله تعالى.

إنَّ ذلك التعبير إنما جاء وفق أسلوب يتميز هنا وفي غيره من كلام النبي ﷺ بميزة مهمة، وهي ما يسمى (بالسهل الممتنع)، وهوقائم على نظم الالفاظ والتراكيب في

---

(١) المعجم الكبير: الطبراني: ١/ ٢٥٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٤٥٨ (نفح).

(٣) صحيح مسلم: ٢/ ٩٩٣.

(٤) ينظر: فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته: ١٦٩.

قالب منها تشعُّ منه المعاني والدلالات بأحسن صورها وهيأتها، وهذا واضح في أسلوب الرسول المصطفى ﷺ ضمن كلامه الشريف، كما وَرَدَ في الأمثلة السابقة، ومنها أيضاً قوله ﷺ: «افعلوا الخير دهركم، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله، فإنَّ الله نفحات من رحمته يصيبُ بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أنْ يستر عوراتكم، وأنْ يؤمّن روعاتكم»[1]، إنَّ هذا الكلام ليعجز عن أنْ ياتي به إنسان بهذه الصورة من النظم وهذا الجمع لهذه الدلالات والمعاني وهذا لا يكون إلاّ للبني واله الطاهرين ﷺ.

٤ وضوح المعاني والدلالات في الالفاظ النبوية:

إذْ تشعُّ الالفاظ النبوية كالشمس بعظيم المعاني وجليل الدلالات في كلامه المبارك ﷺ، ومن امثلة ذلك قوله ﷺ في الدعاء: «اغتنموا الدعاء عد الرقة فإنها رحمة»[2].

وقول آخر له ﷺ في عظيم الاخلاق التي يجب أن يتمتع بها الانسان ولا سيما الانسان المسلم: «افشوا السلام، واطعموا الطعام، وصلوا الارحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[3].

إنَّ الدلالات الواضحة في الأمثلة أعلاه تغني عن شرحها فهي ناصعة بالمعنى المراد إيصاله للمتلقي.

٥: تناغم وتلاؤم الالفاظ النبوية مع كل عصر لغة وموضوعاً:

إنَّ هذا دليل عظمة وشموخ للغة النبي ﷺ ودلالاتها وموضوعاتها، فلغته ﷺ مألوفة في كل عصر ومفهومة بمرادها الواسع لدى كل قوم، وهذا يجسّد أنَّ اللغة وسيلة مهمة بل هي الوسيلة للاتصال بين افراد المجتمع سواء في المكان والزمان نفسيهما اوما بعدهما.

ولعل من أمثلة تلك الميزة والسمة الرائعة لكلامه ﷺ، قوله ﷺ: «كل معروف صدقة»[4].

إنَّ ألفاظ هذا الحديث الشريف تتناغم مع كل عصر بمكانه وزمانه اثراً وفائدةً،

---

(١) المعجم الكبير: ١/ ٢٥٠.

(٢) الجامع الصغير: ١/ ١٨٣.

(٣) مسند احمد: احمد بن حنبل: ٥/ ٤١٥.

(٤) المعجم الكبير: ١/ ٣٦٦.

ومثل ذلك قوله ﷺ: «مَنْ لا يَرحم لا يُرحم»[1]، وكذلك قوله ﷺ: «الدنيا مزرعة الاخرة»[2].

وغير ذلك من الامثلة في كلامه واحاديثه الشريفة التي طوالعصور والدهور وهي متجددة المعنى والغاية والموضوع.

الخاتمة

إنَّ فصاحة الرسول ﷺ وسعة ثقافته ومعرفته وإطلاعه على اللغة العربية ولا سيما من خلال القران الكريم وما ضَمَّ بين دفتيه من ألفاظ ومعاني ودلالات كان للرسول ﷺ دوره الكبير والعظيم في الحفاظ عليها وإبراز بلاغتها واستلهام معانيها في أحاديثه الشريفة ﷺ، فضلاً عمَّا بيّنه البحث في صفحاته ما للنبي محمد بن عبدالله من جهود أصيلة وكبيرة جداً في تأصيل وتوحيد كيان اللغة العربية والحفاظ عليه من الضياع والتشتت في غياهب اللهجات المتفرقة، فغدا ذلك الحفاظ في الفاظه النبوية المباركة.

فضلاً عن وضوح ذلك في اثر ذلك في نهوض اللغة العربية بألفاظ ودلالات ذات إيحاءات جديدة عبّرت عن تطورها وجعلها متجددة مع روح العصر بما لا يقدح بأصالتها وجذورها التي سقاها النبي الخاتم ﷺ بجهوده وكلامه الشريف ففرح بذلك من بَذَر تلك البذور المباركة للعربية وهوالله تعالى.

آليات تجاوز القيود الظرفية للرسالة في تجربة النبيّ محمَّد ﷺ

الدكتور حسن خليل رضا
كلية الآداب - الجامعة اللبنانية

الدكتور حسن خليل رضا
(أستاذ الفلسفة والمنطق في الجامعة اللبنانية)

مواليد: مدينة النبطية ١٩٧٧
هاتف: ٠٠٩٦١٧٠٦٥٩٨٧٤

الشهادات:

بكالوريوس في الفلسفة (عام ٢٠٠١).
بكالوريوس في اللغة العربيّة وآدابها (عام ٢٠٠١).
بكالوريوس في الإدارة والتخطيط التربويّ (عام ٢٠٠٥).
الماجستير في الفلسفة (عام ٢٠٠٤).
الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها (عام ٢٠٠٦).
الماجستير في العلوم التربويّة (عام ٢٠٠٧).
الدكتوراه في الآداب (الفلسفة) من جامعة القديّس يوسف/ بيروت (عام ٢٠١٠) عنوان الأطروحة:
" مناهج مفكّري الإسلام في نقد المنطق الأرسطيّ".

الخبرات:

أستاذ في جامعة آزاد الإسلامية في لبنان وجامعة سان جوزيف في بيروت والجامعة اللبنانية.
مؤسس ورئيس جمعيّة الحجى واليراع الثقافيّة الخيريّة (تأسست سنة ٢٠٠٥)
شارك في عدد من المحاضرات واللقاءات والمؤتمرات الفكريّة في داخل لبنان وخارجه، إنبثق عنها عدد من المؤلفات.
شارك في العديد من الورشات التدريبيّة التربويّة، والأمسيات الشعريّة، والنشاطات العلمية التثقيفيّة.

تفتقر أية رسالة إصلاحيّة إلى عوامل تجعل منها مشروعاً إنسانيّاً خارج دائرة البيئة التي تكوّنت فيها، وإلاّ فإنها تتسّم بالظرفيّة، وتتحوّل إلى حلقة ضيّقة، تُضاف إلى سلسلة التجارب الرسالية ذات البعد الإصلاحيّ، وتفقد بالتالي نبضها وإشعاعها ووظيفتها خارج النسق البيئي الذي استهدفته بادئ الأمر.

ولا يبعد أن يكون هذا الغرض واحداً من أسباب تجدّد النبوات على مرّ الزمان[1]، لتدارك ما يمكن أن يُسطره هذا الأمر من رعاية إلهية للبشر عبر إحياء الشرائع التي تنظّم مسارات السلوك بما يضمن سعادة الدارين.

وربّما تُصبح عملية تجاوز القيود الظرفية للرسالة أمراً ملّحاً ولازماً عندما يميل التصوّر الإعتقاديّ - كما في الرسالة الإسلامية - إلى وسمها بالإكتمال، ويحكم بحيازتها الحصريّة على حقيقة الوحي، ويقطع السبيل من خلال أطروحة الخاتميّة[2] أمام أية محاولة ترمي إلى تجديد النبوّة أو استمرار الوحي.

فما هي الآليات التي توسّلها النبي محمد ﷺ في تجربته الرساليّة لتجاوز القيود الظرفيّة الحاكمة عليها؟ وإلى أيّ حدّ ساهمت هذه الإجراءات في إضفاء روح العالميّة على الرسالة الإسلاميّة؟

إن لظهور الرسالة الإسلاميّة في ظلّ بيئة محدودة على مستوى الجزيرة العربيّة- أثراً بالغاً في تعويل النبيّ محمّد ﷺ في تجربته على جملةٍ من الآليات التي توسّلها

---

(١)- محمّد باقر الصدر: موجز أصول الدين (المرسل، الرسول، الرسالة)، تحقيق ودراسة عبدالجبار الرفاعي، (ط١)، بيروت - لبنان، دار الهادي، (٢٠٠٠ م)، ص ٢٣٠-٢٣٩.

(٢)- محمّد إقبال: تجديد الفكر الدينيّ، ترجمة عباس محمود، (لا.ط)، بيروت - لبنان، دار آسيا، (١٩٨٥ م)، ص١٤٣- ١٤٤؛ ومحمّد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة الإسلاميّة، (ط٣)، بيروت - لبنان، دار الحقّ، (٢٠٠١م)، ج٢، ص٣٢٩- ٣٣٣.

بغية تجاوز القيود الظرفيّة لرسالته، وتهيئة السبيل أمام عالميتها، ولا سيّما أن هذه الرسالة أخذت تتشكلّ في بؤرة مكانية تنأى عن مركزية القرار في الامبراطوريتين: الفارسيّة والروميّة.

وقد استهدفت أحكامها وتشريعاتها موضوعاتٍ يمليها الواقع المحدود الذي حرصت على إصلاحه، كما أنّ محدوديّة عمر النبيّ ﷺ تقطع أمامه الإشراف على تطبيق هذه الشريعة خارج سياق المعاصرة، وكثيرون هم الذين اكتفوا بما جاءهم من تراث شرعيّ تناقلوه عن أسلافهم، فكانوا يهوداً أو نصارى أو صابئة أو مجوساً أو غير ذلك، وإذا أضيف إلى ذلك الحاجز اللغويّ أمام هذه الرسالة، لغدونا أمام جملةٍ من العراقيل والقيود الظرفية أو البيئية التي تكاد أن تُجهض هذه الرسالة الإصلاحية في مهدها، وأن تحوّلها إلى تجربة تنويرية موضعية وخاصة - إذا صحّ التعبير- بدلاً من أن تسير في مجراها الطبيعيّ نحو عالمية الخلاص والإصلاح والهداية.

غير أن توسّل النبي ﷺ في تجربته الرساليّة مجموعة من الآليات التجاوزية لهذه القيود الظرفيّة أو البيئية الحاكمة على مشروعه، شكّل منفذاً واسعاً لرسالته الإسلاميّة في سيرها الحثيث باتجاه العالميّة، وحفظها من طقوس الوأد في قوالب المحدودية.

ولئن كانت سيرة النبي ﷺ حافلةً بالتجارب التي تضع أمامنا ما توسّله من آليات تستهدف تجاوز ما يعترض مسيرته الرساليّة من قيود ظرفيّة؛ فإننا نكتفي بتسليط النور على خمسٍ منها، لكونها الأبرز على هذا المستوى من ناحيةٍ، وتخدم مشروع عالمية الرسالة من ناحية أخرى.

أولاً: التجاوز المكانيّ: ونقصد به سعي النبي ﷺ إلى تخطيّ القيود الجغرافيّة التي أحاطت بدعوته الرساليّة، فقد انطلقت دعوته في مكة متخّذة النمط السريّ تارة، والنمط العلنيّ تارةً أخرى[1].

وعلى الرغم من عنايته الكبيرة بإصلاح المجتمع المكيّ وهدايته وتقويمه، فإنه كان يتطلّع دائماً إلى رقعةٍ جغرافية تحتضن رسالته، وتشكل عاصمةً لمشروعه الإصلاحيّ، ودولته الإسلاميّة، ودينه العالميّ؛ وهذا ما تجسّد فيما بعد بمدينة يثرب التي هاجر

---

(١) - هاشم معروف الحسنيّ: سيرة المصطفى ﷺ، (لا.ط)، بيروت - لبنان، دار التعارف، (١٩٩٦ م)، ص١٢٣.

إليها، وأقام فيها الدعائم الأولى لدولته.

ولكنّ الدائرة المكانية التي اكتنفت هذه الرسالة على مستوى الجزيرة العربية لم تكن منفتحةً على العالم المستهدف بالإصلاح، ولم يكن الإمتداد أو التوسّع في بثّ الرسالة أمراً سائغاً على صعيد الرقاع الجغرافية الرازحة تحت سلطة الامبراطوريتين: الفارسيّة والروميّة؛ لذلك عمل النبي ﷺ على تذليل هذا الأمر عبر توسلّه آليات عدّة يتجاوز من خلالها محدوديّة المكان، ولكن أبرزها اثنتان:

الأولى: الرسائل التي بعث بها إلى الملوك والقياصرة والأمراء، يبلّغهم فيها بنبوته، ويدعوهم إلى الإسلام. فالرسائل التي توجّه من خلالها إلى ملك الفرس[1]، وقيصر الروم[2]، وأمير البحرين[3]، وملك حمير[4]، وأهل عمان[5]، والنجاشيّ الأوّل[6]، والنجاشيّ الثانيّ[7]، وملك غسان[8]، وحاكم اليمامة[9]، وأسقف الروم[10]، وأسقف نجران[11]، وأهل اليمن[12]، وعشرات الرسائل الأخرى- تبيّن لنا كيف أنّ النبيّ ﷺ تجاوز من خلال توسّلها القيد المكانيّ أو المحدوديّة الجغرافيّة، حاملاً رسالته إلى مواضع مختلفةٍ من مراكز السلطة والقرار والحكم المدنيّ والدينيّ في ذلك العصر.

وقد أدّت هذه الرسائل وظائفها لجهة التواصل مع أصحابها، وإقامة الحجة عليهم،

---

(١) - علي بن حسين علي الأحمديّ: مكاتيب الرسول، (لا. ط)، بيروت - لبنان، دار صعب، (لا. ت)، ج١، ص٩٠.
(٢) - م.ن، ج١، ص ١٠٥.
(٣) - م.ن، ج١، ص ١٠٤.
(٤) - م.ن، ج١، ص ١١٧.
(٥) - م.ن، ج١، ص ١١٨.
(٦) - م.ن، ج١، ص ١٢١.
(٧)- علي بن حسين علي الأحمديّ: مكاتيب الرسول، (لا.ط)، بيروت- لبنان، دار صعب، (لا. ت)، ج١، ص١٣٣.
(٨) - م.ن، ج١، ص ١٣٤.
(٩) م.ن، ج١، ص ١٣٦.
(١٠) م.ن، ج١، ص ١٦٩.
(١١) م.ن، ج١، ص ١٧٥.
(١٢) م.ن، ج١، ص ١٨٨.

على الرغم من أن ردود الأفعال تراوحت بين السلبية كما هو موقف ملك الفرس الذي مزّق الرسالة[1]، والإيجابيّة كما هو موقف النجاشيّ الأوّل الذي وسمه الرسول ﷺ بالحاكم العادل الذي لا يُظلم عنده أحد، وأمر بعض المسلمين بالهجرة إلى بلاده[2].

والثانية: الفتوحات التي أخذت تطوي المكان أمام حركة الرسالة الإسلاميّة، فقد عمل النبيّ ﷺ بادئ الأمر على بناء دولة إسلامية قويّة، وحاول أن يُزيل الصعوبات التي تعترض استمرارها وقوّتها ووحدتها، وذلك من خلال الإتفاقيات والمعاهدات تارةً، والحروب والغزوات تارةً أخرى؛ فمهدّ السبيل أمام جيش المسلمين لتجاوز الإطار الجغرافيّ الضيّق، والتوجّه الإمتداديّ نحو رقاع الإمبراطوريتّين: الفارسية والرومية، وخصوصاً أنّه أعدّ جيشاً لهذا الغرض، ولكنّ المنيّة وافته قبل أن ينطلق في مهمته، فكانت وصيّته إنفاذ جيش أسامة[3].

وعليه، فإنّ "سقوط الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وانسحاب هرقل من مناطق الشام، وكذلك انهيار الإمبراطوريّة الفارسيّة في عصر الخليفة الثاني }هو{ انعكاس سياسيّ للأسلوب الذي اتخذه النبيّ ﷺ في توسيع العلاقات الدوليّة خلال السنين الأخيرة من عمره الشريف»[4]، فضلاً عن الإجراءات الترتيبيّة والإعدادية لهذه الغاية، والتي كان قد حرص عليها طيلة المرحلة التي قضاها في المدينة، حيث نزل الأمر بالقتال والجهاد بعد أن كان الصبر يشكّل لغته في المرحلة المكيّة؛ لئلا يتخذ الصراع بُعداً قبليّاً، يضعّف من حركته أو يجهضها، بدلاً من إرفادها وتقويتها والحفاظ عليها.

ثانياً: التجاوز الزمانيّ: ونقصد به حرص النبيّ على تخطيّ القيود الزمانيّة أو العمريّة التي يُمكن أن تحول من دون استمرار دعوته الرساليّة، ولا سيّما أن دعوة المصلحين ينتابها الخفوت أو التحريف أو الضمور عادة بعد موت صاحبها.

وعلى الرغم من حرص النبيّ (ص) على استثمار عمره في خدمة رسالته الإسلاميّة،

---

(١) صفيّ الرحمن المبار كفوري: الرحيق المختوم - بحث السيرة النبويّة، (ط١)، بيروت - لبنان، دار مكتبة المتنبيّ، (١٩٨٨ م)، ص ٣٢٤.

(٢) هاشم معروف الحسنيّ: سيرة المصطفى ﷺ، م.س، ص ١٦١.

(٣) م.ن، ج١، ص ٦٩٧.

(٤) عباس علي العميد الزنجانيّ: القانون الدوليّ في الإسلام، ترجمة علي هاشم، (ط١)، ايران- مشهد، مؤسسة الآستانة الرضوية المقدسة، (١٤١٧هـ)، ص ٨٩.

فإنه توسَّل آليات يعبر من خلالها محدودية هذا العمر؛ لتبقى هذه الرسالة في رحلتها الممتدة عبر الزمن تحت رعايته وعنايته ورقابته بشكل أساسي ومحكم. ولعلّ أهمّ هذه الآليات تكريسه لمبدأ الإمامة أو الخلافة من بعده، والذي يتجاوز من خلاله الأعمار المحدودة، وينسّق بين حتميتها الطبيعيّة من جهة، وملاك الحفاظ على استمرارية الرسالة من جهة أخرى، وبغضّ النظر عمّا إذا كانت هذه الإمامة أو الخلافة مترتبة على النصّ كما هي النظرية الشيعيّة[1]، أو على الشورى كما هي النظريّة السنيّة[2].

ولئن عُرِّفت الإمامة بأنها: "رياسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابةً عن النبيّ (ص) (٣)»، أو بأنها: "خلافة الرسول في إقامة الدين، بحيث يجب اتباعه }الإمام{ على كافة الأمّة"(٤)؛ فإنّ هذه المهمّة كانت منوطةً بالنبيّ ﷺ أثناء حياته، بالإضافة إلى تلقيه للوحي، وانتقال هذه السلطة من النبيّ إلى الإمام أو الخليفة من بعده لا تُمتِّع الأخير بصلاحية التغيير أو التعديل في جوهر الرسالة، وإنما تعطيه صلاحية قيادة الأمة الإسلاميّة في شؤون الدين والدنيا وفق خطوطها العريضة، وتبقى هذه الرسالة نفسها مرجعيّة المسلمين في الحكم على أدائه.

وهكذا يتضح لنا أنّ مبدأ الإمامة أو الخلافة يُمثل ثورة النبيّ ﷺ على القيد الزمانيّ أو العمريّ، إذ يتسنى له من خلاله ممارسة دور الرقابة والرعاية والعناية بالرسالة التي كانت قد اكتملت على يده، وذلك بالاستناد إلى المعايير الحمائية والقيادية نفسها، وإن اختلفت هوية الحاكم أو صورته، فإن المسألة تشبه إلى حدّ بعيد إناطة الحكم بالوالي أو الأمير الذي ينوب عن الخليفة أو الإمام في دائرة جغرافيّة محدّدة، فيكون بمنزلة يده أو عضده، ما دام ينفذّ أحكامه وإرادته وسلطته.

---

(١) عبد الهادي الفضلي: خلاصة علم الكلام، (ط١)، بيروت - لبنان، دار التعارف، (١٩٨٨م)، ص ٢٩٨- ٣١٧.

(٢) عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي: أصول الدين، (ط١)، استانبول- تركيا، مطبعة الدولة، (١٩٢٨م)، ص٢٧٩-٢٨١.

(٣) الحسن بن يوسف الحلّي: الباب الحادي عشر، (ط٤)، قم - ايران، مكتبة المصطفوي، (١٤٠١هـ)، ص ٤٦.

(٤)- عبد الرحمن الإيجي: المواقف في علم الكلام، (ط٢)، دار آفاق عربية، بيروت- لبنان، (١٩٨٨ م)، ص٣٩٥.

ثالثاً: التجاوز الإعتقاديّ: ونقصد به سعيّ النبيّ ﷺ إلى تجاوز الاعتقاد الحرفيّ بالشريعة الإسلاميّة في سياق استيعابه لبعض الفئات الإجتماعية والدينيّة التي عاصرها، وحمايته للرسالة الإسلاميّة في مراحلها الأولى، وتوطيده لدعائم دولته التي أقامها في المدينة.

ولئن كان بإمكاننا التمييز بين لونين من الإسلام: أحدهما عقيديّ يتقيّد فيه المسلم بأوامر الشريعة ونواهيها إيماناً منه بخلفياتها النظريّة؛ والآخر سياسيّ يتمّ بمجرد أن ينطق فيه المرء بالشهادتين، فيحرم دمه وعرضه وماله؛ فإن الإسلام السياسيّ شكلّ حلاً لا بُدّ منه أمام بعض الكافرين والمشركين بهدف أن يلتزموا سلوكياً بأخلاقيات الإسلام، فلا يشكلّون خطراً على دولته فيما إذا اندمجوا مع مواطنيها، وربّما تكفل الأيام تغيرهم وتأثرهم بالبيئة التربوية التي صاروا جزءاً من نسيجها.

وقد فتح النبيّ (ص) الباب على مصراعيه في حواره مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وسمح لهم فيما إذا أصروا على التمسّك بمعتقداتهم أن يكونوا مواطنين في دولته، ينعمون بحريتّهم الدينيّة مقابل احترامهم للنظام الإسلاميّ وشرائعه وسياساته، وذلك لما ترتكز عليه هذه الديانات الكتابيّة من إيمان بالله واليوم الآخر إجمالاً، وتمسّك بجزءٍ وفير من القيم الأخلاقية والإنسانية التي تنسجم نوعاً ما مع تعاليم الإسلام وأخلاقياته، ويمكن أن تتحقق من ورائها أغراض التعايش مع المسلمين في وطن واحد.

وخير أنموذج تتجلّى فيه إرهاصات هذه المسألة، الإجراء الذي قام به النبي ﷺ في مدينته بعد أن وحّد بين قبيلتي الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، إذ اتجّه إلى استيعاب اليهود في دولته، وعقد معهم معاهدة تنّص على "التعاون المخلص، وحريّة الاديان و المعتقدات والدفاع عن يثرب والضرب على أيدي المعتدين ومدبري الفتن ومقاطعة المشركين في مكة، وعدم إسداء العون لهم والوقوف صفاً واحداً في وجوههم فيما لو حاولوا غزو يثرب والعدوان عليها لينتقموا من النبي وأصحابه»[1].

وقد اقتصر هذا التجاوز العقيدي في عملية استعاب النبي ﷺ لغير المسلمين في دعوته الرسالية على أهل الكتاب أو الذمة ولم يتجاوز ذلك إلى غيرهم إلا في ظروف

(١) ١- هاشم معروف الحسنيّ: سيرة المصطفى ﷺ، م.س، ص ٢٧٨.

خاصة حقناً للدماء وصوناً للصراع من أن يتحول إلى الدائرة القبلية والعصبية وصبراً على المسلمين إلى أن يقوى عودهم ويشتد بأسهم. وهذا ما ينطبق على صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع المشركين والكافرين من أهل مكة والذي نص على أمور قبل بها النبي ﷺ، وهي:

١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.

٢ - من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون بردّه.

٣ - أن يرجع النبيّ من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبل، فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام، ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس.

٤ - من أراد أن يدخل في عهد محمّد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه[1].

ولعلّ عدم سماح النبيّ ﷺ للمشركين والكافرين من غير أهل الكتاب - بأن يلتحقوا بدولته مع الإبقاء على ما هم عليه من معتقدات - ينبع من عدم اطمئنانه إلى سلوكهم فيما إذا تمتّعوا بالمواطنيّة في دولة الإسلام، ولا سيّما أنهم لا يقيمون وزناً للإيمان بالله واليوم الآخر، ولا توجد لديهم ضوابط أخلاقية تتسّم بالثبات والإنسجام مع أخلاقيات الإسلام كما هي الحال فيما يختصّ بأهل الذمّة، لذلك تتمّ مهادنتهم ما اقتضت المصلحة ذلك، ومن ثم يكونون بالخيار بين الدخول في الإسلام ولو بصورته السياسية، وبين الحرب حتى الموت، وهو آخر الحلول أو الخيارات، والحدّ الذي لا يمكن أن تتخطاه آليات التجاوز العقيدي في تلك المرحلة، وخصوصاً في ظلّ غياب المسوّغ أو الداعي إلى ذلك.

رابعاً: التجاوز الموضوّعي: ونقصد به حرص النبي ﷺ على تخطيّ الموضوعات الخارجيّة، والمصاديق الفعليّة، والمواقف العملية التي واجهها على مستوى المجتمع الذي بُعث فيه؛ لتقديم قوالب شرعيّة تتجاوز برحابة معانيها ودلالاتها ومصاديقها

(١) - محمّد الخضري: نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين، (ط١)، بيروت، لبنان، دار الندوة الجديدة، (١٩٩٤ م)، ص ١٧٢.

حدود ما طُبقت عليه، فيستفاد منها في كل زمان بحسب مستحدثات الأمور وطوارئها ومستجداتها.

وهذه غاية تتيح للفقهاء والعلماء والخلفاء العمل على استنباط الأحكام الشرعيّة في المسائل المستجدّة أو المستحدثة، بالاستناد إلى تلك القوالب التي اشتملت عليها السنة، فضلاً عن النصّ القرآنيّ، متمسكين بمقولة: "العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»[1].

وهكذا يكون النبيّ ﷺ قد أدّى غرضين في الآن نفسه: الأول أنه عالج الموضوعات التي ألفاها قائمة في مجتمعه، فحدّد الموقف أو الحكم العملي الشرعي منها؛ والثاني أنه وضع للمسلمين المتأخرين نماذج وقوالب يمكن التعويل عليها في إطار الحكم على الأمور المستجدّة باستمرار، وتحديد الوظائف الشرعية تجاهها على امتداد العصور، وفي مختلف الأمصار.

ولعلّ من أبرز تلك الآليات التجاوزية لموضوعات العصر النبويّ ما يُعرف عند العلماء المسلمين بالقواعد الفقهية، وهي القواعد التي تشتمل على أحكام شرعية عامة يُستفاد من تطبيقها الحصول على أحكام شرعيّة جزئية، هي مصاديق لذلك الحكم العامّ[2].

وقد اشتملت السنة النبويّة على عدد من هذه القواعد الفقهيّة، وإن وقع الخلاف حول صحة بعضها على المستوى السنديّ. نذكر منها القواعد الآتية: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»[3]، "الإسلام يجبّ ما قبله"[4]، "إنما الأعمال بالنيات»[5]، "البيّعان بالخيار ما لم يفترقا»[6]، «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»[7]، "الرضاع لحمة كلحمة

(١)- محمّد باقر الحكيم: علوم القرآن، (ط٥)، قم- طهران، مجمع الفكر الإسلاميّ، (١٤٢٤ هـ)، ص ٤٢.

(٢)- باقر الأيروانيّ. دروس تمهيديّة في القواعد الفقهيّة، (ط١)، قم- ايران، مؤسسة الفقه، (١٤١٧هـ)، ج١، ص١٣.

(٣)- محمد حسن البجنورديّ: القواعد الفقهيّة، تحقيق مهدي المهريزي ومحمّد الدرايتي، (ط١)، ايران- قم، مطبعة الهادي، (١٤١٩ هـ)، ج١، ص٢١٢.

(٤)- م.ن، ج١، ص ٤٧.

(٥)- م.ن، ج٣، ص ١٤٥.

(٦)- م.ن، ج٣، ص ٢٠٠.

(٧)- م.ن، ج٢، ص ٢٦.

النسب»[1]، "الزرع للزارع ولو كان غاصباً»[2]، "كل مسكر خمر وكل خمر حرام»[3]، " كل قرض يجرّ المنفعة فهو حرام»[4]، وسواها...

خامساً: التجاوز اللغويّ: ونقصد به الإجراء الذي حاول النبي ﷺ من خلاله أن يتخطى القيد اللغويّ، أو أن يمنعه من إعاقة دربه وحركته؛ لئلا يكون عائقاً من دون إبلاغ رسالته إلى جميع البشر ممن يمتلكون أنظمة لغوية أخرى، وليس لديهم أدنى اطلاع على اللغة العربية.

والحقيقة أن هذا الأمر ذو بعدين: أحدهما يتجلّى في ضرورة الحفاظ على اللغة العربية، والعمل على تعميمها ونشرها وتصديرها إلى العالم بأسره؛ لأنه من خلالها يمكن الإطلاع على القرآن الكريم الذي يمثل الوحي الإلهي من جهة، ومعجزة النبيّ ﷺ من جهة أخرى؛ والآخر يتجلّى في ضرورة التواصل مع بعض أبناء الثقافات الأخرى ممن لا يتقنون العربية، سواء وفدوا إلى المجتمع الإسلاميّ للقاء النبيّ والحوار معه، أو أوفد النبيّ ﷺ إليهم سفراء يطلعونهم على تعاليم هذا الدين الجديد.

ولقد حرص النبي ﷺ على مراعاة البعدين في الآن نفسه، فقد تمسك باللغة العربية التي وحّد لهجاتها في لغة قريش، وجعل الأمور العبادية وغيرها شديدة اللصوق بها، كما عمل على تحويل مسارها لتكون لغةً عالميّة تُحمَل مع الفاتحين إلى شتى بقاع الأرض، وأرسل رسائله إلى الملوك والقياصرة والأباطرة وغيرهم باللغة العربية، فردّوا عليه بالمثل، مستعينين بمترجمين عندهم يعرفون هذه اللغة.

وبإزاء ذلك، لا يبعد أن يكون النبي ﷺ قد استعان في تواصله مع بعض الوافدين ببعض الصحابة من غير العرب ممّن دخلوا في الإسلام، وكانوا يتقنون العربية إلى جانب لغاتهم الأصلية، أمثال: سلمان الفارسيّ، وصهيب الروميّ، وبلال الحبشي، وسواهم...

ويلفت الغزاليّ في بعض عباراته إلى استعانة النبي ﷺ بسفراء كانوا يبلغون

(١)- م.ن، ج٥، ص ١٧٥.
(٢)- م.ن، ج٧، ص ٤٢.
(٣)- م.ن، ج١٥، ص ٣١٠.
(٤)- م.ن، ج٧، ص ٢٨٤.

أوامره، وليس النصّ القرآنيّ، في البلاد التي يمثلونه فيها، إذ يقول: "كان سفراء رسول الله ﷺ في البلاد يبلغونهم أوامره بلغتهم، وهذا لأنّا نعلم ألاّ تعبّد في اللفظ، وإنما المقصود فهم المعنى وإيصاله إلى الخلق، وليس ذلك كالتشهدّ والتكبير وما يُتعبّد فيه باللفظ"[1].

هكذا تمكن النبي ﷺ عبر تجربته الرساليّة من أن يرسم آليات ووسائل وتقنيات، حاول أن يتجاوز بتوسّطها القيود الظرفيّة التي تكتنف الرسالات الإصلاحيّة عادة، فعبر بها إلى النسق العالميّ، وأضفى عليها مسحةً من الإستمرارية والإتسّاع، وجعلها شعلةً يستضيء بها كلّ ظامئ إلى الوحي الإلهي، ويقتدي بمنهجها الطامحون إلى الإصلاح والهداية والتغيير باتجاه مجتمع العدالة والتعايش والإنفتاح.

---

(١)- أبو حامد الغزالي: المستصفى من علوم الأصول، (ط١)، مصر، المطبعة الأميرية، (١٣٢٢هـ)، ج١، ص١٦٩.

الإرث النبوي إشراقة حضارية في البناء المجتمعي السلمي

(وثيقة المدينة أنموذجاً)

أ. م. د. عبد الرزاق رحيم الحربي
كلية الآداب - جامعة البصرة

أ. م. د. عبد الرزاق رحيم الحربي
قسم الجغرافية - كلية الآداب - جامعة البصرة

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الرزاق رحيم الحربي من مواليد البصرة ١٩٥٧ تدريسي في كلية الآداب جامعة البصرة، حاصل على بكالوريوس شريعة جامعة الكوفة ١٩٨٠، وبكالوريوس ترجمة جامعة البصرة ٢٠٠٦، وماجستير علوم اسلامية جامعة بغداد ١٩٩٧ ودكتوراه جامعة الكوفة ٢٠٠٩، لهُ كتب وابحاث ومشاركات في مؤتمرات علمية.

يزخر تأريخنا الإسلامي بكنوز معرفية غنية بأفكارها، ملهمة بعطائها حتى صارت مصدر الهام في حل كثير من المشاكل اليوم. ومنها تلك الوثيقة التي سطرها الرسول الأعظم محمد ﷺ في السنة الهجرية الأولى، والتي عرفت (بوثيقة المدينة) تلك الوثيقة التي باستطاعتنا أن نستخرج منها كليات أساسية من أحكام دستورية وثقافية واجتماعية وسياسية إن قمنا بعملية تجريد وتعميم لها.

فالتجارب التي حفل بها التأريخ الإسلامي تعد انعكاساً لروح هذه الوثيقة بخطوطها العامة وشرحاً وتطبيقاً لها، أما انعكاسها على واقعنا الحاضر وما نشهده من صراعات ونزاعات محلية وخارجية ودعوى صراع الحضارات، فهي تمثل الواقع الأمثل لمشاريع تتخذ من التعاقد والحوار والمباحثات أساساً لها ولنظامها المجتمعي السلمي

لقد جاءت هذه الدراسة في التراث الإسلامي المتعلق بسيرة النبي الكريم محمد ﷺ في هدي القرآن والعقل والفكر الرصين من اجل أن نثبت للعالم أن ما دونه الرسول محمد ﷺ لم يبدل أويندثر بل هوقائم بدعامات أساسية من وقائع فكر ثاقب أراد لهذه الأمة أن تكون بحق خير امة أخرجت للناس، حيث قدمت للإنسانية عطاءً ثراً لا تنفذ خزائنه، تنهل منه البشرية على اختلاف مشاربها وأعراقها لأنها وثيقة نظمت مجمل العلاقة بين أطياف المجتمع في المدينة فمثلت بحق أول دستور مدني في التأريخ، وهي بذلك سبقت الدساتير الحديثة بمئات السنين مثل دستور الولايات المتحدة المعروف بدستور فيلادلفيا الذي دون سنة ١٧٧٦ م والدستور الفرنسي الذي ظهر عقب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

وقد قسم البحث إلى مطلبين اثنين، تحدث الأول عن المبادئ الأساسية لوثيقة

المدينة وأهميتها، أما المطلب الثاني فتناول أثر الأبعاد الحضارية والسياسية والأمنية للوثيقة في التعايش الإنساني وتضمن البحث جملة نتائج توصل إليها الباحث من خلال استعراضه للإرث النبوي العظيم.

المطلب الأول
المبادئ الأساسية في وثيقة المدينة وأهميتها

أولاً: المبادئ الأساسية في وثيقة المدينة وضوابط صدورها.

المبدأ الأول: سعى رسول الله ﷺ إلى اختيار مبدأ المشاركة بدلاً من مبدأ التحكم.

كما ذكر أسماء القبائل اليهودية قبيلة قبيلة كما ذكر المشركين في المادة ٢٠/ ب[١].

وأشير إلى أن كلمة (مولى) الواردة في الوثيقة تشير إلى العشائر والقبائل والمجموعات التي دخلت في عهد أواتفاق مع بعض القبائل وان لم توجد بينهم أي قرابة دم.

كما أشارت المادة ٢٠/ ب إلى بعض الأحكام الخاصة بمشركي العرب في المدينة وهذه الأحكام مؤيدة بالمادة رقم (٤٣) حيث كانت الغاية من وراء ذلك منع التعاون بين مشركي مكة والمدينة ولم يسجل لنا التاريخ تعاوناً ملحوظاً بينهما جلب الضرر على المسلمين في المدينة[٢].

المبدأ الثاني: إن كل مشروع إصلاحي جديد يطرح على الساحة السياسية والاجتماعية يبغي النجاح والتوفيق ويحقق العدالة والسلم الاجتماعي والاستقرار عليه إن يؤلف بين الجماعات المختلفة من مختلف الوُجوه ويشاركهم في وجهات النظر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية

---

(١) .حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفاش، ١٩٨٧، ط٦، ص ٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

وفق معاهدات وتوافقات بحضور جميع تلك الجماعات أومن يمثلونها.

المبدأ الثالث: اعتماد مبدأ المؤاخاة بين المسلمين لتقوية روح الإخوة الإسلامية، وجعلهم صفاً واحداً في مواجهة التحديات المقبلة، وقد ساعدت قلتهم آنذاك في ازدياد قوتهم وتماسكهم.

المبدأ الرابع: التنظيم الدقيق للعلاقات بين المسلمين من جهة واليهود والمشركين من جهة أخرى في أكثر من عشرين فقرة، مما ساعد ذلك على سهولة حصول الموافقة عليها لما فيها من الصالح العام.

المبدأ الخامس: نتيجة للتخطيط السليم الذي وضعته الوثيقة في كل ما يخص شان المدينة وسكانها، أمنهم واستقرارهم، قوتهم وتماسكهم فقد اقترح اليهود أن تكون الكلمة الفصل للرسول محمد ﷺ في حال حدوث نزاعات بين سكان المدينة سواء كانوا يهوداً أومشركين لما اشتهر به من عدالته وصدقه ﷺ وهذا ما أشارت إليه المادة [1]٤٢. أما مسألة الحاكمية المطلقة في الأمور الدينية للمسلمين فتعود إلى الرسول محمد ﷺ، لكنه ﷺ كان يستشير الآخرين في الأمور الإدارية[2].

المبدأ السادس: مبدأ المواطنة الصالحة في بنود الوثيقة إن صفة المواطنة لم تنحصر في الدولة الإسلامية الأولى في المسلمين وحدهم بل امتدت لتشمل اليهود المقيمين في المدينة حيث عدتهم الدولة (امة مع المؤمنين) [3]وحددت مالهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات، ولوحظ كذلك أن عنصر الإقليم (المدينة) والإقامة فيه عند نشأة الدولة هوالذي أعطى غير المسلمين حق المواطنة وضمن لهم التمتع بالحقوق التي كفلتها (الوثيقة) بعد أن كان هذا الحق يقوم على أساس الانتماء القبلي. فاختلاف الدين بمقتضى أحكام (الوثيقة) ليس سبباً للحرمان من حق (المواطنة). وتلك كانت أول بادرة في التاريخ لظهور مفهوم المواطنة الذي أصبح يشمل جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن انتماءاتهم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٣) ابن هشام الشعيبي، السيرة النبوية، ١/ ٥٠١.

الدينية، وأصبح الجميع ينعمون بالعصمة في أنفسهم وأموالهم وهي نفس أثار انتماء الأشخاص إلى دولهم وفقاً لرابطة الجنسية بمفهومها القانوني الحديث وبهذا أصبح أساس المواطنة هوالولاء للدولة عن طريق العهد[1].

يقول المفكر الإسلامي محمد سليم العوا (فهذه الوثيقة تجعل غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين فيها لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين) [2].

أما من الناحية التاريخية يتحدث الفقه الإسلامي التقليدي عن أهل الذمة وهم الذين يعيشون في إطار الدولة الإسلامية ويخضعون لسلطتها السياسية، فقد اتسم خط التعامل الإسلامي معهم بالتسامح والعدالة بل والمشاركة في السلطة حيث لأول مرة في تاريخ اليهود وصل احد اليهود في الدولة الإسلامية بالأندلس إلى مرتبة وزير[3].

ويرى الباحث الإسلامي فهمي هويدي إن أحكام أهل الذمة في الفقه الإسلامي هي أحكام تاريخية في الغالب وهي كذلك تفسير تاريخي للمبادئ الإسلامية بما يعني إن هذه الأحكام إذا توافر لها فقه سياسي يمكن أن تحدث مساحات لا حدود لها لاستيعاب هذه الأقليات بل ومشاركتها في بنية المجتمع المدني الإسلامي[4]الذي يروم الأمن الاجتماعي السلمي المؤسس لصرح التعايش الإنساني.

يقول الباحث العوا تعليقا على أمر العطاء الرسالي (أمر بإعطائهم ذمة الله ورسوله ولم يقل أعطوهم ذمتكم بل قال أعطوهم ذمة الله ورسوله وهي تعني الأعم.. فهذه ولاية الله وولاية النبي (ص»[5].

إن الحفاظ على حياة المواطنة في الدولة الإسلامية من أولويات اهتمام الرسول

---

(١) د.احمد قائد، نشرة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٦، ص ٣٢.

(٢) العوا، محمد سليم، أهل الذمة في النظام الحقوقي الإسلامي: رؤية إسلامية، مجلة الحياة الطيبة، العدد ١١، ٢٠٠٣، ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هويدي، فهمي، الإسلام والديمقراطية، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ١٩٩٨، العدد ١١، ص ٢٣١.

(٥) العوا، محمد سليم، االدولة- الأقليات - المواطنة - المرأة في الفقه السياسي المعاصر، مجلة المنطلق، العدد ١٢٦، ١٩٩٦، ص ٩٦.

الأكرم وآل بيته الكرام، حيث يروى أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قتل مسلماً بذمي، وساوى بين ديتهما وفي رواية أخرى انه جيء له بمسلم قتل ذمياً فأمر بقتله لكن صاحب الدم عفا عنه، فلم يقبل منه أمير المؤمنين إلا بعد أن تأكد من اليهودي نفسه انه لم يهدد أويخوف[1].

ثانياً: اهمية وثيقة المدينة.

تعد وثيقة المدينة أول تشريع دستوري يتضمن مبادئ سياسية نظمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم في إطار الحكم العادل الذي لا غبن فيه، ولم يعهده العرب من قبل. حيث حرص رسول الله (صلى الله عليه وآله) على تثبيت وتدوين الحقوق والواجبات بين الناس تأكيداً لجعلها قواعد قانونية ملزمة للجميع ويمكن الرجوع إليها عند الحاجة لضمان الحقوق.

لقد برهنت بنود الوثيقة على العبقرية السياسية والتنظيمية لقائد الأمة الإسلامية، فقد استطاع رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يؤلف بين مكونات مجتمعية مختلفة في توجهاتها العقدية فعمل على أن لا، يسودها نظام التعصب القبلي وقانون الكر والفكر وطلب الثأر، فأمست في فترة وجيزة أعظم امة أخرجت للناس وبهذه الوثيقة المباركة ولأول مرة في تأريخ المنطقة منحت الحرية التامة لموقعيها بحدود قانون الإسلام الخلقي[2].

ومن السمات البارزة الأهمية في الوثيقة مسؤولية الدفاع الجماعي عن حدود المدينة وبموجبه يتحقق الأمن الاجتماعي حيث لا يسمح لأي فرد الإخلال بالحق الوطني للوطن والمواطن، وهوما يتطابق مع مضمون النص القرآني القائل (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)[3].حيث أمرت السماء رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد السماح لصحبه بالتقاعس والكسل في نصرة المؤمنين بعد موقعة مؤتة، حيث يقول الطباطبائي في تفسيره للآية (ومعنى الآية، عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلف والقعود؟ ولوشئت لم تأذن لهم وكانوا أحق به.حتى يتبين لك الذين

---

(١) كتاب الفردية (بدون مؤلف)، إصدار مركز التراث والبحوث اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٠، ص ٥٢.

(٢) ظ:ابن كثير، إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، مكتبة المعارف، بيروت، ٢/ ٣٢.

(٣) سورة التوبة / ٤٣.

صدقوا وتعلم الكاذبين ونفاقهم)[1].

إن الباحث المتفحص لهذه الوثيقة يدرك إن هناك ضوابط أدت إلى صدورها، منها. إن هذه الوثيقة غيرت المفاهيم المتوارثة بالخطأ في أكثر من موطن وشأن من شؤون المجتمع حيث إن جميع الموقعين على الوثيقة كانوا على ثقة إن مستقبلهم ومستقبل الأمة الإسلامية مرهون بقاءه بتطبيق بنود هذه الوثيقة التي تؤسس لمشروع قيام دولة وجماعة إسلامية جديدة لفض غبار الماضي لتتشارك به في صنع رؤية جديدة للحياة قائمة على مفاهيم عقلية وعلمية تؤمن باحترام الإنسان وحريته في العيش الآمن الكريم.فكلمة (لا اله إلا الله) التي جاء بها القرآن وعكس تطبيقها قولاً وعملاً رسول الله ﷺ وصحبه الأخيار فأصبحت تجسد في عقولهم منهجاً روحياً ونفسيا وأخلاقيا فكونت دعامة قوية من قيمتي (الحرية والمساواة). ولعل من ابرز الضوابط التي رسمت ملامحها وثيقة المدينة شعورهم بالوحدة الداخلية وبالاستقرار الأمني الذي حررهم من الخوف ويعود منبع هذا الشعور إلى التحديد الذي أولتهُ الوثيقة حيال حقوق وواجبات الحاكم، مثلما حددت حقوق وواجبات عامة الناس مما حفزهم بقوة للانطلاق نحوبناء دولتهم الجديدة.

ويمكن بالدستور ضبط سلوك الحاكم الذي يحدد سلوك دولته ومسؤوليته، ولما كان الرسول الأكرم ﷺ هومن تصدى للزعامة السياسية والتشريعية، فهوالمعبر بصدق عن إرادة السماء في بناء مجتمع رسالي يتجاوز كل أسباب الضعف والهلكة التي كان يتميز بها المجتمع العربي إبان فترة الجاهلية المقيتة.ولما حددت الوثيقة بشكل قاطع نظام الحكم في الإسلام المتمثل بعدم الانفراد بالرأي من قبل الحاكم، فان الأخذ بوجهات النظر المختلفة سيعزز الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم وعليه فأن اتخاذ القرار من قبل الحاكم لا يتعلق به بقدر ما يكون هذا القرار معبراً عن الصالح العام للأمة الإسلامية.وبالنتيجة يتعايش المجتمع المدني حياة مشتركة تقتضي تجاوز ما هوفردي من حياة الناس سواء أكان ذلك في ميدان التفاعل أوفي ميدان الظواهر التي تبرز على سطح الحياة المشتركة.يقول المفكر الإسلامي محمود البستاني في

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة المجتبى للمطبوعات، قم، ٢٠٠٤، ٩/ ٢٩٣.

باب علم الاجتماع والحياة المشتركة بين الناس إن ابرز ما يميز الحياة المشتركة بينهم هوعلاقات بعضهم مع البعض الآخر.. بدءاً من العلاقات الاجتماعية وانتهاءً بإشباع حاجاتهم الأولية والثانوية[1].

المطلب الثاني

البعد الحضاري والسياسي والأمني في وثيقة المدينة وأثره في التعايش الإنساني

أولاً: البعد الحضاري في وثيقة المدينة.

سجلت وثيقة المدينة قيماً حضارية متقدمة قياساً بزمانية ظهورها، وقيم المجتمع السائدة آنذاك فعدت تلك القيم حضارية في الفكر وتقدمية في التطبيق، فسجلت حضورها في عالم التغيير الذي رسم خطوطه النبي محمد ﷺ. ومن تلك القيم:

١. إقرار مبدأ التكافل الاجتماعي بين سكان المدينة

اقر رسول الله محمد ﷺ مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي بين القبائل والنحل الساكنة في المدينة الذين سماهم الرسول ﷺ بأسمائهم وإنهم جميعاً يعدون امة واحدة غير منقسمة، قال رسول الله ﷺ (المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يغدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ن وبنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنوساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها...)[2].

٢. حرية غير المسلمين في عقد الأحلاف التي لا تضر بدولة المدينة وساكنيها، قال رسول الله ﷺ (وانه لا يأثم امرؤ بحليفه)[3].

---

(١) البستاني، د.محمود، علم الاجتماع في ضوء المنهج الإسلامي، منشورات محدث، قم، ص ٤٦-٤٧، بتصرف.

(٢) ابن سيد الناس، أبي الفتح محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الأفاق، بيروت، ١٩٧٧، ١/ ٢٦٠.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ٢/ ٣٢٢.

٣.نبذ العصبية القبلية، والتعصب الديني وجعل الأمة الإسلامية فوق القبلية وفقد خاطب الرسول المؤمنين أنهم (امة واحدة من دون الناس) [١].

٤.الاعتراف بالآخر وعدم تهميشه في جميع نشاطات المجتمع، فالرسول ﷺ خاطب المشركين واليهود بنسق واحد دونما تميز آوتفضيل بينهم بل جميعهم سواسية أمام المهمات والواجبات الموكلة بهم.

ثانياً: البعد الأمني في وثيقة المدينة.

كان مجتمع المدينة قبل قدوم الرسول الكريم ﷺ مجتمعاً فاقداً للأمان، منفرط العقد تسوده ظاهرة التأثر وتقوم فيه القبلية مقام الدولة، والعصبية هي القانون الأساس الذي تتفرع عنه سائر الأحكام وكان شعارهم انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً بالمفهوم الجاهلي أوكما قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على قال برهانا[٢]

ولما جاء الإسلام ألغى جميع العادات والتقاليد المسيئة لروح الإسلام والتعايش الاجتماعي المبني على الألفة والمحبة والتسامح ويتجلى البعد الأمني.في محاور ثلاث هي:

أولاً: ضمان الأمن لطوائف المجتمع.

عمد رسول الله ﷺ عبر وثيقة المدينة على محاربة كل أشكال الظلم والبغي، فحرم الثأر (وبين أن القتل بالقود إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل وبذلك لم يصبح الثأر أمراً يتحول إلى ثأر كما كانت في القبيلة العربية من قبل) [٣].

ونفذ الرسول الكريم ﷺ مبدأ العقاب بالمثل لان حكم الله فوق الجميع وفوق كل الروابط النسبية، فحث الجماعة على التضامن ضد البغي ولها وحدها حق الرعاية والتنفيذ وان تعارض ذلك مع علاقة الأبوة والبنوة وحقوقهما[٤].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٥٠١.

(٢) حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٣.

قال النبي ﷺ (ان المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أوابتغى دسيعة ظلم أوإثما أوعدواناً أوفساداً بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعاً ولوكان ولد احدهم.. وانه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فأنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه) [1].

وعدت وثيقة المدينة إيواء المجرمين جريمة كبيرة تخرج صاحبها من دائرة الإيمان بالله تعالى وهذا القانون لم يعرف النور إلا في القرون المتأخرة في التشريعات الوضعية لان هذه الجريمة تؤدي إلى اضطراب المجتمع واختلاله والطمع في النجاة من العقوبة، وإذا كان المجتمع محتاجاً إلى الطمأنينة في حالات السلم فأنه إليها في حالات الحرب أحوج[2].

ومنعت الوثيقة أيضاً الغدر الذي كان منتشراً في مجتمع يثرب قبل الإسلام. فصرحت بالقول (انه لا يحجز على ثأر حرج وانه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وان الله على ابر هذا) [3].

ثانياً: مساواة الجميع أمام القانون.

لقد كان التفاضل بالمال والجاه وكثرة الأبناء وقوة القبيلة السمة البارزة في مجتمع يثرب المشرك قبل مجيء الإسلام. فالمجتمع آنذاك كان مقسماً إلى (سادة وسوقه وموالي عتق) ولكل واحد من هؤلاء مكانته الاجتماعية وسط الناس، فكانت أحكامهم تقضي بأن دية القتيل من السيد مضاعفة لدية السوقة ويسمونها بالتكايل في الدماء فيقدر دم السيد بعشرة من السوقة[4].

ولما جاء الإسلام قام بنسخ تلك الأحكام الجائرة التي تتصادم مع الفطرة الإنسانية التي تقتضي المساواة بين البشر جميعاً وتحمل رسول الله ﷺ في سبيل ذلك المشاق الكبيرة حتى يغير ما في نفوس العرب حيال تلك المساواة (وكان أغيظ ما أغاظ قريشاً من النبي ودعوته انه كان يدعوها إلى المساواة ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ولا

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٥٠١.

(٤) المصدر السابق.

بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ولا يستعلي بعضهم على بعض) [1].

لذا فقد دعا النبي محمد ﷺ الناس جميعاً أن يكونوا جميعاً سواسية أما القانون الإلهي، غنيهم وفقيرهم، أسودهم وأبيضهم، مسلمهم وذميهم، قال تعالى (يا أيها الذين امنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هواقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) [2].

وبهذا القانون الجديد تحطمت كل الأعراف والأحكام الجاهلية الوضعية وحل محلها الميزان السماوي الأوحد (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) وقد شملت المساواة في النفقات المالية ودعم الدفاع عن الدولة الذي هومسؤولية الجميع. قال الرسول محمد ﷺ (وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) [3].

ومن جانب آخر أعطت الوثيقة الاستقلال المالي لكل طائفة، يقول الرسول محمد ﷺ (وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم) [4].

كما شملت المساواة النصح والبر بين المسلمين واليهود، قال الرسول الكريم محمد ﷺ (وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم) [5].

كما اوجب عليهم الدفاع المشترك ضد أي عدوان، قال الرسول محمد ﷺ (وان بينهم النصر على من دهم يثرب.. وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)[6].

ثالثاً: البعد السياسي في وثيقة المدينة.

يتجلى هذا البعد المستوحى من بنود الوثيقة بمحورين أساسيين هما؛ مرجعية الحكم وأساس المواطنة، فالمحور الأول يتعلق بولادة الدولة الإسلامية التي أرست

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المائدة / ٨.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣.

(٤) ابن سيد الناس، ١/ ٢٦٢.

(٥) ابن سيد الناس، ١/ ٢٦٢.

(٦) ابن سيد الناس، ١/ ٢٦٢.

موطنها الأول عقب بيعتي العقبة الأولى والثانية، عندما التقى رسول الله ﷺ ببعض الوفود العربية وعرض عليهم الإسلام ثم توالت الأحداث إلى أن اتخذ رسول الله ﷺ من المدينة مقراً لدولته الفتية، وأصبح قائداً للأمة من خلال مرجعية الحكم التي تولى إدارتها بحكمته اللامتناهية، وقد أشارت الوثيقة إلى تلك المرجعية بقولها (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله والى محمد (ص»[1].

ولما كان رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى وبموجب قانون (وأطيعوا الله والرسول) في تنفيذ الأحكام فأن السلطة السياسية والتشريعية كانت بيد رسول الله ﷺ ولهذا نجد إن فض النزاعات والخلافات منوط به ﷺ، قال تعالى (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا واطعنا) [2].

وهنا لابد من التأكيد إن الوثيقة ركزت في مجال الحكم على إقامة العدل وتنظيم القضاء فكان رسول الله ﷺ هوقاضي الدولة الأول يحكم بموجب الأمر الإلهي (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [3]، (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) [4].فإذا ما حصل التنازع بين المؤمنين فمرده إلى الرسول ﷺ قال تعالى (فأن تنازعتم في شيء بينكم فردوه إلى الله والرسول إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) [5].

لقد كان النبي ﷺ يجمع بين (السلطة التشريعية والقضائية) ويحكم بين الناس بما يوحي إليه ربه ولما كان الرسول يعمل بوحي من السماء فقد عزم اليهود انه إذا وقع الشجار بينهم، فأنهم يلجئون في تحاكمهم إلى الرسول لثقتهم بعدله. قال تعالى (فان جاءوك فاحكم بينهم أواعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) [6].

أما محور المواطنة في الوثيقة فتحدده علاقة الفرد بالدولة وما تتضمنه تلك العلاقة

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣.

(٢) النور/ ٥١

(٣) النحل/ ٩٠

(٤) النساء / ٥٨

(٥) النساء ٥٩.

(٦) المائدة/ ٤٢

من قانون يحدد نمط العلاقة وطبيعتها فالمواطنة (تدل ضمناً على مرتبة من الحرية مع ما يصحبها من مسؤوليات)[1].واعتبرت الهجرة إلى المدينة أساس المواطنة للمسلم وهذا يعني رابطان أساسيان هما الإيمان أولاً والولاء للنظام المعمول به في الدولة ثانياً.[2].

نتائج البحث.

توصلت الدراسة إلى جملة نتائج اوجزها الباحث بالنقاط التالية:

١. شكلت بنود الوثيقة خريطة دولة المدينة الحديثة في عصر لم يعهد هذا النمط من الدول، لذا فقد كانت الاستجابة لها عظيمة فظهرت إلى الوجود كقوة عظمى نافست نظيراتها من حيث المكانة والعلاقات الدولية في فترة قصيرة من الزمن.

٢. أبرزت الوثيقة القيادة الفذة للرسول محمد ﷺ للأمة المجتمعية في المدينة، والإجماع الحاصل عليه في إدارة دفة دولة المدينة بالرغم من وجود أطياف مختلفة متضادة في أفكارها وأيديولوجياتها العقدية.

٣. نظراً لتركيز الوثيقة على قضايا الأمن الجماعي والتعايش السلمي وحرية الاعتقاد فأن المسلمون على قلتهم استطاعوا أن يديروا شؤون المدينة ويتصدون لجميع أنشطتها السياسية والاجتماعية.

٤. إن المضمون العام للوثيقة فيه تأصيل للمرجعية الإسلامية لدولة المدينة بحيث نستطيع أن نستخرج كليات أساسية من أحكام هذه الوثيقة.فهناك العديد من الأحاديث والآيات وعدد آخر من التجارب الذاتية والمحلية في تاريخ المسلمين التي تؤيد المشروع الكبير الذي استهدفته هذه الوثيقة.

٥.حث المفكرين الإسلاميين على إجراء دراسات سياسية وقانونية واجتماعية على أحكام وبنود الوثيقة لغرض إمكانية تطبيقها على ارض الواقع، والاستفادة من تجربة دولة المدينة التي أنشاها الرسول الأكرم ﷺ.

---

(١) حميد، وثيقة المدينة الدلالة والمضمون / ٢٦.

(٢) المصدر السابق / ٢٨.

دور الإمام علي (عليه السلام)
في إحياء السنة النبوية

- نهج البلاغة مصدرا -

د. انتصار عدنان عبد الواحد العواد
كلية الآداب - جامعة البصرة

د. انتصار عدنان عبد الواحد العواد
كلية الآداب - جامعة البصرة

الدكتورة انتصار عدنان عبد الواحد العواد، استاذة مادة السيرة النبوية في قسم التاريخ / كلية الاداب / جامعة البصرة. حصلت على الماجستير عام ٢٠٠٧ عن رسالتها الموسومة (السيدة فاطمة الزهراء ع دراسة تاريخية) وبتقدير (امتياز)، وحصلت على الدكتوراه عام ٢٠١٤ عن اطروحتها الموسومة (النبي محمد في رؤية امير المؤمنين ع دراسة في نهج البلاغة) وبتقدير (امتياز). ولها اربع مؤلفات مطبوعة وثلاث عشر بحثا علميا. ولها مشاركات في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية.

السنة لغة مأخوذة من (سنّ)، وهوجريان الشيء وإطراده في سهولة.[1] أما السنة اصطلاحا: هي ما شرعه رسول الله ﷺ قولا، أوفعلا، أوتقريرا. وهي ما أمر به النبي أونهى عنه، أوما ندب إليه، والمندوب ينطق به الكتاب العزيز[2].

تعد السنة النبوية ثاني مصدر للتشريع في الإسلام بعد القرآن الكريم، وحجيتها من أكبر ضروريات الدين عند المسلمين[3]. وجاءت الحاجة إلى السنة النبوية لأن الكتاب العزيز «مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»[4]، كما أن القرآن ليس متكفلاً ببيان جميع الأحكام، ولا بخصوصيات ما تكفل بيانه من العبادات كالصلاة والصوم فلم يتعرض لبيان الأجزاء والشرائط والموانع[5]. ولذا قال سبحانه مخاطبا رسوله الكريم: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»[6]، وقال أيضا: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»[7]

إن ظاهر الكتاب لا يغني الأمة عن السنة، وهي لا تفارقه حتى يردا الحوض على

---

(١) ابن فارس: معجم مقايس اللغة، تح وضبط: عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ ٣/ ٦٠.

(٢) ابن الأثير: النهاية: في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر الزواوي - محمود الصناجي، ط٤، قم، ١٣٦٤ ش، ٢/ ٤٠٩.

(٣) لمزيد من التفاصيل ينظر:. محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن، ط٢، مؤسسة أهل البيت، النجف، ١٩٧٩ص١٩٩ - ٢٥١.

(٤) سورة آل عمران الآية ٧.

(٥) السيد الخوئي: معجم رجال الحديث، تح: لجنة التحقيق، ط٥، ب.مكا، ١٩٩٢م،١ / ٢٠.

(٦) سورة النحل الآية ٤٤.

(٧) سورة النساء الآية ٨٣.

النبي ﷺ، وحاجة الأمة إلى السنة لا تقل عن حاجتها إلى الكتاب، وأنها في مجالات الاستدلال صنوالكتاب وفي رتبته، بل هما واحد من حيث انتسابهما إلى المشرع الأول وهوالله عز وجل، ولا يمكن الاستغناء به عنها[1]، وروي أن جبرائيل كان ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها كما يعلمه القرآن[2]. وليس القول بأهمية السنة النبوية وحجيتها وتبيينها للقرآن من القول الجزاف، وبلا دليل يركن إليه، فقد دلت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية على ذلك.

إن منزلة السنة النبوية وأهميتها نابعة من منزلة النبي الأعظم ﷺ وأهميته، لأنها ثمرة من ثمرات وجوده المقدس، وعليه لا يمكن معرفة أهميتها إلا إذا تعرفنا على منزلة نفس النبي الأعظم ﷺ وأهميته، وهذا الأمر تكفلت به الآيات القرآنية على أكمل وجه، إذ تحدثت كثير من آيات الكتاب العزيز عن الموقعية الدينية التي يمثلها شخص النبي الأعظم ﷺ، وعن قداسة كل ما يصدر عنه من قول أوفعل أوتقرير، وهذا ما نتلمسه من الآيات القرآنية الدالة على وجوب الإيمان بالنبيﷺ[3]، كذلك دعت الآيات القرآنية إلى ضرورة التأسي بكل حركات هذه الشخصية العظيمة وسكناتها والاقتداء بها، إذ وصفته بأكمل أنواع الوصف وبما لم يوصف به نبي ولا رسول قبله. فقد وصفه الله تعالى في كتابه بأنه على خلق عظيم[4]، وبالسراج المنير الذي يمد الناس بالهداية[5]. ولم يكتف عز وجل بهذا التعظيم والتبجيل لشخصه ﷺ في القرآن بل اوجب على المؤمنين تعظيمه وتبجيله وتوقيره، رافضا التعامل معه على انه فرد مثل بقية الافراد، ومن ذلك ما أمر به سبحانه المؤمنين أن لا يخاطبوه كمخاطبة بعضهم لبعض وألزم عليهم أن يوقروه [6]، وأمرهم أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، ثم هدد

---

(١)- محمد تقي الحكيم: الأصول العامة: ص ٢٥٠- ٢٥١.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية،تح وتعليق: أحمد عمر هاشم، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٧.

(٣) كما ورد في سورة النساء الآيتان ٦١، ١٣٦، وسورة الأعراف الآية ١٥٨، وسورة التوبة الآية ٩١، وسورة النور الآية ٦٢، وسورة الفتح الآيتان ٨ ٩، وسورة الحجرات الآية ١٥.

(٤) سورة القلم آية ٤.

(٥) سورة الأحزاب ٤٥ - ٤٦.

(٦) كما جاء في سورة النور الآية ٦٣.

من يرفع صوته بحبط العمل وضياع الإيمان[1]، وألزم الأمة بضرورة الإيمان به، على أساس أن الإيمان به يعني التصديق به والإذعان برسالته وبما جاء من عند الله سواء جاء في الكتاب أم لا، ولا اقل من أن عدم إتباعه ينافي الإيمان به والتصديق[2].

لقد أكدت الآيات القرآنية على وجوب طاعة الرسول ﷺ وإن طاعته من طاعة الله[3]، وتؤكد على الإيمان بكل ما جاء به وبكل ما قاله، وإلا لا يكون التصديق تاما، ولا الإيمان كاملا، ومن الواضح إن إطلاق لزوم الإيمان والتصديق معناه الأخذ بكل ما صدر عنه ﷺ. فيما تأتي آيات أخرى تدل على مدح النبي الأعظم ﷺ في خلقه ووظائفه والأوامر الإلهية التي وجهت إليه، وإذا رصدناها وجدناها التوكل على الله[4]، والهداية إلى الصراط المستقيم والدعوة إليه[5]، والحكم بين الناس بما انزل الله[6]، وعدم إتباع أهواء الكافرين[7]وتبليغ ما نُزل إليه[8]، وإنه على شريعة من الأمر[9]، وغيرها من الدلالات المنضوية تحت هذه المفاهيم التي يتبين منها أن النبي ﷺ هومعيار الهداية والرشاد[10]. ولذا أوجب الله تعالى على الأمة طاعة نبيه ﷺ بشكل مطلق[11]. وقرن الله طاعته بطاعة رسوله ﷺ مما يوجب الإلزام بحجية كل ما يصدر عنه، ومما يعزز هذا المعنى إفراد الأمر بطاعة الرسول ﷺ في بعض الآيات عن طاعة

---

(١) كما جاء في سورة الحجرات الآية ٢.

(٢) كما جاء في سورة التغابن الآية ٨، وسورة الفتح الآية ١٣.

(٣) كما ورد في سورة آل عمران الآية ٣٢. وسورة النساء الآية ٥٩، وسورة المائدة الآية ٩٢، وسورة الأنفال الآيات ٢٠ ٢١، ٤٦، وسورة الأحزاب الآية ٦٦، وسورة التغابن الآية ١٢.

(٤) سورة النمل آية ٧٩.

(٥) سورة المؤمنون آية ٧٣، سورة يس آية ٣- ٤، سورة الشورى آية ٥٢ - ٥٣.

(٦) سورة المائدة آية ٤٨- ٤٩.

(٧) سورة الأحزاب الآيتان ١ – ٢.

(٨) سورة المائدة آية ٦٧.

(٩) سورة يوسف آية ١٠٨، سورة الجاثية آية ١٨.

(١٠) حيدر حب الله: حجية السنة في الفكر الاسلامي قراءة وتقويم، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، ٢٠١١م،ص ٧٠ – ٧١.

(١١) كما في سورة النساء ١٣ – ١٤، ٦٤، ٦٩، ٧٩ - ٨٠، وسورة النور الآية ٥٤، وسورة الأحزاب الآية ٣٦، ٧١، ومحمد الآية ٣٣، سورة.

الله سبحانه مما يؤكد انه ليس المراد واحد، وان رجعت طاعة الرسول بعنوانها إلى طاعة الله تعالى[١]، وبلوغ النبي ﷺ منتهى الكمال، أهله لإن يكون منهجا يتأسى الخلق به فيسيروا على خطاه[٢].

وهناك مجموعة أخرى من الآيات تبين إن من أهم وظائف النبي الأعظم ﷺ أنه مبين للقرآن ومفسر له[٣]، وتدل على إن النبي ﷺ سيتولى أمر بيان القرآن وبتوضيحه آياته وذلك لا يكون إلا من خلال سنته وعمادها الأول أحاديثه الشريفة[٤]. وضمن إطار وظائفه الشريفة أيضا أوكل القرآن له ﷺ مهمة تعليم الكتاب والحكمة[٥]، وكانت هذه الآيات - الدالة على تعليم الكتاب والحكمة - من ابرز ما ذكره الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) في كتابه (الرسالة)[٦] تأسيساً لمبدأ حجية السنة، ولعله أقدم بحث نظري أصولي إسلامي وصل إلينا، لذلك عد بعضُ نقاد السنة إن الشافعي هومؤسس نظرية حجية السنة في تاريخ المسلمين[٧]. وسيأتي مناقشة هذا الرأي فيما بعد.

لما بلغ النبي ﷺ من صفات الكمال ارقاها، بعد أن صنع على عين الله ورعايته، وبعد أن أدبه ربه فأحسن تأديبه، إذ وصل إلى مرتبة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٨]، فصار خلقه ﷺ إلهيا، ومنطقه إلهيا وتفكيره إلهيا، فكيف لا يقتدى به ويسار على أثره[٩]. فيكون كل ما أتى به إنما هووحي من الله وانه ﷺ غير قادر على

---

(١) حب الله: حجية السنة ص ٨٨، كما في سورة النساء الآية ٨، ٦٤.

(٢) كما في سورة البقرة الآيات ١٤٢ - ١٤٤، سورة آل عمران آية ٣١، سورة الأنعام الآية ١٥٥، سورة الأعراف الآية ١٥٧ - ١٥٨، سورة الأحزاب آية ٢١ - ٣٧.

(٣) سورة النحل الآية ٤٤، ٦٤.

(٤) ينظر مثلا: سورة البقرة الآيات ١٢٩ - ٢٣١، سورة آل عمران الآية ١٦٤، سورة النساء آية ١١٣، سورة الأحزاب آية ٣٤.

(٥) كما ورد في سورة البقرة الآية ١٥١. وسورة الجمعة الآية ٢.

(٦) ص٧٨.

(٧) حب الله: حجية السنة: ص ٧٩.

(٨) سورة النجم ٣ - ٤.

(٩) البلداوي: فضائل أهل البيت عليهم السلام بين تحريف المدونين وتناقض مناهج المحدثين (دراسة لاثبات وقوع التحريف والتناقض في مصادر الحديث وقواعده عند العامة واثر ذلك في فضائل اهل البيت عليهم السلام، ط١،العتبة الحسينية المقدسة،منشورات الاعلمي،بيروت،٢٠١٢ م،ص٢٥.

أن يأتي بشيء من عنده أويتقول على الله سبحانه[1]، ففي الآيات دلالة واضحة على وحيانّية السنة النبوية. وإن القرآن من خلال هذا الكم من آياته الشريفة أسس لحجية السنة النبوية، وفيه دلالة واضحة على وجوب التعبد المحض بكل ما يصدر عن النبي الأعظم.

وفضلا عن الايات القرآنية فقد دلت الاحاديث النبوية على عظيم مكانة السنة النبوية في التشريع الإسلامي ومرجعيتها الدينية الملازمة للقرآن، وتقع الروايات الواردة في هذا المجال ضمن عدة مجموعات أهمها:

أولاً: ما دل على أن النبي ﷺ أوتي غير القرآن وانه يشرع منه، وقد شكل هذا الفرع الالهي امتدادا طوليا في تشريع الاحكام وبيانها مع القرآن الكريم وهذا مايشير إليه قول النبي المصطفى ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله، ألا وإني أوتيت القرآن ومثله، ألا يوشك رجل شبعانا على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم حلالا فأحلوه، وما وجدتم حراما فحرموه»[2]،

ثانياً: ما دل على أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما أمره الله كقوله ﷺ: «يا أيها الناس إني ما آمركم إلا ما أمركم به الله، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه»[3].

ثالثا: ما دل على الإلزام بطاعة النبي ﷺ كقوله: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله«[4].

رابعا: ما دل على إتباع سنته ﷺ وإحيائها، كقوله: «من أحيا سنتي من بعدي، فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة «[5].

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ - ٤٦.

(٢) ابن حنبل: المسند، ب.محق، دار صادر، بيروت، ب.ت ٤ / ١٣١. الطبراني: المعجم الكبير تح: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ب.ت، ٢٠/ ٢٨٣. البيهقي: السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، ب. ت،٩ / ٣٣٢.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير:٣/ ٨٥.

(٤) البخاري: الصحيح،، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ، ٤/ ٨. مسلم: صحيح مسلم، ب. محق، دار الفكر، بيروت، ب. ت، ٦/ ١٣

(٥) الترمذي: سنن الترمذي: تح: عبد الوهاب عبد اللطيف، ب.ط، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ، ٤/ ١٥١. المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ط٢، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٠_١٩٦٧، ٧/ ٥٠٤.

خامسا: ما دل على الحث على الاستماع إلى كلام النبي وحفظه ونقله وعدم جواز الكذب عليه أوكتم حديثه، كقوله ﷺ: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع »[6]. وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولوآية، وحدثوا عني ولا تكذبوا، فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[7].

وقبل أن نأتي إلى مكانة السنة النبوية في نهج البلاغة لنقف على رؤية أمير المؤمنين ﵇ لها، ولا بد لنا أولا الوقوف قليلا عند الإشكال الذي طرحته بعض المؤلفات في تناولها لموضوع سنة النبي ﷺ، وهوما يتعلق بـ «مصطلح السنة النبوية»، فهل كان معروفا في القرن الأول الهجري بالمعنى الذي بتنا نفهمه اليوم وهوشمول المصطلح (السنة النبوية) كل ما صدر عن النبي من قول اوفعل اوتقرير، واكتسابها سلطة تشريعية تلي القرآن الكريم في المنزلة؟ إذ نلاحظ تغيب مصطلح - السنة النبوية - عن آيات القرآن الكريم، على الرغم من ورود لفظة «السنة «في ست عشرة آية[8]، ولكن افاد معناها كيفية تعامل الله مع الشعوب السابقة «الاولين».[9]. فالقرآن رغم إشارته الى لفظة (السنة) إلا انه لم يربط بين السنة في مفهومها العام وأقوال الرسول وأفعاله وتقريراته.[10].

لكن عدم ورود المصطلح (حرفيا) في كتاب الله لا يعني إلغاء وجوده ومعناه، فقد مر بنا أعلاه كيف إن القرآن قد أصل مبدأ حجية السنة النبوية من خلال مجموعة من الآيات التي يستفاد منها وجوب إتباع النبي ﷺ وطاعته في كل ما يصدر عنه قولا اوفعلا اوتقريرا، وان طاعته ملازمة لطاعة الله، وما يأتي به إنما هوعن الله تعالى. ورغم ورود لفظة «سنتي «في أحاديث النبي الأعظم ﷺ الآنفة الذكر، إلا إن من بحثوا في

---

(٦) ابن حنبل. المسند: ٥/ ٤٥. البخاري: الصحيح: ٢/ ١٩١.

(٧) البخاري: الصحيح: ١/ ٣٥. ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ب. ت، ١/ ١٣.

(٨)ينظر مثلا: سورة الأنفال الآية ٣٨، سورة الكهف الآية ٥٥، سورة الأحزاب الآية ٣٨، سورة فاطر الآية ٤٣.

(٩) محمد حمزة: الحديث النبوي في الفكر الاسلامي، ط١، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٥ م، ص٢٣.

(١٠) حمزة: الحديث النبوي: ص٢٣.

هذا الإشكال تجاهلوها عمداً، فلم تخضع لأي تحليل سندي أودلالي يبرر تجاهلها، إذ إن وجودها - نصا - في تلك الأحاديث يستوجب عدم تجاوزها، أوعلى الأقل التثبت من صحتها، لإن ذلك سيسهم في حل الإشكال المطروح حول تاريخ ظهور المصطلح كما سبق.

لقد ذكر باحث معاصر: «أما السنة في مفهومها الإسلامي الأصيل فان لها دلالة سياسية أكثر من دلالتها الشرعية ذلك أنها ترتبط بسياسة الخليفة وإدارته، من ذلك إن مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٣٥هـ) حف به اتهامه بأنه حاد عن سياسة الخليفتين أبي بكر وعمر وفي هذا الظرف بالذات ظهر مفهوم «سنة النبي«الذي لم يأخذ بعد مفهوما تشريعيا محددا بقدر ما كان مرتبطا بسنة الخليفتين أبوبكرٍ وعمر»[1].

لكن تفحص نصوص نهج البلاغة يقدم لنا رؤية مغايرة لهذه الرؤية، فانهّ يقدم السنة على انها ذات بعد تشريعي شامل في مفهومها. وأما غلبة الصبغة السياسية على السنة النبوية لارتباطها بسياسة الخلفاء، فهذا يعود الى أن من تولى السلطة بعد النبي ﷺ كان توليهم سياسيا مفرغا من الجانب التشريعي، إذ أنهم لم يستندوا إلى الشرع المقدس، فكما هومعلوم أنهم جانبوا النص الإلهي والتوصية النبوية، وكان اعتلائهم سدة الحكم اعتمادا على القهر والغلبة والتحايل السياسي. أما عن القول بان مفهوم سنة النبي لم يأخذ بعده التشريعي لارتباطه بسنة الخليفتين أبي بكر وعمر، فهذا من اثر ما استنه الأخيران من سنة لم تتساواوتتوافق مع سنة النبي ﷺ بل نشأت في قبالتها.

إن القول بان - سنة النبي- ارتبطت ذلك الوقت بسنة الخليفتين، فهوتفسير قد يبدوصحيحا من جانب ظهور ما يسمى «بسيرة أوسنة الشيخين «إلى جانب كتاب الله وسنة النبي، وقد نشأت أجيال على الاعتقاد والتسليم بهذا الأمر، ولكن لا يمكن تضييق فهم المجتمع برمته للسنة النبوية من هذا المفهوم، ولا سيما أن الإمام علياً عليه السلام وأتباعه كانت لهم رؤية خاصة ومفهوم مغاير لسنة النبي ﷺ كما سيأتي بيانه. وقد جاءت الإشارة لدى احد النقاد إلى إن هذا المصطلح بمفهومه التشريعي الشامل قد ظهر في نهاية القرن الأول الهجري، اعتمادا على وثيقتين استخدمتا تعبير «سنة

---

(١) حمادي ذويب: السنة بين الاصول والتاريخ، ط١، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٢٤.

النبي «والوثيقتان هما: الأولى: رسالة عبد الله بن أباض الخارجي[1] إلى عبد الملك بن مروان، إذ وردت الإشارة فيها إلى سنة النبي ﷺ ست مرات[2]. والثانية: رسالة الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) إلى عبد الملك بن مروان أيضا، أرسلت في المدة نفسها»[3]

يخلص ذويب بعد نفيه أن ماورد في الوثيقتين اعلاه لا تعني السنة النبوية إلى القول: «إن الموطن الأصلي لعبارة سنة النبي هوالعراق، وإنها كانت اقرب إلى العراقيين منها إلى المدنيين... وهكذا ينبغي أن ننتظر «المحدث الشافعي»ورسالته في أصول الفقه حيث فرض السنة بكونها مجموعة الأحاديث النبوية الصحيحة وبصفتها المصدر «الموضوعي»الثاني أوالأصل الثاني للشريعة بعد القرآن «وقد استدل على اعتبار الشافعي هوالمؤسس لنظرية حجية السنة النبوية وأنها ثاني مصادر التشريع إلى جانب القرآن بـالتواتر غير المعهود قبله لعبارة سنة النبي والأقوال العديدة التي ضمنها ضرورة إتباع سنة النبي ﷺ. ثم ذكر الشافعي للسنة ضمن مصادر التشريع الأخرى. ومن ثم فإن السنة حسب قوله قد اكتسبت هذه المنزلة الأثيرة، اثر اعتبار الشافعي لها وحيا من نمط يختلف عن وحي الكتاب[4].

ولنرى مدى صحة أسبقية الشافعي في طرح الرؤية أعلاه لابد من الرجوع لما أثر عن أمير المؤمنين في كتب التراث سيما نهج البلاغة. لقد وردت الإشارة إلى السنة النبوية لفظا ومعنى عدة مرات في نصوص نهج البلاغة. ويتضح جليا من خلال تأمل هذه النصوص واستقرائها، إن لأمير المؤمنين ﷺ نظرة خاصة تميزه عن غيره في تعامله مع سنة النبي الأعظم ﷺ، كما إن تلك النصوص تؤرخ لنا عن تلك المرحلة التي مرت

---

(١) هوعبدالله بن إباض من بني مرة بن عبيد بن تميم، زعيم احدى فرق الخوارج في العصر الاموي، كانت له مواقف سياسية وعسكرية وفكرية في العصر الأموي، انتشر مذهبه في المغرب الاسلامي. ينظر: البغدادي: الفرق بين الفرق، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت،، ٢٠٠٥، ص٧٠. الشهرستاني: الملل والنحل اشرف على تعديل هذا الكتاب وقدم له: صدقي جميل العطار، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢،ص١٠٨.

(٢) حمزة: الحديث النبوي: ص٢٤. ذويب: السنة بين الاصول والتاريخ: ص٤٤.

(٣) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح: فؤاد سيد، تونس، ١٩٧٤، ص ٢١٥-٢١٦.

(٤) ذويب: السنة بين الاصول والتاريخ: ص ٤٥-٤٦.

بها السنة في تاريخها بعد رحيل النبي الأعظم ﷺ، وكيف تعاملت الأمة معها؟ حتى تولى أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة نهاية سنة (٣٥ هـ). ويمكن تلخيص أبعاد رؤية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للسنة النبوية في ضوء نهج البلاغة بالنقاط الآتية:

أولا: يلاحظ إن أمير المؤمنين عليه السلام نعت سنة النبي ﷺ بمزيد من التقديس والاجلال، إذ يقول واصفا إياها: «وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِه فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ»(١)، وقال عنها: «وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ»(٢)، ولعل ذلك متأت من تقديسه لذات النبي ﷺ ولكل ما يصدر عنه، وان سنته هي الطريق إلى معرفة أحكام الله، وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ ولَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ [دِينَهُ] الَّذِي رَضِيَ لِنفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُم عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ»(٣) كما قال سبحانه: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»(٤)، لذا نجده A دأب على الدعوة إلى التأسي به ﷺ وإتباع سنته الشريفة وعدم تضييعها، كما هوواضح في أقواله الواردة في خطب النهج وكلماته: «فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ ﷺ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى»(٥)، ونجده حتى آخر لحظات حياته يوصي الأمة قائلا: «وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لاَ تُشْرِكُوا باللهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ»(٦)، إذ انه عليه السلام في هذا المقطع يجعل اتباع السنة وحفظها دليلا على الإيمان بنبوة النبي محمد ﷺ، وقرينه لتوحيد الله جل في علاه.

ثانيا: نلاحظ تأكيد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على ملازمة السنة للقرآن الكريم في عدة إشارات وردت واضحة في كلامه الشريف كقوله عليه السلام: «إنَّ اللهَ تَعالَى بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَاب نَاطِق وَأَمْر قَائم»(٧)، وكقوله في أمر الصدقات: «... لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ

(١) نهج البلاغة: ص ٢١١.

(٢) نهج البلاغة: ص١٧٦.

(٣) نهج البلاغة: ص١٣٧.

(٤) سورة الحشر آية ٧.

(٥) نهج البلاغة: ص٢٩٨.

(٦) نهج البلاغة: ص٥١٦.

(٧) نهج البلاغة: ص٣٢٤.

اللهِ وَسُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ فَإِنَّ ذلكَ أَعْظَمُ لأَجرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَاللهُ»[1]، وقوله في وصيته لعامله على مصر مالك الأشتر: «وَارْدُدْ إِلَى الله وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سبحانه لقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ: الأخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ: الأخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ»[2]. وقوله ﷺ إبان تسلمه مقاليد الحكم وهويتعهد أمام الأمة راسما معالم سياسته وحقيقة منهجه: «وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تعالى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ»[3]. وأيضاً قوله في عهده لواليه على مصر مالك الاشتر بعد أن عد جميع أصناف المجتمع وبين ما لهم وما عليهم، فأشار إلى إن جميع ألاحكام وارد في الكتاب والسنة: «وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَةٍ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ - ﷺ - عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً»[4].

أن لهذه النصوص ابعاد دلالية، يستلزم الوقوف عليها بيانا لابعادها، وهوما يمكن بلورته في جملة من النقاط، وهي:

أ أن للسنة ما للكتاب من شأن ومكانة في التشريع الإسلامي، ولولا أن السنة مصدر ديني فلا موجب لذكرها إلى جانب القرآن، فكلاهما مصدره واحد ألا وهوالله سبحانه وتعالى، فهوالذي أنزل القرآن وأمر فيه بإتباع ما جاء به النبي ﷺ (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[5]، فكانت مهمته ﷺ غاية في الخصوصية والأهمية لتبيين هذا القرآن وتوضيح ما جاء فيه، وهذا ما أشار إليه الإمام ﷺ في حديثه الآنف الذكر«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لكل شيء»، «وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَ لَكُمْ ـفِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ [دِينَهُ] الَّذِي رَضِيَ لِنفْسِه، وَأَنْهَى إِلَيْكُم عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَ أَوَامِرَهُ»[6]. وقوله ﷺ: «فَالْقُرآنُ... حُجَّةُ اللهِ عَلَى

(١) نهج البلاغة: ص٥٢١.
(٢) نهج البلاغة: ص٥٩٩ ٦٠٠.
(٣) نهج البلاغة: ص٣٢٥.
(٤) نهج البلاغة: ص٥٩٦.
(٥) سورة الحشر آية ٧.
(٦) نهج البلاغة: ص١٣٧.

خَلْقِه،...أَتَمَّ نُورَهُ، وأكمل[-أَكْرَمَ] بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ - ﷺ - وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحكَامِ الْهُدَى بِهِ»[1]. وقال ﷺ في مقطع آخر استنكاري: «أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ- ﷺ - عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ؟ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: (مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْء»وَفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْء»[2].

ب إن هذا التلازم بين كتاب الله وسنة نبيه ﷺ هوالذي أقرته السماء بجعلها النظام الإلهي يرتكز على ركنين أساسيين هما كتاب الله المنزل ونبيه المرسل وهوالمصطفى محمد ﷺ بقوله وفعله وبتقريره، يقول أمير المؤمنين ﷺ: «وَلَمْ يُخْلِ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَل، أَوْ كِتَاب مُنْزَل»[3]. فالنظام الإلهي لا يعمل إلا بالاثنين معا، ولا يعطي أكله إلا بركنيه، إذ إن هناك وحدة عضوية بين القرآن المنزل والنبي المرسل، فالقرآن معجزة النبي ودليل نبوته، والنبي هوالشاهد الأوحد على أن القرآن من عند الله، وان مهمته هي بيان ما انزل للناس من ربهم[4]. وهذا ما سبقت إشارة الإمام إليه في النص الآنف الذكر أعلاه إذ يقول: (وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيْءO وَفِيهِ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْء) [5]. وقد جرت محاولات من قبل الطامعين في السلطة قبيل رحيله ﷺ لهدم هذه الوحدة العضوية، تمهيدا لتفكيك النظام الإلهي، فادعوا تمسكهم بالقرآن وحده وانه لا خلاف عليه، بإطلاقهم بدعة «حسبنا كتاب الله »[6]، وعزلوا النبي، وقد وجهت نحوه سهام تشكيكهم وطعنهم في قداسته وعصمته، فنالوا من سنته واتهموه بالهجر والهذيان[7]. فهنا يأتي تأكيد أمير المؤمنين ﷺ على تلازم

(١) نهج البلاغة: ص٣٥٦.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٦ - ٤٧.

(٣) نهج البلاغة: ص٢٠.

(٤) احمد حسين يعقوب: الخطط السياسية لتوحيد الأمة الاسلامية، ط٢، دار الفجر، لندن، ١٤١٥ ه، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٥) نهج البلاغة: ص٤٦ ٤٧.

(٦) قاله عمر في يوم وفاة النبي ﷺ حينما طلب النبي دواة وكتفا ليكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده أبدا. فقال عمر: أن النبي ﷺ قد غلبه الوجع. ينظر: ابن حنبل: المسند ١/ ٣٢٥-٣٣٦. البخاري: الصحيح:٥/١٣٨_ ٧/ ٩. مسلم: الصحيح: ٥/ ٧٦.

(٧) ينظر: النووي: شرح صحيح مسلم، ب.محق، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧، ١١/ ٨٩.

القرآن والسنة ضمن خطواته للتصدي لتلك المؤامرة الرامية للنيل من سنته ﷺ، وما تركته من آثار وخيمة جعلت السنة معطلة مهملة، وهذا ما جاء في أقواله عليه السلام المؤكدة والدالة على أن السنة قد عطلت والبدعة قد أحيت.

ثالثاً: نلحظ منه عليه السلام تأكيدا مباشرا أوضمنيا على وجوب التسليم المطلق والتعبد المحض لكل ما يصدر عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال، إذ نجده يقول: «وَأَنْعِم الْفِكْرَ فِيما جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ وَلاَ مَحِيصَ عنه»[1]؛ لان قوله إنما هووحى من الله لا يخالفه قيد أنملة قط «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ»[2]، ونلمح ما يتساوق مع هذه الآية في كلماته عليه السلام إذ يقول لولده الامام الحسن عليه السلام: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، إِنَّ أَحَدا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فارض بِهِ رَائِداً»[3]، ونجد في إشارة أخرى دالة على عصمة مقالته ﷺ وذلك في معرض حديث أمير المؤمنين عليه السلام عن أصناف رواة الحديث عنه ﷺ قال: «وَآخَرُ رابِعٌ لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَلا عَلَى رَسُولِهِ»[4]، والسؤال الذي يمكن أن يطرح هنا على هذا المقطع: إن الموضوع الذي أطلق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ضوءه هذه الكلمات إنما يتعلق بكلام وحديث رسول الله ﷺ ولا ذكر لكلام الله هنا، إذ كما سيمر بنا سأله سائل عن علل اختلاف أحاديث النبي ﷺ بين الناس فما وجه قول الإمام عليه السلام هنا: لم يكذب على الله؟ لعلنا هنا نتفق مع الحسيني[5] بقوله: «أنه عليه السلام لا ينطق عن الهوى، ولا يقول ما يقول إلا عن وحي من الله تعالى وعصمة فيما يقوله وتأييد، فهوفي الحقيقة مخبر عن الله، فالكذب عليه في الحقيقة هوكذب على الله تعالى، كما أن الطاعة له طاعة لله كما قال تعالى:«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»[6]». أليس في إشارة أمير المؤمنين عليه السلام هذه إثبات لحجية قول النبي ﷺ؟

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٨١.

(٢) سورة النجم آية ٣ـ٤.

(٣) نهج البلاغة: ص٥٤١ ـ ٥٤٢.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٤٢.

(٥) الديباج الوضي في الكشف عن اسرار كلام الوصي (شرح نهج البلاغة)، تح: خالد بن قاسم بن محمد المتوكل، ط١، مؤسسة الامام زيد بن علي الثقافية، صنعاء، ٢٠٠٣م، ٤/ ١٧٠٧.

(٦) سورة النساء آية ٨٠.

ويمكن أن تدلنا شواهد أخرى وردت في نهج البلاغة على حجية فعل النبي ﷺ أيضا برؤية أمير المؤمنين عليه السلام فسعى لتطبيقه والدعوة للعمل به حرفيا، وسنشير لها هنا إجمالا، لأننا سنذكرها تفصيلا في محل آخر لاحق من هذا البحث: منها حادثة استشارة عمر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قضية حلي الكعبة، إذ قال له عليه السلام: «فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[1]، واحتجاجه على طلحة والزبير لما عاتباه على أمر التسوية بالعطاء، إذ خالف بذلك عليه السلام من سبقه، فقال عليه السلام: «وأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فيه برَأْيِي، ولَا وَلِيتُه هَوًى مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِه رَسُولُ اللَّه - ﷺ - قَدْ فُرِغَ مِنْه»[2]. وكذلك ما أوصى به من كان يستعمله على الصدقات في حكومته، ولما احتج على الخوارج احتج بسنة النبي ﷺ «ولَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ، إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ، لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ، عَنْ كِتَابِ اللَّه سُبْحَانَه وتَعَالَى، وقَدْ قَالَ اللَّه سُبْحَانَه، " فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوه إِلَى الله والرَّسُولِ" فَرَدُّه إِلَى اللَّه أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِه، ورَدُّه إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِه، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّه، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِه، وإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّه - ﷺ -، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وأَوْلَاهُمْ بِهَا[3]» ومن وصيته عليه السلام لابن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: «لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُووُجُوه، تَقُولُ ويَقُولُونَ... ولَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً[4]»

إذن في الشواهد أعلاه بينه على حجية قول النبي ﷺ وفعله برؤية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولوكان ما جمع في نهج البلاغة شاملا لكل كلامه عليه السلام لأتحفتنا شواهد أخرى في هذا المجال.

واقع السنة بعد النبي ﷺ في ضوء نهج البلاغة:

من خلال استقراء كلمات أمير المؤمنين عليه السلام المتضمنة مفهوم وموضوع السنة النبوية نلمح انه أشار إليها بعبارات تدلل على واقع مؤلم عاشته سنة النبي بعد رحيله

---

(١) نهج البلاغة: ص٧١٣.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٣٧.

(٣) نهج البلاغة: ص٢٣٨ -٢٣٩.

(٤) نهج البلاغة: ص٦٤٦.

ﷺ وحتى تسلم الإمام ﵇ مقاليد الخلافة، مما يتوجب علينا الوقوف عند تلك الالماحات، التي يمكننا من خلالها رصد المعضلات التي تعرضت لها السنة النبوية التي منها:

أولا: تفشي ظاهرة الوضع في الحديث النبوي بالكذب على رسول الله ﷺ، وقد جاء كلام أمير المؤمنين ﵇ ليحذر منه، ويوضح إن لهذه الظاهرة جذورها التي تمتد إلى عهده ﷺ إذ يقول: «وَلقَدْ كُذبَ عَلَى رَسُولِ اللَّه - ﷺ - عَلَى عَهْدِه، حَتَّى قَامَ خَطِيباً فَقَالَ: مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ»[1]. وأما بعد النبي ﷺ فقد كان المجال أوسع لانتشار الوضع في الحديث ثم كذب عليه من بعده، حتى قال ﵇ لمن سأله عن اختلاف الحديث الذي بات يشهد تناقضا وتضاربا وكله ينسب الى النبي ﷺ فقال ﵇: «إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وبَاطِلًا، وصِدْقاً وكَذِباً، ونَاسِخاً ومَنْسُوخاً، وعَامّاً وخَاصّاً، ومُحْكَماً ومُتَشَابِهاً، وحِفْظاً ووَهْماً»[2]، وعدّ من أصناف الرواة عن النبي ﷺ «وإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ، رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ ولَايَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّه - ﷺ - مُتَعَمِّداً»[3]، هذا الصنف هوصاحب اليد الطولى في الوضع والتزوير الذي لحق بأحاديث النبي الشريفة وبيّن ﵇ موقف المجتمع منه، وما يقف وراء تقبل حديثه رغم كونه موضوعا ومكذوبا على النبي ﷺ، إذ يقول ﵇: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّه مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْه، ولَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَه، ولَكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللَّه - ﷺ - رَآه وسَمِعَ مِنْه ولَقِفَ عَنْه فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِه، وقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّه عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، ووَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِه لَكَ»[4].

ثم أشار ﵇ إلى حركة هذه الفئة المنافقة وخطرها على المجتمع: «ثُمَّ بَقُوا بَعْدَه، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ، والدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ والْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ الأَعْمَالَ، وجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ»[5]. أي أن أئمة الضلالة بسبب وضع الأخبار

(١) نهج البلاغة: ص٤٤١.
(٢) نهج البلاغة: ص٤٤٠ - ٤٤١.
(٣) نهج البلاغة: ص٤٤١.
(٤) نهج البلاغة: ص٤٤١.
(٥) نهج البلاغة: ص ٤٤١.

أعطوا هؤلاء المنافقين الولايات وسلطوهم على الناس، ويحتمل العكس أي بسبب مفتريات هؤلاء المنافقين صاروا ولاة على الناس وصنعوا ما شاءوا وابتدعوا ما أرادوا»، ثم قال ﷺ: «فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا[1]»أي معهم وبإعانتهم، والضمير الأول راجع إلى أئمة الضلالة، والثاني إلى المنافقين المفترين، ويحتمل العكس أيضا، وأشار إلى علة تقربهم إلى الولاة بمفترياتهم بقوله: «وإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ والدُّنْيَا[2]»، لكون هواهم فيها، فهم عبيد لها، ولمن في يديه شيء منها حيثما زالت زالوا إليها وحيثما أقبلت اقبلوا عليها (إلا من عصم الله) تعالى منها ومن أهلها، وهم الذين امنوا وعملوا الصالحات، وقليل ماهم[3]. ثم أشار ﷺ في موضع آخر إلى إن الأمر سوف يزداد سوءا من بعده ﷺ، إذ يقول: «وإِنَّه سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ، لَيْسَ فِيه شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، ولَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، ولَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّه ورَسُولِه «[4]. وسيمر بنا كيف سعى الإمام ﷺ لبيان سبيل النجاة من هكذا فتن ومخاطر.

ثانيا: أشار ﷺ في أكثر من مورد إلى ظاهرة «البدع «في الدين وتفشيها في المجتمع آنذاك، كما تدلنا النصوص التي سنتناولها في هذا البحث تباعا، ولكن في البدء لا بد من بيان مفهوم البدعة، فالبدع في اللغة: الاختراع والانشاء لا عن سابق[5]، اسم من الابتداع سواء كانت محمودة أم مذمومة، ثم غلب استعمالها فيما هونقص في الدين أوزيادة[6]، والبدعة في الدين: إيراد قول أوفعل لم يستن قائله أوفاعله فيه بصاحب

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٤١.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٤١.

(٣) حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تح: علي عاشور، ط٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨، ١٤ / ٢٩.

(٤) نهج البلاغة: ص٢٦٧.

(٥) الرازي: مختار الصحاح: تح: احمد شمس الدين، ط١، بيروت، ١٩٩٤، ص٣١. ابن منظور: لسان العرب، ط١، دار أحياء التراث العربي، أدب الحوزة، ب. ت: ٨/ ٦.

(٦) ابن الأثير: النهاية: ١/ ١٠٦ - ١٠٧، سعدي ابوحبيب: القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨، ص ٣٢.

الشريعة[1]، وهي كل محدث جديد على غير مثال سابق[2]، وتطلق شرعا في مقابل السنة، ولذلك هي في عرف الشرع مذمومة[3]، وروى إن أمير المؤمنين ﵇ سُئل عن السنة والبدعة فقال: «السنة ما سن رسول الله ﷺ، والبدعة ما أحدث من بعده»[4]. ويبدوإن مفهوم السنة والبدعة صارا متقابلين، فان البدعة والإحداث في الدين مما لم يكن فيه، يوجب ترك السنة، كما قال أمير المؤمنين ﵇ «ومَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ »[5].

لقد عصفت بالأمة بعد رحيل النبي ﷺ الفتن المظلمة ومن ابرزها ظهور البدع، وتجرؤ بعضهم على مخالفة الشريعة الحقة، وهوما أشار له امير المؤمنين ﵇ بقوله: «إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّه، ويَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّه»[6]. وهذا ما اكده رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا ألبستكم فتنة يربوفيها الصغير ويهرم فيها الكبير، ويجري الناس عليها ويتخذ منها سنة فإذا غير منها شيء، قيل: قد غيرت السنة، وقد أتى الناس منكرا»[7].

وإن الله قد نهى عن البدعة في الدين مبينا إن التشريع الإلهي أمر يختص بالله تعالى وهوتوقيفي فلا يجوز الاجتهاد في مقابله، وقد دل القرآن على ذلك[8]. وهوما تمثله النبي ﷺ في نهيه عن ذلك في جملة من الأحاديث منها قوله ﷺ: «ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا»[9]. وقوله: «إياكم والبدع فان كل بدعة ضلالة وكل

(١) الجوهري: الصحاح، تح: احمد عبد الغفور، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م،٣/ ١١٨٤. مرتضى العسكري: المصطلحات الاسلامية، المجمع العالمي لاهل البيت ع، ط١، بيروت، ٢٠١٠، ص٢٢٤.

(٢) الزبيدي: تاج العروس، مكتبة الحياة، بيروت، ب.ت، ٥ / ٢٧١.

(٣) سعدي: القاموس الفقهي: ص٣٢.

(٤) الصدوق: معاني الأخبار، صححه: علي اكبر الغفاري، ب.ط، قم، ١٣٦١، ص ١٥٥.

(٥) نهج البلاغة: ص٢٦٥.

(٦) نهج البلاغة: ص٨٧.

(٧) المازندراني: شرح اصول الكافي، ضبط وتصحيح: علي عاشور، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،٢٠٠٠،١١/ ٣٩٣.

(٨) ينظر مثلا سورة المائدة الآية ٤٤، ٤٥، ٤٩، وسورة الأنفال الآية ٢٠، سورة النحل الآية ١١٦.

(٩) ابن ماجه: سنن: ١/ ٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط٢، القاهرة، دار الكتب المصرية،

ضلالة سبيلها إلى النار[١]»، وقوله: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم[٢]».

وقد جاء كلام الإمام أمير المؤمنين ﷺ متناغما مع ما أمر به الله ورسوله ﷺ، مبينا مخاطر إتباع البدع، ناهيا عنها، داعيا إلى وجوب التمسك بالسنة المحمدية الهادية إلى الحق، فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّه بَعَثَ رَسُولًا هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وأَمْرٍ قَائِمٍ، لَا يَهْلِكُ عَنْه إِلَّا هَالِكٌ، وإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ»[٣]. وقال أيضا«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ وأَعْلَامَ الْبِدَعِ، والْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْه حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وبُنِيَتْ عَلَيْه أَرْكَانُ الطَّاعَةِ[٤]»، وقد حذر أمير المؤمنين ﷺ من تعطيل السنة والاتجاه نحوالبدع فان في ذلك هلاك الأمة، وهذا الأمر يتوجه إلى الحكام في البداية لان بيدهم زمام الأمور ومنهم يخاف ويرهب[٥]، قال الإمام ﷺ: «وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّه لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ والدِّمَاءِ والْمَغَانِمِ والأَحْكَامِ وإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ... الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ[٦]»، وفي نص آخر يشير إلى أهمية دور الحاكم في الحفاظ على السنة، وان ذلك يتبع صلاحه أوفساده، فيجعل ﷺ المقيم للسنة من أفضل عباد الله، والمميت لها من شر الناس، يقول ﷺ: «فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّه عِنْدَ اللَّه إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ، وإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ، وإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّه إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وضُلَّ بِه، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً[٧]». وقد شخص ﷺ أهم دلالات البدع التي يمكن إفرادها بنقاط:

١٩٦٠، ٧/ ١٣٨.

(١) ابن بابويه: فقه الرضا ﷺ، المؤتمر العالمي للإمام الرضا، ط ١، مشهد، ١٤١٠ ه،ص٣٨٣. المفيد: المسائل الصاغانية، تح: محمد القاضي، ط١، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ ه، ص٨٦.

(٢) الدارمي: السنن، ب.محق، ب.ط، الناشر: مطبعة الاعتدال، دمشق، ب.ت:١/ ٦٩. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢-١٣٥٣هـ: ١/ ١٨١.

(٣) نهج البلاغة: ص ٣٢٤.

(٤) نهج البلاغة: ص٢٧٧.

(٥) الميلاني: سيرة الرسول الاعظم ﷺ من نهج البلاغة، نشر العتبة العلوية المقدسة، النجف الاشرف، ٢٠١٢ م ص٣٠.

(٦) نهج البلاغة: ص ٢٤٧.

(٧) نهج البلاغة: ص ٣٠٩.

١ - مخالفتها لكتاب الله إذ يقول ﷺ: «يخالف فيها كتاب الله[1]» «ومخالفته أما بان لا يكون فيه ما يدل عليها، وأما إن تخالفه بان تكون مناقضة لحكمه[2]».

٢ - وقد وصف ﷺ حال المحدث في الدين بالمجهول: «وأمات بدعة مجهولة»[3] أي ما ابتدع من الأمور المضادة للسنن هو مما يجهل أمره ولا يعرف له طريق[4].

٣ - وفي نص آخر يشير ﷺ إلى إن البدع «ظاهرة» «جلي أمرها «لها أعلام «[5] قد أوضحها الرسول ﷺ وارشد إليها من اجل اجتنابها كما أشار سبحانه بقوله: «ويهديكم سنن الذين من قبلكم[6] «يعني من الأنبياء «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما»[7] مخالفا للحق مخالفة ظاهرة لا لبس فيها[8].

وهناك نصوص عديدة يحذر الإمام أمير المؤمنين ﷺ فيها من خطر البدع وأثرها السلبي على الدين والمجتمع. كقوله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّه رَجُلَان، رَجُلٌ وَكَلَه اللَّه إِلَى نَفْسه، فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْد السَّبِيل، مَشْغُوفٌ بِكَلَام بِدْعَة ودُعَاءِ ضَلَالَة، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِه ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَه، مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِه فِي حَيَاتِه وبَعْدَ وَفَاتِه، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِه رَهْنٌ بِخَطِيئَتِه»[9]، ويقول ﷺ أيضا: «إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّه فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ ويُعَاقِبُ ولَهَا يَرْضَى ويَسْخَطُ، أَنَّه لَا يَنْفَعُ عَبْداً، وإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَه وأَخْلَصَ فِعْلَه، أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّه، بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِه الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّه فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْه مِنْ عِبَادَتِه، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَه بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَه غَيْرُه، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِه[10]» وقال أيضا: «اسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِه، وعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِه وعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِه، ثُمَّ لَا

(١) نهج البلاغة: ص٨٧.
(٢) الحسيني: الديباج الوضي: ١/ ٤٥٦.
(٣) نهج البلاغة: ص٣٠٩.
(٤) الحسيني: الديباج الوضي: ٣/ ١٣٥٢.
(٥) نهج البلاغة: ص٣٠٩.
(٦) سورة النساء الآية ٢٦.
(٧) سورة النساء الآية ٢٧.
(٨) الحسيني: الديباج الوضي: ٣/ ١٣٥٢.
(٩) نهج البلاغة: ص ٤٣.
(١٠) نهج البلاغة: ص ٢٨١ - ٢٨٢.

تَمْرُقُوا مِنْهَا ولَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، ولَا تُخَالِفُوا عَنْهَا، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ... واعْلَمُوا عِبَادَ اللّه أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ، مَا اسْتَحَلَّ عاماً أَوَّلَ ويُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عاماً أَوَّلَ، وأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً، مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ،... وإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ مُتَّبِعٌ شِرْعَةً ومُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَه مِنَ اللَّه سُبْحَانَه بُرْهَانُ سُنَّةٍ ولَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ»[1].

ويمكن بلورة رؤية الامام أمير المؤمنين ﵇ في تيارين متضادين مثّلا في تعاملهما مع السنة النبوية المجتمع انذاك. وهذان التياران هما:

التيار الأول: (متبع الشرعة) ملتزم باستقاء الأحكام من القرآن والسنة، منتهجين منهج الطاعة والامتثال لمطلق الأوامر الصادرة عن الله ورسوله ﷺ دون أدنى اعتراض. وقد دأبوا على إحياء السنة، وهم الذين كان الإمام أمير المؤمنين ﵇ يتأوه على فقدانهم بقوله: «أَوِّه عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوه، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوه، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ»[2]، وهم الذين وصفهم بقوله: «طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِه... ووَسِعَتْه السُّنَّةُ، ولَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ»[3].

وقد كان امير المؤمنين ﵇ اصدق مظهر لهذا التيار وأوضحه، فهوالذي كان رائدا في مجال إحياء سنة النبيﷺ والعمل بها، بعد أن تعهد الالتزام بهذا المنهج، وكان يفتخر ويقول: «ولَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - ﷺ -، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّه ولَا عَلَى رَسُولِه سَاعَةً قَطُّ[4]»، وفي قول آخر: «واني والله لم أخالف رسول الله ﷺ قط ولم اعصه في أمر قط[5]»، وقال ﵇: «أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ[6]».

التيار الثاني: (مبتدع بدعة) وهوالتيار الذاهب إلى مشروعية الرأي وصحة الاجتهاد

(١) نهج البلاغة: ص٣٣٧ - ٣٣٩.
(٢) نهج البلاغة: ص ٣٥٤.
(٣) نهج البلاغة: ص٦٧٨.
(٤) نهج البلاغة: ص ٤٢١ -٤٢٢.
(٥) المفيد: الأمالي، تح: الحسين استاد ولي، قم، ب.ت: ص ٢٣٥، المجلسي: بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣: ٣٢/ ٥٩٥.
(٦) نهج البلاغة: ص٣٢.

مقابل النص، وهم وان كانوا معتقدين برسالة النبي محمد ﷺ إلا أنهم لم يعطوه تلك القدسية والمكانة التي منحها الله إياه، فكانوا يتعاملون معه ﷺ على انه بشر يخطئ ويصيب، ولذا لم يتعبدوا بالأحكام الصادرة عنه، بل من حقهم الاجتهاد في استحداث ما يرونه مناسبا، حسب ما تقتضيه المصلحة - مصلحة الدولة - وبرأيهم أن نصوص الكتاب مادام أنها جاءت لرعاية مصلحة العباد، فلذا من حقهم تعطيل أواستبدال أي نص قرآني أوحديثي عندما يضر بالمصلحة، عندئذ يفتون بما يرونه بديلا عن النص والحكم الصادر عن الله ورسوله ﷺ[1]. وقد أدى ذلك إلى ظهور البدع، وشكل ظاهرة واضحة يمكن إحصاء دلالاتها وآثارها على المجتمع «وإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ»[2]، وقد جاءت إشارات الإمام ﷺ واضحة لنماذج من هذا التيار وما أحدثوه في المجتمع: «فَيَا عَجَباً وَمَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِه الْفِرَقِ، عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا، لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ولَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ... مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِه، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ وأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ»[3]. ويقول ﷺ في وصف نموذج منهم «وآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً ولَيْسَ به، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ... يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وفِيهَا وَقَعَ، ويَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وبَيْنَهَا اضْطَجَعَ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ والْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ»[4]. وقد وصف أمير المؤمنين ﷺ ما آل إليه أمر الأمة في تلك الفترة من تاريخها: «وظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ وكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ»[5].

وهنا لا بد من تلمس واقع الحال الذي عاشته سنة النبي ﷺ إبان تلك المدة من تاريخها، وكيف تعاملت الأمة معها بعد رحيله ﷺ! وهوما يتطلب العودة إلى مصادر التاريخ، واستجلاء الشواهد التي نطقت بها الروايات في هذا المجال، إذ

---

(١) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية، ثلاثون عاما بعد الرسول ﷺ، ط١، مط: فروردين، ب مكا، ١٩٩٧م: ص٣٤ - ٥٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٣٠٩.

(٣) نهج البلاغة: ص١٤٣ - ١٤٤.

(٤) نهج البلاغة: ص١٤٠ - ١٤١.

(٥) نهج البلاغة: ص٤٥٢.

ليس بخاف على المتصفح لكتب التراث الإسلامي إن الطعن في السنة النبوية بدأت بوادره والنبي ﷺ ما يزال حيا بين أظهرهم، وإن الواقع ينبئ عن تجرأ بعض الصحابة على تخطئة النبي ﷺ أوالاعتراض على قراراته وأقواله وأفعاله والتشكيك بها، وقد أوضح القرآن ذلك وعالج الكثير من أمثال هذه الحالات اللا مسؤولة،[1] ولم تقتصر الدلالات على القرآن بل صرحت أحاديث النبي ﷺ بوجود هذا الاتجاه وانتقدته، لان التعدي لم يقتصر على الرسول ﷺ بل تعداه إلى كتاب الله، فلذلك نجده يقول ﷺ لبعضهم:«ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[2]، وفي نص آخر»أيتلاعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم»[3]، وما فتئ ﷺ يحذر أصحابه من التهافت في التعامل مع النصوص القرآنية والنبوية، إذ الإيمان بالله ورسوله يقتضي التسليم والانقياد لما يقوله الله ويأمر به الرسول ﷺ، فعدم التسليم بقدسية النبي ﷺ وأقواله وأفعاله يتقاطع مع الإيمان المطلق بالله ورسوله ﷺ[4].

ومن الشواهد المحسوسة على ما ذكرناه ما فعله بعضهم من مخالفة لأقوال النبي وافعاله ﷺ وهوبين أظهرهم كفعل خالد في بني جذيمة، فقد تبرأ النبي ﷺ من فعله[5]، وقتل أسامة بن زيد لمرداس بن نهيك - مع بداهة حرمة دم المسلم - رغم نطقه بالشهادتين[6]، ومن ذلك قول رجل من الأنصار في قسمة كان قسمها النبي ﷺ «والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله»، فشق ذلك على النبي ﷺ وتغير وجهه وغضب[7]. والانكى من ذلك إن بعض رواد هذا الاتجاه آذوا النبي ﷺ في عرضه وأزواجه حتى قال طلحة وعثمان: «أينكح محمد نساءنا إذا متنا ولا ننكح نساءه إذا مات؟ لومات لقد

---

(١) ينظر مثلا: سورة الاحزاب الاية ٥٧، وسورة الحجرات الآيتان ١ - ٢، وسورة المجادلة الآية ٨.

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال: ١/ ١٩٣.

(٣) ابن حزم: المحلى، تح: احمد محمد شاكر، ب.ط، دار الفكر، بيروت، ب.ت، ١٠/ ١٦٧. النووي: المجموع من شرح المهذب، دار الفكر، ب.ت: ١٧ / ٨٥.

(٤) علي الشهرستاني: وضوء النبي، ط١، بيروت، ١٩٩٤: ٢/ ١٦.

(٥) ابن حنبل: المسند: ٢/ ١٥١. البخاري: الصحيح: ٤/ ٦٧.

(٦) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ب، محق، ط٣، ب، مكا، ١٩٦٨، ٥/ ٣٠٤. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: الشيخ خليل مأمون شيحة، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م، ٤/ ٣٤٦. ابن حجر: فتح الباري، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ب.ت: ٨/ ١٦٤.

(٧) البخاري: الصحيح: ٤/ ١٣٠. ابن قدامه: المغني، ب.محق، دار الكتاب العربي، ب. ت، ١٠ / ٥٩.

اجلنا على نسائه بالسهام فانزل الله «ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا[١]»[٢].

واللافت للنظر إن رواد البدع في المدة اللاحقة - التي نحن بصدد البحث فيها - وهم الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد النبي ﷺ لم يكونوا بمنأى عن هذه الظاهرة إذ نجد لهم نصيبا من الاعتراض على رسول الله ﷺ ومخالفة أوامره سيما عمر الذي خالف النبي في مفردات كثيرة منها: إنكاره اخذ الفداء من أسارى بدر[٣]، واعتراضه على النبي في صلاته على المنافق[٤]، واستيائه من قسمة قسمها النبي ﷺ[٥]، ومواجهته للنبي بلسان حاد في صلح الحديبية[٦]، ومطالبته النبي ﷺ أن يستفيد من مكتوبات اليهود في الشريعة[٧]، وغيرها حتى بلغ به الحال التجرؤ على النبي في آخر ساعاته واتهامه بالهجر. ومن ثم منعه النبي من كتابة كتابه وإطلاقهم البدعة التي فرقت بين القرآن والسنة «حسبنا كتاب الله»[٨]. وما أن رحل النبي ﷺ حتى بان الانقسام بأوضح حالاته في أمته وافتتنوا فيما بين «متبع شرعة«و«مبتدع بدعة «فدخلت سنة النبي ﷺ في مرحلة التعطيل والتضييع، كما هوواضح في بيانات أمير المؤمنين ﵇ وفي خطبه الشريفة، وذلك إن تسلط أصحاب التيار الثاني - الاجتهاد والرأي - على السلطة فسح لهم المجال لابتداع ما شاءوا من أحكام وان خالفت نص الكتاب والسنة الشريفة.

وقد أشار أمير المؤمنين ﵇ إلى تلك المرحلة التي أعقبت رحيله ﷺ وما حدث فيها وكيف تنبأ ﷺ بذلك إذ يقول: «وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها حكم الله يتولى فيها رجالٌ رجالا، إلا إن الحق لوخلص لم يكن

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣.

(٢) السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ب. محق، بغداد، ١٣٧٧ هـ: ٥/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) لمزيد من التفاصيل والمصادر ينظر: شرف الدين: النص والاجتهاد، دار الأسوة، ط٣، قم، ١٣٨٢ ش، ص ٣١٩ - ٣٢٣.

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: شرف الدين: النص والاجتهاد: ص ١٨٦ - ١٨٩.

(٥) ابن حنبل: المسند: ١/ ٢٠.

(٦) لمزيد من التفاصيل والتحليل ينظر: شرف الدين: النص والاجتهاد: ص ١٦٣ - ١٨٦.

(٧) الصنعاني: المصنف، تح: حبيب الله الاعظمي، الناشر: المجلس العلمي، ب. ت، ١٠/ ٣١٣.

(٨) ابن حنبل: المسند: ١/ ٣٢٥. البخاري: الصحيح: ٥/ ١٣٨. مسلم: الصحيح: ٥/ ٧٦.

اختلاف، ولوأن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، لكنه يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجللان معا، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كيف انتم إذا ألبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، ويجري الناس عليها ويتخذونها سنة فإذا غيرّ منها شيء قيل: قد غيرت السنة، وقد أتى الناس منكرا، ثم تشتد البلية، وتسبى الذرية، وتدقهم الفتنة كما تدق النار الحطب، وكما تدق الرحى بثقالها، ويتفقهون لغير الله، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بإعمال الآخرة»[1]. ثم نجده عليه السلام يصرح بما احدث قبله من قبل الخلفاء «قد عملت الولاة قبلي أعمالا خالفوا فيها رسول الله ﷺ متعمدين لخلافه، ناقضين لعهده، مغيرين لسنته»[2]، إن شواهد كلامه واضحة فقد ابتدأ أبوبكر عهده باتخاذه موقفا سلبيا من سنة النبي ﷺ إذ نجده يخالف أوامر الله ورسوله ﷺ بسلب حقوق أهل البيت السياسية والاقتصادية[3] التي أقرتها السماء على لسان النبي ﷺ، وهذا ما هوإلا اجتهاد منه في قبال النص الإلهي، وقد استخدم هووحكومته شتى الوسائل لتحقيق مرامهم، ومن ذلك افتعال الأحاديث مما يدعم اجتهادهم كحديث «إنا معاشر الأنبياء لا نورث »[4].

لقد شهد عهد أبي بكر تعطيلا للسنة النبوية من وجه آخر تمثل بمنع الرجوع إلى سنة النبي ﷺ ومنع حديثه بقوله «لا تحدثوا عن رسول الله شيئا، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه»[5]. فقد عمل ببدعة «حسبنا كتاب الله»، وهذا ما حذر منه النبي ﷺ قائلا: «يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث من حديثي، فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، تح: سعيد محمد اللحام، ط١، دار الفكر، ١٤٠٩ هـ ٨/ ٥٩٩.

(٢) الكليني: الكافي، تح علي اكبر غفاري، ط٣، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٨ هـ: ٨ / ٥٩.

(٣) لمزيد من التفاصيل ينظر: جواد كاظم النصرالله: مصادرة الحق السياسي والاقتصادي لأهل البيت عليهم السلام، العتبة العباسية المقدسة، الطبعة الاولى، ٢٠١٤ ص٢٧٩ ٣٧٣، انتصار عدنان العواد: السيدة فاطمة الزهراء ع، مطبعة البديل، بيروت، ٢٠٠٩. ص ٦٧٩ - ١٠١٧.

(٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: شرف الدين: النص والاجتهاد: ص ٥٥ ٦٦. العواد: السيدة فاطمة ع: ص ٨٦٠ - ٩٠٠.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ب.محق، ب.ط، الناشر: مكتبة الحرم المكي، ب.مكا، ب.ت: ١/ ٢- ٣.

استحللناه وما وجدنا من حرام حرمناه. ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»[1]. وتوالت القيود والإجراءات القاسية بحق سنة النبي ﷺ رواية وتدوينا، إذ تعرضت للمنع والإحراق بل ومعاقبة من يرويها أويدونها من الصحابة، كالذي فعله عمر إذ عاقب بالضرب والحبس جماعة ممن رووا الحديث عن النبي ﷺ [2].

ومهما كان المدى الذي تم فيه المنع - يتسع أويضيق - ليقتصر على أفراد معينين، فقد تعرضت سنة النبي ﷺ للتعطيل، وأحدثت بدع كثيرة لم يكن لها حجة ولا برهان واضح في الدين، إنما هي محض اجتهاد اجتهده بعض الخلفاء، منها بدعة عمر في صلاة التراويح التي اعترف بنفسه بأنها بدعة بقوله «نعم البدعة هذه»[3]. ويأتي منه اعتراف آخر بتعطيله حكم الله وسنة النبي ﷺ: «متعتان كانتا على عهد رسول الله أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحج»[4].

ولقد ألف الناس هذه البدع وظنوا بأنها هي من سنة النبي ﷺ، وذلك كله بسبب منهج الخلفاء وسياستهم في التعامل مع سنة النبي ﷺ، تلك السياسة التي سلبت السنة شرعيتها وقداستها ومنحت بالمقابل لما استنه الخلفاء مقاما تشريعيا لا يضاهى بظهور ما عرف «بسنة أوسيرة الشيخين»، إذ جعلوا منها قسما ثالث لكتاب الله وسنة النبي ﷺ، بل إن الواقع يكشف عن ما هوأدهى، إذ إن الناس أعطوا لسنة الشيخين من التقديس والإجلال ما لم يعطوه لسنة النبي ﷺ. ودلائل ذلك واضحة كما حدث مع أمير المؤمنين عليه السلام في عهد عثمان الذي لم يكن يقصر في الصلاة في السفر، فصادف أن اعتل في منى فدعوا أمير المؤمنين عليه السلام للصلاة بهم، فقال: «إن شئتم صليت بكم صلاة رسول الله ﷺ «فقال أكثرهم: لا، إلا صلاة أمير المؤمنين- يعنون عثمان «[5]. وقصة أمير المؤمنين عليه السلام مع صلاة التراويح من هذا القبيل، فحين أمرهم بالعود إلى

---

(١) الدارمي: السنن: ١/ ١٤٤. ابن ماجه: سنن: ١/ ٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل: ينظر: صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية: ص١٧ - ٣٤. الشهرستاني: منع تدوين الحديث النبوي: ص١٩١ - ٢٩٩.

(٣) البخاري: صحيح: ٢/ ٢٥٢. البيهقي: السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، ب. ت: ٢/ ٤٩٣.

(٤) ابن حنبل: مسند: ٣/ ٣٢٥.

(٥) ابن حزم: المحلى: ٤/ ٢٧٠.

ما كان أيام رسول الله ﷺ قالوا: «وا سنة عمراه»[1]. فهم يعلمون جيدا أنها «سنة عمر»وان الذي يدعوهم إليه الإمام إنما هو«سنة النبي ﷺ»؟! فهكذا غيرت سنة النبي ﷺ وطرأ عليها هذا النحومن التبديل، فكان تداركها لإحياء السنة النبوية الثابتة هومن أهم ما وضعه أمير المؤمنين عليه السلام نصب عينيه لما تولى الحكم: «ولَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ... وتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[2].

ولكن ما موقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذه المشكلات التي واجهت السنة النبوية وما هودوره في معالجتها وإحياء سنة النبي ﷺ، وهذا ما سنقف عليه في المبحث التالي بشيء من التفصيل.

دور الإمام علي عليه السلام في إحياء السنة النبوية

قبل أن نبدء ببيان هذا الدور نتناول أولا المؤهلات التي أهلته عليه السلام للقيام بهذا الدور، إذ كان علمه عليه السلام بالسنة النبوية علما شموليا تفصيليا، مستوعبا لأفرادها، عارفا بحدودها ومواقعها، وليس هذا محض ادعاء، بل حقيقة ثابتة لم يكن يخفيها، فلطالما أفصح عنها في خطب بليغة يلقيها على الملأ العظيم، وفيهم كثير من الصحابة الذين عاشوا معه عليه السلام ومع الرسول ﷺ، وعرفوه وعرفوا غيره من الصحابة، فمن ذلك قوله في كلام يصنف فيه رواة الحديث إلى أربع طبقات، ثم يقول في مقارنة بينه وبين غيره من الصحابة، «ولَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه - ﷺ - مَنْ كَانَ يَسْأَلُه ويَسْتَفْهِمُه، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ والطَّارِئُ، فَيَسْأَلَه عليه السلام حَتَّى يَسْمَعُوا، وكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُه عَنْه وحَفِظْتُه»[3].

وفوق هذا كانت هناك عناية ربانية خاصة ترعاه إذ شملته رعاية السماء في كثير من جوانب العظمة والارتقاء، قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وان أعلمك وأن تعي، وحق على الله تعالى أن تعي، قال: فنزل قوله تعالى «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ

---

(١) الجواهري: جواهر الكلام، تح: الشيخ عباس القوجاني، دار الكتب الإسلامية، ب. ت: ١٣/ ١٤١.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٤٧.

(٣) نهج البلاغة:ص ٤٤٣.

وَاعِيَةٌ [1]»[2]، وفي رواية: حين نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «سألت الله عز وجل أن يجعلها أذنك يا علي، قال علي عليه السلام: «فما نسيت شيئا من بعد وما كان لي أن أنسى»[3]. وهذا ما أهله لأن يصرح بعظمة علمه قائلا: «بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ، اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»[4]، إذ بهذا النص الجلي وصف أمير المؤمنين عليه السلام غزارة علمه، وما تنطوي عليه شخصيته العلمية من شمول وعمق بجوانب متعددة، لذا نجده يتحدى كل من يدعي العلم من غير أهل البيت D قائلا: «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وبَغْياً عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اللّٰه ووَضَعَهُمْ، وأَعْطَانَا وحَرَمَهُمْ وأَدْخَلَنَا وأَخْرَجَهُمْ»[5].

ولما كان عليه السلام على هذا القدر من العلم أصبح هوالوحيد الذي لم يحتج إلى أحد في علمه بعد رسول الله ﷺ، وصرح بذلك عليه السلام حينما خاطب طلحة والزبير، مشيرا إلى أنه في غنى عن رأيهما على الصعيد العلمي وغيره، وذلك حينما عتبا عليه فقالا: ما نراه يستشيرنا في أمر، ولا يفاوضنا في رأي، ويقطع الأمر دوننا ويستبد بالحكم عنا[6]، فقال عليه السلام: «فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللّٰه ومَا وَضَعَ لَنَا، وأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ به فَاتَّبَعْتُه، ومَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ - ﷺ - فَاقْتَدَيْتُه، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا ولَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، ولَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُه فَأَسْتَشِيرَكُمَا وإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ولَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا ولَا عَنْ غَيْرِكُمَا»[7].

وإذا كان عليه السلام قد أشار الى علمه إجمالا في النصوص المتقدمة في وصفه لسعة علمه، فانه في نصوص أخرى قد تكلم بلون من التفصيل عما يشتمل عليه من العلوم

---

(١) سورة الحاقة آية ١٢.

(٢) الواحدي: اسباب النزول، دار الباز، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٨٦ ص٢٩٤.

(٣) الزيلعي: تخريج الاحاديث والاثار، تح: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض، ١٤١٤هـ، ٤/ ٨٤. المتقي الهندي: كنز العمال: ١٣/ ١٧٧.

(٤) نهج البلاغة: ص٣٤.

(٥) نهج البلاغة: ص٢٦٣.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧: ١١/ ١٠.

(٧) نهج البلاغة: ص٤٣٧.

في الميادين المختلفة ومن تلك الميادين علمه بسنة النبي ﷺ إذ «يبرهن للناس على علمه التفصيلي الدقيق بالسنة، كما هوفي الكتاب، في خطاب يأخذ بمجاميع القلوب، ما سمع الناس نظيرا له من صحابي غيره قط، فيقول: «وخَلَّفَ فِيكُمْ [النبي] مَا خَلَّفَتِ الأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا، إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ولَا عَلَمٍ قَائِمٍ، كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّناً حَلَالَه وحَرَامَه، وفَرَائِضَه وفَضَائِلَه ونَاسِخَه ومَنْسُوخَه، ورُخَصَه وعَزَائِمَه وخَاصَّه وعَامَّه، وعِبَرَه وأَمْثَالَه ومُرْسَلَه ومَحْدُودَه، ومُحْكَمَه ومُتَشَابِهَه مُفَسِّراً مُجْمَلَه ومُبَيِّناً غَوَامِضَه، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِه ومُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِه، وبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُه، ومَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُه، ووَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُه، ومُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُه، وبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِه وزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِه، ومُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِه مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْه نِيرَانَه، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَه غُفْرَانَه، وبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاه مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاه»[1]، هذه أبواب من السنن فتحت على علوم جمة توفر عليها، مع بصيرة لا يخشى عليها لبس وتوهم»[2].

فضلا عن ذلك اختصاصه ﷺ بالنبي ﷺ جعله الأولى بسنته والأحق بها من بعده، وقد اشار ﷺ الى معلم من معالم ملازمته للنبي ﷺ وحرصه ﷺ على اعداده ﷺ انه خصه بعلم الكتاب والسنة الشريفة، إذ يقول: «فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا الله إن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه علي وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئا علمه الله من حلال وحرام، ولا أمر ولا نهي كان أويكون، ولا كتاب منزل على احد قبله من طاعة أومعصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفا واحدا ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علما وفهما وحكما ونورا»[3].

وبالقدر الذي كان فيه النبي ﷺ حريصا على إعداد الإمام أمير المؤمنين ﷺ، ونشأته علميا في كنف النبوة المقدسة كان الإمام ﷺ نفسه شديد الحرص على التزام شخص النبي ﷺ واخذ العلم عنه، إذ جاءت كلماته صريحة في بيان هذه الملازمة

---

(١) نهج البلاغة: ص٢١ - ٢٢.

(٢) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية: ص٥٨

(٣) الكليني: أصول الكافي: ١ / ٦٤.

وهذا الحرص منه [1]، وفي نص آخر يقول: «ما دخل نوم عيني، ولا غمض رأسي على عهد محمد ﷺ حتى علمت ما نزل به جبرئيل من حلال، أوحرام، أوسنة أوكتاب، أوأمر أونهي، وفيمن نزل» [2]. وقد بين رسول الله ﷺ إن هذا الاختصاص بالإمام عليه السلام إنما هوتوجيه من السماء: «ياعلي! إن الله أمرني أن أدنينك ولا أقصيك، وان أعلمك، وان تعي، حق على الله أن تعي»، فنزلت آية «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» [3].

فمن ذا - بعد هذه الخصوصية - أحق بالنبي ﷺ وسنته سوى أمير المؤمنين عليه السلام لذا قال عليه السلام: «إن حُكم بسنة رسول الله ﷺ فنحن أحق الناس وأولاهم بها» [4]، وقد أشار عليه السلام إن مرجعية علومه ومصدرها هوالنبي الأعظم ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، ولَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، ولَا تَتَرَامَوْا بالأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَه مِنِّي، فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِه عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - ﷺ -، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ولَا جَهِلَ السَّامِعُ» [5]، ولشدة التصاقه برسول الله ﷺ وحمله علومه ومعارفه، كان عليه السلام يفرغ عن لسانه، ولا يتردد في تأكيد ذلك بكل اطمئنان فيقول: «واللَّه مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً، إِلَّا وهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوه» [6].

لكن كيف كان يتلقى الإمام عليه السلام ذلك من النبي ﷺ؟ إن نصوص النهج تفصح عن وجود عدة طرق:

أولا: أشار الإمام عليه السلام الى أن النبي ﷺ كان يخصه ببعض الأحاديث، فيقول عليه السلام: «قَالَ لِي رَسُولُ اللَّه...» [7]

ثانيا: الوصية أوالعهد، في قوله عليه السلام: «عَهْداً مِنْه عِنْدَنَا مَحْفُوظاً» [8]

---

(١) وذلك اشارة لقوله عليه السلام: «ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُه اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً، ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِه...»، نهج البلاغة: ص٤٠٦.

(٢) الحاكم الحسكاني: شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تح: محمد باقر المحمودي، ط١، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، طهران، ١٩٩٠، ١/ ٤٣.

(٣) الواحدي: اسباب النزول: ص٢٩٤.

(٤) نهج البلاغة: ص ٢٣٨- ٢٣٩.

(٥) نهج البلاغة: ص١٨٦ - ١٨٧.

(٦) نهج البلاغة: ص١٤٥.

(٧) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص ٥٢٥.

(٨) نهج البلاغة: ص ٥٩٦.

ثالثا: سؤاله ﷺ: فقد أشار أمير المؤمنين ﷺ في أكثر من مورد انه كان يتوجه للنبي فيسأله [1]، وهذا مصداق لقوله ﷺ: «وكنت إذا سألت رسول الله ﷺ أجابني »[2].

رابعا: السماع: كان النبي ﷺ يوجه خطابه لسائر المسلمين، أومن حضر عنده في المسجد أوغيره، وكان ﷺ بحكم مرافقته له ﷺ، والتزام شخصه ﷺ احد السامعين له[3]، ولكنه بالتأكيد كان أحفظهم لكلامه ﷺ وافهمهم له، وقد انتقد ﷺ أصنافا من الرواة الذين سمعوا من رسول الله ﷺ ولكنهم لم يفهموا ويعوا حديثه.

خامسا: مشاهدة أفعاله ﷺ: لما كانت السنة النبوية المشرفة لا تقتصر على أقوال النبي بل تشمل أفعاله ﷺ وبحكم مرافقته له ﷺ في حله وترحاله، لذلك كان ﷺ يشاهد أفعاله ﷺ التي تعد سنة واجبة الإتباع[4].

سادسا: أخرى: كان أمير المؤمنين ﷺ يشير إلى بعض أقوال النبي ﷺ وأفعاله دون الإشارة إلى الكيفية التي استقى من خلالها، فيقول مثلا: «كان رسول الله ﷺ يقول»[5] أو«قَالَ رَسُولُ اللَّه»[6] أو«وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّه»[7] أو«على لسان النبي الأمي»[8]، أو«: فان رسول الله ﷺ كان يقول... »[9].

سابعا: الاستشهاد بكلام النبي ﷺ دون الإشارة لذلك [10] وفي ذلك دلالة على امتزاج الإمام بالنبي ﷺ.

ولم يقتصر دور أمير المؤمنين ﷺ على رواية الأحاديث عن النبي ﷺ بل نجده عاملا بها، وشارحا لها، مبينا صحيحها من زيفها.

إن المنهج هوالذي سيحدد عنده موقع السنة، وطريقته في التعامل معها رواية

---

(١) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص ٦١٠.

(٢) الكليني: الكافي ١/ ٦٤.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٠٩، ٥٨١، ٥٨٣، ٦٠٩.

(٤) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص٤٣١، ٥٠٣.

(٥) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص٥٠٣.

(٦) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص٣٣٨.

(٧) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص٤٣٠.

(٨) ينظر مثلا: نهج البلاغة ص ٢٨١، ٦٦٢.

(٩) ينظر مثلا: نهج البلاغة: ص٣٣٩.

(١٠) نهج البلاغة: ص٧٥٤، ٧٥٦- ٧٥٧.

وتدوينا، لقد كانت السنة عنده في المكان الذي وضعها الله ورسوله ﷺ، حاكمة غير محكوم عليها، لا تنسخها (مصلحة)، فالمصلحة كل المصلحة في تحكيمها وإتباعها، ولقد ضحى بالخلافة حفاظا على السنة أن تنتهك أويساء الفهم في حقيقة مكانتها[1].

وهوالذي عارض عثمان في مخالفته لسنة النبي ﷺ وأصر على إحيائها، إذ روي أنه اجتمع أمير المؤمنين والخليفة عثمان في عسفان، فكان عثمان ينهى عن المتعة أوالعمرة، فقال له علي: ما تريد إلى أمر فعله النبي ﷺ تنهي الناس عنه؟ فقال له عثمان دعنا عنك، قال: إني لا استطيع أن ادعك، فلما رأى ذلك علي أهل بهما جميعا». [2]

وفي رواية عن مروان بن الحكم، انه شهد عثمان وعليا بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة، وان يجمع بينهما، فلما رأى ذلك علي أهل بهما: لبيك بحجة وعمرة، فقال عثمان: تراني أنهى الناس وأنت تفعله؟ فقال: ما كنت لأدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد[3]. وروي انه قيل له: ألا تخلف رجلا يصلي الناس في العيدين؟ فقال: لا أخالف السنة[4]، وفي رواية: انه قال: أكره أن استن سنة لم يستنها رسول الله ﷺ[5].

فالإمام ﵇ يثبت عمليا انه لا يجوز مخالفة سنة رسول الله ﷺ بل الواجب التقيد بها مهما كان. لذا نجده رفض أن يبايعوا له بالخلافة على عقد يقرن بسنة النبي ﷺ سننا أخرى، إذ عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبايع له على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، فرفض أن يقرن إلى كتاب الله وسنة رسوله شيئا آخر[6]، فضحى بالخلافة حفظا لمكانة السنة في درس بليغ لم تقف الأمة على جوهره حتى اليوم. وفي حادثة أخرى نجده أيضا يرفض أن يعزز جيشه بكتيبة جاءت تابع

---

(١) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة: ص٥٩.

(٢) البخاري: الصحيح: ٢/ ١٥٣. البيهقي: السنن الكبرى: ٥/ ٢٢.

(٣) أبوداود: سنن أبي داود، تح: سعيد محمد اللحام، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠: ص١٦. الدارمي: السنن: ٢/ ٧٠.

(٤) البرقي: المحاسن، تح: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، ب. ت:١/ ٢٢٢. الطوسي: الخلاف، تح: سيد علي الخراساني وآخرين،ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٠٧هـ ١/ ٦٦٧.

(٥) البحراني: الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، تح: محمد تقي الإيرواني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٣٦٣ ش: ١٠/ ٢٠٩.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١/ ١٨٨.

له على خلاف السنة يوم خرج عليه المارقون، إذ قالوا: نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين! فرفض أن يقرن بكتاب الله وسنة رسوله شرطا ولوأدى رفضه إلى تمرد هؤلاء والتحاقهم بالمارقين[1]. فلوقبل الإمام ﷺ بهذا الشرط، فان ذلك يعني التخلي عن مدرسة التعبد المحض، والانخراط في سلك الاجتهاد بالرأي وذلك ما لا يقره الامام علي بن أبي طالب ﷺ تبعا لرسول الله ﷺ والقرآن المجيد... لأنه يضفي الشرعية على تلك الفكرة المستحدثة[2].

ورفض ﷺ أن يشتري استقرار الحكم أيام خلافته بمداهنة أهل البدع والانحراف الذين انتهكوا السنن وعطلوا الحدود في درس عبقري يظنه القشريون حتى اليوم إخفاقا سياسيا، ورفض أن يعامل أعداءه ولومرة بخلاف السنة، وهم يمكرون وينكثون ويغدرون[3]، فالمنهج الذي تعامل به ﷺ مع السنة النبوية المشرفة هوالذي حفظ لهما مكانتها وأعاد لها روحها وقدسيتها، إذ دخلت السنة في عهده مرحلة جديدة مغايرة لما عهدته بعد النبي ﷺ، إذ انه على وفق هذا المنهج قد كانت له مواقف وسياسة أخرى غير التي مارسها من سبقه ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية ومن تلاهم.

ويمكن إجمال أعماله في سبيل إحياء السنة النبوية ﷺ بتدوينها وروايتها. فمن المعلوم إن أمير المؤمنين ﷺ كان كاتب الوحي، وكاتب للحديث بين يدي رسول الله ﷺ ومما اشتهر عنه في هذا المجال «صحيفة علي»التي كان يحملها في قائم سيفه، وبلغ من شهرتها: «لا يكاد يخلومنها واحد من كتب الحديث والسنن، نقلوا منها نصوصا متفرقة بعضها أشبه بعناوين لما تحويه، وبعضها فيه تفصيل[4]، وقد جمع ابن حجر العسقلاني كثيرا مما نقل عن تلك الصحيفة، وقال: الجمع بين هذه الأحاديث إن الصحيفة كانت واحدة، وكان جميع ذلك مكتوبا فيها، ونقل كل واحد من الرواة

---

(١) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية: ص ٥٩- ٦٠.

(٢) الشهرستاني: وضوء النبي ﷺ: ٢/ ٢٢.

(٣) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية: ص ٥٩ ٦٠.

(٤) ينظر مثلا: الشافعي: كتاب الأم، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣ ٦/ ٤٠، ابن حنبل: المسند:١/ ٧٩. البخاري: الصحيح: ١/ ٣٦، الدارمي: السنن: ٢/ ١٩٠، ابن حزم: المحلى: ١٠/ ٣٥٤. النووي: شرح صحيح مسلم: ١٨/ ١٣٠.

عنه ما حفظه[1]. ولم تكن الصحيفة هي الوحيدة التي جمع فيها أمير المؤمنين أحاديث النبي ﷺ بل تشير الروايات إلى ما عرف بـ «كتاب علي»[2] الذي أصبح علما يتكرر في أحاديث أهل البيت عليهم السلام كتاب كبير يتوارثونه.[3] بل كان أمير المؤمنين عليه السلام يدعوإلى تدوين السنة الشريفة، فقد خطب في الناس مرة، فقال: «قيدوا العلم، قيدوا العلم»[4]. وكانت الكتابة عند أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه مشهورة حدث بها كثيرون[5].

أما فيما يخص روايته فيمكن القول أنه كان لحديث النبي ﷺ (السنة القولية) خصوصية لدى أمير المؤمنين عليه السلام إذ انه يقرر حجية قوله ﷺ وعصمته ووجوب التسليم المطلق لكل ما يقوله ﷺ، فقد دعا أمير المؤمنين عليه السلام إلى رواية الحديث عن النبي ﷺ، إذ روى انه خطب في الناس مرة، فقال: «خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: اللهم ارحم خلفائي - ثلاث مرات - قيل: يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ فقال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»[6]. وكان يوصي أصحابه قائلا: «تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدُرس»[7]. وقد قسم كلام رسول الله ﷺ إلى قسمين «وقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّه - ﷺ - الْكَلَامُ، لَه وَجْهَانِ فَكَلَامٌ خَاصٌّ وكَلَامٌ عَامٌّ»[8]. وقد بين عليه السلام الحاجة لهذا التوضيح منه عليه السلام ببيان واثر ذلك على

(١) فتح الباري: ١/ ١٨٣.

(٢) الشافعي: كتاب الأم:٢/ ١٦١. ابن حزم: المحلى ٦/ ٣٧، ٧/ ١٠٣.

(٣) ابن حنبل: العلل ١/ ٣٤٦، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ، عني به: محمد النعسان وعبد المجيد طعمة، ط١، دار المعرفة، ٢٠٠٥،٤/ ٦٨، النجاشي: رجال النجاشي: تح: السيد موسى الزنجاني، ط٥، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٦هـ، ص٣٦٠.

(٤) ابن حمزة الطوسي: الثاقب في المناقب، تح: نبيل رضا علوان، ط٢، مؤسسة أنصاريان، قم، ١٤١٢ هـ: ص٢٧٨. ابن ميثم: شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، عني بطبعه ونشره وتصحيحه والتعليق عليه: مير جلال الدين الحسيني الإرموي المحدث، منشورات جماعة المدرسين، قم، ١٣٩٠ هـ: ص٢٦١.

(٥) صائب عبد الحميد: تاريخ السنة النبوية: ص٥٠.

(٦)الرامهرمزي: المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تح: محمد عجاج الخطيب، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤ هـ ص١٦٣. الزيلعي: نصب الراية (تخريج أحاديث الهداية)، اعتنى بها: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥: ١/ ٤٧١.

(٧)المتقي الهندي: كنز العمال: ١٠/ ٣٠٤.

(٨) نهج البلاغة: ص٤٤٣.

سامعي الحديث عنه ﷺ وناقليه إذ يقول: «فَيَسْمَعُه مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى اللَّه سُبْحَانَه بِه، ولَا مَا عَنَى رَسُولُ اللَّه - ﷺ - فَيَحْمِلُه السَّامِعُ ويُوَجِّهُه عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاه، ومَا قُصِدَ بِه ومَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِه»[1].

في هذا النص إشارة الى وجوب الدقة والتحري عن معنى ما قصده النبي ﷺ بهذا الكلام أوذاك وسبب إطلاقه، فالإمام ﷺ يضع الأسس الصحيحة الواجب على المحدث أوالناقل عن النبي ﷺ الالتزام بها، ولعل آلية ذلك هوالتوجه للسؤال إلى النبي ﷺ نفسه إن كان الناقل أوالسامع لحديثه إنما سمعه مباشرة منه، وقد أشار ﷺ إلى انه ما كان كل أصحاب النبي ﷺ حريصين على سؤاله. بينما كان هو ﷺ حريصا على ذلك، ومن حرصه على ذلك «وكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُه عَنْه وحَفِظْتُه»[2]، وفي نص آخر يحمل توجيها منه ﷺ يوضح لنا أهمية العناية بدراية الحديث ومعرفة فقهه إذ يقول ﷺ: «اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوه عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَه قَلِيلٌ»[3]، وأشار ﷺ في موضع آخر إلى سمة من سمات العترة الطاهرة الذي يتقدمهم امير المؤمنين ﷺ في تعاملهم مع الشارع والتشريع بقوله: «عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ ورِعَايَةٍ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ ورِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَه قَلِيلٌ»[4].

ومن الشواهد على ذلك حين سُئل عن قول النبي ﷺ: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»، فقال ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ - ﷺ - ذَلِكَ والدِّينُ قُلٌّ - فَأَمَّا الآنَ وقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُه وضَرَبَ بِجِرَانِه - فَامْرُؤٌ ومَا اخْتَارَ»[5]، مما يدلل على لزوم فهم النص مع ملاحظة ملابساته الزمانية والمكانية[6]. فإن لم يكن الناقل للحديث عن النبي ﷺ ممن سمعه منه مباشرة، أي نقل إليه بالواسطة، وجب عليه الرجوع إلى أهل البيت ﷺ وفق السمة التي أشار إليها الإمام أعلاه، والشاهد الذي قدمناه، إذ أنهم ﷺ أهل العلم الذين عندهم

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٤٣.
(٢) نهج البلاغة: ص٤٤٣.
(٣) نهج البلاغة: ص٦٧١.
(٤) نهج البلاغة: ٤٩٠.
(٥) نهج البلاغة: ص٦٥٣.
(٦) الميلاني: سيرة الرسول الاعظم ﷺ: ص٣٥.

«أَبْوَابُ الْحُكْمِ وضِيَاءُ الأَمْرِ»[1] و«فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ وهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا»[2].

وفي أثناء فتحه لباب الرواية والتدوين كان يكثر ﷺ التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ فيقرع أسماعهم بين الحين والآخر بحديث النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّارِ»[3]، وقد اهتم ﷺ كثيرا بتوثيق الأحاديث وحمايتها من آفة الدس والوضع، وكان من أهم خطواته في هذا المجال مما مر ذكره آنفا من وضع عدد من الضوابط المشار إليها، وأيضا قام بطرد القصاصين من المسجد[4] الذين لهم اليد الطولى في دخول الإسرائيليات وانتشارها في كتب التراث الإسلامي من ذلك العهد والى الآن. وبين أيدينا نص مهم يشخص فيه أمير المؤمنين ﷺ الواقع الذي كان عليه الحديث النبوي آنذاك، إذ سئل ﷺ عن أحاديث البدع واختلاف الناس في روايتهم الأحاديث عن رسول الله ﷺ؟ فأجاب ﷺ: «إن في أيدي الناس حقا وباطلا وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا، وعاما وخاصا، ومحكما ومتشابها، وحفظا ووهما، وقد كذب على رسول الله ﷺ... »، ثم صنف رواة الحديث وحالهم فيه، واثر ذلك على ما صدر عنهم من أحاديث: فقال ﷺ «وإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ»[5].

الصنف الأول: المنافقون: «رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ ولَا يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّه - ﷺ - مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّه مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْه، ولَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَه، ولَكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللَّه - ﷺ -، رَآه وسَمِعَ مِنْه ولَقِفَ عَنْه فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِه، وقَدْ أَخْبَرَكَ اللَّه عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، ووَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِه لَكَ ثُمَّ بَقُوا بَعْدَه، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ، والدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ والْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ الأَعْمَالَ وجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا وإِنَّمَا

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٣٠.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٨٣.

(٣) نهج البلاغة: ص٤٤١.

(٤) المتقي الهندي: كنز العمال: ١٠/ ٢٨١ - ٢٨٢.

(٥) نهج البلاغة: ص٤٤٠ -٤٤١.

النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ والدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّه فَهَذَا أَحَدُ الأَرْبَعَة»[1].

الصنف الثاني: الخاطئون: «ورَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْه عَلَى وَجْهِه، فَوَهِمَ فِيه ولَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْه، ويَرْوِيه ويَعْمَلُ بِه، ويَقُولُ أَنَا سَمِعْتُه مِنْ رَسُولِ اللَّه - ﷺ -، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّه وَهِمَ فِيه لَمْ يَقْبَلُوه مِنْه، ولَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّه كَذَلِكَ لَرَفَضَه!»[2]. وذلك أن يسمع من الرسول ﷺ كلاما فيتصور منه معنى غير ما يريده الرسول، ثم لا يحفظ اللفظ بعينه، فيورده بعبارته الدالة على ما تصوره من المعنى، فلا يكون قد حفظه وتصوره على وجهه المقصود للرسول ﷺ، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا لوهمه، فهوفي يديه يرويه ويعمل به على وفق ما تصور منه ويسنده إلى الرسول ﷺ، وعلة دخول الشبهة على المسلمين فيه هي عدم علمهم بوهمه، وعلة دخولها عليه في الرواية والعمل هووهمه حين السماع حتى لوعلم ذلك لترك روايته والعمل به»[3]. ومما ذكر انه يشترط في راوي الحديث من جملة ما يشترط أن يكون من الذين يحسنون ضبط ما يسمعونه ويؤدونه على وجهه، ولا ثقة بقول من لا يحسن الضبط وان لم يكن فاسقا[4].

الصنف الثالث: أهل الشبهة: «ورَجُلٌ ثَالِثٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّه - ﷺ - شَيْئاً، يَأْمُرُ بِه ثُمَّ إِنَّه نَهَى عَنْه وهُوَ لَا يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَه يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِه وهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ ولَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّه مَنْسُوخٌ لَرَفَضَه، ولَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوه مِنْه أَنَّه مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوه»[5].

كان رسول الله ﷺ يبلغ بعض الإحكام، فيسمعه من كان حاضرا، وقد يكون الحاضر السامع صادقا واعيا لما سمع، ولكن الرسول قد ينهى عما كان قد أمر به من قبل، لان المصلحة التي أوجبت العمل قد انتهت وذهبت بذهاب وقتها، فيسمع النهي من حضر غير الذي سمع الأمر، فينقل عن النبي النهي من سمعه، فينقل الأمر من سمعه

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٤١ -٤٤٢.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٤٢.

(٣) ابن ميثم: شرح نهج البلاغة،ط١، مط: وفا، قم، ١٤٢٧ ه: ٤/ ٣١- ٣٢.

(٤) محمد جواد مغنية: في ظلال نهج البلاغة،محاولة لفهم جديد،ط٢،مط: ستار،قم،١٤٢٨ ه،٣/ ٢٤٤.

(٥) نهج البلاغة: ص٤٤٢.

أيضا، والإحاطة بجميع أحاديث الرسول ﷺ أمر عسير[1]. وإن كتب الحديث والفقه مشحونة بذلك، كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر رووه في ذلك ولم يرووا الخبر الناسخ [2].الصنف الرابع: الصادقون الحافظون: «وآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّه ولَا عَلَى رَسُولِه، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّه وتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّه - ﷺ -، ولَمْ يَهِمْ بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِه، فَجَاءَ بِه عَلَى مَا سَمِعَه، لَمْ يَزِدْ فِيه ولَمْ يَنْقُصْ مِنْه، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِه، وحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْه، وعَرَفَ الْخَاصَّ والْعَامَّ والْمُحْكَمَ والْمُتَشَابِه، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَه »[3]. وهو صنف العلماء الراسخون في العلم[4].

فهوالراوي العالم القدير الذي له عناية بأمر الدين واهتمام بمدارك الشرع المبين[5] كما هوراوثقة خبير، يميز بين موارد الحقيقة والمجاز، وبين الحديث الواضح الذي لا يجوز تأويله بحال، والمشكل الذي يمكن تأويله بما يتفق مع العقل ومقاصد الشريعة، ويعرف العموميات والمطلقات، وما يعارض المعنى الظاهر من المخصصات والمطلقات، ويجمع بينها بما يقتضيه الفن والصناعة، وأيضا يعرف زمن الناسخ وزمن المنسوخ، ولا يخلط بين المتقدم والمتأخر، ويصنع كل شيء في موضعه[6].

إن هذه النكتة التي ذكرها أمير المؤمنين ﵇ جامعة لأكثر أحكام الأخبار التي يذكرها الأصوليون، ويطنبون في تفصيلها جمعها باخصر لفظ وأقله[7]. ولا يجوز الأخذ والعمل برواية الأول والثاني إطلاقا، وأما الثالث، فيؤخذ بروايته نظريا إذا كان صادقا ضابطا، ولا يجوز الأخذ بها عمليا إلا بعد التتبع والبحث عما يعارض الرواية من الأدلة والقرائن، فان لم نجد المعارض عملنا بها كما هي، وإلا قارنا بينها وبين المعارض، وعملنا بما تستدعيه الأصول والقواعد، والرابع كالثالث، ولا اثر للعلم

---

(١) مغنية: في ظلال نهج البلاغة: ص ٣/ ٢٤٤

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ص ١١ / ٣٩

(٣) نهج البلاغة: ص٤٤٢ -٤٤٣

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ص ١١ / ٣٩

(٥) حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة: ص ٤ / ٣١.

(٦) مغنية: في ضلال نهج البلاغة: ص ٣/ ٢٤٤- ٢٤٥.

(٧) الحسني: الديباج: ص ٤ / ١٧١٢ - ١٧١٣.

وكثرته في صحة الحديث وقوته[1].

يعد الإمام أمير المؤمنين ﷺ أصدق مثال على الأنموذج الرابع من رواة الحديث، وقد مر بنا مؤهلاته العلمية التي ميزته عن سائر الناس، وألمح ﷺ إلى الفارق بينه وبين غيره من الصحابة في تعامله مع الحديث النبوي، لذا كان الأولى به ﷺ وبسنته الشريفة ورواة حديثه، فكان ﷺ لشدة امتزاجه برسول الله ﷺ كان يفرغ من لسانه ﷺ في كل ما يرويه «فَوَالَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إنَّ الَّذي أُنَبِّئُكُمْ به عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - ﷺ -، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ولَا جَهِلَ السَّامِعُ»[2]، وفي قول آخر: «واللَّه مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً، إِلَّا وهَا أَنَا ذَا مُسْمِعُكُمُوه»[3].

والغريب إننا نجد في بعض النصوص الواردة عن أمير المؤمنين ﷺ انه اتهم بالكذب، ولكن كيف يتهم أمير المؤمنين ﷺ بذلك؟!! ولعل سبب ذلك يرجع إلى الحقد والحسد الذي ابتلي به ﷺ من قبل بعض الصحابة، وهم ممن لا يتورع عن الكذب، فاتهموه جزافا بهكذا تهمة وأشاعوها بين الناس فمن ألفوا إتباعهم لهم جهلا أوتجاهلا.

في الواقع إن المدة التي أعقبت وفاة النبي ﷺ (١١ - ٣٥ هـ) التي أسدل فيها الستار على قداسة السنة النبوية، فوضعت الأحاديث التي رفعت من مقام من لا مقام له، ومنحتهم ما ليس لهم كذبا وزورا على رسول الله ﷺ، وفي المقابل تم الحجر على رواية الكثير من الأحاديث ولا سيما المتعلقة منها بفضائل أمير المؤمنين ﷺ وهذا ضمن سياسة الخلفاء قبله، لدفعه عن حقه في الخلافة، وما أن جاء عهد الإمام ﷺ وتولى الحكم، كما أسلفنا انه قد فتح باب الرواية والحديث عن رسول الله ﷺ، فأطلق الأحاديث التي لم يعرفها المجتمع، إذ لم يسمع بها من قبل، فتفاجئوا بها لذا اتهموه بالكذب!

ولقد نفى أمير المؤمنين ﷺ هذه التهمة عنه في أكثر من مورد، إذ كيف يكذب على رسول الله ﷺ وهوأول من صدقه؟ إذ جاء في خطابه لأهل العراق: «ولَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ

---

(١) مغنية: في ظلال نهج البلاغة: ص ٣/ ٢٤٥.

(٢) نهج البلاغة: ص١٨٧.

(٣) نهج البلاغة: ص١٤٥.

تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ قَاتَلَكُمُ اللّه تَعَالَى، فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أَعَلَى اللّه فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ به، أَمْ عَلَى نَبِيِّه فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَه»[1]. وقال في مورد آخر: «أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللّه - ﷺ -، واللّه لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَه، فَلا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْه»[2]، وفي وصف مكانته من رسول الله ﷺ: «ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولَا خَطْلَةً[3] فِي فِعْلٍ»[4]، وما فتئ عليه السلام يؤكد على مصداقيته، وهويروي أخبار الملاحم عن النبي ﷺ «واللّه مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً[5] ولَا كَذَبْتُ كِذْبَةً، ولَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وهَذَا الْيَوْمِ»[6]. وقال: «فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِه عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ولَا جَهِلَ السَّامِعُ»[7]. وقال عليه السلام «والَّذِي بَعَثَه بِالْحَقِّ واصْطَفَاه عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّه وبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، ومَنْجَى مَنْ يَنْجُو ومَآلِ هَذَا الأَمْرِ، ومَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَه فِي أُذُنَيَّ، وأَفْضَى بِه إِلَيَّ»[8].

إن تأكيده على تصديقه للنبي ﷺ إنما هوإشارة لكونه هو«الصديق الأكبر«تلك الكلمة التي قالها على منبر البصرة «أنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كذاب»[9].

ومن هنا كان أمير المؤمنين عليه السلام هوالوارث الحقيقي للنبي ﷺ، لذا اتسم ببعض

---

(١) نهج البلاغة: ص١٠٥.

(٢) نهج البلاغة: ص٧٧.

(٣) الخطل: الكلام الفاسد الكثير المضطرب. ابن الاثير: النهاية: ٢ / ٥٠.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٠٦.

(٥) الوشمة: الكلمة. ابن الاثير: النهاية: ٥/ ١٨٩.

(٦) نهج البلاغة: ص٤١.

(٧) نهج البلاغة: ص١٨٧.

(٨) نهج البلاغة: ص٣٣٣.

(٩) البخاري: التاريخ الكبير، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، ب.ت ٤/ ٢٣. ابن قتيبة: المعارف، تح: ثروت عكاشة، القاهرة، ١٩٨١: ص١٦٩. البلاذري: أنساب الأشراف:، الإمام علي عليه السلام ح٢، تح وتعليق: محمد باقر المحمودي، ط٢، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ١٤١٩هـ ٢/ ١٤٦. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تح: علي شيري، ب.ط، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ٤٢/ ٣٢- ٣٣. محب الدين الطبري: ذخائر العقبى، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦ ه، ص٥٦، ٥٨. المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: د. بشار عواد، ط٤، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦ هـ ١٢/ ١٨، ٣٥/ ٣٠٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: محب الدين العمروي، ط١، بيروت، ١٩٩٧ ٤/ ٥٠٨، ابن كثير: البداية والنهاية، اعتنى به، حنان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، ب.ت: ٧/ ٣٧٠.

خصوصياته الشريفة ﷺ: إذ يقول ﷺ: «إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ...»[1]

وقد ورد في نهج البلاغة عدة مرويات حديثية أسندها أمير المؤمنين عليه السلام للنبي الأعظم ﷺ، استشهد بها تأييدا لكلامه عليه السلام وهي على نوعين: الأحاديث والمغيبات والملاحم

أولاً: الأحاديث:

هناك جملة من الاحاديث رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ، في موضوعات مختلفة، وقد وردت في المصادر الاخرى برواية الامام عليه السلام وغيره من الصحابة عنه ﷺ كما يتبين من توثيقها:

فعن زهد النبي ﷺ قال عليه السلام: «ويَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِه فتَكُونُ فِيه التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ، يَا فُلَانَةُ لإِحْدَى أَزْوَاجِه غَيِّبِيه عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْه ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وزَخَارِفَهَا»[2].

وعن أهل البيت ومكانتهم قال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - ﷺ - إِنَّه يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا ولَيْسَ بِمَيِّتٍ- ويَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا ولَيْسَ بِبَالٍ»[3].

وعن الصلاة ذكر حديثين، وهما قوله عليه السلام: «وإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً ولَا مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِه الْعِلَّةُ ولَه الْحَاجَةُ، وقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ، كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»[4].

وقال عليه السلام في فضل الصلاة: «... وشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّه- ﷺ - بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْه مِنَ الدَّرَنِ»[5].

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٠٦.

(٢) نهج البلاغة: ص٢٩٩.

(٣) نهج البلاغة: ص ١٤١ – ١٤٢.

(٤) نهج البلاغة: ص٦١٠. وينظر: ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، تح: إحسان عباس وبكر عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م، ١/ ٣٢٥. النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ب.ت، ٦/ ٢٩.

(٥) نهج البلاغة: ص٤٣٠. المجلسي: البحار: ٣٣/ ٤٤٩، ٧٩/ ٢٢٥.

وروى عن رسول الله ﷺ قوله: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَه مِنَ النَّار»[1].

وقال ﷺ قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً ولاَ مُشْركاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُه اللَّه بإِيمَانِه، وأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُه اللَّه بِشِرْكِه، ولَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ويَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ »[2]

وعن إصلاح ذات البين قال ﷺ في وصيته لولديه ﷺ: «فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا - ﷺ - يَقُولُ، صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ والصِّيَامِ »[3].

وعن حرمة المثلة قال ﷺ: «فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - يَقُولُ، إِيَّاكُمْ والْمُثْلَةَ ولَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ »[4].

وعن حقوق الضعفاء، قال ﷺ: «فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّه مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ »[5].

وقال ﷺ عن الحاكم الجائر: «وإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - يَقُولُ، يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ، ولَيْسَ مَعَه نَصِيرٌ ولَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى - ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا »[6].

وعن العمل قال ﷺ: «وقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - ﷺ - إِنَّ اللَّه يُحِبُّ الْعَبْدَ ويُبْغِضُ عَمَلَه، ويُحِبُّ الْعَمَلَ ويُبْغِضُ بَدَنَه »[7].

وقال ﷺ: «فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - كَانَ يَقُولُ، إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِه، وإِنَّ النَّارَ

---

(١) نهج البلاغة: ص٤٤١. وينظر: الصنعاني: المصنف ١١/ ٢٦١. ابن حنبل: المسند١/ ٧٨، ١٣٠، ٣ / ٤٤. البخاري: الصحيح: ٢ / ٨١. مسلم: الصحيح: ١ / ٨. الحاكم: المستدرك: ١ / ٧٧، ٣ / ٢٦٢، ٢٨٠. الهيثمي: مجمع الزوائد ١ / ١٤٢ - ١٤٤.

(٢) نهج البلاغة: ص٥٢٥. وينظر: الطبراني: المعجم الاوسط، تح: إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ب.ت: ٧/ ١٢٨، الهيثمي: مجمع الزوائد: ١ / ١٨٧.

(٣) نهج البلاغة: ص٥٨١ - ٥٨٢.

(٤) نهج البلاغة: ص٥٨٣. ينظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ب. ت: ٤ / ١١٤. الزمخشري: ربيع الابرار ونصوص الأخبار، تح: سليم النعيمي، مط العاني، بغداد، ١٩٨٢، ٢ / ٩٤.

(٥) نهج البلاغة: ص٦٠٩. الطبراني: المعجم الاوسط: ٥/ ٢٣٥.

(٦) نهج البلاغة: ص٣٠٩. ينظر: الطبري: تاريخ: ٣ / ٣٧٦. الزمخشري: ربيع الابرار: ٥ / ١٧٣.

(٧) نهج البلاغة: ص ٢٨٣.

حُفَّتْ بالشَّهَوَات»[1].

وقال (عليه السلام): «لَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللّه - (صلى الله عليه وآله) - لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُه، ولاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُه»[2].

وقال (عليه السلام): «فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه - (صلى الله عليه وآله) - كَانَ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ اعْمَلِ الْخَيْرَ ودَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ»[3].

وقال (عليه السلام): «لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا، عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، ولَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا[4] عَلَى الْمُنَافِقِ، عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي، وذَلِكَ أَنَّه قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - (صلى الله عليه وآله) - أَنَّه قَالَ يَا عَلِيُّ لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ولاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[5].

ولما سُئل (عليه السلام) عن قول النبي (صلى الله عليه وآله): «غَيِّرُوا الشَّيْبَ ولاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ، فَقَالَ (عليه السلام) إِنَّمَا قَالَ - (صلى الله عليه وآله) - ذَلِكَ والدِّينُ قُلٌّ، فَأَمَّا الآنَ وقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُه وضَرَبَ بِجِرَانِه، فَامْرُؤٌ ومَا اخْتَارَ»[6].

قال (عليه السلام): «إِنَّه لَمَّا أَنْزَلَ اللَّه سُبْحَانَه قَوْلَه: «ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ»[7]، عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا، ورَسُولُ اللَّه - (صلى الله عليه وآله) - بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذِه الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّه تَعَالَى بِهَا، فَقَالَ يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه، أَولَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ، حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ، فَقَالَ لِي إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٣٤. وينظر: الطبراني: المعجم الكبير: ٩/ ١٠٤.

(٢) نهج البلاغة: ص٣٣٨. ينظر: البيهقي: شعب الايمان، تح: أبوهاجر محمد السعيد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠: ١ / ٤١.

(٣) نهج البلاغة: ص٣٣٩. المجلسي: البحار: ٧٢ / ٣٢١.

(٤) جمع جمة، وهي موضع مجتمع الماء المترشح من الواح السفينة، ويقصد الامام (عليه السلام): لوكفات عليهم الدنيا بجليلها وحقيرها. الجوهري: الصحاح: ٥/ ١٨٩٠.

(٥) نهج البلاغة: ص٦٦٢. وبنظر: الزمخشري: ربيع الابرار: ١/ ٤٠١.

(٦) نهج البلاغة: ص٦٥٣.

(٧) سورة العنكبوت الآية ١ - ٢

اللَّه لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، ولَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى والشُّكْرِ، وقَالَ يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، ويَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، ويَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَه ويَأْمَنُونَ سَطْوَتَه، ويَسْتَحِلُّونَ حَرَامَه بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، والأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، والسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ والرِّبَا بِالْبَيْعِ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ فَقَالَ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ »(١)

قال ﷺ: «ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه - ﷺ - فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذِه الرَّنَّةُ، فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ »(٢).

قال ﷺ: «ولَقَدْ كُنْتُ مَعَه - ﷺ - لَمَّا أَتَاه الْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَه يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً، لَمْ يَدَّعِه آبَاؤُكَ ولَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، ونَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْه وأَرَيْتَنَاه، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ...»(٣). وجاءت بعض الأحاديث على لسان أمير المؤمنين ﷺ ولم يشر إلى رسول الله ﷺ، وكان الشريف الرضي يومئ إلى إن هناك من ينسبه للنبي ﷺ أوالى أمير المؤمنين ﷺ من أمثال:

«العين وكاء السّه »(٤)، يقول الشريف الرضي: وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي ﷺ(٥)، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين ﷺ(٦).

«القناعة مال لا ينفد »قال الرضي: «روى بعضهم هذا الكلام عن النبي ﷺ »(٧)

وتبع الإمام جنازة فسمع رجلا يضحك فقال ﷺ: «كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ

---

(١) نهج البلاغة: ص٢٨٩. المتقي الهندي: كنز العمال: ١٦ / ١٩٤.

(٢) نهج البلاغة: ص٤٠٦.

(٣) نهج البلاغة: ص٤٠٧. وينظر: القندوزي: ينابيع المودة لذوي القربى، تح: سيد علي جمال أشرف الحسيني، ط١، دار الأسوة، ١٤١٦هـ: ١/ ٢١٠.

(٤) قال الشريف الرضي: وهذه من الاستعارات العجيبة، كأنه يشبه السه بالوعاء، والعين بالوكاء، فاذا اطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء. نهج البلاغة: ص٧٥٤.

(٥) ينظر: الشريف الرضي: المجازات النبوية، تح: طه محمد الزيني، القاهرة، مؤسسة الحلبي، ١٩٦٧، ص٢٧٧.

(٦) نهج البلاغة: ص٧٥٤. وينظر: ابن ماجة: السنن: ١/ ١٦١. ابن قدامة: المغني: ١/ ١٦٥.

(٧) نهج البلاغة: ص٦٦٣، ٧٥٦ - ٧٥٧.

إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ونَأْكُل تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ ووَاعِظَةٍ ورُمِينَا بِكُلِّ فَادِحٍ وجَائِحَةٍ »[1].

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسه وطَابَ كَسْبُه، وصَلَحَتْ سَرِيرَتُه وحَسُنَتْ خَلِيقَتُه، وأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَاله وأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِه، وعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّه ووَسِعَتْه السُّنَّةُ ولَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ قال الرضي أقول ومن الناس من ينسب هذا الكلام إلى رسول الله - ﷺ - وكذلك الذي قبله »[2].

قال ﷺ: «اخْبُرْ تَقْلِه قال الرضي، ومن الناس من يروي هذا للرسول - ﷺ - ومما يقوي أنه من كلام أمير المؤمنين ﷺ ما حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي قال المأمون، لو لا أن عليا ﷺ قال اخبر تقله، لقلت أقله تخبر [3].

ثانيا: المغيبات والملاحم:

الغيب لغة: ما غاب عنك[4]. والغيبيات هي الحوادث التي تقع في المستقبل. اما علم الغيب فهوالعلم الذي يلم به انسان تنقشع من امام عينيه حجب القرون، وتنطوي المسافات فيقرأ المستقبل البعيد اوالحاضر المحجوب كما يقرأ في كتاب مفتوح، ويعي حوادثه كأنها بنت الساعة التي هوفيها[5]. وقد جاء في كلام الامام ﷺ اشارات مستقبلية تنبأ بها؛ اذ أن كلامه ﷺ. «داخل في باب المعجزات المحمدية لاشتمالها على الاخبار الغيبية وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية »[6]. فقد كان ﷺ يخبر عن امتلاكه المعرفة بحوادث ومستقبل الايام اذ يقول: «فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَده، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ، فِيمَا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ السَّاعَةِ، ولَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وتُضِلُّ مِائَةً، إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا، وقَائِدِهَا وسَائِقِهَا ومُنَاخِ رِكَابِهَا، ومَحَطِّ رِحَالِهَا،

---

(١) نهج البلاغة: ص٦٧٨.

(٢) نهج البلاغة: ص٦٧٨. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣١١.

(٣) نهج البلاغة: ص٧٤٩. وينظر: الطبراني: مسند الشاميين، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، بيروت، ١٩٩٦م، ٢/ ٣٥٨. الذهبي: ميزان الاعتدال، تح: علي محمد البجاوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٢ه، ٤/ ٤٩٧.

(٤) ابن الأثير: النهاية: ٣/ ٣٩٩. ابن منظور: لسان العرب: ١/ ٦٥٤.

(٥) محمد مهدي شمس الدين: دراسات في نهج البلاغة، المؤسسة الدولية، بيروت، ٢٠٠١م، ص١٢.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١/ ٤ - ٥.

وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا، ومَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً، ولَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي، ونَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهِ الأُمُورِ، وحَوَازِبُ الْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ»[1].

ولم يُعرف احد قال: «سلوني قبل أن تفقدوني» لا من الصحابة ولا غيرهم سوى الامام علي (عليه السلام) حتى أن احد الوعاظ قال ذلك على المنبر فتعرض للسخرية والاستهزاء[2].

وقد اكد (عليه السلام) «فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ»[3] فيه اشارة الى ما اختص به من العلم بمستقبل الامور لا سيما الملاحم والدول، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر من الاخبار الغيبية لا مره ولا مائه مرة، حتى زال الشك والارتياب في انه اخبار عن علم وليس اتفاقا[4].

تضمنت خطب وكلمات الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إشارات إلى بعض الحوادث التي سوف تقع مستقبلا، ومن الجدير بالذكر إن الإمام (عليه السلام) ذكر كل ذلك على طريقة الواثق ما يقول وكأنه ينظر إلى المستقبل بعين الحاضر المشاهد، وسبب ذلك يرجع إلى ثقة الإمام (عليه السلام) بالمصدر الذي يستقي منه ذلك العلم الذي لا يعتريه باطل ولا يشوبه شك»[5]. وقد أعرب مرارا وتكرارا انه استقى هذا العلم بحوادث المستقبل من رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي خصه بها، وقد أخذها النبي (صلى الله عليه وآله) عن طريق الوحي الإلهي، ولعل الإمام (عليه السلام) كان يتوقع من بعضهم أن يستنكر عليه مثل هذه الأخبار، وكبر في نفسه أن يرى عليا يتحدث عن الآتي المجهول كحديثه عن الماضي المنصرم، أوالحاضر المشاهد مما جعله يبادر للتصريح عن مصدر علمه هذه الأمور[6].

إذ قال في إحدى خطبه التي خصها للملاحم: «أَيُّهَا النَّاسُ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ولَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، ولَا تَتَرَامَوْا بِالأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَه مِنِّي، فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِه عَنِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ - (صلى الله عليه وآله) -، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ولَا جَهِلَ

---

(١) نهج البلاغة ص١٧٣.

(٢) ينظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ب. محق، مط السعادة، القاهرة، ١٩٣١، ١٣/ ١٦٣-١٦٤، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ب.محق، ب.ط، الناشر: مكتبة الحرم المكي، ب.مكا، ب.ت: ٢/ ٧٥٥.

(٣) نهج البلاغة ص٣٧٥-٣٧٦.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٠٦.

(٥) طاهر عيسى درويش: علي كما وصف نفسه، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٤: ص ٥٥- ٥٦.

(٦) درويش: علي كما وصف نفسه ص ٦٩.

السَّامِعُ »[1]. ولما اخبر عن التتار وفتنتهم، بادر احدهم بعد أن انتابه العجب والانبهار قائلا: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ، فَضَحِكَ - عليه السلام - وقَالَ لِلرَّجُلِ وكَانَ كَلْبِيّاً، يَا أَخَا كَلْب لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْب، وإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْم، وإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، ومَا عَدَّدَه اللَّه سُبْحَانَه بِقَوْلِه، «إِنَّ الله عِنْدَه عِلْمُ السَّاعَةِ * ويُنَزِّلُ الْغَيْثَ ويَعْلَمُ ما فِي الأَرْحام * وما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً * وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ »[2]، فَيَعْلَمُ اللَّه سُبْحَانَه مَا فِي الأَرْحَامِ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، ومَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً، فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُه أَحَدٌ إِلَّا اللَّه، ومَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ، عَلَّمَه اللَّه نَبِيَّه - صلى الله عليه وآله - فَعَلَّمَنِيه، ودَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَه صَدْرِي، وتَضْطَمَّ عَلَيْه جَوَانِحِي »[3].

وقد صرح الإمام عليه السلام من تحرجه في كثير من الأوقات في أن يتحدث عن المغيبات خوفا من أن يفاجئ الكثير ممن لا يستوعب مثل هذه الخاصية لديه عليه السلام إذ قال: «واللَّه لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ، بِمَخْرَجِه ومَوْلِجِه وجَمِيعِ شَأْنِه لَفَعَلْتُ، ولَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّه - صلى الله عليه وآله - أَلَا وإِنِّي مُفْضِيه إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْه، والَّذِي بَعَثَه بِالْحَقِّ واصْطَفَاه عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّه وبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، ومَنْجَى مَنْ يَنْجُوومَآلِ هَذَا الأَمْرِ... »[4].

اذن هذه النصوص صريحة بان علمه عليه السلام بالمغيبات مأخوذ من النبي صلى الله عليه وآله ولكن هل يمكن التصور انه صلى الله عليه وآله افضى للامام عليه السلام بتفاصيل كل الحوادث، فالظرف الزماني الذي جمع النبي بالامام لا يسع ذلك فالامام عليه السلام يقول: «فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ، فِيمَا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ السَّاعَةِ، ولَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وتُضِلُّ مِائَةً ...»[5] ويقول: «فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ ...»[6] ويقول: «واللَّه لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ

(١) نهج البلاغة ص١٨٧.

(٢) سورة لقمان آية ٣٤.

(٣) نهج البلاغة ص٢٤٤.

(٤) نهج البلاغة: ص٣٣٣.

(٥) نهج البلاغة: ص١٧٣.

(٦) نهج البلاغة: ص٣٧٥ـ٣٧٦.

مِنْكُمْ، بِمَخْرَجِه ومَوْلِجِه وجَمِيعِ شَأْنِه لَفَعَلْتُ ...»[1] فهذا علم واسع لا يسعه الظرف الزماني الذي قضاه الامام مع النبي ﷺ ولكن الامام يصرح بان علمه مستقى من النبي ﷺ فكيف التوفيق في ذلك؟

الظاهر انه ﷺ افضى للامام ﵇ بكليات الامور، ثم كان نشاط القوة الخفية المودعة للامام فتكشف له ما محجوب من احشاء الزمان وثنايا المكان، لان الامام ﵇ كان على درجة من الصفاء العقلي والطهارة الروحية والنقاء الوجداني وهذه القوى انشط في النفوذ الى المغيب المحجوب، وكان ﷺ بعد أن اوضح للامام ﵇ الكليات هداه للسبل التي تؤدي به الى ارفع درجات الحالة الروحية التي تتيح لقواه الخفية أن تعمل عملها الخارق فيعي بسببها تفصيل ما اجمله الرسول ﷺ [2]. ومن امثلة ذلك: تنبؤه ﵇ لاحداث خلافته؛ من الانذار بالحروب التي وقعت في عصره، واختلاف الكلمة، وظهور الفتنة[3]. وايضا ما تنبأ به الى قيام الدولة الاموية وابرز حكامها وولاتها، فقد تنبأ بوصول معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان الى الحكم[4]، ومن الولاة اشار الى الحجاج بن يوسف الثقفي[5]، وايضا تنبأ لبعض الاحداث في زمن بني امية كمقتل الامام الحسين ﵇[6]. وقد حفل كلامه ﵇ الوارد في نهج البلاغة بالاشارات الى مستقبل الخوارج من عصره الى العصر العباسي[7].

وفي اكثر من نص نجد الامام ﵇ يشير الى زوال دولة بني أمية وقيام الدولة العباسية مقامها[8]. ومن تنبؤاته ما اختص بالبصرة؛ اذ اشار ﵇ الى بعض ما سيجري فيها من ظهور حركة الزنج، وما تتركه من آثار على تلك المدينة، فضلا عن آثار الفتن

---

(١) نهج البلاغة: ص٣٣٣.

(٢) شمس الدين: دراسات في نهج البلاغة: ص١٣٨-١٤١.

(٣)نهج البلاغة: ص ١٧٢، ١٨٥، ٥٠٦.

(٤)نهج البلاغة: ص ٩٣ - ٩٤، ١٠٩، ١٨٧ - ١٨٨، ٢٥٧.

(٥)نهج البلاغة: ص ٢٢٧. وينظر ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٧٧ - ٢٨١.

(٦)نهج البلاغة: ص ١٩٤. وينظر: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٧/ ١١٧، ١٢٠.

(٧)نهج البلاغة: ص ٩٤ - ٩٥، ٦٩٣. وينظر: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٣٢، ٥/ ٣ - ٤، ٧٤ - ٧٦، ٦/ ١٣٠، ٧/ ٤٠٨.

(٨)نهج البلاغة: ص ١٩٥، ٦٩٧، ٧٥٤. وينظر: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٧/ ٩٨، ١٠١، ١١٧، ١٢٠ - ١٢١، ١٩/ ٢٩، ٢٠/ ١٨٢ - ١٨٣.

التي تعصف باهلها، حتى نبؤاته بغرقها فلا يرى منها الا مسجدها[1]. كما اشار ﷺ في جوانب من خطبه الشريفة الى ظهور الامام المهدي (عج) في آخر الزمان.[2]

وفي غير التدوين والرواية نجد إن النصوص في نهج البلاغة تنبؤنا عن إحياء امير المؤمنين ﷺ للسنة النبوية في جانبها العملي، ومن ذلك: روي انه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة، فقال قوم: لوأخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحلي، فهم عمر بذلك وسأل عنه أمير المؤمنين ﷺ فقال: «إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنزلَ عَلَى النَّبِيِّ - ﷺ -، والأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ أَمْوَالُ الْمُسْلمِينَ، فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَة فِي الْفَرَائض، والْفَيْءُ فَقَسَّمَه عَلَى مُسْتَحقِّيه، والْخُمُسُ فَوَضَعَه اللَّه حَيْثُ وَضَعَه، والصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا اللَّه حَيْثُ جَعَلَهَا، وكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَة فِيهَا يَوْمَئذ، فَتَرَكَه اللَّه عَلَى حَاله، ولَمْ يَتْرُكْه نسْيَاناً ولَمْ يَخْفَ عَلَيْه مَكَاناً، فَأَقرَّه حَيْثُ أَقَرَّه اللَّه ورَسُولُه، فَقَالَ لَه عُمَرُ لَوْلَاكَ لَافْتَضَحْنَا، وتَرَكَ الْحَلْيَ بحَاله»[3].

وهناك شاهد آخر لما أفضت إليه وتسلم مقاليد الأمور وعمل بنظام رسول الله في التسوية بالعطاء، جاءه طلحة والزبير يعتبان فقال ﷺ: «وأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا منْ أَمْر الأُسْوَة، فَإِنَّ ذَلكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فيه برَأْيي، ولَا وَليتُه هَوًى منِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وأَنْتُمَا مَا جَاءَ به رَسُولُ اللَّه - ﷺ - قَدْ فُرغَ منْه، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فيمَا قَدْ فَرَغَ اللَّه منْ قَسْمه، وأَمْضَى فيه حُكْمَه، فَلَيْسَ لَكُمَا واللَّه عنْدي ولَا لغَيْركُمَا في هَذَا عُتْبَى»[4]

وفي نص آخر يوجب على من يوصيه من عماله بما كان رسول الله ﷺ يفعله بقوله: «فَامْنَعْ منَ الاحْتكَار، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه - ﷺ - مَنَعَ منْه »[5]، وفيما يخص الصدقات نجده يقول لمن ولاه عليها: «لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّه وسُنَّةِ نَبِيِّه ﷺ»[6]،

---

(١)نهج البلاغة: ص ٣٩، ١٨٩، ٢٤٢- ٢٤٤. وينظر ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٠٤، ٨/ ٢١٨.

(٢)نهج البلاغة: ص ١٨٥، ٢٥٦، ٢٧٢- ٢٧٣، ٣٢٠، ٣٥٢ - ٣٥٣، ٣٧١، ٦٩٧. وينظر ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٣٥، ٧/ ٨٤، ٩/ ١٢٦، ١٠/ ١٩٥، ١٩/ ٢٩، ١٠٤.

(٣) نهج البلاغة: ص ٧١٣.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٣٧.

(٥) نهج البلاغة: ص ٦٠٦.

(٦) نهج البلاغة: ص ٥٢١.

وكان مما احتج به على الخوارج سنة رسول الله ﷺ في الموقف من مرتكب الكبيرة، إذ كان مخالفا لما أحدثه بعده الخوارج في ذات المسالة، فذكرهم لسنة رسول الله ﷺ وتشريعه: «وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْه ثُمَّ وَرَّثَه أَهْلَه، وقَتَلَ الْقَاتِلَ ووَرَّثَ مِيرَاثَه أَهْلَه، وقَطَعَ السَّارِقَ وجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ ونَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِذُنُوبِهِمْ، وأَقَامَ حَقَّ اللَّه فِيهِمْ، ولَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلَامِ، ولَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِه»[1]

(١) نهج البلاغة: ص ٢٤١.

حقوق الانسان
عند الرسول الاكرم ﷺ

السيد عدنان سلمان قاسم الموسوي
باحث إسلامي - ميسان

السيد عدنان سلمان قاسم

كاتب وباحث اسلامي. من مواليد ١٩٦٩م.
استاذ فى الحوزة العلمية انهى مرحلة السطوح العليا في جامعة المصطفى العالمية ،استاذ مواد المقدمات الحوزوية.
النتاجات العلمية: ١- موسوعة الامام الحسين ع. ٢- بحوث متعددة فى الفكر الاسلامي. ٣- مشارك فى عدة مؤتمرات دولية ووطنية.

الكتابة في مجال حقوق الانسان تعتبر تقرير عن حياة الانسانية وما يحيطها من ظروف وحقوق وواجبات، والتشريعات السماوية جاءت لتنظم حياة البشر على مدى الدهور وتعطي كل ذي حق حقه وبما أن المجتمع الانساني متفاوت في القابليات والقدرات العقلية والنفسية فهذا التفاوت من الطبيعي يجعل المجتمع متنوع ومصنف في عدة طبقات وبطبيعة الحال أن البشرية مختلفة جنسا وشكلا وهذا التفاوت يجعل حالة من التنافس بين ابناء الجنس الواحد ولكن هذه الحالة تارة تكون اعتيادية وطبيعية وأخرى تكون مشوبة بنوع من الجريمة والاعتداء ومصادرة الحقوق والحريات فالديانات السماوية ومنذ بداية الخلق جاءت لتنظم العلاقة بين الانسان وربه من جهة ومن جهة اخرى تنظم العلاقة بين الانسان وأبناء جنسه ولكن هذا التنظيم يخضع لمدى التزام الانسان بتعاليم الشرائع السماوية ومن الطبيعي يحصل التفاوت بين المجتمعات، فنرى بعض المجتمعات الملتزمة بتعاليم السماء أن الحقوق فيها محفوظة بنسبة ما، وأما المجتمعات المبتعدة عن تعاليم الشرائع السماوية نجد أن الحقوق فيها مغيبة وان ادعت انها ممن يهتم بحقوق الانسان ولكنها على مستوى النظرية فقط وبعيدة عن عملية التطبيق، ويعتبر الدفاع عن هذه القيم الانسانية واجب شرعي وعقلي وإنساني وأخلاقي ونحن في هذا المجال قدمنا عرضا موجزا لمعالجة ضياع حقوق الانسان وفق تعاليم الاسلام ومن خلال سيرة النبي الاكرم ﷺ واذا رجعنا الى الاسلام وقائده الرسول الاكرم ﷺ نجده يؤكد على حقوق الانسان وضرورة احترامها والحفاظ عليها بصرف النظر عن كون الانسان مسلم اوغير مسلم فالحقوق ثابتة للإنسان طالما التزم هوبالحقوق والواجبات المفروضة عليه تجاه ابناء جنسه إلا اذا خرج عن طور الانسانية وأصبح انسانا فوضويا ومجرما فوضعت له السماء العقوبات الرادعة والمؤدبة له بغية

رجوعه الى رشده وبما أن الموضوع مطول فطرحنا هنا جملة من المباحث بما يتناسب والدراسة لهذا الموضوع والتي تعد من اهم الموضوعات في هذا المجال ومنها عدالة الحاكم اذ تعتبر من الامور المهمة اذا كان الحاكم عادلا وطبق القوانين بشكل صحيح سوف يضمن حقوق رعيته وكذلك من الامور التي طرحت هنا تطبيق قوانين القضاء والقضاء على الجريمة واخترنا هنا القصاص في القضاء وضرورة تطبيقه وفق النظرية الاسلامية المأخوذة من القرآن والسنة المطهرة،كما اننا طرحنا هنا موضوعة الرشوة ومضارها في المجتمع وضياع الحقوق في ممارسة هذه الصفة الرذيلة في المجتمع ومن الامور التي يجب أن تعالج. مسألة التعلم والتعليم وضرورة الاهتمام بالتعليم لكافة ابناء المجتمع لاسيما المرأة وعدم اقتصار التعليم على شرائح معينة كأبن الحاكم وابن الثري كما اثبتناه في تاريخ بعض الشعوب ومن الحقوق التي يجب أن تحفظ هوحق الاسرة فيما بينها الاب، الام، الزوج، الزوجة والابن ومن الحقوق التي يجب أن تحفظ هي حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية كل بحسب اعتقاده ولا ينبغي أن تفرض عقيدة معينة على الاخرين وعلى الحكومات أن تحفظ الارواح من القتل والتهجير والاضطهاد.

المبحث الاول

اهمية حقوق الانسان عند الرسول الاكرم ﷺ

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة راقية فيها تكريم وتعظيم انطلاقًا من قوله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً»[1]. وهذه النظرة جعلت لحقوق الإنسان في الإسلام خصائص ومميزات خاصَّة؛ مِن أهمِّها شموليَّة هذه الحقوق فهي سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.. كما أنها عامَّة لكل الأفراد مسلمين كانوا أوغير مسلمينَ، دون تمييز بين لون أوجنس أولغة وهي كذلك غير قابلة للإلغاء أوالتبديل لأنها مرتبطة بتعاليم ربِّ العالمين.وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في خطبة ألوداع التي كانت بمنزلة تقرير شامل لحقوق الإنسان حين قال: ﷺ «... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ

(١) الاسراء: اية ٧٠

كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ.. حيث أكَّدت هذه الخطبة النبويَّة جملة من الحقوق أهمُّها: حرمة الدماء، والأموال، والأعراض.. وغيره وقال ﷺ أيضًا يُعَظِّم من شأن النفس الإنسانيَّة عامَّة، فيحفظ لها أعظم حقوقها وهوحقُّ الحياة فيقول ﷺ عندما سُئِل عن الكبائر «الإِشْرَاكُ بِاللهِ.. وَقَتْلُ النَّفْسِ.. فجاءت كلمة النفس عامَّة لتشمل أيَّ نَفْسٍ تُقتل دون وجه حقٍّ دون تمييز بين اللون والعرق والطائفة والجنس. ثم ذهب الرسول ﷺ إلى أكثر من ذلك حين شرع حفظ حياة الإنسان من نفسه، وذلك بتحريم الانتحار فقال ﷺ (مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جهنم يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ والعمل فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)هذا وقد حرَّم الإسلام كل عمل ينتقص من حقِّ الحياة سواء أكان هذا العمل تخويفًا، أوإهانة، أوضربًا، فعن هشام بن حكيم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا)

المطلب الأول اهمية الموضوع

أن موضوع حقوق الانسان من المواضيع المهمة في حياتنا وله تداعيات كثيرة لأنه متعلق بحياة وشؤون الانسان مباشرة من حيث المعاش والحقوق والواجبات والتنافس بين افراد المجتمع في الاموال والملك والسلطان ومن الطبيعي أن هذا التنافس اذا ما حكمته ضوابط اخلاقية وإنسانية فسوف يقع الكثير ضحية لذلك التنافس، لهذا اهتمت الشريعة الاسلامية بهذا الموضوع وأكدته الآيات القرآنية الكريمة وكذلك النبي الكريم ﷺ والأئمة عليهم السلام من بعده ولا يخفى أن هذا الموضوع يحفظ للإنسان كرامته وكيانه وإذا ضيع احد المجتمعات حقوق الانسان فانه يتحول هذا المجتمع الى غابة تسيطر عليا الكواسر من وحوش البشر ويضيع فيها المستضعف والفقير. وبنى الإسلام نظرته إلى الإنسان الذكر والأنثى دون تمييز على ركيزة جوهرية هي انفراد الإنسان بين مخلوقات الله عز وجل لكونه كياناً عاقلاً حيث قال سبحانه وتعالى (وعلم ادم الاسماء كلها) وعلى موقعه المتميز في المعادلة الكونية (وإذ قال ربك للملائكة إني

جاعل في الأرض خليفة) كما أن للإنسان مكانة خاصة تختلف عن المخلوقات حيث يقول الباري عز وجل (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)[1] وقد انطوت فلسفته العامة على تبنٍّ كامل لحقوق الإنسان من خلال منطلقه الرئيسي وهو احترام النوع ألإنساني وتكريمه الواضح لبني البشر (ولقد كرمنا بني آدم) ومساواته بين البشر جميعا في أصل النشأة والخلق (يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)[2]وربطه قيمة الفرد بالعمل الذي يقوم به لا بشيء آخر من لون أوعرق أوجنس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد تعددت أشكال تكريم الإسلام للإنسان من جعل الكون بما فيه من قوى طبيعية ومخلوقات نباتية وحيوانيه تحت تصرّفه، فاستخدم مفردة (سخر) التي وردت في القرآن الكريم عدة مرات للدلالة على طبيعة العلاقة بين الطرفين ومادة لفعله ومن جعل خلافة الإنسان في الأرض منطلق بناء شخصية إنسانية قوية وقادرة على تمكين قيم الحق والعدل والمساواة والسلام والخير ومواجهة الباطل وحماية الأرض من الإفساد ومن اعتبار توفير ظروف معيشية تناسب كرامته الإنسانية واجبا على أولي الأمر تحقيقه في حدود ما اصطلح على تسميته (بالكفاية) ويعني أن يتوفر له كل ما يكفيه حتى لا تشغله مطالب معيشته عن واجبات (الاستخلاف) المحددة بإعمار الكون وإحقاق الحق ومحاربة الباطل ضمانة لحريته حيث قدمها على إقامة الدين ذاته.اما في الواقع الذي نعيشه لا نرى هناك قيمة حقيقة لهذا الانسان الذي كرمه الباري عز وجل بل اصبح هذا الكيان محل لجميع الانتهاكات والاعتداءات التي لا يتحملها الحيوان في بعض الاحيان فأصبح محروم من ابسط الحقوق المشروعة وهوحق المواطنة فضلا عن العيش الكريم والعمل الكريم.

المطلب الثاني: تعريف الحق في اللغة

الحقُّ نقيض الباطل. حقَّ الشيْء يَحِقُّ حَقّاً أي وَجَبَ وُجُوباً. وتقول: يُحِقُّ عليك أنّ تفعَلَ كذا، وأنتَ حقيقٌ على أن تفعَلَه. وحَقيقٌ فَعيلٌ في موضع مفعول.

---

(١) سورة البقرة:اية٣٤

(٢) سورة الحجرات:اية١٣

وقول اللهِ عزَّ وجَلّ: (حقيق على أن لا أقول) معناه مَحقوق كما تقول: واجب. وكلُّ مفعُول رُدَّ إلى فَعيل فمذكَّره ومؤنثه بغير الهاء، وتقول للمرأة: أنتِ حقيقةٌ لذلك، وأنتِ مَحقوقةٌ.

والحَقَّةُ من الحَقِّ كأنَّها أوجَبُ وأَخَصُّ. تقول: هذه حَقَّتي أي حَقِّي.

والحقيقة: ما يصيرُ إليه حقُّ الأمر ووجوبه. وبلغْتُ حقيقةَ هذا: أي يقين شأنه.

وفي الحديث: (لا يبلُغُ أحدُكُم حقيقةَ الإيمان حتى لا يعيبَ على مُسلِمٍ بعَيْبٍ هوفيه). أهمُّها: حرمة الدماء، والأموال، والأعراض.. وغيرها

وحقيقةُ الرجل: ما لَزِمَهُ الدفاعُ عنه من أهل بيته، والجميع حقائق.

وتقول: أَحَقَّ الرجُلُ إذا قال حَقّاً وادَّعَى حَقّاً فوَجَبَ له وحَقَّقَ، كقولك: صدَّق وقالَ هذا هوالحقُّ. وتقول: ما كان يَحُقُّك أن تَفْعَل كذا أي ما حَقَّ لك. والحاقَّةُ: النازلة التي حقَّتْ فلا كاذبةَ لها. وتقولُ للرجل إذا خاصَمَ في صِغار الأشياء: إنّه لنَزِقُ الحقاق.

وفي الحديث: (مَتَى ما يَغْلُوا يحتَقُّوا) أي يَدَّعِي كلُّ واحدٍ أنَّ الحقَّ في يَدَيْه، ويغلوا أي يُسرفوا في دينهم ويَختَصِمُوا يتجادَلُوا: والحِقُّ: دونَ الجَذَع من الإبِل بسنةٍ، وذلك حين يَسْتَحِقُّ للرُكُوب، والأُنثَى حِقَّةٌ: إذا استَحَقَّت الفَحْلَ، وجمعه حِقاق وحَقائق[1].

الحَقُّ: نَقِيْضُ الباطل، والحَقَّةُ: مِثْلُه، هذه حَقَّتي: أي حَقِّي. وحَقَّ الشَّيْءُ: وَجَبَ، يَحُقُّ ويَحِقُّ، وهوحَقِيْقٌ ومَحْقُوقٌ. وبَلَغْتُ حَقِيْقَةَ الأمْرِ: أي يَقِيْنَ شَأْنِه. والحَقِيْقَةُ: الرّايَةُ. والحُرْمَةُ أيضاً، من قَوْلِهم: حامي الحَقِيقَة.

وأَحَقَّ الرَّجُلُ: قال حَقّاً أوادَّعى حَقّاً فَوَجَبَ له، من قَوْلِه عزَّ وجلَّ: «لِيُحِقَّ الحَقَّ».

والحاقَّةُ: النَّازِلَةُ التي حَقَّتْ فلا كاذِبَةَ لها. والحِقَاقُ: المُحَاقَّةُ. وحاقَقْتُ الرَّجُلَ: ادَّعَيْتَ أَنَّكَ أوْلى بالحقِّ منه. وحَقَقْتُه: غَلَبْتُه على الحَقِّ وأحْقَقْتُه: مِثْلُه[2].

الحَقُّ نقيض الباطل وجمعه حُقوقٌ وحِقاقٌ وليس له بناء أدنى عدَد وفي حديث التلبية لبَّيْك حَقّاً حقّاً أي غير باطل وهومصدر مؤكد لغيره أي أنه أَكَّد به معنى أَلزَم طاعتَك الذي دلّ عليه لبيك كما تقول هذا عبد الله حقّاً فتؤَكّد به وتُكرِّرُه لزيادة التأْكيد

(١) كتاب العين ج١

(٢) الصاحب بن عباد ج١ ص ١٥١

وتَعَبُّداً مفعول له[1].

المطلب الثالث تعريف الحق اصطلاحا.

للحق عند الفقهاء معان عديدة فقال بعضهم أن الحق سلطنة فعلية وقال آخرون هونوع من الملكية ومنهم من قال هوالحكم الثابت أوالمصلحة المستحقة شرعا إلى غير ذلك من التعريفات.

فقد عرفه الشيخ الأنصاري في المكاسب بأنه (سلطنة فعلية لا يعقل قيام طرفيها بشخص واحد، بخلاف الملك، فإنها نسبة بين المالك والمملوك) [2]

ويبدوأن الشيخ ركّز على تفريق الحق عن الملك، فالأوّل قائم بطرفين بخلاف الثاني، فيكون قوام الحق عنده على أساس انه سلطنة فعلية تقوم بطرفين، طرف ذوالحق والطرف الذي عليه الحق، والشيخ وان ميّز بين الحق والملك من جهة الحاجة لطرف آخر وعدمها، إلا أن الظاهر من تعريفه انه ينظر للحق على انه مرتبة ضعيفة من الملك.

وقال السيد الحكيم في نهج الفقاهة بأن الحق: (عبارة عن نوع من الملكية التي هي نوع خاص من الإضافة بين المالك والمملوك والاعتبار الخاص بينهما الذي هومعنى لام الملك في مثل قولك الفرس لزيد، فإن اللام حاكية عن إضافة بين زيد والفرس على نحوخاص [3]

وكذلك السيد الخوئي في تعريفه له فلم يبتعد عما تقدّم من التعاريف، بل وعرفه من خلال الآثار المترتبة على الحق، وعليه يكون وقع الحق في الخارج أولاً، ثم تترتّب الآثار عليه ثانياً، حتى يتسنّى لنا معرفة الحق انه حق، هذا وقد جعل الحق من قبيل الأحكام الشرعية على خلاف التعريفين المتقدّمين. فقال في تعريفه: (إن ما يكون اختياره تحت يد الإنسان من الأحكام الشرعيّة بحيث حقاً يقبل النقل والانتقال أوالسقوط والإسقاط سمي ذلك حقاً [4].

وخالف الجمع المذكور الشيخ الأصفهاني في حاشيته فقال: (ويمكن أن يقال -

(١) محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ج١٠ ص٤٩

(٢) الأنصاري، مرتضى، المكاسب، ج٣ ص١٠.

(٣) الحكيم، محسن، نهج الفقاهة، ص١٥.

(٤) الخوئي، أبوالقاسم، مصباح الفقاهة، ج٥ ص٤٠٦.

وان لم أجد من وافق عليه صريحاً - أن الحق مصداقاً في كل مورد اعتبار مخصوص له آثار خاصة فحق الولاية ليس إلا اعتبار ولاية الحاكم والأب والجد، ومن أحكام نفس هذا الاعتبار جواز تصرفه في مال المولى عليه تكليفا ووضعا، ولا حاجة إلى اعتبار آخر [١].

فإن تعريفه وان خلا من السلطنة ومرتبية الملك الضعيفة ولكنه اخذ قيد الآثار في التعريف.

وقال الدكتور وهبة الزحيلي: وأما عند الفقهاء فقد ورد تعريف للحق عند بعض المتأخرين فقال: (الحق: هوالحكم الثابت شرعا، ولكنه تعريف غير جامع ولا شامل لكل ما يطلق عليه لفظ الحق عند الفقهاء. فقد يطلق الحق على المال المملوك وهوليس حكماً، ويطلق على الملك نفسه، وعلى الوصف الشرعي كحق الولاية والحضانة والخيار، ويطلق على مرافق العقار كحق الطريق والمسيل والمجرى. ويطلق على الآثار المترتبة على العقود كالالتزام بتسليم المبيع أوالثمن). [٢]

المبحث الثاني

حقوق الانسان في الحكم والإدارة

من الامور التي اهتمت بها الشريعة الاسلامية وأعطتها الكثير من الزخم العلمي والأخلاقي هي مسألة العدالة ويعتبر عدم تحقق العدالة الاجتماعية خلل كبير يجعل المجتمع يعيش حالة من التفسخ والانحطاط والانحدار في اودية الظلم والاضطهاد الذي يعد من اكبر الجرائم في المجتمعات ومن الشواهد القرآنية على ذلك قوله سبحانه وتعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَلِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فلا تتبعوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)[٣]

الشريعة جعلت مبدأ أساسياً وقانوناً كلياً في مجال تطبيق العدالة في جميع الشؤون

---

(١) الأصفهاني، محمد حسين، حاشية كتاب المكاسب، ج١ ص٤٥.

(٢) الزُّحَيْلِيّ، وَهْبَة، الفِقْهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ ج٤ص٣٦٥.

(٣) سورة النساء اية١٣٥

والموارد بدون استثناء، وتأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة (يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط....

ويجب الانتباه إلى أنّ كلمة «قوامين»هي جمع لكلمة «قوّام»وهي صيغة مبالغة من «قائم»وتعني «كثير القيام»أي أن على المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل الأحوال والأعمال وفي كل العصور والدهور، لكي يصبح العدل جزءاً من طبعهم وأخلاقهم، ويصبح الانحراف عن العدل مخالفاً ومناقضاً لطبعهم وروحهم.

والإتيان بكلمة «القيام»في هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أنّ الإنسان حين يريد القيام بأي عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامّة ويتابع ذلك العمل، وعلى هذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم والإرادة الرّاسخة والإجراء لإنجاز العمل،حتى لوكان هذا العمل من باب حكم القاضي الذي لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله. [1]

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة»فشددت على ضرورة التخلي عن كل الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشهادة، وأن يكون هدف الشهادة بالحق هوكسب مرضاة الله فقط، حتى لوأصبحت النتيجة في ضرر الشاهد أوأبيه أوأمه أوأقاربه (شهداء لله ولوعلى أنفسكم أوالوالدين والأقربين...) [2].

وقد شاع هذا الأمر في كل المجتمعات، وبالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث كانت الشهادة تقاس بمقدار الحبّ والكراهية ونوع القرابة بين الأشخاص والشاهد، دون أن يكون للحق والعدل أثر فيما يفعلون، واذا لم تقام الشهادة كما بينته الشريعة تصبح الشهادة مضيعة لحقوق الآخرين.

المطلب الاول:عدالة الحاكم

لابد أن يكون الحاكم عادلاً ولا يندفع مع أهوائه، ولا يؤثر احد على آخر لهوى في نفسه، بل يعامل الناس بالعدل، ولوكانوا من اعدائه اومعارضيه، ويطبق القانون على الجميع بدون محاباة لأحد. فقد ذهب بعض المسلمين من ابناء العامة الى انه لوخرج

---

(١) تفسير الامثل ج٣ ص٤٨٥

(٢) تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ٤٥٥

الحاكم على القانون الاسلامي فلا يجوز الخروج عليه اومعارضته، ولوكان ظالماً فاسقاً، وان طاعته أولى من الخروج عليه. وقال احمد بن حنبل: لا يجوز الخروج على الامراء بالسيف وان جاروا، والى ذلك ذهب مالك في موطئه، والشافعي في كتبه ونحن هنا لا نريد مناقشة الموضوع نقاش علمي موضوعي بل ننقل رأيا عن مذهب اومذاهب والنقشات موكولة الى بحوث ودراسات اخرى، وهنا نرى أن الرسول ﷺ يؤكد على قضية عدالة الحاكم اذ فيها تحفظ حقوق الناس وحرماتهم لذلك قال ﷺ: ساعة من إمام عدل أفضل من عبادة سبعين سنة، وحدّ يقام للّه في الأرض أفضل من مطر أربعين صباحا[1]

وقد رووا عن الرسول ﷺ انه قال: من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصيته، ولا ينزعن يداً عن طاعة، وانه قال: افضل الدين النصيحة لله ولرسوله وللأئمة المسلمين.

اما الامامية وبعض المعتزلة والخوارج، فإنهم يرون جهاده اذا خرج على المبادئ الاسلامية واجباً، ولا يجوز السكوت عليه اذا أمكن مقاومته، ولوأدى الى اراقة الدماء، وعند الامامية أن جهاد الظالمين من أفضل الطاعات وأكثرها ثواباً وأجرا، ومروياتهم عن الائمة تؤكد وجوب جهادهم ومقاومتهم، وهذا المبدأ من الضرورات عند الشيعة كما وان القرآن الكريم لم يجعل للظالمين سلطاناً على احد من الناس، قال تعالى:(ولا تتخذوا الظالمين أولياء لكم من دون المؤمنين ومن يتولهم منكم فأولئك هم الفاسقون).

وفي الآية من سورة التوبة: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن....)[2].

ومجمل القول أن الاشاعرة والمحدثين والفقهاء وفريقاً من المعتزلة مع انهم يشترطون عدالة الحاكم، يقولون بأن ولايته ماضية حتى ولوكان فاسقاً ظالماً جائراً، فلا يجوز الخروج عليه ولوتوفرت القوة الكافية لإراحة العباد منه. ولا فرق عندهم

---

(١) الكافي للكليني ٧: ١٧٥ ح ٨

(٢) سورة التوبة: اية١١١

بين الخليفة المختار، وبين من استولى على الامور بالقوة والغلبة، امثال يزيد بن معاوية وغيره من الحكام الجائرين، والخارجين في سيرتهم على المبادئ الاسلامية، ونصوص القرآن، لان الخروج عليه يؤدي الى الفتنة وإراقة الدماء، ولان الصبر عليه اولى من الدخول في فتنة[1] وهذا مما اختلف عليه بين المسلمين فالشيعة يقولون بوجوب الخروج على السلطان الظالم حتى تنحيته ووضع من هواصلح لإدارة امور الامة.

والمعروف أن العقول حاكمة بأنّ أحوال العالم كلّها إنما قامت على العدالة وبأن الأنبياء بعثوا ليقوم النّاس بالقسط وبالعدل قامت السماوات والأرض وبه ينتظم جميع امور النّاس وبه يصير المدينة مدينة فاضلة وبالعدالة المطلقة يعطى كلّ ذي حق حقّه وبه تحصل الكمالات العلميّة والعمليّة المستلزمة لنيل السعادة الأبدية والقرب إلى عالم القدس والايصال إلى المعبود الحق وهوسبب الفوز والنجاة في الدّنيا والآخرة ولولا العدل لأختلَ نظام العالم ونظم اجتماع بني آدم وتعطل الحدود والحقوق واستولى الهرج والمرج وفسد أمر المعاش والمعاد ولزم غيرها من المفاسد الّتي لا تعدّ ولا تحصى، فالناس يحتاجون في كلّ زمان إلى امام خيّر مطاع حافظ للدين عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان ويكون هادى الأمة إلى ما فيه الفلاح والنجاح ورادعهم عن العدول عن الصراط المستقيم والانحراف عن النهج القويم وعن الميل إلى الأهواء المردية والآراء المغوية وسائقهم إلى طريق الاستقامة الّتي لا ميل فيها إلى جانبي الافراط والتفريط فان اليمين والشمال مضلّة والوسطى هي الجادّة، ومعطي كلّ ذي حقّ حقّه ومقيم الحدود ومؤدى الحقوق والعدل في كلّ شي ء هووضع ذلك الشيء في موضعه أي إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه بحسب استعداده واستحقاقه وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه يحتاج إلى العلم بحقائقهم وقدر استحقاقهم والاطلاع على الكلّيات والجزئيات وإحاطتها على ما هي عليه وهى غير متناهية فهي غير معلومة إلاّ للّه تعالى ولخلفائه الذين اصطفاهم، فالإمام الّذي بيده أزمّة العدل والحكم والكتاب يجب أن يكون خليفته في الأرض وخليفته منصوب من عنده ومعصوم من العيوب مطلقا[2].

(١) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ج٦ص٢٠٩

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (خوئي) ج١ ص٤٧

المطلب الثاني:حقوق الانسان في القضاء (القصاص نموذجا).

حقوق الانسان في القضاء امر مهم لحفظ الممتلكات والارواح والحقوق المادية والمعوية وبما أن الموضوع واسع ويصعب الاحاطة به في هذه الدراسة المقتضبة اخذنا موضوعة القصاص كنموذج مهم في القضاء والقصاص لوطبق كما هوفي الشريعة الاسلامية لحفظ الحقوق والأنفس ولكن تخلف القضاء والسلطات التنفيذية عن تطبيق القصاص جعل المجرمين يتمادون في غيهم وجرمهم، ولوأمعنا النظر في آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه الاعتراضات (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ)[1].

فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوي مسيرتها الحياتية التكاملية، وتحفظ حقوق بني البشر دون اقتلاع العوامل المضرّة الهدامة فيها. ولما كان القصاص في هذه المواضع يضمن استمرار الحياة والبقاء، وديمومتها فإن الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة في وجود الإنسان.

أنظمة الطب والزراعة والرعي قائمة على أساس هذا الأصل العقلي، وهوإزالة الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضوالفاسد إذا شكل خطورة على بقية أعضاء الجسد، وتقتلع النباتات والأغصان المضرة من أجل استمرار نموالنباتات المفيدة بشكل صحيح.

أُولئك الذين يرون في الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردي. ولوأخذوا بنظر الاعتبار مصلحة المجتمع، وعلموا ما في القصاص من دور في حفظ سائر أفراد المجتمع وتربيتهم، لأعادوا النظر في أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضوالفاسد من جسد الإنسان، وكقطع الغصن المضر من الشجرة. ولا أحد يعترض على قطع ذلك العضووهذا الغصن..

ولابدّ من الالتفات إلى أن تشريع القصاص لا ارتباط له بمسألة الانتقام كما يدعي البعض. لأن الهدف من الانتقام إطفاء نار الغضب المتأججة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف للحيلولة دون استمرار الظلم في المجتمع، وحماية سائر الأبرياء.

---

(١) سورة البقرة:آية،١٧٩

ولا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعي بل هناك خلل ينبغي معالجته ومن خلال القضاء، والإسلام لم يشرع حكم القصاص للقاتل المجنون وأمثاله، ولكن لا يمكن اعتبار المرض عذراً لكل قاتل، إذ لا يخفي ما يجرّ إليه ذلك من فساد، ومن تشجيع القتلة على ارتكاب جرائمهم.ولوصح هذا الاستدلال بالنسبة للقاتل لصح أيضاً بشأن جميع المعتدين على حقوق الآخرين. لأن الإنسان العاقل المعتدل لا يعتدي إطلاقاً على الآخرين. وبذلك يجب حذف كل القوانين الجزائية، ويجب إرسال المعتدين والمجرمين إلى مستشفيات الأمراض النّفسية بدل السجون وهذا غير معقول بل نرى أن القائمين بعملية القتل هم رؤساء دول وقادة كبار يتمتعون بمؤهلات علمية وقدرات عقلية كبيرة.

أمّا ادعاء عدم إمكان قبول قانون القصاص اليوم بسبب تطور المجتمع، وبسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائيات الجرائم الفظيعة التي ترتكب في عصرنا الراهن، وأمام التجاوزات الوحشية التي تنتشر في بقاع مختلفة من عالمنا بسبب الحروب وغير الحروب.

ولوأتيح للبشرية أن تقيم مجتمعاً إنسانياً متطوراً تطوراً حقيقياً، فإن مثل هذا المجتمع يستطيع أن يلجأ إلى العفوبدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام ذلك، ومن المؤكد أن المجتمع المتطور في آفاقه الإنسانية سيفضّل عفوالقاتل. أمّا في مجتمعاتنا المعاصرة حيث ترتكب فيها أفظع الجرائم تحت عناوين مختلفة، فإن إلغاء قانون القصاص لا يزيد في جرائم المجتمع إلاّ اتساعاً وضراوة.

وحول حفظ القتلة في السجون، فإن هذه العملية لا تحقق هدف الإسلام من القصاص. فالقصاص كما ذكرنا يهدف الى حفظ حياة المجتمع، والحيلولة دون تكرار القتل والجريمة. السجون وأمثالها لا تستطيع أن تحقق هذا الهدف (خاصة السجون الحالية التي هي أفضل من أكثر بيوت المجرمين). ولا أدل على ذلك من ارتفاع إحصائيات جرائم القتل خلال فترة قصيرة، في البلدان التي ألغت حكم الإعدام. ولوكانت أحكام السجن عرضة للتقلّص بسبب أحكام العفوكما هوسائد اليوم فإن المجرمين يعمدون إلى ارتكاب جرائمهم دون تخوّف أوتردّد.

المطلب الثالث:الرشوة

من الأوبئة الاجتماعية التي ابتلي بها الانسان منذ أقدم العصور وباء الارتشاء، وكانت هذه الظاهرة المرضيّة دوماً من موانع إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليها. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوّة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلاّ أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، ولا تتحقّق هذه الحماية في جوّ الارتشاء، لأنّ القوانين ستصبح أُلعوبةً بيد القادرين على دفع الرشوة، وسيستمر الضعفاء يعانون من الظلم والاعتداء على حقوقهم. قال النبي الكريم ﷺ: الراشي والمرتشي والرايش بينهما ملعونون[1].

عن جراح المداينى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أكل السحت الرشوة في الحكم.[2]الإمام الصادق عليه السلام يقول عنها: «وأمّا الرشا في الحكم فهوالكفر بالله العظيم»[3]

ولهذا شدّد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر، فهي تفتّت الكيان الاجتماعي، وتؤدي إلى تفشّي الظلم والفساد والتمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني، وتصادر العدالة من جميع مؤسّساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأُخرى كالهدية ونظائرها، مما يحدث اليوم في عالمنا وبلادنا الاسلامية ولكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهيّة العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس»يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة الطعم إلى بيت أمير المؤمنين علي عليه السلام أملاً في أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، ويسمّي ما قدّمه هديّة، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال: «هبَلتك الهُبول، أعَنْ دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لوأُعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصِيَ الله في نملة أسلبُها جَلبَ شعيرة ما فعلته، وأنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم

---

(١) مستدرك سفينة البحار ج٤ ص١٤٢

(٢) تفسير العياشي ج١ ص٣٢٢

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٢ باب ٥ من أبواب ما يتكسب به ح ٢

جرادة تقضمُها. ما لِعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟[1]

الإسلام أدان الرشوة بكلّ أشكالها، وفي السيرة أنّ واحداً ممّن ولاّه رسول الله ﷺ قَبِلَ رشوة قدِّمت إليه بشكل هدية، فقال له الرسول ﷺ: «كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟» قال: كانت هدية يا رسول الله. قال: «أرأيت لو قعد أحدكم في داره ولم نولّه عَمَلاً أكان الناسُ يهدونه شيئاً؟»[2]

ومن أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكلّ أشكالها الخفيّة وغير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثّر فيه بائع من الباعة فيبيعه بضاعة بثمن أقل، ويكسب على أثرها تأييد القاضي في المرافعة.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقيّ عمليّ في الحياة؟

إن مسألة الرشوة مهمّة في الإسلام إلى درجة أن الإمام الصادق عليه السلام يقول عنها: «وأمّا الرشا في الحكم فهوالكفر بالله العظيم»[3] فعلى الامة الاسلامية واجهزتها الحاكمة أن تنتبه لهذه الظاهرة ووجودها في الاجهزة الحكومية فضلا عن القضائية،كذلك القضاة عليهم أن يتفقهوفي دين الله ولاينغروبالدنيا وزبرجدها.

المبحث الثالث

العدالة الاجتماعية

واحدة من الحقوق التي اكد عليها النبي ﷺ في مرحلة تبليغ الرسالة الاسلامية هي العدالة الاجتماعية وتعتبر العدالة ضمان لحقوق الاخرين وإلغاء التمايز الطبقي الناشئ من عدم تحكيم الشريعة الاسلامية فالشريعة تسعى جاهدة الى الغاء التفاوت الفاحش بين ابناء البشر وليس معنى العدالة أن يعيش الناس بمستوى واحد في الحقوق والواجبات فتختلف الحقوق وتتفاوت الواجبات بحسب الامكانات والقدرات وهذا التفاوت الحاصل بين ابناء الجنس الواحد كان في زمن الرسول ﷺ حيث الدولة الاسلامية

---

(١) تفسير الامثل ج٣ص٨

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٢ باب ٥ من أبواب ما يتكسب به ح ٢

النموذجية بقيادة النبي الكريم ﷺ. ولذلك شرع الاسلام قوانين تلزم الانسان المسلم بان يقف مع اخيه المسلم ويساعده وينفق عليه من امواله الخاصة حتى لايكون هناك ضياع لبعض المسلمين في حضرة بعضهم.

المطلب الأول:حقوق الزوجين

لكل من الزوجين حقوق وعليه واجبات في الشريعة الاسلامية ونظمت الشريعة الاسلامية تلك الحقوق في القران الكريم وأحاديث النبي الكريم ﷺ فمنها ما جاء في القرآن الكريم الذي حث في ايات كثيرة على ضمان تلك الحقوق وأوجبها في بعض الاحيان، ومنها ما جاء على لسان النبي الاكرم ﷺ لأجل أن تتحق الغاية والهدف المنشود من هذه العلقة التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين ابناء البشر الذكر والأنثى من اجل ادامة الحياة واستمرارها وتحقيق التوازن بين الجنسين على وفق تعاليم السماء وإعطاء كل طرف حقة وسوف نبين ذلك في النقطتين التاليتين.

حق الزوج: من الحقوق التي فرضتها الشريعة الاسلامية على الانسان من اجل تنظيم العلاقة الزوجية وديمومتها هووضع نظام بين الجنسين متكامل ليحفظ الحقوق وبيان الواجبات بينهما ومن الطبيعي لولم يكن هناك نظاما محكما يحكم العلاقات بصورة واعية لما امكن أن تستمر الحياة فالا بد من نظام يضعه حكيم يضبط العلاقات وتبادل الادوار بين الجنسين من اجل أن تستقيم الحياة بصورة صحيحة ويتحقق الهدف منها، ولابد أن يبنى هذا النظام على اساس الجزاء والعقوبات والأجر والثواب لذلك قال النبي ﷺ: (من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الاجر ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه. ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية بنت مزاحم) روى الحسن بن محبوب، عن مالك بن عطية، عن محمد بن مسلم، عن الباقر عليه السلام قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيتها بشئ إلا بإذنه. ولا تصوم تطوعا إلا بإذنه. ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب. ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الارض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها. فقالت: يا رسول الله من أعظم الناس حقا على

الرجل؟ قال: والده، قالت: فمن أعظم الناس حقا على المرأة؟ قال:زوجها، وقالت: فما لي عليه من الحق مثل ما له علي؟ قال: لا، ولا من كل مائة واحدة، فقالت: والذي بعثك بالحق لا يملك رقبتي رجل أبدا. وقال النبي ﷺ: أيما امرأة آذت زوجها بلسانها لم يقبل الله منها صرفا ولا عدلا ولا حسنة من عملها حتى ترضيه وإن صامت نهارها وقامت ليلها وأعتقت الرقاب وحملت على جياد الخيل في سبيل الله، فكانت أول من يرد النار. وكذلك الرجل إذا كان لها ظالما.

وقال النبي ﷺ: (أيما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على ما لا يقدر عليه ومالا يطيق لم تقبل منها حسنة وتلقى الله وهوعليها غضبان) [1]. عن النبي ﷺ قال: حق الرجل على المرأة إنارة السراج وإصلاح الطعام وأن تستقبله عند باب بيتها فترحب به وأن تقدم إليه الطشت والمنديل وأن توضئه وأن لا تمنعه نفسها إلا من علة[2].

عن الامام الصادق عليه السلام قال: إن قوما أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله (إنا رأينا أناسا يسجد بعضهم لبعض، فقال رسول الله ﷺ: لوكنت آمر أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[3]. وقال النبي ﷺ: (لوأن امرأة وضعت إحدى ثدييها طبيخة والأخر مشوية ما أدت حق زوجها. ولوأنها عصت مع ذلك زوجها طرفة عين ألقيت في الدرك الاسفل من النار إلا أن تتوب وترجع)[4].

وقال النبي ﷺ (لا تؤدي المرأة حق الله عز وجل حتى تؤدي حق زوجها)[5].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن الله عز وجل كتب على الرجال الجهاد وعلى النساء الجهاد، فجهاد الرجل أن يبذل ماله ودمه حتى يقتل في سبيل الله. وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته) [6].

وقال عليه السلام: إن الناجي من الرجال قليل ومن النساء أقل وأقل. وفي حديث آخر قال:

---

(١) مجموعة ورام: ورام بن ابى فراس ج٢ ص٢٨٠
(٢) مكارم الخلاق ج١ ص٢١٤
(٣) المصدر السابق ج١ ص٢١٤
(٤) المصدر السابق ج١ ص٢١٤
(٥) المصدر السابق ج ١ ص٢١٤
(٦) المصدر السابق ج١ ص٢١٤

جهاد المرأة حسن التبعل[1]. وقال الصادق (عليه السلام): أيما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حق لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها[2]

عن الباقر (عليه السلام) قال جاءت امرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة فقال (لها أن تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيتها بشيء إلا بإذنه ولا تصوم تطوعا إلا بإذنه ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها)فقالت: يا رسول الله من أعظم الناس حقا على المرأة قال: (زوجها) قالت: فما لي من الحق عليه مثل ما له من الحق علي قال لا ولا من كل مائة واحدة) فقالت: والذي بعثك بالحق لا يملك رقبتي رجل أبدا وقال (عليه السلام) لوكنت آمرا أحدا يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. هنا جملة من الاحاديث تبين حقوق الزوج على الزوجة وعلى النساء الاطلاع على التشريعات التي ذكرتها الشريعة وألزمت النساء التقيد بهذه الاحكام وغلظت الشريعة العقوبات على النساء اللواتي يخالفن الاحكام الاسلامية وبالالتزام تحفظ الاسرة وتستقيم حياة المجتمع المسلم.

حق الزوجة: لا يخفى على المتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنته العظيمة تلك النقلة النوعية التي حدثت للمرأة في ظل تعاليمه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهَدْيه، حتى يمكن القول بأنه أحدث ثورة على ما كان مألوفاًتجاه المرأة في هذا العصر وما سبقه من عصور. لقد أحيا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا الكيانَ المستضعف الذي ظُلم واضطهد، وامتُهنت كرامته، وسلبت إرادته، وكبت وأقصي على مدى حقب طويلة وأزمان متباعدة، لا شيء إلا لكونه أنثى وضعيف البنية الجسدية، حتى بلغ الظلم والقسوة بأن كان أحدهم يغذوكلبه ويئد ابنته، وحمل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لواء الدفاع عن حقوق المرأة، في زمن لم يكن للمرأة فيه أدنى حق، وانطلق في حملته لتكريم المرأة من قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم) ومن قوله تعالى: (ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف)[3]

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٢١٤

(٢) مكارم الأخلاق ص٢١٥

(٣) البقرة: اية٢٢٨

أما الحقوق التي ظفرت بها المرأة في عهد النبي ﷺ فهي كثيرة، منها المساواة بين الرجل والمرأة في التكريم والتكليف والجزاء الأخروي قال تعالى: (من عمل صالحاً من ذكر أوأنثى وهومؤمن فلنُحْيينه حياة طيبةً ولنجزينَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[1]ومن ذلك حقها في التعليم، لقوله ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم»وهذا يشمل النساء لأنه ليس هناك ما يدل على اختصاص الرجال بالخطاب، فالأصل: العموم. وقد قالت النساء للنبي: « غَلَبَنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن »وهكذا النبي ﷺ تعامل هذا الكيان الضعيف الرقيق المعطاء وشجع المرأة على العمل المناسب والادراة لما تمتلك من مؤهلات وقدرات عقلية وبدنية تجعلها تشاطر الرجل شؤون الحياة ففي عصر النبي كان للمرأة دور كبير حيث اشتركت في الحروب للدفاع عن الاسلام كما لها دور كبير في عملية التبليغ ونشر الرسالة الاسلامية وبيان الاحكام الشرعية ومن هذه النسوة فاطمة بنت محمد ﷺ وأم عمارة نسيبة الانصارية وزينب بنت علي عليهما السلام وأخريات ممن لهن الدور الكبير في تاريخ الامة الاسلامية، وهنا لا بدّ لنا أن نشير إلى موقف الامام علي بن أبي طالب عليه السلام من المرأة على هذا الصعيد. فالمرأة نصف الانسان، فهل يخلوهذا النصف من العطف على نصفه الآخر؟ وهل النصف الآخر مدعوّ إلى أن يجور على مقاييس العدالة الكونية القاضية بحنان الانسان على الانسان؟

لقد أوّل الكثير بعض أقوال الامام عليّ عليه السلام في المرأة تأويلا شاؤوا به الطرافة والترفيه فوق ما شاؤوا به أن يبرزوا موقف الامام عليّ عليه السلام منها. فألحّوا على كلمات له قالها في ظروف كان أبرز ما فيها عداء امرأة معيّنة له وهولم يسيء ولم يأمر إلاّ بمعروف. وفاتهم أنّ مثل هذه الأقوال الخاضعة لظرف محدود بذاته، والرامية إلى إيضاح الأسباب في صراع بين عقليتين مختلفتين كلّ الاختلاف، إنّما قال في بعض الرجال أشدّ منها وأقسى، وهوبذلك لا يعني الرجال قاطبة وفي كلّ حالاتهم. كما أنه، حين أطلق تلك الأقوال في المرأة، لم يكن ليعني النساء قاطبة [2].

---

(١) النحل: اية٩٨

(٢) روائع نهج البلاغةج ١٠ ص٥٩

وفي حديث الكساء نقرأ إعلان كل واحد من أفراد العائلة محبته وثناءه على الفرد الآخر وإشادته بخصائصه حيث تخاطب السيدة الزهراء كلاً من ولديها بقولها: يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي. ويخاطب الحسين جده قائلاً: السلام عليك يا جداه السلام عليك يا من اختاره اللّه. ويحيي الإمام علي عليه السلام زوجته الزهراء عليها السلام بقوله: السلام عليك يا بنت رسول اللّه. فتجيبه: وعليك السلام يا أبا الحسن ويا أمير المؤمنين.. إلى كثير من العبارات الواردة في الحديث وهي تحكي محبة كل منهم للآخر وإشادته بشخصيته.

ومن حديث الكساء نستكشف قيمة اللقاءات والجلسات العائلية الودّية التي تملأ نفوس أفراد العائلة بالمحبة والحنان والاحترام، وتتيح الفرصة لهم لتبادل المشاعر والأفكار وتزيد الانشداد والتماسك العائلي وقد ورد في الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: جلوس المرء عند عياله أحب إلى اللّه تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا[1]

بينما تفتقر الكثير من العوائل في بعض مجتمعاتنا إلى أجواء العطف والحنان حيث ينشغل الرجل في عالمه الخاص وهمومه الخاصة وكذلك المرأة ويقضي الأولاد أكثر أوقاتهم أمام التلفاز والكمبيوتر أومع رفاقهم من خارج العائلة.

إن حالة الانسجام والمحبة في العائلة تنمي في نفس الإنسان الثقة والوداعة والاتزان وحسن التعامل مع الآخرين، بينما الأجواء العائلية المضطربة تنتج اهتزازاً في شخصية الإنسان، وتزرع في نفسه عقداً مختلفة. وهذه الصورة التي يقدمها حديث الكساء وما ينقله لنا التاريخ من سيرة أهل البيت عليهم السلام إنما هي تجسيد لتعاليم الإسلام وآدابه في المحيط العائلي.

فالإنسان ضمن عائلته زوجاً أوزوجة أوولداً أووالداً له وعليه حقوق وآداب متبادلة، لا ينال رضا ربه ولا تهنأ حياته العائلية إلا برعايتها والالتزام بها.

والغريب أن البعض من الناس يرى نفسه ملزماً بحقوق الآخرين من خارج عائلته، ولكنه يتساهل ويتسيّب في تعاطيه مع عائلته القريبين منه فلا يحترم حقوقهم ويجيز لنفسه الاعتداء عليها، مع أن القرآن الكريم يشدد على التزام الحدود كثيراً في تناوله للعلاقات العائلية، ويعتبرها مصداقاً لحدود اللّه تعالى التي لا يصح تجاوزها، حيث

---

(١) احاديث في الدين والثقافة ج١ ص١٠

وردت كلمة (حدود اللّه) في ثلاثة عشر مورداً في القرآن الحكيم، عشرة منها في مجال العلاقات العائلية، كما في سورة البقرة آية ٢٩٩ وآية ٢٣٠، وفي سورة النساء آية ١٣، وفي سورة المجادلة آية٤ وسورة الطلاق آية١.

ونقرأ في أحاديث رسول اللّه ﷺ الكثير من النصوص التي تؤكد على رعاية الحقوق الزوجية المتبادلة، فعنه ﷺ (من كان له امرأة تؤذيه لم يقبل اللّه صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه وان صامت الدهر.. وعلى الرجل مثل ذلك الوزر والعذاب إذا كان لها مؤذياً ظالماً)[1].

وكأن الرسول ﷺ يريد أن يقول للناس إن الصلاة والصوم هوتعامل مع الخالق ولكن اللّه سبحانه وتعالى لا يقبل هذا التعامل معه، ما لم يكن تعاملك مع المخلوقين ضمن الحدود والموازين الشرعية المقررة له وأقرب الناس إلى الزوجة زوجها وكذا العكس.

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام وهي مهمة في هذا الجانب يقول الإمام: (لا شفيع للمرأة أنجح عند ربها من رضا زوجها)[2]، ولما ماتت فاطمة عليها السلام قام عليها أمير المؤمنين عليه السلام وقال: (اللّهم إني راض عن ابنة نبيك).

ونستفيد من هذه الرواية إنه إذا كانت الزهراء عليها السلام تحتاج إلى رضى زوجها عنها وهي ابنة رسول اللّه ﷺ وسيدة نساء أهل الجنة فإن أية امرأة أخرى أحوج إلى ذلك.[3]

حقّ الزوجة فان تعلم أنّه تعالى جعلها لك سكنا وأنسا، وتعلم أنّ ذلك نعمة من اللّه تعالى عليك فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقّك عليها أوجب وأنّ لها عليك أن ترحمها لأنّها أسيرك وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها.[4]اين ابناء الاسلام عن هذه التعاليم وهذا الخلق الرفيع، لازالت المرأة في اوساطنا مضطهدة ولاتعرف حقوقها وان المشاكل التي تحدث في الأسر والتي تصل الى الانفصال في اغلب الاحيان انما هي بسبب التخلف الذي تعيشه الامة بسبب ابتعادها عن الاسلام والقرآن والسنة النبوية المطهر والانجرار خلف ثقافة الغرب التافهه.

---

(١) احاديث في الدين والثقافة ج١ ص١١

(٢) المصدر السابق ج١ ص١١

(٣) أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع.الشيخ حسن الصفار ج١ ض ١٢

(٤) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ج١٤ ص٣٤٨

المطلب الثاني: حق الأبناء

تتجلى قضية حقوق الانسان في جمع شرائح المجتمع ومن هذه الشرائح شريحة الابناء وهم الاساس في المجتمع ولهم حقوق على الاباء وعلى المجتمع بصورة عامة ومن حقوق الأبناء على آبائهم، كما في رواية عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال: تحسن اسمه، وأدبه، وضعه موضعا حسنا[1]. بل إضافة على ذلك كان أهل البيت عليهم السلام يغيرون بعض الأسماء إذ ربما تترك أثرا سلبيا على نفس المسمى. فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يغير الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان [2] (. وروي عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث إسلام سلمان وأن اسمه كان روزبه، وأن النبي صلى الله عليه وآله اشتراه من امرأة يهودية بأربعمائة نخلة - إلى أن قال عليه السلام -: قال سلمان: فأعتقني رسول الله صلى الله عليه وآله وسماني سلمان[3]. وللأبناء حقوق على الوالدين، وقد لخصها الإمام علي بن الحسين عليه السلام بالقول (وأما حق ولدك فإنك تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسئوول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الاحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه)[4]. ومن حق الأبناء على الآباء الاحسان إليهم وتعليمهم وتأديبهم، قال الرسول صلى الله عليه وآله: رحم الله عبدا أعان ولده على بره بالإحسان إليه والتألف له، وتعليمه وتأديبه. وقال صلى الله عليه وآله: رحم الله من أعان ولده على بره... يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره، ولا يرهقه ولا يخرق به. وقال النبي صلى الله عليه وآله: أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم[5]. وتترتب على الوالدين جملة من الحقوق ينبغي مراعاتها من أجل اعداد الأبناء إعدادا فكريا وعاطفيا وسلوكيا منسجما مع المنهج الإلهي في الحياة، ولا يتحقق ذلك إلا بإشباع حاجات الأبناء الأساسية، كالحاجة إلى الايمان

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٢ من أبواب أحكام الأولاد الحديث ٦

(٢) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٢ من أبواب أحكام الأولاد الحديث ٧.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة ص ١٦٥

(٤) بحار الأنوار ٧٤: ٦. ١

(٥) مستدرك الوسائل ٢: ٦٢٦. ٢) الكافي ٦: ٥٠. ٣) مستدرك الوسائل ٢: ٦٢٥. ١) كنز العمال ١٦: ٤٥٦ / ٤٥٤٠٩.

بالغيب، والحاجة إلى الأمان وتوكيد الذات والمكانة بالمحبة والتقدير، والحاجة إلى التربية الصالحة.

ويمكن تحديد أهم حقوق الأبناء بما يلي:

١ - ينبغي على كل من الوالدين اختيار شريك الحياة على أساس الايمان والتدين والصلاح والسلامة من العيوب العقلية كالجنون والحمق، لأن ذلك يؤثر على تنشئة الجيل وسلامته. وينبغي الاهتمام بالصحة الجسدية والنفسية للأم أثناء الحمل، لكي يخرج الأبناء إلى الدنيا وهم يتمتعون بالصحة الجسدية والنفسية لانعكاسها عليهم أثناء الحمل.

٢ - يستحب تسمية الأبناء بأحسن الأسماء، ورعاية الأم رعاية صالحة، وتوفير حاجاتها اللازمة للتفرغ إلى رعاية الأبناء في مهدهم، ويجب على الوالد اشباع حاجات الوليد من الرضاعة، وذلك بالاعتماد على حليب الأم أواختيار المرضعة الصالحة، وإشباع حاجاته المادية والمعنوية في فترة الحضانة.

٣ - يجب على الوالدين تعليم الطفل معرفة الله تعالى، وتعميق الايمان في قلبه وجوارحه، وتعليمه سائر أصول الدين ليترعرع على الايمان بالله وبرسوله وبالأئمة عليهم السلام وفي يوم القيامة، ليكون الايمان عونا له في تهذيب نفسه في الحاضر والمستقبل.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن. ويجب تربية الأطفال على طاعة الوالدين(١).

٤ - ويجب الاحسان إلى الأبناء في هذه المرحلة وتكريمهم من أجل تعميق أواصر الحب بينهم وبين الوالدين، وذلك ضروري في كمالهم اللغوي والعقلي والعاطفي والاجتماعي، فالطفل يقلد من يحبه، ويتقبل التعليمات والنصائح والأوامر ممن يحبه. والمنهج الإسلامي في التعامل مع الأبناء يؤكد على التوازن بين اللين والشدة في التربية، ويؤكد على العدالة بين الأطفال في الحب والتقدير وفي العطاء وإشباع الحاجات لكي يترعرعوا متحابين متآزرين لا عداء بينهم ولا شحناء ولا تقاطع ولا تدابر. ويجب على الوالدين وقاية الأبناء من الانحراف الجنسي والانحراف السلوكي، وتنمية عواطفهم تجاه الأعمال الصالحة، وتوجيهها توجيها سليما يقوم على أساس المنهج الاسلامي

---

(١) أمان الأمة من الإختلاف ج١ ص١٤١

في التربية والسلوك. ويجب الاهتمام بالطفل اليتيم ورعايته رعاية حسنة لكي يكون رجلا صالحا في المستقبل.ومن الامور التي تأثر تأثيرا سلبيا على نشأة الطفل الخلافات الزوجية، الخلافات بين الزوجين تخلق في الأسرة أجواء متوترة ومتشنجة تهدد استقرارها وتماسكها، وقد تؤدي إلى انفصام العلاقة الزوجية وتهديم أركان الأسرة، وهي عامل قلق لجميع أفراد الأسرة بما فيهم والأطفال ولها تأثيراتها السلبية على المجتمع أيضا، لأن الخلافات الدائمة تزرع القلق في النفوس، والاضطراب في التفكير والسلوك، فتكثر التعقيدات والاضطرابات النفسية في أوساط المنحدرين من أسر مفككة بسبب كثرة الخلافات والتشنجات، فتنعدم فيهم الثقة بالنفس وبالمجتمع، لذا حث الاسلام على إنهاء الخلافات الزوجية وإعادة التماسك الأسري، قال تعالى: (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أوإعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير...)[1]ولا تنحصر مسؤولية الزوجين تجاه بعضهما البعض فقط بل أنها تشمل دائرة أوسع من ذلك بكثير. ذلك أنهما مسؤولان عن أبنائهما، فالطفولة لها حق كبير، وتربيتهما تربية صالحة هي مسؤولية كبرى تقع على عاتق الوالدين. الأطفال بحاجة إلى محيط أسري هادئ يشعرهم بالطمأنينة والأمن، أما النزاع والاختلافات فهي بمثابة عاصفة عاتية تدمر مشاعر الطفل وتقذف في قلبه الخوف والقلق. وإذا كانت هناك هموم تعكر صفوالحياة فينبغي على الوالدين معالجتها بعيدا عن الأطفال، فالابتسامة والحنان والمحبة والرعاية هي حق الطفولة، وهي من واجبات الوالدين. الحياة الأسرية تقوم على الأخلاق الرفيعة والصفات الإنسانية السامية. إنها تتناقض مع الأنا والأنانية ولا تنسجم مع النرجسية. وإذا تذكرنا أن لدينا حقوقا فيجب أن لا نتناسى حقوق الآخرين، فإذا كان لنا حق في الحياة الأسرية الهادئة، فإن لأزواجنا نفس هذا الحق المفترض.

المطلب الثالث:حق الوالدين

يتكون المجتمع من عدة شرائح مثل الابن والأب والأخ والأخت والأم والزوجة وجميع هذه الشرائح لها حقوق وعليها واجبات ومن بين تلك الشرائح الوالدين حيث

---

(١) النساء: ٤ / ١٩

يقول الله تبارك وتعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً)[1]

وفي الآية التالية ذكر الأم على حده بعد أن اوصى الولد بوالديه معاً وهي قوله تعالى:

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن)[2]

ويتجلى مدى اهتمام الإسلام بالمرأة الأم من الرواية المشهورة عن النبي ﷺ وحاصلها أن رجلاً جاء الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أبر؟، قال ﷺ (أمك) قال ثم من، قال: (أمك) قال: ثم

من؟ قال: (أمك) قال ثم من؟ قال ﷺ: (أباك).

ومن مجموع ما تقدم ظهر لنا مدى اهتمام الاسلام بالمرأة بنتاً وزوجة وأماً ومدى اهتمامه بشأن الوالدين وخصوصاً الأم.

ومن اجل إقامة بناء الاسرة على اساس وطيد من المحبة والاحترام المتبادل جعل لكل فرد منها حقاً على الآخر حيث جعل للوالدين حقاً على الاولاد كما جعل للأولاد حقا على الوالدين وجعل للزوجة حقوقا على الزوج وجعل له حقوقا عليها وأوجب على كل فرد أن يؤدي ما عليه من الحق للآخر لان ذلك يقوي العلاقة ويعمق المودة وينشر الحب والحنان والبر والإحسان في اجواء الاسرة ويجعل منها وحدة متماسكة متضامنة كالجسم الواحد بحيث إذا اشتكى منه عضوتداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى كما ذكر النبي ﷺ في مقام تشبيه المؤمنين المتعاطفين المتضامنين بالجسد الواحد ومن المعلوم أن وحدة الاسرة وتضامنها يساهم مساهمة فعالة في وحدة الاسرة الكبيرة المجتمع لأنه مؤلف من مجموعة الاسر الصغيرة ومن هنا يكون تابعاً لها ومتأثراً بها قوة وضعفا وحدة وتفرقا وكما جعل الاسلام حقوقا وواجبات بين افراد الاسرة من اجل تقويتها وإيصالها الى خيرها وسعادتها في دنياها وآخرتها كذلك جعل حقوقا لأفراد الاسرة الكبيرة المجتمع وطلب من كل واحد منهم أن يؤدي ما عليه من الحق نحوالآخرين.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤

المبحث الرابع

حقوق الانسان في الامور العامة

هناك حقوق كثير في المجتمع الانساني كما انها متبادلة فيما بين الافراد وأقرتها الشريعة من اجل تماسك المجتمع وفق رؤية اسلامية الهية. فجعلت الشريعة الاسلامية لكل فرد حقوق معلومة تجاه الاخر والالتزام بتأديتها يجعل المجتمع متماسك غير متقاطع ومتخالف، وتحصل الغاية العظمى من خلق هذا المجتمع. قال رسول الله ﷺ للمسلم على اخيه ثلاثون حقا لابراءة له منها إلا بالأداء اوالعفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر إنعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليه (ولا يعاد)، وينصره ظالما ومظلوما، فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوما فيعينه على اخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه، ثم قال رسول الله ﷺ: إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئا فيطالبه به يوم القيامة فيقضى له وعليه.

وعن عبد الله بن جعفر في (قرب الإسناد) عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن آبائه ﵈ إن رسول الله ﷺ أمرهم بسبع ونهاهم عن سبع: أمرهم بعيادة المرضى، وإتباع الجنائز، وإبرار القسم، وتسميت العاطس، ونصرة المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي... الحديث.[1]

هذه جملة من الحقوق التي قررها نبينا نبي الرحمة محمد ﷺ ويجعلها دستورا للتعامل والتعايش بين المؤمنين ﵈ كما انه اوضح أن من لم يلتزم بهذه الحقوق يحاسب يوم القيامة، واليوم نرى أن المسلمين لم يلتزموا بهذه الحقوق ولم يعطوها اهتماما بل يعملوا على عكسها كأنهم لم يقرأوا سيرة الرسول ﷺ وتعاليمه التي بينها لهم.

---

(١) وسائل الشيعة ج١٢ ص ٢٥٣

المطلب الاول:الوفاء بالعهد

واحد من الحقوق التي اكدتها الشريعة هوالوفاء بالعهد ويعد شرفٌ يحمله المسلم على عاتقه وهوقيمة إنسانية وأخلاقية عظمى، بها تُدعم الثقة بين الأفراد، وتؤكد أواصر التعاون في المجتمع، وهوأصل الصدق وعنوان الاستقامة، الوفاء بالعهد خصلة من خصال الأوفياء الصالحين، ومنقبة من مناقب الدعاة المخلصين، وهوأدب رباني حميد، وخلق نبوي كريم، وسلوك إسلامي نبيل، والوفاء بالعهد من شعب الإيمان وخصاله الحميدة، ومن أهم واجبات الدين وخصال المتقين وخلال الراغبين في فضل رب العالمين، فمن أبرم عقداً وجب أن يحترمه، ومن أعطى عهداً وجب أن يلتزمه، لأنه أساس كرامة الإنسان في دنياه، وسعادته في أخراه والعهد تارة يكون بين الانسان وربه وأخرى يكون بين الانسان ومجتمعه ومرة يكون بين مجموعتين من الناس. ومن الطبيعي في كل الاحوال هوالالتزام واحد ولكن بحسب مايقرره العقل أن الانسان اذا اعطى عهدا لجماعة فيكون هنا العهد أكد لأنه التزم بمفرده مع مجموعة من الناس فهذه المجموعة تطالبه بالوفاء وخصوصا اذا كانت المجموعة شعب كامل فيقف هذا الانسان الذي قطع على نفسه العهد امام الملايين وهذا صعب جدا ونشاهد الكثير ممن اعتلوا منصة الحكم وقطعوا العهود والمواثيق ثم لم يلتزموا حتى ببعضها، والشريعة الاسلامية تؤكد ذلك في مواطن كثيرة قال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف إذا وعد. قال الله تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا[1] »قال الزجاج: كل ما أمر الله به أونهى عنه فهومن العهد وقال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود[2]قال الواحدي قال ابن عباس في رواية الوالبي (العهود) (يعني ما أحل وما حرم وما فرض وما حد في القرآن) وقال الضحاك بالعهود التي أخذ الله على هذه الأمة أن يوفوا بها مما أحل وحرم وما فرض من الصلاة وسائر الفرائض والعهود،والعهود جمع عهد: والعقد بمعنى المعقود وهوالذي أحكم ما فرض الله علينا فقد أحكم ذلك ولا سبيل إلى نقضه بحال. وقال مقاتل بن حبان: (أوفوا بالعقود) التي عهد الله إليكم بالقرآن مما أمركم به من طاعته أن تعلموا بها ونهيه الذي نهاكم

(١) الاسراء اية ٣٤

(٢) المائدة:اية ١

عنه وبالعهود الذي بينكم وبين المشركين وفيما يكون من العهد بين الناس والله أعلم وقال النبي ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر[1]مخرج في الصحيحين وقال ﷺ: (لكل غادر لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان ابن فلان[2]وقال رسول الله ﷺ: (يقول الله عز وجل ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره[3]أخرجه البخاري وقال رسول الله ﷺ (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[4]أخرجه مسلم وقال رسول الله ﷺ (من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهويؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء أحد ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[5]وعن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدا، ولمقته تعرض وذلك قوله: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)[6]عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا دين لمن لا عهد له»[7]والتأكيدات الشديدة هذه كلها تدل على أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق في الالتزام به بين إِنسان وإِنسان آخر سواء كان مسلماً أوغير مسلم وهوكما يصطلح عليه يعتبر من حقوق الإِنسان بصورة عامّة، وليس فقط من حقوق أنصار الدين الواحد.

وفي حديث عن الإِمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ثلاث لم يجعل الله عزَّ وجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبر الوالدين

---

(١) ميزان الحكمة ج١٠ ص٤٤٨

(٢) عوالي الالي ج١ ص٥٣

(٣) ميزان الحكمة ج١ ص٢٠

(٤) ميزان الحكمة ج١ ص٢٠

(٥) المجازات النبوية ص١٥٧

(٦) الصف اية ٣

(٧) والبحار الجزء السادس عشر، ص ١٤٤.

برين كانا أوفاجرين»[1]

نقل عن الإمام علي (عليه السلام) بأن العهد حتى لوكان بالإشارة يجب الوفاء به، وذلك في قوله: «إذا أومأ أحد من المسلمين أوأشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهوفي أمان)[2]

المطلب الثاني:حق المواطنة

المواطنة هي حق لكل انسان بغض النظر عن الانتماء اوالعرق اوالجنس اواللون وقد اقره العقل والشرع فالمنطق العقلي اقر للإنسان ذلك الحق حيث من غير المقول أن يعيش انسان دون وطن واستقرار، وهناك قواعد شرعية اعطت الحق بامتلاك الارض والعيش بسلام وآمان ويؤيد ذلك نصوص كثيرة وردت من الشريعة المقدسة، ولكن الظالمين لم يروق لهم ذلك، بل جعلوا البشر يتصارعون على الظلم والإقصاء والحرمان ونرى اليوم هناك مئات آلاف من البشر مهجرين مغربين عن اوطانهم وعندما يعلم الظالمون بضعف منطقهم وعقيدتهم وقدرتهم على الرد، يتركون الاستدلال والحجة العقلية والشرعية، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أن الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسلهم: (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا)[3]وكأن هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما في الأرض ملكهم، حتى أنهم لم يمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون (أرضنا). وفي الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وكل مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة في الواقع ليس لهم أي حق فيها. وقد يتوهم البعض أن جملة لتعودن في ملتنا إشارة إلى أن الأنبياء السابقين كانوا من أنصار عبادة الأصنام، مع أن الحقيقة ليست كذلك، لأنهم - وبصرف النظر عن كونهم معصومين حتى قبل نبوتهم - فعقلهم ودرايتهم كان أكبر من أن يفعلوا هذا العمل غير الحكيم، فيسجدوا أمام الأحجار والأخشاب. ويمكن أن يكون هذا التعبير بسبب أن الأنبياء قبل بعثهم لم

---

(١) البحار، الجزء السادس عشر، ص ١٤٤.

(٢) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٣) ابراهيم:ايه ١٣

يؤمروا بالتبليغ، فسكوتهم أوجد هذا الوهم بأنهم من المشركين [1].

وأما في الاسلام كان الحاخام كعب بن الأشرف رئيس يهود بني النضير عدوا لدودا للنبي ﷺ وقد تحمل النبي ﷺ والمسلمون أذاه، لأنه دخل في عهد المواطنة الذي عقده النبي ﷺ عند قدومه إلى المدينة بين أهل المدينة واليهود. ولم يكتف كعب باتصالاته المستمرة مع أبي سفيان، فكان يهجوالنبي ﷺ بالشعر! بل خطط لقتله ﷺ فدعاه إلى بيته فأخبر الله نبيه ﷺ بذلك وأنجاه ثم أمعن كعب في عدائه فذهب في وفد من أربعين راكبا أوأكثر من حاخامات اليهود ورؤسائهم إلى مكة، ونزلوا في بيت صديقهم أبي سفيان، وتحالفوا معه ومع رؤساء قريش على قتال النبي ﷺ في حملة الأحزاب وبذلك نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ وأعلنوا عليه الحرب فبادر بعد هزيمة الأحزاب إلى تأديبهم ومحاصرة حصونهم فخافوا وطلبوا تجديد عهد المواطنة فجدده لهم [2]فكان هذا نبل الاسلام ونبيه العظيم وهذا الشعور الداخلي بالمسؤولية إذا لاحظنا الانسانية في اي فترة من تاريخها نجد انها تتبع نظاما معينا في حياتها، وطريقة محددة في توزيع الحقوق والواجبات بين الناس، وإنها بقدر ما يتوفر لديها من ضمانات لالتزام الافراد بهذا النظام وتطبيقه تكون أقرب إلى الاستقرار، وتحقيق الأهداف العامة المتوخاة من ذلك النظام. وهذه حقيقة تصدق على المستقبل والماضي على السواء، لأنها من الحقائق الثابتة في المسيرة الحضارية للإنسان على مداها الطويل.

والضمانات منها ما هوموضوعي، كالعقوبات التي تضعها الجماعة تأديبا للفرد الذي يتجاوز حدوده، ومنها ما هوذاتي، وهوالشعور الداخلي للإنسان بالمسؤولية تجاه التزاماته الاجتماعية، وما تفرضه الجماعة عليه من واجبات، وتحدد له من حقوق.

وعلى الرغم من أن الضمانات الموضوعية لها دور كبير في السيطرة على سلوك الافراد وضبطه، فإنها لا تكفي في أحايين كثيرة بمفردها، ما لم يكن إلى جانبها ضمان ذاتي ينبثق عن الشعور الداخلي للإنسان بالمسؤولية، لان الرقابة الموضوعية للفرد مهما كانت دقيقة وشاملة لا يمكن عادة أن تضمن الإحاطة بكل شيء واستيعاب كل واقعة.

والشعور الداخلي بالمسؤولية يحتاج لكي يكون واقعا عمليا حيا في حياة الانسان إلى

---

(١) تفسير الامثل ج٧ ص٤٨١

(٢) جواهر التاريخ ج٢ ص١٨٨

ايمانه برقابة لا يعزب عن علمها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، والى مران عملي ينمومن خلاله هذا الشعور ويترسخ بموجبه الاحساس بتلك الرقابة الشاملة. والرقابة التي لا يعزب عن علمها مثقال ذرة تتواجد في حياة الانسان نتيجة لارتباطه بالمطلق الحق العليم القدير الذي أحاط علمه بكل شيء، فان هذا الارتباط بنفسه يوفر للإنسان هذه الرقابة، ويهيئ بذلك امكانية نشوء الشعور الداخلي بالمسؤولية. والمران العملي الذي ينمومن خلاله هذا الشعور الداخلي بالمسؤولية يتحقق عن طريق الممارسات العبادية، لان العبادة واجب غيبي، ونقصد بكونها واجبا غيبيا أن ضبطها بالمراقبة من خارج امر مستحيل، فلا يمكن أن تنجح أي اجراءات خارجية لغرض الاتيان بها، لأنها متقومة بالقصد النفسي والربط الروحي للعمل بالله، وهذا امر لا يدخل في حساب الرقابة الموضوعية من خارج، ولا يمكن لأي اجراء قانوني أن يكفل تحقيقه. وإنما الرقابة الوحيدة الممكنة في هذا المجال هي الرقابة الناتجة عن الارتباط بالمطلق بالغيب، الذي لا يعزب عن علمه شيء. والضمان الوحيد الممكن على هذا الصعيد هوالشعور الداخلي بالمسؤولية. وهذا يعني أن الانسان الذي يمارس العبادة يباشر واجبا يختلف عن اي واجب أومشروع اجتماعي آخر، فحين يقترض ويوفي الدين، أوحين يعقد صفقة وينفذ شروطها، وحين يستعير مالا من غيره ثم يعيده إليه يباشر بذلك واجبا يدخل في نطاق الرقابة الاجتماعية رصده، وبهذا قد يدخل بشكل آخر التحسب لرد الفعل الاجتماعي على التخلف عن أدائه في اتخاذ الانسان قرارا بالقيام به. وأما الواجب العبادي - الغيبي - الذي لا يعلم مدى مدلوله النفسي إلا الله سبحانه وتعالى فهونتيجة للشعور الداخلي بالمسؤولية، ومن خلال الممارسات العبادية ينموهذا الشعور الداخل ويعتاد الانسان على التصرف بموجبه. وبهذا الشعور يوجد المواطن الصالح، إذ لا يكفي في المواطنة الصالحة أن لا يتخلف الانسان عن أداء حقوق الآخرين المشروعة خوفا من رد الفعل الاجتماعي على هذا التخلف، وإنما تتحقق المواطنة الصالحة بان لا يتخلف الانسان عن ذلك بدافع من الشعور الداخلي بالمسؤولية، وذلك لان الخوف من رد الفعل الاجتماعي على التخلف لوكان وحده هوالأساس لالتزامات المواطنة الصالحة في المجتمع الصالح لأمكن التهرب من تلك الواجبات في حالات كثيرة، حينما يكون بإمكان الفرد أن يخفى تخلفه، أويفسره

تفسيرا كاذبا، أويحمي نفسه من رد الفعل الاجتماعي بشكل وآخر، فلا يوجد في هذه الحالات ضمان سوى الشعور الداخلي بالمسؤولية. [1]وأما ما ذهب له فلاسفة اليونان استباح اليونانيون لأنفسهم أن يتلصصوا في البحار فيخطفوا من يصادفهم ممن يكونون على الشواطئ والسواحل، فيصبح هؤلاء المخطوفون أرقاء مستعبدين للجنس اليوناني. ويرى أفلاطون في الجمهورية الفاضلة حرمان العبيد حق المواطنة، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم. ويوافقه تلميذه أرسطوعلى ذلك فهويجعل كلمة (المواطن) مرادفة لكلمة (حر) ويرى أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة الضرورية للأسرة والقيام على خدمتها، ذلك لأن (المواطن) حبته الطبيعة ذكاء وشجاعة، فبنى لنفسه مدينة وتفرغ لسياستها وخصص حياته لخدمتها في السلم والحرب، فلا يتسع وقته للعناية بشؤون معاشه، وتأبى عليه كرامته أن يتنزل للأعمال اليدوية يزاولها فيشوه يديه وخلقته، ويظهر وضيعا، فكان لا بد له أن يجد من يتكفل بذلك دونه، وقد أوجدت الطبيعة شعوبا قليلة الذكاء أقوياء البنية، فقدمت له منها آلات للحياة، هي آلات حية، وأولئك هم العبيد[2]كذلك فإن بعض أولياء الخلفاء الأول، وأولياء بني أمية وفروا لعلماء الكتابة والتدوين كمية خاصة من الأحاديث التي تبرر تجاهل الخلفاء لمكانة آل محمد وأهل بيته وتجاهل منزلتهم عند الله ورسوله ﷺ، وتبرر الظلم الذي لحق بهم، والإذلال الذي أصابهم، فوضعوا أحاديث تهز مكانة أهل بيت النبوة، وتبرر الإجراءات التي اتخذها بعض الخلفاء بحقهم جورا وظلما، وتصور أهل بيت النبوة بصورة الطامعين بملك قريش، ومن ينازعون الأمر أهله، وتعطيهم ومن والاهم درجة المواطنة من الدرجة الثانية، وتهبط بمستواهم إلى مستوى الأشخاص العاديين، وتجردهم من امتيازاتهم، فتظهرهم بمظهر أفراد من قبيلة قريش، ولا صلة خاصة لهم برسول الله ﷺ، وتظهرهم بمظهر الصحابة العاديين، وتأخذ منهم أدوار البطولة التي مارسوها بالفعل، وتعطى هذه الأدوار لأشخاص مغمورين بينهم وبين البطولة دنيا وفي أحسن الظروف والأحوال تساوي بينهم وبين أعداء الله السابقين، أصحاب التاريخ الأسود، فعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، وجعفر وعقيل هم في أحسن

(١) الفتاوى الواضحة. ص٥٩٦

(٢) مقارنة الاديان.الاسلام-الدكتور احمد شلبي ص٢٣٠

الأحوال صحابة كأبي سفيان ويزيد ومعاوية وابن أبي سرح، وهند صحابية تماما كفاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين! والأنكى من ذلك أنهم قد جعلوا أبا طالب عم النبي ﷺ كافرا وليس مسلما، [1]

المطلب الثالث: حق التعلم

ومن حقوق الانسان التي اكدت عليها الشريعة هو حق التعلم وإبداء الرأي، فمن حق كل فرد أن يأخذ من التعليم ما ينير عقله، ويرقي وجوده، ويرفع من مستواه. ومن حق الانسان كذلك، أن يبين رأيه ويدلي بحجته ويجهر بالحق ويصدع به. والإسلام يمنع من مصادرة الرأي ومحاربة الفكر الحر، إلا إذا كان ذلك ضارا بالمجتمع. ولقد كان الرسول ﷺ يبايع أصحابه على أن يجهروا بالحق، وإن كان مرا، وعلى أن لا يخافوا في الله لومة لائم، ويخبر الرسول ﷺ أن: (الساكت عن الحق شيطان أخرس). وفي ذلك يقول القرآن الكريم: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون - إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم[2]. الاسلام يعامل الناس على حد سواء في الحقوق والواجبات ولكن للأسف يحدث تفاوتا طبقيا بسبب عوامل عديدة منها السلطة والثراء فيوجد تمايز في الحقوق ومنها اختصاص التعليم بالطبقة الممتازة. إن أطفال الأثرياء وأولي النعمة والجاه يعلمون، فابن الحاكم له عناية خاصة في التعليم وكذلك ابن الغني فقط هم الذين كان لهم الحق في أن يتعلموا، أما الطبقات الوسطى وسائر الناس فقد كانوا ممنوعين عن ذلك وقد اعترف بهذا النقص في الحضارة الفارسية القديمة [3]. ومما يؤكد حق التعلم والتعليم في الإسلام ما فعله النبي ﷺ بأسرى بدر، إذ جعل فدية الأسير تعليم عشرة من أبناء المسلمين. وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى حق التعلم والتعليم في معرض تفسيره لقوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم...[4]فقال عليه السلام:

---

(١)اين سنة الرسول وماذا فعلوا بها:احمد حسين يعقوب ص٣٧٨

(٢) سورة البقرة: الأيتان: ١٥٩، ١٦٠.

(٣) بالفارسية: تاريخ اجتماعي إيران: ٦١٨

(٤) آل عمران ٣: ١٨٧

(ما أخذ الله ميثاقا من أهل الجهل بطلب تبيان العلم، حتى أخذ ميثاقا من أهل العلم بيان العلم للجهال) [1]وقال الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد: (إن العالم الكاتم علمه يبعث أنتن أهل القيامة ريحا، تلعنه كل دابة حتى دواب الأرض الصغار)[2]. مما تقدم يمكن القول أن الأئمة عليهم السلام يرفضون مبدئيا احتكار العلم، ويؤكدون ضرورة بذله لطالبيه. أما في وقتنا الحاضر فتقوم دول ومؤسسات تدعي التحضر باحتكار العلم وحجبه عن الآخرين أوالمتاجرة ببيعه بأغلى الأثمان أواستخدامه كسلاح سياسي لتحقيق مآرب خاصة. والحال أن العلم هبة إلهية ونعمة شرف الله تعالى بها الإنسان على باقي المخلوقات، وقد أوجب الله تعالى على العلم زكاة، وزكاته نشره.

المطلب الرابع:حرية الاعتقاد.

لقد جاءت الشرائع السماوية تبين الاعتقادات الصحيحة للانسان فكان آخر تشريع من السماء ما جاء به آخر الانبياء وأكرمهم على اللّه سبحانه وتعالى التشريع الاسلامي، فكان ولا بد أن يكون نظاما يكفل للإنسان جميع نواحي حياته ويفي بجميع ما يحتاج إليه ويضمن له كرامته وحريته ويرشده إلى اسباب الحياة الهنيئة الوادعة.

ان الاسلام يأمر بالعلم الذي يصقل العقول ويحررها من الاهواء والأوهام ويطهرها من الخرافات ويأمر بالعدل والإحسان والإخاء والمحبة ويرفض التفاضل بغير العمل الصالح وخدمة الانسانية وينهى عن الدس والكذب والظلم وكل ما يدنس الحياة ويعيقها عن التقدم، ويحارب الاستغلال والجشع والوثنية التي لا تؤمن إلاّ بالمادة إلى كثير من مبادئه التي تجاري الحياة وتسير معها جنبا إلى جنب نعم أن الاسلام بمبادئه العادلة التي توفر للإنسان العزة والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة يتنافى مع تلك الالوان البراقة المغرية التي طغت على الاخلاق والقيم الروحية وجرفت الكثير من فتياننا وفتياتنا إلى التغني بتلك المدنية المزيفة ونبذ تلك المبادئ الانسانية العادلة، والمعتقدات الحقة المنجية من الضلالة والانحراف، والنظم الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تسهم في بعث العالم ونهضته ووحدته، انها ليست من صنع الانسان الذي

---

(١) بحار الأنوار ٢: ٢٣

(٢) بحار الأنوار ٢: ٧٢

يخطىء ويصيب ويندفع مع أهوائه ونزعاته مهما حاول أن يتحرر من الناحية العاطفية التي تسيطر على الانسان في كثير من حالاته، وإنما هي من صنع خالق الانسان. لذلك كانت من أفضل ما أنتجته العقول والمواهب ومن اغرزها مادة وأقواها فكرة وأوسعها خيالا انها مبادئ انسانية عالمية ترتكز على أساس العقيدة بالله سبحانه بشتى الاساليب والبراهين التي لا تدع مجالا في نفس الباحث إذا كان مجردا لطلب الحق. أن الاسلام كغيره من الشرائع السماوية يحرص على محاربة الالحاد والوثنية، ويعطي المئات من الادلة والبراهين التي تسد على الملحدين والجاحدين طرق الضلال والتشكيك، ويقيم العشرات من البراهين التي لا تقبل الجدل، على أن الانسان مدين في كل نواحيه لقوة تسير هذا الكون تمده بالقوة والتفكير وينتج ويكافح ويجاهد ويسرت له كل ما يمكن أن تصل إليه أفكاره وينتجه عقله، فهي السبب في كل شيء وإليها تنتهي جميع الأسباب وهي الطاقة الخيرة التي أمدت المخلوقات بما فيها من طاقات وإمكانيات على اكتشاف الحقائق وأسرار الطبيعة، وكلما تقدم الفكر واتسع العلم وأدرك الانسان جهله وعجزه عن الاحاطة بنظام هذا الكون وأحس أنه لا يزال في بداية الطريق وسيبقي في البداية لأنه كلما تقدم واتسعت آفاقه يلمس أن ما وصل إليه لا يعد شيئا بالنسبة لما بقي، وفى مجال الفكر والعقيدة، فان المشرع الاسلامى يلزم البشرية كافه بفتح كل الابواب امام الانسان لاختيار ما يراه صالحا لدنياه ودينه، ويعد الاكراه وحجب الدعاة الى الاسلام عدوانا على حرية العقيدة بوصفه حقا من حقوق الانسان. وقد قال الله تعالى: (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا)[1]. ومن هذه الحرية الفكرية التي اعطاها الاسلام وقائده الرسول الكريم ﷺ هذه التجربة الاسلامية في الحكم وهي التجربة الاولى للحكم الشيعى تجربه الأدارسه دلت على ما يمكن أن يعطيه هذا الحكم فقد كان عهد الأدارسه عهد نشر الإسلام وإقامة العمران وبث العلم والإيمان كما كان كذلك عهد العلويين فى بلاد الديلم. ولم يأت القرن الرابع الهجرى حتى كان جل العالم الاسلامى محكوما من قبل الشيعه (فالفاطميون، والبويهيون، والحمدانيون) كانوا هم سادة معظم الاقطار الاسلاميه فماذا حدث خلال هذا الحكم الشيعى العريض؟حدث أن القرن الرابع الهجرى اعتبر عصر النهضة الفكرية الإسلامية

---

(١) فصلت:ايه ٣

واعتبرت حضارته الحضارة الاسلامية الجديرة بالعناية والدرس.ولم يكن ذلك إلا لان الحكم الشيعى كان يتميز بظاهرتين فذتين هما:

١ - اطلاق الحريات العامه للمواطنين.

٢ - تبنى الدوله للحركات العلميه والفكرية والفنية والأدبية.

ففى ظلال الحكم الشيعى عرفت الشعوب حرية العقيدة عندما نزل ابوعبد اللّه الشيعى ارض المغرب وسيطر عليها باسم الفاطميين، اراد اخوه ابوالعباس أن ينفى عن القيروان

من يخالف مذهبه، فقال له ابوعبد اللّه: (ان دولتنا دوله حجة وبيان، وليست دوله قهر، واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم). ولما امتدت هذه الدوله واصلة الى مصر وأنشأت الجامع الازهر مقرا لدعوتها، دعت المذاهب الاسلامية كلها الى أن تتولى تدريس مبادئها فى الجامع الازهر. فكان للمالكية خمس عشرة حلقة،وللشافعية مثلها ولأصحاب ابى حنيفة ثلاث حلقات.ثم اصبحت القاهرة ملجأ للعلماء والمفكرين يفرون اليها من الاضطهاد والفقر.هذا القاضى ابوالفضل محمد بن احمد بن عيسى البغدادى، امام الشافعيه يفد الى مصر الفاطميه فيملى من مذهبه فيها ما شاء أن يملى، ويظل كذلك حتى يموت سنه ٤٤١هـ وأبوالفتح سلطان بن ابراهيم الفلسطينى (٥١٨ هـ) يفد كذلك بين العلماء الوافدين.وابوالحجاج يوسف الميورقى (٥٢٣ هـ). ومجلى بن جيع المخزومى (٥٥٠ هـ). والقاضى ابوالحسن الموصلى الخلعى (٤٤٨ هـ).

وعبد اللّه بن رفاعة السعدى (٥٦١ هـ). والقاضى القضاعى. هؤلاء الخمسة ممن وفد الى مصر وولى القضاء للفاطميين بالرغم من انهم كانوا شافعيى المذهب.ولقد حرصنا على أن نختار واحدا من كل فتره لنبين أن الامر قد استمر ولم ينقطع، ولواردنا أن ندلى بعشرات الشواهد لكانت الاسماء تحت ايدينا.وعدا عن هؤلاء الشوافع، فمن فقهاء المالكيه لجا الى مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمان المعروف بابى بكر النعال، الذى كانت اليه امامه المالكيه واليه كانت الرحله بمصر،وكانت حلقته فى الازهر الفاطمى تدور على سبعه عشر عمود لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه. وهناك قصة الفقيه المالكى عبد الوهاب بن علي، الذى وصفه الخطيب فى تاريخ بغداد بأنه لم ير فى المالكيه افقه منه.هذا العالم تضيق به دنيا الاسلام فيكاد يموت من الجوع

فى بغداد ويتطلع الى البلد الذى يحفظ عليه رمقه ويقيه بؤس[1]

فإن حرية الاعتقاد (أي عدم إكراه أهل الأديان الأخرى على قبول الإسلام) تنحصر في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا تشمل عبدة الأوثان، لأن الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا دينا كي تلحظ بعين الاحترام، بل هي تخلف وخرافة وانحراف وجهل، ولابد من استئصال جذورها بأي ثمن كان وكيف ما كان. وهذه الشدة والقوة والصرامة لا تعني سد الطريق - طريق الرجوع نحوالتوبة - بوجههم، بل لهم أن يتوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإن الآية عقبت بالقول: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)[2]. وفي هذه الحال، أي عند رجوعهم نحوالإسلام، لن يكون هناك فرق بينهم وبين سائر المسلمين، وسيكونون سواء وإياهم في الحقوق والأحكام. فإن الله غفور رحيم. يتوب على عباده المنيبين إليه. [3]

الاسلام لا يمنع من حرية الاعتقاد في الاديان السماوية بل يترك الحرية للإنسان في الاختيار ويدعوا الاخرين الى الاسلام بالطريقة الهادئة والمرنة وعرض تعاليمه بشكل علمي ودقيق على الاخرين فمن يريد أن ينتمي للإسلام فالإسلام يقبله ويكرمه ويعطيه حقوقه على اكمل وجه ويكون دمه وماله وعرضه حرام، وكذلك الديانات الاخرى يحترمها وضمن حدود وقيود مشروعة بحيث اذا عاش اليهودي في الوسط الاسلامي عليه احترام تعاليم الاسلام وعدم المساس بالإسلام فيتمتع بحقوق المواطنة، اما ما نراه اليوم من افكار تكفيرية من بعض مدعي الاسلام للمسلمين، فهي ليست من الاسلام بشيء، الاسلام واضح وتعاليمه واضحة وما نشهده اليوم لايمت للإسلام بصلة. الاسلام يحترم الديانات من غير المسلمين ماعدا الوثنية، الاسلام لايحترمها ولا يرى لها حرمة. فالواقع المرير الذي تعيشه الامة الاسلامية وغيرها انما هوبفعل الاستكبار العالمي وانتماء بعض قادة الدول الاسلامية للماسونية العالمية التي لديها مشروع يهدف لتدمير الاسلام من خلال بعض مدعي الاسلام.

نتائج البحث

---

(١) لمحات فى تاريخ التشيع ج٣ ص٢

(٢) التوبة: اية ٥

(٣) تفسير الامثل ج٥ ص٥٣٥

لابد من الخروج بنتائج للبحث بعد اكمال هذه الدراسة المتواضعة في مجال حقوق الانسان عند الرسول الاكرم ﷺ فتبين النتائج فيما يلي:

١-يؤكد الاسلام على حقوق الانسان دون تمييز في الدين اوالعرق واللون اوالطائفة اوالجنس فالإسلام يكفل للجميع الحقوق على اساس الانسانية إلا ما خرج عن ذلك بالدليل كالوثنية المفسدة.

٢-يؤكد الاسلام على حقوق الانسان في التعليم والمواطنة والحكم والإدارة ومكافحة الفساد اذ فرض عدة امور ينبغي أن يلتزم بها من قبل الجنس البشري من اجل أن يعيش المجتمع السعادة التامة.

٣-يؤكد الاسلام على حرية الاعتقاد والممارسات الدينية لكل الاديان السماوية.

٤-يؤكد الاسلام على حفظ الدماء لجميع الجنس البشري وضرورة العيش بسلام والاشتراك في جميع الحقوق والواجبات دون اقصاء اوتهميش اوتمييز.

الفكر التربوي في المأثور النبوي وأثره في إعادة صياغة الإنسان

قراءة

في نماذج من مختارات ابن نصر الحلواني

السيد حسن كاظم الخليفة

كاتب وباحث - العراق

السيد حسن كاظم الخليفة
(كاتب وباحث)

دراسات فقهية عليا، ودراسات عليا في اللغة العربية وآدابها الجامعة اللبنانية، والجامعة الإسلامية.
شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والفكرية والأدبية في العراق وخارجه، وكتب العديد من الدراسات والمقالات في الحقول المعرفية المتنوعة ونشرها في الصحف والمجلات العراقية العربية والإسلامية، وفي صفحات النشر الالكتروني.
شاعر، له عدة مجموعات شعرية، وله عدة مؤلفات في اللغة والفقه والتاريخ والأدب والنقد والتحقيق بين منشور ومخطوط، وترجم بعض إنتاجه النثري والشعري إلى أكثر من لغة. وكتب عنه أكثر من باحث ودارس وناقد، في الصحف والمجلات وكتب التراجم والأعلام.ومنح العديد من الدروع وشهادات التقدير من الجامعات والمؤتمرات والمراكز والنوادي العلمية والفكرية والأدبية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين...

وبعد...،

أ - عنوان الدراسة:

الفكر التربوي في المأثور النبوي وأثره في إعادة صياغة الإنسان، قراءة في نماذج من مختارات ابن نصر الحلواني.

عندما يتحلى الإنسان بأخلاق الإسلام، من خير وصدق، ومحبة وتعاون، وإيثار وطيبة، وأمانة ونزاهة، وما إلى ذلك...، من مكارم الأخلاق فإن وراء ذلك الالتزام المثالي فكراً تربوياً، استطاع أن يعمل في النفس البشرية، محرِّكا فيها عوامل الامتثال إلى هذا النحومن الرقيّ الأخلاقي في بناء الإنسان.

إنَّ المركَّب الوصفي (الفكر التربوي) مكوَّن من عنصرين هما (الفكر) و (التربية)؛ مما يكشف أَنَّ وراء التربية فكراً يحركها، بل ينتجها؛ لأَنه مرجعيتها، ومن دون وجود تلك المرجعية الفكرية لا توجد عملية تربوية.

المرجعية الفكرية للعملية التربوية موجودة هنا في المأثور النبوي الذي يشكل مادة الدراسة.

ب - مادة الدراسة:

نماذج مختارة من النصوص النبوية الشريفة الواردة في كتاب (نزهة الناظر وتنبيه الخاطر) تحت عنوان: (طرف من كلام رسول الله ﷺ، في آدابه، ومواعظه، وأمثاله، وحكمه) للشيخ الجليل الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني (من أعلام

القرن الخامس الهجري).

ج - الإشكالية:

بين أيدي المسلمين كنوز ونفائس من (الفكر التربوي) في (النصوص النبوية الشريفة) التي تعالج مشكلات الإنسان بأشكالها وعلى كل المستويات...، بينما يعاني المسلمون أفراداً ومجتمعاتٍ من أمراض نفسية واجتماعية وأخلاقية خطيرة يمكن أن تعالج لواستثمرنا الفكر التربوي في المأثور النبوي بشكل علمي فعَّال...

فلماذا لم نستطع تحصيل الفعَّالية في ما نروي ونحفظ ونلقِّن من مواد الفكر التربوي في المأثور النبوي...!؟

هل يمكننا تحصيل تلك الفعَّالية...، وكيف...!؟

الدراسة المتواضعة هذه، محاولة للإجابة عن تلك الإشكالية، وذلك باختيار نماذج من مواد الفكر التربوي في المأثور النبوي الوارد في مختارات ابن نصر الحلواني، وتسليط الأضواء عليها لدراستها بما يساهم في الإجابة عن تلك الإشكالية.

وبالإجابة عن إشكالية امتلاكنا ثروة هائلة من الفكر التربوي في المأثور النبوي الذي نحفظه ونرويه، بينما يعاني واقعنا من العوز إلى الفعَّالية التربوية التي من شأنها أَن تعالج الأمراض النفسية والاجتماعية والأَخلاقية المتفشية...

إِنَّ المفارقة العجيبة تكمن في وجود ثروة يحملها من هم أَشد الناس حاجة إليها، يملكونها ولا يحسنون الاستفادة منها، وتفعِيلها في صناعة الخلاص، وإعادة صياغة الإنسان، تلك هي الإشكالية التي يستبطن حلُّها مقاصدَ الدراسة وأَهدافها.

د - أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة المتواضعة هذه إلى التِماس الـمَخْرَج من مشكلات إنساننا المعاصر بالتَّماس مع بعض من آليات (الإخراج الرسالي) في «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[1]. واستجلاء شيء من فعَّالية ذلك (الإخراج) الناجح في معالجة أمراض المجتمع وإصلاحه...، والذي لم يكن ليصل في نجاحه إلى مستوى (الخيريَّة الفُضلى) لولا المنهج التربوي بما يبث في النفوس والقلوب والعقول من تعاليم (مُدخَلات) تجلَّتْ (مُـخرجاتها) في ما استحقت أن توصف به قرآنيا بـ«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

(١) القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية (١١٠).

لِلنَّاسِ) [1]

هـ - المنهج:

رأى الباحث أن طبيعة المادة المدروسة تفرض عليه أن يتبع (المنهج التكاملي) الذي يستفيد من معطيات مناهج التفكير:

ـ البياني (النقلي): فإن مادة بحثنا هي المنقولات، وهي تحديدا نصوص من المأثورات النبوية الشريفة.

ـ البرهاني (العقلي): فإن تلك المنقولات مواد قولية، تحتاجِ إلى عقل يفكر فيها، ويتدبرها لاستيلاد العلم والدراية من عباراتها وإشاراتها، كما أنَّ الواقع الذي تخاطبه يحتاج إلى ما تحتاجه، وهما معاً يحتاجان إلى العقل في اكتشاف العلاقة العضوية بين النص والواقع؛ لما يتحلى به العقل من طرائق في الاستدلال قد تفضيه إلى نتائج يجدها مخزونة في النقل الذي يوفر للعقل معطيات تحرضه على التفكر والتأمل في النص والواقع، وفي العلاقة العضوية بينهما.

ـ الوجداني (القلبي): فإن رواية تلك النصوص النبوية الشريفة، ورعايتها بالدراسة والتأمل والتفكر والتدبر في تعالقاتها الواقعية يجمع لنا شرفين:

ـ الرواية

ـ والدراية

وهما يقفان عند حدود المنهجين:

ـ البياني

ـ البرهاني

وهما باجتماعهما يكسباننا الخبرة والبصيرة.

غير أننا حينما نخضع معطيات المنهجين: البياني، البرهاني بما ينتجانه من علم نظري إلى التجربة الوجدانية، القلبية، الروحية...، فإننا حينئذٍ نكون قد أضفنا إلى الإيمان الذي يتولد عن العلم إيمانا تنتجه التجربة، فيتكامل (البياني، البرهاني، الوجداني) في التأصيل الإيماني والاستدلال عليه استدلالاً تجريبياً، بما يكسبنا اليقين المصحوب بالخبرة التي تشكَّلتْ باختبار شروط الحتمية...

---

(١) القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية (١١٠).

في المأثور النبوي فكر تربوي مؤسس على اليقين المشار إليه، يقين يحتاج فقهه إلى وعي المناهج (البياني، البرهاني، الوجداني)، وما تستدعيه تلك المناهج من تقنيات (الدراسة والتحليل) بما يخدم الموضوع المدروس وتجليته.

والخاتمة:

خلاصة البحث، (النتائج والتوصيات):

أـ النتائج.

ب التوصيات.

الدراسة

ـ مادة الدراسة، كشوفات الاختيار في صنيع الحلواني:

يكشف (فعل الاختيار) عن (أسئلة مضمرة) يحاول أن يجيب عنها (المختار) عبر الشرائح النصيَّة (المختارات) التي فضَّل اختيارها من بين كمٍّ هائلٍ من النصوص...؛ لذلك فإن المختارات إذا صدرت عن عالم، أوناقد، أوأديب فإنها تكشف عن تمثُّله تلك الأَبعاد بوعي وقصد يجعلان من فعل الاختيار عملا نقديا بما يصطحب معه من مقاصد الاختيار.

وهوما ينطبق على مختارات الشريف الرضي في (مجازات القرآن)، و (المجازات النبوية)، و (نهج البلاغة)... ، الشريف الرضي المعاصر لشيخنا ابن نصر الحلواني الذي تتلمذ على أخيه الشريف المرتضى، وعلى أستاذهما الشيخ المفيد...

فأن يعمد مثل الحلواني العالم والأديب الناقد إلى تدوين: (طرف من كلام رسول الله ﷺ، في آدابه، ومواعظه، وأمثاله، وحكمه)، ضمن كتاب اختياراته: (نزهة الناظر وتنبيه الخاطر) [1] فإنه كشف عن (مضمر) يشير إلى مدى حاجة واقعه إلى تمثُّل مضامين تلك النصوص المختارة..؛ الأَمر الذي دفع الباحث إلى اختيار نماذج من تلك المختارات التي تستجيب إلى أسئلة الواقع الذي نعيش، لتسليط الأضواء عليها

---

(١) الحلواني، (الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر)، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تحقيق وتقديم: (السيد محمد باقر بن المرتضى الموحد الأبطحي الإصفهاني)، بيروت، دار الكتاب الإسلامي، بلا تاريخ، النص: رقم ٥١.

والاستفادة منها تربويا في إصلاح الواقع.

لم تدرس مختارات الشريف الرضي، فضلا عن الحلواني من تلك الزاوية الكاشفة عن مضمرات الاختيار، ومقاصده...، وانصرف التفكير إلى ما ألفَتَ إليه الرضي من معيار بلاغي يعلن عن نفسه من العنوان (بلاغة / مجازات)، بيد أن الرسائل المضمرة في النصوص المختارة تتجاوز (البلاغي) إلى (الإبلاغي)؛ الأمر الذي لم يخفه الشطر الثاني في عنوان الحلواني: (نزهة الناظر وتنبيه الخاطر)؛ فالتنبيه يستبطن استشعار الغفلة عن شيء ما في الواقع، اقتضى حشد هذه المختارات لـ (تنبيه الخاطر)، وحثه على تغيير الواقع، بما يستجيب إلى المنطوق والمفهوم في النصوص المختارة.

ولأَنَّ الإبلاغيَّة فعَّاليَّة نصيَّة في المختارات النبويَّة التي استدعاها الحلواني فإنه لم يغفل الإشارة إلى انضواء تلك النصوص الـ«طرف من كلام رسول الله ﷺ»تحت ما يمكن تصنيفه إلى:

آداب.

مواعظ.

أمثال.

حكم.

الأَمر الذي يؤكد وجود خطة منهجية في الاختيار مؤسسة على وعي تصنيفي، بغية التحديق في الفعَّاليَّة الإبلاغيَّة تحديقا في سياق ذلك الوعي المنهجي المؤسس عليه الاختيار؛ مما يرتفع بعملية التلقي إلى مستوى ذلك الوعي الذي لولاه لما أمكن الاستفادة من تلك الـ (الفعَّاليَّة الإبلاغيَّة) في (المأثور النبوي) المختار على الأساس من كونه:

أَدباً، أوموعظةً، أومثلاً، أوحكمةً..؛ إذ إنَّ تنوع أَشكال القول يفترض تنوعاً في أَشكال التلقي.

وهذا مما لم يلتفت إليه أَغلب الرواة، والمدونين، والشرَّاح، والمفسرين الذين تعاملوا مع المأثورات النبوية على الأساس من كونها سنةً فحسب، السنة التي اختزلوها بثلاثية:

(القول/ الفعل/ التقرير)، ولم ينتبهوا إلى أَنَّ تمثُّلات القول وهوسنة في أشكال

متنوعة من:

(الحوار، القصة، الكلمة، الخطبة، الرسالة، الموعظة، المثل، الحكمة...)، وإلى ما يمكن أن يترشَّح عنه، بل وعن (الفعل) و (التقرير) من حيثيات متنوعة أَمر له مدخليَّة مهمة في التلقي، يمكن أن تعين على الفهم، والوعي، والتفقه أكثر؛ ولذلك كان تصنيف الحلواني في مختاراته لـ (طرف) من المأثور النبوي (في آدابه، ومواعظه، وأمثاله، وحكمه).

وهوما فعله (الشريف الرضي) في (نهج البلاغة) حيث: (الخطب، الكتب، الرسائل، الوصايا، الحكم)... ، بيد أَنَّ تصنيفهما أعني الرضي والحلواني لم يعلن عما أشرت إليه من قصديَّة التصنيف ومقاصده.

إنَّ الآداب، غير المواعظ،، وهما غير الأمثال، والجميع غير الحكم، في (المأثور النبوي) وهومما التفت إليه الحلواني، معبراً عن تلك الغيريَّة بأسلوب العطف الذي يدل على المغايرة حين قال: (في آدابه، ومواعظه، وأمثاله، وحكمه)، وهوما نص عليه القرآن الكريم في مغايرته بين الحكمة والموعظة الحسنة:

«ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»[1].

مادة الدراسة التي تم اختيارها من مختارات الحلواني ركزت على ما يندرج تحت (الحكمة) في المأثور النبوي، فما هي الحكمة...؟

وما سبب اختيارها من بين المختارات...!؟

الحكمة:

والحكمة كما في القاموس المحيط (العدل، والعلم، والحِلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل)[2].

وفي (المفردات) للراغب: (إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى

(١) القرآن الكريم، سورة (النحل) آية (١٢٥).

(٢) الفيروزآبادي، (العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي،بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م باب الميم، فصل الحاء،

معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخيرات، وهذا هوالذي وصف به لقمان في قوله عزوجل «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»[1].

ونبّه على جملتها بما وصفه بها) [2]

بينما هي أعني الحكمة في القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم:

(العلم والتفقّه، البقرة ٢/ ١٢٩، مُحكم: المتقن، الثابت، محمد ٤٧/ ٢٠)،] الأكدية خَ ك امُ (م): فَهِم،أدركَ) (الأوجاريتية ح ك م:فهم) (العبرية حُ ك٠مَ ا هـ: حكمة) (الآرامية والسريانية ح ك م، (المنداثية هـ ك م: فهِمَ، أدرك،) (الحبشية تَ حَ ك ّمَ: أدرك[. (المعنى العام: الفَهم) [3].

إنَّ اللغويين يتعاطون مع المعنى المعجمي الاستعمالي العام، وهويسعف الباحث إجمالاً في استلهام المعنى الخاص الذي يريده مشروعَ مصطلحٍ لعلم من العلوم.

من تلك الجهة، نلحظ في الحكمة عند هذه المحطة على الأقل اتصالها بما يدركه الفرد أوالأُمة، إدراكاً يرتفع إلى مستوى اليقين، وذلك عن طريق:

- التجارب المباشرة.
- أوالتجارب المُشَاهدَة.
- أوالتجارب المدوَّنة.

شريطة أَن يكتسب ذلك الإدراك تصديقاً يرتفع إلى مستوى الإيمان واليقين.

وأَن الدعوة بالحكمة لها طرق وأساليب، غايتها الوصول إلى هذا المقصد، لعل من أبلغها إدخال الإنسان في تجربة يخرج منها بحكمة تعمل على إعادة صياغة الذات؛ كونها تستبطن قوة اليقين، والفعَّالية التغييرية.

ولكي ندخل إلى الحكمة، علينا، أولاً أَن نكسر الحاجز، والمانع بيننا وبين الوصول إليها، وإلى فعلها التغييري، وذلك أول السلوك نحومعرفة (الفكر التربوي في المأثور

---

(١) القرآن الكريم، سورة (لقمان) آية (١٢).

(٢) الراغب الأصفهاني، (أبوالقاسم الحسين بن محمد)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: إبراهيم شمس الدين، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، باب الحاء،

(٣) علي، (أ. د. خالد اسماعيل)، القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، مؤسسة البديل دار المتقين،١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، باب الحاء،

النبوي، وأثره في إعادة صياغة الإنسان).

إنَّ الحاجز أوالمانع هو (فقدان الأمل) من (الإصلاح التربوي)، تلك الحالة من (اليأس) المتفشي في مجتمعاتنا حتى اللحظة، والذي يصادر كل بوارق الأمل من أمام أعيننا، حتى عاد التفكير بالإصلاح، وإعادة صياغة الإنسان كي يرتقي إلى المُثل العليا ضربا من (التنظير) الذي يفتقد إمكانية التطبيق على الفرد والمجتمع.

وما ذلك إلا لتفشي ظاهرة اليأس، تلك الظاهرة التي كافحها الرسول ﷺ وجعلها فاتحة الأمل نحوالتربية والإصلاح بما ينسجم مع عطاءات الفكر التربوي النبوي.

إنَّ (الإيمان بالأمل) فاتحة الوصول إلى (وعي الفكر التربوي النبوي) والاستفادة منه في (إعادة صياغة الإنسان)، فأي أمل أخذنا إليه الرسول...؟

فاتحة الأَمل:

مما ورد في كتاب الحلواني قال: قال ﷺ: «الأمل رحمةٌ لأُمتي، ولولا الأَمل ما أَرضعتْ أُمٌ ولداً، ولا غرس غارسٌ شجراً»[1].

إنَّ الفتنة التي اندلعت ببغداد عصر الحلواني فاضطرته المغادرة إلى النجف الأَشرف كمعاصره الشيخ الطوسي بعد إحراق منبره ببغداد يمكنها أن تغتال الأَمل، وتزرع اليأس في النفوس؛ الأمر الذي جعله يستدعي النص النبوي الشريف: «الأمل رحمةٌ لأُمتي...»؛ فالأمة تحتاج إلى الأمل...، وما أشبه الليلة بالبارحة...!؟

إضافة إلى أنَّ كل النصوص النبوية المختارة لا يمكن الاستفادة منها وتوظيفها لتغيير الواقع المؤلم واستصلاحه من دون إعادة نفخ روح الأَمل في النفوس.

كيف لا..؟ والرسول ﷺ يقول: «الأَمل رحمةٌ لأمتي...»، بل إنه ﷺ يستدل على قوله بـ«ولولا الأَمل ما أَرضعتْ أُمٌ ولداً، ولا غرسَ غارسٌ شجراً»...، فلولا الأَمل بنجاح الإصلاح لما كانت الرسالات، ولما وردت عن الرسول هذه الكلمات التي تتحرك في ساحة الأَمل...

إنَّ المربي، والمصلح لا يستسلم كما يستسلم الآخرون إلى اليأس، بل يتحداه بالأمل، كما حطَّم رسول الله ﷺ أصنام اليأس بفأس الأَمل، فنجح في تربية أُمته،

---

(١) الحلواني، م.س، رقم ٥١، ص ٢١.

وفي إخراجها من الظلمات إلى النور، وانتشالها من الحضيض إلى القمة، لتكون»خير أمة أخرجت للناس»وهوأساس من أساسات الفكر التربوي في المأثور النبوي.

كل أمراض واقعنا النفسية، الاجتماعية، والأخلاقية...، يمكن علاجها حين نؤمن بإمكانية العلاج...، وهومشروط بانتعاش روحِ الأمل في نفوسنا كما يريد ذلك منا رسول الله ﷺ، وكما تريد منا مقولاته التي سطرها لنا على لوح الأمل.

كتب إيرك فروم عن (شروط التغييرالإنساني وملامح الإنسان الجديد)، محدداً لتغيير الشخصية الإنسانية الشروط التالية:[1]

المعاناة، مع الوعي بأننا نعاني.

الكشف عن الأصل في الحال السيئة التي بسببها نعاني.

أن نتبيَّن أن ثمة مخرجاً من حالنا تلك.

أن نتقبَّل فكرة أنه لكي نتجاوز تلك الحال فإنه يجب علينا أن نتَّبع طرائق معينة في المعيشة، وأن نغير ممارساتنا الحياتية الراهنة.

فلولا الأمل بالتربية والإصلاح والتغيير لما كان هذا التفكير الذي يسعى إلى إعادة صياغة الإنسان أفرداً ومجتمعات.

إنَّ (صنم اليأس) لا بد أن يُكسر بـ (فأس الأمل) كي يتم التفكير بالتربية والإصلاح والتغيير، وهوما نجده مبثوثاً في المأثور النبوي.

بل إنَّ كسر صنم اليأس يستتبع كسر العديد من الأصنام التي تقف في وجه تحرر الإنسان من القيود، والأصر، والأغلال.

ولعل شروط (إيرك فروم) المتقدمة في السعي نحو (إنسان جديد) نراها في المأثور النبوي الذي يريد إعادة صياغة الإنسان بما ينسجم مع (الأفق التوحيدي المطلق) الذي يحرضه على كسر (كل الأصنام) بعد كسره (صنم اليأس)، ومنها:

كسر صنم الجهل.

كسر صنم الأنا.

---

(١) فروم، (إيرك)، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران، مراجعة وتقديم: لطفي فطيم، الكويت، سلسلة عالم المعرفة (١٤٠)، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. ص١٧٩

الحلواني، م.س، رقم ١٢٥، ص ٤١.

كسر صنم العادة.

كسر صنم الخوف.

كسر صنم الغفلة.

يكفي أن نستحضر في (كسر صنم الجهل) هذه المأثورة النبوية في (العلم): «العلم وديعة الله في أرضه، والعلماء أمناؤه عليه، فمن عمل بعلمه أدى أمانته، ومن لم يعمل بعلمه كتب في ديوان الله من الخائنين»[1].

لنرى أنَّ (كسر صنم الجهل) بـ (فأس العلم) لا يكفي؛ لأَنه سيضعنا أَمام معادلة (الأمانة / الخيانة) تبعاً لمعادلة (تفعيل العلم/ تعطيل العلم)؛ إذ إنَّ المناط في التربية والتغيير والإصلاح، ليس العلم بما هوعلم، وإنما العلم بما هوفعَّالية تغيير إصلاحي للفرد والمجتمع، ولا تتحقق تلك الفعَّالية إلا بكسر:

صنم الأنا.

صنم العادة.

صنم الخوف.

صنم الغفلة.

وليس في شروط (إيرك فروم) المتقدمة في السعي نحو (إنسان جديد) [2]أكثر من ذلك، وفي المأثور النبوي كنوز من الفكر التربوي الذي نجح في إعادة صياغة الإنسان، حتى انتشل مجتمعه من حضيض (الجهل واليأس)، إلى قمة (العلم والأَمل) اللذين حققا مجتمع (الخيريَّة) بشهادة الله سبحانه في «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[3].

فكيف نجح رسول الله ﷺ في تغيير الإنسان فرداً ومجتمعاً، وإعادة صياغته حتى وصل إلى مستوى (الخيريَّة).

ألا يدعونا ذلك إلى التفكير في (المأثور النبوي) الذي يختزن (فكراً تربوياً) قادراً على الإصلاح، وإلى محاولة استلهام ذلك الفكر في إصلاح واقعنا الذي لا يشهد علاقة طردية راسخة بين الوعظ والصلاح.

---

(١) الحلواني، م.س، رقم ١٢٥، ص ٤١.

(٢) فروم، م. س، ص ١٧٩.

(٣) القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية (١١٠).

بل قد يزداد تشاؤم بعض المؤمنين الوعَّاظ فيشتكي من تسارع تآكل قيم الخير والصلاح في مجتمعاتنا على الرغم من انتشار منابر الوعظ والإرشاد بصورة غير مسبوقة من ذي قبل...!؟

الأَمر الذي يدعونا إلى إعادة التفكير في طرائقنا التربوية بحثاً عما يحقق الفعَّالية التغييرية، وفي المأثور النبوي ما يحقق لنا ذلك.

إنه الفكرالتربوي القادرعلى إعادة صياغة الإنسان، وللتدليل على ذلك، سأطرح أسئلة على واقعنا الذي يزدحم بالمشكلات، مستحضرا السلوك النمطي المستهلك في الإجابة والمعالجة، مقارنة مع ما لم يستثمر من خزين الفكر التربوي النبوي الذي لواستثمرناه بإتقان لانحلت كثير من مشاكل الإنسان في واقعنا المعاصر، بما يضعه على خط استعادة مجتمع (الخيريَّة) الذي أخرجه الرسول للناس، ويريدنا أن نستوحي تقنيات ذلك الإخراج من وعي (المأثور النبوي) في التربية والإصلاح.

مشكلات مجتمعاتنا المعاصرة

تعاني مجتمعاتنا المعاصرة من انخفاض الامتثال إلى قيم الخير والمثل العليا التي دعا إليها الإسلام؛ الأَمر الذي أَدى إلى تفشي ظواهر سلبية كثيرة منها:

عقوق الوالدين.

قطيعة الرحم.

سوء الخلق.

كثرة اقتراف الذنوب.

قلة صنع المعروف.

الغش في المعاملات.

قلة الأمانة وكثرة الخيانة.

وغيرها من المشكلات الكثيرة التي تعاني منها مجتمعاتنا المعاصرة، على الرغم من كثرة منابر الوعظ والإرشاد التي تحاول توجيه الناس إلى:

بر الوالدين.

صلة الرحم.

حسن الخلق.
التوبة عن الذنوب ونبذ المعاصي.
أعمال البر وصناعة المعروف.
الصدق في المعاملات التجارية وغيرها.
التحلي بصفة الأمانة.

يستمع الكثير من الناس إلى هذه المواعظ والإرشادات ليل نهار، غير أَنَّ نسبة الامتثال ضئيلة جداً؛ الأَمر الذي يثير حفيظة المؤمنين من الوعَّاظ والمرشدين الذين يشكون من قلة تأثر الناس بما يستمعونه من منابر الوعظ والإرشاد.

وهذا لا يعني انعدام التأثير مطلقاً، تأثير المواعظ موجود لكنه أَدنى من مستوى الطموح بكثير جداً؛ لأننا اقتصرنا عليه في التربية والإصلاح، فاكتفينا بالموعظة عن الحكمة، وكأننا لم نصغ إلى القرآن الكريم الذي قدَّم الحكمة على الموعظة في الدعوة إلى سبيل الله.

«ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»[1].

إنَّ الرسول ﷺ لم يكتفِ بالموعظة، وإنما استخدم الحكمة في تربية الإنسان فرداً ومجتمعاً؛ لأنَّ النفس البشرية معقدة التركيب، وتحتاج إلى تعدد الأساليب في إصلاحها وتربيتها على الفضيلة والأخلاق الحميدة.

قد تستجيب فئة من الناس إلى نداء الموعظة، فتنتهي وتأتمر، تنتهي عن عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وسوء الأخلاق...، وتأتمر لنداء بر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الأخلاق.

إلا أنَّ كثيراً من الناس يستمعون إلى الأوامر والنواهي المقدَّمة إليهم بأُسلوب وعظي، ويتغنون بها، ويطربون لها، بينما يتخلفون عن الامتثال إليها، وتطبيق مؤدَّاها على الصعيد العملي في حياتهم.

وإنَّ أكثر هؤلاء الناس لوقدَّم لهم مؤدَّى المواعظ تلك بأسلوب الحكمة لامتثلوا وأَطاعوا، إذا ساعدناهم على كسر صنمي (الجهل واليأس) في نفوسهم.

---

(١) القرآن الكريم، سورة (النحل) آية (١٢٥).

ويتم (كسر صنم الجهل) بوعي الحقائق (العلمية الإيمانية) المتصلة بما يلي:
معادلة (الغيب / الشهادة).
قاعدة (المحوو الإثبات).
مثلث (الفاعل / القابل / عدم المانع).
إنَّ (كسرِ صنم الجهل) بوعي تلك الحقائق (العلمية الإيمانية) ينتج عنه (كسر صنم اليأس)؛ الأَمر الذي ينتج معادلةً جديدة في حياة الإنسان المؤمن هي:
علم + أَمل = قوَّة إرادة وعمل.
حينئذ يستشعر المؤمن وجود علاقة تَأثير وتأَثُّر بين (الغيب / الشهادة)، فكما أنَّ عالَم الشهادة الذي يعيشه يتأَثر بعالَم الغيب فإنَّ لعالَم الشهادة نصيباً من التأْثير في عالَم الغيب، تلك هي المعادلة التي تشتغل على مثلث (الفاعل/ القابل / عدم المانع) على الأَساس من قاعدة (المحوو الإثبات).
لنستحضر (المأثور النبوي) تحت عنوانين هما:
فن إطالة العمر.
فن زيادة الرزق.
ولنراقب رغبة الإنسان في إطالة عمره، وفي زيادة رزقه كيف تعمل على استجابته إلى الفضيلة والأَخلاق الحميدة.
تلك التي قدِّمت إليه بقوالب الوعظ والإرشاد فلم يستجب إليها، بينما هوممتن للامتثال لها حين قدِّمت إليه في قالب الحكمة.
فن إطالة العمر
هل يستطيع الإنسان أَن يعمل شيئاً يؤدي إلى إطالة عمره، وكيف له ذلك و (العمرمقدَّر ومكتوب)... !؟
في المأثور النبوي ما يشير إلى إمكانية إطالة الإنسان لعمره، فكيف تستطيع أن تزيد في عمرك..؟
أَليس من (كسر صنم الجهل) أَن تكتسب علماً يمكِّنك من إطالة عمرك...؟
وهل يبقى من (صنم لليأس) بعد ذلك...؟
وكسر صنمي (الجهل واليأس) شرط في استيعاب (علم الحكمة) واستثمار طاقاته

في إعادة صياغة الإنسان بما يكسبه خير الدنيا والآخرة.

في سياق إمكانية زيادة العمر نقرأ المأثورات النبوية الشريفة في (نزهة الناظر):

قال ﷺ:

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء،....، وصلة الرحم تزيد في العمر وتدفع ميتة السوء،...»[1].

«حسن الخلق، وصلة الرحم، وبر القرابة، تزيد في الأعمار، وتعمر الديار، ولوكان القوم فجارا»[2].

«...ولا يزيد في العمرِ إلا البرُّ...»[3].

«صلة الرحم...، منسأة للأَجل»[4].

«...عقوق الوالدين يبتر العمر...»[5].

إذا أراد الإنسان أن يطيل الله في عمره فعليه الالتزام بالفضائل الآتية:

بر الوالدين.

صلة الرحم.

البر مطلقاً

بر القرابة.

عمل المعروف.

حسن الخلق.

فالتحلي بهذه الأخلاق الحميدة، وتربية النفس على الالتزام بها عن رضا وطيب خاطر، من الأمور التي تطيل عمر الإنسان، فضلا عن آثارها الإيجابية الأخرى في الدنيا والآخرة.

إنه (علم) يعطي الإنسان (الأمل) في إمكانية (إطالة العمر) لوالتزم بتلك الفضائل على نحوالشَّرطيَّة التي يمكن أن تصاغ بهذه المعادلة:

المنطوق: مَنْ برَّ والديه أطال الله في عمره.

---

(١) الحلواني، م. س، رقم ١٩، ص١٣.

(٢) م.ن، رقم ٢٧،.

(٣) م.ن، رقم ٣٥.

(٤) م.ن، رقم ١١١

(٥) م.ن، رقم ١١٥.

المفهوم: مَنْ عقَّ والديه قصَّر الله في عمره.

وهكذا دواليك.

وفي إمكانية زيادة الرزق نقرأ المأثورات النبوية الشريفة تحت عنوان (فن زيادة الرزق):

فن زيادة الرزق

في (نزهة الناظر)، قال ﷺ:

«... وإنَّ الصدقة لا تزيد المال إلا نماءً»[1].

«...وإنَّ الرجل لَيُحرم الرزقَ بالذنبِ يُصيبه»[2]

«حصِّنوا أموالكم بالزكاة...»[3].

«...وعليك بالشكر فإن معه الزيادة...»[4].

«...ولا بخس قوم الكيل والميزان إلا أخذهم الله تعالى بالسنين، ونقص من الثمرات، وما منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم قطر السماء...»[5].

«الذنوب تغير النعم،...، شرب الخمر يحبس الرزق...»[6].

«...وصلة الرحم...، تنفي الفقر»،[7]

«صلة الرحم...، مثراة للمال...»[8].

إذا أراد الإنسان أن يزيد الله في رزقه ويكون صاحب ثروة فعليه الالتزام بالفضائل الآتية:

التوبة عن الذنوب ونبذ المعاصي.

الصدق في المعاملات التجارية ونبذ أشكال البخس.

إعطاء الزكاة.

---

(١) م.ن، رقم ٧٧،

(٢) م.ن، رقم ٣٥.

(٣) م.ن، رقم ٧٣، ص ٢٦.

(٤) م.ن، رقم ٩٨، ص ٣٢.

(٥) م.ن، رقم ١١٤، ص ٣٧.

(٦) م.ن، رقم ١١٥، ص ٣٧.

(٧) م. س، رقم ١٩، ص١٣.

(٨) م.ن، رقم ١١١، ص ٣٦.

ترك شرب الخمر.

صلة الرحم.

شكر الله على نعمه.

التصدق بالمال على الفقراء والمحتاجين.

فالتحلي بهذه الأخلاق الحميدة، وتربية النفس على الالتزام بها عن رضا وطيب خاطر، من الأمور التي تزيد في الرزق وتنمي الثروة، فضلا عن آثارها الإيجابية الأخرى في الدنيا والآخرة.

إنه (علم) يعطي الإنسان (الأمل) في إمكانية (زيادة الرزق وتنمية الثروة) لو التزم بتلك الفضائل على نحو الشَّرطيَّة التي يمكن أن تصاغ بهذه المعادلة:

المنطوق: مَنْ لم يغش في معاملاته المالية زاد الله في رزقه.

المفهوم: مَنْ غشَّ في معاملاته المالية نقَّص الله من رزقه.

وهكذا دواليك.

بل إنَّ الذي يتتبع المأثورات الشريفة عن النبي وآله سيجد علاقة عضوية مترابطة بين (الرزق والأجل) فقبل قليل مرَّ علينا النص النبوي الشريف الذي يكشف عن علاقة شرطية بين (صلة الرحم) و (إطالة العمر، وزيادة الرزق)، ما يعني أن المفهوم من ذلك المنطوق، أن قطيعة الرحم تقصر في العمر وتنقص من الرزق.

ويؤيدها القرآن الكريم الذي يكشف عن علاقة شرطية بين (التقوى) و (إطالة العمر، وزيادة الرزق)، في قوله سبحانه وتعالى:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾[1].

وفي قوله عز وجل: ﴿...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾[2].

إنها من نصوص (الحكمة) التي يمكن تجريبها، ولذلك هي أبلغ في التأثير من مجرد الموعظة.

فالتقوى شرط من شروط إطالة العمر، وسعة الرزق، وهي مثل (صلة الرحم) التي

---

(١) القرآن الكريم، سورة (نوح) آية (٣ـ ٤).

(٢) القرآن الكريم، سورة (الطلاق) آية (٢ـ ٣).

«تنفي الفقر» كما هي «مثراة للمال».

فإذا أراد الإنسان أن يطول عمره ويوسَّع عليه في رزقه عليه بالتقوى، وصلة الرحم، وعليه وعي تلك الفلسفة في معادلة (الغيب / الشهادة) التي تفتح له آفاقاً واسعة في رسم خارطة مصيره في الدنيا والآخرة، بما تعطيه من علم (الحكمة) الذي يفتح له أسراراً كان ينظر إليها من المغاليق التي لا يقوى على فتحها، فإذا به يعلم أن قاعدة المحووالإثبات تدعوه إلى تحريك طاقة الأمل في داخله بأدوات العلم.

قاعدة المحووالإثبات في قوله سبحانه وتعالى: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»[1].

إن هذه القاعدة المشار إليها بالآية الكريمة تدعونا أن نصل أرحامنا حتى تطول أعمارنا وتزيد أرزاقنا، فلوكان (العمر والرزق) لا يخضعان إلى (قاعدة المحو والإثبات) فما فائدة كل تلك التعاليم الشرعية التي تعطينا أدوات نستعملها لإطالة أعمارنا وتوسيع أرزاقنا.

بل حتى الدعاء وهومن تلك الأدوات سيغدولغواً لا فائدة منه، إذ ما الفائدة من قولنا في الدعاء: (يا ربِّ أسألك أن تطيل في عمري، وأن توسِّع في رزقي)، إذا كان العمر والرزق لا يخضعان إلى قاعدة المحووالإثبات.

وبوعي تلك القاعدة التي هي (علم) به نستشعر وجود علاقة تأثير وتأثُّر بين (الغيب / الشهادة)، فكما أنَّ عالَم الشهادة الذي نعيشه يتأثر بعالَم الغيب فإنَّ لعالَم الشهادة نصيباً من التأثير في عالَم الغيب، تلك هي المعادلة التي تشتغل على مثلث (الفاعل / القابل / عدم المانع) على الأساس من قاعدة (المحووالإثبات).

ولنطبق ذلك على ما كان قد مرَّ بنا تحت عنوان (فن زيادة الرزق) بغية وعي ما للفكر التربوي من الفعَّالية في المأثور النبوي: «وإنَّ الصدقة لا تزيد المال إلا نماءً»[2].

إن نماء المال هوسعة في الرزق وزيادة فيه، فالرزق هنا هو (القابل)، قابل للزيادة، وأما الفاعل (المؤثر في زيادة الرزق) فهو (الصدقة)، ولكن العلاقة بين الفاعل (الصدقة) وبين القابل (الرزق) لا يمكن لها أن تتم إلا في أُفق (عدم المانع).

ومن الموانع أن يكون (مال الصدقة) مكتسَبا من الحرام، وليس من الحلال،

---

(١) القرآن الكريم، سورة (الرعد) آية (٣٩).

(٢) الحلواني، م.س، رقم ٧٧، ص ٢٧.

حينئذٍ لا يؤثر الفاعل (الصدقة) بالقابل (الرزق) لوجود المانع (الكسب الحرام)، أما لو كان مال الصدقة مكتسباً من الحلال، فسيؤثر الفاعل (الصدقة) بالقابل (الرزق) فيزداد حتماً، كما ورد في المأثور النبوي، وذلك لعدم وجود المانع، مع وجود الفاعل والقابل، فتكتمل أضلع المثلث (الفاعل / القابل / عدم المانع) الذي تشتغل عليه قاعدة (المحووالإثبات) في سياق معادلة (الغيب والشهادة) بين التأثير والتأثر، فتتم الحتميَّة، وهومن أسرار (علم الحكمة) المستبطن في تلك المأثورات النبوية، والتي لا نعيها إلا بوعي:

معادلة (الغيب / الشهادة).

قاعدة (المحووالإثبات).

مثلث (الفاعل / القابل / عدم المانع).

إنَّ الوعظ يقول لك: تصدَّق، واعمل المعروف، ولا تقطع الرحم، ولا تغش في المعاملة...إلخ، لكنَّ الحكمة تقول ذلك كله ولكن بأسلوب الحكمة الشَّرطي الذي يضع الإنسان في سياق معادلة: (علم + أَمل = قوَّة إرادة وعمل).

الأمر الذي يكشف عن (فعَّالية هائلة) تقف وراء (الفكر التربوي في المأثور النبوي)، تلك الفعَّالية التي تقوى على معالجة أمراضنا النفسية والتربوية والأخلاقية المعاصرة.

إننا أمام (الحكمة) باعتبارها (علماً) يلبي حاجات الإنسان في آفاق لا حدود لها، ويمنحه (الأمل) و (قوة الإرادة) اللذين ينتجان (العمل) على (إعادة صياغة الإنسان) سعياً إلى الترقي نحومجتمع (الخيريَّة) في «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»[1].وهوغاية الغايات، ومنتهى ما يطمح له (الفكر التربوي) من أهداف وقصود.

الخاتمة

خلاصة البحث، (النتائج والتوصيات) انتهيت هذه الدراسة المتواضعة إلى نتائج وتوصيات، هي

أ النتائج:

في المأثورات النبوية كنوز معرفية لم يكشف عن فعّاليتها في إعادة صياغة الإنسان، ومن تلك الكنوز المعرفية: (الحكمة).

---

(١) القرآن الكريم، سورة (آل عمران) آية (١١٠).

إنَّ الموعظة مغايرة للحكمة.

إنَّ الحكمة تستبطن موعظة، ولكن الموعظة لا تستبطن حكمة.

إنَّ منابرنا وقنواتنا التربوية ما زالت منذ قرون تستهلك الموعظة، ولم تعطِ الحكمة حقها في الفعل التربوي.

تكمن الإشكالية في تنامي حركة الوعظ وتراجع حركة الإلتزام.

الحل في مراجعة طرائقنا في التفكير، وإعادة اختيار ما يملك الفعَّالية التربوية بما يستجيب لأسئلة واقعنا وإنساننا المعاصر، ويحل مشكلاته؛ ولأنَّ النفس البشرية معقدة فإنَّه ليس من الحكمة الجمود على طريقة واحدة في محاولة إصلاحها، وتربيتها، ومن الحكمة أن ندرس (علم الحكمة)،

من الضرورة دراسة الحكمة على الأساس من كونها علماً، وفي ذلك الأثر الكبير على التربية والإصلاح.

ب التوصيات:

تأسيس مركز أبحاث (علم الحكمة) لدراسة النصوص الدينية وتعالقاتها مع الواقع، وتطبيق نتائجها على الأفراد والمجتمعات والأمم، بما يرتفع بمستوى هذا العلم إلى اليقين القطعي؛ الأمر الذي يشكِّل الأثر البالغ في إعادة صياغة الإنسان.

كتابة منهج في (علم الحكمة) وتدريسه في مؤسساتنا التربوية والتعليمة.

إشاعة ثقافة (علم الحكمة) بين الناس عبر المنابر والقنوات الإعلامية المتنوعة.

هذا آخر ما توصل إليه الباحث في دراسة (الفكر التربوي) في (المأثور النبوي)، (وأثره في إعادة صياغة الإنسان)، باستيلاد (علم الحكمة) لعلنا نصل إلى الخير الكثير: «يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ»[1] صدق الله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) القرآن الكريم، سورة (البقرة) آية (٢٦٩).

موجبات التعايش السلمي في الرسالة المحمدية

السيد عبد الكريم الجزائري
باحث وكاتب إسلامي - العراق

السيد عبد الكريم الجزائري
باحث وكاتب إسلامي - العراق

بسمه تعالى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلائق أجمعين محمد وآله وأصحابه المنتجبين وبعد:

فإن الحديث عن التعايش السلمي في الإسلام بعد أربعة عشر قرناً من الزمان على بعثة خاتم الأنبياء برسالته التي أراد لها عز وجل أن تكون خاتمة الرسالات يبدوأمراً غريباً، خاصة وأن أهل الإسلام والمؤمنين بدعوته أصبحوا بحاجة إلى الرجوع إلى للمربع الأول والسقف الأدنى فيما بينهم، لا بينهم وبين غيرهم من أهل الديانات والأمم الأخرى.

من المؤسف حقاً أن يضطر المخلصون من أبناء الأمة لبحث موضوع التعايش السلمي في الإسلام، ليعرضوه على أبناء دينهم علّهم يستجيبوا لنداء الرسالة التي يؤمنون بها، ويتعرّفوا على سلميتها وروحها السمحاء من أجل حقن دمائهم، وإخماد النار التي اشتعلت فيما بينهم في كل مكان، حتى باتت تهدد وجودهم، فالإسلام اليوم يُحارَب بـ (الإسلام).

بعد أربعة عشر قرناً من بعثة سيد المرسلين كان من المفروض أن يتباحث علماء الأمة سبل تقوية وحدتها، ووسائل تسريع عجلة رقيّها واستثمار إمكاناتها الوفيرة لاستكمال أجواء سعادتها وكيفية إيصال نداء وروح الرسالة العظيمة إلى أبعد زاوية من زوايا العالم.

إنّ الظرف المؤسف الذي تمر به الأمة الإسلامية وظاهرة التشرذم والتقاطع وإباحة الدم المسلم بفتاوى التكفير، وبث روح الطائفية البغيضة، يجعلنا مضطرين للرجوع إلى ألف باء الإسلام من جديد.

ما يجري اليوم على الساحة الإسلامية والعربية منها بالخصوص وعلى الساحة العراقية بشكل أخص يرسم علامة استفهام كبيرة جداً بحجم الشروخ الحاصلة في البناء الإسلامي، وحمراء بلون الدماء المسلمة البريئة التي أُريقت بإيدي إسلامية، ومفاد علامة الاستفهام هذه: لماذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه؟ وماذا كان دور العلماء المسلمين؟، وأين كانوا؟ وماذا عليهم أن يفعلوا لإيقاف الزلزال الذي أصبح يهدد الإسلام والمسلمين؟، ولماذا جنح البعض منهم ليكون مشرّعاً للقتل واستباحة الاعراض والاموال والمقدسات؟.

وعندما تطل علينا ذكرى المولد النبوي الشريف وهي تحمل معها عبق الرسالة الخالدة والخاتمة، والروح الانسانية العليا التي رسمت ملامحها ريشة الخالق العظيم نتذكر ذلك العطر، ونشتاق لتلك الانفاس الالهية ونتوق لروح الاخوة والمحبة ونحاول، أن نفهم الدنيا إننا أتباع رجل الأنسانية الاول محمد ﷺ، وأن ما يجري مخالف وناشز وليس له دين ناهيك عن كونه ينتمي للرسالة الإسلامية السمحاء.

ونحن اذ نتقدم بالشكر الجزيل الى المشرفين على مؤسسة شهيد المحراب على تنظيمهم لمؤتمرالرسول الاعظم العلمي السنوي نقدّم هذا البحث المتواضع بين يدي المؤتمر لتكون لنا مساهمة في عملية الدفاع عن الاسلام ونبيه المصطفى ﷺ الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

تعريف التعايش السلمي: عرّفته السياسة الدولية بأنه قيام تعاون بين دول العالم، على أساس من التفاهم وتبادل المصالح الاقتصادية والتجارية، حيث ظهر هذا المصطلح بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلى معسكرين متقابلين.

التعايش السلمي في الإسلام: صحيح أن الباحث لا يجد هذا المصطلح في الآيات ولا في الروايات، ولكن الصحيح أيضاً أنه يجد فيها روح الإنسانية العليا، بما تحمل من محبة وسلام وتسامح وإلفة وإيثار وعطاء وخير، فتعاليم الإسلام الحنيف ترسم حياة كاملة للإنسانية تسود فيها معاني السلم والسلام، والتعايش المتماسك والمتعانق في أعلى درجاته، حيث تتناغم فيها المشاعر الإنسانية الطيبة وتتلاقح وتذوب الانتماءات على اختلافها واختلافاتها، وتموت فيها العداوات إذ لا تجد لها مَن وما يغذيها «فَإِذَا

﴿الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. ومن هنا تجد فرقاً شاسعاً بين خارطة الحياة التي رسمها الإسلام الحنيف بحنانه وروحه الطيبة وبين التعَايش السلمي الذي عرّفته السياسة الدولية، فهوفي الإسلام شامل كامل عامر بالمشاعر الإنسانية الخيرة، أما في السياسة الدولية فهوجزئيٌ لا حياة فيه إلاّ فيما يرتبط بمصالح الأطراف الاقتصادية والتجارية بعد أن عصفت الحرب بعلاقاتها المختلفة وخلّفت انهاراً من الدماء وبراكيناً من الاحقاد اذ كادت أن تتوقف الحياة بسببها، ولهذا لا تجد للنواحي الإنسانية فيه من نصيب.

هذا بالإضافة إلى الفارق الزمني بين الاطروحتين، والذي يمتد إلى ألف وأربعمائة سنة، حيث سبق الإسلام بإطروحته الأطروحة الدولية.

ومن هنا فإنّ إطلاق مصطلح التعايش السلمي على خارطة الحياة الإنسانية الشاملة التي جاء بها الإسلام الحنيف مجازٌ وتجوّزٌ ومحاكاة للمصطلحات العصرية، وإلا فالبون شاسع كما قدّمنا.

ويمكن تقسيمَ (التعايش السلمي) في الإسلام إلى قسمين:

الأول: التعايش السلمي مع الأديان الأخرى: لقد أكد القرآن الكريم في خطابه لأهل الكتاب من الديانات التي سبقت الإسلام على ضرورة الرجوع إلى التوحيد، جمعاً للكلمة، وإشعاراً بالانتماء الواحد للخالق العظيم، فلا معنى للخلاف ولا وجود له ما لم يخالف الناس التوحيد فيشركون بالله عز وجل، فالشرك بالله واتخاذ البعض للبعض الآخر أرباباً من دون الله هوسبب فرقة الناس وتناحرهم، وإشاعة الحقد والبغضاء فيما بينهم، وإراقة الدماء وإباحة الأموال والأعراض، قال تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون»(٢).

فالآية الكريمة دعت إلى المحافظة على التوحيد، وعدم اتخاذ الناس أرباباً من دون الله لتبقى الإنسانية أمةً واحدة، ثم إنّ الآية الكريمة تخاطب المسلمين وتطلب منهم في حال توليّ أهل الكتاب وعدم استجابتهم لدعوة المسلمين بضرورة التمسك

---

(١) فصلت ٣٤

(٢) آل عمران: ٦٤.

بالتوحيد، وأن يقولوا لهم بكل وداعة ومحبة داعينهم للشهادة لهم بأنهم مسلمون، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فقد أكد القرآن الكريم على الإيمان بالرسالات والكتب السماوية السابقة، وانها من قبل الله أنزلها على أنبيائه عن طريق الوحي المقدس، كما يؤكد القرآن أيضاً على الإيمان بجميع الرسل الذين سبقوا نبي الإسلام محمد ﷺ، ولا يجوز التفريق بينهم، بل كلّهم مقدسون لدى أهل الإسلام.

فالخطاب القرآني جاء ليقرر أنّ هذا الإيمان يبدأ بنبي الإسلام ويتمدد على كل المؤمنين، وليست القضية جزئية يمكن أن يؤمن بها بعض دون آخر، بل هي من ضروريات الإسلام، ولا يصح الإسلام بدونها، قال تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحدٍ من رسله..»(١).

إن الإيمان واحد لا يتجزأ، لأن أساسه الإيمان بالله، ومن يؤمن بالله لا بد أن يؤمن بكل أنبيائه ورسله والرسالات التي أرسلها، وعليه فإنّ نظرة المؤمن بالله لأهل الكتاب وأتباع الديانات الإلهية الأخرى هي نظرة احترام ومحبة، لأنه يأخذ من نفس المصدر الذي أخذوا منه وإن لم يدخلوا الإسلام، حيث تُرك لهم الخيار بين الدخول للإسلام وبين البقاء على دينهم كما هومفصل في مجاله.

وفي هذا المجال هناك شاهد تاريخي على هذا التعايش السلمي منذ صدر الإسلام، وعلى يد نبيِّ الإسلام ﷺ، إذ أنه كتب وثيقة التعايش بين المسلمين واليهود الذين كانوا يسكنون المدينة بعد أن هاجر لها المسلمون، ودخل الكثير من أهلها في دين الإسلام.

الثاني:ـ بين الشعوب والقبائل: لقد جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى: «يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إنّ الله عليم خبير»(٢).

والشعب: ما تشعب من قبائل العرب، وجمعه شعوب، ويُقال العرب شعب

---

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

والموالي شعب والترك شعب وجمعه شعوب، وهذا ما ورد في قاموس العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.

وتحصل منه أنّ المراد من الشعوب في الآية كل شعوب العالم على مختلف قومياتها وبلدانها، وليس الامر محصوراً بشعوب معينة.

أما القبائل، فقد وورد في القاموس المحيط في اللغة للصاحب بن عباد في معرض بيانه لمعنى قبيل: «كلّ جيلٍ من الناس والجن: قبيل».

ومن المعلوم أن مؤنث قبيل قبيلة وجمع قبيلة قبائل.

ومن هنا يظهر بوضوح أنّ القرآن أراد بالقبائل جميع قبائل بني البشر، ولم يرد به قبائل العرب أوغيرها فحسب.

إنّ الآية الكريمة أكدت لجميع الناس وبلسان عام»يا أيها الناس»انهم مخلوقون له جميعاً، فهم خلقةُ على حدٍّ سواء ولا فرق بينهم، ثم أردفت لهم حقيقة ثانية مهمة جداً هي الأخرى، وهي أنهم جميعاً من آدم وحواء اي إخوة، ولا شك أن للأخوة حقوقها بين بني البشر «وخلقناكم من ذكرٍ وأُنثى».

أما إذا كان المراد من الآية أنهم مخلوقون بنفس السبب؛ وهواجتماع ذكر وأُنثى، فإنّ ذلك يؤكد أنّهم متساوون من هذه الناحية علاوةً على كونهم من نوع واحد يعود بالنتيجة إلى اب واحد وأم واحدة، وهذا لا يفرق عن سابقه بترتب الحقوق لبعضهم على بعض، وانّ لا فرق بينهم ولا مجال للتفاخر الذي يؤدي إلى الاختلاف والتباعد والتباغض ومن ثم إلى التناحر.

قال صاحب الميزان في تفسير القرآن: «فالآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب وعليه فالمراد بقوله «من ذكر وأُنثى»آدم وحواء والمعنى إنّا خلقناكم من أب وأم تشتركون جميعاً فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والأعجمي وجعلناكم شعوباً وقبائل مختلفة لا لكرامةٍ لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فتستقيم مواصلتكم ومعاملاتكم فلوفرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انفصم عقد الاجتماع وبادت الإنسانية»(١)

كما ورد بمعناه قول العلامة الألوسي في تفسيره للآية حيث قال: «لتعارفوا»علّة

---

(١) الميزان: ج١٨ صـ١٧٢.

للجعل اي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً فتصلوا الارحام وتبينوا الأنساب والتوارث لا لتفاخروا بالآباء والقبائل».

ووفق ما تقدم فإنّ الدين الإسلامي رسم للإنسانية خارطة التعايش السلمي، بل انّه عالج ما من شأنه إثارة المشاكل والنعرات والتفاخر وتحويل الإنسانية إلى شعوب وقبائل متفاخرة متناحرة، يأكل القوي فيها الضعيف، بل اكّد لهم إخوتهم الإنسانية فهم مخلوقون لربٍّ واحد، ومن اب وام محدودين معروفين، ليثير بهم روح المحبة والألفة والتسامح والتعاون على امور الحياة، وتقاسم حلاوتها ومرارتها.

موجبات التعايش السلمي في الإسلام:

اتضح فيما سبق إنّ الإسلام الحنيف يضمن للناس جميعاً حياةً طيبة، يسودها الأخاء والمحبة، وأنّ تعاليمه قد عالجت اسباب التقاطع والتشنج سواء على مستوى الاختلاف في الدين أوالاختلاف في القومية، وهنا نحاول أنّ نبيّن أنّ التعايش السلمي والتعامل مع الآخرين بروح إنسانية عالية لهي من الواجبات الشرعية الأساسية في تحديد الهوية الدينية للإنسان اوالفئة لذا فهي مصالح مهمة للفرد والطائفة والقومية.

ونقسم هذه المصالح إلى قسمين:

القسم الاول: المصالح الخاصة:

وهذه المصالح غاية في الأهمية سواء للفرد المسلم اوإلى أهل هذا المذهب أوذاك المذهب، إذ انها تمثل غايات رئيسية يطمح لها المسلمون، وهي:

١ - إن يكون الانتماء للإسلام إنتماءً حقيقاً: لاشك أن هذا الأمر ينشده كل من له مسكة عقل، وإلا ما جدوى انتمائه واعتناقه الإسلام إذا كان ظاهرياً قشرياً لا حقيقة ولا أثر له في عالم الآخرة، بل أنّه سيكون منافقاً يظهر أمراً لاحقيقة له، وهذا كما يصدق على الفرد يصدق على أهل الطائفة أوالمذهب.

إنّ مسألة الانتماء الحقيقي للإسلام لا يمكن ضمانها من خلال القدرة على الدفاع عمّا يعتقده الإنسان المسلم أوأهل المذهب، ولا بكثرة المدعيات وامتلاك وسائل الإعلام والترويج الواسع لما يتبناه، ولا بعدد التابعين له، ولا بالإمكانات المادية سواء منها الاقتصادية أوالعسكرية، فالضمانات ليست من وضع الإنسان اوالجماعة، بل انها

تعاليم رسمها الدين العظيم محدّداً من خلالها ملامح أتباعه الحقيقية، وهذه الملامح:
منها:

(أ): أن يسلم الناس من يده ولسانه: أن هذا المبدأ الالهي لووضع على كل جراحات الإنسانية لبرأت، ولووضع على جيوبها لامتلأت، ولووضع على بطونها لشبعت، ولووضع على مشاكلها جميعاً لحُلّت، وليجرب أي مجتمع من المجتمعات هذا المبدأ الإنساني العظيم، فلا شك انّه سيجد فيه غاياته وسعادته، فعندما تُكفُّ الألسن والأيدي عن الإيذاء مطلقاً صغيره وكبيره، ماذا سيحدث؟ يقيناً سيتعافى كلُّ شيء لإن سبب اعتلال الإنسانية الرئيس هوالألسن والأيدي.

وهل توجد وسيلة للتعايش السلمي أفضل وأتم وانجح من أن يكف البعض ألسنتهم وأيديهم عن البعض الاخر، مهما كانت انتماءاتهم ومذاهبهم؟ وهل يمكن توفير أمانٍ أفضل مما ينتجه تطبيق قول سيد المرسلين محمد ﷺ الذي جعل كفّ اللسان واليد عن الاذى شرطاً في حقيقة الانتماء إلى دينه الحنيف «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»[1].

ما أعظمك يا رسول الله؟ وما أعظم دينك، فأنت تأبى ودينك يأبى أتباعاً يتعرضون لغيرهم بالأذى، فالمسلم الحقيقي الذي تريد هومن سلم الناس من يده ولسانه، ولفظة (الناس) في الحديث الشريف جاءت مطلقة لا يقيدها قيد ولا تصرف إطلاقها قرينة، أي سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين.

وبعد هذا هل توجد مصلحة فردية اومذهبية للمسلمين أهم من أن يضمنوا انّهم على الإسلام أوانهم مسلمون حقيقيون؟، وإذا أردنا أن نطبق هذا المبدأ على واقعنا الإسلامي فكم يبقى في دائرة الإسلام وكم يخرج؟، فالأمر مخيف وعلينا اولاً أن نطبقه على أنفسنا لنكون كما أرادنا الله ورسوله.

(ب): أن يهتم بإمور المسلمين: فالحديث النبوي يقول: «من أصبح لا يهتم بإمور المسلمين فليس منهم، ومن يسمع رجلاً ينادي[ياللمسلمين] فلم يجبه فليس بمسلم»[2].

---

(١) بحار الانوار ج٧٥ صـ٥١.

(٢) بحار الانوار ج٧٤. صـ٣٣٩.

وهذه صفة أخرى-تحدد ملامح الشخصية المسلمة الحقيقية سواء الفردية أوالمذهبية والفئوية، وخاصة ونحنْ نأمل اليوم ونتحرق على أن نوجد تعايشاً سليماً بين المسلمين بعد أن سالت الدماء ايَّ مسيل، وهدمت البيوت وانتهكت الأعراض أليس من الواجب أن يزن المسلمون أنفسهم وفق هذا الحديث ليطمئنوا على إسلامهم وانتمائهم له؟.

(جـ): أن لا يظلم المسلم ولا يشتمه ولا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله: فقد ورد عن نبي الإنسانية حديثان منفصلان يجمعان هذه الشروط في المسلم الحقيقي والتي عبّرت عنها اللاءات الخمس.

فالحديث الاول يقول: المسلم اخوالمسلم لا يظلمه ولا يشتمه[1].

والحديث الثاني يقول: المسلم اخوالمسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله[2].

هذه الملامح وهذه الشرائط للشخصية الإسلامية يجب عرضها على الامة صباحاً ومساءاً، في كتب التربية الإسلامية في المدارس، وفي المساجد، وفي الصحف والمجلات، وفي الإذاعات المرئية والمسموعة، وفي كل وسيلة اعلام اخرى ليفقهوا أسلامهم، ويتعلموا كيف يحسنون انتماءهم لدينهم، وإلا فهم في خطر عظيم، اذ أن مصلحتهم الاولى ضائعة وهم ربما لا يعلمون.

وحتى لا نترك حجة لمن يحاولون تبرير أفعالهم واجرامهم بحق المسلمين بمبررات خائبة واهية معروفة نقول لهم: إنّ كفّ الأذى باللسان واليد عن المسلمين وغيرهم شرط في الإسلام هذا أولاً، وثانياً أن الرسول الكريم ﷺ قال: الإسلام، أن تسلم وجهك لله عزوجل وان تشهد أن لا اله الا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ.[3].

وعليه فإن سمات المسلم ما ذكرها الحديث النبوي لا ما يضيفه أهل هذا المذهب اوذاك حسب الدواعي الطائفية المقيته، وبعده لا يبقى مجال لمن يكفرون المسلمين ويستبيحون دماءهم.

---

(١) كنز العمال: خ ٧٤٥.

(٢) كنز العمال: خ ٧٤٧.

(٣) كنز العمال خ ٣٩.

٢- الحصول على الاخيرية عند الله: وهذه مصلحة أُخرى يطمح لها كل مسلم، عاقل، اذ انّ الاخيرية عند الله تعالى تعني درجة من درجات القرب الإلهي وهي في الواقع منتهى رغبات العارفين، وقد لخّص رسول الله ﷺ كيفية الوصول إلى هذه المنزلة الرفيعة بقوله «خير الناس من نفع الناس»، علماً أن النفع هنا مطلق والناس كذلك مطلقة، وعليه فمن يريد أن يكون خير الناس عند الله تعالى لا بد أن يكون نافعاً لكل الناس، وان يمد يد العون والمحبة والتسامح لجميع أفراد المجتمع الذي يعيش فيه دون فرق بين مسلم وغيره.

وانّ السعي لتحقيق هذه المصلحة للفرد اوللجماعة انما هوسعي فعّال في تحقيق التعايش السلمي بين أفراد المجتمع وفئاته المختلفة، وبصمة واضحة جلية من بصمات الدين الحنيف في إشاعة حسن التعامل بين أفراد المجتمع الإنساني.

٣- البقاء والاستمرار: قال تعالى في كتابه العزيز «أنزل من السماء ماءً فسالت اوديةٌ بقدرها فأحتمل السيلُ زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ يلبسونها اومتاع زبدٌ مثلهُ كذلك يضرب الله الحق والباطل فأماّ الزبدُ فيذهب جُفاءً وأما ما ينفعُ الناس فيمكث في الارض»(١).

لا شك أن من المصالح الخاصة والمهمة هي مسألة البقاء والاستمرار، اذ انّ الدنيا بأهلها وأحيائها الاخرى تعيش حالة الصراع، ولوراجعنا تاريخ الإنسان ونظرنا إلى واقعنا الحالي لوجدنا الصراعات البشرية في كل مكان وزمان.

انّ الصراعات البشرية بمختلف أسبابها انما هدفها البقاء والاستمرار، فالمصالح الاقتصادية التي هي على رأس قائمة أسباب الصراع العالمي التاريخي انّما هدفها الاستحواذ على المزيد من موارد الأرض وإمكاناتها، والسعي لإجبار الاخرين وخاصة الضعاف على رفع أيديهم والتنازل عن مواردهم وهكذا، اذ أن الشعوب الفقيرة تحاول مع الأيام جمع قواها لاستعادة مواردها لكي تعيش حياة كريمة.

وهكذا تستمر الصراعات بين الأقوياء والضعفاء مرة، وأخرى بين الأقوياء أنفسهم كل ذلك من أجل البقاء والاستمرار.

لقد أسس الطغاة الظلمة والجبابرة أسلوب القوة والقتل والدمار من أجل

---

(١) الرعد: ١٧.

المحافظة على وجودهم واستمرار عروشهم، وذلك بعد أن خرجوا من دائرة احترام حقوق الآخرين في العيش الكريم، وحقهم في التصرف بأموالهم ومقدراتهم بما يخدم مصالحهم، حيث أعتبر الطغاة أنفسهم فوق غيرهم من البشر فأباحوا لأنفسهم أموال الاخرين ودماءهم واعراضهم.

ومع جميع الاحترازات التي أعدها الفراعنة والجبابرة للبقاء والاستمرار ذهبوا، وذهبت قوتهم، ولم يبق منها سوى ما كتبه التاريخ ولعنات الإنسانية التي تُصب عليهم كلما مرّ ذكرهم.

ومن هنا نفهم انهم أخطأوا السبيل لهدفهم، وركبوا مركباً أنقلب عليهم فأغرقهم، واغرق دولهم، فالسنن الإلهية اقتضت أن لا تبقى قوة الاّ قوة الله وقدرته، ولا سلطان إلا سلطانه.

اما السنّة الإلهية للبقاء والاستمرار هي سنّة: «وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ»، فالذي يريد البقاء والاستمرار عليه أن يتبع السنّة الإلهية لا أن يتوسل بالقوة الزائلة والفانية مهما عظمت ومهما بلغت امكاناتها وقدراتها درجة تمكنها من بسط نفوذها وتوسعة سلطانها.

ومن الغريب أن بعض أهل القرآن توسلوا بالقوة لبسط إرادتهم تقليداً منهم للطغاة والفراعنة، وهم يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ولم يلتفتوا إلى نداء الكتاب العزيز، وهويدلّهم على سنّة البقاء والاستمرار عند من خلق البدء والبقاء والاستمرار.

ومن الطريف ايضاً أن النفع هذا يأتي على إطلاقه، بإطاره الواسع الذي لا يخرج عن قدرة الإنسان وامكاناته حتى جعل ديننا الحنيف «الكلمة الطيبة صدقة»وهي مالا يعجز عنها أحد لأنها كلمة، بل أن القرآن الكريم أعطاها أبعد من ذلك حيث قال: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

كما ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى: «وما يكلّف الله نفساً إلا وسعها»، وكذلك إنّ ربّ الخلائق أراد هذا النفع لجميع خلقه وعباده على الإطلاق ايضاً، دون أن يحددها بالمسلمين أوغيرهم.

فالإسلام الحنيف يربط البقاء بالعمل النافع للناس مطلقاً، فهواذن يريد منفعة الناس

مطلقاً ويرفض مضرتهم رفضاً قاطعاً، ويربط الملك بالنفع فيقرر للإنسانية هذا المبدأ «العدل أساس الملك»، والعدل يعني أن لا تتجاوز على حدِّ إنسان من اي قومية اوبلد كان ومهما كان نوع هذا التجاوز.

وبعد هذه الحقائق التي مرت هل يبقى شك بانّ الإسلام دين التعايش السلمي، وانّ من لا يحترم أخاه الإنسان مهما كان دينه اوقوميته مطرود عند الله من ساحته، بعيد عن رضاه، محروم عن مدده وإعانته تعالى.

هذه أشارات اقتطفتها من الساحة السمحاء لديننا الحنيف، فأين نحن منها؟ وماذا استفدنا منها؟ وكم مقدار عملنا بها واعتمادنا إياها؟.

ثانياً: المصالح العامة:

إنّ مصالح الأمة هي الأخرى أمانة في أعناقنا، وسنُسأل عنها يوم القيامة عند ربٍّ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فلا بد من المحافظة عليها والعمل على تحقيق ما لم يتحقق منها، حتى تصل النوبة إلى وجوب التضحية من أجلها، كما هومبحوث في مجاله.

ولكن حتى من يعمل لمصالحه الشخصية اوالفئوية عليه العمل للمحافظة على المصالح العامة، بنفس الحماس والحرارة، لأن المحافظة على المصالح العامة ضمان للمصالح الشخصية والفئوية، فعند ضياع المصالح العامة للأمة تضيع المصالح الشخصية والفئوية، كما هوحال الأمة الإسلامية والعربية، فبعد أن تخلت دول العالم الإسلامي والعربي عن المصلحة العامة، انظروا إليها كيف بدأت تخسر مصالحها الوطنية، ولا شك أن هذا يجري حتى على الطوائف والمذاهب، فإنّ الذي يتجاوز على مصالح الآخرين، أويساعد على التجاوز عليها،اويسكت عنها يكون قد فتح باباً وأعطى المبررات للتجاوز على مصالحه هوايضاً، وكما قال الشاعر: إن حلقت لحيةُ جارٍ لك فأسكب الماء على لحيتك.

ونبي الإسلام يقول ﷺ: «المسلمون كالرجل الواحد إذا اشتكى عضوٌ من أعضائه تداعى له سائر جسده»[1].

ومن المصالح العامة المحافظة على قوة الأمة الإسلامية إزاء التحديات الخطيرة

---

(١) كنز العمال: خ ٧٥٩.

التي تواجهها، وذلك من خلال حفظ اللحمة الإسلامية، وإبعاد شبح التشرذم والطائفية البغيضة، والوقوف صفاً واحداً في مواجهة الأعداء المتربصين بالأمة، الساعين إلى خرابها واستعبادها، خاصة ونحن نرى الاعلام الغربي بين آونة وأخرى يدوس على مشاعر المسلمين بالاعتداء على الإسلام ونبيه العظيم ﷺ.

ومنها: حقن دماء المسلمين، والدفاع عنها، وعدم التسامح في إهدارها، فالمسلم كلّهُ حرام دمه وماله وعرضه، وادخار هذه الدماء للدفاع عن بيضة الإسلام ومصالحه وأبنائه.

ومنها: العمل على رفع المستوى الاقتصادي للأمة، وإعادة بناء بناها التحتية، والمحافظة على إمكاناتها ومقدراتها واستثمارها لمصلحة الأمة وأهدافها المشروعة، وعدم السماح بتسخيرها للصراعات الداخلية.

ومنها: نصرة الدين الإسلامي ورفع رايته عالية خفاقة، وعكس الروح الإنسانية العليا للإسلام ليستهوي القلوب، فهوالصدر الحنون والملاذ الآمن لكل إنسان ينشد الاطمئنان والاستقرار، وإذا تأخر الناس عن الدخول إلى ساحته، فذلك بسبب سوء تعاملنا نحن مع تعاليمه.

ومنها: توجيه شباب الامة باتجاه العلم والمعرفة، وتوفير الأجواء المناسبة للرقي والحضارة واللحاق بركب الامم، التي اعتاشت على حضارتنا، الاّ انها وللأسف سبقتنا، وبقينا نستجدي على ابوابها.

وهناك مصالح عامة اخرى تصيح بنا في كل أن، وتدعونا للاستجابة لنداء الحق، والابتعاد عن الإثارات، وعدم إعطاء فرصة للأعداء، فديننا دين الإنسانية والمحبة، وهذا الامام علي «عليه السلام» يرسم للدنيا علائقها فيقول: الناس صنفان إما أخ لك في الدين اونظير لك في الخلق.

محاذير ومخاطر الاستمرار على الوضع الحالي

إن الوضع الحالي الذي تعيشه الامة الإسلامية وبالخصوص العربية منها، يدق ناقوس الخطر في كل لحظة، مهدداً بمستقبل مخيف يكون الرابح فيه خاسراً، ومحذراً من تداعيات وخيمة مرة يضيع فيها كل شيء، ومن هذه المحاذير:

١- سيطرة العالم الغربي على مقدراتنا بشكل كامل، ومصادرة حقوقنا وحرياتنا

وإمكاناتنا.

٢- التوسع الصهيوني على حسابنا اينما وجدوا سبيلاً لذلك، وبقاء الشعب الفلسطيني المسلم يرزح تحت نير الغدة السرطانية البغيضة.

٣- اشتعال الحروب الاهلية بين الطوائف المختلفة حتى تصطبغ الارض وترتوي بدماء الابرياء.

٤- الاستفراد الغربي بمن يبدون الممانعة من المسلمين ضد محاولات الغرب الترويضية والاحتوائية دون موقف اسلامي واضح، ناهيك عن كونه قوياً، هذا اذا لم نجد من يؤازر الغرب على المسلمين كما هوحاصل مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية الآن، حيث تعيش حصاراً اقتصادياً خانقاً لإرغامها على التنازل والانسحاب عن مواقفها الحرة وحقوقها المشروعة، والتخلي عن مناصرة المسلمين.

٥- بروز فئات تكفيرية ضالة تنشر القتل والدمار باسم الإسلام.

٦- ظهور فئات تدعوإلى الردة والرجوع عن الدين، نتيجة للتجاوزات الكبيرة والجرائم البشعة التي ترتكب باسم الدين الإسلامي وشريعته السمحاء.

وأخيراً...

اشكر القائمين على هذا المؤتمر الكريم، وأرجوله من الله التوفيق في المساهمة الجادة في انتشال الأمة من وضعها المأساوي الحالي والله ولي التوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

الجينات والخلق العظيم للنبي الاكرم واهل بيته عليهم السلام

الدكتور طالب احمد جايد
كلية الزراعة - جامعة البصرة

الدكتور طالب احمد جايد

مسؤول مختبر الهندسة الوراثية/ جامعة البصرة

ورئيس الجمعية العراقية لعلوم الوراثة الجزيئية/ منظمة مجتمع مدني

دكتوراه من روسيا الاتحادية، ٢٠٠٤، التخصص وراثة، مدير مختبر الهندسة الوراثية، كلية الزراعة، جامعة البصرة. رئيس الجمعية العراقية لعلوم الوراثة الجزيئية، منظمة مجتمع مدني. عضو الجمعية الدولية للوراثة، أمريكا. مقيم بحوث في مجلات عالمية رصينة. نشرت اكثر من أربعين بحثا اكثر من نصفها باللغة الإنجليزية منشورة في مجلات عالمية رصينة

ان كثير من الناس عندما يقرأ هذه الكلمات دون قراءة الموضوع، سيقول أن هذا من الغلوفي النبي الاكرم ﷺ وخاصته في الكونين وهوعلي بن ابي طالب (عليه السلام)، ولكن عندما يستمر معنا في قراءة الموضوع سيجد أن هذا جزء قليل جدا بحق الاكرم ووصيه وهم بالفعل بحار العلوم وفيهم علم الاكوان ويجري منهم العلم كجريان الماء من السفح وإن الذي حدث عليهم ولا زال ما هوإلا محاولة لطمس هذا العلم المتوهج، النابع من الاعلى منذ وجد النور في كل مكان. إن علمهم الراسخ يعكس حجمهم ويعكس عمرهم الحقيقي والذي يتجاوز هذه الآلاف من السنين، بل هم العمر كله، لأنهم باتفاق العالمين هم الاعلم على مر العصور. إذن ما هوحجم اعمارهم؟ وهذا اعتراف ضمني أن اعمارهم تتجاوز تقديراتنا، بل تتجاوز حتى مخيلتنا وحقا علينا أن نعترف بوجودهم قبل الوجود، لأن الوجود كان عبارة عن نور وهذا النور هومحمد وآل محمد، اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد.

الوراثة والتأريخ

حققت العلوم التجريبية انتصارات رائعة في مختلف مظاهر الطبيعة. وبذلك كشفت اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت مجهولة لدى السابقين ولقدساير علم الأجنة والبحث عن الخلية التقدم العلمي في المجالات الأخرى في تكامله وتوسعه يوماً بعد يوم. لقد استطاع العلماء أن يفحصوا الموجودات الصغيرة بوساطة أجهزة عظيمة ومجاهر دقيقة، توصلوا أخيراً إلى أن منشأ ظهور الموجود الحي هووحدة صغيرة جداً تسمى الخلية، وهذه تتكامل تحت شروط معينة، وتظهر بصورة حشرة أوحيوان أوإنسان. إن اكتشاف هذا السر الدفين عقد قانون الوراثة أكثر، وأدى إلى توسع البحوث فيه والتساؤل عن أسرار هذه الخلية وكيفية تأثير عوامل الوراثة فيها

وأين تكمن؟ لقد صرف علماء الحياة وقتاً كثيراً خلف المجاهر المركبة في البحث عن أسرار الخلية. فإن المسألة كانت محاطة بمشاكل عديدة. فهم كانوا يواجهون الخلية من جهة وكيف أن هذا العضو المادي يحتفظ بخواصه الفيزيائية والكيميائية، ومن جهة أخرى كانوا يصطدمون بقوانين الوراثة التي أخذت تتضح حسب معادلات رياضية دقيقة تبعاً لقانون مندل.

فأين يكمن عامل الوراثة؟ وفي أي جزء من الخلية؟ وعلى أي الأعضاء يقع عبء هذه الظاهرة؟ أي جزء من السيتوبلازم وأي جانب من النواة يجعل الطفل يرث شكل أنف أمه وعيني أبيه. والصفة الفلانية من أجداده؟ وبعد الجهود العظيمة والتتبع الدقيق توصل العلماء إلى أن في الخلية نواة ذات جدار مرن توجد في داخلها أجسام صغيرة تظهر عند انقسام الخلية، ولقد أسموها بـ الكروموسومات. ولقد توصل كثير من علماء الحياة إلى معرفة أعدادها وأثبتوا أن كل خلية من خلايا جسم الانسان تحوي ٤٦ كروموسوماً، وخلية الفأرة ٤٠، والذبابة ٨، والحمص ١٢، والطماطم ٢٤، والنحلة ٣٢ وايضا توصلوا وبشكل تقريبي الى اعداد الجينات التي تضطجع اوتستقر في هذه الكروموسومات[1]

لطالما سعى باحثوعلم الاحياء الجزيئي وعلم التطور الجزيئي الى دراسة الاحماض النووية. ولقد خطا العلماء في تحقيقاتهم العلمية في هذا المضمار خطوة أخرى، فتوصلوا إلى أن في الكروموسومات أجساماً صغيرة جداً أطلقوا عليها فيما بعد اسم الجينات، وأثبتوا أن هذه الأجسام هي الناقلة للصفات الوراثية في الحقيقة. أن الشيء المميز في هذا الموضوع اومسك الختام في الحقيقة التي توصلوا لها هواسم هذه الجزيئة وعددها وكيفية انتقالها وكيف تسود. وهذا الاستنتاج الذي وصلوا اليه اوالحقيقة التي وصلوا إليها كم استغرقوا من الوقت وكم جيل عمل بهذا الموضوع وكم آلة اكتشفت اوابتكرت وكم مشروع علمي وضع وما هوحجم الميزانيات التي صرفت من اجل الوصول الى هذه الحقائق الاربعة. الوقت هوأكثر من اربعة آلاف

---

(١) تاريخ علوم ص،٧٠٧ تأليف بي يروسوترجمة حسن صفاري وهوكتاب قيم طبع سنة(١٩٥٤ م للمرة الخامسة والستين باللغة الفرنسية عدا الترجمات إلى اللغات الأخرى. نقلا عن كتاب الوراثة والطفل، محمد تقي فلسفي، ترجمة فاضل الميلاني.

سنة، قبل وبعد الميلاد والأجيال كثيرة جدا والعلماء ايضا حجمهم العددي كبير وثقلهم النوعي عظيم، فقد بدأ فلاسفة الإغريق بدراسة هذا الموضوع وأول نظرية جاء بها العالم والفيلسوف الاغريقي فيثاغورس (٥٠٠ سنة قبل الميلاد) الذي اعتقد أن جميع اجزاء الكائن الحي تنتج ابخرة وتتحد ابخرة كل فرد في كلا الجنسين لتكوين فرد جديد. وبعد فترة اوضح الفيلسوف ارسطوطاليس نظرية الصفات المكتسبة وأشار الى أن الآباء المشوهين ينتجون احيانا ابناء مشوهين وأضاف أن الابناء في بعض الاحيان يشبهون اجدادهم بدلا من آبائهم وبهذا وبلا اي فكرة عن ميكانيكية الوراثة وضع ارسطوا يده على ظاهرة التنحي الوراثية. وتطورت الوراثة بعد الميلاد على يد مجموعة من العلماء منهم العالم السويدي كارل فان لين (١٧٠٧-١٧٧٨) حيث قام بتصنيف الحيوانات والنباتات نظاميا واتى بعده آراسموس داروين (١٧٣١-١٨٠٢) وهوجد العالم جارلس داروين. ويعتبر آراسموس داروين من المساهمين في نموفكرة التطور للكائنات الحية، وبعدها جاءت المدرسة الالمانية (١٧٧٠-١٨٥٦) وسميت هذه المدرسة بمدرسة فلاسفة الطبيعة ومن اهم علمائها هوالعالم هينشل وكان يؤمن بان الكون هوعبارة عن وحدة واحدة. وبدأت الابحاث تأخذ طريقا جديدا من اجل فك شفرة اساس الوراثة، إذ ألف العالم جون دالتون كتابه المعروف بعنوان النظام الجديد للفلسفة الكيميائية وتطرق في كتابه الى المكونات الحيوية واجزائها وقال أن المادة تتكون من ذرات وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحياة وهي مرحلة التكون الجزيئي. وساعدت هذه الاطروحات العالمين شلايدن وشوان أن يكتشفا بان الكائنات الحية تتكون من خلايا وهي الوحدة الاساسية لتكوين اعضاء الجسم واستمرت اكتشافات الخلية الى جاء وقت اكتشاف اعمال مندل (١٩٠٠) ودور النواة في التلقيح والكروموسومات وفي حينها اميط اللثام وبشكل رسمي عن الوراثة وكيف تنتقل وعن ظاهرة السيادة والتنحي. ومن أحد استنتاجات مندل أن هناك شيئا مسؤولا عن نقل الصفات من الآباء الى الابناء وعجز عن معرفته وبالتالي اسماه بالعامل (Factor).

في عام ١٨٦٦ استطاع مندل توضيح نتائجه التي جمعها في السنوات السابقة، ولكنها أهملت حتى بداية عام ١٩٠٠ حين اكتشف العلماء أهمية تلك التجارب بعد وفاته. وقد عمل مندل في وقت لم تكن الصبغيات أوانقسام الخلايا قد عرفت بعد،

ومع ذلك فقد أعطى تفسيرات تتطابق مع ما يتوافر حالياً من معلومات عن آلية التوارث، وقد استخدم مندل نبات البازلاء في تجاربه. وكذلك عجزوا عن معرفة اوحتى التفكير بأعداد هذه العوامل وكيف تتوارث. وباكتشاف هذه القوانين بدأ عصر جديد من التطور وبدأت التجارب تجرى على النباتات والحيوانات، لكن المشكلة التي كانت تواجه العلماء في ذلك الحين هي ما اسم هذه الجسيمة التي تنقل الصفات وكيف تعمل الى أن جاء العالم الدانماركي جوهانسن عام ١٩٠٩ وأطلق كلمة الجينات (Genes) على الوحدات الوراثية اوالعوامل التي ذكرها مندل (الشكل رقم ٢) [١].



الشكل (٢) يوضح مواقع الجينات في نواة الخلية الحية

---

(١) الوراثة، جامعة الموصل، دبدوب والملاح، ١٩٩١.

لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماماً فيما مضى، بل كانوا يجهلون خصوصياتها، إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة ونواة الشجرة ونطفة الانسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة. إن ما اكتشفه علماء الوراثة اليوم، وتوصلوا إليه بأبحاثهم الدقيقة من وجود موجودات صغيرة داخل الكروموسومات تنقل الصفات الوراثية والتي أسموها (الجينات) ليس أمراً جديداً كل الجدة. فالرسول الأعظم والأئمة الطاهرون ﷺ، الذين كانوا يكشفون الحقائق بنور الوحي والإلهام لم يغفلوا أمر هذا القانون الدقيق. بل أشير إليه في بعض النصوص وأطلق على عامل الوراثة فيها اسم (العرق). وبعبارة أوضح: فإن المعنى الذي يستفيده علماء الوراثة اليوم من كلمة (الجين) هونفس المعنى الذي استفادته الأخبار من كلمة (العِرق) وعلى سبيل المثال نذكر بعض تلك الروايات.

فهذا محمد بن الحنفية ابن الامام علي عليه السلام كان حامل اللواء في حرب الجمل فأمره الأمام علي عليه السلام بالهجوم فأجهز على العدو، لكن ضربات الأسنة ورشقات السهام منعته من التقدم فتوقف قليلاً. وسرعان ما وصل إليه الامام وقال له: «إحمل بين الأسنة»فتقدم قليلاً ثم توقف ثانية، فتأثر الامام من ضعف ابنه بشدة فاقترب منه وضربه بقائم سيفه وقال: أدركك عرق من أمك [1]. فهنا يثبت الامام عليه السلام أن الجبن الذي ظهر واضحاً في ابنه محمد ليس موروثاً منه عليه السلام لأنه لم يعرف للجبن معنى قط، فلابد وأن يكون من أمه، لأنها لم تكن من الفضيلة بدرجة تكون معها بمنزلة الصديقة الزهراء عليها السلام. وبهذا اثبت الامام وبشكل علمي نظرية السيادة والتنحي واراد بذلك أن يوضح لأبنه محمد أن العروق التي عندك جاءتك من أمك والتي كانت عبارة عن اليلات متنحية ولوأن هذه الجينات اتت من الامام لما جبن محمد بن الحنفية. كذلك اثبت بالدليل القاطع أن الذي ينتقل من الآباء الى الابناء هوالعرق، والعرق في كل المعاجم هوالجين وبالتالي فهوقد سبق الأولين امثال ارسطووجماعته وكذلك سبق المتأخرين امثال مندل وجوهانسن وموركان. الشيء الملفت بهذه المقطوعة الصغيرة للإمام هي انه عرف علم الوراثة كله إذ قال لأبنه هل أدركك عرق من الجاهلية؟ والمقصود هوانتقال العروق (الجينات) وكما عرف في الوقت الحاضر أن كلمة نقل تنطبق فقط

---

(١) تتمة المنتهى: ١٧

على الخلايا الجنسية، لأنها الوحيدة التي تنتقل واما المادة الوراثية الموجودة في الخلايا الجسدية فهي لا تنتقل، بل تتكاثر في مكانها محدثة النموبمفهومه العام، واما الخلايا الجنسية فهي لا تتكاثر في مكانها، بل عندما تريد التكاثر فأنها ترغب بالهجرة (الانتقال) الى المكان الجديد لها وهوقناة فالوب في داخل الجهاز التناسلي للأنثى، وهوبتلك العبارة اشار الى دور الخلايا الجنسية كونها مصدر النقل. ويكون أمير المؤمنين قد اختزل كل الزمن وكل المشاركات العلمية التي ساهم بها كثير من العلماء في كشف هذه الحقيقة. والأكثر من هذا إن الامير وضع يده على موقع الجينات وهي الخلايا الجنسية وان عملية انتاج الابناء ليست ابخرة تتطاير وتتحد معا من الاب والانثى كما وصفها اليونانيون القدماء. بل هي أعظم من ذلك، هي من اعقد عمليات الكون، ليست المسألة اتحاد فقط، بل إعداد عظيم لها من الآباء، فيها سينتج الفرد بإذن الله والمنتج سيعتمد على حسن الاخلاق للآباء. عن النبي ﷺ: أنظر في أي شيء تضع ولدك، فإن العِرق دساس. وحينما نراجع المعاجم اللغوية في معنى كلمة (دساس) نجد أن بعضهاـ كالمنجدـ يعلق على ذلك بالعبارة التالية: «العرق دساس أي: أن أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء». فهذا الحديث يتحدث عن قانون الوراثة بصراحة. ويعبر عن العامل فيها بالعِرق. فالنبي ﷺ يوصي أصحابه بألا يغفلوا عن قانون الوراثة بل يفحصوا عن التربة الصالحة التي يريدون أن يبذروا فيها، لكيلا يرث الأولاد الصفات الذميمة. عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق». وهذا الحديث يثبت إمكان اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجايا الفاضلة عنده. العلم الحديث لحد الآن عاجز عن تفسير هذا الموضوع وبالتالي لا يستطيع السيطرة على انتقال الجينات اثناء اتحاد الخلايا الجنسية، انظروا الى سيد الاكوان ماذا يقول في هذا الموضوع: عن أبي جعفر عليه السلام، قال: أتى رجل من الأنصار الى رسول الله ﷺ فقال: هذه ابنة عمي وامرأتي، لا أعلم منها إلا خيراً، وقد أتتني بولد شديد السواد، منتشر المنخرين جعد قطط، أفطس الأنف، لا أعرف شبهه في أخوالي ولا في أجدادي. فقال لامرأته: ما تقولين؟ قالت لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أقعدت مقعده مني منذ ملكني أحداً غيره قال: فنكس رسول الله رأسه ملياً، ثم رفع بصره إلى السماء ثم أقبل على الرجل فقال: يا هذا إنه ليس من أحد إلا بينه وبين أدم تسعة وتسعون عرقاً كلها تضرب في النسب،

فإذا وقعت النطفة في الرحم اضطربت تلك العروق وتسأل الله الشبه لها. فهذا من تلك العروق التي لم تدركها أجدادك ولا أجداد أجدادك خذي إليك ابنك. فقالت المرأة: فرجت عني يا رسول الله [١].

الرواية الثانية للحديث المذكور

عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي ﷺ، قال: أقبل رجل من الأنصار إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله هذه بنت عمي وأنا فلان إبن فلان... حتى عد عشرة أباء وهي بنت فلان حتى عد عشرة آباء. ليس في حسبي ولا حسبها حبشي، وإنها وضعت هذا الحبشي، فأطرق رسول الله طويلاً ثم رفع رأسه، فقال: إن لك تسعة وتسعين عرقاً ولها تسعة وتسعين عرقاً، فإذا اشتملت إضطربت العروق وسأل الله عز وجل كل عرق منها أن يذهب الشبه إليه، قم فانه ولدك ولم يأتك إلا من عرق منك أوعرق منها، قال: فقام الرجل وأخذ بيد إمرأته وإزداد بها وبولدها عجباً. إن خلاصة ما توصل إليه علماء الوراثة في العصر الحديث بالنسبة إلى انتقال صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة تنحصر في جملة أمور مذكورة كلها في هذين الحديثين:

أن النقطة الاساسية في الحديث هي أن الخلايا الجنسية وما فيها من جينات متنوعة، كلها تدعوا الله عند إضطرابها، أي عند وقت اتحاد الخلايا الجنسية الذكرية مع الانثوية. لأن في هذه الحالة تبدأ مرحلة التغلب (السيادة) بين الجينات وأي الجينات سيغلب الآخر؟ هذه العملية خارج نطاق قوانين الوراثة المطلقة، بل هي لا ترتبط لا من بعيد ولا من قريب بعلم الوراثة. هذا الجزء خاص برب العزة وقد اشار له النبي الاكرم بأن هذه العروق تسأل الله (تدعوا) الشبه لمن. ولكن بكل الاحوال فان الناتج سيكون نتيجة حتمية لأفعال الآباء. عن الامام أمير المؤمنين ﷺ (حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق) وهذا الحديث يثبت إمكان اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجايا الفاضلة عنده [٢]

يقول الامام علي بن أبي طالب ﷺ في الفضائل العائلية: «إذا كرم أصل الرجل

---

(١) وسائل الشيعة: ٥ / ١٢٨ باب أن الولد يلحق بالزوج.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم للامدي: ١٦٧ طبعة دار الثقافة في النجف الأشرف.

كرم مغيبه ومحضره»فمن كان ينتمي إلى نسب عريق في الفضائل كان ملازماً للصفات الخيرة في حضوره وغيابه وذهابه وإيابه. وكذلك قال ﷺ: «عليكم في قضاء حوائجكم بكرام الأنفس والأصول، تنجح لكم عندهم من غير مطال ولا من». ومن هنا يعلم أن الشرف العائلي في الأفراد يجعلهم يقضون حوائج الناس من دون آن يحملوهم مناً أويتماهلوا في ادائها. وروي عنه ﷺ أيضاً: «عليكم في طلب الحوائج بشراف النفوس ذوي الأصول الطيبة، فإنها عندهم أقضى، وهي لديهم أزكى كما يقول في مورد آخر: «حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق»فيستكشف عن حسن أخلاق الانسان شرافة طباع عائلته وكرم نفوسهم. وكقاعدة عامة يمكن أن نقول: إنه يجب البحث عن الأفراد الشرفاء من بين العوائل الشريفة والعريقة، فالأسر التي عرفت طوال سنين متمادية بالطهارة والتقوى، والتي خرجت من جميع الامتحانات في الحياة بنجاح باهر، لا بد وأن يبرز من بينها رجال شجعان يجاهدون في الصفوف الأولى دائماً، وكرام يمدون يد المعونة إلى الفقراء في أوقات الأزمة، ويقدمون ثروتهم بكل خلوص وارتياح للمحتاجين فيسلون بذلك قلوب المصابين ويكونون آباء عطوفين لليتامى، تملأ قلوبهم الرحمة والشفقة والخير والمحبة الناس.

الأسر المنحطة

وعلى العكس من أولئك نجد الأسر المنحطة التي لا تفهم معنى للشجاعة، ولا توجد كلمة الكرم والعفوفي قواميسهم، والذين لا يفكرون في شيء غير شهواتهم الدنيئة وأغراضهم الشخصية، تملأ قلوبهم الأنانية والاثرة، ولا يخلفون إلا أولاداً سافلين منحطين. يتضح هذا جلياً في اختيار الامام أمير المؤمنين ﷺ لفاطمة الكلابية (أم البنين) بعد وفاة ابنة عمه الصديقة الزهراء، إذ قال ﷺ لأخيه عقيل وكان عارفاً بالأنساب: «أخطب لي امرأة ولدتها الفحولة من العرب لأرزق منها ولداً يكون عوناً لولدي الحسين يوم عاشوراء... الخ»فإن الإمام ينظر إلى شجاعة الأسرة التي يريد أن يخطب منها زوجته لتنجب له ولداً شجاعاً. ولهذا نجد النبي ﷺ يحذر المسلمين في موضوع الزواج من اختيار الزوجة التي تنتمي إلى أسر منحطة سافلة مهما كانت جميلة فيقول: «إياكم وخضراء الدمن. قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال:

المرآة الحسناء في منبت سوء. ومن خلال العهد الذي بعث به الامام أمير المؤمنين ﷺ إلى مالك الأشتر النخعي (رض) حينما جعله والياً على مصر، والذي يعتبر أحسن العهود من نوعه.... نجد فقرات عديدة تشعر الاهتمام بأصالة النسب، كما في وصيته باختيار الأصحاب من العوائل الشريفة، وذلك قوله ﷺ: ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف. سأل المأمون العباسي بعض خواصه ومحارمه يوماً عن سبب ما يلاقيه من جفاء وخيانة وقلة إنصاف من بعض أصحابه وأقاربه الذين كان قد قلدهم مناصب عالية ورتب مهمة في الدولة، في حين أن المفروض أن يقابلوا إحسانه بالإحسان لا الاساءة، فقال له أحدهم: إن المعنيين بأمر الحمام الزاجل والمهتمين بتربيته يتحققون عن أصله وفصيله الذي ينتمي إليه وعندما يطمئنون إلى عراقة نسبه يهتمون بتربيته كثيراً ويجنون من ذلك فوائد كثيرة. «وأنت يا أمير المؤمنين تأخذ أقواماً من غير أصول ولا تدريج، فتبلغ بهم الغايات فلا يكون منهم ما تؤثره فمن الطبيعي أن لا يكون الأفراد المختارون لإشغال المناصب من دون امتحان ولا نظر في أصولهم وأحسابهم وأنسابهم، على حالة مرضية من حيث الاخلاص والأمانة والوفاء. إن الاسلام يرى أن في سلوك الآباء والأمهات تأثيراً كبيراً على سلوك أبنائهم الذين يرثون صفاتهم الصالحة أوالطالحة، ولذلك نجد القرآن الكريم يحكي على لسان نوح هذه الحقيقة الناصعة حيث يقول بعد أن يئس من هداية قومه طيلة ٩٠٠ عام«رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً«ولقد رأينا قبل ذلك بعدة صفحات كيف أن الامام أمير المؤمنين ﷺ يخاطب ابنه محمد بن الحنفية حينما ضعف عن التقدم«أدركك عرق من أمك؟

إن هذه الأخبار العلمية ينبغي ألا تمر علينا إلا ونتذكر آية أوحديثاً، وهذا هوحال المؤمن، في حالة ذكر دائم، فالذكر ليس مجرد أن نسبح الله أونحمده أونكبره فحسب، بل هناك ذكر من نوع آخر، كلما رأينا حادثة أوظاهرة أوخبراً علمياً تذكرنا قدرة الله تعالى وحكمته، وهذا هوحال المؤمن، ولذلك ينبغي علينا أن نحمد الله تعالى عندما نرى هذه العجائب، كما علمنا ربنا تبارك وتعالى عندما قال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [النمل: ٩٣].

التركيب الوراثي أوالنمط الجيني هوالتكوين الوراثي للخلية، الفرد، أوالكائن الحي. وهوعبارة عن مجموعة المعلومات الوراثية «المُشَفَّرة باطنياً»والتي يحملها كل كائن حي، أي مجموعة الجينات الكاملة الخاصة به والتي تحدد الكيفية التي تظهر عليها سماته أوخصائصه. فهذه المعلومات المُخَزَّنة تُستعمل كمجموعة من التعليمات لبناء الكائن الحي والحفاظ عليه وتشكيل سماته وخواصه الظاهرية.

يتواجد الجين المتحكم بصفة معينة بشكلين (أليلين). النمط الجيني يشمل التركيب الوراثي للأليل. مصطلح النمط الجيني عادةً يُستخدم للإشارة إلى التركيب الأليلي الخاص بسمة أوصفة واحدة معينة مع أنه قد يشير إلى مجموعة من السمات أوالصفات أولمجموعة السمات الكاملة، فالفرد يرث نسختين (أليلين) من كل جين من كل من الأبوين. ويتشكل النمط الجينى من زوج من الأليلات. من يرث أليلين متماثلين للجين، يُطلق عليه زيجوت متماثل ومن يرث أليلين مختلفين للجين، يطلق عليه زيجوت متغاير. وكل أليل يكون إما سائداً أومتنحياً. وبالاستناد إلى ذلك، هنالك ثلاثة أنماط جينية محتملة لأي سمة: زيجوت متماثل سائد AA، زيجوت متغاير Aa وزيجوت متماثل متنحي aa.

التركيب الوراثي Genotype يمت للتركيب المظهري Phenotype بصلة، إذ أنَّ هذا الأخير هوالتكوين الظاهري الفيزيائي الناتج عن ترجمة واستخدام التركيب الوراثي -المعلومات الوراثية المشفرة -بواسطة الآلات الجزيئية في الخلايا. يتباين مدى تأثير النمط الجيني على النمط الظاهري: بعض جوانب النمط الظاهري تتحدد كليا بالوراثة، مثل لون العينين وفئات الدم. اللغة هي حالة مثيرة للاهتمام. القدرة على تعلم لغة والتكلم بها هوأمر وراثي تماما. أما أي لغة يتكلم بها الفرد هوأمر مكتسب كليا، وبالتالي يُعد بيئياً.

حسن الخلق

حسن الخلق هوالمعنى الذي بحثت عنه البشرية كثيرًا، وتطلعت إليه منذ ظهور الفلاسفة في القديم، وتخيلوا أن يسود هذا المعنى، فكتبوا مثلاً عن (المدينَة الفاضلة)، ولما بدا لهم أنها حُلم مستحيل، اكتفى العالم الآن أن يسمِّي هذا المعنى بـ الإنسانية.

ولفظ الإنسانية في المعنى الغربي يقترب في القاموس الإسلامي من معنى «الرحمة، والرحمة كلها ليست إلا جزءًا من حسن الخُلق في الإسلام؛ لأنه أعم من ذلك، فمنه الصبر واحتمال الأذى ومساندة الحق، يقول الحارث المحاسبي: «ومن علامة حسن الخلق احتمال الأذى في ذات الله، وكظم الغيظ، وكثرة الموافقة لأهل الحق على الحق، والمغفرة والتجافي عن الزِّلَّة. بل الإمام الغزالي يقول: «وليس حسن الخلق كف الأذى، بل احتمال الأذى»[1]

الخصائص والصفات الخلقية

لا تقتصر الوراثة على الخصائص والصفات النفسية والعقلية، التي تنتقل بصورة مباشرة أوغير مباشرة، بل تتعداها الى الخصائص والصفات الخلقية والسلوكية، إمّا بالمباشرة وإما بخلق القابلية والاستعداد للاتصاف بها، وقد يصعب تشخيص الوراثة عن المحيط في أجواء الاسرة، فالطفل ينشأ ويترعرع في ظل الخصائص والصفات الخلقية التي يتصف بها والداه أوأحدهما بالتقليد وبالمحاكاة.

وقد دلت الدراسات الحديثة على هذه الحقائق، وتنسب الى ديوجن هذه الكلمة حين التقى بأبْلَهٍ: (يا فتى كان أبوك سكران حين حملت بك أمك. وكتب الطبيب الفرنسي Le Grand: أنّ أولاد السكيرين يشكلون متحفاً للأمراض، من سوء نموالجهار العظمي، ومن السل الى الصرع الى الهستيريا، ومن ضعف الملكات العقلية وانحلالها تماماً الى ميول أخلاقية فاسدة واستعداد عجيب للإجرام). ويسوق الباحثون في علم النفس والتربية أمثلة على تأثير الوراثة على الخصائص والصفات الخلقية، ومنها دراسة عائلة كالليكاك حين كان جندياً في عهد الثورة الأمريكية حيث اقترن مع فتاة ضعيفة العقل كانت خادمة في خان، ثم اقترن عن طريق زواج شرعي بفتاة مدنية ذات ذكاء سوي تزوجها بعد عودته من الحرب. ففي السلسلة الناتجة عن زواجه الشرعي لوحظ أنّ السواد الأعظم من نسله كان سوياً امّا في السلسلة الثانية التي نشأت عن علاقة كالليكاك بفتاة الخان، فقد لوحظ عدد كبير جداً من ضعاف العقول ومدمني الخمر والمومسات والمجرمين.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٣

يقول الدكتور كاريل: (ان سكر الزوج أوالزوجة حين الاتصال الجنسي بينهما يعتبر جريمة عظيمة، لأنّ الأطفال الذين ينشؤون في ظروف كهذه يشكون في الغالب من عوارض عصبية ونفسية غير قابلة للعلاج) [1]. ولكن لم يصلوا أويعرفوا حقيقة ماذا يجري في داخل الخلايا الجنسية عند الاجتماع اوعند إنعقاد النطفة على البويضة. وقد حذّر أهل البيت من الاقتران بالمنحرفين لتحصين العائلة والأطفال من الانحراف، قال الامام جعفر الصادق: «لا تتزوجوا المرأة المستعلنة بالزنا، ولا تزوجوا الرجل المستعلن بالزنا إلاّ أن تعرفوا منهما التوبة». وحذّر من تزويج شارب الخمر فقال: «من زوّج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها»[2].

تمعنوا كثيرا في هذا الحديث، ففيه إمور عظيمة جدا لم يستطع علماء الغرب من اكتشافها إلا في الوقت الحاضر. المفهوم من هذا الحديث بالظاهر أن الخمر اومسألة الخمر ستبقى مشكلة كبيرة ومباشرة بين الزوج شارب الخمر وبين أهل الزوجة وستكون هناك قطيعة بينهم لأنهم لا يحبون صاحب الخمر. والحقيقة ليست كذلك لأن صلة الرحم هي ملتصقة بالعلاقات القريبة مثل الاهل والاولاد والاحفاد والعمام والخوال وغيرها واولاد البنت هم يعتبرون من اشد الاقارب، لذلك كان الامام يشير الى قطع صلة الرحم الزوجة بأهلها من خلال (اولادها) وليس من خلال زوجها فما هوالربط بين الزوج شارب الخمر واولاده واخوالهم؟ هنا يوضح امير المؤمنين أكثر هذه العلاقة، إذ يرى أمير المؤمنين أنّ الاصل الكريم والعرق الصالح يؤثر تأثيراً واضحاً على الإنسان فمن كان ينتمي الى نسب عريق في المكارم والفضائل ستكون المكارم والفضائل صفة ملازمة له في جميع جوانب حياته، فللوراثة دورها وتأثيرها الواضح في أخلاق وسلوك الإنسان حيث تخلق في نفسه الاستعداد والقابلية للاتصاف بالمكارم والفضائل إذا كان ينحدر من أُصول متصفة بها، وكذا الحال فيمن ينحدر من أُصول تتصف بالرذائل والمفاسد، فانّه يرثها أويكون قابلاً للاتصاف بها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره.

---

(١) راه زندكى تأليف الكسيس كارل ترجمة برويز دبيري: ٩١.

(٢) وسائل الشعية للحر العاملي: ٥ / ٩.

جميل المقصد يدلّ على طهارة المولد.

من خبث عنصره ساء محضره.

من كرم محتده حسن مشهده.

منزع الكريم أبداً إلى شيم آبائه [1]

وهذه الحكم اصبحت الآن اهم قوانين الوراثة الحديثة واهم اكتشافاتها العظيمة، كيف؟

لم يعرف العالم حقيقة الجينات إلا في الوقت الحاضر وبالتحديد عام ١٨٦٦ عندما درس عالم الوراثة مندل وزملائه من بعده في عام ١٩٠٩ علم الوراثة ومع ذلك فلم يتمكنوا من البوح بكلمة الجين وأطلق عليه مندل بالعامل ويستدل على كرم الاعراق من خلال حسن الاخلاق، فحسن أخلاق الأبناء كاشف عن حسن عروقه وأصوله. قال أمير المؤمنين: «حسن الاخلاق برهان كرم الاعراق»فهذا تعبير لطيف ودقيق جدّاً في هذا المجال. وبناءً عليه فإنّ الأُسر الفاضلة، غالباً ما تقدّم للمجتمع أفراداً متميّزين على مستوى الأخلاق الحسنة، وبالعكس فإنّ الأفراد الطالحين، ينشؤون غالباً من عوائل فاسدة. وفي كلام أمير المؤمنين دلالات واضحة على وراثة الخلق والشرف من الآباء والأُمهات والأجداد، وفي كلامه تشجيع على طلب الحوائج من ذوي الاصول الطيبة حيث قال: «عليكم في قضاء حوائجكم بكرام الأنفس والأصول، تنجح لكم عندهم من غير مطالٍ ولا منّ». وقال: «عليكم في طلب الحوائج بشراف النفوس ذوي الأُصول الطيبة، فإنها عندهم أقضى وهي لديهم أزكى»[2].

يبين لنا نبينا الاكرم ﷺ إن سر الكون كله يكمن في عظمة الخالق وكيف يعاقب الناس الذين يسيئون للنعم. عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام، قال: أقبل رجل من الأنصار إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله هذه بنت عمي وأنا فلان إبن فلان حتى عد عشرة أباء وهي بنت فلان حتى عد عشرة آباء ليس في حسبي ولا حسبها حبشي، وإنها وضعت هذا الحبشي، فأطرق رسول الله طويلاً ثم رفع رأسه، فقال: إن لك تسعة وتسعين عرقاً ولها تسعة وتسعين عرقاً، فإذا اشتملت إضطربت العروق وسأل

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٤٠٩

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص ١٤٤، طبعة النجف الأشراف

الله عز وجل كل عرق منها أن يذهب الشبه إليه، قم فانه ولدك ولم يأتك إلا من عرق منك أوعرق منها، قال: فقام الرجل وأخذ بيد إمرأته وإزداد بها وبولدها عجباً.

أن الحقائق الثابتة أكدت أنّ الأبناء يرثون الوالدين في خصائصهم وصفاتهم الجسمية والعقلية والنفسية وكذلك يرثون أجدادهم في بعضها. وقد دلت الروايات على أنّ الانسان يرث الخصائص والصفات الجسمية من الخلايا الجنسية العائدة الى امه وابيه بشكل مباشر ومن جميع أجداده بشكل غير مباشر. ورد ذلك عن الامام جعفر بن محمد الصادق ﷺ: «إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين أبيه الى آدم، ثم خلقه على صورة أحدهم، فلا يقولنّ أحد هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي»[1] وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة من أنّ (وراثة المولود لا يحددها أبواه المباشران فقط، بل هويرث من جدوده وآباء جدوده وجدود جدوده وهكذا.. وبديهي أنّ معظم وراثة الانسان تنحدر اليه من آبائه الأقربين وأنّ أثر الجدود الأباعد يقل كلما زاد بعدهم، وعلى هذا نستطيع القول: بأنّ نصف الوراثة من الأبوين، وربعها من الجدود، وثمنها من آباء الجدود وهكذا.

والحقيقة أن الجنين ينشأ من الخلايا الجنسية ذات العدد المنصف من الكروموسومات. فلوأن الاب يحمل اليلا واحدا والام كذلك فإن الاولاد كلهم سوف يتشابهون ويحملون فقط اليلين. وهذان الاليلان إما متماثلان aa) وAA) اوغير متماثلين (AB). وبالتالي فمن هذين الاليلين سينتج ثلاثة تراكيب وراثية في اقصى حد، يعني ثلاثة اشخاص لا يتشابهون تماما مع بعضهم البعض ولكن يتشابهون تماما مع الوالدين في الظاهر على إعتبار أن هذين الاليلين قد وصلا الى الابن اوالبنت من خلال الام (اليل واحد) والاب (اليل واحد). والحقيقة أن مسألة التشابه غير واردة في المواليد وخاصة لوأن لشخص عشرة من الذرية، فمن اين اتت هذه الذرية المختلفة؟ لأنه من المفروض أن تأتي على اقوى احتمال ثلاثة فقط مختلفون وباقي العشرة يشبهون الثلاثة. الذرية دائما تختلف فيما بينها بمعنى صار أكثر من اليلين عندهم (المجموع الكلي) فمن اين اتت هذه الاليلات اذن؟ والجواب هوإن الخلايا الجنسية (النطف والبيوض) تختلف فيما بينها بالاليلات، فكل خلية جنسية لا تشبه اختها لأن

---

(١) الوسائل: ج ١٥ ص ٢١٩ ح ٤

في هذه الخلايا كل الصور الى آدم (عليه السلام)، أي أن كل نطفة يمكن أن لا تشبه الاخرى في وجود الأليل وهذا سر العدد الهائل (مئات الملايين) من الخلايا الجنسية في كل كائن حي وخاصة في الذكر. وهذا دليل على إن الانسان ممكن أن تجتمع به أي شخصية تأريخية سواء كانت طالحة اوصالحة ولكن الله يرزق الناس الذرية الحسنة من غير الحسنة كيف؟

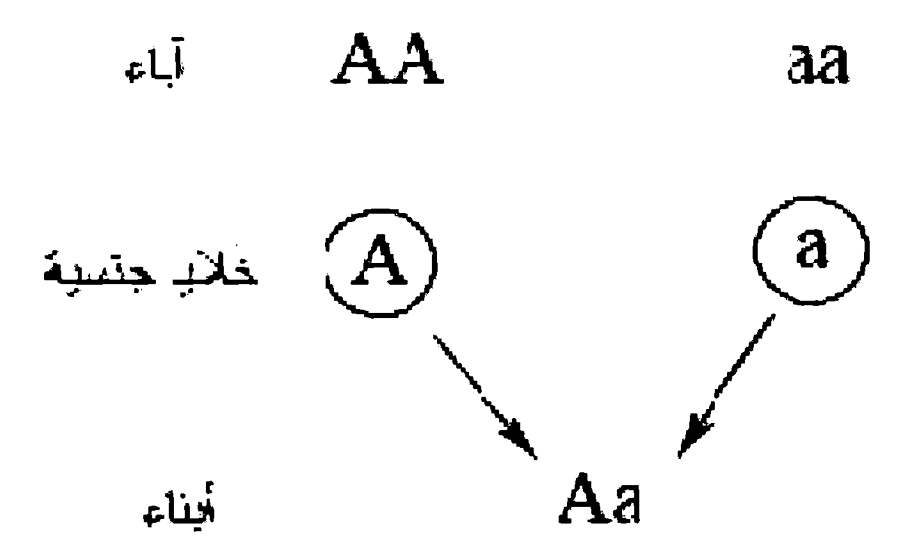
ما يهمنا في الموضوع هوهذا المقطع العظيم من أحد أحاديث نبي الرحمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): «فإذا اشتملت إضطربت العروق وسأل الله عز وجل كل عرِق منها أن يذهب الشبه إليه». فكما هومعروف إن الآنسان هوعبارة عن الانسانية كلها بحلوها ومرها، بشرها وخيرها، فكل شيء معجون فيه لأنه من هذا الكوكب والأصل نبينا آدم (عليه السلام) وآدم من اصل الحياة وطبيعي أن نجد في جوفنا الوراثي (الاجزاء النووية والمايتوكندرية – Nuclear and mitochondrial parts) كل الحياة، ولكن الذي يخرج منا الى ابنائنا هوجزء بسيط جدا (اليلان لكل صفة) ويبقى مخزوننا الوراثي عظيم وهذا ينطبق تماما على خلايا المخ الهائلة التي نمتلكها ومع ذلك فان ما يعمل منها هوقليل جدا وحتى التي تعمل عندنا هي ليست نفسها تماما عند البقية لأننا نختلف في الذكاء وفي بقية الامور وبالتالي نختلف في نوعية هذه الخلايا، فعند جمع الخلايا التي نمتلكها سيصبح الرقم عظيما جدا. وهذا مصداق لضخامة أعداد هذه الخلايا (رأي شخصي). أذن الجينات كثيرة في الخلايا الجنسية، فأي جين (اليل) سوف يذهب الى الابن اوالبنت؟ هنا بلا شك سوف يلغى أي قانون وراثي وضعي في هذه الحالة لأن الامر خرج من نطاق انواع السيادات الوراثية، فلن يتأثر تغلب الاليل على الآخر بسبب السيادة التامة، السيادة الناقصة، السيادة المشتركة اوالسيادة الفوقية وانتقل الامر انتقل في هذه اللحظة الى الله وحده فتبدأ الأليلات بالتسبيح وتدعوا الله لمن الشبه في التغلب. صحيح طبقت واحدة من السيادات ولكن من سمح لهذا الاليل الواصل من الام بالتغلب على الاليل الواصل من الاب؟ هل عنده ميكانيكية أفضل؟ هل يمتلك تفاعلات أفضل؟ إن الذي حدث هوإن هذه الاليلات تسبح لله بنص الحديث النبوي الشريف: (فإذا اشتملت (الزواج) اضطربت (تنافست) العروق (الجينات) وسأل الله عز وجل كل عرِق منها أن يذهب الشبه إليه». فشارب الخمر مثلا لن يتقبل الله منه وسوف يرزقه

الله بأليلات (بجينات) غير طيبة وستظهر هذه الجينات في الاولاد ويصبحون وبالا على أهلهم وهنا تبدأ مأساة صلة الرحم. وقد نبه الإمام الصادق عليه السلام على تأثير الآباء الفاسدين في شخصية الأطفال وسلوكهم الأخلاقي، فقال: «أَيَّما إمرَأَة أَطاعَتْ زَوجَها وَهُوَ شارِبٌ لِلخَمْرِ، كَانَ لَها مِنَ الخَطايا بِعَدَدِ نُجُوم السَّماءِ وَكُلُّ مَولُود يُولَدُ مِنْهُ فَهُوَ نَجِسٌ. وهذا الأمر جعل مسألة التربية الصّالحة، من أهم حقوق الطّفل على الوالدين، فنقرأ في الحديث النبوي الشّريف: «حَقُّ الوَلَدِ عَلى الوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ إسمَهُ وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ.

أن النقطة الاساسية في الحديث هي أن الخلايا الجنسية وما فيها من أليلات (جزء الجين الموجود في الخلايا الجنسية) متنوعة وكلها تدعوا الله عند اضطرابها، أي عند وقت اتحاد الخلايا الجنسية الذكرية مع الانثوية. لأن في هذه الحالة تبدأ مرحلة التغلب (السيادة) بين الجينات (الأليلات) ومن من الجينات سيتغلب على الآخر وهذه العملية خارج نطاق قوانين الوراثة المطلقة، بل هي لا ترتبط لا من بعيد ولا من قريب بعلم الوراثة، هذا الجزء خاص برب العزة وقد اشار له النبي الاكرم صلى الله عليه وآله بأن هذه العروق تسأل الله (تدعوا) الشبه لمن. ولكن بكل الاحوال فان الناتج سيكون حتما نتيجة حتمية لأفعال الآباء. وهنا تكمن اسرار الدعاء وأسرار عمل الخير، فالله يتقبل من الصالح بأن يرزقه أمورا عديدة مثل كثرة المال، كثرة البنين، كثرة الاصدقاء وغيرها وكل هذه بفضل الدعاء والعمل الصالح وحتى الجينات تدخل في قوانين الله فهي ايضا تسبح لله وتطلب من الله الفوز على بقية الجينات.

وقد التزم الامير بنفس الاسلوب والنهج الذي سار عليه نبي الرحمة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: (حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق). وهنا مولانا علي بن ابي طالب عليه السلام يشير الى اهم شيء في قوانين الوراثة وهي الخلايا الجنسية (كرم الاعراق)، حيث وصفها بشكل دقيق جدا لم يصفها غيره ابدا وقال بشكل واضح إن مكمن وسر الاولاد اوالذرية هوفي العروق ولم يكتف بذلك لأن العروق (الجينات) موجودة حتى في الخلايا الجسدية ايضا ولكن كيف تنتقل هذه العروق الى الخلايا الجنسية ثم ترجع في الخلايا الجسدية؟ قام امير المؤمنين بتأخير جملة (كرم الاعراق) الى الاخير لأنه كان يريد توضيح إنها الكميات - الخلايا الجنسية وليس الخلايا الجسدية. فعمل

الامير على تقديم جملة (حسن الاخلاق) الى البداية وهي تقابل الخلايا الجسدية في مفهومنا الآن أومفهوم عالم الوراثة مندل ثم أكمل الجملة ب (كرم الاعراق) وهي تقابل الخلايا الجنسية في مفهومنا الآن وهذا ما يفعله علماء الوراثة عندما يريدون دراسة انتقال صفة من الصفات اواكثر، فهم يرسمون اولا التراكيب الوراثية- الخلايا الجسدية ويعطونها رمزا وهوالحرف P والذي ترجمته Parent وتعني الوالدين (حسن الاخلاق) ثم يعزلون الاليلات - الخلايا الجنسية ويدخلوها في دائرة صغيرة ويعطونها رمز G وترجمته Gamete وتعني المشيج (كرم الاعراق) الشكل (٢).



الشكل (٢) يبين توزيع الخلايا الجسدية والخلايا الجنسية في الكائن الحي بحسب ما عرفه النبي الاكرم وامير المؤمنين

وبعد اتحاد الكميتات سوف ينتج الكائن الحي التراكيب الوراثية (Genotypes). علما إن معظم كتب الوراثة الحديثة تحتوي على مخطط توزيع التراكيب الوراثية الى كميتات ثم العودة الى التراكيب الوراثية. لقد سبق أميرنا مندل وجماعته حتى بهذا التوضيح البسيط لانتقال الصفات أولعملية توضيح انتقال الصفات. وإن ما ينشأ من تراكيب وراثية هوناتج من اتحاد الكميتات. وهذا الحديث يثبت إمكان اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجايا الفاضلة عنده.

إطالة العمر

بدأت فكرة اومشروع إطالة العمر عند الغرب منذ مدة طويلة، فمنذ سبعينات القرن المنصرم إشتغلت الماكينة الغربية على فكرة نقل الجينات وفي الوقت الحاضر وصلوا الى قمة طموحاتهم كما يعتقدون، إذ عملوا على تقنية النقل الجيني في الابقار ونجحت نجاحا باهرا واستطاعوا انتاج البقرة الذهبية التي تنتج فيتامين A في حليب الابقار أضعاف مضاعفة وبالتالي أصبح هناك انتاج متخصص ونوعي تحت الطلب ولأي مكون. وبكل الاحوال فهم لا زالوا يعملون على جين واحد ولم يتمكنوا من التوسع في هذا الموضوع أكثر من ذلك بسبب طبيعة العمل ولكنهم كانوا دائما ينتبهون الى أن الكائن الجديد لا يستطيع الاستمرار بشكل مثالي مقارنة بما كان عليه قبل إجراء النقل الجيني. ناهيك إنهم كانوا يعملون النقل الجيني في الكائنات غير الراقية وهي الابتدائيات التي لا يتجاوز عمرها الساعات اوالايام وبالتالي لا يستطيعون معاينة التغيرات. حاولوا العمل على جينات لها علاقة بالنمووالتطور فيما بعد واول حيوان رشح لهذا الغرض هوالخنزير، فقد نقلوا له هرمون نموالابقار فلاحظوا أن الخنزير زاد وزنه بشكل واضح ولكنه سرعان ما نفق (تعني نفق بلغة الحيوان مات) وتبين بعد تشريح الحيوان النافق أن هناك اجزاء في الحيوان نمت على حساب بقية الاجهزة. ولم يعرفوا سبب الفشل وبعدها ذهبوا الى حيوان آخر من الثدييات ليعرفوا المزيد وهذه المرة تحولوا الى العمر وإطالة العمر.

لازال الغرب يعمل على جين واحد وقد توصلوا الى نتائج قيمة في هذا الموضوع ولكنهم لا يستطيعون الاستمرار. فما بالنا بالذي يعمل على كل الجينات؟ يعمل وعمله متوافق مع كل الجينات ولا يوجد تحسس من جين معين. إن موضوع إطالة العمر من المواضيع التي تسلم بها طائفة كبيرة جدا من الناس ومنهم الغرب، فالطائفة الجعفرية كلها مسلمة بذلك وقسم كبير من بقية الطوائف الاسلامية ايضا مسلمة وقسم من بقية الديانات تؤمن بإطالة العمر الى حدود معينة ولكن الاختلاف ينحصر بين الجعفرية وبقية العالم بأن العمر يمكن أن يطول الى آلاف السنين كما هوالحال في قائمنا المهدي (عج)، فهوحي يرزق وكذلك هوشاب وليس فقط حي يرزق. فالغرب من أشد الناس الذين يروجون لفكرة اطالة العمر ولكنهم يختلفون كثيرا عن البقية كونهم

ماديين لدرجة يريدون إثبات حقيقة إطالة العمر من خلال التجربة وليس فقط الاعتقاد كما موجود عند معظم المذاهب الاسلامية وخاصة المذهب الجعفري الذي يؤمن بفكرة إطالة العمر إمانا راسخا. إن كثيرا من علماء الغرب قد صرحوا بأنهم ينهلون العلم من كتب أمير المؤمنين واهل بيته ﷺ فلا عجب أنهم قرأوا الكثير عن مهدي هذه الامة وهم الفئة الوحيدة التي تعرف أكثر منا بأن كتب امير المؤمنين ﷺ هي ثقة. إن الفرق بيننا وبين الغرب هوأنهم يطبقون علومنا وتخرج للعلن على شكل براءة اختراع ثم يبيعوها علينا أويحتكروها مدة من الزمن وأما نحن فنقول بعد تطبيقها إنها موجودة في القرآن الكريم أوفي نهج البلاغة أوفي غيره من الكتب القيمة.

عمل علماء على جين واحد لإطالة العمر ولكنهم لن يستمروا بالنجاح على المدى القريب لأن كثيرا من الصفات لا تتحدد بجين واحد بإعترافهم، فقسم كبير منا يعرف بأن هناك اختصاصا كاملا في الوراثة يسمى (الوراثة الكمية) اي كمية معينة من الجينات تكون مسؤولة عن صفة واحدة وهذه الحقيقة من أعظم اسرار الله في خلقه، بحيث يصعب على الانسان تصليح صفة معينة في أي كائن بسبب امتلاك هذ الكائن لصفة مسؤول عنها أكثر من جين واحد وقد تصل الى ١٠٠ جين أوأكثر وهذا ما نسميه بالوراثة الكمية، أي إن المسؤول عن هذه الصفة هوعشرات الجينات (العروق) فتمعن بصفة مسؤول عنها ١٠٠ جين يعني تحتاج الى عمل عظيم جدا من الغرب حتى تسيطر على ١٠٠ جين لإصلاح أوتغيير الصفة المعينة تحت البحث. وقد درس العلماء في السابق نقل جين هرمون نموالابقار (طبعا هوليس جين واحد ولكنهم لا يستطيعون أكثر من ذلك) الى خنازير، فنمت الخنازير بشكل واضح ولكنها فيما بعد نفقت اي ماتت وعند التشريح وجدوا إن هناك أجهزة نمت أكثر من اللازم على حساب أجهزة أخرى. وهذا الحال ينطبق تماما مع الاغذية المحورة وراثيا، فهي تحمل بما لا طاقة لها وبمعنى آخر فان النباتات سوف تتأثر كثيرا في محتويات العناصر الغذائية ونحن لا نشعر بذلك لأن النبات غير الحيوان أوالإنسان، ليس من السهل ظهور أعراض عليه. ونلاحظ مثلا في أمريكا منع تداول الاغذية المحورة وراثيا ولكنها تنتجها وتسوقها الى الخارج. ولكن ما نخشاه هواننا تستخدم هذه الاغذية في العراق.

وهناك لطف إلهي آخر يجعل العالم يفكر كثيرا بالله قبل أن يعمل بالوراثة وهوأن

هناك صفات مسؤول عنها جين واحد، يعني عكس الحالة الاولى وعليه فإذا صلحت صفة (كالشيخوخة مثلا) ستتوقع تدهورا أوتحسن كثير من الصفات لذلك ترى إنهم عندما أطالوا عمر الفأرة اصطدموا بخلل معين في جسم الفأرة، فقد تأثرت عظامها وهكذا. فلنتمعن بخالق مهدينا الذي سيظهر لنا شابا ولا توجد به اي عاهة وجيناته كلها تعمل بنظام فريد ومتصلة واحدة بالأخرى ولا يؤثر جين بشكل سلبي على الاخر لأن الله جل وعلى قد أطال في عمره. فالباري وحده الذي يحسب هذا التوازن الجيني ويهندس كل الجينات وليس جين واحد (الهندسة الوراثية) وأما العلماء يعملون مثل لعبة القمار مع الجينات. صحيح هم يختارون جينا معينا ويعرفون ماذا يفعل ولكنهم لا يعرفون بمن يرتبط هذا الجين وبمن ترتبط الصفة المسؤول عنها هذا الجين. لأن عمل الجينات متداخل وهذه نظرية مدروسة وندرسها لطبة الدراسات الاولية والعليا وتسمى بنظرية التفاعل الجيني (يعني أكثر من جين) ونحن نقول دائما اليد الواحدة لا تصفق، يعني الجين الواحد لا يتفاعل مع نفسه، بل مع غيره من الجينات. وقد يكون التفاعل بين جينين كما عمل على ذلك بعض العلماء ولكن إذا وصل التفاعل بين ١٠ جينات وليس ١٠٠ فتصور ماذا يحدث من تداخل جيني وإذا وصل التفاعل بين أكثر من ٢٠ جين فتصوروا هول النتائج وهكذا. هذه نقطة يصطدم بها العلماء والى الابد ولا يمكن أن يتوصلوا الى حلها، فنحن في القرن الحادي والعشرين والعلماء لحد الآن فشلوا في العمل (النقل) على جين واحد، فمتى يعملون على نقل جينين اوأكثر؟ أكثر من ١٠٠ سنة مرت عليهم ولايزالون يراوحون في مكانهم. ويصطدمون دائما بالخلق العظيم وكيفية التناسق المذهل بين الجينات وعملها. فعملية انتقال الصفات أثناء الزواج وبالتحديد لحظة انعقاد النطفة على البويضة، تذوب فيه كل العلوم ويركع له كل شيء ويقف العالم مذهولا كيف تنتقل الصفات من الاب وليس من الام اوكيف تنتقل الصفات من الام وليس من الاب مع العلم إن نفس هذه الصفة موجودة عند الاب وعند الام ولكن ينبغي على إحداها أن تتغلب على الاخرى والثانية تبقى خاملة في المولود الجديد. العلماء يقفون متحيرين من المسؤول عن ظهور لون العين العسلي الآتي من الاب وغياب لون العين الاسود مثلا الآتي من الام. هذه المعضلة حلها نبينا العظيم محمد ﷺ منذ أكثر من ١٦٠٠ سنة، إذ قال إن الجينات (الأليلات)

تسبح لله عز وجل وعند إشتمالهم (لحظة الانعقاد) يضطربون (الجينات) ويسألون الله الشبه لمن، أي لمن الغلبة؟ وهذه المرة ليس الغالب والمغلوب كائن حي ابتدائي (النطف والبيوض) أوالغالب والمغلوب كائن حي (إنسان) أوالغالب والمغلوب الجينات حتى نقول إن هذه الكائنات (نطف، بيوض، إنسان أوجينات) تسبح لله، بل الغالب والمغلوب في هذه المعادلة هم أجزاء الجينات (أجزاء الوحدات الوراثية الفعالة). هذه الأجزاء تسمى في قاموس العرب بالحليل وجمعها حلائل وفي اللغة الانجليزية Allele ولكن صارت تعرف الآن بالأليل وجمعها اليلات. وهي عبارة عن مواد كيميائية. فالجينات تتواجد في الخلايا الجنسية على شكل حلائل مفردة تحتوي على نصف العدد من الكروموسومات، بمعنى آخر تحتوي كل خلية جنسية على ٢٣ كروموسوما فقط من أصل ٤٦ كروموسوما. فإن كانت خلايانا الجنسية تحتوي على نصف العدد من الكروموسومات فما هووضع مادتنا الوراثية، هل تحتوي ايضا على النصف ام تكون كاملة المحتوى الوراثي؟ كل هذه الاسئلة نجد لها جواب شافي في جزئية بسيطة من الحديث النبوي الشريف. يتبين من الشرح الموجز أن مادتنا الوراثية موجودة في الأليلات Alleles وهذه موجودة في الخلايا الجنسية، المفروض أن هذه الاليلات لا توجد فيها روح ولا حركة فكيف تسبح لله تعالى! لوفرضنا أن النطفة المعينة نجحت في الوصول الى الهدف وقامت بإخصاب البويضة وأعطت نصف كروموسوماتها الى البويضة وبالتالي أصبح الموضوع لا يتعدى المناصفة بين الزوجين في عدد كروموسوماتهم وفي هذه الكروموسومات تضطجع المادة الوراثية، أي انتقال الحلائل ولكن ماذا بشأن السيادة والتنحي؟ وهما مرادفان لكلمة اضطراب في الحديث النبوي الشريف. ونحن قلنا إن الاليلات عبارة عن مواد كيميائية فمن يجعلها تتغلب على بعضها البعض؟ لدرجة أن الأم ذات العيون الخضراء (الاليل المسؤول عن اللون الاخضر) تتغلب على الاب ذوالعيون السوداء (الاليل المسؤول عن اللون الاسود) ؟ هذه نقطة لا يمكن تجاوزها ابدا ويستحيل على العلماء التواصل مع الاليلات. هناك طريق واحد يمكن التواصل به مع الجينات وهوالطريق المجرب والذي دأب عليه أهل بيت النبوة، هذا الطريق اسمه طريق الايمان الحق. الأيمان بعدالة وعصمة الانبياء والائمة عليهم السلام وعند ذلك فالله سوف يهب الجينات الطيبة للطيبين والجينات الطالحة

للطالحين. لأنه ثبت إن الجينات تسبح لله وتدعوا من الله أن تتغلب على مثيلاتها. وهذا موضوع طويل جدا وفيه من الاسرار الايمانية ما لا يعد ولا يحصى.

تفاحة الفردوس

إن قصة تفاحة الفردوس الكل يعرفها وكل علماء المسلمين أكدوا على وجود وحقيقة هذه التفاحة العظيمة التي نتجت منها سيدة نساء العالمين، فما هوالفرق بين عيسى بن مريم عليه السلام من حيث الروح وبين فاطمة الزهراء عليها السلام من حيث الروح؟ ما من شك أن نزول التفاحة للرسول الاعظم كان الهدف منه هوولادة الصديقة الطاهرة بهذه الطريقة النوعية الجديدة التي اختلفت بشكل جذري عن طريقة تكوين وولادة المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى امه أفضل التحايا والسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث عن فاطمة عليها السلام: «فلمّا خلق الله عز وجل آدم وأخرجني من صلبه وأحبّ الله عز وجل أن يخرجها من صلبي جعلها تفاحة في الجنة وأتاني بها جبرئيل عليه السلام، فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا محمد قلت: وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرئيل. فقال: يا محمد! إنّ ربّك يقرؤك السلام. قلت: منه السلام وإليه يعود السلام. قال: يا محمد! إنّ هذه تفاحة أهداها الله عز وجل إليك من الجنّة، فأخذتها وضممتها إلى صدري. قال: يا محمد يقول الله جلّ جلاله: كلها. ففلقتها فرأيت نوراً ساطعاً وفزعت منه. فقال: يا محمد ما لك لا تأكل؟ كلها ولا تخف، فإنّ ذلك النور للمنصورة في السماء وهي في الأرض فاطمة. وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «معاشر الناس تدرون لما خلقت فاطمة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «خلقت فاطمة حوراء إنسية لا إنسية، قال: خلقت من عرق جبرئيل ومن زغبه». قالوا: يا رسول الله اشتكل ذلك علينا تقول حوراء إنسية لا إنسية ثم تقول من عرق جبرئيل ومن زغبه؟ قال: «إذاً أنبئكم، أهدى إليّ ربّي تفاحة من الجنّة أتاني بها جبرئيل عليه السلام فضمّها إلى صدره فعرق جبرئيل عليه السلام وعرقت التفاحة فصار عرقهما شيئاً واحداً ثم قال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. قلت: وعليك السلام يا جبرئيل. فقال: إنّ الله أهدى إليك تفاحة من الجنة فأخذتها فقبّلتها ووضعتها على عيني وضممتها إلى صدري ثم قال: يا محمَد كلها. قلت: يا حبيبي يا جبرئيل هدية ربّي تؤكل. قال: نعم قد أمرت بأكلها، فأفلقتها فرأيت منها نوراً ساطعاً ففزعت من ذلك

النور. قال: كل، فإنّ ذلك نور المنصورة فاطمة إنها عليها السلام هدية السماء[1].

من الخصائص المهمة للسيدة الزهراء عليها السلام هواصطفاء الباري تعالى لنطفتها واستخلاصه لها وانتخابها من صفوة ثمار الجنة. فقد تميّزت الصدّيقة فاطمة عليها السلام عمن سواها من النساء حتى في نطفتها، حيث إنّ الله تعالى أتحف رسوله صلى الله عليه وآله بها من الجنة. فعن الإمام الرضا عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «لمّا عرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل عليه السلام فأدخلني الجنة فناولني من رطبها فأكلته، فتحوّل ذلك نطفة في صلبي، فلمّا هبطت إلى الأرض واقعت خديجة عليها السلام فحملت بفاطمة عليها السلام، ففاطمة حوراء إنسية فكلّما اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة»[2].

وهذه قوانين الوراثة تؤكد انتقال الشرف العظيم من العظيمة الى العظماء - الحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين سلام الله عليهم اجمعين. فالوراثة تقول أن الجينات (الأليلات) عند إشتمالها (لحظة إنعقاد النطفة على البويضة) تضطرب وتدعوا الى الله الشبه لمن، والنتيجة تبقى معلقة بيد البارئ عز وجل من سيفوز ومن سيخسر المعركة. فدعونا نتوقع النطفة الطاهرة من الرسول الاعظم هل تدخل ضمن قوانين الوراثة المادية؟ بالتأكيد نعم ولكن ماذا نتوقع من البارئ عز وجل وهوالذي وهبها له (تفاحة الفردوس) ؟ بالتأكيد سوف تتغلب على كل جين موجود وسوف تنتقل كلها (الشرف العظيم) الى ذريته الطاهرة ابتداءا بالسيدة الطاهرة، وكأننا نقول إن الصديقة الطاهرة قد خلقت من العدم أوخلقت من الروح العظيم، حالها حال سيدنا عيسى عليه السلام. والحقيقة إنها خلقت بطريقة مشابهة لسيدنا عيسى عليه السلام، فهوخلق من روح والسيدة الطاهرة خلقت بفضل تفاحة من الفردوس. وهذا متفق عليه تماما بين كل علماء المسلمين قاطبة. فهل ينتقل هذا الشرف العظيم وهذه الجينات المقدسة الى النسل الطاهر أم تتوقف؟ لنرى ماذا يقول سيدنا ومولانا النبي الاكرم صلى الله عليه وآله: عن سلمان الفارسي أنّه قال: دخلت على فاطمة عليها السلام والحسن والحسين (عليهما السلام) يلعبان بين يديها، ففرحت بهما فرحاً شديداً، فلم ألبث حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله أخبرني بفضيلة هؤلاء لأزداد لهم حباً. فقال: يا سلمان ليلة أُسري بي إلى السماء أدارني جبرئيل في سماواته وجنّاته، فبينا أنا أدور قصورها وبساتينها

---

(١) معاني الأخبار للصدوق: ص ٣٩٦، ط مؤسسة النشر الإسلامي قم

(٢) الأمالي للصدوق: ص ٥٤

ومقاصيرها، إذ شممت رائحة طيبة فأعجبتني تلك الرائحة، فقلت: يا حبيبي ما هذه الرائحة التي غلبت على روائح الجنة كلّها؟ فقال: يا محمد تفاحة خلقها الله تبارك وتعالى بيده منذ ثلاثمائة ألف عام ما ندري ما يريد بها. فبينا أنا كذلك إذ رأيت ملائكة ومعهم تلك التفاحة، فقالوا: يا محمد ربنا السلام يقرأ عليك السلام وقد أتحفك بهذه التفاحة. قال رسول الله ﷺ: فأخذت تلك التفاحة فوضعتها تحت جناح جبرئيل، فلمّا هبط بي إلى الأرض أكلت تلك التفاحة فجمع الله ماءها في ظهري، فغشيت خديجة بنت خويلد فحملت بفاطمة من ماء تلك التفاحة، فأوحى الله عزّ وجلّ إلي أن قد ولد لك حوراء إنسية فزوّج النور من النور، فاطمة من علي، فإني قد زوجتها في السماء وجعلت خمس الأرض مهرها وستخرج فيما بينهما ذرية طيبة وهما سراجا الجنة الحسن والحسين ويخرج من صلب الحسين أئمة يُقتلون ويُخذلون فالويل لقاتلهم وخاذلهم [1]. الله تعالى قد منح الصديقة الطاهرة عليها السلام تلك الذرية المباركة، حيث جعل منها الأئمة المعصومين الأطهار عليهم السلام وهذا مما يدل على شرافتها.

وقد دأب مرات عديدة امير المؤمنين على تأكيد فكرة انتقال الشرف العظيم في كل مناسبة. ودائما يذكر الناس بأنهم اي العترة جيناتهم شريفة وعظيمة في نفس الوقت ولا يمكن أن يتغلب عليها اي جين في اي زمان ومكان. فها هوفي ساحة القتال ينتقد أبنه محمد بن الحنفية لأنه خاف من العدووتردد: كان محمد بن الحنفية ابن الامام علي عليه السلام حامل اللواء في حرب الجمل، فأمره الأمام علي عليه السلام بالهجوم، فأجهز على العدو، لكن ضربات الأسنة ورشقات السهام منعته من التقدم فتوقف قليلاً. وسرعان ما وصل إليه الامام وقال له: «إحمل بين الأسنة»فتقدم قليلاً ثم توقف ثانية، فتأثر الامام من ضعف ابنه بشدة فاقترب منه وضربه بقائم سيفه وقال: أدركك عرق من أمك؟ فهنا يثبت الامام عليه السلام أن الجبن الذي ظهر واضحاً في ابنه محمد ليس موروثاً منه عليه السلام لأنه لم يعرف للجبن معنى قط، فلا بد وأن يكون من أمه، لأنها لم تكن من الفضيلة بدرجة تكون معها بمنزلة الصديقة الزهراء عليها السلام. وبهذا اثبت الامام وبشكل علمي نظرية السيادة والتنحي وأراد بذلك أن يوضح لأبنه محمد أن الجينات التي عندك جاءتك من أمك والتي كانت عبارة عن اليلات متنحية ولوأن هذه الجينات اتت من الامام لما جبن محمد بن الحنفية.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ص ٢٤٠

إن هذه التفاحة هي الجزء الاساسي من انتقال الشرف العظيم الى الائمة المعصومين، فحتى طريقة زواج كل إمام بعد الحسين (عليه السلام) كانت فيها امور معقدة جدا، لعل واحدة منها نستطيع الاشارة لها هنا في هذه العجالة وهي إن كل إمام معصوم من التسعة لم يشاركه اخ من امه وابيه، أي لم يكن لأي إمام من التسعة المعصومين من ذرية الحسين (عليه السلام) أي اخ من امه وابيه. وهذا فيه من الامور الوراثية والنفسية والسلوكية ما يعجز عنه اللسان. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

الملخص

يكمن عامل الوراثة في داخل الخلية بالتحديد في النواة واسمه العرق اوالجين. تم تسمية الجين في الخلايا الجنسية بالاليل توصل العلماء في وقت متأخر جدا الى هذه الكلمة (الجين) وهي التي تنتقل من الآباء الى الأبناء عن طريق الخلايا الجنسية، إذ أطلق العالم الدانماركي جوهانسن عام ١٩٠٩ كلمة الجينات (Genes) على الوحدات الوراثية اوالعوامل التي ذكرها مندل بينما نبي الامة محمد (صلى الله عليه وآله) وصف هذه العملية بدقة متناهية وعرف الجين في جملة صغيرة: تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. لحد هذه اللحظة لم يتوصل العلماء الى سر سيادة الیل على آخر لحظة انعقاد النطفة على البويضة. وصف نبينا الاكرم ذلك بدقة واعتبرها من حدود الله: إذا اشتملت اضطربت يسبحون لله يسألون الشبه لمن، فالشبه لمن سوف يذهب، الى الابن اوالبنت؟ هنا بلا شك سوف يلغى أي قانون وراثي وضعي في هذه الحالة لأن الامر خرج من نطاق انواع السيادات الوراثية، فلن يتأثر تغلب الأليل على الآخر بسبب السيادة التامة، السيادة الناقصة، السيادة المشتركة اوالسيادة الفوقية وانتقل الامر كله في هذه اللحظة الى الله وحده فتبدأ الأليلات بالتسبيح وتدعوا الله لمن الشبه في التغلب وأكيدا الله يتقبل من الصالح. رغم قداسة نبينا العظيم وأدبه العظيم وعظمة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولي نبيه وصاحب سره ومستودع اماناته، إلا أن الله اختار تفاحة من الجنة (تفاحة الفردوس) لكي تكون منها فاطمة الزهراء (عليها السلام) وتنشأ العترة الطاهرة بهذه الكيفية التي وهبها الله لهم، فجيناتهم كانت هي الانوار كلها.

صورةُ النبيِّ مُحمد ﷺ
في كتاب (مثنوى معنوى)
لجلال الدين الرُّومي

أ.م.د. علي مجيد البديري

كلية الآداب - جامعة البصرة

أ.م.د. علي مجيد البديري

- كاتب وباحث وأكاديمي.
- ماجستير في اللغة العربية وآدابها (الشعر الحديث) كلية الآداب / جامعة البصرة ١٩٩٨.
- دكتوراه في اللغة العربية وآدابها (الأدب المقارن) كلية الآداب / جامعة البصرة ٢٠١٠.
- جائزة الشعر في مسابقة القلم الحر الدولية للإبداع / مصر ٢٠١٢
- جائزتا المقال الأدبي والقصة القصيرة في مسابقة السفير الثانية / النجف الأشرف ٢٠١٢
- جائزة النص الأدبي المفتوح في مسابقة العتبة الحسينية المقدسة / كربلاء ٢٠١٣

له:

* عدد من القصائد والمقالات والبحوث العلمية منشورة ومخطوطة.
* من بين طينٍ وعشق (مجموعة شعرية عن دار الغاوون بيروت، ٢٠١٣).
* الأدب المقارن، مبادئ وتطبيقات، دار الفيحاء بيروت، ٢٠١٣.
* أثر الاغتراب الوجودي في شعر جيل الستينيات في العراق (مخطوط).
* الأدب العربي المقارن في ضوء جمالية التلقي (قيد الطبع).
* أدب الدعاء، قراءات في صحائف آل محمد ﷺ (مخطوط)
* شارك في العديد من المؤتمرات العلمية القطرية.

- مدرس مادة (الأدب المقارن) في قسم اللغة العربية بكلية الآداب / جامعة البصرة.

يمثل حضور شخصية النبي محمد ﷺ في فضاء الشعر الصوفي حضوراً ذا فاعلية مضاعفة؛ يتجاوز الجمالي والديني ليحقق في إطار الرؤية الصوفية كشفاً إشراقياً يصنع رؤاه الفريدة والخاصة للعالم، عبر توسيع مساحة تأويل الأشياء التي يقوم بها الشاعر الصوفي، وقراءتها بطريقة تصل إلى جوهرها ولا تقف عند حدود ظاهرها.

في ضوء ذلك تسعى هذه الدراسة المتواضعة إلى الكشف عن أثرٍ مهم من آثار الثقافة العربية في شعر الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي من خلال بيان الكيفية التي حقق فيها الشاعر انزياحاً جمالياً في صورة النبي ﷺ القارَّة في كتب التواريخ والسير وكتب الحديث، لغرض يكون فيه الشعرُ الصوفي أداةً يعاد بواسطتها رسم ملامح التاريخ وشخوصه، وقراءةُ أحداثه. وقد عمد البحث في هذه المقاربة إلى إعطاء الأهمية في التناول النقدي لبعد الصورة الجمالي، ذي الطبيعة الخاصة بفضاء النص الصوفي أولاً، وبفضاء الشعر ثانياً. ومنطلق ذلك تصورٌ يفترض أن صاحب الـ (مثنوى) لم يكن معيداً بطريقةٍ استنساخيةٍ آليةٍ صورةَ النبي المعهودة في متخيل المجتمع الإسلامي، وفي الوقت ذاته لم يتنكر لبعد الصورة المرآوي/ الواقعي، الذي يقوم على التواصل مع مرجعيات الصورة الواقعية ذات السمة الدينية والمعرفية الخاصة.

وقد اعتمد الباحث في دراسة النصوص الشعرية على ديوان (مثنوى معنوى) بلغته الأصلية (الفارسية)، غير أن ما يوجبه التعاملُ مع الشعر وبالأخص الشعر العرفاني من حذر في الترجمةِ، دفع بالباحث إلى الاستعانة بترجمة الأستاذ إبراهيم الدسوقي شتا لأجزاء الكتاب الستة. لما لهذا المترجم من تجربة طويلة ومهمة في ترجمة النصوص الإبداعية الفارسية. ولإتمام الفائدة في منح القارئ الكريم فرصة المقابلة ما بين الترجمة والأصل، تم ذكر النصوص بصورتيها في متن البحث.

جلال الدين الرومي
وكتابه (مثنوى معنوى)

ولد جلال الدين سنة ٦٠٤هـ الموافق ١٢٠٧م في مدينه بلخ. وقد لقّب بالرّومي نسبه إلى أرض الروّم (بلاد الأناضول) حيث قضي معظم حياته. لقب أبوه بهاء الدين بسلطان العلماء؛ لما كان يتمتّع به من نفوذ معرفي وديني واسع. وغادر بهاء الدين موطنه مستصحباً أسرته بعد تنبؤ بغزوالمغول لمدينة بلخ. وكان جلال الدين آنذاك في الخامسة أوالسادسة من عمره.

أخذت الأسرة تنتقل من مدينة إلى أخرى، وفي نيسابور التي لم تمكث فيها طويلاً التقت بالشاعر الصوفي الكبير فريد الدين العطار. وتذكر الرّوايات أنه أهدى الرومي نسخة من منظومته «أسرار نامه»، متنبئاً له ببلوغ أسمى المقامات الصوفيّة، وبأنه «سوف يضرم النار قريباً في قلوب كل العشاق».

ثم قصدت الأسرة بغداد ومنها إلى مكة ثمّ إلى لارندا (قرمان الآن) حيث أقامت سبع سنوات. وخلال ذلك قام جلال الدين بعدّة زيارات لكل من حلب ودمشق، وأخيراً كان المقام في مدينة قونيا حيث توفي والد الشاعر. وكانت ثمرة هذا الانتقال الدائم الذي قطعه جلال الدين الرومي عبر مسافات طويلة نضوج تكوينه الروحي الأوّل. وبعد أن اكتسب معارف عصره وتفوق فيها، تولى التدريس في قونيا حيث تزوّج، فطاب له العيش في هذه المدينة الخصبة الجميلة التي سميت لذلك بـ (أم البلاد). وكان عدد كبير من العلماء والفنانين والصوفية من كل أنحاء شرق العالم الإسلامي يبحثون عن الملاذ في قونيا بوصفها أحدى الأماكن القليلة الهادئة في زمن دمرت فيه فلول المغول أجزاءً واسعة من الدولة الإسلامية. ولذلك انتعشت الحياة الفكرية والدينية في هذه المدينة بشكل كبير. وكانت اللغة الفارسية هي لغة المثقفين.

في عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م التقى جلال الدين وكان في الأربعين من عمره بشمس التبريزي، فتحوّل الفقيه الورع إلى شاعر وصوفي لا يكاد يفيق من شدة وجده. إذ أضرم التبريزي في قلب الرومي حرائق العشق الإلهي، وبعث فيه كتابة الشعر وأدرك الرومي أنّه اهتدى إلى الطريق الذي خلق من أجله، وأنّ لقاءه بشمس تبريز كما يسميه لم يكن

من باب الصدفة وإنّما كان أمراً مقدراً.

وتمثل مرحلة لقاء الرومي بحسن حسام الدين وهو من تلامذة الرومي ومريديه قمة النضج الفكري والإنتاج الشعري في حياته، حيث دفع حسام الدين جلبي الرومي إلى نظم تعاليمه الصوفية في قصيدةٍ تسهل على تلاميذه قراءتُها بدلاً من ملاحم السنائي والعطار. فكان حسام الدين يكتب الأبيات التي يقولها الشيخ في أي مكان يرتاده، وبذلك نشأ كتاب (مثنوي). وبانتهاء الجزء السادس من هذا الكتاب وافت المنية جلال الدين في سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م.[١]

والمثنوي: شكل من أشكال الشعر «يبنى على أبيات مستقلة مصرعة، يشتمل كل بيت على مصراعين متفقين في القافية والروي، مستقلين في ذلك عن غيرهما.. ويعرف في العربية بالمزدوج، ويشترط في المثنوية... أن تجري أبياتها جميعاً مهما كثر عددها على وزن واحد.»[٢]. والمعروف أن جلال الدين بدأ نظم المثنوي حوالي ٦٥٧هـ، ثم نظم الجزء الأول بين عامي ٦٥٧-٦٦٠هـ، وأعقبت ذلك فترة عامين من التوقف، ثم استأنف النظم من جديد عام ٦٦٢ هـ. ولم ينقطع الرومي عن النظم حتى وصل إلى نهاية الجزء السادس في صورته الحالية. وللمثنوي طبعات متعددة ونسخ مخطوطة كثيرة، وله شروح كثيرة بلغات مختلفة شرقية، وغربية.

ويرى د. محمد كفافي أن روعة المثنوي تأتي من تناوله الحياة بكل جوانبها، حتى أن القارئ لا يكاد يرى موضوعاً من موضوعات الأخلاق والسلوك إلا وطرقها

---

(١) اعتمدت في تقديم هذه السيرة المختصرة للرومي على:

مثنوي: مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه وقدم له: إبراهيم الدسوقي شتا، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨ (الكتاب الأول) المقدمة: ٨ـ٣٠.

ـ الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: آنا ماري شيمل، تر: محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل كولونيا (ألمانيا) بغداد، ط١، ٢٠٠٦: ٣٥٢، ٣٥٥.

ـ كليات ديوان شمس تبريزى: جلال الدين مولوى.. با مقدمه أستاد جلال الدين همائى، به اهتمام منصور شفق. تهران: انتشارات صفى عليشاهى١٣٧٤ ش: ٣٠

ـ تاريخ أدبيات إيران (از فردوسي تا سعدي): ادوارد براون، ترجمة: غلام حسين صدري افشار، انتشارات مرواربد تهران، ط٤، ١٣٨٦ هـ.: ٢٠٠، ٢٠١

(٢) فنون الشعر الفارسي: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ببروت، ط٢، ١٩٨١: ١١٩.

الشاعر، على أنَّ سبيل معالجة الرومي له لم يكن سبيل الواعظ، بل سبيل الشاعر الفنان. وقد دفعت ظاهرة احتفاء المثنوي بالقرآن والحديث، وقصص الأنبياء، والقصص الشعرية، والفلك، والأساطير، والعادات، والفلسفة، والكلام، والطب، بعض الباحثين إلى وصفه بأنه موسوعة صوفية، وربما كان لوصف المتصوفة له بأنه «كتاب الصوفية المقدس»إعجاباً منهم بمحتواه الفكري أثرٌ في ذلك، وهوتقييمٌ بعيدٌ عن طبيعة المثنوي؛ فالشاعر لم يقصد بعمله هذا أن يسجل الفكر الصوفي تسجيلاً موسوعياً تعليمياً، في حين أن كثيراً من متذوقي الشعر والفنون يجدون فيه مصدراً خصباً لألوان من الجمال الفني، إلى جانب ما يحمله من مضامين فكرية أودينية.[1]

وإلى هذا المعنى ذهب أيضاً غير واحدٍ من الباحثين؛ مستندين إلى البناء المنطقي لمنظومة جلال الدين المعرفية التي توجه النظر إلى المثنوي بوصفه «مجموعة من الروابط الثنائية، بين الإنسان ونفسه، الإنسان والمحيط، والإنسان والكون، والإنسان والخالق، تخرج منها إلى علاقات انسجام وتناغم ضمن أسلوب تصويري رائع، واستخدام دلالة اللغة منتقلاً منها إلى تجريد الفكرة»[2]

ويعد مثنوي على ضخامته من أكثر الكتب رواجاً وشهرةً حتى سمّي بـ «القرآن الفارسي «لكثرة تداوله وشرحه وحفظ الناس لأجزاء منه. ويقوم الكتاب على مجموعة ضخمة من القصص يرويها الشاعر بأسلوب رمزي، و«من المعروف في الشعر الفارسي أنه يعمد إلى بعض الأفكار الدينية التي تعتبر من أسس الشريعة الإسلامية وإلى صور محددة في القرآن والسنة النبوية، بل وإلى جمل كاملة من الكتاب العزيز أوإلى حديث كامل نصه، فيتخذ منها رموزاً ذات صبغة جمالية خالصة. وبهذا يفتح الشعر إمكانيات لا حدود لها لعملية ربط جديدة بين الصور الأرضية والسماوية، وبين الأفكار الدينية والدنيوية.»[3]

وبذا تجلّت في هذا المؤلف الضخم ثقافة الشاعر الواسعة وقدرته على تمثلها

---

(١) ينظر: في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي: د. محمد عبد السلام كفافي، دار النهضة العربية بيروت، ط١، ١٩٧١: ٤٩٤ ٤٩٥.

(٢) نار العشق في جلال الدين الرومي: ألما المحمد، ثقافتنا للدراسات والبحوث إيران، مج ٦،ع ٢٣، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م: ١٨٦

(٣) الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف: ٣٢٣.

وتوظيفها في كتابته الإبداعية. ولم تقلل هيمنة الطابع الفلسفي أوالتعليمي على بعض النصوص شيئاً من شعريتها وتوهّج لغتها. ومن هنا كانت لغة الرومي الرمزية في المثنوي تعكس مجمل عالم الفكر في عصره، فلا يوجد شكل بلاغي أوشعري واحد لم يستخدمه ببراعة، على الرغم من شعوره أحياناً بصعوبة التفكير بقوافٍ منمقة.(1)

ومن الواضح صعوبة تحقيق التوازن ما بين البعدين الفكري والفني في الكتابة الشعرية. ولعل الرومي من الشعراء القلائل الذين تجلى في نصوصهم الشعرية تحقق هذا التوازن الصعب.

صورة النبي ﷺ في كتاب (مثنوى معنوى)

تتخذ صورة النبي محمد ﷺ في (مثنوي) جلال الدين الرومي أبعاداً مختلفة، نتيجة تعدد زوايا النظر التي يعتمدها الشاعر في رسم شخصية النبي، فهي تنطلق من مرجعيات معروفة في السيرة والتاريخ والحديث، وتبدوللوهلة الأولى أن انطلاقتها تبدأ من هذه المصادر، غير أن ما تكشفه القراءة المتأنية لبعض النماذج الشعرية أمرٌ آخر، يتعلق بمحفز حياتي ينتمي إلى تجربة الرومي الصوفية، وإلى سياقها الثقافي الخاص. وإذا كان من الصعب إثبات ذلك دائماً نتيجة غياب التفاصيل الدقيقة لملامح هذا السياق، فإن من الصعب أيضاً نفيه بشكلٍ مطلق ونهائي. ولكن ما سيكون موضع اهتمام هذه الوقفة النقدية ليس الباعث أوالمحفّز على صناعة الصورة في مثنوي، أوتحديد نقطة انطلاقها، بقدر ما سيكون متابعة فعل التوسع الفني والجمالي في رسم ملامح الصورة.

يبرز صوت الرومي شاعراً صوفياً في نصوص مثنوي حينما يعمد إلى إخراج مادة النص الأولية (فعلاً أوقولاً معيناً) من الدلالة المقيدة، والمحدودة التي تضعه فيها القراءة السطحية، وإدخاله إلى آفاق الدلالات المولدة، دافعاً قراءة الحدث من الحدث في ذاته، إلى فعله في الحياة، وفاتحاً لمغاليق المعاني التجريدية باتجاه لغة تصويرية تحقق شعرية عالية للنص. يقول:

---

(1) المصدر السابق: ٣٥٩.

وينظر كذلك في مرجعيات الصورة لدى الرومي: أحاديث وقصص مثنوي: بديع الزمان فروزانفر، انتشارات أمير كبير تهران، جاب ٢، ١٣٨١ هـ. ش / ٢٠٠٢م: ١٣

«ختمهائی کانبیا بگذاشتند آن به دین احمدي برداشتند
قفلهاي ناگشاده مانده بود از دم «إنا فَتَحنا «بر گشود
اوشفیع است، این جهان وآن جهان این جهان در دین و، آنجا در جنان
این جهان گوید که: تورهشان نما وآنجهان گوید که: تومهشان نما
پیشه اش اندر ظهور ودر کمون اهد قومي، انهم لا یعلمون
باز گشته از دم اوهر دوباب در دوعالم دعوت اومستجاب
بهر این خاتم شدست او، که به جود مثل اونی بود و، نی خواهند بود»[1]

وترجمته:

«وذلك أن الأختام التي تركها الأنبياء قد رفعت بالدين الأحمدي

ـ كانت قد بقيت عنهم أختام لم تفتح، فكأنها فتحت بكف من نزلت فيه (إنا فتحنا)!!

ـ فهوشفيع لهذه الدنيا وتلك الدنيا، «يوجه هذه»الدنيا صوب الدين، والأخرى صوب الجنان!!

ـ وتقول هذه الدنيا: أبد لهم الطريق، وتقول تلك الدنيا: أبد لهم القمر!!

ـ وإن عمله في الظهور وفي الكمون، مصداقاً لقوله: (اهدِ قومي إنهم لا يعلمون)

ـ وبنفسه انفتح كلا البابين، ودعوته في الدارين مستجابة.

ـ ومن هنا صار «الخاتم»، فما كان له مثيل في الجود ولن يكون.»[2]وواضح فعل تشقيق الدلالات من لفظة (الختم) فهي ترسم ملامح خفوت الصوت، وربما انقطاعه تماماً لدى الأمم التي ارتحل عنها الأنبياء السابقون لنبوة محمد ﷺ، صورة الختم هنا تعكس واقعاً معرفياً واجتماعياً ونفسياً من حياة هذه الأمم في مقابل توالد الدلالات في لفظة (الفتح)، التي تؤدي وظيفة تعويضية عبر الانتقال إلى حالة مغايرة يكون فيها العبد المطيع المؤمن موضع عناية الله وشفاعة رسوله، والعبد المخالف مشمولاً بالعناية النبوية في الدنيا عبر الدعاء له بالهداية، وهوما يشير له المقطع المضمن من دعاء النبي

---

(١) مثنوي معنوي: مولانا جلال الدي مولوي، به كوشش دكتر. محمد رضا برزگر خالقي. تهران، انتشارات زوّار: ٨٣٥

(٢) مثنوي (الكتاب السادس): ٤٤.

ﷺ «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

إنَّ الفتح الظاهر في النص هو في حقيقته ملازم لفتح باطن كامن لعله فتح النفوس، وفتح القلوب قبل أن يكون فتحَ بابَي الدنيا والآخرة. ومن هنا تتشكل دلالة خاتمية الدين المحمدي للديانات السابقة، وتكون دلالة الختم هنا انفتاح طريق السالك لمواصلة السير إلى الله تعالى، وامتداداً يضمن للعبد وصولاً للقرب الإلهي إن جعل (الخاتم) ﷺ معلماً ودليلاً.

ويحرص الرومي على تأكيد هذا المعنى في أكثر الصور التي يرسمها للنبي ﷺ في (مثنوي)، فهو ﷺ أبرز مكافئ واقعي للشيخ الرباني والمعلم الكامل، من ذلك نقرأ له:

«خيز، بنگر كاروان ره زده هر طرف غولى است، كشتيبان شده
خضر وقتى، غوث هر كشتى توئى همچوروح الله مكن تنها روي
پيش اين جمعى چوشمع آسمان انقطاع وخلوتِ آن را بمان
وقت خلوت نيست، اندر جمع آى اي هدي چون كوه قاف و، توهماي»[2]

وترجمته:

«فانهض وانظر إلى قافلة قد عجزت في الطريق، وفي كل صوب غول قد صار ملاحاً.

ـ أنت خضر الوقت وأنت غوث لكل سفينة، فلا تمض وحدك (مثلما كان يمضي) روح الله.

ـ وأبق أمام هذا الجمع كشمع السماء، وابتعد عن الانقطاع والخلوة.

ـ إن هذا ليس وقت الخلوة فتعال إلى الجمع، يا من يكون الهدى بمثابة جبل قاف، وأنت بمثابة الطائر الملكي (البلُح») [3].

---

(١) السنن الكبرى: أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تح. محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، رقم الحديث (١٣٧٥) ص:٣٧٥

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٥٤٢ (شرح المترجم).

(٣) مثنوي (الكتاب الرابع): ١٦٣ ١٦٤.

ونلاحظ هنا أن الشاعر يستعمل التشبيه بجبل القاف، والعنقاء في ندائه للرسول ﷺ الذي وظف فيه النداء القرآني في سورة المزمل. ولكي يحافظ على الاتساق فيما بين طبيعة الهدى السماوية وبين المشبه به في الصورة الشعرية اختار الرومي (جبل القاف) و (العنقاء) ليصنعِ دلالة عمق كنه الهدى/ الدليل وعظم وجوده، وحلول النبي الأكرم في الهدى مقيماً مثلما يقيم طائر العنقاء في جبل قاف أوخلفه. وقد استقى الرومي مفردات صورته هنا من المأثور الفارسي؛ ففيه أن الأرض (وهنا يعادلها جبل القاف) يمسكها جبلان من الشرق ومن الغرب كلاهما كوتد الأرض.[1]

ويستثمر معطيات دلالة هذه النداء في كشف واقع الآخرين، أما صورة النبي ﷺ هنا فيجعلها الشاعر مشكاة تحضر فيها ملامح الأنبياء جميعاً وتتداخل، وفي هذا تركيز على دلالة فعل الهداية والخلاص؛ فحضور النبي خارج عن حدود الزمن، ممتد مع الحياة مثلما شاء الله تعالى ذلك للخضر عليه السلام، وهوسفينة نجاة وغياث كل غريق، لا تتوقف حركتها المنقذة للبشرية، وفي ذلك استيحاء لشخص النبي نوح عليه السلام. النبي في هذه الأبيات منظور إليه عبر رؤية مستصرِخة، تندبه بحرقة، وتطلب حضوره برجاء ولوعة:

«خيز در دم تو، به صور سهمناك تا هزاران مرده بر رويد ز خاك
چون تواسرافيل وقتى، راست خيز رستخيزي ساز، پيش از رستخيز
هر كه گويد: كوقيامت؟ اي صنم خويش بنما، كه قيامت نك منم
در نگر أي سائل محنت زده زين قيامت، صد جهان قائم شده
ور نباشد اهل اين ذكر وقنوت پس جوابِ الاحمق اي سلطان، سكوت
ز آسمان حق سكوت آيد جواب چون بود جانا، دعا نا مستجاب
أى دريغا، وقتِ خرمنگاه شد ليك روز از بخت ما بى گاه شد»[2]

وترجمته:

- «قم، وانفخ في الصور المهول، حتى ينبعث الآن الموتى من القبور.

---

(١) ينظر: مثنوي (الكتاب الأول): ٥٤٢

(٢) مثنوى معنوى (فارسى): ٥٧٨

ـ وما دمت إسرافيل الوقت، فانهض واقفاً، وأقم القيامة من قبل أن تقوم القيامة.
ـ وكل من يقول أين القيامة أيها المحبوب، أبد نفسك له قائلاً: ها أنا القيامة.
ـ وانظر أيها السائل الممتحن، فقد زيدت (على الكون) مائة دنيا من هذه القيامة.
ـ وإذا لم يكن من أهل هذا الذكر والقنوت، فجواب الأحمق أيها السلطان هوالسكوت.
ـ فمن سماء الحق يكون السكوت هوالجواب، عندما يكون الدعاء أيها الحبيب غير مستجاب.
ـ وا أسفاه لقد آن أوان الحصاد، ولكن اليوم من إدبارنا أخذ في الزوال.»[1]

لقد جعل الرومي من النداء مناسبة لإضاءة واقع الإدبار والنكوص والخور الروحي التي يعاني منها الإنسان الغافل، ومناسبة لاستكشاف أبعاد هذه الغفلة التي هي أشبه بواقع الموتى، وإذا ما أردنا أن نضيء مرجعيات هذا التصور في عقيدة الرومي فسنجده يجعل نموالإنسان الروحي وتكامله العبادي مرهوناً بمدى حاجته إلى ذلك. فإذا أراد أن يتكامل وينمو، فإن عليه أن يزيد حاجاته، فالشجرة تمد غصونها إلى الأعلى بحثاً عن النور والحرارة، وتشق جذورها أعماق الأرض بحثاً عن الماء، لكي تصبح شجرة صلبة ثابتة. والذين لا يطمحون بحاجاتهم إلى ما هوأسمى ولا يسعون إلى ما فوق حاجاتهم الجسدية، سيضطرون لاستبدال السعي من أجل حاجات سامية بحاجات دنية، ولن ينموا ولا يتكاملوا أبداً.[2]

وتعمل هذه الصورة على تكثيف حقيقة حياة الناس المنقطعين عن الله تبارك وتعالى، مثلما تعمل على رسم صورة للنبي ﷺ يكون فيها محض الخير والهدى، وبطريقة تعتمد التعظيم والتقديس الاستثنائي، وتكشف عن عمق صلة العشق والإقبال نحوه مربياً ومرشداً فـ «المولوي يرى تقدم الخاتم ﷺ على سائر الأنبياء تقدماً غائياً يكمن في وجوده الذي يجعله سيد (لولاك) في الإشارة القدسية من الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك»»[3].

---

(١) مثنوي (الكتاب الرابع): ١٦٥

(٢) ينظر: بيغام سروش: جمال هاشمي، ناشر شركت سهامي انتشار، جاب أول، ١٣٧٩: ٣٣.

(٣) التصوف والعرفان من منظار جلال الدين محمد المولوي: أ.د. حسين رزمجو، الدراسات الأدبية،

وترتبط هذه الصورة التي يرسمها جلال الدين للنبي محمد ﷺ بمفهوم (الإنسان الكامل)، إذ يكون تجلي الحق وظهوره في الإنسان الكامل من طريق اتحاد الظاهر والمظهر. فمن أجل هداية الخلق، ولإيصال النفوس البشرية نحوالكمال من غيب الوحدة إلى شهود الكثرة، يتجلى الحق تعالى في هيكل البشرية الناسوتي، ليجتذب بمقتضى الجنسية الجسمانية الخلائق ويكون هادياً لهم، فالإنسان الكامل هوعين الحق من طريق اتحاد الظاهر والمظهر، وذلك بوحدة التجلي، لا بالاتحاد الذاتي أوحلول الله في الهيكل الإنساني. وبعبارة أوضح: يكون ظهور الحق بمظهر بشري في مقام التجلي أوما يسمى في اصطلاح العرفاء بـ «الفيض المقدس».[1]

ويرى الرومي أن النبي ﷺ أجلى وأكمل مصداق للإنسان الكامل فهومتمم الأخلاق، والشخصية الربانية العظمية، التي ارتفعت بكل وجودها عن طينية الإنسان ومباهج الدنيا الزائلة. ويستغرب الرومي من ذوي البصيرة العمياء الذين يتهمون النبي بحب الدنيا والركون إليها. ولعل في المقطع الشعري / الحجاجي الآتي تجسيد لهذه المعاني:

«جهد پيغمبر به فتح مكه هم كی بود در حب دنيا متهم؟
آنكه اواز مخزن هفت آسمان چشم ودل بر بست روز امتحان
از پی نظاره اش حور جنان كرده پر آفاق هر هفت آسمان
قدسيان افتاده بر خاك رهش صد چويوسف اوفتاده در چهش
خويشتن آراسته از بهر اوخود ورا پرواي غير دوست كو؟
آنچنان پر گشته از اجلال حق كاندر اوهم ره نيابد آل حق

الجامعة اللبنانية بيروت، س٢، ع (٧ و٨) الربيع والصيف، عدد خاص عن جلال الدين محمد مولوي، ٢٠٠٣: ٣٨

(١) عقيدة المولوي حول أولياء الله أوالمصطفين الإلهيين: أ. جلال الدين همائي، الترجمة عن الفارسية: د. دلال عباس، الدراسات الأدبية، (المصدر السابق): ١٣٥ـ١٣٦.

مما يجدر ذكره أن شخصية الإنسان المتوازن الإلهي، وردت في شعر الشاعر سنائي الغزنوي المتوفى سنة ٤٣٥ هـ وكان يعد الرسول ﷺ الإنسان الكامل. ينظر: حديقة الحقيقه وشريعة الطريقه: ابوالمجد مجدود بن آدم سنائي غزنوي، به كوشش: دكتر عليمحمد صابري، رقيه تيموريان وبهزاد سعيدى، به سعی واهتمام مدرس رضوى، انتشارات سنائى، ١٣٥٤: ١٠٩.

لا يسع فينا نبى مرسـل والملك والروح ايضا فاعقلوا

گفت ما زاغيم، همچون زاغ نى مست صباغيم، مست باغ نى»[1]

وترجمته:

«وجهد الرسول ﷺ لفتح مكة، متى يكون سبباً لاتهامه بحب الدنيا؟!

ـ وهوالذي أغلق عينه وقلبه عن خزائن السموات السبع يوم الامتحان.

ـ ومن أجل النظر إليه، ملأ الحور والجان آفاق السموات السبع كلها.

ـ وقد زينت نفسها من أجله، فمتى كان لديه أدنى اهتمام بغير الحبيب؟!

ـ وذلك الذي امتلأ من إجلال الحق، بحيث لم يجد إليه حتى أهل الحق سبيلاً.

ـ «لا يسع فينا نبي مرسل، والملك والروح أيضاً فاعقلوا»

ـ قال: «ما زاغ «ولسنا كطير الزاغ، ونحن سكارى لا بالبستان بل بالصباغ.»[2]

تأخذ لغة الدفاع عن الرسول ﷺ هنا طبيعة حجاجية، من غير أن تسقط في جفاف الأقيسة، وتوجيه الحجج بطريقة منطقية صرفة، حيث تحافظ لغة الشاعر على حيويتها وشعريتها العالية. ويعتمد الرومي في قوله: («ما زاغ «ولسنا كطير الزاغ) بنية التجنيس، وما فيها من توافق صوتي ولفظي في بناء دلالة المغايرة، ويوظفها أداةً حجاجيةً يستثمر فيها قوله تعالى: «ما زاغ البصر وما طغى»النجم / ١٧ ويفسرها الصوفية «بأنه قد عُرض عليه الكونان فما زاغ بصره عن محبوبه... لقد كانت الدنيا هينة في نظره بكنوز الأفلاك والعقول... فكيف يطمع في ملك الأرض كلها؟!!»[3] ويعمل هذا التوظيف في اتجاه معاكس، يقلل فيه الشاعر من شأن المتهمين للرسول بالباطل، ويستوحي من حديث النبي ﷺ قوله: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[4] وهوحديث يرويه الصوفية في مجال الاستغراق والمشاهدة.

وهكذا يتوغل الشاعر في رسم شخصية الإنسان الكامل من الداخل متمثلة في

---

(١) مثنوى معنوي (فارسى): ١٩٩

مثنوي

(٣) مثنوي (الكتاب الأول): ٥٩٣، (شرح المترجم).

(٤) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تح. عبد الله الصديق وعبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ج١، رقم الحديث (٩٢٦) ص: ٥٦٥.

النبي ﷺ، ولا يمكننا استبعاد صوت الشاعر من هذا الحجاج والدفاع، وخصوصاً إذا ما وضعنا أمامنا ما تواجهه الصوفية والصوفيون من رفض ومحاولات تشويه من قبل بعض أفراد مجتمعاتهم، وبذلك يمكن أن ننصت لصوت الشاعر الخاص ونلمح حضوره إلى جانب صوت الحِجاج الشعري وهويدفع عن النبي التهم الباطلة.

من جانب آخر، يمكن أن نتوقف قليلاً عند بعد جمالي من أبعاد صناعة صورة النبي ﷺ في كتاب (مثنوي) يتجسد في حكائية النص الشعري، حيث أن جلال الدين الرومي اعتمد في كتابة أغلب النصوص الشعرية التي اتخذت من النبي وما يتعلق بحياته موضوعاً لها تقنيات قصصية. وهوفي ذلك ملتزم بالتعامل مع صورة النبي في مرجعياتها المعروفة والمرتبطة بسياقاتها التاريخية، لأسباب دلالية معينة، ويتوسع في التصرف بها عبر إعادة تدوين بعض تفاصيلها لغرض فني وفكري، ولهذا فإن قارئ هذا القصص الشعري سيلاحظ وجود أكثر من صوت في العمل الواحد. ثمة عدة أصوات داخل القصص، وهناك صوت الرومي نفسه الذي يفرض أحياناً سلطته على القصص شارحاً إياها بطريقة وعظية غايتها النصح والتهذيب، رغبة منه في تحقيق التلقي الأمثل لرسالة النص مضمونه في الدرجة الأولى وفهم الدرس الأخلاقي للقصص من قبل القارئ. ولكن القارئ لا يستمع إلى صوت الرومي التوجيهي فقط إنما إلى منطق القصص نفسه. إنه يمتلك فضاء التمتع وتلقي النصح عبر رمزية القصص الروائية وبنيتها؛ فالشعرية في هذه القصص واسعة الطيف، تؤثر في نفس القارئ حتماً. فهي ليست محصورة بالقصة الدينية فقط، بل مسلية وتلامس المشاعر وتحث على التفكير والتدبر. وهي في الوقت ذاته نص إسلامي تتعدد معطياته الثقافية، لأنه يتضمن مقتبسات من آيات القرآن ويحمل ملامح بعض الآثار الصوفية السابقة له. (١)

من هذه النماذج نقرأ:

«ديد پيغمبر يكى جوق اسير كه همى بردند وايشان در نفير

ديدشان در بند، آن آگاه شير مى نظر كردند در وي، زير زير

تا همى خائيد هر يك از غضب بر رسول صدق، دندانها ولب

زهره نى با آن غضب، كه دم زنند زانكه در زنجير قهر ده من اند

(١) ينظر: الشعرية في الخبرة الدينية: د. عزيز اسماعيل، دار الساقي بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ٨٦.

می کشاندشان موکل سوي شهر می برد از کافرستانشان به قهر
نی فدائی می ستاند، نی زري نی شفاعت می رسد از سروري
«رحمت عالم»همی گویند و، اوعالمی را می بُرد حلق وگلو»[1]

وترجمته:

«رأى الرسول ﷺ جماعة من الأسرى، كانوا يصحبونهم في ضجة وصخب.
- رآهم ذلك الأسد اليقظ وهم في القيد، وكانوا يسترقون إليه النظر.
- كان كل منهم يصر على أسنانه وشفتيه غضباً على رسول الصدق.
- لكنهم لم يجرءوا مع هذا الغضب على الحديث، ذلك أنهم كانوا في قيد الغضب الثقيل.
- كان حارس يسوقهم نحوالمدينة، كان يحملهم من ديار الكفر قهراً.
- كانوا يحدثون أنفسهم «إنه لا يقبل فداء أومالاً، ولا شفاعة من عظيم تؤثر فيه.
- إنهم يقولون إنه رحمة للعالمين، بينما هوفي الحقيقة يذبح عالماً»»[2]

إلى أن يقول:

«زآن نميخندم من از زنجيرتان كه بكردمي ناگهاني شبگيرتان
زآن همی خندم، که با زنجیر وغلِ می کِشمتان سوي سروستان وگُل
اي عجب! کز آتش بی زینهار بسته میآریمتان تا سبزه زار
از سوي دوزخ، به زنجیر گران می کشمتان تا بهشتِ جاودان
هر مقلد را در این ره، نیك وبد همچنان بسته به حضرت می کشد
جمله در زنجیر بیم وابتلا میروند این ره، بغیر اولیا
میکِشند این راه را پیکاروار جز کسانی، واقف از اسرار کار»[3]

وترجمته:

«فقال: لست من أجل هذا أضحك، أي من أجل أغلالكم أولأنني ظفرت بكم

---

(1) مثنوی معنوی (فارسی): ٥١٠
(2) مثنوی (الكتاب الثالث): ٣٨٢ ٣٨٣.
(3) مثنوی معنوی (فارسی): ٥١٤

فجأة.

ـ إنني أضحك لأنني بالقيود والأغلال.. أجركم إلى رياض أشجار السرووالورود.

ـ إنني أجركم من الجحيم إلى الخلد، وأنتم مقيدون بالقيد الثقيل.

ـ وكل مقلد في هذا الطريق طيباً كان أوشريراً، يجر مقيداً هكذا إلى الحضرة الإلهية.

ـ وكلهم يمضون في هذا الطريق وهم في قيود الخوف والابتلاء اللهم إلا الأولياء.

ـ إنهم يتحملون هذا الطريق كأنه السخرة، اللهم إلا أولئك الذين وقفوا على أسرار الأمر.

ـ فجاهد حتى يتألق منك النور، وحتى يهون عليك السلوك والطاعة.»[1]

في الحكاية الشعرية توظيف لرواية من السيرة النبوية، حول مناسبة الحديث النبوي الذي نصه: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل وهم كارهون»[2]. ولا تقدم الحكاية هنا منظوراً مختلفاً تماماً عما يرد في منظور الرواية في السيرة، غير أن الأهم في هذا التوظيف أنه يعمد إلى صناعة صورة الرسول ﷺ من الداخل، من خلال الاستغراق في استنطاق الحدث والحديث؛ مفيداً من الطاقة الدلالية الكبيرة التي يحملها الخطابان. ومن هذه الفائدة يحقق الشاعر فنيته في إعادة خلق المروي، ففي القصص الشعري التاريخي «يعمد الشاعر الذي يغدوسارداً إلى سوق أحداث حقيقية، إنما بطريقة تضيع فيها الحدود بين التاريخ والسرد، فتكون المرجعية المضامينية للحدث هي هذه الأحداث الحقيقة الواقعية، أما المرجعية الخطابية السردية فتكون الأدبيةَ وقوانينها،.... ومن ثمة تغلب على القصص الشعري الذي يسوق أحداثا حقيقية واقعية صفة الخطاب السردي أكثر مما تغلب عليه صفة الخطاب التاريخي.»[3]

يستبطن الرومي الأسارى المشركين عبر تقنية سردية هي: (المنلوج الداخلي)، فتكشف المقابلة القائمة على التضاد عن طبيعة تفكير هؤلاء، ونمط الصورة التي يرسمونها للرسول ﷺ:

---

(١) المصدر السابق: ٣٩١

(٢) صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي، تح. قاسم الشماع الرفاعي، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٦ / باب الجهاد ١٠١.

(٣) السرد العربي القديم، الأنواع والوظائف والبنيات: إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط١، ٢٠٠٨: ١٨٢.

(يقولون هورحمة للعالمين) (هوفي الحقيقة يذبح عالماً)

ليأتي البيان والكشف عن حقيقة تبسم رسول الله ﷺ على لسانه، فالمفارقة التي يضج بها المشهد تبعث على التعجب من طبيعة النفس البشرية الغافلة التي يصل بها العمى إلى حدًّ تشويه الحقائق والابتعاد عن سبيلها الواضح، فليس هناك حالة أكثر بؤساً يصل إليها الإنسان، وأعظم باعثاً على التعجب والاستغراب، من أن يقاد بالسلاسل إلى رياض النور والهداية.

على أن الصورة لا تقف عند هذا الحد في نظر مولانا، فهويقترب أكثر من جوهر الحدث، باحثاً عما يحتل فيه مركزاً دلالياً مشعاً، ويعمل على استنطاقه برؤية تأويلية صوفية؛ فالدلالة الباطنية لحديث النبي أكثر امتداداً مما هي في الظاهر، إذ جميع البشر صالحهم وطالحهم أسارى يقادون بالقوة إلى حضرة الحق جلَّ وعلا، مقيدين بقيود شتى من الخوف والذنوب والابتلاءات، يئنون تحت وطأة الشعور بالتعب والعناء، غير متذوقين لحلاوة الطاعة ولذة السير إلى الحضرة الإلهية، ولا يمكن أن يستثنى من بؤس هذه الحالة إلا من أدرك أسرار العبودية لله وجمال الانقياد إلى إرادته. ومن يمثل هؤلاء هم الأنبياء والأولياء والصالحون؛ الذين يراهم مولانا نواب الله وخلفاءه، وهم وسائل الخلق إلى الحق، متصلون بالحق، يبصرون ويبطشون ويسعون بعين الله وقوته لأنهم (مَثَل) الله، وهوالذي خصهم بذلك وفتح قلوبهم لنور محبته واصطفاهم للذيذ مناجاته.

الخاتمة

حرصت نصوص الشاعر الرومي على أن تنظر إلى النبي ﷺ بوصفه الإنسان الكامل الذي تتجسد فيه الشخصية الإلهية بكل معانيها، فهوالعارف الأكمل الذي يرى بعين الله، وهوالزاهد المترفع عن الدنيا وزخارفها الزائلة، وهوبعد ذلك كله الطريق الموصل للقرب الإلهي، ودليل السالك إلى محبة الله. ومن هنا اتصاله ﷺ بالحق وفناؤه عن الخلق، وحريٌ بصورته البهيَّةِ هذه أن تُقرأ باستمرار، ليفيد قارؤها من فيوضاتها الدائمة.

وتنعطف تجليات الملامح المرسومة للنبي ﷺ في مثنويات الرومي نحوالمعنى

الباطن، الذي لا تكف تفاصيل الصورة الظاهرة عن الإيحاء به والإشارة إليه، وهوما يفرض على كل مُقترَبٍ بحثيٍّ أنْ يتأملَ المُضمَر، ويحاول الكشف عنه. وقد أفاد الشاعر مما قدمته السيرة النبوية المطهرة من تفاصيل في تحقيق ذلك.

من الوسائل التي وظفتها المثنويات في تشكيل الصورة هي استثمار تقنيات السرد وطاقاته الجمالية؛ وقد تعددت الأصوات في بعض النصوص الشعرية التي تعتمد مبنى حكائياً، بطريقة لا يغيب عنها صوت السارد الذي غالباً ما يكون الشاعر ذاته، ويثري هذا النمطُ من التشكيل النصَّ بمحفزاتٍ للتفاعل مع الحدث المحكي، الأمر الذي يضاعف، من جانب آخر، فرصة تماهي قراءة الشاعر ورؤيته بوصفه صوتاً مشاركاً في الحدث مع أصوات النص الأخرى. وفي كل ذلك وجدنا بروز اتصال النصوص بسياقاتها وهوما يعني حرص الرومي على تحقيق عنصر مهم من عناصر التواصل مع المتلقي ولعل هذا ما دفع كثيرٌ من الباحثين إلى تغليب الغاية التعليمية سبباً في كتابة الرومي لمثنوياته.

وبعبارة أخيرة نقول: إن المجال الذي تفسحه الدراسات الصوراتية (صورة الآخر) في الأدب المقارن واسع للغاية، وتزداد معطيات هذا المجال سعة كلّما كان الآخر المرصود ذا حضورٍ فاعلٍ واستثنائي في الحياة، ولذا لا تخرج هذه الدراسة المتواضعة عن إطار المحاولة للاقتراب من ضفاف الشعر العرفاني وتأمل آفاق صورة النبي الأكرم ﷺ فيه.

والحمد لله رب العالمين.

الإعجاز العلمي
في حديث النبي محمد ﷺ

(الزواج بالأباعد نموذجاً)

أ. م.د عادل إسماعيل خليل
كلية الآداب - جامعة البصرة

أ. م.د عادل إسماعيل خليل

كلية الآداب - جامعة البصرة

الاستاذ المساعد الدكتور عادل اسماعيل خليل ، تدريسي في جامعة البصرة، كلية الاداب، قسم التاريخ، حصل على الماجستير سنة ٢٠٠٢ عن رسالته الموسومة «الزهد والتصوف في البصرة في القرن الاول الهجري» ، وحصل على الدكتوراه سنة ٢٠٠٩ م عن اطروحته الموسومة «التنشئة الاجتماعية في الاسلام» ، له من المؤلفات المطبوعة « مراكز انتاج المنسوجات والملابس وصناعاتها في المؤلفات الجغرافية» و « دور رواة قبيلة مزينة في الحديث النبوي الشريف» و« الكوارث الطبيعية في الدولة العربية الاسلامية» له مشاركة في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية.

الحمد لله مستحق الحمد، والصلاة والسلام على رافع لواء المجد سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أولي المكارم والسؤدد، ومن سار على نهجهم وبحبهم أُسعد.

جعل الإسلام العلم عنصراً أساسياً من عناصر التكوين العقائدي والاجتماعي والثقافي للمسلمين، وقد حث على طلبه وجعله فريضة من فرائض الدين الحنيف، وبين أن الاهتمام بالعلم كحصيلة مهمة وأولية لرفع المستوى الفكري والثقافي لأتباعه، لأنهم لن يتمكنوا من استخلاص علوم الشريعة دون الجد والدراسة والبحث والتقصي. وأشار الرسول ﷺ إن من عوامل الارتقاء بالمجتمعات والنهوض بها لا يتم إلاّ عن طريق العلم والتعلم وجعل الأفضلية بين العلوم المختلفة التي على الأفراد الحرص على طلبها هي العلوم الدينية فقد روي عن الشافعي [1] قوله: (العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان). [2]

ومن خلال هذا الرأي فقد كان لحديث الرسول ﷺ قيمة كبيرة ومنزلة عظيمة عند المهتمين بدراسة العلوم الدينية والشرعية، فضلاً عن المعنيين بدراسة العلوم الطبية والبشرية بتحقيق وتوثيق وتطبيق ما في حديث الرسول ﷺ من أثر في هذا المجال. ولأهمية هذا الموضوع يمكن تسليط الضوء على أبرز الانجازات العلمية التي إكتشفها العلماء والأطباء اليوم من خلال تلك الأحاديث الشريفة والتي سبق الرسول ﷺ علماء الغرب في إثبات أثرها وتأثيرها على الأشخاص وصفاتهم

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، إماماً ثقةً عدلاً مأموناً، أخذ عن مالك ومسلم بن خالد الزنجي وطبقتهما، صاحب مذهب فقهي كبير، توفي بمصر عام ٢٠٤هـ. الذهبي: العبر، ١/ ١٧١؛ اليافعي: مرآة الجنان، ٢/ ١١.

(٢) ابن عبد ربة: العقد الفريد، ٦/ ٣٢٢؛ السلمي: طبقات الصوفية، ١/ ٣٥٩؛ ابن مفلح: الآداب الشرعية، ٢/ ٣٥٢.

وخصالهم ألا وهوعلم الوراثة، وانتقال تلك الصفات من الآباء إلى الأبناء عن طريق الزواج والاقتران بين الرجل والمرأة، وللوقوف على أبرز تلك الانجازات وما أكد عليه الإسلام في هذا الباب، وصحة ما قاله الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في الآثار الايجابية والسلبية وما أجريت من نظريات وأبحاث علمية نوضحها فيما يأتي:

المطلب الأول- التأكيد على الزواج بالأباعد

شرع الإسلام الزواج لما فيه من فضيلة وخير كثير لأنه يحاكي الفطرة الربانية والإنسانية لبني البشر عموماً، وهوالسبيل الأمثل لتكوين الأسرة وبناء المجتمعات، ولكونه يساعد على الاستقرار النفسي والعاطفي وعاملاً أساسياً في تكوين النسل واستمراره، وهوحاجة طبيعة في الحيوان والنبات والإنسان إذ تنبع منذ تكوينه الخاص، فمثلما يحتاج إلى الماء والطعام لحياته ونموه يحتاج في سنوات معينة من عمره إلى الزواج، إذ يشعر كل من الفتى والفتاة لدى بلوغهما إلى ميل عاطفي وغريزي إلى الجنس الآخر قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون). [١]

وقد وضع الإسلام قواعد وشروط لذلك الزواج، فضلاً عن ذلك أكد على مسألة الاختيار أن تكون وفق ما يرتضيه الشرع والدين والأخلاق ولم يغفل جانب الذوق والإعجاب وطيب الأعراق.

لذلك نجد أن الإسلام نبه إلى مسائل مهمة في مسألة إختيار الزوجة التي يريد الرجل الارتباط بها، وفضّل المرأة الأجنبية على النساء ذوات النسب والقرابة، حرصاً على نجابة الولد وضماناً لسلامة جسمه من الأمراض السارية والعاهات الوراثية، وتوسيعاً لدائرة التعارف الأسرية، وتمتيناً للروابط الاجتماعية. فقد قال الرسول ﷺ: (اغتربوا ولا تضووا). [٢] أي تزوجوا من الغرائب دون القرائب، ففي هذه الحديث تحذير واضح من قبل الرسول ﷺ من خطورة الاقتران بالأقارب، خشية انتقال

---

(١) سورة الروم، ٢١.

(٢) المالكي: المجالسة وجواهر العلم، ٨/ ٤٦؛ الماوردي: أدب الدنيا، ١/ ١١٥؛ابن الأثير: النهاية، ٢/ ٨١٦.

الأمراض وبعض الصفات الذميمة عن طريق الوراثة إلى الأبناء، حفاظاً على سلامتهم من جانب، وسلامة المجتمع من جانب آخر.

لقد حرص الرسول ﷺ أن يكون أبناء أمة الإسلام سليمين من الأمراض صحيحي البنية والأعضاء، حتى يكونوا بقدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وينهضوا برسالتها بهمة ونشاط، بعيداً عن الكسل والخمول والإحباط، الذي يرافق المرض والعاهات. لأن الله عز وجل فضل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف. ومن الأحاديث المهمة التي أثبتت علمياً واجتماعياً تأثيراتها على الأبناء قوله ﷺ: (لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يُخلق ضاوياً). [1] وضاوياً تعني نحيفاً هزيلاً مريضاً.

ويبدوأن الهدف من ذلك هوالمصلحة العامة للأمن الأسري والاجتماعي، لأن الإسلام دين واقعي يتعامل مع الحياة والأشياء بعلمية ومنطقية عالية لبناء جيل واعي قوي يحمل العقيدة ويدافع عنها، ويعمل على بناء الأمة وتقدمها ورقيها. إن ما أشار به الرسول ﷺ في مسألة الاغتراب في اختيار شريك الحياة، لضمان مستقبل سعيد وجميل للأطفال دون خوف أوكدر أوأمراض أوأعراض يقول الدكتور عبد الله ناصح علوان: (ففي هذا تزداد أجسامهم قوة، ووحدتهم تماسكاً وصلابة، وتعارفهم سعة وانتشاراً). [2]

من نافلة القول إن هذا الموضوع له أثر كبير في التنشئة السليمة للأبناء، لأن الزواج أثبت علمياً أنه يساعد بنسب أكثر على نقل الصفات الوراثية من أمراض وغيرها التي تشكل بمجموعها خطراً على سلامة الأبناء إذ يقول أحد علماء الاجتماع: (يجب ألاّ يغيب على البال أنه قد تظهر بعض الخواص الوراثية تبعاً للبيئة وعلى العكس فقد تختفي بعض الصفات في أحد الأجيال وتقف نهائياً وقد تستمر الصفات الحادثة في الانتقال من جيل إلى جيل وهذه العملية تسمى بالطفرة، والتي لم يتوصل بعد إلى عللها الواقعية). [3]

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين، ٢/ ٢٩؛ ابن الأثير: المصدر نفسه، ٢/ ٨١٦.

٦- تربية الأولاد في الإسلام، ١/ ٣٩.

(٢) تربية الأولاد في الإسلام، ١/ ٣٩.

(٣) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية، ١/ ٦٣.

في حقيقة الأمر أن الرسول ﷺ أوضح تلك العلل وبين تلك الأسباب، لمّا أشار إلى مخاطر الزواج من القريبات، أومن امرأة في أسرتها أوأقاربها بعض الأمراض الخطيرة والمعدية أوالعاهات المشوهة والمؤثرة خَلقياً وخُلقياً.

ويعد الرسول ﷺ أول من اكتشف هذه الحالة قبل أن يتوصل علماء أوربا إلى ذلك بعد جهود مضنية ولسنوات طويلة، ولوأبصروا قليلاً بما نطق به الرسول ﷺ لاكتشفوا حقائق مروعة وبراهين ناطقة منذ زمن بعيد.

ومن الأحاديث التي أذهلت العالم اليوم ما أشار اليه الرسول الأعظم من خطر الاقتران بالأقارب في النسب فقال ﷺ: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس). [1]، ودسّاس تعني أن الصفات الوراثية والخصال الخُلقية تنتقل من الآباء إلى الأبناء. وليس هذا فقط بل سماتهم الشخصية وعاداتهم أيضاً،إذ تنتقل تلك السمات التي يحملها الآباء والأجداد إلى الأبناء من الزواج بالوراثة، فهذا الحديث ينوه إلى قانون الوراثة ويعبر عنه بلفظة (العِرق)، ويفيد الزمخشري: أنه يقال عَرق فيه أعمامه وأخواله وأعرقوا أي ورث صفاتهم. [2]فقد أكد النبي ﷺ أهمية تلك المسألة في نفسية الفرد وتكوينه من الناحية الصحية والأخلاقية إذ قال: (الناس معادن والعِرق دسّاس، وأدب السوء كعرق السوء). [3]

كما قال ﷺ: (اختاروا لنطفكم المواضع الصالحة). [4]، أي على الشخص التحري عن المرأة ذات الأصل العريق التي لا يشوبها شيء في سمعتها وأخلاقها فضلاً عن سلامتها وصحتها من أي مرض قد يجر تبعاته على الأبناء.

وتأكيداً على أهمية هذا الجانب في نشأة الأبناء وسلامتهم البدنية والخلقية فقد نصح الرسول ﷺ أحد أصحابه فقال: يا أبا فلان.. وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العِرق دسّاس). [5]

---

(١) ابن ماجة: السنن، ١/ ٣٢٩؛القضاعي:مسند الشهاب، ١/ ٣٧٠: الغزالي: المصدر السابق، ٢/ ٥٩.

(٢) ينظر أساس البلاغة، ص٤٩٦.

(٣) أبو الشيخ الأصبهاني: أمثال الحديث، ١/ ٢٠١؛ البيهقي: شعب الإيمان، ١٣/ ٣٤٩.

(٤) الدارقطني: السنن، ٤/ ٤٥٧؛ ابن الجوزي: العلل المتناهية، ٢/ ٦١٣.

(٥) ابن الاعرابي: المعجم، ٢/ ٥٠١، البيهقي: المصدر السابق، ٧/ ٤٥٥؛القضاعي: المصدر

فالنبي ﷺ من هديه يوصي المسلمين بأن لا يتغافلون عن قانون الوراثة، وما إلى هذا العامل من تأثير مباشر على النشيء في صفاتهم الخَلقية والخُلقية، لذلك عليهم إذا رغبوا في الزواج أن يتفحصوا التربة الصالحة التي يريدون أن يبذروا فيها بذورهم لكي يتربى الأبناء في صحة جسمية ونفسية جيدة من جهة، كما أن اختيار الزوجة الأجنبية تورث الأبناء صفات أخلاقية حميدة فينشئوا على الفضيلة، ولا يرثوا الصفات الذميمة المعهودة بين الأقارب أنفسهم من جهة أخرى.

وفي ذلك يقول الشاعر:[1]

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة مخافة أن يضوى عليّ سليلي

لذلك يتوجب على الشباب اليوم المقبل على الزواج أن يجعل نصب عينه حديث النبي ﷺ في الابتعاد عن الزواج من القريبات إذ يقول أحد علماء النفس: على الشباب المقبل على الزواج بأن يحسن الاختيار الظاهري وأن يعمل في نفس الوقت حساب العوامل الوراثية، وفي هذا الصدد ينصح علماء الوراثة بعملية الفحص قبل الزواج في فرص الاختيار بخصوص انتحال صفة معينة من الأجداد أوالوالدين إلى الأولاد.[2]، مما يكدر صفوحياتهم وينغص عيشهم.

من الجدير بالذكر تستطيع جميع الأحياء بضمنهم الانسان من إنتاج أجيال مشابهة لهم فيشبه الجيل أجداده السابقين إذ تنتقل لهم صفات النوع وبعض الصفات الفردية أيضاً ويتم انتقال هذه الصفات بالوراثة، وتحدث عملية الانتقال هذه من الخلايا الجنسية (الكاميتات)، ومع تشابه الفرد مع آبائه وأقربائه، فإنه يحمل صفات فردية خاصة به تميزه عن غيره من سائر الناس.[3]

ولوتتبعنا تعاليم الإسلام في تحريمه الزواج من الأصول والفروع والأطراف لعلمنا الحكمة من ذلك، وكذلك نجد أنه عندما انفرد بالتحريم من الرضاع،لم يكن عبثاً وإنما لحكم إلهية جليلة تصب فائدتها لمصلحة الانسان نفسه، وذلك لأنه في فترة الرضاع

السابق، ١/ ٣٧٠.

(١) الماوردي: المصدر السابق، ١/ ١١٥.

(٢) زهران: علم نفس النمو، ص٩١.

(٣) عبد الرحمن القيسي وآخرون: علم النفس التربوي، ص٤١.

يكون اللبن عاملاً في نشوء العظم ونبات اللحم وبذلك فإن الذي يشارك الطفل بالرضاع يحمل سمات النموالحيوية نفسها: (فقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجريت حديثاً وجود أجسام في لبن الأم المرضعة مما يترتب على تعاطيه تكون أجسام مناعية في جسم الرضيع، فعندما ترضع تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعة، وبالتالي تكون مشابهة لأخيها أولأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية الخاصة ولقد وجد أن هذه الجسيمات المناعية يمكن أن تؤدي إلى أعراض مرضية عند الأخوة في حالة الزواج.[1]

ورب سائل يسأل أن الرسولﷺ نبه إلى فوائد الابتعاد عن القريبات في النسب: كبنات العم والعمة والخال والخالة، لكنه تزوج من ابنة عمه زينب بنت جحش[2]وزوج ابنته فاطمة الزهراء ﷺ من ابن عمه علي بن أبي طالب u.

والجواب على ذلك إن زواج الرسولﷺ واختياره لنسائه لا يتم إلاّ بمشيئة إلهية وحكمة ربانية، فضلاً عن زواج ابنته الزهراء من الإمام عليu فقد تدخلت فيه الإرادة الإلهية وهذا ما أكدته كتب الحديث.[3]

إذ أن الزواج منهن إذا تكرر أجيالاً يثمر أضراراً صحية ونفسية وعقلية حتى اشتهر على ألسنة الفقهاء والأطباء والشعراء حكمة الابتعاد عن زواج الأقارب، وأطبقوا على إن ذلك يخلق الولد ضاوياً. فقد قال أحدهم:[4]

فتى لم تلده بنت عم قريبـــة فيضوي وقد يضوي رديد الأقارب

وقال آخر: [5]

أنذر من كان بعيد الهم   تزويج أولاد بنات العـــم

فليس ناج من ضوى وسقم

---

(١) متولي: الموسوعة الأم في تربية الأولاد،١/ ٥٢٦.

(٢) هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن ضبيرة بن مرة بن أسد بن خزيمة، وكانت قبله أن تتزوج من النبي تحت زيد بن حارثة وقصتها مشهورة في القرآن، توفيت في سنة ٢٠ هـ. ابن عبد البر: الاستيعاب، ٢/ ٥٢٥؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ٦/ ١٢٩.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير، ١٠/ ١٥٦؛ الآجري: الشريعة، ٥/ ٢١٢٩.

(٤) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، ص٨٨.

(٥) أبو حيان التوحيدي: المصدر نفسه، ص٨٨.

وأوضح الإمام الغزالي رأيه في هذه المسألة من الناحية العلمية: من الخصال التي يجب مراعاتها في المرأة أن لا تكون من القرابة القريبة إذ يخلق الولد ضاوياً - أي نحيفاً- كذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة، إذ تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يُضعف الحس عند تمام إدراكه والتأثر به.[١]

ويفيد الشيخ محمد رضا: وهذ الأمر أشبه بزراعة الأرض مما هومتعارف عليه عند الفلاحين أن الأرض التي تزرع بنوع واحد من الحبوب يضعف هذا الزرع مرة بعد أخرى، ولوزرع ذلك الحب في أرض أخرى، وزرع في هذه نوع آخر من الحب لنمى كل منهما بشكل جيد.[٢]

المطلب الثاني- الإسلام وقانون الوراثة

في واقع الأمر أن الوراثة هي ميل طبيعي للفرع لمشابهة أصله في تكوينه الجسماني وفي وظائف أعضائه.[٣]، والتحليل العلمي للوراثة هوأن الانسان في بدء حياته وتكوينه إنما هوخلية صغيرة واحدة تسمى (يجوت) وهذه الخلية هي أعجب ما في الكون ومن أغمض الأسرار وأدقها، وتدل على عظمة قدرة الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة وهي تنشأ من نتيجة عملية اخصاب بين خليتين هما- في غاية الدقة- البويضة والحيوان المنوي وعندما تتحد هاتان الخليتان تنتجان نواة فرد جديد. وفي تلك اللحظة يقض بأن سيكون ذكراً أوأنثى، طويلاً أوقصيراً، ذكياً أوغبياً، عسلي العينين أوازرقهما، ففي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميزات ولا يمكن أن تتغير.. فالوراثة إذن هي مجموعة المميزات التي تتركز في البويضة المخصبة.[٤]

واكتشف الاسلام ظاهرة الوراثة قبل أن يكتشفها علماء الأحياء ودلل على كثير من من آثارها وميزاتها، وإن لها دخالة إيجابية في التكوين السليم وعدمه للإنسان، فهي

(١) للمزيد من التفاصيل ينظر المصدر السابق، ٥/ ٥٩.

(٢) تفسير المنار، ٥/ ٢٦-٢٧.

(٣) القرشي: النظام التربوي في الإسلام، ص٤٧.

(٤) القرشي: المصدر نفسه، ص٤٨.

تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه وحتى بلوغه فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (الشقي شقي في بطن أمه والسعيد سعيد في بطن أمه...).[1]، ومعنى الحديث أن العوامل الوراثية تمنح الانسان وهوفي بطن أمه إما السعادة إن توفرت في آبائه الصفات الفاضلة والنزعات الكريمة، أوالشقاء إن كانت طباعهم شريرة.. وكذلك الصفات العارضة تنتقل بالوراثة إلى الأبناء.[2]

ونذكر هذه القصة التي أثبت من خلالها الرسول ﷺ عبقريته العلمية وحكمته الطبية وأسبقيته البحثية على العالم عندما بين أثر العوامل الوراثية التي تنتقل عن طريق الزواجِ من الأجداد مهما علت واضحة بارزة في ذرياتهم على مر الزمن فقد روي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ فقال: (هذه ابنة عمي وامرأتي لا أعلم منها إلاّ خيراً، وقد أتتني بولد شديد السواد، منتشر المنخرين جعد أفطس الأنف، لا أعرف شبهه في أخوالي ولا في أجدادي، فقال لامرأته ما تقولين؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أقعدته مقعده مني منذ ملكني أحد غيره، فنكس رسول الله ﷺ رأسه ملياً ثم رفع بصره إلى السماء، ثم أقبل على الرجل فقال: يا هذا إنه ليس من أحد إلاّ بينه وبين آدم تسعة وتسعون عِرقاً كلها تضرب في النسب، فإذا وقعت النطفة في الرحم اضطربت تلك العروق التي لم يدركها أجدادك ولا أجداد أجدادك، خذي إليك ابنك، فقالت المرأة: فرجت عني يا رسول الله).[3]

وفي رواية أخرى يقرب الرسول ﷺ الصورة لذلك الرجل عله يفهم ويقتنع ويزيل الشك من رأسه بطريقة علمية دقيقة وراقية فقال له: (هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما لونها؟ قال: حمرٌ، قال: هل بها أورق؟ - أي لونه رمادياً- قال: إن فيها أورقاً، قال: فأنى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عِرق).[4]

ويريد الرسول ﷺ من خلال هذا الحديث أن يوضح بأن الجمل الأورق المولود

(١) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ١/ ٢٦؛الطبراني: المعجم الكبير، ٣/ ١٧٦؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٧/ ٩٣.

(٢) القرشي: المصدر السابق، ص٥١.

(٣) الكليني: الكافي، ٥/ ٥٦١؛ ابن فهد الحلي: المهذب البارع، ٤/ ٢٧؛ الحر العاملي: وسائل الشيعة، ١٥/ ٢١٨.

(٤) البخاري: الصحيح، ٥/ ٢٠٣٢؛ مسلم: الصحيح، ٢/ ١١٣٧؛ البزار: المسند، ١/ ٢١٦.

من أبوين حمراوين، يعود لعرق عال من عروق سلسلة أجداده السابقين، أي أن صفة اللون يحملها عن أجداده وبهذا فقد خالف أبويه في الشكل.

فقد ورد على لسان الإمام جعفر الصادق u ما يعلل ذلك فقال: (إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين أبيه آدمu ثم خلقه على صورة أحدهم فلا يقولن أحدهم هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي). (١)

لذلك يقول الباحث الاجتماعي بيرون: (إن ابني وهومنسوب إلي، ولكني أرى أجداده الماضين ينازعوني هذا الملك العزيز لديّ، فإنهم يشوهون طهارة نفسه، ويشوهون صفاء روحه بما رسب في أعماقهم من نزعات شريرة مجهولة، انتقلت إليه بالوراثة). (٢)

وقد حذر الأطباء من مخاطر الزواج بين الأقارب لما قد يسببه هذا الزواج من انتقال بعض الأمراض إلى الأولاد فقالوا: (تعتبر الوراثة مسؤولة عن تكرار ظهور بعض الأمراض في عائلات معينة بنسبة أكثر من تواردها في غيرها، وخاصة في العائلات التي يكثر فيها التزاوج بين الأقارب من أفرادها ومن أمثلة هذه الأمراض: مرض سيولة الدم، ومرض عمى الألوان، والضعف العقلي الذي يطلق عليه مصطلح - العقة المنغولي وكذلك بعض أنواع السرطان). (٣)

كما أن الدراسات الخاصة بالوراثة الحديثة أثبتت أن الزوجين إذا كانا من أسرة واحدة انتقل إلى أولادهما بالوراثة جميع الصفات الوراثية السيئة التي تختص به أسرتهما لوجودهما في الأصلين ظاهرة أومستكنة، على حين أنهما إذا كانا من أسرتين مختلفتين فإنه يندر أن يتحدا في صفة وراثية سيئة، بل تكون صفاتهما الوراثية متنوعة في العادة، فيقابل نواحي الضعف في أحدهما نواحي قوية في الآخر فيحدث بذلك التعادل فيما ينتقل إلى أولادهما بالوراثة فينشأ هؤلاء الأولاد متوازين الصفات معتدلين في نواحيهم الجسمية والعقلية والخلقية.(٤)

---

(١) ينظر الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص٢١١.

(٢) حليم نجار أفندي: الزواج بين الأقارب، ٢/ ١٦١.

(٣) حامد عبد العزيز الفقي: دراسات في سيكولوجية النمو،ص٧٠.

(٤) علي عبد الواحد وافي: الوراثة وقوانينها، ص٥٦٣-٥٦٤.

وقد أثبت علمياً أن الأبناء يرثون الصفات الجسمية من آبائهم ويدلل ذلك وجود الشبه الجسمي بين أفراد الأسرة الواحدة حيث أن نسبة التشابه بين الآباء والأبناء في الجسم تزداد بزيادة السن، وإن هذا التشابه بين الجنس نفسه أكثر منه مع اختلاف الجنس، وإن التشابه بين الأم والبنت أكثر منه بين الأب والابن.[1]

لقد نظر الرسول الكريم ﷺ إلى أبناء المجتمع بعين الرحمة لذلك حذر من مخاطر ذلك الزواج الذي قد يفضي إلى مخاطر لا تحمد عقباها والتي تصدم فيها الأسرة مستقبلاً كما في مرض فقر الدم البحري (الثلاسيميا) الذي ينتشر في مجتمعاتنا بالوقت الحاضر بشكل مخيف نتيجة الزواج بين الأقارب، والذي يمنى المصابين به بأمراض مروعة يكون غالباً نهايتها الموت المبكر.

فضلاً عن ذلك فقد صرح الطب الحديث: بأن الزواج من القريبات إذا تكرر أفضى لأخطار عديدة منها عدم القدرة على الانجاب، أوموت الذرية المسرع أوحياتها المشوهة، بل وقد يفضي إلى انقراض الأسر المبتلات به.. وحسبنا أن الزواج من القريبات يساعد على استعصاء الأمراض الموروثة، إذ قد يحمل الأب جذور وراثة مرض ما، وتحمل الأم (ابنة عمه) مثلاً تلك الجذور نفسها فينقلانها مبكراً لطفلهما.[2]

وقد ذكر الإمام الشافعي: أن من عيوب الزوجين القريبين أن الجذام[3]، والبرص[4] يُعدي، وقال: إن ولد المجذوم قلما يسلم منه، ومعناه أن الولد قد ينزعه عرق من الأب فيصير أجذم.[5]

ومن الأمور التي نذكرها في هذا المجال لتوضيح مخاطر الزواج من الأقارب أن عمر بن الخطابt سأل يوماً عن قصر قامات قريش، فقيل له: إن ذلك بسبب تزويجهم بنات أعمامهم، فقال: صدقتم، اغتربوا فتزوجوا البعداء فأنجبوا.[6]

---

(١) حامد عبد العزيز الفقي: المصدر السابق، ص٨؛ صبحي المعروف: علم النفس التربوي، ص٢١.

(٢) الزغبي: المرأة وكيف تنجب ذكراً، ص٢٥.

(٣) الجذام: علة تصيب الجسم تتآكل منه الأعضاء وتتساقط. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، ١/ ١١٣.

(٤) البرص: داء معروف وهو بياض يظهر على ظاهر البدن. الزبيدي: تاج العروس، ١٧/ ٤٨٦.

(٥) الدميري: حياة الحيوان، ١/ ٧.

(٦) ابن عبد ربة: المصدر السابق، ٣/ ٢٧٦.

وفي رواية أنه رأى بني السائب نحفاء البنية فقال: (يا بني السائب: قد ضويتم، فأنكحوا في النزائع – أي الغريبات). [1]

وعلى المجمل إن الأبناء يرثون الوالدين في خصائصهم وصفاتهم الجسمية والعقلية والنفسية، وكذلك يرثون أجدادهم وقد دلت الروايات الصادرة عن أهل البيت ﷷ أن الفرد يرث الخصائص والصفات الجسمية من آبائه وأجداده جميعهم وهذه يعرفها العلماء بالطفرات الوراثية.

ولم تتوقف الوراثة على انتقال الأمراض العارضة للأبناء بل قد تنسحب إلى الأخلاق والسجايا فتؤثر في شخصيتهم وكيانهم فقد قال الإمام عليؑ: (حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق). [2]، وهذا القول يثبت اكتشاف أثر الطهارة العائلية من السجايا الحميدة والخصال الكريمة.

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة من أن وراثة المولود لا يحدد أثرها أبواه المباشران فقط، بل قد يرث من آباء أجداده الأباعد، كما ثبت علمياً أن مصطلح العِرق يقابله في الاصطلاح المعاصر الجينات التي تحملها الصبيغات الكروموسومات التي تحتويها نواة الخلية الناجمة عن البويضة الانثوية المخصبة في الحيوان المنوي الذكري. [3]

ويقول الشيخ رضا: (إنما الخلف والسلف في الصفات والأخلاق سواء، لأن الآباء ترث الأبناء). [4]

لقد تبين من خلال الدراسات العلمية التي أجريت مؤخراً أن السجايا الأخلاقية من الصفات الحميدة أوالرذيلة تنتقل بالوراثة إلى الأبناء، فالآباء الذين يمتازون بالشجاعة والكرم وحسن الخلق، ينجبون أولاد شجعان وكرماء وذوي أخلاق فاضلة، وقد يكون العكس من ذلك.

خلاصة القول إن ما وصلنا عن رسول اللهﷺ من أحاديث تدعوصراحة أبناء

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ٤/ ٣؛ التجاني: تحفة العروس، ص٦٨.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ١/ ٨٠٢.

(٣) زهران: المصدر السابق، ص٣٦.

(٤) ينظر المصدر السابق، ٦/ ١٠-١١.

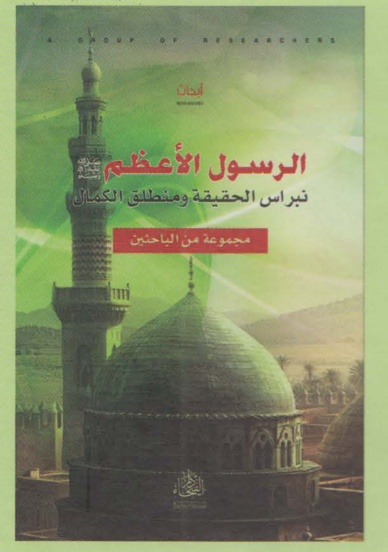
المسلمين إلى تجنب الزواج من القريبات لكونه أثبت علمياً أثرها على النشء وعلى سلامتهم وصحتهم وإن حماية المجتمع من ظهور أشخاص مصابين بعاهات وأمراض وراثية ونفسية قد تجر ويلات وحسرات على أسرهم ومجتمعهم من أثر ذلك الارتباط.
وهذا الإعجاز العلمي المكتشف قد سبق به الرسول ﷺ دول العالم الغربي منذ ألف وأربعمائة عام والذي من خلاله أخذوا يشيدون بعظمة الإسلام وعظمة رسول الإنسانية وبرهنوا على صدق رسالته مما دفع الكثير منهم إلى الدخول في الاسلام.

الفهرس

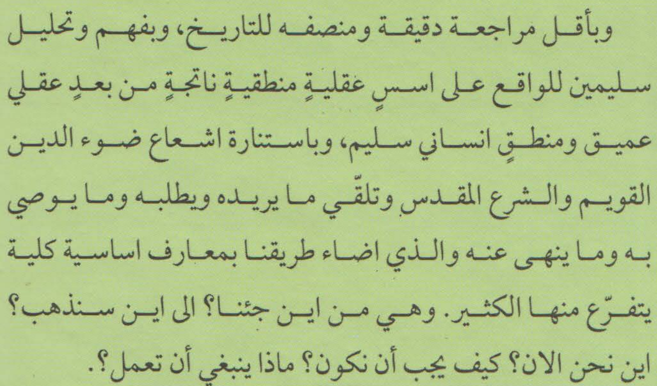
THE GREATEST MESSENGER
LANTERN OF REALITY AND SPRINGBOARD TO PERFECTION

أبحاث

RESEARCHES



في رحاب ذكرى ولادة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله- نجتمع؛ لأن النبي محمد بما يحملُ من حقيقةٍ وصلةٍ ومحبّةٍ ورسالةٍ يجمعنا ويوحدنا، فهو الهادي والحبيب، وهوالوصل بالسماء والعدالة في الأرض فمولده هو المُنعطَف الذي يؤرخ للبشرية سمات الانسانية والكمال والرفعة، تلك البشرية التي عمّتها الفرقة والتمزُّق لتهب لها تلك الولادة الشريفة الامل بالوحدة والوئام.



وبأقل مراجعة دقيقة ومنصفه للتاريخ، وبفهم وتحليل سليمين للواقع على اسسٍ عقليةٍ منطقيةٍ ناتجةٍ من بعدٍ عقلي عميق ومنطقٍ انساني سليم، وباستنارة اشعاع ضوء الدين القويم والشرع المقدس وتلقّي ما يريده ويطلبه وما يوصي به وما ينهى عنه والذي اضاء طريقنا بمعارف اساسية كلية يتفرّع منها الكثير. وهي من اين جئنا؟ الى اين سنذهب؟ اين نحن الان؟ كيف يجب أن نكون؟ ماذا ينبغي أن تعمل؟.

وقد قامت مؤسسة شهيد المحراب بطبع أبحاث وقائع مؤتمر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي انعقد في البصرة بالتعاون مع جامعة البصرة، ليبقى اثراً ثابتاً يستفيد منه من يريد أن ينتفع منها، إسهاماً في التوعية والتعبئة اتجاه الثقافة السليمة.



